

الفتوح العربية الكبرى

كيف غير انتشار الإسلام العالم الذي نعيش فيه



1287

تأليف

هيو كينيدي

ترجمة وتقديم وتعليق

قاسم عبده قاسم



يطرح هذا الكتاب السؤال ويجيب عنه، والسؤال الذي يطرحه الكتاب: لماذا؟ وكيف؟ لماذا كان نجاح المسلمين سريعاً وواسع النطاق بحيث فتحوا معظم أنحاء عالم القرنين السابع والثامن الميلاديين في غضون قرن من الزمان تقريباً؟ وكيف تمكنوا من تحويل الفتح إلى تغيير دائم في مصائر المناطق والشعوب؟

هذان السؤالان الجوهريان، وما يتفرع عنهما بالضرورة من أسئلة، هما اللذان تدور فصول الكتاب حولهما. والكتاب مناقشة علمية مذهشة لجميع جوانب هذين السؤالين؛ ويطرح المؤلف أفكاراً جديدة مذهشة حول قيمة المصادر التاريخية العربية، وما تحمله من سرديات ومعلومات تعبر عن رؤية النخبة الإسلامية لنفسها زمن تدوين هذه الروايات.

المركز القومي للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١٢٨٧
- الفتوح العربية الكبرى (كيف غير انتشار الإسلام العالم الذي نعيش فيه)
- ميونخ كينيدي
- قاسم عبده قاسم
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨

هذه ترجمة كتاب :

The Great Arab Conquests

How the Spread of Islam Changed the World We Live In

by : Hugh Kennedy

© Hugh Kennedy 2007

“ First published by weidenfeld & Nicolson Ltd, London ”

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة .

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

E.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

الفتوح العربية الكبرى

كيف غير انتشار الإسلام العالم الذي نعيش فيه

تأليف : هيو كينيدي

ترجمة وتقديم وتعليق : قاسم عبده قاسم



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كينيدى ، هيو
الفتوح العربية الكبرى (كيف غير انتشار الإسلام العالم الذى
نعيش فيه) / تأليف : هيو كينيدى ؛ ترجمة وتقديم وتعليق :
قاسم عبده قاسم ؛ ط ١ - القاهرة ، المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٨
٥٦٨ ص ؛ ٢٤ سم
١ - التاريخ الإسلامى .
٢ - انتشار الإسلام .
(أ) قاسم ؛ قاسم عبده (مترجم ومقدم ومعلق)
(ب) العنوان
٩٥٣

رقم الإيداع ٢٠٠٨/٢٢٨٦٨
الترقيم الدولى ١ - 969 - 437 - I.S.B.N. 977
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة
للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها
فى ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

7	مقدمة المترجم
11	إهداء
13	شكر واعتراف بالجميل
15	مقدمة المؤلف
29	تصدير : ذكرى أشياء ماضية
58	١ - أسس الفتوح
101	٢ - فتح الشام وفلسطين
145	٣ - فتح العراق
201	٤ - فتح مصر
245	٥ - فتح إيران
285	٦ - داخل المغرب
319	٧ - عبور نهر جيحون (أموداريا)
357	٨ - الطريق إلى سمرقند
409	٩ - المشرق الأقصى والمغرب الأقصى
445	١٠ - الحرب في البحر
473	١١ - أصوات المقيدين
499	١٢ - خاتمة
517	هوامش
519	ملحق الصور
537	ملحق الخرائط

مقدمة المترجم

هذا الكتاب يطرح السؤال ويجيب عليه. والسؤال الذى يطرحه الكتاب هو: لماذا؟ وكيف؟ لماذا كان نجاح المسلمين سريعاً وواسع النطاق بحيث فتحوا معظم أنحاء عالم القرنين السابع والثامن الميلاديين فى غضون قرن من الزمان تقريباً؟ وكيف تمكنوا من تحويل الفتح إلى تغيير دائم فى مصائر المناطق والشعوب؟.

هذان السؤالان الجوهرىان ، وما يتفرع عنهما بالضرورة من أسئلة، هما اللذان تدور فصول الكتاب حولهما. والكتاب مناقشة علمية مدهشة لكافة جوانب هذين السؤالين؟ ويطرح المؤلف أفكاراً جديدة مدهشة حول قيمة المصادر التاريخية العربية وما تحمله من سرديات، ومعلومات تعبر عن رؤية النخبة الإسلامية لنفسها زمن تدوين هذه الروايات. كما يربط بين هذه الروايات التى حملتها المصادر العربية عن حركة الفتوح الإسلامية، وما جاء فى المصادر الأخرى المعاصرة؛ وفى هذا كله يعتمد المؤلف على النصوص الأصلية على نحو يكشف عن اطلاعه الواسع على المصادر العربية ومعرفته الواعية بالشعر العربى الذى يستشهد به فى كثير من الأحيان. وعلى الرغم من أن استشهاده بالكثيرة بالمصادر العربية ودواوين الشعر العربية قد زادت من عبء الترجمة ومشاقها؛ فإنها كانت ذات قيمة كبيرة فى تنوير النص الأصيل وتدعيمه.

ومن ناحية أخرى، فإن فهم المؤلف للمصادر العربية جعله يفهم تاريخ الفتوح الإسلامية على نحو يخالف التيار السائد فى البحث التاريخى الأوروبى والأمريكى. وهو أيضاً، ينطلق من أرضية علمية وأكاديمية واعية لا تشوشها عوامل الهوى، ولا تضعفها علامات الموقف المسبق والانحيازات الثقافية، أو العداء السياسى ضد الإسلام والمسلمين.

فالمؤلف "هيو كينيدي" رجل يسعى وراء الحقيقة التاريخية سعياً موضوعياً حسبما تكشف صفحات هذا الكتاب المدهش؛ وفي سعيه هذا بحثاً عن الإجابة المناسبة للسؤال "لماذا؟" والسؤال "كيف؟" يتناول المؤلف جوانب تاريخ حركة الفتوح الإسلامية كافة، وهو في تناوله هذا يطوف بنا أرجاء العالم الذي فتحه المسلمون: الشام والعراق ومصر وبلاد المغرب وشبه جزيرة أيبيريا، وإيران، وبلاد ما وراء النهر وحوض نهر السند في شبه القارة الهندية.

ويكشف المؤلف عن عدد من الحقائق المهمة في هذا الموضوع؛ كيف كانت معظم هذه الفتوح "فتوحاً سلمية"؛ فقد كانت المعارك التي جرت في غمار حركة الفتوح الإسلامية قليلة ودارت حول بعض المدن والحصون في معظمها؛ على حين كانت فتح مناطق كثيرة يتم "صلحاً". ومن ناحية أخرى، كانت كثير من المناطق التي تم فتحها ترى في الفاتحين المسلمين سادة أفضل من سادتهم القدامى؛ ولذلك فإن السكان عموماً اتخذوا موقفاً محايداً، أو ساعدوا المسلمين أحياناً كما حدث في مصر وفي أعالي العراق،...، وغيرها.

ومن الطبيعي ألا يتخذ المؤلف موقف الرجل المسلم؛ ومن هنا لا يصح لنا أن نطلب منه أن يتحدث بلسان المسلمين، أو يؤمن بدينهم ونبيهم ويدافع عن مواقفهم، ويتبنى قضاياهم. ويؤدي هذا بالضرورة إلى أن نختلف معه في بعض الأحيان. كما أن المؤلف، بطبيعة الحال، ابن ثقافة أخرى ترى الأمور بمنظور مختلف؛ وهو ما يتسبب في اختلاف وجهات النظر حول بعض جوانب تاريخ الفتوح الإسلامية. وقد أدى ذلك إلى أن نقوم بإثبات نقاط الاختلاف في مكانها وفي حينها، وليس من المنطقي أن نكرر هنا الآراء التي اختلفنا فيها مع المؤلف وإن كنا نعترف له بالفضل والعلم والمعرفة الواسعة بالموضوع الذي تصدى لدراسته والبحث فيه.

ومن ناحية أخرى، فإن الكتاب الذي نقدمه في ترجمته العربية للمرة الأولى، يعتبر إضافة مهمة في مجاله الذي يحتاج إلى المزيد من البحث والدراسة، وربما يكون حافزاً لكل من يبحث من أبناء اللغة العربية لدراسته من منظور موضوعي، ينأى بنفسه بعيداً

عن الخطابية والحماسة الفارغة والتبنى الكامل لكل ما جاء فى المصادر التاريخية العربية من روايات عن الفتوح الباكرة، دونما نقد أو تحليل أو استخدام لأدوات البحث التاريخى العلمى. لقد بحث المؤلف، ودرس موضوعه بشكل جدى، وجاءت النتيجة إيجابية بشكل مدهش، وبغض النظر عن نقاط الاختلاف معه - التى أثبتناها فى تعليقات موجزة - فإن الكتاب يمتاز على كتب كثيرة فى مجاله كتبها باحثون غربيون فى أجيال سابقة وفى الجيل الحالى؛ ووجه الامتياز يتمثل فى درجة الموضوعية العالية التى تنطق بها صفحات الكتاب الكثيرة.

أما عن الترجمة، فإن متاعبها ومشاقها معروفة لكل من يكابدها؛ ولا حاجة بنا لأن نثقل بها على القارئ الكريم؛ ولكن ترجمة كتاب من هذا النوع تتطلب الرجوع إلى المصادر التى نقل عنها المؤلف النصوص التى استخدمها لى ينسج منها تلك السرديات المدهشة التى ضمنها فصول الكتاب، وقد رجعت إلى دواوين الشعر وإلى المصادر التاريخية الضرورية لى نورد النصوص الأصلية التى اعتمد عليها المؤلف، وقد راعيت أن تكون الترجمة فى لغة عربية سلسلة بقدر الإمكان، وقد ساعدنى على هذا أن لغة النص الأصلى تتسم بالسهولة والبساطة التى تدل على اقتدار المؤلف، وأرجو أن أكون قد حققت الهدف الذى سعيت إليه فى هذه الترجمة، كما أرجو أن يسامحنى القارئ فى مواطن الخطأ والزلل.

وإننى إذ أعلن عن سعادتى بترجمة هذا الكتاب الذى كان بالنسبة لى شخصياً سياحة علمية ممتعة، أرجو أن يكون ذا فائدة بالنسبة للقارئ العربى، وأن يجد فيه المتعة والفائدة التى لقيتها.

دكتور قاسم عبده قاسم

الإهداء

إلى .. C J G

حييتي

شكر واعتراف بالجميل

أدين بالكثير من الفضل للناس الذين ساعدوني وساندوني في كتابة هذا الكتاب . بل إن الكتاب يدين بوجوده كلياً لجورجينا كابل كابل ولاند Georgina Capel of Capel & Land التي اقترحت بداية أن أتناول موضوع الفتوحات الإسلامية الباكرة الواسع، فلها شكرى. كما أنني ممتن للغاية لمؤسسة ليفرهولم ترست Leverhulme Trust بسبب جائزة زمالة الدراسة التي ساعدتني على الإعداد لهذا العمل . وأحسُّ بالامتنان ، أيضاً ، لزملائي في مدرسة التاريخ بسانت أندروز الذين وفروا لى، على مرَّ السنين ، بيئة فكرية مساندة وأحاطوني بقدر كبير من الصداقة الطيبة. وأود أيضاً أن أشكر بينى جاردينر Penny Gardiner المحررة التي حررت الكتاب فى ويدينفد ونيكولسون. فهذا هو الكتاب الثالث الذى عملنا فيه معاً وأدين لها بالكثير لمهارتها وحماستها ، كما أشكر توم جريفز Tom Graves على ما قام به من عمل فى الصور والرسوم . وعلاوة على هذا فإنه بحب على أن أعترف بالجميل لمشاركة أولئك الأصدقاء وأفراد العائلة الذين ساندوني فى هذا العمل الذى استحوذ على أحيانا وشغلنى طوال الوقت . وإنى لشاكر لهم فضلهم للغاية وممتن لصبرهم وتفهمهم .

مقدمة المؤلف

فى ثمانينيات القرن السابع الميلادى، كان هناك راهب حنا بارينكايا يؤلف ملخصاً لتاريخ العالم فى دير النائى بالقرب من نهر دجلة سريع الجريان ، تحتضنه الجبال التى تقع الآن فى جنوب شرق تركيا . وعندما وصل إلى كتابة تاريخ الزمن الذى يعيش فيه استغرق فى تأمل الفتحة العربى للشرق الأوسط، الذى كان لا يزال ماثلاً فى الذاكرة . وعندما فكر فى هذه الأحداث الدرامية انتابته الحيرة فسأل نفسه «كيف يمكن لرجال عراة ، يركبون دونما درع أو ترس، أن يتمكنوا من الانتصار ... ويحطوا من شأن روح الكبرياء الفارسية؟» . وقد صدمه أكثر أنه «لم تمر سوى فترة زمنية قصيرة حتى تم تسليم العالم بأسره إلى العرب؛ لقد أخضعوا كل المدن الحصينة، وفرضوا سلطانهم من البحر إلى البحر، ومن الشرق إلى الغرب - مصر ، ومن كريت إلى قبادوقيا، ومن اليمن إلى أبواب آلان (فى القوقاز) ، والأرمن، والشوام ، والفرس ، والبيزنطيين والمصريين ، وكافة المناطق فيما بينها : «كانت أيديهم فوق الجميع» كما يقول النبى».

وبالنسبة لحنا بارينكايا ، الذى كان راهباً تقياً ، كانت الإجابة واضحة: إنها إرادة الرب. لم يكن هناك آخر يمكن أن يفسر هذه الثورة الخارقة للعادة تماماً فى أمور البشر . والآن ، بعد ثلاثة عشر قرناً من الزمان، فى عالم لا يكون التدخل الإلهى تفسيراً كافياً للتغيرات التاريخية الكبرى بالنسبة لكثير من الناس، تأتى محاولة اقتراح أنماط مختلفة من الإجابات على السؤال الذى طرحه حنا .

يهتم هذا الكتاب بثلاثة موضوعات رئيسية . أولها قصة أحداث الفتوح الإسلامية بقدر ما يمكننا إعادة بنائها . ويتخذ الكتاب شكلاً سردياً صريحاً . إنه حكاية تحكى

كيف أن عدداً صغيراً من الرجال نوى العزم والإيمان الراسخ قد استطاعوا تغطية مساحات شاسعة ، عبر أراضى قاحلة غير قابلة للسكنى ، وأن يقهروا إمبراطوريات وممالك عظمت وأن يحكموا أراضيتها (من غير المحتمل أن يكون أى جيش من الجيوش العربية الإسلامية قد زاد عن عشرين ألف رجل عدداً ، وكثير من هذه الجيوش كانت أصغر كثيراً) . إنها حكاية الشجاعة والجسارة ، بيد أنها أيضاً حكاية القسوة والتدمير . وأمل أن يعطى هذا الكتاب، الذى يصدق فى اعتماده على الأدلة والبراهين ، بعض الانطباع عن هذه الأحداث الحيوية.

والموضوع الثانى هو استقرار العرب بعد الفتح ، أين عاشوا وكيف استغلوا الموارد الهائلة التى آلت إليهم. وهذا بدوره يثير موضوع كيف استطاع العرب الحفاظ على هويتهم وثقافتهم الخاصة فى خضم بحر من الغرياء الذين كانوا معادين غالباً ، ووفروا فى الوقت نفسه بيئة شجعت الكثير من أبناء البلاد المفتوحة على اعتناق الإسلام، وفى منطقة الهلال الخصيب، ومصر ، وشمال أفريقيا ، اتخذوا العربية لساناً. هذه العملية أساسية لفهم عملية خلق هوية عربية إسلامية والحفاظ عليها بحيث أنها لا تزال سائدة فى الكثير من الأراضى التى فتحت فى هذه الفترة.

وأخيراً ، إنه كتاب عن الذاكرة وخلق الذكريات. ولانكاد نملك سجلات أو أوصاف معاصرة تماماً للفتوح الإسلامية. إذ إن جميع الروايات التى وصلت إلينا قد مرت عبر عدة مراحل من التحرير والمراجعة وإضافة معلومات جديدة وأحياناً زائفة . وقد مال مؤرخون آخرون إلى استبعاد الكثير من هذه المادة لأنها ليست سجلاً دقيقاً لما «حدث بالضبط» . وفى الحقيقة ، إنها مثيرة تماماً باعتبارها تعبيراً عن الذاكرة الاجتماعية ، وعن الكيفية التى أعاد بها المسلمون بناء ماضيهم وشرحوا مجئ الإسلام إلى المناطق التى يعيشون فيها الآن. ويمكن أن نخرج من التحقيق فى أسس الأساطير التى تدور حول الجماعة الإسلامية المبكرة ، بالكثير عن رؤية المسلمين للعالم فى القرن الأول من التاريخ الإسلامى.

ولقد حاولت أن أقدم رواية عن تاريخ الفتوح العربية الإسلامية فى الشرق الأوسط والعالم الأوسع، كما حدثت بين وفاة النبى محمد سنة ٦٣٢م وسقوط الخلافة الأموية فى سنة ٧٥٠م. وتاريخ البداية واضح بما فيه الكفاية. وعلى الرغم من أن جنود الفتوح تضرب فى تربة السياسات والأفعال التى قام بها النبى فى حياته، فإنه لم يحدث حتى وفاته أن بدأت الجيوش الإسلامية فى غزو الأراضى خارج شبه الجزيرة العربية. أما تاريخ النهاية فهو أكثر اعتباطاً ، لأنه يغفل بعض الفتوح المهمة - فتح صقلية وكرت على سبيل المثال - ولكن فى المصطلح الواسع، فإن حدود العالم المسلم كما أرسيت بحلول سنة ٧٥٠م بقيت دونما تغيير بدرجة كبيرة حتى التوسع فى الهند حوالى سنة ١٠٠٠م.

كان للفتوح العربية أثر كبير على التاريخ الإنسانى، كما أن نتائج هذه السنوات المضطربة قد شكلت العالم الذى نعيش فيه اليوم. بيد أنه لا يوجد شيء حتمى حول الهوية العربية/ الإسلامية للشرق الأوسط. وفى سنة ٦٣٢م، كان الإسلام محصوراً فى نطاق أبناء القبائل الناطقين بالعربية الذين يعيشون فى شبه الجزيرة العربية والحواف الصحراوية لبلاد الشام والعراق. كان معظم أهل الشام يتحدثون اليونانية أو الآرامية ؛ وفى مصر كان السكان يتحدثون اليونانية أو القبطية ؛ وفى إيران يتحدثون الفهلوية؛ وفى شمال أفريقيا يتحدثون اللاتينية ، أو اليونانية، أو البربرية . ولم يكن منهم مسلمون . وفى مصر وشمال أفريقيا ، وهى الأراضى التى نفكر فيها الآن باعتبارها إسلامية خالصة ، لم يكن هناك مسلمون ولم يكن هناك بالفعل من يتحدث العربية ، ويصدق الشيء نفسه على إيران وأفغانستان. ومدى التحول وسرعته أمر يثير الدهشة ؛ ففى غضون مائة سنة من وفاة النبى، كانت هذه البلاد جميعاً، إلى جانب إسبانيا ، والبرتغال، وأوزبكستان ، وتركمانستان ، وجنوب باكستان (السند) ، تحت حكم نخبة مسلمة من الناطقين بالعربية ، وفيها جميعاً كان السكان المحليون قد بدأوا اعتناق الدين الجديد.

وسرعة الفتوح الإسلامية مذهلة ، ولكن كانت هناك فتوح سريعة أخرى فى مجرى التاريخ الإنسانى يمكن أن نقارنها بها على نحو ما . وترد إلى الذهن مباشرة فتوح الإسكندر الأكبر وچنكيز خان . وما يجعل الفتوح العربية الإسلامية لافتة يتمثل فى بقاء الأثر الذى أحدثته على اللغة والديانة فى الأراضى المفتوحة . وإسبانيا والبرتغال البلدان الوحيدان اللذان تم فتحهما فى تلك الفترة ثم طُرد المسلمون منهما؛ وعلى النقيض نفكر الآن فى مصر باعتبارها مركزاً رئيسياً للثقافة العربية وفى إيران باعتبارها حصن الإسلام المتشدد .

ومن الواضح أن مثل هذا التغير السريع والهائل يحتاج إلى بحث وتحقيق تاريخى ، بيد أن الأدب المكتوب الذى يمكن تناوله عن الموضوع محدود ومقيد للغاية . ويرجع هذا جزئياً إلى الحدود الإقليمية فى المهنة التاريخية. ذلك أن الكتاب المرجعى الرئيسى The Cambridge Ancient History على سبيل المثال، ينتهى بالجلد السادس ، الذى يقف بنا عند اغتيال الإمبراطور موريس سنة ٦٠٢ ميلادية . ويبدأ The Cambridge History of Islam ، بطبيعة الحال ، بحياة النبى محمد ودعوته . وتنعكس الفجوة على نحو أشد اتساعاً فى الطريقة التى يتم بها تعليم التاريخ والبحث فيه فى الجامعات الحديثة: إذ إن التاريخ الكلاسيكى/ القديم منفصل عن التاريخ الوسيط / الإسلامى. وهذا بدوره ناتج جزئياً من عواقب التقسيم اللغوى: فالمؤرخون يميلون إلى الانقسام ما بين أولئك الذين يمكنهم استخدام المصادر اللاتينية واليونانية من ناحية ، وأولئك الذين يستخدمون العربية والفارسية من ناحية أخرى؛ وقلائل وأنا لست منهم بالتاكيد، يشعرون بأنهم قادرين وماهرون فى كل المصادر .

كما أن طبيعة المصادر كانت قد أدت أيضاً إلى إثناء المؤرخين عن محاولة تقديم سرد جرسور وواضح عن هذه الأحداث التى هزت العالم. وربما يستمتع المؤرخون بالجدل حول التفسيرات والمقاربات ولكن عندما يتعلق الأمر بتواريخ الأحداث المهمة ونظامها، فإن المؤرخ يلتمس الدقة. وفى قصة الفتوح العربية الكبرى هناك أسئلة أساسية عن الحقيقة ، أو نظام الأحداث فى فتح بلاد الشام، مثلاً، أو تاريخ معركة القادسية فى العراق، وهى أمور لا يمكن ببساطة أن نكون على يقين فيها . وفى هذا

الكتاب حاولت بناء سرد مقبول للأحداث الرئيسية ، ولكن سيكون من الخطأ أن نزع أن هذا هو إعادة البناء الوحيد الممكن، أو أن نخفي حقيقة أنني قمت باختيارات وأحكام قامت أحيانا على أساس من الاحتمال والترجيح بقدر ما كانت مبنية على أساس من الأدلة الراسخة.

وهناك أيضا ما يمكن للمرء أن يسميه، إذا ما استخدمنا تعبيراً شائعاً معاصراً ، الفيل فى الغرفة : فالموضوع ببساطة كبير جداً وواضح جدا لدرجة أن المؤرخين يترددون فى تناوله ، ويفضلون العمل فى مشروعات أصغر حول حواف الغرفة حيث يشعرون بالراحة فى تخصصهم. وربما يكون مستحيلاً ، وربما يكون تهوراً وحماسة أن يحاولوا، بيد أن هذا الكتاب محاولة لوصف هذه المعضلة التاريخية ودراستها .

وفى عملى هذا أقف على أكتاف العمالقة . إذ إن هذا الكتاب ولا خجل يستغل ويأخذ من الأبحاث العلمية التى تمت فى العقود القليلة الماضية . ومع المخاطرة بأن أكون انتقائياً بشكل غير ملائم ، يجب أن أبرز الكتب التالية ، الفتوح الإسلامية الباكورة لفريد دونر. Fred Donner, The Early Islamic Conquests ، والعراق بعد الفتح الإسلامى ، لمايك مورونى Mike Morony, Iraq after the Muslim Conquests ، وكتاب والتر كايجى Walter Kaegi عن التاريخ العسكرى، وكتاب ديك بوليير Dick Bullier عن التحول إلى الإسلام ، وما كتبه روبرت هويلاند Robert Hoyland عن آراء غير المسلمين فى الإسلام الباكر ، وعمل لارى كونراد Larry Conrad وتشيس روينسون Chase Robinson فى مجال التدوين التاريخى. وقد اعتمدت أيضا على أعمال الأجيال القديمة من المؤرخين ، والتى لا تزال تحمل الكثير الذى تعلمه لنا - هاملتون چب وما كتبه عن الفتوح العربية فى وسط آسيا ، وفاسيلى فلاديميروفيتش عن تركستان ، وألفرد بتلر عن فتح العرب لمصر . وأدين أيضا لهؤلاء ، وغيرهم من الباحثين الأحياء منهم والأموات، بديون ستتجلى واضحة لأى واحد على ألفة بالمجال.

هذا كتاب تاريخ سردي، ويعتمد بشدة على المصادر السردية . وقد ناقشت طبيعة هذه القصص وتكوينها بقدر من الإطالة فى المدخل، ولكن ينبغى أن أقول كلمات قليلة عن كيفية تناولى لها . فالحكايات عن الفتوح الإسلامية الباكورة مثقلة بالارتباك

وعدم إمكانيتها ، وغالباً ما يكون من المستحيل قبولها على ما هي عليه . وقد مال الباحثون حديثاً إلى تناول هذه الحكايات بطريقتين : إما رفضها باعتبار أنها بلا قيمة يعول عليها لعدم دقتها ولاتستحق اهتمام المؤرخين الجادين ؛ أو ينتقون منها ما يريدونه من التفاصيل ، والأسماء والأماكن وما إلى ذلك. وقد حاولت القيام بشيء مختلف اختلافاً يسيراً: أن أقرأ القصص واستخدمها من أجل ما تحاول أن تخبرنا به؛ أن أعمل مع التيار وليس ضده ، أن أعتلى أمواج السرد لكي تحملني معها. ولايعنى هذا قبول الروايات العربية الباكورة باعتبارها سجلات دقيقة «لما حدث بالفعل» ، ولكن قبولها باعتبارها انعكاسات للذاكرة الاجتماعية الإسلامية في القرنين السابع والثامن الميلاديين واستخدامها كما هي .

وثمة حالة خاصة في الموضوع تتمثل في استخدام الكلام المباشر . إذ إن الروايات العربية الباكورة مليئة بتسجيلات لحادثات وقطع بلاغية وغالباً ما اقتسبتها في الكلام المباشر . ولاينبغي أن نأخذ هذا على أنه يعنى أنني أصدق أن هذه الكلمات قد قيلت فعلاً في المناسبة التي يصفها الكتاب . وعلى أية حال ، فهناك أسباب قوية لاتخاذ هذه المقاربة . ذلك أن الخطب غالباً ما تكون الوسيلة التي يتم بها عرض وجهات النظر المختلفة في المصادر بالتفصيل. فأوصاف مجالس الحرب ، مثلاً ، تتيح للكاتب مناقشة الموضوعات والخيارات التي واجهت الجيوش الإسلامية ، لكي يبين لماذا فعلوا ما فعلوا ولاستكشاف الطرق التي لم يتم اتخاذها . والسبب الثاني هو الرغبة في بيان طبيعة المادة العربية وأن أكون صادقاً تجاهها ، لاسيما بالنسبة للقراء الذين ليسوا على ألفة بهذا المجال، وأن أعطي نسيجاً وتنوعاً لما يمكن أن ينقلب إلى سرد ممل جاف .

هذا الكتاب محاولة لرواية قصة أحد أهم التغيرات التي جرت في تاريخ العالم، وهو تغير أثرت نتائجه تأثيراً شاملاً في العالم الذي نعيش فيه اليوم. وقد حاولت أن أجعله سهل القراءة ، بل مسلياً ، بالنسبة للطلاب والقارئ العام على السواء . ولاشك في أن الباحثين سوف ينتجون في المستقبل أعمالاً أكثر اكتمالاً ، وأكثر شمولاً ، وأكثر روعة ؛ ولكن إذا كان هذا العمل يثير تأملات أوسع في هذه الأحداث الباقية فإنه يكون قد أوفى بالغرض منه.

المصطلحات والشروط

يهتم هذا الكتاب بفتح الأراضى الإسلامية المركزية على أيدي جيوش المسلمين فى القرن الذى أعقب وفاة النبى محمد سنة ٦٣٢م. ولكى أوضح الموضوعات فمن المهم أن أحدد بعض المصطلحات . «فالفتح» قد يبدو للوهلة الأولى مصطلحاً غير مثير للجدل، ينطوى على خضوع فريق ما لفريق آخر من خلال استخدام القوة العسكرية . وعلى أية حال ، فإن الأمور قد تكون أشد تعقيداً . وتستخدم المصادر العربية مصطلح «فتح» لوصف عملية الاستيلاء على أراضى الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الفارسية . وأصل الكلمة فى اللغة العربية من فعل «فتح»، ولكن الفتح فى الأدبيات التى تتحدث عن الفتوح الإسلامية ينطوى على استخدام القوة بشكل واضح . وكان يمكن أن يتخذ الفتح عدة أشكال مختلفة وهو ما حدث بالفعل . فمن ناحية يعنى النهب العنيف والوحشى لمدينة ما، وسلب ثروتها وإعدام الكثير من المدافعين عنها أو قتلهم جميعاً. ونهب اصطخر فى فارس أو بيكند فيما وراء النهر مثالان واضحان على هذا. ولكن الفتح غالباً ما كان عملية أكثر سلمية . إذ كان على الناس فى الريف أن يوافقوا على الشروط المفروضة، التى كانت تضمن عادة دفع الجزية والوعد بعدم مساندة أعداء المسلمين. وكانت الموافقة تتم بسبب استخدام القوة، أو قبول السيادة . فالكثير من المناطق الجبلية الأشد وعورة فى إيران، وشمال أفريقيا، وإسبانيا لا بد أن تكون قد «فتحت» دون أن يقوم أى عربى بزيارة المنطقة ، لأنهم لم يكونوا قد استقروا بعد بالقدر الذى يتيح لهم حكمها وجباية ضرائبها. لقد كان «الفتح» يعنى أشياء مختلفة لأناس مختلفين فى أماكن مختلفة فى أزمنة مختلفة.

الفتح ، والاستيطان واعتناق الإسلام

كانت الفتوح الإسلامية الباكرة تعنى فرض نخبة سياسية ودينية جديدة على الأراضى المفتوحة . وغالباً ما كان الفتح متبوعاً بعملية استيطان تتم فيها إقامة أعداد من العرب، وكثير منهم من أصول بدوية ، إقامة دائمة فى الأراضى المفتوحة، وغالباً فى

مدن جديدة تأسست خصيصاً لهذا الغرض. وبينما حدث الفتح والاستيطان بسرعة نسبياً ، واكتمل فى الشرق الأوسط سنة ٦٥٠م بدرجة كبيرة ، كان اعتناق الشعوب الخاضعة للدين الإسلامى عملية بطيئة استغرقت وقتاً طويلاً ، ولم يحدث حتى القرن العاشر والقرن الحادى عشر أن تحولت غالبية السكان إلى الإسلام . ولم يستغرق الفتح والاستقرار سوى عقد واحد من الزمان؛ أما اعتناق الغالبية للدين الإسلامى فقد استغرق ثلاثمائة سنة.

العرب والمسلمون

يمكن تحديد مصطلح العرب بشكل مفيد وبسيط على أنه يعنى كل من كانت العربية لسانه. وفى سنة ٦٣٢م كان العرب يسكنون شبه الجزيرة العربية وصحراء الشام وأطرافها . وبينما كانت الفتوح تمضى قُدماً صار المزيد من الناس من الناطقين باللغة العربية ، كما أن كثيراً من الناس الذين لم تكن تجرى فى عروقهم «دماء عربية» صاروا من المتحدثين بالعربية باعتبارها لغتهم الأصلية. وفى كثير من المناطق التى جرت فيها عملية الامتزاج بين الفاتحين والمقيمين بسرعة أكبر من غيرها ، كانت الفروق بين العرب وغير العرب قد باتت غير واضحة مع نهاية القرن الهجرى الأول.

فى سنة ٦٣٢م كان جميع المسلمين تقريباً من العرب، وفى السنوات الأولى من الفتوح يمكن أن نستخدم مصطلح عرب ومصطلح مسلمون بالتبادل لوصف جيوش الفتح . وعندما نتحرك صوب أواخر القرن السابع وبواكير القرن الثامن الميلاديين، سيكون مثل هذا الاستخدام مضللاً على أية حال . ولم يكن العرب يشكلون سوى نسبة من الجيوش المسلمة التى فتحت شمال أفريقيا وإسبانيا وآسيا الوسطى، ولم تكن العروبة هى التى حددت تعريف هذه الجيوش، حتى لو كان القادة عرباً وكانت لغة القيادة والإدارة اللغة العربية ، ولكن هويتها باعتبارها جيوش الإسلام؛ أى أن الهوية الدينية حلت محل الهوية العرقية.

وإذا لم يكن كل المسلمين عرباً ، فإن العرب لم يكونوا كلهم مسلمين أيضاً . فقبل ظهور الإسلام ، كان عدد كبير من العرب قد اعتنقوا المسيحية ، لاسيما فى تلك المناطق من صحراء الشام التى كانت حدودها مشتركة مع الأراضى البيزنطية . وقد احتفظ بعضهم بديانتهم المسيحية بعد الفتوح ، وكان وضعهم بمثابة مشكلة أمام المشرعين المسلمين فى القرن الثامن الميلادى : هل ينبغى معاملتهم معاملة الشعب الخاضع ويدفعون ضريبة الرأس الكريهة أم يجب معاملتهم مثل العرب المسلمين ؟ فى بعض الحالات ثم التوصل إلى حل وسط حيث كانوا يدفعون الزكاة فحسب ، ولكن بمعدل يبلغ ضعف ما يدفعه أقرانهم المسلمون .

الرومان والبيزنطيون

اعتاد المؤرخون الحديث عن الامبراطورية البيزنطية عندما يصفون الإمبراطورية الرومانية الشرقية . وهو مصطلح كاف لتعريف الامبراطورية المسيحية والناطقة باليونانية فى القرنين السابع والثامن . وهو أيضا لايمت بصلة للغة التى كان الناس يتحدثون بها فى ذلك الوقت . فلم يحدث أنهم فى ذلك الوقت أو فى أى زمن آخر وصفوا أنفسهم فى الحياة العادية بأنهم «بيزنطيون» . كانوا أنفسهم يعرفون أنهم رومان وكانوا يسمون أنفسهم هكذا ، على الرغم من أنهم استخدموا المصطلح اليونانى *Romaioi* . كما أن خصومهم المسلمين عرفوهم باسم «الروم» ، أو الرومان ، فغالبا ما كان هذا المصطلح يمتد ليشمل السكان المسيحيين اللاتين فى شمال أفريقيا وإسبانيا . وعلى الرغم من انتهاك لغة المصادر ، فإننى تقبلت الاستخدام البحثى لهذا المصطلح بقدر من التردد للإشارة إلى البيزنطيين والإمبراطورية البيزنطية بأسرها .

الخراج والجزية

كان الفاتحون العرب يطلبون على الدوام من الناس الذين قهروهم دفع مبالغ نقدية. وفي القرون اللاحقة، تم تقسيم هذه الضريبة العامة على أيدي الفقهاء المسلمين إلى فئتين متميزتين، الخراج أو ضريبة الأرض والجزية أو ضريبة الرأس التي لا يدفعها سوى غير المسلمين. وفي زمن الفتوح ، على أية حال، كانت أشد غموضاً، واستخدم مصطلح «الجزية» لوصف أى نوع من الضريبة أو الإتاوة .

الكنائس المسيحية

فى زمن الفتوح الإسلامية كانت هناك خمس كنائس كبرى أو طوائف مسيحية فى الشرق الأوسط، وكل منها تدعى أنها الكنيسة أو الطائفة «القيومية» . ففى شمال أفريقيا وإسبانيا كانت الكنيسة لاتينية اللغة تتوجه صوب روما بدلاً من القسطنطينية طلباً للقيادة والسلطة المذهبية. ولم يكن هناك انقسام بين هذه الكنيسة والكنيسة الأرثوذكسية اليونانية ، وهو ما حدث فى وقت لاحق ، وإنما كانت هناك ثقافة كنسية مختلفة . ثم وجدت الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية المملكانية التى كانت عادة ما تتمتع بمساندة الحكومة الإمبراطورية فى القسطنطينية . وكانت هذه الكنيسة معروفة أيضاً باسم الكنيسة الخلقونية لأنها التزمت بالعقائد التى حددها مجمع خلقدونية فى سنة ٤٥١م حول طبيعة المسيح، وكنيسة الطبيعتين لأنها أمنت بوجود طبيعتين ، ناسوتية ولاهوتية ، فى شخص المسيح. وفى داخل الإمبراطورية الشرقية كانت المعارضة الرئيسية لهذه الكنيسة الراسخة تأتى من جانب الجماعات اليهيقونية التى تؤمن بالطبيعة الواحدة التى لا يمكن تقسيمها للمسيح فى بلاد الشام ، ومن جانب الأقباط المؤمنين بالطبيعة الواحدة فى مصر . وكانوا يعرفون فى بلاد الشام باسم اليعاقبة نسبة إلى يعقوب البراذعى (مات سنة ٥٢١م) الذى كان هو المؤسس الفعلى للإكليروس

المونوفيزيتى المنفصل . أما الكنيسة النسطورية ، التى أخذت اسمها عن مؤسسها نسطوريوس (مات حوالى سنة ٤٥١م) الذى كان بطريرك القسطنطينية قبل أن يُخلع من منصبه بتهمة الهرطقة ، وكان معارضاً لكل من أصحاب الطبيعة الواحدة (المونوفيزيت) وأصحاب مذهب الطبيعتين. وقد أدى الاضطهاد إلى استئصال الكنيسة النسطورية إلى حد كبير من الأراضى البيزنطية ولكنها استمرت مزدهرة فى أراضى الإمبراطورية الفارسية، لاسيما فى العراق، حيث كان النساطرة يشكلون أغلبية السكان . وأخيراً كانت هناك الطائفة المونوثليتيّة التى ساندتها الإمبراطور هرقل وحكومته . وهناك قصة اسكتلندية قديمة عن الغريب الذى يقترب من بلدة صغيرة ويسأل أحد الأهالى عن عدد الكنائس التى بها، لأن اسكتلدة كان بها عدة طوائف مختلفة على غرار ما كان فى الشرق الأوسط أواخر العصور القديمة . ويجيب الرجل «حسناً ، كان المعتاد أن توجد كنيسة ثمان ثم كان لدينا اتحاد ولذلك لدينا الآن ثلاث كنائس» . وهذا أساساً ما حدث فى عهد الإمبراطور هرقل . ففى محاولة لسد الفجوة المدمرة بين الكنيسة المونوفيزيتية والكنيسة الديوفيزيتية حول طبيعة التجسد ، توصل هرقل ومستشاروه اللاهوتيون إلى حل وسط ذكى فى صيغة أسموها المونوثليتيّة . وكان حتماً ألا ترضى هذه الصيغة أيّاً من الجانبين ، كما أن محاولاته لفرض هذا المذهب الجديد بالقوة فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا أسفرت عن المزيد من السخط.

الهوامش وقائمة المصادر والمراجع

لقد اقتصدت فى استخدام الهوامش فى هذا الكتاب لكى أتجنب تحميل النص عبئاً زائداً من الأدوات البحثية . وقنعت بالإشارة إلى المصادر الرئيسية المستخدمة ، وأصول الاقتباسات المباشرة ، وأكثر الأدبيات الثانوية ارتباطاً بالموضوع . وفى حالة المصدرين الأولين اللذين اعتمدت عليهما أكثر من غيرهما ؛ تاريخ الرُسل والملوك للطبرى وفتوح البلدان للبلاذرى، أشرت إلى طبعتي ليدن الأصليتين، وسوف يجد القراء الذين يريدون الرجوع إلى الترجمات الإنجليزية إشارات إلى الطبعات فى هوامش النصوص المترجمة.

وقائمة المصادر والمراجع محددة بالطريقة نفسها . ذلك أن قائمة كاملة، تضم كل ما كتب عن أواخر العصر القديم وبداية الإسلام ، لابد أن تصل إلى آلاف العناوين . وقد كان غرضي أن ألزم نفسي في حدود الكتب التي أفدت منها أفضل فائدة وتلك التي أعتبرها أكثر اتصالاً بالموضوع وأيسر للقارئ الذي يريد المزيد من استكشاف الموضوع في الوصول إليها .

ملاحظة عن الترجمة والأسماء

هناك الآن معيار قياسي وطرق مقبولة لترجمة الحروف العربية في خط وكتابة لاتينية . ولم اتخذ أيًا من هذه الطرق برمتها . فبالنسبة لغير المتخصص في العربية ليس من المفيد تمامًا أن يكون قادرًا على التمييز بين نمطين من حروف (b,s,t) . وعلى أية حال ، سوف يدرك القراء العارفون بالعربية هذا الأمر . ففي اللغة العربية توجد حروف حركة طويلة وحروف حركة قصيرة على السواء وقد بينت هذه في معظم الحالات . ولا يبدو لي أن من المفيد معرفة أن اسم فاتح الشام العظيم خالد بن الوليد، مثلاً ، يمكن نطقه بعدة طرق في اللغة الإنجليزية(*) .

وتأتى الأسماء العربية من تنويع من الموروثات المختلفة . إذ يرجع بعضها أصلاً إلى الكتاب المقدس: إبراهيم Abraham ، وإسحق هو Isaac ، ويوسف هو Joseph وموسى هو Moses ويحيى هو John . وبعض الأسماء مثل عمر ، وعمرو ، وعثمان ، وعلى أسماء عربية خالصة بدون أى مضامين دينية . وكانت هناك أيضاً أسماء تصف الشخص بأنه عبدالله أو «عبد» نسبة إلى أى اسم من أسماء الله الحسنى مثل عبدالمك ، وعبد الرحمن .

(*) قام وليام الفاتح ، النورمانى بغزو إنجلترا سنة ١٠٦٦م بعد أن انتصر فى معركة هاستنجز على الأنجلو - سكسون . وقد كان الغزاة قادمين من إقليم نورماندى الفرنسى وأبدوا احتقاراً تاماً لكافة وجوه الثقافة الأنجلو - سكسونية . (المترجم)

وكان الرجال يُنسبون في تسمياتهم إلى آبائهم مثل ابن فلان. كما نجد رجالاً يسمون ابن أبي فلان. أما النساء فكانت الواحدة منهن تعرف ببنت فلان، أو الأكثر شيوعاً أم فلان. وفي أيام الإسلام الأولى كان معظم العرب يحملون أيضاً أسماء قبلية أو نسبة مثل «التميمي» أو «الأزدى» (من قبيلة تميم أو من قبائل الأزد) .

وتطرح تهجئة أسماء الأماكن مشكلات من نوع مختلف . وعلى العموم فقد استخدمت الأسماء الإنجليزية التقليدية حيثما توجد مثل Damascus بدلاً من دمشق و Aleppo بدلاً من حلب الخ . وفي الأسماء مثل أنربيجان ، التي يوجد لها مقابل حديث، فقد فضلت الصيغ التي استخدمها Times Atlas of the World . وفي حالة الأسماء العربية الأقدم والأكثر غموضاً ، اليرموك أو القادسية مثلاً، ترجمت الاسم العربي مستخدماً التهجئة التي وردت في معجم ياقوت الجغرافى ، الذي يرجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى السابع الهجرى ، والموسوم بـ «معجم البلدان» .

العملات

تؤكد سرديات الفتوح تأكيداً كبيراً على تقسيم الأموال ودفع الضرائب . ففي البداية استخدم المسلمون العملات التي كانت رائجة في المناطق التي فتحوها ، أى الدرهم الفضى الساسانى (الدراخمة) والمعروف في العربية باسم الدرهم . وكان الدرهم عملة فضية رقيقة تزيد قليلاً في قطرها على سنتيمترين ووزنها حوالى ثلاثة جرامات . وقد بدأ المسلمون فى سك هذه الدراهم، أولاً حسب نماذج من النظائر الساسانية المضروبة ، مع بداية ستينيات القرن السابع الميلادى. وكان الدينار الذهبى أكثر قيمة ، وهو عملة صغيرة قطرها حوالى سنتيمتر واحد على أساس النوميسما البيزنطية ، وبدأ ضربها فى أثناء خلافة عبدالمك (٦٨٥-٧٠٥م) ومنذ ذلك الوقت، كانت جميع العملات الإسلامية تحمل كتابات خالصة، وتحمل نقوشاً عربية مكتوبة ولا تحمل صوراً . وفى شمال أفريقيا وإسبانيا كانت بعض العملات الإسلامية الباكرة تحمل صيغاً إسلامية مترجمة إلى اللاتينية .

الهوامش

See S. Brock, 'North Mesopotamia in the late seventh century: Book XV" of John (١) Bar Penkaye's *Ris Melle*" *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* 9 (1987); 51-75.

تصدير

ذكرى أشياء ماضية

يقوم فهمنا للفتوح العربية التي جرت فى القرنين السابع والثامن الميلاديين الأول والثانى الهجريين على أساس من المصادر المكتوبة ، وإلى حد ما ، على المصادر الأثرية. وللوهلة الأولى تبدو هذه المصادر وافرة: إذ إن عدداً هائلاً من صفحات المؤرخات العربية تصف هذه الانتصارات بتفصيل يفيض بالحب والإعجاب . أما الناس المقهرون ، ولاسيما الأكليروس المسيحى من جميع الطوائف، فقد شاركوا فى رؤية مختلفة ، على حين أن أغلب الأدلة الأثرية، خاصة فى أراضى شرق المتوسط، تقدم لنا رؤية أخرى. وعند الدراسة المتأنية الدقيقة ، على أية حال ، لا يكون أى من هذه المصادر واضحاً أو سهل الاستخدام كما يبدو للوهلة الأولى: إذ إنها جميعاً ينبغي تمحيصها واستخدامها بحذر ، وعلى الرغم من طول السرديات ، فهناك جوانب عديدة فى الفتوح لا نملك بالفعل أية معلومات عنها على الإطلاق.

وكل بحث تاريخى يتشكل بالضرورة بطبيعة المادة المصدريّة التى قام على أساسها. ومن ناحية فإن هذه مسألة تتعلق بالقدرة على الثقة بهذه المصادر أو «هل يمكننا أن نصدق ما نقرأ؟» وهى فى أبسط أشكالها مسألة السؤال عما كتبوا نصاً ما ، وما أرادوا توصيله وما إذا كانوا منحازين لجانب أو آخر . وعلى أية حال، فإن الطرق التى تحدد بها المصادر البحث؛ تمضى أبعد كثيراً مما تذهب إليه اعتبارات الثقة بالمصادر والانحياز إلى فريق ما . وتحسم مصالح المؤلفين وجامعى الروايات التاريخية نوعية الأسئلة التى يمكننا طرحها . فعلى سبيل المثال، نحن فى بحثنا عن

الفتوح العربية يمكن أن نسأل ما المعارك التي تم خوضها ومن الذين شاركوا فيها. وإذا ما رغبتنا في النظر بمزيد من التفاصيل في وجه المعركة لماذا انتصر جانب على حين لقي الهزيمة الجانب الآخر ، سنجد أنفسنا في مواجهة حائظ من الجهل لأن الكتاب الذين نعتمد عليهم ، لم يكونوا ببساطة مهتمين بمتابعة هذه المسائل . إن مستوى المناقشة ومساحتها تتحدد على أيدي الكتاب القدامى، وهناك طرق كثيرة لا يمكن ببساطة أن نسير فيها . فليس ممكناً أن نكتب تاريخاً عن الفتوح حافلاً بتلك الخرائط الدقيقة للمعارك ، والتي يحبها معظم مؤرخي الشؤون الحربية ، وفيها تظهر فيالق الجنود المشاة بشكل واضح في مربعات سوداء مع أسهم داكنة «تبين كيف كان الفرسان يناورون حولهم». وإذا لم يكن هذا الكتاب يناقش الكثير من الأسئلة التي يتناولها التاريخ العسكري عادة - مثل الإمداد والتموين - فليس سبب هذا أن هذه الموضوعات غير ممتعة ، وإنما لأنه لا تتوفر لدينا معلومات يمكن أن تساعدنا في الإجابة على هذه الأسئلة. كما أن فهم مجال الوثائق وأوجه قصورها أمر حاسم وضروري لفهم نقاط القوة ونقاط الضعف في دراستي عن الفتوح العربية.

لقد أثرت الفتوح العربية في الشرق الأوسط بشكل مباشر في حياة ملايين الناس ، والكثير منهم متعلمون ، في جزء من العالم كانت فيه ثقافة الكتابة قد تطورت على مدى آلاف السنين. بيد أن القلائل منهم هم الذين فكروا أن يسجلوا ما كانوا قد شهدوه وعايينوا تجربته. وعدد الروايات المعاصرة عن هذه العقود الحاسمة ، من ثلاثينيات القرن السابع الميلادي حتى أربعينيات القرن نفسه، يمكن أن تعد على أصابع اليد الواحدة ؛ بل إن الروايات التي لدينا عبارة عن شذرات خفيفة للغاية.

ولا يعني غياب روايات شهود العيان أننا لانملك أدلة تاريخية عما جرى في هذه العقود الخطيرة على الإطلاق . وعلى العكس ، لدينا عدد هائل من الحكايات التي تخبرنا بفحوى ما حدث . وتتمثل المشكلة بالنسبة للمؤرخ في أنها تروى في سياق قصصى ، دونما استمرارية، وكثيرا ما تتناقض مع بعضها البعض - بل إنها تتناقض مع نفسها أحيانا. وغالباً ما يكون من المستحيل معرفة ما ينبغي أن نصدقه ونقبله

باعتباره رواية دقيقة معقولة عن الأحداث التي وقعت حقاً . وما يهمنا أكثر ، على أية حال ، هو ما تقدمه هذه الروايات في ضوء مواقف الجماعات المختلفة وذكرياتها واحتفائها بما جرى .

كان الشرق الأوسط الذي فتحه المسلمون في تلك العقود الباكرة مجتمعاً متعدد الثقافات، وعالمًا تعايشت في رحابه لغات وديانات مختلفة فوق المساحة الجغرافية نفسها . وبعد نجاح الفتوح ، صارت العربية لغة النخبة الجديدة . وعلى كل حال ، فإنه حتى بالنسبة للحكومة استمرت استخدام لغة الإدارة الموجودة - اليونانية في بلاد الشام ومصر ، والفارسية الوسطى (الفهلوية) في العراق وإيران ، واللاتينية في إسبانيا - في شئون الأعمال والحكم . وبعد جيلين ، بدأ هذا الأمر يتغير . فحوالي سنة ٧٠٠م ، أي بعد ستين سنة أو أكثر من الفتوح الأولى ، أعلن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٨٥-٧٠٥م) أن اللغة العربية وحدها هي التي سوف تستخدم في الإدارة . ولاغرو أن المرسوم كان فعالاً . ومنذ هذا الوقت ، كان كل من يريد وظيفة في الجهاز الإداري المتوسع في الدولة الإسلامية ، سواء كان من العرب أو من غير العرب من حيث نسبه وتربيته ، مضطراً إلى تعلم اللغة العربية كتابة وقراءة . وكانت النقوش على العملات الجديدة الخالية من الصور والعلامات الإرشادية على جوانب الطرق مكتوبة كلها باللغة العربية . ولم يكن هناك دافع لدى الناس لكي يتعلموا اليونانية أو الفهلوية لأنهما لاتوفران أي فرص عمل لهم . وكان في ذلك الوقت تقريباً ، في مطلع القرن الثامن الميلادي ، أن بدأ جمع الموروثات العربية عن الفتوح وتدوينها .

لقد ألهمت الأحداث الخطيرة التي جرت في القرنين السابع والثامن الميلاديين تراثاً ممتداً باللغة العربية ، زعم أنه يصف ما كان قد حدث آنذاك . بيد أن الذكريات والحكايات عن الفتح الإسلامي كانت أكثر من التسجيلات التي سجلت «الأشياء» التي طواها النسيان طويلاً والمعارك التي وقعت منذ زمن بعيد . لقد كانت الأساطير المؤسسة للفتوح في المجتمع المسلم بالمنطقة هي التي ولدتها هذه الذكريات وحكايات الفتح . وقد تطورت لأنها ساعدت في تفسير كيفية قدوم الإسلام إلى البلاد وتبرير هزيمة النخب السابقة واستبدالها . ولاتعامل هذه الروايات مع الأعراق أي مولد الناس وأصولهم ،

مثلاً كان المؤرخون اللاتين فى العصور الوسطى الباكرة بالغرب يفعلون ، ولكنها كانت تتناول مولد المجتمع الإسلامى. فقد حفظت أسماء الأبطال الذين كانوا قد تولوا قيادة جيوش الفتح وكانوا هم الآباء المؤسسين للدولة الإسلامية فى منطقتهم ؛ وأسماء صحابة النبى، أى الرجال الذين كانوا قد سمعوا من محمد عليه الصلاة والسلام وارتبطوا مباشرة بشخصيته الفذة ومهابته ؛ وأسماء الخلفاء الذين كانوا قد وجهوا الجيوش الإسلامية صوب وجهاتها .

إن هذه الروايات توفر المعلومات عن ما جرى الأحداث ، كما أنها تكشف بشكل مثير عن كيفية ورودها إلى الذاكرة ، وماهى رؤيتها لبدايات المجتمع الذى عاشوا فى رحابه . وإذا ما نظرنا إليها على أنها شكل من أشكال الذاكرة الاجتماعية، فإننا يمكن أن نرى التشوش والأساطير التى تبدو للوهلة الأولى عقبة فى سبيل فهمنا باعتبارها انعكاساً للمواقف والقيم التى كانت سائدة فى هذا المجتمع المسلم الباكِر.

كانت هذه الروايات بالشكل الذى وصلتنا به قد جرى تحريرها فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (الثالث والرابع للهجرة) ؛ أى فترة ما بين ١٥٠ سنة و ٢٥٠ سنة بعد الأحداث. والحكايات العربية عن الفتوح نادراً ما تكون حكايات بسيطة كتبها مؤلف واحد تحكى حكاية مباشرة عن الأحداث . فهى تأليف متعددة الطبقات مرت من خلال مراحل مختلفة من التحرير والزيادة لأغراض مختلفة فى أوقات مختلفة. وفى مخاطرة بالتبسيط المخل لعملية معقدة ، نرجح أن الحكايات قد مرت بثلاث مراحل من التطور. كانت أولاً النقل الشفاهى للقصص التراثية عن الأعمال البطولية فى المعارك . وغالباً ما كانت مثل هذه الموروثات محفوظة داخل القبائل وجماعات القرابة أو فيما بين المسلمين الذين استقروا فى مناطق بعينها ، وربما يكونوا قد حفظوا هذه الذكريات مثلاً كانت لدى أسلافهم روايات أثيرة عن المعارك التى خاضوها قبل الإسلام . ولاشك فى أن التقليد القديم بتسجيل الانتصارات والمأسى فى حروب ما قبل الإسلام قد تركت تأثيرها على الطريقة التى تم بها تذكر معارك الفتوح الإسلامية الباكِرة. وكانوا مثل أسلافهم وجدودهم فى الجاهلية قبل ظهور الإسلام ، ينظمون القصائد والأغاني ويحفظونها احتفاءً بالأعمال البطولية . وتاماً مثل هذه الموضوعات القديمة

التقليدية ، كان بوسع المسلمين أن يتذكروا انتصاراتهم باعتبارها برهاناً قاطعاً على أن الله كان معهم ، إذ كان موت أعدائهم والكميات الهائلة من الغنائم والأسلاب دليلاً على المؤازرة الإلهية : ولم يكن بوسع أحد أن يتساءل عن جوهر الصواب فيما قاموا به. كما أنهم احتفظوا بالروايات ، وزادوا فيها ، بل واختلقوها لخدمة أغراض جديدة ، ولتبرير مزاعم الحق في الحصول على الرواتب ، أو حقوق التمتع بعمليات فرض الضرائب . فالرجال الذين استطاعوا البرهنة على أن أسلافهم قد شاركوا في الفتوح الباكورة كانوا يشعرون بأن من حقهم الحصول على رواتب من بيت المال؛ أما سكان المدن فربما كانوا يأملون في تخفيف الضرائب عنهم لأنهم قد استسلموا صلحاً للجيش المسلمة. وباختصار ، فقد تم حفظ قصص الفتوح ، ليس بسبب الاهتمام بإنتاج سرد تاريخي واضح ، ولكن لأنه كان هناك شعور بأن ذلك أمر مفيد . ومن ثم ، فإن المادة التي لم تكن مفيدة ، مثل التأريخ التابعى المضبوط للأحداث ، كانت تلقى في زوايا النسيان.

كانت المرحلة التالية هي جمع هذه المادة الشفاهية وتحويلها. وليس من السهل أن نقول متى حدث هذا بالضبط لأن اللغة العربية ، مثل اللغة الإنجليزية، تستخدم تعبيرات مثل «يقول في كتابه» ، وهو ما يعنى أن أفعال القول يمكن أن تكون في حقيقتها إشارة إلى الكتابة، ولكن من المؤكد أن العملية بدأت في أثناء القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي. ويبدو أن هذه المجموعات كانت قد جمعت لأسباب قديمة، لكي تحفظ سجل السنوات الأولى من الحكم الإسلامي في العراق أو مصر عندما كانت الذكريات أخذة في الشحوب والتلاشي . وكان ثمة خطر بأن يضيع الكثير من هذه القصة المهمة في غياهب النسيان. وقد باتت الاعتبارات العملية التي أدت إلى حفظ هذا التراث غير ذات موضوع آنذاك، ولكن هذه المجموعات التي جمعها هؤلاء المؤلفون طبعاً قد عكست بالضرورة أغراض الإخباريين الأوائل .

وقد شهد القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الميلاديان / الثالث والرابع الهجريان انفجاراً في الكتابة وإنتاج الكتب ذلك أن إنتاج الورق الذي حل محل الرق (جلد الحيوان المجفف) باعتباره مادة الكتابة الرئيسية⁽¹⁾ كان يعنى أن الكتابة صارت

أسرع وأرخص . وزادت الكتابة التاريخية ضمن هذا السياق، مما عكس طلباً متزايداً على المعلومات التاريخية ، سواء في دوائر البلاط والخلفاء أو في المجتمع المتعلم الأوسع في بغداد وبقيّة العراق. وفي بغداد حيث وجدت صناعة كتب حقيقية ، صار من الممكن كسب العيش من الكتابة لجمهور أوسع ، وليس فقط من أجل راعى ثرى . وصارت المعرفة نوعاً من المهنة ، بمعنى أن الإنسان كان يمكنه أن يرتزق منها .

فإذا ما كنت تعرف تاريخك ، بحيث تصوير حجة فيه، كان يمكن أن يؤدي ذلك بك إلى التعيين في إحدى وظائف البلاط. ويبدو أن المؤرخ البلاذري الذي يعد كتابه «فتوح البلدان» أحد المصادر الرئيسية التي نعتمد عليها ، كان واحداً من الندماء في البلاط العباسي. وكان من المتوقع أن يكون كل نديم صاحب معرفة ، أو خبرة ، أو موهبة تجعله ينضم إلى البلاط: إذ كان بعضهم شعراء ، وبعضهم من العارفين بالطرائف أو المفردات العربية غير المعتادة أو خصائص المناطق الجغرافية المختلفة. ولاشك في أن البلاذري كان يدين بموقعه إلى حقيقة أنه كان يعرف الكثير جداً عن الفتوح وغيرها من موضوعات التاريخ الإسلامي الباكر، لأنه كان حجة أيضاً في أنساب القبائل العربية القديمة. وكان هذا كله من أسباب شهرته على الرغم من حقيقة أنه لم يكن سليل عائلة مهمة ولم يكن سليل أحد ممن أسهموا في الفتوح . وكان أعظم هؤلاء المؤرخين الطبري (ت ٩٢٣م) كان فارسياً من عائلة من ملاك الأراضي في المنطقة الواقعة على امتداد السواحل الجنوبية لبحر قزوين . وقد أمضى معظم سنى حياته الناضجة في بغداد وأصبح حجة وعالمًا كبيراً في موضوعين من أهم موضوعات التعليم الإسلامي ، تفسير القرآن وتاريخ الإسلام. ويبدو أنه قد عاش حياة تبتل هادئة ، يعيش على موارد ممتلكات عائلته ، التي كان يجلبها له الحجاج القادمون من موطنه عند مرورهم ببغداد في طريقهم إلى مكة والمدينة. وجعل همه أن يجمع أكبر قدر ممكن من كتابات السابقين ويحررها في مؤرخة واحدة كبيرة. كما أنه حاول بقدر كبير من النجاح، أن ينظمها . وقد اتخذ إطاراً حوالياً تم فيه تسجيل كل سنة حسب توالى السنين . ولم يكن أول كاتب عربى يستخدم هذا المنهج، الذى يمكن بدوره أن ننسبه إلى التراث اليونانى فى كتابة المؤرخات وفق الترتيب الزمنى، بيد أنه لا يوجد أحد سواه كان قد استخدمه لكى يقدم

مثل هذا الكم الهائل من المعلومات ، وبطرق عديدة ، فإن كتابه جعل المنشورات الفردية التي نشرها أسلافه عديمة الجدوى ، والحقيقة أن الروايات التاريخية اللاحقة عن العالم الإسلامي الباكر عامة، وتاريخ الفتوح الإسلامية على وجه خاص، كانت قائمة على أساس كتابه العظيم.

وتتخذ كثير من المادة التي نجدتها في هذه الروايات العربية الباكرة عن الفتوح ، شكل القصص الحية عن الأحداث . وهي ليست مروية في نثر متواصل ، مثلما قد يقدمها المؤرخون المحدثون ، وإنما في حكايات قصيرة تعرف في اللغة العربية باسم «الأخبار» (ومفردتها خبر) ولم يبذل الطبرى وغيره من مؤرخى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (الثالث والرابع للهجرة) أى جهد لتنظيم هذه الصيغة وإنتاج رواية طويلة واحدة. وكل «خبر» من هذه الأخبار عبارة عن رواية متكاملة بحد ذاتها ومتمايزة عن غيرها ، وفي بعض الأحيان لايزيد طولها على بضعة أسطر، وفي بعض الأحيان تصل إلى ثلاث أو أربع صفحات ، ولكنها نادراً ما تزيد على ذلك. وغالباً ما يتم تجميع الحكايات المتنوعة معاً ، لتناقش الحادث نفسه ، أو أحداث مشابهة ومماثلة، ولكن التفاصيل متغيرة : وتحدث الأحداث في سياقات مختلفة ؛ فثمة أناس مختلفون تُنسب إليهم الأعمال البطولية نفسها؛ وأسماء قادة الجيوش العربية فى المعارك الكبرى للفتوح ليست هى فى هذه الروايات. وعادة ما كان مؤرخو(*) القرنين التاسع والعاشر الميلاديين يتجنبون إصدار أحكام حول صحة أى من هذه الروايات. وهم يسببون الإحباط بسبب عدم حسمتهم فى هذا التناول ، وغالباً ما يبدو أنهم يقدمون ببساطة كل الأدلة ويدعون ضمناً إلى أن يقرر القارئ ما يراه .

وفى حالات كثيرة يعلن المؤرخون عن مصادرهم ببعض التفصيل عن طريق الإسناد ، «حدثنى فلان نقلاً عن فلان عن فلان الذى كان شاهد عيان» . وكانت هذه

(*) استخدم المؤلف كلمة editors الحديث عن المؤرخين المسلمين فى القرنين الثالث والرابع للهجرة / التاسع والعاشر الميلاديين . وهو هنا يستند إلى حقيقة أنهم جمعوا التراث التاريخى (الشفوى والمكتوب) الذى كان متاحاً عن الفتوح الإسلامية الباكرة ووضعوه فى كتبهم. وقد استخدمت كلمة «المؤرخين» فى الترجمة حتى لا يواجه القارئ العربى ما قد يؤدى إلى الارتباك بسبب اختلاف المصطلح. (المترجم)

الوسيلة حقاً المعادل للهوامش فى الكتابة الأكاديمية الحديثة ، فى النقل عن المصادر الشهيرة . وكان المقصود من هذا الإسناد البرهنة على أن المادة أصلية ، ولكى يتم عمل هذا كان من المهم أن تكون كل الأسماء فى القائمة من الرجال (وأحياناً من النساء) المشهود لهم بالعدل والذين لا يبدو أنهم من نوعية الناس الذين يمكن أن ينزلقوا إلى تلفيق الأمور . وكان من المهم أيضاً إظهار أن الناس فى سلسلة الإسناد قد عاشوا فى الأزمنة الصحيحة، بحيث كان يمكن لهم أن ينقلوا هذه المعلومات إلى الجيل التالى . وبحلول القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى كان قد تطور نظام أكاديمى كامل، وأنتج عدداً كبيراً من كتب التراجم والوفيات ، يمكن للمرء أن ينظر فيها بحثاً عن التفاصيل المتعلقة بجميع الأفراد فى سلسلة الإسناد لكى يتحقق من صدقهم.

وسوف يلاحظ المحدثون على الفور أن هناك بعض المشكلات الواضحة فى هذا الإجراء ؛ لأنه يقدم طرقاً قليلة للتأكد من صدق المادة التاريخية، وهى مشكلات كان الناس فى ذلك الزمان على وعى تام بها. وكان من الواضح أن هناك كمّاً من المادة المصطنعة حول هذه الأحداث منتشرة ورائجة ، ولكن المؤرخين فى القرنين الثالث والرابع للهجرة / التاسع والعاشر للميلاد، كانوا يواجهون بالضبط نوعية المشكلات نفسها التى تواجهنا فى محاولة فرز الحقيقة من طيات الأمور التى كانت اختراعاً خالصاً.

لقد كان كُتّاب حكايات الفتوح الأصلية والمؤرخون يهتمون للغاية بأنواع معينة من المعلومات، ولا يلقون بالألمة لمعلومات أخرى على نحو يبعث على الضيق . ففى ثنايا رواياتهم الكثير من الخطب النصية التى يفترض أن رجالاً عظماء قد ألقوها قبل نشوب المعارك، غالباً. وهذه الخطب تذكرنا بالخطب التى وضعت على ألسنة القادة الإغريق والبيزنطيين بأقلام الكُتّاب الكلاسيكيين فى الموقف نفسه . وعلى أية حال، تتضمن الروايات العربية غالباً عدة خطب ألقاها مشاركون متنوعون ضمن أعمال ما يُقدم لنا على أنه مجلس حرب: كما تعطى المصادر العربية صورة لعملية اتخاذ القرار العسكرى تبدو وقد حظيت بموافقة جماعية أو كانت محل جدل كبير . ومن الواضح ، فى غياب وسائل التسجيل الحديثة ، أن من المحتمل ألا تكون هذه الخطب تسجيلات حقيقية لما قيل . ومن ناحية أخرى، فمن المؤكد أن هناك وثائق أصلية من القرن الثانى الهجرى /

الثامن الميلادي وأوائل الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ، وربما كانت هناك وثائق ترجع للقرن الهجري الأول / السابع الميلادي . ولابد أنها تعكس مواقف المسلمين في الأوقات التي شهدت هذه الأحداث ؛ وليس بوسع المؤرخ أن يستبعدا ببساطة .

وثمة خاصية أخرى في هذه الحكايات ، تتمثل في الهوس بمعرفة المشاركين في الفتوح الإسلامية بأسمائهم. وبطبيعة الحال، لا ينطبق هذا سوى على المشاركين من العرب المسلمين؛ وتقدم لنا المصادر العربية الإسلامية صياغات عربية لأسماء أهم قادة جيوش أعدائهم، ولكنها تتعامل مع هذه الجيوش وكأنها جمهرة من الأسماء المجهولة ، ويتم إعداد قوائم الأسماء العربية بعناية ودقة دافعها الحب ، ومتعة علمية حقة في تعريف الرجال ، والقبائل التي جاؤا منها والمجموعات التي حاربوا فيها. والمشكلة التي تواجه المؤرخ هي أن هذه القوائم كثيراً ما تتناقض كل منها مع الأخرى. وعلاوة على ذلك، فإن هناك بعض الأمثلة تبدو فيها صيغ أخرى للقصة قد وصلت إلى المزيد من الأسماء أكثر مما توصلت إليه الأمثلة الأسبق زمنياً . وهذا أمر يثير شكوكاً عميقة بالنسبة للحساسيات التاريخية الحديثة. ويبدو أن الحكايات تزداد تفاصيلها وتنمو مع انتقالها من جيل لآخر يليه . ومن الواضح أن بعض هذا التفصيل يتم التوسع فيه استجابة للأسئلة مثل «من كانوا القادة الرئيسيون في معركة نهاوند؟» . وليس هناك إخباري كان سيعترف بجهله؛ ومن الأفضل أن يصطنع بعض الأسماء المقبولة بدلاً من أن يكشف مدى محدودية معرفته . وفي حالات أخرى ، يكون من الواضح أن الأسماء حفظها أحفاد الذين شاركوا في الفتوح أو أبناء قبائلهم . وفي القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي كانت المسألة ذات أهمية عملية كبيرة . فإذا كان أبوك أو جدك قد شارك في هذه المعارك المجيدة الباكرة ، مثل القادسية في العراق أو اليرموك في بلاد الشام، فإنك تستفيد من المال ومن المكانة على السواء . ومع حلول منتصف القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) كانت علاقات القرى هذه قد فقدت الكثير من قيمتها العملية . إذ لم يستمر أحد، مع استثناء أبناء الأسرة الحاكمة ، وفي بعض الأحيان سلالة النبي وعلى بن أبي طالب، في الاستفادة من هذا النظام . ففي ذلك الوقت كانت الأموال تدفع للناس مقابل الأعمال العسكرية أو الإدارية التي يقومون بها وليس لقاء ما

كان قد فعله أسلافهم الأولون، ومع هذا، فإن صلة القربى التى كانت تجمع أحداً بهؤلاء الأبطال الأوائل كانت لا تزال تحمل بعض المردود الاجتماعى . ومن بين الأرستقراطية الإنجليزية لا يزال هناك، وفقاً لما يقوله البعض ، مهابة يمكن اكتسابها من الاعتقاد أن «أجدادى جاءوا مع الفتح النورمانى»^(*)، وهم يعنون فى هذه الحالة الغزو النورمانى لانجلترا فى سنة ١٠٦٦م. إنه شئ ما من النفاق الاجتماعى نفسه إن شئت، ربما يكون قد وُجد بين بعض هؤلاء المسلمين المدركين لمكانتهم .

كان ثمة شئ آخر محل الاهتمام الشديد من جانب المؤرخين الأوائل وهو ما إذا كانت المدن والأقاليم قد فتحت صلحاً أو عنوة . وفى السنوات الأولى بعد الفتح كان هذا موضوعاً له مغزاه العملى الكبير. فإذا كانت المدن قد فتحت صلحاً ، فإن السكان عادة ما كانوا يأمنون على حياتهم وممتلكاتهم ولا يطلب منهم سوى دفع الجزية حسب المبلغ المقرر فى الاتفاقيات . فإذا ما كانت قد أخذت عنوة ، من ناحية أخرى ، كانت ممتلكاتهم تُصادر ويكون مستوى الضرائب التى يدفعونها أعلى كثيراً . وربما كان الأهم والأكثر مشقة ، أن السكان غير المسلمين كان عليهم دفع الجزية. ونحن نعرف القليل جداً عن كيف كانت المدن وسكان المدن يدفعون الضرائب فى القرن الأول من الحكم الإسلامى (على الرغم من أن المادة التى بحوزتنا تتعلق بالضرائب فى المناطق الريفية والأرض الزراعية)، ولكن طبيعة الفتح ربما تكون قد أحدث فرقاً كبيراً فى وضعية الضرائب ، وفى ضمان أمن ممتلكات السكان فى السنوات الباكرة. وكان تقدير الكيفية التى تم بها فتح مدينة ما ومقدار الجزية التى كانت قد دُفعت أمراً ذا أهمية عملية حاسمة ، وهو موضوع استحوذ على اهتمام المؤرخين الأوائل . وعلى أية حال ، كانت حقيقة المسألة غير واضحة بالمرة فيما يتعلق بطبيعة هذه الأمور . وغالباً ما لم يكن الفتح مسألة متسقة : فقد قاوم بعض الناس واستسلم البعض الآخر. ويكاد يكون

(*) قام وليام الفاتح ، النورمانى بغزو إنجلترا سنة ١٠٦٦م بعد أن انتصر فى معركة هاستنجز على الأنجلو - سكسون. وقد كان الغزاة قادمين من إقليم نورماندى الفرنسى وأبدوا احتقاراً تاماً لكافة وجوه الثقافة الأنجلو - سكسونية . (المترجم)

لكل واحد مصلحة راسخة فى رواية أو أخرى لتسجيل هذه الأحداث . وقد تم إنتاج تنويع من القصص المناسبة لشرح هذا الارتباك وتفسيره . وتبدو دمشق فى واحدة من هذه القصص من أكثر الأمثلة لفتناً للنظر ، إذ تحكى المصادر أن أجزاء مختلفة من المدينة سقطت بطرق مختلفة فى الوقت نفسه . وهكذا نجد فى دمشق سنة ٦٣٦م القائد العربى خالد بن الوليد يقتحم باب الشرق ، على حين يقوم قائد آخر ، هو أبو عبيدة بن الجراح ، فى الوقت نفسه بإبرام الصلح مع سكان القطاع الغربى . وبهذه الطريقة يبقى الجدل مشتتاً حول موضوع ما إذا كانت دمشق قد فُتحت صلحاً أم فُتحت عنوة . وكان هناك تفسير آخر مفيد مؤداه أن هذه الأماكن قد فُتحت مرتين؛ فى المرة الأولى عقد الأهالى الصلح ونالوا امتيازات الفتح صلحاً ، ولكنهم تمردوا فيما بعد وفُتحت المنطقة مرة أخرى بالقوة . وقد حدث هذا وتم تسجيله فى أنطاكية ببلاد الشام والإسكندرية فى مصر . وبطبيعة الحال ، ربما يكون هذا ما حدث بالفعل ، حتى لو كان التمرد مجرد رفض أو تكون مثل هذه الروايات محاولات للتوفيق بين صياغات مختلفة هى بحد ذاتها انعكاس للمنازعات حول الضرائب والوضع المالى للمناطق المفتوحة .

ولم يعد لمسألة الفتح صلحاً أم عنوة ، مثل مسألة من شارك فى الفتح ، الرنين نفسه زمن تأليف المؤرخات التى تعتمد عليها فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين . وليس هناك دليل على أن الضرائب التى فرضت على المناطق المختلفة كانت تحددها طبيعة الفتح الذى كان قد تم قبل قرنين من الزمان على الأقل . ففى هذا الوقت لم تكن هذه المجادلات تثير الاهتمام سوى لدى من يهتمون بالقديم ، أو أنها كانت جزءاً من الثقافة السياسية العامة التى كان يفترض أن يتحلى بها رجال الإدارة ورفاقهم . ولا يجب ، على أية حال ، أن نغض الطرف عن حقيقة أن بقاء هذه المادة فى المصادر لوقت طويل بعد أن فقدت فائدتها العملية يوحى بقوة أن أصلها يرجع إلى السنوات الأولى التى أعقبت حركة الفتح الإسلامية ؛ إذ لم يكن هناك أحد يمكن أن يكون له دافع لاصطناعها فى مثل هذا التاريخ المتأخر . ولابد أن التفاصيل قد حُفظت فى وقت ما فى السنوات تكوين الدولة الإسلامية عندما كانت لا تزال لها هدف عملى حقيقى .

ويبدو أيضاً أن كُتَّاب هذه الموروثات الباكِرة ومؤلفيها كانت تستحوذ عليهم مسألة توزيع الغنائم بعد فتح مدينة ما أو منطقة ما . ولم يكن هناك أبداً أى شك فى أن الغنائم كانت مقبولة وأن من حق المنتصرين تماماً الحصول على غنائم الحرب . وكانت النقطة محل النقاش هى كيف ينبغي توزيع الغنائم بين الفاتحين . هل كان ينبغي أن يحصل كل واحد على الكمية نفسها؟ هل كان يجب أن يحصل الفرسان على قدر أكبر مما يحصل عليه الجنود المشاة؟ هل كان ينبغي أن يحصل الرجال الذين شاركوا فى الحملة ولكنهم لم يشاركوا فى المعركة الفعلية على نصيب كذلك ؟ وإذا كان ذلك كذلك ، فكم يكون نصيبهم؟ وكم يجب إرساله إلى الخليفة فى المدينة ؟ ومن المؤكد أن هذا الاهتمام يعكس السرور الذى كان يعتري الكثير من هؤلاء الجنود البدو الأفظاظ الجاهزين للحرب عندما يسكون بأدوات الحياة المتحضرة ويستخدمونها ، ولكن القصص تدور حول العدل والإنصاف (ولكن فيما بين الغزاة فحسب بطبيعة الحال) . فهم يحبون أن يحكوا كيف كانت الغنائم توزع فى عدل وشفافية ، فى ميدان مفتوح بعد المعركة وأمام نظر الجميع . ومن الواضح أن مثل هذه الحكايات جزء من عقيدة «الأيام القديمة الخيرة» عندما كان المسلمون جميعاً شجعاناً وأنقياء القلوب وكانت العدالة تتحقق تحت نظر الخليفة عمر بن الخطاب الصارم (٦٣٤-٦٤٤) ، هذه «الأيام القديمة الخيرة» كانت محل حفاوة وتطورت فى العالم اللاحق الذى كان يبدو أنه فقد هذه البراءة الباكِرة ، عندما شعر أحفاد الفاتحين الأصليين أنهم مهمشون ومستبعدون عما كانوا يرون أنه مكافأتهم العادلة . هذه الذكريات القديمة عن أزمنة أفضل كانت غالية فى قيمتها المزدوجة بوصفها ، تأكيدات من الماضى ومؤشرات إلى مستقبل أفضل .

وإذا أبدى المؤرخون اهتماماً واضحاً ببعض جوانب الفتوح ، فإنهم كانوا أقل اهتماماً بجوانب أخرى قد تبدو فى عيوننا أكثر أهمية . فالرواية التى تتناول معركة القادسية ، التى وضعت النهاية الحاسمة للقوة الفارسية فى العراق حسبما جاءت فى تاريخ الطبرى ، تستغرق حوالى مائتى صفحة فى الترجمة الإنجليزية ، ومع ذلك فإن مجرى المعركة يظل غامضاً بشكل يسبب الإحباط . ومن المسلم به أنه يصعب تماماً

التأكد من تقدم العمل العسكرى فعلا حتى فى الصراعات الأحدث زمناً ، بيد أن هذا الغموض يكاد يجعل من المستحيل تقديم إجابات مقنعة للأسئلة المهمة حول سبب أن الجيوش البيزنطية والساسانية التى حاولت منع الغزوات العربية لأراضيهم كان أداؤها على هذا القدر من السوء. وفى بعض الأحيان يقال لنا فى مصطلحات مجردة قوية إن القتال كان شديداً ولكن المسلمين انتصروا فى النهاية. وفى بعض الأحيان أيضاً يُساق خصومهم إلى الأنهار أو المنحدرات بحيث يتم قتل أعداد كبيرة بهذه الطريقة . وهناك عدد من الروايات بأن كلاً من البيزنطيين والساسانيين كانوا يربطون قواتهم بالسلاسل لمنع الجنود من الفرار من ميدان المعركة ؛ وهذه ليست معلومات تاريخية حقيقية وإنما وسيلة لإظهار كيف كان المسلمون مدفوعين بالإيمان على حين كان خصومهم مكرهين بالطغيان^(٢). وربما كان هذا صحيحاً ولكن القصص كما تقدم لنا لاتخبرنا بشيء عن الأسباب العسكرية الحقيقية وراء الهزيمة.

ربما يكون غموض الترتيب الزمنى للأحداث التاريخية أشد إثارة للسخط عند المؤرخين المحدثين . وهذه مشكلة تتعلق بالمرحلة الأولى من حركة الفتوح. إذ نجد أمامنا تواريخ تتراوح ما بين ثلاث أو أربع سنوات للانتصارات الكبرى فى اليرموك والقادسية . فقد كان مؤرخو القرنين الثالث والرابع للهجرة / التاسع والعاشر الميلاديين ، راضين بأن تبقى التواريخ كما هى معترفين ببساطة أن هذه الآراء التى تختلف اختلافاً بيناً كانت موجودة . وفى ظل غياب الروايات الموثقة من خارج التراث العربى ؛ فإننا غالباً ما نكون غير متأكدين تماماً من التاريخ الحقيقى حتى بالنسبة لأهم أحداث التاريخ الإسلامى الباكر.

إن ما الذى يمكن أن يفعله المؤرخ الحديث، الذى يحاول إعادة بناء مجرى الأحداث وتحليل الأسباب التى أدت إلى نجاح المسلمين وانتصار جيوشهم، إزاء هذا ؟ فمنذ بداية البحث العلمى فى هذا المجال عند مطلع القرن التاسع عشر ، ظل المؤرخون يعتصرون أيديهم حنقاً وغيظاً من فوضى المادة التاريخية ، والطبيعة الأسطورية الواضحة ، والتكرار اللامتناهى، والتناقضات المستمرة فى كثير منها . وقد أبدى ألفريد بتلر Alfred Butler، الذى كتب عن فتح مصر سنة ١٩٠٢م ، حزنه بسبب «الارتباك الشديد» فى المصادر كما استبعد بعض المادة باعتبارها «خرافات».

ومنذ زمن بعيد أدرك المؤرخون الطبيعة المرتبكة المتناقضة لكثير من المادة الواردة في المصادر العربية، ولكن ظهر في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين تحد أوسع نطاقاً لمصادقية هذه الموروثات . فقد لاحظ ألبرخت نوث في ألمانيا كيف أن الكثير من حكايات الفتوح كانت عبارة عن صياغات نمطية متكررة في الكثير من الروايات المختلفة، وكانت تُنقل من معركة ما إلى معركة أخرى. أما الروايات التي تتحدث عن كيفية سقوط المدن في أيدي العرب بسبب خيانة بعض السكان، فهي موجودة في الكثير جداً من الحالات المختلفة ويتم روايتها بلغة متشابهة جداً وبدرجة يصعب معها أن تكون حقيقية . وفي الوقت نفسه تقريباً ، ناقش كل من ميخائيل كوك Michael Cook وبارتشيلا كرون Patricia Crone في لندن أن المصادر عن سيرة النبي محمد وتاريخ الإسلام الباكر عامة ، كانت غاصة بالتناقضات وعدم الاتساق بحيث أننا لا يمكن أن نكون متأكدين من أى شيء ؛ بل إن وجود النبي محمد نفسه كان محل تساؤل^(٣).

كانت نتيجة هذا الهجوم العنيف أن الكثير من المؤرخين ، حتى أولئك الذين لم يكونوا مقتنعين بكل مناقشات المراجعة، باتوا مترددين في أن يأخذوا هذه الحكايات مأخذ الجد أو يعتمدوا على أى من التفاصيل التي تحتويها ، ولى رأى مختلف. وهناك عدد من الأسباب تجعل من الواجب علينا أن نرجع إلى هذه المادة ونحاول أن نستخدمها بدلاً من نفض أيدينا منها . وأول هذه الأسباب أن الروايات العربية يمكن أحياناً التحقق منها في مقابلة المصادر من خارج التراث الأدبي العربي، فالحولية السوربانية الخوزستانية ، مثلاً ، أو التاريخ الأرمني الذي كتبه سيببوس Sebeos كلاهما روايات كتبها مسيحيون في غضون قرن بعد الحوادث التي يتحدثون عنها. وهما أقصر كثيراً وأقل تفصيلاً عن الروايات العربية ولكنهما تؤكدان الإطار العام للتاريخ العربي. بل إنهما في بعض الأحيان تؤكدان التفاصيل ، فمثلاً ، تقول المصادر العربية إن مدينة تُستر جيدة التحصين سقطت بأيدي المسلمين بسبب خيانة بعض السكان، الذين بينوا للمسلمين كيف يدخلون عبر قنوات الماء المغطاة . ومثل هذا العنصر غالباً ما كان يتم استبعاده على أساس أنه عبارة عن صياغة بلاغية ولاقيمة له لأننا نجد روايات مماثلة عن فتوح مدن وحصون أخرى. أما في هذه الحالة، فإن مؤرخة خوزستان المحلية،

وهي مصدر سورياني مسيحي لا علاقة له ألبتة بالتراث الإسلامي، تحكى لنا القصة نفسها بشكل مستقل، مما يوحى بشدة أن المدينة سقطت فعلاً بالطريقة التي ورد وصفها . ومغزى هذا أنه يمكن الاعتماد على المصادر التي تتحدث عن فتح تُستر بدرجة أكبر مما كنا نظن، وربما يصدق هذا على المناطق الأخرى أيضا .

ويمكن أن نمضى شوطاً أبعد مع إعادة الاعتبار للمصادر العربية. ويمكن الرجوع مع كثير منها إلى المؤرخين في منتصف القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) من أمثال سيف بن عمر. فقد عاش سيف في الكوفة بالعراق ومات بعد سنة ٧٨٦م. وماعدا ذلك فنحن لانعرف شيئاً عن حياته ، بيد أنه أهم مصدر سردي عن الفتوح الباكرة. وقد ساور الشك مؤرخي العصور الوسطى والمؤرخين المحدثين في أن يكون قد اصطنع بعض رواياته، ولكن إحدى الدراسات توحى بأنه أكثر جدارة وصدقاً مما كان المؤرخون السابقون يتخيلون . ولاشك في أنه مسئول عن جمع وتحرير الكثير من أكثر الروايات حيوية عن الفتوح الباكرة^(٤). لقد كان سيف يكتب بعد أكثر من قرن على الفتوح الباكرة وربما كان بعض المشاركين فيها لا يزالون على قيد الحياة عندما كان سيف صبياً. وفضلاً عن ذلك كانت الفتوح اللاحقة في إسبانيا وأسيا الوسطى لا تزال تجري أحداثها أثناء سنى حياته. لقد كان سيف أقرب زمنياً إلى الفتوح الإسلامية الكبرى مما كان جريجورى التورى بالنسبة للميروفنجيين^(*). أو مما كان بيديه^(**) بالنسبة لاعتناق الأنجلو سكسون المسيحية ، وكلاهما من المصادر التي اعتمد عليها المؤرخون دائماً في إعادة بناء هذه الأحداث.

(*) الميروفنجيون الأسرة الحاكمة لقبائل الفرنجة السالين الذين غزوا بلاد الغال القديمة (فرنسا حالياً) تحت زعامة كلوفيس، وحكموا المملكة فترة من الزمان حتى حل محلهم حكام الأسرة الكارولنجية ، وأشهرهم شارلمان، أو شارل الكبير. (المترجم)

(**) بيديه Bede أحد المؤرخين الإنجليز الذين عملوا في مجال التعليم والتاريخ، وقد ألف عدة كتب أهمها «التاريخ الكنسى للامة الإنجليزية» الذى يعد من المصادر الأولية للتاريخ الإنجليزى . وقد عاش بيديه فيما بين سنة ٦٧٣م وسنة ٧٣٥م . ويعرف عادة باسم بيديه المبجل The Venerable.

وهنا يوجد بُعد آخر لهذه المصادر، وهو البعد الذى يتمثل فى الذاكرة الاجتماعية : فقد أوضح جيمس فينتريس James Fentress وكريس ويكهام كيف أن الروايات التقليدية، التى قد تكون دقيقة وقد لا تكون دقيقة، تحمل ذكريات عن المواقف والمفاهيم التى تخبرنا بالكثير عن الكيفية التى نتذكر بها المجتمعات ماضيها ، وبالتالي تدلنا على المواقف فى زمن تأليفها^(٥). إذ تجب قراءة حكايات الفتوح باعتبارها مجرد ذاكرة اجتماعية . وبهذه الطريقة تكشف المصادر العربية الباكورة مواقف المسلمين فى القرنين اللذين أعقبا الفتوح بصورة واضحة. وإذا كنا نريد فحص عقلية المجتمع الإسلامى الباكر، فإن هذه المصادر تكون ذات قيمة بالغة . لقد كان الاتجاه بين بعض المؤرخين هو الحط من شأن الحكايات : فإذا ما حاولنا بدلاً من ذلك أن نساير الحكايات فى مسارها، وأن نقرأها بحثاً عما تحاول أن تخبرنا به فإنها يمكن أن تنورنا أكثر من ذلك كثيراً .

وأحد الموضوعات الرئيسية التى تتناولها المصادر يتمثل فى الفرق بين العرب المسلمين وأعدائهم وعاداتهم ومواقفهم، وقيمهم المختلفة. ولا يحلل الكتاب العرب هذه الموضوعات بأى معنى رسمى ولكنهم بدلاً من ذلك يستكشفونها فى السرد والحكاية. ولنأخذ ، على سبيل المثال، حكاية من بين مئات الحكايات التى وصلت إلينا من القرنين الثامن والتاسع الميلاديين. وهى من كتاب فتوح مصر الذى جمعه فى شكله الحالى ابن عبد الحكم فى منتصف القرن التاسع الميلادى^(٦).

وتبدأ القصة. بحكاية كيف أن والى مصر المسلم، عبد العزيز بن مروان (تولى من ٦٨٦ إلى ٧٠٤م) ، جاء إلى الاسكندرية فى زيارة . وتساءل عما إذا كان هناك أى رجال لا يزالون على قيد الحياة يتذكرون فتح المدينة على أيدي المسلمين سنة ٦٤١م، أى قبل نصف قرن على الأقل . وأخبروه أنه يوجد رجل رومى فقط، كان صبياً يافعاً فى ذلك الوقت. وعندما سئل عما يتذكره من ذلك الزمان ، لم يحاول أن يقدم رواية عامة عن الأمور الحربية وسقوط المدينة ولكنه بدلاً من ذلك روى قصة حادثة معينة كان هو شخصياً أحد أطرافها «... فقال: كنت غلاماً شاباً ، وكان لى صاحب ابن بطريق من

بطارقة الروم، فأتانى فقال: ألا تذهب بنا حتى ننظر إلى هؤلاء العرب الذين يقاتلوننا؟ فلبس ثياب ديباج ، وعصابة ذهب، وسيفاً محلي، وركب برذونا سميناً كثير اللحم، وركبت أنا برذونا خفيفاً ، فخرجنا من الحصون كلها حتى برزنا على شرف ، فرأينا قوماً فى خيام، لهم عند كل خيمة فرس مربوط، ورمح مركوز ، ورأينا قوماً ضعفاء ، فعجبنا من ضعفهم ، وقلنا كيف بلغ هؤلاء القوم ما بلغوا ؟

«فبينما نحن وقوف ننظر إليهم ونعجب إذ خرج رجل منهم من بعض تلك الخيام، فنظر، فلما رآنا حلّ فرسه، فسمعك، ثم مسحه ، ووثب على ظهره وهو عُرَى، وأخذ الرمح بيده، وأقبل نحونا، فقلت لصاحبي : هذا والله يريدنا .

فلما رأيناه مقبلاً إلينا لا يريد غيرنا أدبرنا مولين نحو الحصن، وأخذ فى طلبنا ، فلحق صاحبي لأن برنونه كان ثقیلاً كثير اللحم، فطعنه برمحه ، فصرعه، ثم خضع الرمح فى جوفه حتى قتله .

ثم أقبل فى طلبى، وبادرت ، وكان برنونى خفيف اللحم، فنجوت منه حتى دخلت الحصن فلما دخلت الحصن أمنت، فصعدت على سور الحصن أنظر إليه، فإذا هو لما أيس منى رجع، فلم يبال بصاحبي الذى رجع ، ولم يرغب فى سلبه ، ولم ينزعه عنه، وقد كان سلبه ثياب الديباج وعصابة من ذهب ولم يطلب دابته ، ولم يلتفت إلى شىء من ذلك ، فأنصرف من طريق أخرى، وأنا أنظر إليه ، وأسمعه يتكلم بكلام ، ويرفع به صوته ، فظننت أنه إنما يقرأ قرآن العرب، فعرفت عند ذلك أنهم إنما قووا على ما قووا عليه، وظهروا على البلاد لأنهم لا يطلبون الدنيا ولا يرغبون فى شىء منها . حتى بلغ خيمته فنزل عن فرسه فربطه، وركز رمحه ، ودخل خيمته، ولم يعلم بذلك أحداً من أصحابه .

فقال عبد العزيز: صف لى ذلك الرجل وهيئته وحالته .

فقال : نعم ، هو قليل دميم، ليس بالتام من الرجال فى قامته ، ولا فى لحمه، رقيق آدم كوسج (أى لا شعر على عارضيه) .

فقال عبد العزيز عند ذلك : إنه ليصف صفة رجل يمانى»(*) .

تبدو هذه القصة للوهلة الأولى غير جديرة بالقراءة الجادة، دك من إعادة نقلها . فقد كان الفتح الإسلامى للإسكندرية حادثة ذات أهمية أساسية ، كانت هى نهاية الحكم البيزنطى فى مصر والقضاء على حكم ناطق باليونانية استمر تسعمائة سنة بالمدينة . وقد كرس المؤرخ ابن عبد الحكم عدة صفحات للحديث عن فتح الإسكندرية . وهو لا يخبرنا بشيء عن طبيعة الحصار، إذا كان ثمة حصار ، حيث كان قد تم نشر الجيوش أو أية تفصيلات عسكرية نحب أن نعرفها . وعلاوة على ذلك ، لا يوجد دليل حقيقى على أن هذا حدث فعلاً . بمعنى وصف ما حدث بالفعل ، وحتى لو حدث، لما كان مهماً للغاية؛ ذلك أن أبطال القصة مجهولو الهوية وموت رجل واحد ليس له تأثير كبير على أحداث أكثر عمومية. ومع المزيد من التأمل ، على أية حال، تكشف هذه القصة عن الكثير. أولاً أن روايتها جاءت فى سياق تاريخى. وقد لا تكون سجلاً حقيقياً لما حدث فى سنة ٦٤١م ولكنها تبدو بالفعل قطعة أصيلة من أواخر القرن السابع الميلادى. فقد أراد الوالى الأموى أن يكتشف المزيد عن الظروف التى جعلت الولاية التى كان يحكمها آنذاك تصبح جزءاً من العالم المسلم. وشأنه شأن المؤرخين والمؤلفين فى زمانه انشغل فى استعادة هذه الذكريات وتسجيلها قبل أن تختفى إلى الأبد. والقصة نفسها تؤكد على بعض الموضوعات المألوفة . فالبيزنطيون أغنياء مترفون ، غير معتادين على خشونة الأمور الحربية. وفضلاً عن ذلك، يظهر النص التقسيمات الحادة للطبقة والثروة بين ابن البطريق وبين الراوى. أما العربى، على النقيض من هذا، فإنه يعيش حياة الحرمان والزهد فى خيمته . وهو بعكس البيزنطى سليل الطبقة العليا فارس ممتاز، تربطه بحصانه علاقة حميمة وعاطفية وهو قادر على أن يثب على ظهره ويقود بونما سرج على ظهر الحصان . وهو أيضاً، بطبيعة الحال، مقاتل ماهر وصلب فى استخدام الرمح . ويعد موت ابن البطريق ، يبدى حماسته الدينية بقراءة القرآن

(*) رأيت أن من الأنسب إثبات نص رواية ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، (تحقيق عبد المنعم عامر، نشر الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سلسلة الذخائر رقم ٤٩) ، ص ١١٠-١١١ . (المترجم)

ولامبالاته بالأغراض المادية فلا يتوقف لكى يسلب ما على جثة ضحيته من أشياء. وسؤال الوالى الختامى عن مظهر الرجل يتيح للراوى أن يصف رجلاً ضئيل الحجم ، زرى الهيئة . وعلى نحو ما ، يدهشنا أن هذه صورة تخلو من الإطراء، ولكنها أيضاً تقرر أمراً ، فالرجل يوصف بأنه يمنى نمطى. ومعظم العرب الذين فتحوا مصر كانوا يمينيين أو من أصول عربية جنوبية . وعلى العكس من ذلك ، كان الوالى من قبيلة قريش، قبيلة النبی نفسه، وهو نسب أكثر أرسقراطية بكثير. وعلى أية حال ، فإن المؤلف الذى يقال إنه حفظ هذه القصة كان هو نفسه يمينياً ، من قبيلة خولان القديمة. ولم تكن خولان قبيلة بدوية بالمعنى التقليدى ولكنها سكنت منطقة من القرى فى القلب الجبلى من بلاد اليمن. وكانت سلالتهن ولا تزال تحمل اسم خولان وتعيش فى المنطقة نفسها الآن. ولقد لعب أبناء قبيلة خولان دوراً مهماً فى فتح مصر وكانوا بارزين ومرموقين بين العائلات العربية الراسخة فى الفسطاط على مدى القرنين اللذين أعقبا الفتح . ومن الواضح أن المصدر(*) قد طور الحكاية على اعتبار أنها طريقة للتأكيد على أهمية الدور الذى لعبه بنو جلدته ، واليمينية عموماً ، فى فتح البلاد التى كانوا يعيشون فى رحابها آنذاك.

وتؤكد الحكاية أيضاً وتبرز الطرق التى كان المسلمون يرون بها أنفسهم مختلفين وأكثر تمسكاً بالفضيلة من المسيحيين المحيطين بهم والذين كانوا يفوقونهم عدداً بالتاكيد. كما أنها تحقق هدفاً سياسياً بالتأكيد على دور اليمينيين فى الفتوح والطريقة التى كانت توجب على الحاكم أن يبدي احترامه لهم بسبب إنجازاتهم فى هذا الوقت . لقد كان ابن عبد الحكم ، الذى كان آخر من صاغ القصة، وأوردها فى كتابه، يكتب فى منتصف القرن التاسع الميلادى / الثالث الهجرى عندما كانت هذه العائلات اليمينية تفقد نفوذها ومكانتها الخاصة لأن القوات التركية التى استخدمها العباسيون فى بغداد استولت على السلطة العسكرية فى مصر. ويؤكد من خلال إبراز بطولة هذا

(*) الراوى الأصلى لهذه القصة حسب الإسناد الذى أورده ابن عبد الحكم (ص ١١٠) هو من يسمى «الخولانى» إذ يقول نص الرواية «فحدثنا هانى بن المتوكل ، حدثنا ابن لهيعة عن بكر بن عمر والخولانى...» (المترجم)

الجيل الباكر على حقوق طبقته ومكانتها فى زمنه . ومن الواضح أن القصة قد تم تعديلها لتناسب الفترات الزمنية التى مرت عليها ولكنها تحتفظ بذكرى اجتماعية عن الصلابة والتقوى والهوية اليمنية للقاتحين . وقد تم حفظ هذه الذكرى لأنها كانت ذات قيمة بالنسبة لأولئك الذين احتفظوا بها حية، بيد أنها تعكس أيضا حقيقة بيئة الفتوح نفسها فضلاً عن تفاصيلها .

كذلك يختلف التدوين التاريخى العربى اختلافاً بيناً فى النوعية والتناول . وعلى العموم، فإن الروايات التى تتناول المراحل الأولى من الفتوح منذ ثلاثينيات القرن السابع الميلادى حتى الخمسينيات مفعمة بعناصر أسطورية ومجازية ؛ فضلاً عن الخطب والحوارات المتخيلة وقوائم أسماء المشاركين . ومن ثم فإنها قاصرة عن إعطاء التفاصيل عن الطبوغرافية والأرض والتجهيزات والأساليب المستخدمة . وتدين الروايات عن فتح مصر وشمال أفريقيا بشيء ما لثراث التدوين التاريخى المحلى، ولكن فى كل من الحالىن يبدو هذا التراث متهافتاً بشكل مُخيبٌ للأمال. إذ ترد أخبار الفتوح فى بدايات القرن الثامن الميلادى (الثانى الهجرى) فى عدة روايات مختلفة لغاية . كما أن الروايات عن فتوح ما وراء النهر، والتى جمعها وحررها المدائنى ونُشرت فى تاريخ الطبرى، لا تزال حتى الآن أكثر الروايات التى لدينا حيوية وتفصيلاً عن أى من الحملات الكبرى فى تلك الفترة. فهى مليئة بالأحداث والأعمال والحرارة والغبار، كما أنها تسجل وتحكى عن إخفاقات الجيوش العربية بنفس التفاصيل التى تحكى بها عن انتصاراتهم . ولا يمكن أن نقترّب فى أى مكان آخر من الحقيقة التى تتعلق بحروب الحدود . إذ إن قصة فتح إسبانيا فى السنوات نفسها متناقضة بشكل مذهل . فالسرديات قليلة مفعمة بالعناصر الأسطورية والفولكلورية ، كما يرجع تاريخها ، فى صيغتها الحالية، إلى قرنين على الأقل بعد الأحداث : وقد فشلت أفضل جهود أجيال من المؤرخين الإسبان فى فك غموض هذه الفوضى .

فقد كان هناك، إلى جانب الثقافة العربية السائدة ، موروّثات ثقافية أقدم زماناً قد أنتجت أدبها الخاص بها . وبطبيعة الحال، استمر الناس أنفسهم يكتبون فى اللغة اليونانية التى كانت لغة الثقافة القديمة الراقية. وكان أشهر هؤلاء حنا الدمشقى،

أهم لاهوتى أرثوذكسى يونانى فى القرن الثامن الميلادى . وقد وُلد لعائلة من الإداريين نوى الأصل العربى ممن كانوا يعملون فى خدمة الإدارة الأموية فى دمشق، وبنفس الطريقة التى عملوا بها فى خدمة البيزنطيين من قبل. ولكن حنا الدمشقى، الذى صار يعرف باسم القديس حنا، كان ينتمى إلى آخر جيل يستخدم اللغة اليونانية باعتبارها اللغة الأولى فى العمل، كما أنه لم يكن مؤرخاً . وليس لدينا كتابات تاريخية يونانية باقية عن الفتوح العربية . وبطبيعة الحال، استمر الناس يكتبون التاريخ باليونانية عبر الحدود البيزنطية حيث استمرت اليونانية لغة الحكومة . وعلى أية حال، فمن المثير أن الرواية اليونانية الرئيسية عن هذه الفترة، والتى كتبها الراهب ثيوفانيس Theophanes فى القسطنطينية ، ربما اعتمدت فى معلوماتها على روايات عربية أو سريانية تمت ترجمتها إلى اليونانية. وليس هناك تراث بيزنطى مستقل يمكن أن يوفر لنا ما نتحقق به من صحة الروايات العربية.

وبالنسبة للمؤرخ فى هذه الفترة يكتسى التراث السريانى أهمية أكبر من التراث اليونانى. فالسريانية لهجة مكتوبة من الآرامية ، وهى لغة سامية ، تختلف كثيراً عن العربية والعبرية ولكنها تستخدم كتابة متميزة خاصة . وعلى مدى قرون كانت لغة الحديث العامى المشتركة فى الهلال الخصيب (الشام والعراق) ، ويفهمها رعايا الإمبراطور البيزنطى فى بلاد الشام ورعايا الإمبراطور الشاهنشاه الفارسى فى العراق. ولابد أن المسيح وحوارييه كانوا يتحدثون بها فى حياتهم اليومية. وهى لا تزال مستخدمة فى الحديث فى أماكن قليلة ولاسيما فى بلدة «معلول» السورية الصغيرة، وهى جماعة مسيحية صغيرة بقيت معزولة ، حتى وقت قريب ، فى ممر جبلى صخرى شمال دمشق . ومع قدوم المسيحية إلى بلاد الشام ، تمت ترجمة الكتاب المقدس إلى السريانية ، وفى مناطق ريفية كثيرة نائية وبعيدة عن مدن الساحل التى تتحدث اليونانية، كانت طقوس الكنيسة والكتابة الدينية تتم بالسريانية ، وهى اللغة التى كان السكان المحليون يفهمونها .

ويأتى التدوين التاريخى السريانى عن العالم الإسلامى الباكر فى معظمه من خلفية كنسية. وكما كان الحال فى أوربا العصور الوسطى الباكرة، كان معظم كاتبى

المؤرخات من الرهبان أو من القساوسة ، وكانت اهتماماتهم منصبه أولاً وقبل أى شىء على الدير والعالم المحيط به . فهم مهتمون بقدر كبير بالطقس القاسى غير المعتاد وصعوبات الحياة فى الريف، وكان كلاهما يؤثران بشكل مباشر على حياة الدير، كما اهتموا بالقدر نفسه بالحروب ومجئ الملوك ورحيلهم. وفوق هذا وذاك كانوا يهتمون بالشئون السياسية للكنيسة ، والأعمال العظيمة لمشاهير القديسين ، والمنافسات حول المناصب الكنسية، والشرور التى يرتكبها الفاسدون ، وأسوأهم جميعاً رجال الكنيسة الهرطقية. وفى هذا العالم الذى يجمع بين القرية والجبل ومراعى الاستبس ، يُنظر إلى وصول العرب بنفس النظرة التى يُنظر بها إلى قدوم الصقيع فى شهر مايو، أو قدوم أسراب الجراد: فهم عبء فرضه الرب على المؤمنين وربما يكون عقاباً جزاء خطاياهم ، ويجب تحمله على أية حال بكل ما يمكن من الرزانة. وربما يبدو غريباً فى عيون المحدثين أنه لا يوجد تحريض للسكان المحليين على تسليح أنفسهم ومهاجمة خصومهم . فبدلاً من ذلك كانت القاعدة الأخلاقية تقضى بأنه يجب على الناس أن يبقوا على ولائهم وإخلاصهم لكنيستهم وسوف يحفظهم الرب.

وهناك أدب مقاومة ولكنه أدب آخرى الطابع. وتتطلع هذه الكتابات إلى يوم يأتى ؛ وفيه سيقوم ملك عظيم أو إمبراطور كبير بالقضاء على السيادة العربية ويكون دليلاً على قرب نهاية العالم . وسوف تنتهى المصاعب الآتية ويزول الطغيان ليس عن طريق أولئك الذين يتعرضون للاضطهاد ، ولكن عن طريق التدخل الإلهى الذى يتجاوز قدرات البشر . هذه الكتابة من عدة جوانب تبدو قدرية مضحكة وقد يعجب القارئ فى القرن الحادى والعشرين كيف كان يمكن لأحد أن يصدقها أو حتى يأخذها بجديّة. بيد أنها تقدم بالفعل نظرة ثابتة أساسية فى عالم الفكر الذى عاشته تلك الجماهير الضخمة فى منطقة الهلال الخصيب الذين غزاهم وأخضعهم هؤلاء الغزاة الأجانب الجدد(*) .

(*) لا يمكن الموافقة على كلام المؤلف هنا ببساطة لأن سكان هذه المنطقة كانت غالبيتهم من القبائل العربية التى هاجرت من شبه الجزيرة فى فترات مختلفة إلى بلاد الشام وفلسطين أو إلى أرض السواد فى العراق، وربما قصد المؤلف أن يفرق بين الثقافة التى كانت سائدة بين القبائل البدوية فى شبه الجزيرة العربية، والقبائل العربية التى عاشت فى منطقة الهلال الخصيب على أساس الثقافة السائدة ؛ ولكن الأهم أن العرب الذين قامت حركة الفتوح على عاتقهم لم يكونوا غرباء تماماً عن عرب الشام والعراق. (المترجم)

ويبدو أن قلة الحيلة والقدرية ، التي تعلموها عن أجيال من الحكم البعيد غير المستجيب ، قد منعت مثل هؤلاء من حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم : فقد كان من الأفضل الاعتماد على الصلاة في الحاضر ومن أجل حضور الحاكم العادل الذي وعدوا به زمناً طويلاً في المستقبل.

لقد كانت هناك موروثة أخرى غير إسلامية في الكتابة التاريخية . ففي مناطق القوقاز الجبلية النائية ، استمر الأرمن يحافظون على تراث في الكتابة التاريخية استمر منذ قدوم المسيحية في القرن الرابع حتى العصور الوسطى. وعن زمن الفتوح الإسلامية تمدنا مؤرخة سيببوس بصفحات قليلة معذبة تحمل معلومات تعزز إلى حد كبير الخطوط العريضة للتراث العربي^(٧). أما بالنسبة لفتح مصر فهناك المؤرخة القبطية التي كتبها يوحنا النقيوسي، أسقف مدينة نقيوس الصغيرة في الدلتا والذي كان شاهد عيان معاصراً^(٨). ولاتوجد هذه المؤرخة سوى في ترجمة حبشية ، وقد فقد جزء من الرواية على حين أن معظم ما تبقى منه مشوش ومختلط^(*). وعن إسبانيا توجد مؤرخة لاتينية كتبت في الجنوب في المنطقة الواقعة تحت حكم المسلمين ، وتُعرف باسم السنة التي حدث فيها الدخول النهائي للمسلمين «مؤرخة سنة ٧٥٤م». وأخيراً شهد القرن الثامن الميلادي ظهور حوايات مسيحية مكتوبة باللغة العربية خلقت تراثاً اعتمد على التراث العربي والتراث المسيحي على السواء. وفي بعض الأحيان تكون هذه المؤرخات معاصرة تقريباً للأحداث التي تتحدث عنها والمعلومات التي تعطيها لنا لاتقدر بثمن ولكن طبيعتها المختصرة والشذرية تعني أنها تترك أسئلة كثيرة بدون إجابات.

(*) هناك ترجمة فرنسية نشرها زوتنبرج كاملة سنة ١٨٨٢م. انظر:

Zotenberg, Chronique de Jean Evêque de Nikiou, Texte Ethiopien publié et traduit Imprimerie Nationale, Paris 1883, Paris.

وهناك ترجمة إنجليزية للنص الفرنسي قام بها تشارلز سنة ١٩١٦م. انظر : R.H. Charles, The Chronicle of John , Bishop of Nikiu, translated from Zotenberg's Ethiopian Text, Oxford, London 1916.

وتوجد ترجمة عربية عن النص الحبشي مباشرة: انظر : عمر صابر عبد الجليل ، تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي (دار عين للدراسات والبحوث ٢٠٠٠م) .

وعلى الرغم من أن المؤرخات المسيحية قصيرة وغامضة ومشوشة بشكل محبط غالباً، فإنها تساعدنا بالفعل أن نتحقق ونعارض المادة الموجودة في التراث العربى الأضخم والذي يبدو من الواضح أنه قد تم تهذيبه . فالمصادر العربية تكاد تحصر اهتمامها في أفعال المسلمين. والكفار الوحيدين الذين يأخذون أدواراً ناطقة في المؤرخات هم الأباطرة البيزنطيون والقادة الفرس الذين تشكل أفكارهم نذيراً بهزائمهم الحتمية. وأى شخص أجنبى يقرأ تاريخ الطبرى الضخم «تاريخ الرسل والملوك»، مثلاً، لا يمكن أن يدرك بوضوح أن الأغلبية الساحقة من سكان الأراضى التى كان يحكمها الخلفاء فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين لم يكونوا من المسلمين ، بل سيكون فهمه أقل لاهتماماتهم والتأثير الذى كان قدوم العرب قد تركه فيهم. وطالما كانوا يدفعون الأموال المتفق عليها، فإنهم لم يكونوا يُعتبرون معادين بشكل نشط تجاه نظام الحكم الجديد بأية طريقة ، فقد كانت أفعالهم محل تجاهل تماماً فى سرديات النخبة الحاكمة.

كانت المصادر المكتوبة واسعة شاملة بيد أنها كانت غاصة بالمشكلات . فهل يمكن لنا أن نستعيض عنها بالآثار ؟ من المؤكد أن الشهادة غير العاطفية لبقايا المادة الخرساء يمكن أن تعطينا رواية أكثر توازناً عن هذه القصص المرهقة . إلى حد ما هذا حقيقى، ولكن الآثار ، مثل السجلات المكتوبة ، لها جوانب قصورها ، كما أن لها أجنحتها الخاصة على نحو ما.

من الواضح بداية أنه لا توجد شهادة أثرية مباشرة على الفتوح نفسها . إذ لم توجد ساحة معركة وجدت بها عظام أو أسلحة قديمة ، ولا توجد مدينة واحدة أو قرية يمكن أن نشير فيها إلى طبقة من الدمار أو الحريق ونقول إن هذا لابد أن يكون قد حدث فى زمن الفتح العربى. وكل ما يمكن للأدلة الأثرية أن تفعله هو أن تمدنا بدليل يرشدنا إلى الاتجاهات طويلة المدى، أى الضجة الخلفية الناجمة عن قدوم المسلمين .

وثمة مشكلة أخرى تتمثل فى الطبيعة الترقيعية للدليل الأثرى. فقد تم إجراء الكثير من الحفريات ومسح المواقع فى سوريا ، والأردن وفلسطين ، مصحوبة بنقاش نقدى حى عن الدليل وتفسيره. وعبر صحراء العراق، يختلف الوضع تماماً. وذلك أن المشكلات

السياسية على مدى السنوات الثلاثين الماضية كانت تعنى أن نوع البحث والتحقيق الذى كان مثمرًا جدًا فى شرق المتوسط لم يحدث أبدًا على أى نطاق كبير. ويصدق الأمر نفسه إلى حد ما فى إيران . حيث تسببت الثورة الإسلامية سنة ١٩٧٩م توقفًا حقيقياً للحفريات وعمليات المسح ، وعلى الرغم من أن جيلًا جديدًا من الأثريين الإيرانيين قد بدأ فى القيام بالمهمة ، فإن الجدل والنقاش حول الانتقال من الحكم الساسانى إلى الحكم الإسلامى فى مدن إيران قد بدأ بالكاد .

منطقة واحدة أُلقت الآثار فيها الضوء على قدوم المسلمين تتمثل فى حالة السكان والمجتمع فى الشرق الأوسط فى ذلك الوقت . ومرة أخرى تقدم بلاد الشام وفلسطين أحسن مثال . فقد كان هناك نقاش حى فى السنوات القريبة الماضية حول مصير بلاد الشام أواخر العصور القديمة. فهناك قدر قليل من الشك فى أن منطقة شرق المتوسط برمتها قد نعمت بفترة من النمو الاقتصادى والسكانى، الذى لم يسبق له مثيل فى العقود الأربعة الأولى من القرن السادس الميلادى. ويدور السؤال حول ما إذا كان هذا الازدهار قد استمر حتى قدوم العرب بعد مائة سنة تقريباً. فليست هناك سجلات أو إحصائيات تخبرنا عن هذا، كما أن المصادر السردية لا يمكنها سوى تقديم بعض اللمحات . ويشى الدليل الأثرى الذى اكتشف فى المدن والقرى، بأن النصف الثانى من القرن السادس وبداية القرن السابع كانت فترة جمود، إن لم تكن فترة تدهور مطلق. فالمدن لا تبدو أنها قد نمت وتوسعت ويمكن بيان أن بعضها ، مثل العاصمة الكبرى فى الشرق أنطاكية ، قد انكمشت ، واندمجت فى داخل دائرة صغيرة من الأسوار . وغالباً ما يكون الدليل غامضاً : إذ نادراً جداً ما يحدث أن يوضح السجل الأثرى أن مكاناً بعينه أو مبنى خاصاً كان مهجوراً بشكل بَيِّن . ويمكننا أن نرى أن الشوارع التى تحف بها الأعمدة من الجانبين، والحمامات والمسارح فى العصور القديمة قد تعرضت لغزو من المحتلين أو تحولت للاستخدام الصناعى كأفران للفخار . والأقل وضوحاً ما يعنيه هذا بالنسبة لرخاء المدينة: هل صارت ساحة معركة نصف مهجورة وخربة أم كان هناك سكان كثيرون نشطون يستخدمون المدينة بطرق مختلفة ولأغراض جديدة ؟ إن كثيراً من الأدلة يمكن قراءتها بكل من الطريقتين .

وعلاوة على هذا، فإن المصالح السياسية المعاصرة أفسدت الآثار ، وهناك رأى شائع بأن فلسطين على وجه الخصوص كانت منطقة مزدهرة وغنية حتى قدوم العرب الذى أخرب هذه الأنشودة وحوّل الكثير من المنطقة إلى صحراء جرداء . ومثل هذه الآراء روج لها الصهاينة وغيرهم ممن استغلوا مصير فلسطين ليوحوا بل ويجادلوا بأن العرب كانوا حكاماً مخربين ولم يكونوا، بالتالى، جديرين بحكم المنطقة اليوم. هذا الرأى وجد من يتحداه ، على الأقل من علماء الآثار الإسرائيليين الآخرين الذين أوضحوا أنه، على الأقل فى بعض الحالات، كانت التغيرات والتدهور الذى أشيع الربط بينه وبين قدوم العرب، قد حدثت بالفعل قبل قدومهم. وهناك دليل أيضا على تطور الأسواق (فى بيت شئن وبالميرا مثلاً) واستصلاح أراض جديدة للزراعة على امتداد الحواف الصحراوية لبلاد الشام. والدليل الأثرى حافل بالمشكلات وغامض، ومحل نزاع، كما أن تفسيره غالباً ما يدين بالمفاهيم المسبقة لدى الباحث أكثر من العلم الخالص.

ونكون على أرض أكثر صلابة عندما ننظر إلى الجوانب البناءة فى الحكم الإسلامى الباكر^(٩). وعلى العموم فمن الأسهل كثيراً أن نقرر متى تم تشييد المباني عن أن نقرر متى سقطت فى براثن سوء الاستخدام. ونحن يمكن أن نرى بصمة الإسلام فى الكثير من المدن التى فتحها العرب عندما تم بناء المساجد والجوامع فى كثير من المراكز الحضرية. فالمساجد ، مثل الكنائس ، يمكن التعرف عليها بسهولة من خلال مخططاتها ، مثل السياج المستطيل ، وساحة الصلاة التى تحف بها الأعمدة فضلاً عن المحراب الذى يتجه بالمصلى فى اتجاه الكعبة بمكة. فالمصادر الأدبية تخبرنا بأن المساجد قد تم بناؤها بعد وقت قصير بعد الفتح فى كثير من المدن. وعلى أية حال، لا يوجد دليل أثرى باق على هذا . ولم يحدث حتى نهاية القرن السابع الميلادى، أى ستين سنة على الأقل بعد الفتوح، أن ظهرت الشهادة الأولى على الهندسة البنائية الدينية لدى المسلمين مع بناء قبة الصخرة فى بيت المقدس بعد سنة ٦٨٥ م . وفى غضون مائة سنة بعد الفتوح، كانت قد قامت مساجد فى كل من دمشق ، وبيت المقدس، وجرش ، وعمان وبلبك فى بلاد الشام ، والفسطاط فى مصر، وإصطخر وربما سوسة فى إيران، والواقع أن المؤرخين والرحالة العرب يخبروننا عن هذه المساجد، ولكن لا يبدو أن شيئاً بقى يمكن

أن يكون دليلاً أثريا على هذا. والمباني الدينية فى بيت المقدس (مثل قبة الصخرة) ودمشق (الجامع الأموى) قد بقيت فيما يشبه المعجزة طوال ثلاثة عشر قرناً من الزمان لأنها بنيت لكى توضح بأفصح لسان وأقوى تعبير يفوق أى نص مكتوب مدى الثروة والسلطة فى الدولة الإسلامية الباكرة ، وتكشف مساجد الفترة الأموية فى مدن مثل بعلبك وجرش كيف انتشر الإسلام فى مدن بلاد الشام الصغرى. وتبين المساجد كيف كان الإسلام فى صعود على مدى مائة سنة بعد الفتوح الأولى، بيد أنها لاتخبرنا بشئ عن مجرى هذه الفتوح أو عن أسباب الانتصار الإسلامى.

وإذا كانت المساجد أية واضحة على وصول نظام جديد، فالأصعب أن تدلنا على الكيفية التى ربما كانت الحياة اليومية للسكان قد تغيرت بها . ففى كثير من المناطق نجد الصورة صورة استمرارية . فالفتوح الإسلامية لم تجلب ، مثلاً ، أنواعاً جديدة من الفخار إلى بلاد الشام. ذلك أن الخزف المحلى ، أدوات الطهى - وأدوات المائدة، قد استمر إنتاجها فى ظل الحكم الإسلامى مثلما كان يتم إنتاجها تحت الحكم البيزنطى . ولاغربة فى أن الفاتحين العرب الوافدين قد اشتروا ببساطة ما وجدوه واستخدموه . ولم يحدث حتى مضى جيلان أو ثلاثة أن ظهرت أول الطُرُز الإسلامية، وحتى فى ذلك الحين كانت هناك بضائع فاخرة ، يستخدمها رجال البلاط والنخبة. وبقي الفخار المستخدم فى الحياة اليومية على حاله بدرجة كبيرة. وعلى أية حال ، فهناك تغير جرى على الخزف يمكننا أن نلاحظه ، وهو اختفاء الواردات كبيرة الحجم من الفخار إلى بلاد الشام عبر البحر المتوسط. ففى أواخر العصور القديمة كانت هناك واردات ضخمة من أدوات المائدة التى يعرفها علماء الآثار باسم «الفيض الأفريقى الأحمر» ، التى كان معظمها يُصنع فى تونس. وقد كانت توزع باعتبارها نوعاً من التجارة المحمولة على الكتفين فى جميع أرجاء الإمبراطورية الرومانية . ويشير اختفاء هذه البضاعة من أسواق الأراضى التى فتحها المسلمون إلى انقطاع فى الروابط التجارية ، تعكس الصورة التى لدينا فى المصادر المكتوبة والتى تصور الحوض الشرقى للبحر المتوسط باعتباره إقليم صراع وليس ممراً للتجارة . ومرة أخرى، يمكن استخدام الآثار لبيان التأثيرات بعيدة المدى للفتوح، ولكن ليس لتوضيح مجرى الأحداث فى ذلك الوقت .

إن الفتوح العربية فى الشرق الأوسط تقف بين التغيرات الحاسمة فى تاريخ البشر.
فالمصادر التى بين أيدينا لفهم هذه الأحداث المضطربة يشوبها الكثير من جوانب القصور
ولسنا قادرين دائما ، وربما إلى الأبد، على أن نجد إجابات عن الأسئلة التى نتوق
إلى طرحها ، بيد أننا بالتعامل مع البراهين والأدلة باحترام ، وبالعامل بها، يمكننا أن
نصل إلى فهم أكمل لما حدث.

الهوامش

(١) عن هذا التغير وأهميته انظر :

J. Bloom, Paper before Print: The History and Impact of Paper in the Islamic World (New Haven, CT, 2001).

(٢) انظر مناقشة هذا وغيره من المواضيع العسكرية :

A. Noth with L. I. Conrad, The Early Arabic Historical Tradition: A source-critical study, trans. M. Bonner (Princeton, NJ, 1994), pp.109-72.

P. Crone and M. A. Cook, Hagarism: The Making of the Islamic World (٣) (Cambridge, 1977).

E. Landau-Tasseron, 'Sayf ibn Umar in medieval and modern scholarship', Der (٤) Islam 67 (1990); 1-26.

J. Fentress and C.J. Wickham, Social Memory (Oxford, 1992). (٥)

Ibn Abd al-Hakam, Futuh Misr, ed. C. C. Torre`y (New Haven, CT, 1921), pp. (٦) 74-6.

Sebeos, The Armenian History, trans. R. W. Thomson, with notes by. J. (٧) Howard-Johnston and T. Greenwood, 2 vols. (Liverpool, 1999).

John of Nikiu, The Chronicle of John (c. 690 AD) Coptic Bishop of Nikiu, trans. (٨) R- H, Charles (London, 1916).

(٩) انظر :

J.Johns, 'Archaeology and the history of early Islam; the first seventy years', Journal of the Economic and Social History of the Orient 46 (2003): 411-36.

(١)

أسس الفتوح

يرجع أصل الفتوح الإسلامية فى الشرق الأوسط إلى شبه الجزيرة العربية، كما أن معظم أولئك الذين حاربوا فى المراحل الأولى من الفتوح جاءوا من شبه الجزيرة العربية أو من صحراء الشام (بادية الشام) الواقعة شمالى شبه الجزيرة. ولم يحدث فى أى وقت سواء قبل الفتوح الإسلامية أو بعدها أن قام سكان هذه المنطقة بغزو الإمبراطوريات الضخمة فيما وراء الحدود الغامضة والمتغيرة لموطنهم. فللمرة الأولى والوحيدة عباً ظهور الإسلام الطاقات العسكرية وصلابة الناس فى شبه الجزيرة العربية لغزو العالم الذى كان يحيط بهم. فما نوع المكان الذى أنتج هؤلاء المحاربين ، وأى صنف من الرجال كانوا هم بحيث استطاعوا أن يخلقوا هذه الثورة الهائلة فى التاريخ الإنسانى ؟

شبه الجزيرة العربية شاسعة . ويمتد خط مستقيم من جنوب شرق بلاد العرب عند رأس الهد فى عُمان إلى حلب فى شمال غرب بادية الشام على طول أكثر من ألفين وخمسمائة كيلو متر . وبالاعتماد على ظهور الدواب فى السفر والتنقل ، كانت الرحلة على امتداد هذا الطريق تستغرق ما يزيد على مائة يوم من السفر المتواصل . ولم يكن تنظيم الرجال والجيوش فوق مساحة شاسعة كهذه أمراً سهلاً ؛ وكانت الظروف الخاصة فحسب للفتوح الإسلامية الباكرة هى التى جعلت ذلك ممكناً .

والكثير من مناطق شبه جزيرة العرب صحراء، بيد أن الصحراوات كلها ليست متماثلة . فإذا كان الإنويت Inuit لديهم ألف كلمة للدلالة على الأنواع المختلفة من الجليد،

فلا بد أن بدو شبه الجزيرة العربية لديهم تقريبا مثل هذا العدد من الكلمات الدالة على أصناف مختلفة من الرمال، والأحجار، والحصباء . فبعض الصحراوات، مثل صحراء الربع الخالي الشهيرة فى وسط جنوب شبه الجزيرة مكونة من الكثبان الرملية، وهى فضاء لا يمكن لأحد أن يعيش فيها، ولا يعبرها غير أكثر الناس صلابة ، أو أكثرهم حماقة. بيد أن معظم الصحراء ليست كذلك بالضبط. إذ إن السطح فى أغلب الأحوال يتكون من الحصباء بدلاً من الرمال، وهى مقفرة ولكن من السهل عبورها. وبالنسبة للغريب يبدو معظم فضاء الصحراوات جرداء قاسية . وغالباً ما تكون الأرض مسطحة أو تحددها التلال - منخفضة ومنحدرة ومجهولة - بها قليل من النباتات فى الوديان ، سواء كانت مسطحة أو صخرية ، فكل منها تقدم إمكانيات مختلفة. ومشهد الفضاء الصحراوى فى شبه الجزيرة العربية كان معروفاً تماماً لسكانه، ويمكننا أن نقول إنهم كانوا يدللوننا. وقد كان من دواعى سرور شعراء شبه الجزيرة العربية قديماً أن يطلقوا الأسماء على التلال والوديان حيث كانت مخيمات قبائلهم ومضاربها ، أو حيث كانوا يحاربون ، أو يتبادلون الحب. فبالنسبة لهم، كانت الصحراء أرض الفرصة ، وأرض الخطر.

وجرى العرف على تسمية البدو الناطقين بالعربية Bedouin فى اللغة الإنجليزية ، وهذا هو المصطلح الذى سوف استخدمه . وقد سجلت أخبار العرب فى الصحراء منذ أيام الآشوريين فى بواكير الألف الأولى قبل الميلاد فصاعداً. وكانوا ملحقاً دائماً وثابتاً من ملامح الفضاء الصحراوى، ولكن بالنسبة للناس المستقرين فى منطقة الهلال الخصيب ، الذين نعتمد على كتاباتهم فى الحصول على المعلومات ، كانوا هم «الآخر» إلى حد كبير للغاية - بعيدين، وفى بعض الأحيان يغيرون على المناطق المستقرة للنهب والسرقة ، ولكنهم دائماً ما كانوا يعاونون، أو يجبرون على العودة إلى عزلة صحراواتهم . وللبدو قليل من التاريخ السياسى وفى العصور القديمة كان زعماءهم يعيشون ويموتون دون أن يتركوا أثراً من الازدهار ، سوى فى ذكريات أتباعهم وأبناء قبائلهم. وفى القرن الثالث الميلادى نبدأ فى العثور على عرب يتركون انطباعاتاً أكثر وضوحاً على كتب التاريخ . وفى أثناء هذه الفترة قامت الملكة زنوبيا ، من قاعدتها فى مدينة بالмира

التجارية الكبرى القائمة فى واحة كبيرة فى أعماق بادية الشام، بتأسيس مملكة ضمت معظم الشرق الأوسط. وتطلب الأمر القيام بحملة ضخمة قام الامبراطور الرومانى أوريليان Aurelian بتجريدها سنة ٢٧٢م لكى يعيد إخضاع هذه المنطقة للحكم الرومانى . كانت إمبراطورية زنوبيا مؤقتة ، ولكن من حين لآخر ، كان الناطقون بالعربية يُظهرون قدرتهم على الغزو، وباختصار ، فرض سيطرتهم على مدن الهلال الخصيب.

وفى المناطق الصخرية جنوب شرق دمشق ، حيث تخلى صخور البازلت السوداء فى حوران الخصيبة مكانها للحصباء ورمال بادية الشام، توجد قلعة نيمارا الرومانية . وكانت نيمارا واحدة من أبعد المواقع فى العالم الرومانى ؛ فهى بعيدة عن أروقة دمشق ونافوراتها ولذلك كانت موقعاً منعزلاً ، يكاد يكون تائها فى الصحراء الخاوية الجرداء التى تمتد حتى العراق. وخارج أسوار القلعة توجد مقبرة بسيطة وعليها شاهد قبر منقوش. والنقش مكتوب بالخط النبطى المعروف فى البتراء، ولكن اللغة المكتوب بها لغة عربية واضحة. وهى تخليد لذكرى امرؤ القيس بن عمر ملك العرب جميعاً ويزعم إن غزواته طالت أراضى حِمير فى اليمن. كما يخبرنا النقش أنه مات فى «نعيم» سنة ٢٢٨م. وشاهد القبر مثير للاهتمام إلى أبعد حد : فهو الوثيقة الوحيدة من تلك الفترة، وهو يبين تطور فكرة العرب بوصفهم جماعة لهم هويتهم الخاصة المنفصلة ؛ والتمايزة عن الرومان والأنباط وغيرهم. ونحن لانعرف ما إذا كان امرؤ القيس قد مات مسناً، فى خيمته ، أم فى أثناء غارة معادية ضد بلاد الشام ، أو رحلة تجارة سلمية فى العالم الرومانى، أو حسبما تقترح بعض المصادر العربية ، باعتباره واحداً ممن اعتنقوا المسيحية ، ويرمز مكان دفنه إلى الهوية المنفصلة للعرب القدامى وتفاعلهم الوثيق مع الرومان والفرس الذين حكموا المناطق المستقرة التى كان على حدودهم مواطنهم الصحراوية.

وفى القرن السادس الميلادى تطور هذا الوعي بالذات الناشئ عند العرب بشكل أكبر . ففي هذا الوقت كان الهلال الخصيب محكوماً بإمبراطوريتين كبيرتين، البيزنطيون فى بلاد الشام وفلسطين والفرس الساسانيون فى العراق. وكانت لدى كل

من هاتين القوتين العظميين مشكلات فى التعامل مع البدو على امتداد الحدود الصحراوية لممتلكاتهما ، وكان الرومان ، بكفائتهم النمطية، قد أقاموا القلاع وبنوا الطرق بحيث يمكن لقواتهم أن تحرس الحدود ، وتحافظ على المدن الغنية والأراضى الزراعية فى الداخل أمنة من غارات البدو. وكان من الصعب الحفاظ على هذا النظام؛ فقد كان من العسير إبقاء الرجال فى قلعة نائية مثل نيمارا فضلاً عن أن هذا كان أمراً مكلفاً . ولو كنا قد عرفنا المزيد عن الفرس الساسانيين ، فربما وجدنا أنهم واجهوا مشكلات مماثلة هم أيضا .

وفى أثناء القرن السادس ، حاولت كلتا القوتين العظميين أن تجد سبلاً بديلة للتعامل مع الحدود الصحراوية ، وتحولتا إلى الممالك التابعة. وقد نجحتا فى استخدام العرب فى التعامل مع العرب. فعلى حدود بلاد الشام كان البيزنطيون قد أقاموا سلالة حاكمة قوية يعرفها التاريخ باسم الفساسنة . فقد منحوا زعماء الفساسنة لقب «فيلارخ» الإدارى اليونانى وكان يتم دفع إتاوات مالية لهم لكى يحتفظوا بالعلاقات الودية مع بدو شبه الجزيرة العربية. ومن خلال المزج بين دفع الأموال، والدبلوماسية وعلاقات القربى والتحالفات ، حافظ الفساسنة على الحدود الصحراوية، وعملوا باعتبارهم منطقة فاصلة بين الحكومة البيزنطية والبدو. كما أنهم تحولوا إلى المسيحية، على الرغم من أنهم كانوا على مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزيتى) الذى كانت القسطنطينية تعتبره مذهباً خارجاً (هرطقة) . وقد عاش زعماء الفساسنة أسلوب حياة شبه بدوى جذاباً . ففى الربيع عندما تكون أطراف الصحراء قد اكتست اللون الأخضر الحى، مع نمو العشب الجديد ، كانوا يضربون خيامهم فى الجابية بمرتفعات الجولان وكان زعماء القبائل يفدون لزيارتهم، ولإسداء الاحترام ، ولتلقى عطاياهم المالية بالتأكيد. وفى أوقات أخرى قد يعقدون محكمة بالقرب من الضريح الكبير لسان سرجيوس المحارب، فى الرصافة شمالى بادية الشام^(١). ولم يكونوا يستقرون فى البلدة الرومانية ولكنهم بنوا قاعة حجرية على بعد حوالى ميل شمالاً . وكانوا يضربون خيامهم حول هذه القاعة وكان العرب يفدون لزيارة الضريح وزيارة الفيلارخ الفسانى.

وعلى مسافة ألف ميل عبر بادية الشام شرقاً، كان اللخميون، الذين يتولون أمر الأطراف الصحراوية لحساب الملوك الساسانيين، يعقدون بلاطهم أيضاً. ويبدو أن اللخمين كانوا أكثر استقراراً من الغساسنة كما كانت عاصمتهم فى الحيرة ، حيث تتقابل الصحراء مع الأرض الزراعية الغنية على امتداد نهر الفرات الأدنى، بلدة عربية حقيقية. وكان اللخميون مسيحيين مثل الغساسنة . كما كانوا رعاة عظماء للأدب العربى الباكر. فقد كان الشعراء ورواة القصص يقدون إلى بلاطهم، وربما كان هذا هو المكان الذى شهد اكتمال الخط العربى، الذى لم يلبث أن جرى استخدامه لكتابة القرآن وتسجيل أعمال الفاتحين الأول. لقد كانت هناك هوية عربية أخذة فى الظهور ، ولم يكن العرب مستعدين بعد لغزو الإمبراطوريتين العظيمين، ولكن كانت لديهم لغة مشتركة ، وثقافة مشتركة تكونت مع مرور الزمن.

عاش كثير من العرب بدوياً فى قبائل ، يحيون أسلوب حياة بدوياً فى حالة من الفوضى ، بلاحكومة ، وقد اعتمد هؤلاء البدو على قطعان حيواناتهم التى كانت أهمها الخراف والجمال. وأدت الأنواع المختلفة من الحيوانات إلى نماذج مختلفة من العيش، وكانت تربية الجمال تمثل أسلوب دعم البدو وإعاشتهم فى جوف الصحراء. إذ يمكن للجمال أن تبقى أسبوعين أو أكثر بدون ماء، وهو ما منح البدو قدرة على التحرك بعيداً عن الأراضي المستقرة وجعلهم ينعمون بميزة مراعى الكلا المتناثرة ومصادر الماء البعيدة فى مناطق لايمكن لأى جيش من جيوش القوى الإمبراطورية أن يأمل فى ملاحقتهم فيها. أما الماشية والماعز فإنها أقل قدرة على تحقيق الاكتفاء الذاتى. فهى تحتاج إلى أن تشرب يومياً ، ولايمكن أن تعيش على العشب الجاف القليل الذى يمكن أن يعول الجمال وتحتاج إلى أن تؤخذ إلى الأسواق عندما يحين الوقت لبيعها وذبحها . أما البدو الذين يربون الماشية فيعيشون على مسافة معقولة من المناطق المستقرة ولهم صلات أوثق مع أهل المناطق المستقرة من البدو الذين يربون الجمال فى جوف الصحراء . وكان بدو الجمال ينعمون بالاستقلال التام أكثر من غيرهم. وإذا كانوا محصنين تقريباً ضد الهجوم فى عزلة صحراواتهم، فقد كانوا يمثلون الأرستقراطية الحربية الحقيقية بين العرب.

كانت القبائل، بدلاً من الدول والإمبراطوريات، هي القوى السياسية السائدة في الصحراء وفي بعض الأحيان، تسهل قراءة الروايات التاريخية التي ترجع إلى السنوات الباكرة من تاريخ الإسلام والفتوح الكبرى، وجود انطباع بأن الولاءات القبلية والمنافسات القبلية كانت مهمة في تحريك العرب إلى القتال والغزو بقدر ما كان الدين الإسلامى أو الرغبة في الحصول على المغنم . ولكن الحقيقة، أن الولاءات القبلية كانت أكثر تعقيداً وتنوعاً مما تبدو للوهلة الأولى. لقد صور العرب أنفسهم على أنهم يعيشون في قبائل . فكل واحد من أبناء القبائل يؤمن أن جميع أفراد القبيلة ينحدرون من جد مشترك ينتسبون إلى اسمه ، وبذلك تسمى قبيلة تميم نفسها، ويسمىها الآخرون ، «بنو تميم». والحقيقة أن هذه الصورة المتخيلة للذات كانت مضللة إلى حد ما لأن القبائل الكبرى مثل تميم لم تتجمع معاً أبداً ، ولم يكن لها زعيم واحد كما لم تكن هناك عملية مشتركة في اتخاذ القرار. وكانت الخيارات الحاسمة بشأن مكان مضارب خيام القبيلة أو أين تجد الكلأ والمرعى ، أو كيف تتجنب الأعداء، أموراً تبت فيها مجموعات صغيرة في الخيام، بل كان يتم حسمها بواسطة عائلات منفردة . وعلاوة على ذلك ، لم تكن عضوية القبيلة تحسم على أساس الأصل البيولوجى وحده . وكان بمقدور الرجال الانتقال من القبيلة للالتحاق بجماعات قبلية جديدة ، وقد حدث هذا بالفعل . وربما كان الزعيم الناجح يجد أن قبيلته زادت زيادة كبيرة على حين يجد الزعيم الفاشل الرجال ينفضون عنه . وعلى أية حال ، فإن الرجال الذين كانوا يفكرون في الروابط البيولوجية ، لم يكونوا يقولون إنهم غيروا القبيلة وإنما يظلون دائماً جزءاً منها على نحو ما .

والواقع ، أنه لم يكن ممكناً للرجل وعائلته أن يعيش في الصحراء بدون رابطة القربى القبلية . لقد كانت هذه بيئة قاسية بشكل لا يمكن تخيله . فقد كان من الممكن أن تموت الحيوانات ويذبل العشب، وتجف الآبار ويهجم الأعداء. ولم تكن هناك قوة شرطة ، حتى لو كانت فاسده وتعوزها الكفاءة، ولا يوجد حاكم يمكن للضحية أن يلجأ إليه: كانت هناك فحسب روابط القربى، سواء أكانت حقيقية أم خيالية ، هي التي يمكن أن

تحمى الإنسان ، وتقدم المساعدة وقت الحاجة، كما توفر الحماية أو التهديد بالانتقام والثأر فى وقت الهجوم . لقد كان الرجل الذى لا عشيرة له ضائعاً . وفى أيام الإسلام الأولى عملت القيادة بعدة سبل على تدمير الولاء القبلى أو التخفيف منه على الأقل. فقد كان من المفروض أن تكون الأمة الإسلامية بديلاً عن القبيلة ، لاتقوم على أساس الأصل والنسب ولكن على أساس الالتزام بالدين الجديد، والتسليم بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وسوف توفر الأمة الحماية والأمن الذى كانت القبيلة توفره للناس فيما سبق . والحقيقة أنه لم يكن من السهل تقويض الولاءات القبيلة التى خدمت الناس بهذا الشكل الجيد على طول الزمان حتى ذلك الحين. وفى السنوات الباكرة من الفتوح ، حارب الناس فى مجموعات قبلية وتجمعوا حول رايات قبائلهم فى ساحة المعركة . وفى خضم هذه الحروب لابد وأن أبناء قبيلة تميم، على سبيل المثال ، قد حاربوا إلى جانب أبناء قبيلتهم الذين لم يكونوا قد قابلوهم وربما لم يسمعوهم عنهم أبداً من قبل. وعندما تم توطيئهم فى المدن العسكرية الجديدة فى البصرة والكوفة فى العراق أو الفسطاط فى مصر، تم وضعهم فى مجموعات قبلية. وعندما تطلب الأمر الصراع من أجل الموارد، ومن أجل الرواتب والغنائم ، اكتسبت المنافسات القبلية كثافة وحشية قاسية نادراً ما حدثت فى مجتمع الصحراء الأكثر انفتاحاً وبعثرة . لقد كان التضامن القبلى، الذى كان أبعد ما يكون عن التقلص بسبب الدين الإسلامى الجديد، قد تعزز على نحو ما بسبب أحداث الفتوح. وعلى أية حال، سيكون من الخطأ أن نبالغ فى تقدير الدور الذى لعبته القبائل . ففى الحقيقة كانت الولاءات القبلية ذات أهمية حاسمة بالنسبة لبعض الناس فى بعض الأوقات ، وكانت مسألة تغيب فى مجاهل النسيان أحياناً .

كانت القبائل تحت قيادة الشيوخ (الزعماء)، وعادة ما كان الواحد منهم يسمى الشريف فى العصور الإسلامية الباكرة. وكانت الزعامة فى القبيلة إنتخابية ووراثية فى الوقت نفسه . فكل قبيلة ، أو بطن من قبيلة، كان لها حاكم من نوى القربى، أخوة وأبناء عمومة عادة ما كان يتم اختيار الزعيم من بينهم. وبينما لم يكن هناك انتخاب رسمى ،

إذ كان أبناء القبيلة يعلنون ولاءهم لمن هو أكثر قدرة أو أوفر حظاً ، من أبناء العشيرة الحاكمة . ومن المؤكد أن الزعماء الذين كان يتم اختيارهم بسبب قدرتهم ، كانوا قادة عسكريين ، بيد أن الشجاعة أو المهارة في ميدان المعركة لم تكن الخصال الوحيدة المطلوبة. كان المطلوب في الزعيم أن يكون ماهراً في التفاوض ، وأن يحل المنازعات بين أتباعه قبل أن تخرج عن السيطرة ، وأن يتعامل مع أبناء القبائل الأخرى، بل ومع السلطات الإمبراطورية. وكان لابد للزعماء أن يتمتعوا بالذكاء - ذلك النوع من الذكاء الذى يعنى أنهم يعرفون متى أمطرت السماء فى الصحراء المتقلبة حديثاً ، وأين يمكن أن يجدوا مساحات العشب الصغيرة والنضرة التى تعنى أن بوسع أتباعهم وحيواناتهم أن تاكل وتشرب جيداً. ولعمل هذا، كان لابد للزعيم الناجح أن يبقى خيمته مفتوحة . وكان الكرم المشهور لدى البدو جزءاً مهماً من استراتيجيات البقاء المعقدة . فقد كان من المؤكد أن ينعم الضيوف بالطعام والتسلية ولكن فى مقابل أن يقدموا معلومات عن مناطق العشب والكأ ، والشئون الحربية والمنازعات ، والأسعار وفرص التجارة . وبدون شبكة الاتصالات غير الرسمية هذه، لم تكن أخبار ظهور الإسلام لتنتشر أبداً فى أنحاء صحراء شبه الجزيرة العربية الخاوية تقريباً، ولم يكن ممكناً على الإطلاق تجميع الجيوش التى كان عليها غزو الإمبراطوريتين العظيمين .

وياستثناءات قليلة جداً، يمكن وصف الذكور البالغين من بدو شبه جزيرة العرب بأنهم جنود. فقد كان يتم تعليمهم منذ نعومة أظفارهم ركوب الخيل، واستخدام السيف، والقوس ، والسفر الشاق ، والنوم الخشن، والعثور على طعامهم حيثما يمكنهم . وفى ظروف المنافسة القبلية لم يكن هناك مدنيون . وقد عاش بدو شبه الجزيرة فى خيام ليست بها ألوان أو رسوم ولم يبنوا أية مبانٍ: إنهم مختفون بالفعل من السجل الأثرى. وقد امتازوا ، على أية حال، فى شكل فننى رئيسى: الشعر . وشعر عرب الجاهلية شكل فننى فريد ومُرَكَّب. وغالباً ما شاع بين النقاد العرب المحدثين باعتباره نموذج الشكل الشعرى، الذى يستحوذ على الإعجاب أكثر من غيره ويتم محاولة تقليده . وقد تساءلت بعض الأبحاث الحديثة عن مدى أصالته ، بيد أن الاتفاق العام على أن بعض المادة على الأقل تقدم شاهداً على القيم والمثل العليا وعقلية العرب قبل الإسلام.

وقد أكد النقاد العرب اللاحقون على الأهمية المركزية للشعراء فى هذا المجتمع .
وثمة ناقد أدبى عربى كتب فى القرن التاسع الميلادى الثالث الهجرى ، لاحظ أنه
فى الجاهلية كان الشعر بالنسبة للعرب ديوان معارفهم، ولكن ابن رشيق ، الذى كتب
فى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى، يصف أهمية الشعر
بالنسبة لقومه بقوله :

«عندما كان يظهر شاعر فى عائلة من العرب، لابد أن تجتمع القبائل العربية
المجاورة لتلك العائلة متمنين لهم الفرح بحظهم السعيد. وتقام الولائم ، وتضم نساء
القبيلة أيديهن متشابكة، ويعزفن على المزهرة مثلما يفعلون فى حفلات الأعراس ويقوم
الرجال والصبية يهنئ كل منهم الآخر: لأن الشاعر كان بمثابة دفاع عن شرفهم
أجمعين، وسلاحاً يدرأ عنهم الإهانة ويصون اسمهم ووسيلة للحفاظ على بقاء أفعالهم
المجيدة ويؤسس شهرتهم إلى الأبد»^(٢).

والحقيقة أن الشاعر كان يقوم بعدة وظائف مهمة ، تشجيع التضامن القبلى وروح
الجماعة، والدفاع عن سمعة قبيلته ويحفظ لهم ذكريات الازدهار.

والشعر راسخ فى بيئة بدو شبه الجزيرة العربية الصحراوية. والكثير منه ملتزم
بالصياغة الصارمة للقصيدة التى يمكن أن تصل إلى مائة بيت ، على لسان المتكلم أى
الشاعر الذى يصف فيها حبه ومغامراته ، وامتيان راحلته ، وأمجاد قبيلته أو من يتولى
حمايته ورعايته. والفضائل التى يتباهى بها هى فضائل الأرستقراطية المحاربة. فهو
شجاع لا يغشاه الخوف ، وهو بالطبيعة يمكنه تحمل المشاق الجسام ، وهو يتمالك نفسه
بشكل يثير الإعجاب، كما أنه عاشق لا يقاوم وصياد عظيم . وغالباً ما يكون الشعراء
مخربين ، بل إن منهم شخصيات خارجة على القانون، يغترون زوجات الرجال الآخرين
بحماسة متبجحة، وغالباً ما يرون أنفسهم متوحدين، رجل وحيد مع راحلته ضد العالم
بأسره . وليس هناك ما يدل على وجود ديانة رسمية ، ولا ذكر للأرباب ، وإنما قوة
القدر الأعمى فحسب، والجمال الذى يحمله فضاء الصحراء بأخطاره وتهديده.

ويمكن أن نتحول لنرى مثلاً على شعر المعارك في تلك الفترة إلى قصيدة تُنسب إلى عامر بن طفيل(*) . وكان معاصراً للنبي محمد وكانت له ولقبيلته مراعى بالحجاز حول مدينة الطائف. ويبدو أن الكثير من سنى حياته قد قضاها في المعارك ، وعلى الرغم من أنه مات ميتة سلمية، فإن أباه وعدداً من أعمامه وأخوته لقوا مصارعهم في خضم الصراعات القبلية . وفي إحدى قصائده يُعربد في هجوم شنه فجراً على أعداء قبيلته(٥):

وَمُطَرَّدُ لَهُ يَقِيدُ الْحَدِيدُ	صَبَحْنَاهُمْ بِكُلِّ أَقْبَ نَهْدٍ
رَقِيقُ الْحَدِّ زَيْنُهُ غِمُودُ	وَأَبْيَضُ يَخْطِفُ الْقَصَصَاتِ عَضْبٍ
مُلْمَلِمَةٌ تَلَاقِيهَا بَعِيدُ	وَكُلُّ طِمْرَةٍ خَفِقَ حِشَاهَا
كَمِثْلِ الضَّانِ عَادَاهُنَّ سِيدُ	لَقِينَا جَمْعَهُمْ صُبْحًا فَكَانُوا
وَأَسْوَدُ وَالْكُمَاةُ بِهَا شُهُودُ	فَغَوْدَرُ مِنْهُمْ عَمْرُو وَعَمْرُو
وَعَثَّابُ وَمُورَةُ وَالْوَلِيدُ	وَعَبْدُ اللَّهِ غَوْدَرُ وَابْنُ بَشَرٍ
نَقَتْلُهُمْ بِهَا حَتَّى أَبِيدُوا	لَقِينَاهُمْ بِبَيْضِ مَرْهَفَاتِ
وَقَدْ دَمِيتُ مِنَ الْخَمَشِ الْخُدُودُ(٣)	وَأُرْدَفْنَا نِسَاءَهُمْ وَجُنَّاسَا

أو في مناسبة أخرى :

وَأَنْى الْهُمَامُ بِهَا الْمَعْلَمُ	لَقَدْ تَعْلَمُ الْحَرْبُ أَنْى ابْنُهَا
مَنْ الْمَجْدُ فِي الشَّرَفِ الْأَعْظَمُ	أَنْى أَحْلَ عَلَى رَهْـوَةٍ
فِي ثَوْرَةِ الرَّهْجِ الْأَقْسَمُ	وَأَنْى أَشْمَصُ بِالْدارِ عَيْنِ
بِأَكْرَمِ مِنْ عَطْفَةِ الضَّيْغِ	وَأَنْى أَكْرَأُ إِذَا أَحْجَمُوا

(*) النص العربي من ، ديوان عامر بن الطفيل ، تحقيق تشارلز لايل (قدم لها وترجم التعليقات إلى العربية الدكتور محمد عوني عبد الرؤوف) مركز تحقيق التراث - دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٣م.

وأضر بالسيف يوم الوغى أقدُّ به حلق المَبْرَم
فهذا عتادى لو أن الفتى يُعمَّر فى غير ما مهْرَم
وقد علم الحى من عامر بأن لنا ذروة الأجْسم
وأنا المصاليت يوم الرغى إذا ما العواير لم تُقدَم^(٤)

هذه ، إذن كانت القيم التى يتحلى بها الكثير من بدو شبه الجزيرة العربية الذين شاركوا فى الفتوح الإسلامية الباكرة . فالشعراء يمجدون السرعة والقوة فى المعركة وامتياز جيادهم . وهناك أيضا تأكيد قوى على الجسارة الفردية . والمحارب فى الشعر يدافع عن قبيلته ، ويُسْتَت القبائل المنافسة ؛ ولكن ربما كان ما يهمه أكثر من أى شيء آخر التغنى بشجاعته وسمعته الخاصة . ولابد أن جيوش الإسلام قد أخذت معها إلى ساحة المعركة الكثير من هذه الأفكار نفسها ، لاسيما الاهتمام بالشهرة على مستوى الفرد وعلى مستوى القبيلة على السواء . وفى وعيهم أو لا وعيهم كانوا يدركون الدور الذى يلعبه الشعراء المحاربون فى الجاهلية باعتبارهم نماذج يقتدى بها .

لقد كان هذا الشعر دالاً أيضاً على الطريقة التى تذكروا بها الأحداث وبالتالى على الطريقة التى نحاول بها أن نفهمهم . فليس هناك اهتمام بالاستراتيجية الكلية ، أو رواية عامة عن تقدم المعركة ، وإنما اهتمام لانتهائى بالأفراد ومواجهاتهم مع العدو .

وبينما الكثير من أراضي شبه الجزيرة العربية صحراء ، فإن شبه الجزيرة تضم أيضاً بعض الأراضي والمساحات المختلفة على نحو مدهش . ففي مرتفعات اليمن فى الركن الجنوبي الغربى ، وأجزاء من عُمان فى الجنوب الشرقى ، تجتذب الجبال العالية ما يكفى من الأمطار لوجود الزراعة الدائمة . وهنا عاش الناس ، كما لايزالون إلى اليوم ، فى قرى مبنية بالحجر تشرف على الحواف الصخرية ، ويزرعون المحاصيل على مصاطب على جوانب التلال شديدة الإنحدار . وكان أهل القرى يتجمعون فى قبائل ، مثل عرب الصحراء ، بيد أنهم لم يكونوا من البدو . ومن المستحيل أن نعرف نسبة العرب الذين انضموا إلى جيوش الفتح والذين جاءوا من هذه المجتمعات المستقرة .

وفى العصر الحديث، يكاد يكون من المؤكد أن سكان اليمن بمساحته الصغيرة أكثر من سكان السعودية بمساحتها الشاسعة ، ويمكننا أن نكون واثقين أن كثيراً من الفاتحين ، لاسيما أولئك الذين جاءوا إلى مصر ، وشمال أفريقيا، وإسبانيا جاءوا من مجموعات لم تكن من بدو شبه الجزيرة العربية على الإطلاق ، وإنما كانت عائلاتهم تمارس الزراعة على مدى الأجيال فى حقولهم الصغيرة الخصيبة.

وكان للناس فى الجنوب المستقر تراث سياسى يختلف تماماً عن تراث البدو فى بقية أنحاء شبه الجزيرة . فمنذ بداية الألف الأولى قبل الميلاد، كانت هناك ممالك راسخة مستمرة فى هذه المنطقة ، ومعابد مشيدة بالأحجار الصلبة ، وأعمدة كبيرة مربعة من الأحجار ، وقصور وقلاع، ونقوش باقية تطورت لكى تسجل أعمال المؤسسين المجددين^(٩). كان هذا مجتمعاً كانت تتم فيه جباية الضرائب وتعيين رجال الإدارة . وفى ذروة أيام ازدهار تجارة البخور العظمى فى القرون الأخيرة قبل الميلاد، وُجد خط يأكمله من المدن التجارية على امتداد حافة الصحراء اليمنية ، وهى مدن قوافل كانت تمر من خلالها العطور الثمينة، واللبان والمر على ظهور قوافل من الجمال من الشاطئ الجنوبي الوعر، حيث توجد أشجار صغيرة ضامرة تنتج الصمغ الثمين، فى اتجاه موانئ البحر المتوسط مثل غزة ، حيث كانت توجد الأسواق . كان هذا أيضاً مجتمعاً يستطيع أن ينظم مشروعات ضخمة فى الهندسة المدنية مثل سد مأرب العظيم. وهنا على الحواف الرملية للربع الخالى، كان يتم تجميع مياه الأمطار المتساقطة على مرتفعات اليمن، وتوزع من خلال واحة اصطناعية لكى توفر مياه الشرب ولرى المحاصيل.

وبنهاية القرن السادس الميلادى، عندما بدأ النبی محمد دعوته، كانت الأيام المجيدة لممالك جنوب شبه الجزيرة العربية قد ولت ، فمع القرن الميلادى الأول كانت تجارة البخور قد تحولت عندما كان تحسن الملاحة وفهم الرياح الموسمية قد جعل الطريق البحرى فى البحر الأحمر المر التجارى الرئيسى. وكانت مملكة حمير ، آخر الممالك القديمة، قائمة لا على أساس طرق التجارة القديمة فى الداخل وإنما على المدن والقرى فى مرتفعات اليمن. ومع أواخر القرن السادس، كانت حمير نفسها تعاني

الاضمحلال وكان سد مأرب العظيم قد تصدع وانهار، ولم يتم إصلاحه أبداً، وتم هجران الواحة وتركها للبؤس الرُّحل . وآخر نقش مؤرخ بالخط العربى الجنوبى القديم قد كتب فى سنة ٥٥٩م . ومع نهاية مملكة حمير جاء الحكم الأجنبى، أولاً على أيدي الأحباش منذ ثلاثينيات القرن السادس ثم على أيدي الفرس. وكان لا يزال هناك بعض الرجال الذين يعرفون قراءة الخطوط الأثرية القديمة ، كما بقيت ذكريات فولكلورية عن الممالك القديمة، وكان الانهيار النهائى لسد مأرب أواخر القرن السادس بمثابة المنعطف فى تاريخ المنطقة.

كانت هناك مدن متناثرة فى أجزاء أخرى من شبه الجزيرة العربية كما كانت هناك شبكات من الأسواق والتجار . وفى منطقة التلال فى الحجاز غرب شبه الجزيرة كانت هناك مدن تجارية وزراعية صغيرة من ضمنها مكة والمدينة ، وكان سكان هذا المدن الحجازية الصغيرة هم نخبة الإمبراطورية الإسلامية المبكرة . كانت هذه مجتمعات مستقرة، أيضاً فى منطقة النخيل الكبرى فى اليمامة على ساحل الخليج . وكانت معظم هذه البلدات والأسواق تستخدم أساساً لتبادل الصوف والجلود لدى الرعاة مع الغلال وزيت الزيتون والنبذ التى كانت مواد الرفاهية الأساسية . ومنذ سنة ٥٠٠ ميلادية تقريباً ، على أية حال، بدأت حركة اقتصادية جديدة فى الظهور وهى تعدين المعادن الثمينة فى الحجاز^(٦). أما السبب فى أنها بدأت فى ذلك الوقت وليس قبل ذلك فهو أمر غير واضح: وربما كانت اكتشافات الصدفة قد أطلقت موجة من التنقيب عن المعادن. وكل من الأدلة الأثرية والمكتوبة تبين أن هذا التعدين كان يزداد أهمية حوالى سنة ٦٠٠م، وأن بعض المناجم كانت مملوكة لبؤس شبه الجزيرة العربية وتولوا إدارتها مثل قبائل بنى سليم، وقد زاد إنتاج المعادن الثمينة كثيراً فى رفاهية المنطقة. فقد كان بأيدي البؤس، أو بعضهم على الأقل ما يكفى من المال لجعلهم مستهلكين مهمين لمنتجات المناطق المستقرة. وظهرت مجموعات من التجار لاستيراد البضائع من بلاد الشام، وأقاموا شبكات بين القبائل للسماح لقوافلهم بالمرور فى سلام.

ويبدو أن أهم هذه المراكز التجارية الجديدة كانت مكة . وتقع مكة فى وادٍ غير ذى زرع بين جبال قاحلة جرداء ، وهى بيئة غير مشجعة لإقامة مدينة، ولكن كانت لها

أهميتها الدينية التي جذبت الناس إليها . وقد بنيت الكعبة حول الحجر الأسود . وكان إبراهيم عليه السلام قد بنى الكعبة منذ زمن بعيد . وحول الكعبة تقع منطقة مقدسة «الحرم» ، ممنوع فيها العنف . وفى هذه المنطقة كان يمكن لأبناء القبائل المتعادية المختلفة أن يتقابلوا للتجارة وتبادل البضائع والمعلومات . وتطور الأمر بحيث ظهر سوق ومعرض تجارى وكان البدو يفدون من كل مكان لزيارته: وقد تم الربط بين الكعبة والتجارة برباط وثيق .

وعند نهاية القرن السادس الميلادى ، كانت قبيلة قريش مسئولة عن الكعبة والحرم . ولم تكن قريش من البدو ولكن أبنائها عاشوا فى مكة . وكانوا يتولون رعاية الكعبة، ويمرور الوقت أخذوا ينظمون قوافل التجارة من مكة إلى الشام شمالاً واليمن فى الجنوب (رحلتى الشتاء والصيف) . وأسسوا شبكة علاقات فى جميع أنحاء غرب شبه الجزيرة وأحياناً فيما وراءها : ويقال إن بعض العائلات البارزة كانت تمتلك ضياعاً زراعية وممتلكات فى بلاد الشام . هذه الاتصالات ، وهذه الخبرة فى التجارة ، والسفر وسياسات التفاوض، قيّض لها أن تبرهن على أهميتها القصوى فى ظهور الدولة الإسلامية.

كانت هناك علاقات تكافلية حميمة تربط بين البدو والتجار والمزارعين فى المناطق المستقرة وكانت بعض القبائل تضم بطوناً من المستقرين وبطوناً من البدو على السواء ، وكانت بعض الجماعات يعملون بالرعى أو بالزراعة فى فترات مختلفة ، وكان كثيرون يقومون بهذه وتلك . وقد اعتمد بدو شبه الجزيرة على أهل المناطق المستقرة فى إمدادهم بحاجتهم من الغلال أو القمح أو التبن . كما اعتمدوا عليهم فى رعاية الكعبة والأسواق التى كانت يمكنهم التقابل فيها للقيام بالاتفاقات والترتيبات لمزور القوافل التى تعزز مواردهم الهزيلة . وكان البدو معتادين من عدة جوانب على قبول الزعامة السياسية ، أو الإرشاد السياسى على الأقل ، من النخب المستقرة . من ناحية أخرى ، كان الناس المستقرون يحتاجون ، أو يخافون ، البدو بسبب مهاراتهم العسكرية . وعندما كان يتم التعامل معهم مثلما تعامل الغساسنة واللخميون مع البدو فى بداية الشام ،

كان يمكن أن يكونوا دعماً عسكرياً مفيداً؛ أما عندما كان يفشل التعامل معهم أو يتم تجاهلهم ، فكان يمكن أن يشكلوا تهديداً ومصدراً للقلق والضرر. كان هذا التكافل بين الزعامة المستقرة والقوة العسكرية للبدو هو الذى شكل الأساس الذى قامت عليه جيوش الفتوح الإسلامية الباكرة.

ليس هذا مجال تقديم عرض كامل لحياة النبي محمد وتعاليمه ، ولكن بعض المعرفة بسيرته وإنجازاته أمر جوهري لفهم آليات الفتوح الأولى. فقد ولد فى فرع كريم وإن لم يكن ثرياً من قريش سنة ٥٧٠م تقريباً . ويقال إنه فى شبابه قام برحلات تجارية إلى بلاد الشام وناقش أمور الدين مع الرهبان المسيحيين الشوام، ولكن معظم سنى حياته الباكرة تحجبه القصص الدينية . وربما يكون قد بدأ دعوته حوالى سنة ٦٠٠م للمرة الأولى حيث دعا إلى ديانة توحيدية صارمة(*) . وكانت الرسالة التى جاء بها غاية فى البساطة . قاله واحد أحد، ومحمد (عليه الصلاة والسلام) رسوله الذى ينقل إلى العالمين رسالته التى نزلت عليه بواسطة جبريل. وجاء فى الرسالة أيضاً أن أرواح البشر سوف تخضع للحساب، فيذهب الذين آمنوا وعملوا الصالحات إلى الجنة، بما فيها من نعم، أما الأشرار فيذهبون إلى نار جهنم. وقد بدأ محمد يجتذب الأتباع ، ولكنه أيضاً جلب على نفسه عداوة البعض. فلم يكن الناس يروقهم أن يحرق أجدادهم المبلجون فى نار جهنم ، ومن الناحية العلمية رأوا أن هذه الدعوة الجديدة تمثل هجوماً على الكعبة فى مكة وما كانت تدره من رخاء . ووجد محمد نفسه هدفاً لعداوة متزايدة.

وبحلول سنة ٦٢٢م كانت الأمور قد وصلت إلى ذروتها ولكن محمداً وجد الإنقاذ فى تدخل أهل المدينة المنورة (يثرب) التى تقع على مسافة حوالى ٢٢٠ كيلو متراً

(*) من الطبيعى أن يتحدث المؤلف، وهو مؤرخ غير مسلم بهذه اللغة المحايدة وقد أثرت أن أترجم عباراته بدقة بون التدخل فى صياغتها حتى يمكن نقل أفكاره بأمانة للقارئ العربى. وأظن أن القارئ سوف يتفهم الموقف الفكرى للمؤلف مع الاحتفاظ بحقه فى الاختلاف معه . ومن ناحية أخرى ، لاينبغى أن نتوقع مع مؤلف الكتاب - وهو ابن ثقافة مختلفة وديانة مختلفة - أن يكتب عن هذه المسألة مثملاً يكتب أحد المسلمين. وعلى أية حال، فالمؤلف باحث جاد ومحيد. كما أننى لم أضف عبارات الدعاء والتبجيل مثل «عليه الصلاة والسلام» بحيث يحتفظ النص العربى بروح الأصل الإنجليزى. (المترجم)

شمالاً. كانت المدينة المنورة تختلف اختلافاً بيناً عن مدينة مكة. فلم يكن بها مزار مقدس وكان أهلها يعيشون في مستوطنات متناثرة في واحة خصبية، ويزرع القمح والتمر. وكانت يثرب تعاني أزمة : ذلك أن الامتثال القبلي والمنافسات القبلية جعلت الحياة عابسة متجهمّة وخطيرة ولكن لم يكن يبدو أن أحداً يستطيع أن يضع نهاية لهذا كله . وعند هذه النقطة دعوا النبي محمد، الذي خرج على قبيلة قريش ذات المهابة والمكانة ، لأن يأتي ويتوسط بينهم. وهاجر محمد ومعه جماعة صغيرة من أتباعه من مكة إلى المدينة . وقد وُصفت رحلتهم بأنها «هجرة» ، وسمى من اشتركوا فيها باسم «المهاجرين» ، على حين عُرف الذين ساندوا النبي محمد في المدينة باسم «الأنصار» . وتحدد سنة الهجرة ٦٢٢م بداية العصر الإسلامي. ومن بين المجموعة الصغيرة من المهاجرين كان أبو بكر ، وعمر وعثمان الذين صاروا فيما بعد الخلفاء الثلاثة الأوائل بعد وفاة النبي، ويعدّهم ابن عمه وزوج ابنته على . والهجرة علامة على اللحظة التي انتقل فيها النبي محمد من كونه نبياً وحيداً ، «صوت يصرخ في البرية» إلى حاكم لدولة صغيرة، ولكنها نامية.

ومنذ بداية البداية، كان النبي محمد محارباً مثلما كان نبياً وقاضياً ، وتوسع المجتمع الإسلامي من خلال الصراع مثلما توسع بفضل الدعوة . فقد كانت قريش في مكة مصممة على سحقه ، كما أن محمداً كان يبذل ما في وسعه بمهاجمة قوافل التجارة التي كانت بمثابة شريان الحياة لحكام مكة . وفي سنة ٦٢٤م ، وقرب بئر بدر ، أوقع المسلمون هزيمة أولى بالمكيين وأخذوا عدداً من الأسرى ولكنهم لم يستولوا على القافلة التجارية التي وصلت بسلام إلى مكة . وبعد ذلك بعامين هزم المكيون قوات محمد في «أحد» ، وفي السنة التالية قاموا بمحاولة للاستيلاء على المدينة نفسها . واستطاع المسلمون هزيمتهم في غزوة الخندق وأعقب ذلك نوع من الورطة. فقد عقد صلح الحديبية مع المكيين سنة ٦٢٨م ، وفي عام ٦٣٠ تمكن محمد من فتح مكة وتقبلت غالبية الأرستقراطية المكية سلطته . وفي شتّى أنحاء شبه الجزيرة العربية. ووصلت الوفود من القبائل من جميع أرجاء شبه الجزيرة ، يعلنون قبولهم سيادته ويوافقون على دفع الزكاة .

ويمكن أن نرى شيئاً عن كيفية أن المسلمين فى زمن الفتوح العظمى اعتبروا تراث النبى فى الخطب التى قيل إن القادة العرب ألقوها إلى يزدجرد الشاه الساسانى فى زمن فتح العراق. وبالنسبة لواحد من هؤلاء الرجال^(٧).

«إنك وصفتنا صفة لم تكن بها عالماً ، فأما ما ذكرت من سوء الحال، فما كان أسوأ حالاً منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات؛ فنرى ذلك طعامنا . وأما المنازل فإنما هى ظهر الأرض ، ولانلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم ، ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً ، ويغير بعضنا على بعض ، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهى حية كراهية أن تاكل من طعامنا ، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك ؛ فبعث الله إلينا رجلاً معروفاً ، نعرف نسبه ، ونعرف وجهه ومولده ، فأرضه خير أرضنا وحسبه خير أحسابنا ، وبيته أعظم بيوتنا ، وقبيلته خير قبائلنا ، وهو بنفسه كان خيرنا فى الحال التى كان فيها أصدقنا وأحلمنا ؛ فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد قبل ترب كان له وكان الخليفة من بعده ، فقال وقلنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا ، فلم يقل شيئاً إلا كان فقذف الله فى قلوبنا التصديق له واتباعه فصار فيما بيننا وبين رب العالمين؛ فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله ، فقال لنا : إن ربكم يقول لكم : إني أنا وحدي لاشريك لى، كنت إذ لم يكن شىء وكل شىء هالك إلا وجهى، وأنا خلقت كل شىء وإلى يصير كل شىء ، وإن رحمتى أدرتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التى بها أنجيكم بعد الموت من عذابي، ولأحكم دارى ؛ دار السلام، فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق ، وقال : من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ما عليكم ، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية، ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ، ومن أبى فقاتلوه، فأنا الحكم بينكم . فمن قُتل منكم أدخلته جنتى ، ومن بقى منكم أعقبته النصر على من ناواه ، فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف ، أو تسلّم فتنجى نفسك^(٨).

(٧) الطبرى ، ١ ، ٢٢٤١ (ج ٢، ص ٤٩٩-٤٥٠) ، ط. دار المعارف وهو المغيرة بن زرارة بن النباش الأسيدى.

وهناك رجل آخر^(٨) شدد على الجوانب العسكرية والسياسية لإنجازه : «إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يدلنا على الخير ويأمرنا به، ويُعرفنا الشر وينهانا عنه ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة، فلم يدع إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين ؛ فرقة تقاربه وفرقة تباعده ، ولا يدخل معه في دينه إلا الخواص. فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ، ثم أمر أن ينبذ إلى من خالفه من العرب، وبدأ بهم وفعل ، فدخلوا معه جميعاً على وجهين؛ مكره عليه فاغتبط ، وطائع أتاه فازداد، فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق...»^(٩).

ومن غير المحتمل تماماً أن أيا من هذه الخطب قد قيلت كما وردت بيد أنها لا تزال مهمة للغاية. فالرواية حسبما وصلت إلينا ربما تكون قد زيد فيها في النصف الأول من القرن الثامن الميلادي، أى في غضون جيلين أو ثلاثة أجيال بعد وفاة النبي، وبينما كانت الفتوح الإسلامية في إسبانيا، ووسط آسيا والهند لا تزال مستمرة . فهي تظهر كيف كان المسلمون الأوائل يتذكرون النبي محمد وهو يقودهم خارج الفقر والانقسامات الداخلية. وهى تؤكد على أهمية كونه من قريش وأهمية الدين الجديد الذى جاء به ، الذى آمن به غالبيتهم دونما إكراه .

كانت غزوات النبي محمد، بمعنى ما، بداية لحركة الفتوح الإسلامية . فقد أوضح مثاله أن القوة العسكرية المسلحة فى سبيلها لأن تصبح عنصراً مقبولاً أولاً فى الدفاع عن الدين الجديد ثم فى التوسع . وكان نموذج النبي يعنى أنه لم يكن هناك مثيل للاتجاه السلمى الذى تميزت به المسيحية المبكرة . كذلك فإن تاريخ غزواته كان محفوظاً تماماً فى ذاكرة المسلمين الأوائل، وجادل البعض بأن^(١٠) سجلات غزواته ، سواء تلك التى شارك فيها بنفسه أو تلك التى جردها تحت قيادة أحد غيره، كانت المادة الأساسية التى اعتمد عليها كُتّاب السيرة النبوية الأوائل . وفى الوقت نفسه، فلاشك فى أن الدبلوماسية كانت أكثر أهمية من الغزو العسكرى فى الإسلام فى شبه الجزيرة العربية. لقد كانت شبكة العلاقات التى استمدتها من علاقاته القرشية ،

(*) الطبرى ، ج ٣ ، ص ٤٤٨-٤٤٩ النعمان بن مقرن.

وليس السيف ، هي التي قادت الناس من أماكن نائية مثل اليمن وعمان إلى مبايعة النبي . كانت القوة العسكرية قد ضمنت بقاء الأمة، ولكنها لم تكن هي الأداة الرئيسية في انتشار الإسلام أثناء حياة النبي .

كذلك قدمت تعاليم الإسلام فكرة «الجهاد»^(١٠). والجهاد مفهوم مهم في الإسلام . وهو مفهوم أثار منذ البداية جدلاً مستمراً بين المسلمين. فقد كانت الأسئلة الأساسية عما إذا كان الجهاد يتطلب العنف أم يمكن أن يكون نضالاً روحياً فحسب، وعما إذا كان من الممكن أن يكون دفاعياً أم أنه يمكن أن يستخدم شرعاً لتوسيع حدود الإسلام، وعما إذا كان فرضاً على المسلمين أو نشاطاً طوعياً يمكن أن يكون ثوابه الجدارة الروحية ، كلها كانت أسئلة مطروحة للنقاش.

وفي القرآن عدة آيات ترشد المسلمين إلى كيفية التعامل مع الكفار ويبدو أن آيات مختلفة تحمل رسائل مختلفة. فهناك مجموعة من الآيات القرآنية توصي بمجادلة غير المسلمين بالتى هي أحسن ومناقشتهم سلمياً لإقناعهم بخطأ ما هم عليه. ففي سورة النحل : آية ١٢٥ ، مثلاً: تَحْتَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى: (اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) . وتوحى عدة آيات قرآنية بأن عدداً من المسلمين على الأقل كانوا مترددين في الانضمام إلى الحملات العسكرية ، وأنهم نالوا التوبيخ بسبب قعودهم دون عمل على حين كان يجب عليهم القتال «في سبيل الله» . ويوحى عدد هذه الآيات الحافزة وإلحاحها بأنه كانت مجموعة مهدئة من بين المسلمين الأوائل كانوا مترددين في شن حروب هجومية من أجل دينهم الجديد، أيا كانت أسباب ترددهم .

وفي بعض الآيات يظهر هؤلاء الذين لا يقاتلون بأنهم يخسرون فوائد النصر وكذلك ثواب الحياة الآخرة . فسورة النساء (٧٢ - ٧٤) توضح لهم:

﴿ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَّيُبْتَغِيَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً (٧٣) فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ .

وهناك آيات أخرى تؤكد فقط على الثواب الروحي، فسورة التوبة (٣٨-٣٩) مثلاً، تقول: ﴿ أَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ ائْتَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَتَفَرَّوْا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . وهنا نجد الفكرة ، التي تم التعبير عنها في الكثير من الحكايات الدينية عن الفتوح، بأن ثواب الحياة الآخرة كانت هي القوة الدافعة لدى المحارب المسلم.

وهناك أيضاً آيات توحى بموقف أكثر تشدداً وعنفاً تجاه غير المسلمين ففي سورة التوبة (آية ٥): ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ هذه الآية يكاد يمكن اعتبارها النص المؤسس لحركة الفتوح الإسلامية، وقد ترددت أصداء مصطلحاتها في العديد من الروايات الخاصة باستسلام المدن والبلاد للمسلمين . وقد تم تخفيفها على نحو ما في آية أخرى من سورة التوبة (آية ٢٩): ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ . هذه الآية وغيرها مثلها توضح أن أهل الكتاب (أى اليهود والنصارى) ينبغي الحفاظ عليهم طالما أنهم يدفعون الجزية ويعترفون بأنهم فى مكانة أدنى(*) .

وقد عمل المفسرون المسلمون جاهدين للتوفيق بين هذه النظرات التي تبدو مختلفة . وقد توصل الرأى السائد إلى أن الآيات القرآنية التي تحبذ الحرب بلا قيود ضد الكفار قد نزل بها الوحي فى وقت لاحق على نزول الآيات التي تحث على الدعوة والجدل . ووفقاً للفقهاء ، كان هذا يعنى أن الآيات الأولى قد تم نسخها بالآيات التي نزلت فيما بعد .

(*) تقول عبارة المؤلف حرفياً «واعترفوا بوضعهم باعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية» ، وهو تعبير سياسى حديث يسبب الكثير من الارتباك والخلط فى المفاهيم. (المترجم)

ومن ثم فإن الآيات المتشددة ، خاصة الآية الخامسة من سورة التوبة التى نقلناها فى السطور السابقة ، تمثل الرؤية الإسلامية النهائية للجهاد . وعلى أية حال، سيكون من الخطأ أن نتصور أن الجدل قد انتهى فى زمن الفتوح الإسلامية الباكرة ، وأنه لم يحدث حتى بعد مرور مائتى سنة تقريباً على وفاة النبى أن تمت صياغة تعريف الجهاد على أيدي فقهاء مثل عبد الله بن مبارك (ت ٧٩٧م)^(١١) . ومن المؤكد أن القرآن قدم سنداً نصياً لفكرة أن المسلمين يمكنهم ويجب عليهم محاربة الكفار، ولكنه لا يقترح أبداً أن يتقدموا بالاختيار بين اعتناق الإسلام أو الموت . فقد كانت الخيارات هى اعتناق الاسلام ، أو الخضوع ودفع الجزية ، أو استمرار القتال . وباختصار فإن الحث القرأنى يمكن أن يستخدم فى توسيع نطاق السلطة السياسية الإسلامية على الكفار أينما كانوا ، بيد أن هذه الآيات لا يمكن استخدامها لتبرير فرض الإسلام بالقوة على غير المسلمين. كما أن المناقشات القرآنية للقتال أوضحت أن الثواب الدينى، أى نعيم الجنة، كانت أهم كثيراً من النجاح المادى. وبهذه السبل ، يقدم القرآن التبرير الإيديولوجى للفتوح الإسلامية^(*).

ويبدو أن الرسائل التى حملتها الآيات القرآنية والتى قد تثير حيرة (بعض من يقرأونها بسطحية) قد تم تبسيطها فى قاعدة تقريبية وفرت التبرير لحروب الفتح. وعندما خاطب بدو شبه الجزيرة الشاهنشاه الساسانى شرح أحدهم ما يفعلونه . فعندما ضمن النبى محمد ولاء كل العرب^(١٢).

«... ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسن الحسن وقبَّح القبيح كله ، فإن أبيتم فأمر من الشر هو

(*) على الرغم من أن المؤلف قد بذل جهداً واضحاً فى فهم معنى الجهاد من خلال آيات القرآن الكريم فإنه قصر جهده على الآيات التى تحمل مفاهيم القتال وحدها من ناحية، كما أنه لم يفرق بين الآيات التى تتحدث عن «الكفار» ، وتلك التى تتحدث عن «أهل الكتاب» من اليهود والنصارى، ولم يحاول الاستفادة من آراء الفقهاء المسلمين الذين عالجوا موضوع الجهاد. لقد تحدث المؤلف عن «القتال» ، وظن أنه تحدث عن «الجهاد»، والفرق كبير وخطير. (المترجم)

أهون من آخر شر منه الجزاء ، فإن أبيتم بالمناجرة ، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه، على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن اتقيمتونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم، وإلا قاتلناكم(*) (١٧).

كانت هذه الكيفية التي تم بها تفسير الجهاد فى أوائل القرن الثامن الميلادى، وربما قبل ذلك. وإلى جانب أيديولوجيا الفتح، أنتجت الأمة الإسلامية فى السنوات الأخيرة من حياة النبى أيضاً ، نخبة قادرة على قيادتها وتوجيهها. فقد كانت الدائرة القريبة من النبى (الصجابه) مؤلفة من رجال كانوا قد أيدوا النبى فى مكة فى السنوات الأولى وصحبوه فى الهجرة إلى المدينة سنة ٦٢٢ م . ومن بينهم كان الخلفاء الأوائل (الراشدون) أبوبكر (٦٣٢-٦٣٤) وعمر(٦٣٤-٦٤٤) وعثمان (٦٤٤-٦٥٦م) وتحت توجيه هؤلاء الرجال جرت الفتوح الأولية . وهم يظهرون بشخصيات متميزة فى المصادر العربية . فابوبكر هو الرجل المسن الوقور دمخ الخلق ، وعمر بن الخطاب هو الصارم التطهرى الذى لا يلىن ، وعثمان هو الثرى الكريم الذى يعانى ضعفاً مميتاً لميله إلى تعيين أقاربه فى المناصب العليا. ولم يتول أحد من هؤلاء الرجال قيادة الجيوش الإسلامية بشخصه فعلاً، وبغض النظر عن زيارة عمر بن الخطاب إلى القدس، لا يبدو أن أحداً منهم غادر المدينة، عاصمة الدولة الجديدة، إطلاقاً . ومن الصعب أن نجزم بمدى سيطرتهم الفعلية على جيوشهم البعيدة . وتناوب المصادر العربية على رسم صورة لعمر ، الذى حدث فى عهده معظم الفتوحات الباكرة المهمة، تصوره قائداً حقيقياً . ولدينا روايات عديدة عن كيف أنه كان يكتب إلى القادة الميدانيين يوجههم إلى ما يفعلون ، وكان يتلقى الغنائم والأسرى فى المدينة ويتصرف تصرف القائد الأعلى الحاضر. وقد مال المؤرخون المحدثون إلى الشك فى هذا ورأوا فيه نوعاً من إضفاء المثالية على الدولة الإسلامية عامة وعلى عمر بن الخطاب خاصة. والحقيقة أنه لا بد أن

(*) نص كلام النعمان بن مقرن فى الطبرى ، (ج ١) .

يكون القادة الميدانيون قد مارسوا قدراً من الاستقلال الذاتي أكبر كثيراً مما توحى به النصوص(*).

ومن غير المحتمل أن الاتصالات عبر المسافات الشاسعة التي اخترقتها الجيوش العربية كانت سريعة ومستمرة على النحو الذي يوحى به التراث العربي، ولكن الواضح أنه كانت هناك درجة كبيرة من السيطرة للعاصمة. إذ كان يتم تعيين القادة وعزلهم بأوامر من الخليفة، وليس هناك مثال واحد في المصادر العربية على قائد يتمرد ضد سلطة الخليفة أو يخالف أوامره. وهو ما يتناقض بوضوح مع الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الساسانية، اللتين انتابهما العجز الفعلي في أوقات مختلفة بسبب حالات التمرد التي قام بها القادة والولاة ضد الحكام. لقد كانت الفتوح الإسلامية أبعد ما تكون عن مجرد تدفق لجحافل البدو الجامحين؛ فقد كانت الحملات تحت توجيه مجموعة صغيرة من الرجال ذوي القدرة والعزم.

كانت القيادة السياسية للدولة الإسلامية المبكرة مؤلفة من المهاجرين بشكل يكاد يكون كاملاً؛ وكان الأنصار من أهل المدينة مستبعدة بدرجة كبيرة، وإن لم يكن تماماً، من القيادة العسكرية. وعلى أية حال، فلا يبدو من المحتمل أن الفتوح كانت تنتج على هذا النحو لو لم تكن هناك القيادة والخبرة العسكرية التي تمثلت في بقية قریش بمكة. فمنذ حوالي سنة ٦٢٨م فصاعداً، أعلن المزيد من زعماء قریش إسلامهم.

(*) في تقديري أن مثل هذا الشك القائم على الافتراض دونما دليل علمي، والذي يتجاهل النصوص التاريخية تماماً، نوع من الانحياز الذي لا يليق بالبحث العلمي. ولو طبقنا هذا الموقف تجاه كل النصوص التاريخية لأنكرنا تاريخ البشرية جمعاء لمجرد أننا نشك في صدقها؛ وهو نوع من العبث الناتج عن الإنحيازات والمواقف المسبقة الذي يجعلنا نتجاهل النصوص التاريخية لمجرد أنها لا تتفقنا. ومن ناحية أخرى، فإن إنكار الدافع الديني الذي جعل القادة يرون في طاعة الخلفاء طاعة لله، وقياس الأمور بالمعايير المادية المجردة، يُفُغِّل أن الحماسة الدينية الناتجة عن الإيمان كانت تحرك الخلفاء والقادة - أو نسبة كبيرة منهم على الأقل - نحو بناء دولتهم والحفاظ عليها. ولو أننا تجاهلنا هذه العوامل المعنوية فإننا لن نستطيع أن نفهم ما حدث. وفضلاً عن هذا كله، فإن المصادر العربية لم تتوخِ رسم صورة مثالية للدولة الإسلامية بدليل ما تحفل به هذه المصادر من أخبار الفتن والصراعات التي أدت إلى مصرع عثمان بن عفان وما أعقبه من أحداث. (المترجم)

وفى المقابل ، نال كثير منهم مكافأتهم على شكل مناصب مهمة فى الدولة الجديدة. وعندما بدأت الفتوح تحت حكم أبى بكر ، اتجه إلى هذه المجموعة ليختار منهم الكثير من قادة جيوشه . وكان من بينهم خالد بن الوليد ، الذى أرسله أبوبكر لى يحارب المرتدين فى اليمامة شرق شبه الجزيرة العربية ثم عينه لقيادة الجيوش الإسلامية فى العراق وبلاد الشام. وثمة رجل آخر من الخلفية نفسها كان عمرو بن العاص، وهو قرشى واسع النفوذ وافق على اتباع النبى محمد سنة ٦٢٨م على شرط التسامح إزاء مقاومته السابقة للنبى، وأن يعطيه دوراً فى الأمور^(١٣). كان عمرو واحداً من نمط النخبة الجديدة الذين اعتبروا أنفسهم أعلى اجتماعياً من كثير ممن كانوا من أوائل الذين اعتنقوا الإسلام . وكان قد ورث ضيعة اشتهرت بأعناقها وكرومها بالقرب من الطائف ، وفى لحظة غفلة أخبر رسولاً أرسله الخليفة عمر بن الخطاب أن أباه ، أى أبا عمرو، كان يرتدى الحرير بأزرار من الذهب على حين كان أبو الخليفة عمر يحمل الحطب الذى كان يتكسب منه عيشه^(١٤). وقد لعب عمرو بن العاص دوراً مهماً فى فتح بلاد الشام قبل أن يتولى قيادة الجيوش الإسلامية إلى مصر. وربما يكون أبرز مثال على تجنيد الأعداء القدامى فى النخبة الجديدة هو مثال عائلة أبوسفیان . فقد كان أبوسفیان مكيًا غنياً من المدرسة القديمة ومن ألد أعداء النبى محمد والدين الذى دعا إليه. وكان أبناؤه قد أدركوا بسرعة إمكانيات النظام الجديد واعتنقوا الإسلام ، وكان أحدهم، وهو معاوية ، كاتباً للنبى. وقد تم إرسال معاوية وأخيه يزيد مع الجيوش الإسلامية الأولى إلى بلاد الشام، التى كان أبوهما يمتلك فيها بالفعل ضياعاً زراعية . وصار يزيد والياً على المناطق المفتوحة حديثاً قبل أن يموت فى الوفاء، ولكن معاوية نجا ليصبح أول الولاة على بلاد الشام، ومنذ سنة ٦٦١م ، صار خليفة . كما كان هو مؤسس القوة البحرية الإسلامية فى شرق المتوسط .

ومن بين مدن الحجاز مدينة الطائف القديمة التى تقع على مرتفع فى الجبال المجاورة لمكة . وكانت الطائف مدينة مسورة محصنة تحيط بها الحدائق والبساتين ، ومكاناً للاستجمام والراحة بعيداً عن حرارة الصيف فى مكة . وكانت تحكمها قبيلة ثقيف ذات المكانة السامية ، التى كانت مسئولة عن رعاية مزار المدينة الذى كان

مكرساً للربة اللات، وكان الثقفيون ، مثل الكثير من المكين، قد دعوا إلى الإسلام وأعلنوا إسلامهم فى السنوات الأربع الأخيرة من حياة النبى. وقِيضَ لهم أن يكونوا الشركاء الأدنى لقريش فى المشروع الإسلامى، وكانت لهم أهمية خاصة فى فتح العراق وإدارته الباكرة.

كان أبناء هذه النخبة الجديدة من غير البدو بالتاكيد . فقد جاؤا من خلفيات حضرية وتجارية. وكانوا يفاخرون بأنهم يمتلكون فضيلة الحلم . وكان هذا يتناقض بوضوح مع بدو شبه الجزيرة الذين اعتبروهم سريعى الغضب لايمكن الاعتماد عليهم ، مفيدى بسبب مهاراتهم العسكرية وصلابتهم ولكنهم بحاجة إلى من يسيطر عليهم ويقودهم^(١٥). ولكن الشراكة ، والمجاملة ، كانت مفتاح النجاح للفتوح العربية الباكرة، وكانت نتاج النخبة الحضرية فى الحجاز التى استخدمت الطاقات العسكرية للبدو ووجهتها لتحقيق أهدافها .

عندما توفى النبى محمد سنة ٦٣٢م كان مستقبل المشروع الإسلامى برمته متارجماً . فعلى مدى أسابيع قليلة كان الخطر ماثلاً عمّاً إذا كانت هذه الأمة الجديدة سوف تبقى وتتوسع أم أنها سوف تنفك إلى مجموعات متحاربة . وقد حُسم التاريخ المستقبلى لكثير من سكان العالم بفضل الأفعال التى قام بها عدد صغير من الرجال الذين كانوا يتناقشون ويتجادلون فى المدينة. فلم يكن النبى محمد قد ترك وريثاً للحكم . إذ كان قد أوضح بجلء أنه «خاتم الأنبياء» ؛ أى آخر الرسل الذين أرسلهم الله منذ آدم . ولم يكن واضحاً بالمرة ما إذا كان يمكن أن يُعين خليفة له . وبدأت المجموعات المختلفة داخل الأمة تؤكد على حاجاتها الخاصة . ويبدو أن الأنصار فى المدينة كانوا سعداء فى اتخاذهم الإسلام ديناً ، ولكنهم لم يكونوا راغبين فى قبول السلطة السياسية لقريش : فقد كان القرشيون قد جاؤهم لاجئين على أية حال، ولقوا الترحيب فى مدينتهم وكانوا آنذاك يتمتعون بالسيادة عليهم. وكان ما يثير الحنق خصوصاً أن الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً من قريش ، وهم رجال كانوا قد عارضوا النبى بضراوة بينما كان الأنصار يحاربون فى سبيل الإسلام، هم الذين احتلوا المواقع ذات النفوذ . وقد اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة وتناقشوا ، وكان من الواضح أنهم يحبذون فكرة أن الأنصار ينبغى أن يكونوا مستقلين وأن يتولوا زمام الأمور فى مدينتهم.

وبينما احتدم النقاش وتصادمت الأفكار ، كان هناك أناس آخرون يتحركون بسرعة وكفاءة. فقبل أن يصل الأنصار إلى أية قرارات حاسمة ، كان عمر بن الخطاب قد أخذ بيد أبي بكر الصديق وطلب مبايعته خليفة رسول الله . وبعد هذه الوقفة الدرامية قبلت قریش والأنصار قيادة أبي بكر الصديق . هذه على الأقل رواية ما حدث كما وردت في المصادر العربية، وهي تحمل رنة الصدق والحقيقة . لقد كان الأمر في جوهره انقلاباً . فعندما قام عمر بن الخطاب بهذا كان يحقق عدة نقاط . فقد كان يقول إنه يجب أن يكون هناك خليفة واحد للنبي يمكن أن يقود الأمة بأسرها ، بما فيها قریش (المهاجرون) والأنصار . وكان يقول أيضا إنه يجب اختياره من المهاجرين ، مسلمي مكة الأوائل. وستكون مكة البؤرة الدينية للدين الجديد ، ولكن السلطة السياسية كانت متمركزة بالمدينة ومن المدينة وجه الخليفتان الأولان الفتوح العظمى.

ومن جوانب كثيرة كان أبوبكر المسن اختياراً موفقاً ، فلم يكن بوسع أحد أن ينازع في ولائه للنبي ، كما أنه شاطر على بن أبي طالب شرف السبق في اعتناق الإسلام . وكان رفيق النبي عندما قام بالهجرة الخطرة من مكة إلى المدينة في سنة ٦٢٢م . كما يبدو أيضا أنه كان دبلوماسياً لبقاً، ولكن ربما كانت أهم خصاله معرفته بقبائل العرب في شبه الجزيرة العربية ، وشيوخهم ، ومصالحهم وصراعاتهم . لقد كانت هذه الخصال ذات قيمة قصوى في العامين الحاسمين اللذين استغرقهما حكمه القصير.

كان تصرف عمر بن الخطاب قد أكد أن أبا بكر وقریش في طريقهم إلى السيطرة على الدولة الإسلامية الوليدة، بيد أنه كانت هناك مشكلات أشد كثيراً في بقية أنحاء شبه الجزيرة العربية. لقد انتشر الإسلام في شبه الجزيرة ، سلمياً بدرجة كبيرة: إذ كانت القبائل وشيوخها يرغبون في ربط أنفسهم بهذه القوة الجديدة ووافق بعضهم على دفع الزكاة إلى المدينة المنورة . وقد أدى موت النبي محمد إلى وضع هذا كله موضع التساؤل . فقد شعر الكثير من الزعماء الذين أعلنوا إسلامهم أن هذا كان عقداً شخصياً وأنه انتهى بموت النبي. وشعر آخرون بأنه ينبغي أن يُسمح لهم بأن يبقوا مسلمين دون دفع أموال الزكاة أو الاعتراف بالسلطة السياسية للمدينة . إلا أن هناك آخرين رأوا في هذا فرصة لتحدي سيادة المدينة. ومن بين هؤلاء الأخيرين كانت قبيلة

بنى حنيفة بعددها الكبير فى اليمامة شرق شبه الجزيرة العربية. وقد أكدوا حينذاك أن لهم نبياً أيضاً هو مسيلمة. وقد اقترحوا فى جسارة أنه يجب تقسيم شبه الجزيرة إلى منطقتى نفوذ ؛ تتولى قريش إحداهما وتكون لهم الأخرى. وثمة قبائل أخرى فى شمال شرق شبه الجزيرة اختارت أن تتبع متنبئة اسمها سجاح. فقد كان النبى محمد قد أوضح كيف يمكن للنبى أن يحوز مكانة قوية وكم من الفوائد يمكن لمن يدعى النبوة أن يجلبها لقبيلته. ولم يكن هناك ما يدعو إلى الدهشة فى أن هؤلاء الذين ادعوا النبوة قد ظنوا أنهم يمكن أن يسيروا على مثاله. وتشير المصادر الإسلامية إلى هذه الحركات كلها باسم «الردة». وهو مصطلح يعنى عادة الارتداد عن الإسلام ، ولكنه فى هذا السياق كان معناه يتضمن كافة أنماط الرفض للإسلام أو السلطة السياسية للمدينة.

وقررت القيادة الإسلامية الجديدة اتخاذ خط جسور متشدد فى هذه التطورات، فقد طالبوا أولئك الذين بايعوا النبى محمد مرة بأن يبقوا على ولائهم لخليفته فى المدينة . ولا يمكن لأحد أن يكون مسلماً ما لم يكن مستعداً لدفع الزكاة لحكومة المدينة المنورة . وباتخاذهم هذا القرار، حركوا الأحداث التى نتجت عنها الفتوح العربية الكبرى؛ فلو أنهم كانوا قد قرروا ترك مناطق أخرى من شبه الجزيرة العربية تنفصل وتخلوا عن تدعيم الدين الجديد حول الكعبة فى مكة ، أو لو أنهم قرروا أن من الممكن ترك الناس يعتقدون الإسلام دون الاعتراف بالسلطة السياسية للمدينة المنورة ، أو كانوا قد قرروا عدم استخدام القوة المسلحة لتأكيد سلطتهم وإقرارها ؛ لما حدثت الفتوح أبداً بالطريقة التى حدثت بها(*) .

وإذا اتخذت القيادة هذا القرار انطلقت لفرضه بكفاءة قاسية. وأية مجموعة لم تقبل حكم المدينة المنورة كان لابد من إخضاعها ، بالقوة إذ لزم الأمر. وتم إرسال الأرستقراطى

(*) نحن لانوافق المؤلف على استخدام «لو» ؛ لأن التاريخ يبحث فى وقائع حدثت بالفعل ويحاول تفسير العلاقة السببية بينها. ويعنى هذا أن البحث التاريخى لا يعرف كلمة «لو» التى تدل بدورها على احتمالات مختلفة، والبحث فى الاحتمالات بحث فى المستقبل ، والتاريخ بحث فى الماضى . ومن ثم فإن هذه الفلزلة القائمة على استخدام «لو» لافائدة حقيقية منها فى البحث التاريخى. (المترجم)

المكى خالد بن الوليد لسحق بنى حنيفة فى اليمامة وغيرهم من القبائل فى الشمال الشرقى من شبه الجزيرة العربية ، كما تم إرسال حملات أخرى تكاد جميع قيادتها أن تكون من قریش إلى عُمان فى جنوب بلاد العرب واليمن . وقد ساعدتهم حقيقة أن كثيرين من أبناء قبائل الحجاز وغرب شبه الجزيرة ظلوا على ولائهم للمدينة ووافقوا على الخدمة فى الجيوش.

كانت حروب الردة هذه بالفعل بمثابة المرحلة الأولى من الغزوات والفتوح الإسلامية الأوسع. فقد تحرك خالد بن الوليد مباشرة بعد سحق بنى حنيفة لمساندة بنى شيبان فى هجماتهم الأولى على الإمبراطورية الساسانية بالعراق. وتم إرسال عمرو بن العاص لإخضاع قبائل جنوب بلاد الشام وظل من ضمن القادة الذين فتحوا بلاد الشام بأسرها .

كانت حركة هذه الفتوح الأولى وألياتها غاية فى الأهمية. ولم تكن الدولة الإسلامية لتبقى دولة عربية مستقرة محدودة فى إطار شبه الجزيرة العربية وبداية الشام. فقد كان بدو شبه الجزيرة العربية يعيشون تقليدياً على الإغارة على القبائل المجاورة وأخذ الأموال فى أشكال مختلفة من أهالى المناطق المستقرة . وكان ثمة مبدأ أساسى فى التاريخ الإسلامى الباكر، على أية حال، ألا يهاجم المسلمون بعضهم بعضاً : فقد كانت الأمة بمثابة قبيلة كبيرة أخذة فى الامتداد والتوسع بمعنى أن الناس جميعاً كانوا أعضاء فى المجموعة الدفاعية نفسها . وإذا كان العرب جميعاً آنذاك جزءاً من عائلة كبيرة فالإغارة على بعضهم البعض قد باتت أمراً لا محل له وغير ذى ضرورة^(١٦). فقد كان سكان المناطق المستقرة مسلمين هم أيضاً. وكان حلول السلم فى شبه الجزيرة العربية يعنى نبذ كلا الأسلوبين البدويين فى العيش والبقاء . وكانت البدائل صارمة : إما أن تقوم النخبة المسلمة بقيادة بدو شبه الجزيرة ضد العالم خارج حدودها والهامش الصحراوى، أو أن تتفكك الدولة الإسلامية ببساطة فيما بين أجزائها المتحاربة وتعود المنافسات المعتادة والفوضى التى عرفتتها حياة الصحراء لكى تفرض نفسها من جديد، وما إن تم إخماد «الردة» وتمت السيطرة مرة أخرى على قبائل شبه الجزيرة العربية ، لم يعد هناك خيار أمام حكومة المدينة سوى توجيه الطاقات

العسكرية المتأججة للبدو ضد الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الساسانية .
فقد كانت الطريقة الوحيدة لتجنب الانفجار الداخلى هى توجيه المسلمين ضد العالم
غير المسلم.

وقد بدأت الفتوح قبل أن يتم إخماد حركات الردّة بشكل نهائى، فقد أعلنت القبائل
إسلامها وقبلت سلطة المدينة لكى يُسمح لها بالمشاركة فى هذه الحملات. وسرعان ما
كانت هناك عملية توافد مستمر للبدو إلى المدينة يريدون أن يجندوا فى الجيوش وعلى
استعداد لإطاعة أوامر عمر بن الخطاب والقيادة الإسلامية.

وتم إرسالهم فى جيوش المحاربين . ولم يتم تحقيق الفتوح الأولى عن طريق هجرة
رجال القبائل البدوية فى شبه الجزيرة العربية بعائلاتهم ، وخيامهم وقطعانهم على نحو
ما فعل الأتراك السلاجقة عندما دخلوا الشرق الأوسط فى القرن الحادى عشر. وإنما
تم تحقيق الفتوح بفضل الرجال المحاربين فى ظل نظام عسكري يخضع للأوامر . ويعد
الفتوح فقط تم السماح للعائلات على الانتقال من مضاربها الصحراوية لكى تستوطن
المناطق المفتوحة حديثاً.

والأرقام التى تعطيها المصادر لنا تختلف اختلافاً بيناً ومن غير المحتمل أن تكون
حقيقية فى هذه المرحلة المبكرة من التاريخ الإسلامى. إذ تخبرنا المصادر الإسلامية أن
القوة المشتركة للجيوش التى فتحت بلاد الشام كانت حوالى ثلاثين ألف رجل^(١٧)،
ولكن هؤلاء نادراً ما جاءوا معاً وكانوا يعملون معظم الوقت فى مجموعات أصغر
عدداً، وتقول المصادر العربية إن عددها كان يتراوح ما بين ستة آلاف واثنى عشر ألف
رجل^(١٨). وكانت الأعداد فى مصر أقل من هذا أيضاً؛ فقد كانت قوات عمرو فى البداية
ما بين ثلاثة آلاف وخمسمائة وأربعة آلاف رجل ، على الرغم من أنهم لم يلبثوا أن
انضمت إليهم تعزيزات بلغت اثنى عشر ألف رجل . ومن الممكن أن تكون الأرقام غير
موثوق بها . ولكنها تبدو واقعية ومتسقة تماماً . ولم يكن هذا جيشاً تغلب على المقاومة
بفضل التفوق العددي الهائل ؛ فالواقع أنه فى المعارك الحاسمة فى اليرموك ببلاد الشام
والقادسية فى العراق، ربما كانوا أقل عدداً من خصومهم البيزنطيين والفرس.

كان عتاد الجيوش العربية بسيطاً ولكنه كان فعالاً . فلم تكن لهم ميزات تكنولوجية على أعدائهم ، ولا أسلحة جديدة ، أو تسليح متفوق، وعندما غزا المغول الكثير من أراضى آسيا وأوروبا أوائل القرن الثالث عشر، كان واضحاً أن تمكنهم من فنون الرمي بالنشاب من فوق ظهور الخيل كان عاملاً رئيسياً فى نجاحهم . فقد وفر لهم قوة النيران والحركة التى كانت تفوق كثيراً ما كان لدى أعدائهم. وعلى النقيض من ذلك كان العرب لا يتمتعون بمثل هذه الميزات كما يبدو.

ولدينا فكرة واضحة عن تجهيز الجنود البيزنطيين من خلال التماثيل ولوحات النحت التى تصور المعارك، التى تساعدنا على إعادة بناء العتاد بقدر من الثقة . وبالمثل ، لدينا صورة واضحة عن المحاربين الراكبين فى العالم المسلم فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر من رسوم المخطوطات الفارسية ذات التفاصيل الباهرة والتى وصلتنا من تلك الفترة. وعلى أية حال ، فإننا لانكاد نملك أى دليل مرئى عن الجيوش العربية الأولى . وليس هناك أى دليل أثري يُعَوَّل عليه ومؤرخ عن العتاد العسكرى العربى فى هذه الفترة ، ولم تبق منها أى سيوف أو دروع . وبدلاً من ذلك علينا أن نعتمد على ما يرد ذكره بطريقة عرضية فى الروايات والأشعار، التى نادراً ما تمدنا بالأوصاف التفصيلية سوى فى الحالات الاستثنائية^(١٩).

وكان من المتوقع عادة من جنود الجيوش الإسلامية الباكرا أن يجلبوا أسلحتهم ، أو يحوزونها غنائم من ساحات المعارك. فقد كان العتاد العسكرى من أهم البنود التى يتم البحث عنها بين الغنائم عندما تتم هزيمة جيش ما، أو الاستيلاء على مدينة من المدن . فسرعان ما كان يقوم سوق نشط للأسلحة والعتاد فى كثير من الأحيان. ولم يكن هناك أى شىء عن الزى الرسمى: إذ كان كل رجل يرتدى ما يمكنه العثور عليه ، وما يستطيع تدبيره . كذلك كان متوقعاً منهم فى معظم الأحيان أن يوفروا الطعام لأنفسهم . إذ لم تكن هناك قوافل للإمداد والتموين ، ولا عربات متناقلة محملة بالمؤن تعوق تقدم الجيش : فبدلاً من ذلك كان المتوقع من كل رجل أن يحمل زاده الشخصى أو يحصل عليه فى الطريق. فقد كان الجنود فى الجيش المسلم الذى غزا الإمبراطورية البيزنطية سنة ٧١٦-٧١٧م قد تلقوا أوامر من قائدهم بأن يأخذ كل منهم ما يساوى

كيلو جرامين من الغلال على ظهر جواده. وفى الواقع لم يحتاجوا إليهما لأنهم حصلوا على ما يكفى عن طريق الإغارات التى شنوها . وقد بنوا أكواخاً لتحميهم من جو الشتاء وزرعوا الأرض بحيث أمكنهم فيما بعد وأثناء الحملة أن يعيشوا على غلتها^(٢٠). فالسفر الخفيف والعيش على ما تنتجه الأرض، ساعد القوات المسلمة على أن تقطع مسافات شاسعة ، لم يكن ممكناً أبداً أن يصلوا إليها لو أنهم كانت لديهم عربات تنن بصريها تحت وطأة المؤن يجرونها معهم.

كان السلاح الرئيسى هو السيف^(٢١). وكان السيف العربى فى البداية غير السيف المنحنى الذى يتصوره الخيال، وإنما كان سيفاً عريضاً ، مستقيماً ذا نصل مزدوج الحدين وله مقبض صغير . وكان له غمد من الجلد أو الخشب الذى عادة ما كان يحمل بسيور أو شرائط حول الكتفين، ولايوضع فى حزام . والأمثلة الباقية من الفترة الساسانية المتأخرة بينها أنصال سيوف يبلغ طولها متراً . ولابد أن هذه الأسلحة كانت تتطلب قوة كبيرة وبراعة فى الاستخدام. ويبدو أن أفضل السيوف كانت تستورد من الهند، على الرغم من أن اليمن وخراسان أيضاً كانت لهما شهرة ذائعة فى صناعة الأسلحة فائقة الجودة. ومن المؤكد أن السيوف كانت مكلفة وغالية الثمن، وكانوا يطلقون عليها الأسماء وتتوارثها العائلات ويحتفى بها فى الشعر . فالسيف ، المستخدم فى القتال المتلاحم ، كان يعتبر سلاح البطل الحقيقى. ويبدو أيضاً أن السيوف كانت تستخدم على نطاق واسع ، ومن الممكن أن تكون الثروة المتزايدة فى أجزاء من شبه الجزيرة العربية فى القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلاديين قد أتاحت للمزيد البدو الحصول على هذه الأسلحة المهيبة.

وإلى جانب السيوف كانت هناك الرماح أيضاً. وكان الرمح الطويل فى أساسه سلاحاً للمشاة له قسبة خشبية ورأس معدنية بحيث يتاح استخدامه سلاحاً للقطع وسلاحاً للطعن. أما الحربة الأقصر فكانت تستخدم فى الفترة الإسلامية الباكرة من فوق ظهور الخيل ، على الرغم من أنه لا يوجد دليل على استخدام الحراب الثقيلة فى القتال الراكب. كما أننا نسمع روايات عن استخدام القضبان الحديدية، والقضبان الشائكة والعصى، والحجارة وأعمدة الخيام وأى شىء آخر تصل إليه الأيدي.

وكانت هناك أيضا القسي والنشاب، وكان رماة السهام يحظون بتقدير كبير . وتحدث المصادر عن القسي «العربية» «الفارسية» ومن المحتمل أن العربية منها كانت أخف وأكثر بساطة . وليس هناك ما يشير إلى أن الجيوش المسلمة كانت لديها أقواس مزدوجة فى هذه المرحلة على الرغم من أنه من المؤكد أنها كانت تمتلكها مع قدوم القرن التاسع .

وكان يتم لبس دروع الزرد التى تغطى الجسم^(٢٢)، على الرغم من أن عدد الرجال الذين كان بمقدورهم توفير دروع الزرد كان بالضرورة عدداً صغيراً جداً: ففي سنة ٧٠٤ قيل أنه فى ولاية خراسان بأسرها كان هناك فقط ٢٥٠ درعاً من الزرد تغطى الجسم لحوالى خمسين ألف محارب. وكانت معاطف الزرد يتوارثها جيل عن جيل ، على حين المعاطف الجديدة المصقولة اللامعة غالية الثمن جداً . وكانت خوذة الرأس على شكلين. كان هناك المغفر، الذى يُعرف فى تاريخ السلاح الغربى باسم aventail (أى الجزء الأمامى المتحرك من الخوذة). وكان هذا فى الأساس قلنسوة من سلاسل المعدن كانت تنزل على الظهر لحماية الرقبة . أما البديل فكان عبارة عن خوذة مستديرة كانت تعرف باسم البيضة . وكان يجب أن يكون المحارب كامل التجهيز محمياً تماماً ، على الأقل مثل المحاربين النورمان الذين صورتهم نسجية باييه Bayeux Tapestry^(*)، ولكن لابد أن معظم الجنود العاديين كانوا أقل حظاً ، فقد كانوا يحاربون وهم يرتدون العباءة والعمامة التى كان تعرضهم حتماً للخطر.

(*) تُنسب هذه اللوحة النسجية الشهيرة إلى مدينة بايبي فى نورماندى بفرنسا ، ولا تزال محفوظة بمتحف البلدية بهذه المدينة حتى الآن. وهذه اللوحة (٥٠ x ٧٠ سم) نسجتها الملكة ماتيلدا زوجة وليم الفاتح (وليم ابن الزنا William of Bastard) بوصيفاتها على طراز الرومانسك Romanesque لتصوير معركة هاستنجز ١٠٦٦م ، فاتحة الغزو النورمانى لإنجلترا ؛ وهى تصور حملة وليم الفاتح من الاستعداد فى نورماندى، ثم الإبحار عبر القنال الإنجليزي، فالمعركة نفسها. وإلى جانب قيمتها الفنية تُعتبر هذه اللوحة مصدراً تاريخياً فائق القيمة لمؤرخى الحرب والتسلح ، فقد صورت السفن والأسلحة وأدوات القتال المستخدمة آنذاك. (المترجم)

ولدينا قدر قليل للغاية من الأوصاف التفصيلية لشكل المعركة فى هذه الفترة وليس لدينا أى كتب عسكرية ترجع إلى وقت الفتوح الإسلامية الباكرة ، بيد أن المصادر فى بعض الأحيان تقدم بعض النصائح تعطينا فكرة ما عن الأساليب العسكرية، وفى سنة ٦٥٨م كان هناك جيش من العراقيين غير المجريين يغزون بلاد الشام فى أحد الحروب الأهلية التى نشبت بين المسلمين فى تلك الفترة . وثمة زعيم بدوى مسن مراوغ هو زمر بن الحارث الكلابى أخذ على عاتقه أن يقدم لهم بعض النصيحة^(٢٣). فقد حثهم أولاً على أن يتأكدوا من توفر إمدادات المياه التى يمكنهم الوصول إليها . وكان خصومهم الشاميون يسرون على أقدامهم ولكن العراقيين كانوا راكبين ، وكان يجب أن يستفيدوا من الحركة التى يوفرها لهم هذا الوضع لكى يتمركزوا فيما بين أعدائهم والماء . ثم استطرد «... فلا تقاتلوهم فى فضاء ترامونهم وطاعنهم ، فإنه ليس لكم مثل عددهم، فإن استهدفتمهم لهم لم يلبثوا أن يصرعوكم ، ولا تصفوا لهم حين تلقونهم، فإنى لا أرى معكم رجالة ولا أراكم كلكم إلا فرساناً ، والقوم لاقوكم بالرجالة والفرسان ، فالفرسان تحمى رجالها والرجالة تحمى فرسانها ، وأنتم ليس لكم رجالة تحمى فرسانكم ، فالقوهم فى الكتائب والمقانب ثم بثوها ما بين ميمنتهم وميسرتهم ، واجعلوا مع كل كتيبة كتيبة إلى جانبها فإن حمل على إحدى الكتيبتين ترجلت الأخرى فنفست عنها الخيل والرجال ، ومتى ما شاءت كتيبة ارتفعت، ومتى ما شاءت كتيبة انحطت ، ولو كنتم فى صف واحد فزحفت إليكم الرجالة فدفعتم عن الصف انتقض وكانت الهزيمة...»^(٢٤). والتأكيد على القتال على الأقدام مثير : إذ إن امتلاك الخيول أو الجمال كان مفيداً جداً فى القدرة الحركية ، والاستطلاع ، وفى هذه الحالة يمكن السيطرة على ميزات ميدان المعركة ؛ مثل موارد المياه، بيد أن المارك كانت تحسم عادة بفضل القتال المتلاحم الذى يخوضه جنود المشاة . فلا بد أنهم كانوا ينحون حراهم جانباً ليقاتلوا بالسيوف ، وغالباً ما كان الأمر ينتهى بطرح خصومهم أرضاً . وربما كان عدم وجود ركاب الخيل، أثناء الفتوح الأولى على الأقل، قد وفر ميزة نسبية للجندى الراجل.

(*) الطبرى، ج ٥، ص ٥٩٥ .

ويبدو أن الجيش الشامي، الذي انتصر في هذه المعركة ، كان في أواخر القرن السابع وبداية القرن الثامن الميلادي متخصصا في قتال المشاة المتلاحم . فعندما كانت قواته تتعرض لهجوم الفرسان، كان المشاة يشكلون حائط صلب، وقد ركعوا وغرسوا نهايات حرايبهم على الأرض ووجهوا نصالها صوب أعدائهم . وكانوا ينتظرون حتى يقترب العدو بالخيول فينهضوا ويوخزوا الخيول في وجوهها . وكان القيام بهذا يتطلب نظاماً وانضباطاً وقدرًا كبيراً من ضبط النفس ، ولكن طالما بقي الصف متماسكا صامداً كان هذا الأسلوب فعالاً للغاية. هذه الأساليب العسكرية المنظمة كانت غريبة على تقاليد بدو شبه الجزيرة العربية في الحروب واعتمادهم على القدرة الحركية والشجاعة الفردية، ولكن ربما تم استخدامها في المراحل اللاحقة من الفتوح في الجيوش الإسلامية التي فتحت بلاد المغرب ووسط آسيا .

وهناك تجديدان في التكنولوجيا العسكرية انتشرا على نطاق واسع في أثناء الفتوح . فقد كان الركاب^(٢٤) المستخدم في ركوب الخيل غير معروف بالنسبة للمحاربين الفرسان في العالم القديم. وليس من الواضح متى وأين تم ابتكار الركاب بالضبط . وهناك رسوم جدارية من وسط آسيا ، ربما يرجع تاريخها إلى نهاية القرن السابع أو بداية القرن الثامن ، توضح أن الركاب كان مستخدماً . أما المصادر المكتوبة فتقول إنها استخدمت للمرة الأولى على أيدي الجيوش العربية المقاتلة في جنوب إيران (ضد عرب آخرين في معظم الأحيان) في ثمانينيات القرن السابع الميلادي. وبحلول القرن الثامن كان قد انتشر على نطاق واسع . وكانت أهمية اختراع ركاب الخيل محل جدل شديد بين المؤرخين على نطاق واسع. وكان هناك رأي يقول إن الركاب في الغرب اللاتيني قد أتاح تطوير الفارس المدرع ثقيل التسليح مع كل النتائج الاجتماعية والثقافية التي نجمت عن هذا. ولا يبدو أن هذا الاختراع كانت له مثل هذه النتائج بعيدة المدى في العالم المسلم ، على الرغم من أنه قد سهّل بالتأكيد شن غارات طويلة المدى في المراحل اللاحقة من الفتوح.

وكان الاختراع العسكري الثاني في هذه السنوات الأولى من الفتوح يتمثل في تطوير المدفعية القاذفة . وكانت القطع الكبيرة منها تعرف باسم المنجنيق ، والقطع الأصغر

تسمى العرّادة^(٢٥). هذه الآلات كانت معروفة قبل الفتوح الإسلامية، وأول مثال تم التحقق منه استخدمه الأفار في حصن تسالونيك (فى اليونان) سنة ٥٩٧م. وكانت هذه الآلات القاذفة تعمل بواسطة رجال يسحبون الحبال إلى أسفل فى أحد طرفى الرافعة حتى يتأرجح الطرف الثانى مندفعاً إلى أعلى بسرعة كبيرة ويطلق قذيفة من مقلاع مثبت فى طرفه. والاستخدام الوحيد المسجل للمنجنيق فى المرحلة الأولى من الفتوح الإسلامية (٦٣٢-٦٥٠) يأتينا فى الرواية عن الهجوم العربى على العاصمة الفارسية المدائن / طيفسون ، حيث يقال إن العرب قد استخدموا عشرين من هذه الآلات بناها مهندس فارسى اعتنق الإسلام بناء على أوامر القائد العربى سعد بن أبى وقاص^(٢٦). ومن المدهش أن آلات الحصار لايرد لها ذكر على الإطلاق فى الروايات الواردة عن الفتح العربى للمدن الحصينة مثل دمشق، أو الحصن الرومانى العظيم فى بابلون بمصر ، ولكن من المستحيل أن نقرر ما إذا كان هذا بسبب عدم استخدامها أو لأن المصادر لاتذكرها . وفى القرن الثامن الميلادى نسمع عن أن المسلمين استخدموها لهدم أسوار سمرقند فى سنة ٧١٢م ، وتتأكد هذه المعلومات بوضوح إذا ما تم العثور على رسم يبين كيفية عملها. وفى الوقت نفسه لدينا أخبار عن آلة يقوم بتشغيلها خمسمائة رجل أنزلت العلم المرفوع أعلى المعبد البوذى فى الديبل بالسند. وعلى العموم، على أية حال، فإن الأمور الحربية المتعلقة بالحصار كانت فيما يبدو أموراً أساسية؛ وفى الحملات الطويلة الشاقة فيما وراء النهر فقط أوائل القرن الثامن الميلادى يتولد لدينا الانطباع بأن حملات الحصار المنظمة وطويلة المدى كانت موجهة .

ولم يكن لدى المسلمين الأوائل أسلحة سرية ، ولم تكن لهم السيادة على التكنولوجيا العسكرية الجديدة التى يمكنهم بها التغلب على أعدائهم . وكانت المزايا تتمثل ببساطة فى القدرة الحركية، والقيادة الجيدة، وربما كان أهمها جميعا الدافع والروح المعنوية العالية.

ومن الصعب تقدير قيمة الدافع لدى المحاربين فى زمن هذه الفتوح الباكرة. فقد قال سير فرنسيس باكون Sir Francis Bacon إن الملكة إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا لم تكن تحب فتح نوافذ على قلوب الرجال والأفكار السرية. وإلى حد ما لا يستطيع المؤرخون

أن يفعلوا هذا . وكل ما نستطيع عمله أن نتأمل ونفكر فيما قالوه ، أو كان هناك زعم بأنهم قالوه ، عن أفكارهم حول ما كانوا يقومون به .

وقد جاءت أكمل المناقشات وأكثرها تفصيلاً عن دوافع المسلمين في سلسلة من الخطب التي قيل إن المبعوثين المسلمين ألقوها على مسامع السلطات الفارسية ، وقد رأينا بعضها بالفعل . وقد أكد المسلمون مراراً وتكراراً على أنهم لا يعبأون بأمور هذه الدنيا ؛ وإنما ثواب الجنة هو الذي يدفعهم ، وكذلك الاعتقاد بأن الفارسي الميت لن ينال الثواب نفسه قال المغيرة بن شعبه « ... إن قتلتمونا دخلنا الجنة ، وإن قتلناكم دخلتم النار»(*) فقد كانوا يعملون على أوامر الله المباشرة فقالوا لكسرى إنهم جاءوا إليه بأمر من ربهم ، يحاربون في سبيله وإنهم يعملون بأوامره سعيًا وراء تحقيق وعده .

وكثيرا ما يوصف موتى المسلمين (في الحرب) بأنهم شهداء . ووفقاً للتراث الإسلامي تظهر فكرة أن الذين يموتون في الجهاد شهداء للمرة الأولى في الروايات التي تناقلها المؤرخون عن غزوة بدر (٦٢٤م) ويبدو أنه كان مقبولاً بشكل عام أن أولئك الذين قتلوا في الجهاد يذهبون إلى الجنة مباشرة؛ وفي إحدى المناسبات وُصف موقع معركة قتل فيها كثير من المسلمين بأنه تفوح منه رائحة طيبة . وهناك قصص عن رجال يسعون عمداً إلى نيل الشهادة ، أو على الأقل يعرضون أنفسهم للخطر لنيل الشهادة : «وحمل رجل من تميم ممن كان يحمي العشيرة يقال له سواد ، وجعل يتعرض للشهادة ، فقتل بعدما حمل . وأبطأت عليه الشهادة حتى تعرض لرستم يريده ، فأصيب دونه»(**) . في هذه الحالة ، من المهم أن نلاحظ الربط بين الرغبة في الشهادة والالتزام بالتضامن القبلي^(٢٧) . وهناك عدد قليل من الأمثلة المتطرفة ، مثل الرجل الذي نزع درعه في المعركة حتى يمكن أن يُقتل بسرعة أكبر^(٢٨) ، وبذلك ينال ثواب الشهادة؛ بيد أن هذه حالات استثنائية : وليس من غير المعقول أن معظم الناس كانوا يريدون الاستمتاع بثمار نصرهم في هذه الدنيا قبل أن ينتقلوا إلى مباحج الحياة الآخرة .

(*) الطبري ، ج ٢ ، ص ٤٩٦ - ص ٤٩٧ .

(**) نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٤٥ .

وثمة دافع آخر وضعته المصادر في أفواه المحاربين المسلمين الأوائل هو تحرير الرعايا الفرس من الطغيان حتى يمكنهم اعتناق الإسلام . «قال ربيعي بن عامر ... الله ابتعثنا ، والله جاء بنا لنُخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لنُدعُوهم إليه ، فمن قبل منا ذلك قبلنا منه ذلك ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا ، ومن أبى قاتلناه أبداً ، حتى نفضى إلى موعود الله» (٢٠) (*) .

وعلى العموم لم تكن مسألة نشر الإسلام أو تقديم فرصة اعتناق الإسلام تطرح كثيراً باعتبارها سبباً من أسباب القتال . فالأكثر شيوعاً الفخر بالعروبة والفخر بالقبيلة . فعندما أراد سعد بن أبي وقاص ، قائد القوات الإسلامية في العراق ، أن يحث رجاله على الفعال العظيمة ، لجأ إلى استثارة فخرهم بعروبيتهم «... وأنتم وجوه العرب وأعيانهم ، وخيار كل قبيلة ، وعزٌّ من وراكم؛ فإن تزهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة» (٢١) (**) . وكثيراً ما تقابل الخطب زهد العرب وأمانتهم برفاحية الفرس وكذبهم . والفخر بإنجازات القبيلة بقي دافعاً مهماً مثلما كان في الجاهلية ، ويتضح هذا في أنصع صوره في الشعر مثل هذه القصيدة التي أنشدها شاعر مجهول احتفالاً بما حقته قبيلة تميم في معركة القادسية:

وجدنا الأكثرين بنى تميم	غداة الروع أصبرهم رجالاً
هم ساروا بأرعن مكفهر	إلى لجب فزرتهم رعالاً
بحور للأكاسر من رجال	كأسد الغاب تحسبهم جبالاً

(*) نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٢٠ .

(**) النص الذي أورده المؤلف نقلاً عن الطبري يقف عند عبارة «وعزٌّ من وراكم» وقد رأيت أن أثبت جزءاً آخر من نص الطبري (ج ٢ ، ص ٥٢١-٥٢٢) لبيان أن سعد بن أبي وقاص قد خاطب رجاله بالمفاهيم الإسلامية أيضاً وليس بنصرة الفخر بالعروية فقط حسبما يزعم المؤلف الذي ابتسر النص . (المترجم)

تركن لهم بقادس عز فخر وبأخيفين أياماً طوالاً
مغطمة أكفهم وسوق بمردى حيث قابلت الرجالاً (٣٢)(*)

أو هذه القصيدة التى تحتفى بدور قبيلة أسد :

جلبنا الخيل من أكثاف نيق إلى كسرى فوافقها رعالا
تركن لهم على الأقسام شجوا وبالحقورين أياماً طوالاً
وداعية بفارس قد تركنا تبكى كلما رأت الهلالاً
قتلنا رستمًا وبنيه قسرا تثير الخيل فوقهم الهيالاً
تركنا منهم حيث التقينا فئاماً ما يريدون ارتجالاً

ويأتى الابتهاج بالمعركة والقتل مباشرة من روح عالم ما قبل الإسلام . فقد بقى
المجد الفردى والشهرة الفردية على أهميتها أيضا . وفى إحدى النصائح نجد الرغبة فى
الجنة تمتزج بالرغبة القديمة فى الشهرة الدائمة فى هذه الدنيا : «قال ربيع بن البلاد
السعدى: يا معاشر العرب، قاتلوا للدين والدنيا» ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ
عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران ١٣٣) . وإن عظم الشيطان
عليكم الأمر ، فاذكروا الأخبار عنكم بالمواسم ما دام للأخبار أهل» (٣٢)(**).

كانت الرغبة فى الشهرة فى هذه الدنيا تتزاوج مع الرغبة فى الثروة . وأحد أكثر
الملامح إتساقاً فى قصص الفتوح الباكورة هى الرغبة فى الحصول على الغنائم والابتهاج
بوصف الثروات التى تم الحصول عليها . وعادة ما كانت الغنائم توصف بأنها أموال،
وبضائع منقولة والعبيد؛ وكان الحصول على السبايا مهماً فى بعض المناطق دائماً،

(*) نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٤٠ .

(**) الطبرى، ج ٣، ص ٥٢٤ .

ولاسيما بربر شمال أفريقيا، إذ كان هو الشكل الأكثر انتشاراً لمكافحة النصر. ومن المثير أنه نادراً ما يرد ذكر الحيوانات خاصة وأنهم كانوا شعباً رعوياً، وربما لأن المحاربين كانوا قد تخلوا عن أسلوب حياتهم الرعوية السابقة إلى حد كبير. وكان الاهتمام بالحصول على الغنائم يساويه الاهتمام بتوزيعها بالعدل. ولاشك في أن الكثير من هذه الأوصاف يقصد بها الموعظة بدورها وأن الإنصاف والعدالة التي كان يتم بها توزيع الغنائم كانت تحمل مبالغاة بالتأكيد، بيد أن هذه النقطة تظل حقيقية.

كان لدى الدولة الإسلامية البازغة الرجال، والمهارات العسكرية، والقناعة الأيديولوجية والقيادة اللازمة لشن حملة توسع كبرى، وفوق هذا وذاك، كان قادة الدولة الجديدة يدركون تماماً أن عليها أن تتوسع أو تنهار. وبالنسبة لهم لم يكن هناك سوى مسار واحد للعمل: الفتوح.

الهوامش

(١) عن الرصافة وتبجيل سان سرجيوس انظر :

E. K. Fowden, The Barbarian Plain: Saint Sergius between Rome and Iran (Berkeley, CA, 1999).

Quoted in A. Jones, Early Arabic Poetry, 2 vols . (Oxford, 1992), I, p.1. (٢)

C. Lyall, The Diwan of cAbid ibn al-Abras, of Asad and cAmir ibn at Tufayl, (٣) of Amir ibn Sacsscah (London, 1913).

Lyall, Diwans, p. 106. (٤)

(٥) عن أحسن مقدمة لتاريخ ملوك جنوب شبه جزيرة العرب، انظر :

R. Huyland, Arabia and the Arabc : From the Bronze Age to the Coming of Islam (London, 2001), pp. 36-57.

G. W. Heck, 'Gold mining in Arabia and the rise of the Islamic state', Journal of (٦) the Economic and Social History of the Orient 42 (1999): 364-95.

(٧) (المغيرة بن شعبة الأسدي)

Tabari, Ta'rikh, ed. M.J. de Goeje et al. (Leiden 1879-1901), I, pp. 2241-2.

(٨) النعمان بن المقين

Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2239-40.

G. M. Hinds, "Maghazi", Encyclopaedia of Islam, 2nd edn. (٩)

(١٠) هذه المناقشة للجهاد قائمة على أساس :

R. Firestone, Jihad: The Origin of Holy War in Islam (Oxford, 1999).

(١١) انظر :

R- P. Mottahedeh and R. al-Sayyid, 'The Idea of Jihad in Islam before the Crusades', in the Crusades from the Perspective of Byzantium and the Muslim World, ed. A. E. Laiou and R- P. Mottahedeh (Washington, DC, 2001), pp. 23-39.

(١٢) النعمان بن المقرئ :

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2240.

Quoted in F. M. Donner, *The Early Islamic Conquests* (Princeton, NJ, 1981), (١٣) p. 67. See also M. Lecker, 'The estates of 'Amr b. al-'As in Palestine', *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 52 (1989): pp. 24-37.

Quoted in Lecker, 'Estates', p. 25 from Ibn Abd al-Hakam, *Futuh*, p.146. (١٤)

(١٥) عن هذا انظر :

Donner, *Early Islamic Conquests*, p. 81

Firestone, *Jihad*, pp. 124-5. (١٦)

Donner, *Early Islamic Conquests*, P-135. (١٧)

Ibid., pp. 205-9. (١٨)

(١٩) عن الصور المرسومة انظر :

D. Nicolle, *Armies of the Muslim Conquests* (London, 1993); Nicolle, 'War and society in the eastern Mediterranean', in *War and Society in the Eastern Mediterranean 7 th to 15 th centuries*, ed. Y. Lev (Leiden, 1997)- PP- 9-100'

Tabari, *Tarikh*, II, p. 1315. (٢٠)

(٢١) عن الأسلحة عموما انظر :

H. Kennedy, *The Armies of the Caliphs* (London, 2001), pp. 173-8; on swords, see R. Hoyland and B. Cilmour, *Medieval Islamic Swords and Swordmaking: Kindi's treatise 'On swords and their kinds'* (London, 2006).

See Kennedy, *Armies*, pp. 169-72. (٢٢)

Tabari, *Ta'rikh*, II, pp. 554-5. (٢٣)

See H- Kennedy, 'The military revolution and the early Islamic state', in *Noble Ideals and Bloody realities: Warfare in the Middle Ages*, ed. N. Christie and M. Yazigi (Leiden, 2006), pp. 197-208.

(٢٥) عن آلات الحصار الإسلامية ، انظر :

P, E. Chevedden, 'The hybrid trebuchet: the halfway step to the counterweight trebuchet', in *On the Social Origins of Medieval Institutions. Essays in Honor of Joseph F. O'Callaghan*, ed. D. Kagay and T. Vann (Leiden, 1998), pp. 179-22.

Tabari, *Ta'rikh*, I, pp. 2427-8. (٢٦)

27.Tabari, *Ta'rikh*, I, p. 2237, ascribed to al-Mughira b. Suf'ba.

Tabari, Tarikh, I, p. 2309. (٢٨)

Awfb. Harith, quoted in Firestone, jihad, p. 114. (٢٩)

Tabari, Ta'rikh , I,p. 2271, ascribed to Rib ci b. cAmir. (٣٠)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2289 (٣١)

Tahari, Ta'rifci I,p. 2365. (٣٢)

Taliari, Ta'rikh, 1. pp. 2302-3. (٣٣)

Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2293-4. (٣٤)

فتح الشام وفلسطين

كانت أراضي بلاد الشام وفلسطين من ولايات الإمبراطورية البيزنطية التي تحكمها القسطنطينية . وفى سنة ٦٣٢ م ، التي شهدت وفاة النبی محمد، كان البيزنطيون يحكمون أيضا الكثير من أراضي البلقان ، وجنوب إيطاليا وصقلية ، وشمال أفريقيا . وكان الرومان ومن بعدهم البيزنطيون يحكمون الأراضي الواقعة شرق المتوسط على مدى ستمائة سنة دونما انقطاع . وعندما انهارت الإمبراطورية الرومانية فى الغرب وسقطت فى خضم الفوضى خلال القرن الخامس الميلادى، استمر ازدهار الولايات الغنية على الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط . واستمرت السلطات الإمبراطورية فى القسطنطينية فى جمع الضرائب ، والاحتفاظ بجيش نظامى وإرسال حكام ليحكموا الولايات . وبينما اضمحلت المدن فى الغرب وصارت قرى، كانت مدن بلاد الشام لا تزال تتجمل بشوارع مستقيمة واسعة ، والأسواق ، والحمامات والكنائس .

وفى كل من المدينة والريف ، كان المشهد فى بلاد الشام محكوماً بتراث ألف سنة من حكم النخب التي تتحدث اليونانية والتي تشربت التعليم والمشاعر الكلاسيكية . وقد سادت الأطلال الكبيرة للعالم القديم الوثنى مدناً مثل بالميرا ، وهليوبوليس (بعلبك) وجراسا (جرش) وبترا ، كما هو الحال اليوم . أما المدن الأصغر والقرى فقد ازدانت بصفوف الأعمدة والأروقة التي عكست على نطاق أصغر، ولكنه لم يكن بالضرورة أقل رونقاً ، أشكال العمارة اليونانية الرومانية .

وربما كانت المعابد الكبرى فى الميرا ويعليك تحكم المدن التى كانت قائمة فيها ، ولكنها كانت فى معظمها أطلالاً غير مسقوفة . ففى جرش كان فناء معبد آرتميس الكبير يستخدم لأفران الفخار ، لدرجة أن الساحة المرصوفة الكبرى التى كانت تحيط بمذبح هذه الربة كانت قد تحولت إلى الاستخدام الصناعى وضجيجها ، على حين كان المعبد نفسه قد أغلق وأحيط بالقضبان وبات مأوى للثعابين والعفاريت . وكانت بلاد الشام ومصر مسيحية كلها . ذلك أن المسيحية ، قد تأسست فى هذه الأنحاء ، وكان فى أنطاكية أن أطلق على أتباع الديانة الجديدة اسم المسيحيين للمرة الأولى . وعلى مدى القرون الثلاثة الأولى بعد مجئ المسيح ، تنافس المسيحيون مع الديانات الأخرى فى سوق الديانات الكبرى شرق المتوسط . وكان هناك وثنيون يتحدثون اليونانية يعبدون زيوس وأبوللو ، وقرويون أراميون يعبدون الآلهة نفسها ولكنهم يسمونها بعلى أو هداد على أسماء الآلهة القديمة التى كانت عتيقة بالفعل عندما دخل الإسرائيليون أرض كنعان للمرة الأولى .

ويحلول القرن السادس الميلادى ، على أية حال ، كانت المسيحية ديانة الأغلبية فى المدن والريف ، وفى الجبال والصحراء . وكانت هناك جماعات يهودية مهمة ، لاسيما فى فلسطين ، كما كانت لا تزال هناك أقاليم ودوائر اجتماعية بقيت بها الوثنية الكلاسيكية : وكان الرجال لا يزالون يضعون الفسيفساء لأرضيات منازلهم بها صور من الأساطير والخرافات القديمة ، ويصعب الجزم إذا ما كانوا لا يزالون على إيمانهم بها أم لا .

كذلك كانت المسيحية ديانة الهيراركية الإمبراطورية الحاكمة ، وكان هذا أمراً مهماً فيما يتعلق بشكل المجتمع . ولابد أنه كان من المستحيل فى القرن السادس لأى واحد غير مسيحى أن يتولى منصباً حكومياً مهماً . بيد أن مسيحيي بلاد الشام لم يكونوا جماعة متجانسة إطلاقاً . ففى أثناء القرن السادس برزت اختلافات عميقة بين المجموعات المختلفة من النصارى . وكانت النقطة الأساسية فى الموضوع ألوهية المسيح وتجسده : هل كان المسيح بشراً كاملاً وإلهاً تاماً فى آن معاً ، أم كانت له طبيعة إلهية واحدة فقط ، وأن إنسانيته على الأرض تبدو فحسب مثل طبيعتنا البشرية؟ هذا النقاش اللاهوتى الذى يبدو غموضه واضحاً أثار عواطف وغضباً هائلاً لأنه عكس انقسامات

أوسع فى المجتمع . وفى مخاطرة التبسيط المخل لموقف معقد للغاية ، وعلى العموم كان الذين آمنوا أن المسيح كان إلهاً تماماً وإنساناً تماماً (أنصار الطبيعتين Diophysits لأنه يؤمنون بطبيعتين للسيد المسيح ، كما يُطلق عليهم اسم الخلقديونيين نسبة إلى مجمع خلقدونية الذى عقد سنة ٤٥١م حيث تم تبني هذا المذهب للمرة الأولى)، من النخب الحضرية الناطقة باليونانية ، على حين كان أولئك الذين آمنوا بأن المسيح له طبيعة واحدة إلهية (مونوفيزيت Monophysites) من القرى المتحدثة بالآرامية وأديرة الريف ومضارب خيام المسيحيين العرب. كذلك كانت هناك اختلافات إقليمية : فيبدو أن معظم المسيحيين فى فلسطين كانوا من أتباع مذهب الطبيعتين ، على حين يحتمل أنه كان هناك توازن بين الجماعتين فى شمال الشام.

كانت السلطات الإمبراطورية من أتباع مذهب الطبيعتين المتشددين واعتبرت أنصار مذهب الطبيعة الواحدة مخالفين وهراطقة ، واضطهدوهم بوحشية على فترات متقطعة . وكان معنى هذا أن نسبة كبيرة ومهمة من السكان المسيحيين فى بلاد الشام كانوا مستبعدين عن وظائف الحكومة الإمبراطورية ولم يكونوا بالضرورة يرون أن مصالحهم مساندة الكنيسة الإمبراطورية ضد الغزاة الخارجيين.

كانت بلاد الشام حتى سنة ٥٤٠م تقريباً تتمتع بفترة من الازدهار المستمر والنمو السكانى. وفى كل مكان كانت القرى تتوسع كما كان يتم استصلاح أراض جديدة على حواف الصحراء. ومنذ سنة ٥٤٠م تقريباً ، أى قبل قرن من الفتح الإسلامى ، بدأت هذه الصورة السعيدة فى التغير. وفى تلك السنة ضربت سلالة جديدة وقوية من أويئة الطاعون المنطقة بأسرها ، وكانت الوفيات سريعة ومرعبة . ومن المحتمل أن المدن التى كان سكانها أكثر كثافة، قد تأثرت على نحو أسوأ ولكن القرى أيضاً عانت عندما انتشر الوباء . وربما كان البدو هم الأقل تأثراً فى صحرائهم. وقد انتشر الوباء بسبب البراغيث التى تعيش على الفئران، وفى المدن لابد أن الفئران كانت منتشرة كما هو الحال اليوم، أما فى مضارب البدو، فقد كان هناك القليل من الطعام الذى يكفى البشر، دك من القوارض، وليس هناك مكان تختبئ فيه الهوام والحشرات.

وقد عاد الوباء بانتظام مربع طول ما بقى من القرن السادس الميلادى وفى القرن السابع وفى ظل غياب الإحصائيات يستحيل أن نتأكد من التأثير الذى تركه على السكان . ويُقدَّر المؤرخون أن الموت الأسود ، وباء الطاعون الذى اجتاح الشرق الأوسط والغرب الأوروبى فى عامى ١٣٤٨-١٣٤٩م، ربما يكون قد قتل ثلث السكان . وليس هناك سبب يدعونا إلى الظن بأن وباء القرن السادس كان أقل قسوة . فكثير من المدن والبلدات والقرى التى كانت مزدهرة فى المنطقة لا بد وأن تكون قد بدت خاوية متدهورة . وعندما دخل الفاتحون المسلمون مدن الشام وفلسطين فى ثلاثينيات القرن السابع وأربعينياته ربما يكونوا قد ساروا فى الشوارع التى كان العشب والشوك قد نما فيها عالياً بين الأعمدة وحيث تجمع ما بقى من السكان فى جماعات قليلة العدد، احتلت البيوت الفخمة التى كان أسلافهم قد استمتعوا بها.

لم تكن الأمراض الوبائية المشكلة الوحيدة التى واجهت بلاد الشام فى أثناء النصف الثانى من القرن السادس الميلادى . فقد كانت العلاقات بين البيزنطيين والفرس الساسانيين سلمية إلى حد كبير فى أثناء القرن الخامس وبداية القرن السادس. وكانت كل امبراطورية تحترم حدود الأخرى ومناطق نفوذها فى بادية الشام جنوباً وجبال أرمينيا فى الشمال. وعلى أية حال، اندلعت فى منتصف القرن السادس أعمال حربية مدمرة على نطاق واسع بين القوتين العظميين. فقد غزا الملوك الساسانيون الأراضى البيزنطية فى عدد من المناسبات . وفى سنة ٥٤٠م نهبوا أنطاكية العاصمة الكبرى فى الشرق وفى سنة ٥٧٣م فتحوا العاصمة الإقليمية المهمة أفياميا . وفى كل من المناسبتين عادوا بكمية كبيرة من الغنائم ونقلوا أعداداً كبيرة من السكان إلى مدن جديدة داخل الإمبراطورية الفارسية.

وإذا كانت العلاقات قد تدهورت فى القرن السادس، فإنها باتت أسوأ فى القرن السابع. وفى سنة ٦٠٢م تم اغتيال الإمبراطور موريس وعائلته كلها على أيدي الجنود المتمردين . وقبل بضع سنوات كان الإمبراطور قد منح حق اللجوء للملك الشاب النشيط خسرو الثانى عندما أزيح عن عرشه بصفة مؤقتة . وقد استغل خسرو آنذاك وفاة الرجل الذى أحسن إليه لشن هجوم مدمر على الإمبراطورية البيزنطية .

وأحرزت قواته عدداً من الانتصارات المدوية. وفى سنة ٦١١م غزت الجيوش الفارسية بلاد الشام، وسقطت القدس فى أيديهم سنة ٦١٤م وفى سنة ٦١٥م وصل الفرس إلى سواحل البسفور قبالة القسطنطينية نفسها. وفى سنة ٦١٩م استولوا على الإسكندرية ووقعت مصر كلها فى أيديهم.

كان استرداد البيزنطيين عافيتهم الإنجاز الذى حققه الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م) فقد كان والياً على شمال أفريقيا ولكنه أبحر فى سنة ٦١٠م إلى القسطنطينية ومعه جيشه لكى يستولى على العرش من فوكاس المغتصب . وقد ساد عهده الصراع مع الفرس. وبعد عدة سنوات ، عندما بدا وكأن الجيوش الفارسية لايمكن إيقافها ، كان هرقل قد قلب الموازين بشكل درامى عندما شن هجوماً خلف خطوط العدو فى سنة ٦٢٤م . وفى حركة تتسم بالجسارة العظيمة والرؤية الاستراتيجية الباهرة ، كان قد قاد جيشاً من ساحل البحر الأسود فى تركيا ، عبر غرب إيران وشمال العراق، ونهب معبد النار الشهير فى شيزر وقصر خسرو فى دشتجرد . ومع موت منافسه الرئيسى خسرو الثانى (كسرى) فى سنة ٦٢٨م والانقسامات التى أعقبت ذلك فيما بين الفرس وهم يناضلون لإيجاد حاكم جديد ، استطاع هرقل أن يعقد صلحاً أعاد الحدود القديمة بين الإمبراطوريتين على امتداد نهر الخابور. وفى سنة ٦٢٩م تفاوض على انسحاب الجنود الفرس من بلاد الشام ومصر وأنطلق فى إعادة الحكم البيزنطى فى الولايات التى تم استردادها حديثاً. وفى ٢١ مارس سنة ٦٣٠م استمتع بأعظم لحظات نصره عندما أعاد صليب الصلبوت ، الذى كان الفرس قد أخذوه إلى بيت المقدس.

وعلى الرغم من أن الفرس كانوا قد منوا بهزيمة قاصمة ، فإن فتح بلاد الشام وفلسطين كان له أثر مدمر للغاية على السلطة البيزنطية فى منطقة شرق المتوسط . ويغض النظر عن إراقة الدماء التى سببتها الحرب ، فإنه يبدو أن كثيرين من أبناء النخبة الناطقة باليونانية قد هاجروا إلى المناطق الآمنة فى شمال أفريقيا أو روما^(١). فقد كان القتال مدمراً جداً لاسيما فى المدن، ولكن ربما كان الأهم من هذا ضياع تقاليد الحكم والإدارة الإمبراطورية . فعلى مدى معظم فترة الرسالة النبوية كانت بلاد

الشام وفلسطين تحت الحكم الفارسي، لا البيزنطي، ولم يحدث حتى سنة ٦٣٠ م، أي قبل عامين من وفاة النبي، أن أعيدت السيطرة البيزنطية. وعلى الرغم من هذا، فلا بد أن هذه السيطرة كانت واهية للغاية، وربما كانت هناك مناطق عديدة حيث لم يكن الحكم البيزنطي موجوداً تقريباً. ولابد أن معظم الشوام من الأجيال الشابة لم تكن لديهم الخبرة أو الذاكرة عن الحكم الامبراطوري، كما لم يكن لديهم أي سبب يجعلهم موالين للقسطنطينية. وحتى بينما كانت عملية إعادة الحكم البيزنطي تجري ببطء برزت الاختلافات الدينية التي كانت قد قسّمت بلاد الشام في القرن السادس على السطح مرة أخرى. وكان الإمبراطور هرقل قد عقد العزم على أن يفرض التوافق الديني بالقوة على السكان المسيحيين الذين رفضوا موقفه المذهبي على نطاق واسع.

كانت السيطرة البيزنطية على بلاد الشام قد رسخت على مدى أكثر من خمسة قرون. وإذا كان الإسلام قد ظهر قبل خمسين سنة، ولو كان المسلمون الأوائل قد حاولوا غزو بلاد الشام وفلسطين في ثمانينيات القرن السادس الميلادي، وليس في ثلاثينيات القرن السابع الميلادي، فربما كان يمكن طردهم بسرعة شديدة؛ إذ إن الولايات كانتا تحت السيطرة الحازمة للحكومة كما كانت الدفاعات جيدة التنظيم. ومصادفة أن أول الجيوش الإسلامية ظهرت بسرعة بعد الحوادث المضطربة في الحرب العظمى بين بيزنطة وفارس كانت بمثابة الشرط الأساسي لنجاح جيوش المسلمين^(*).

وربما كانت بلاد الشام قد خربت من جراء الحرب والطاعون ولكن بالنسبة لبدو شبه الجزيرة العربية كانت لا تزال هي مورد النبيذ والزيت والغالل. فقد كانت النواحي القريبة من غزة وبُصرى، حيث تحفُّ الأرض الزراعية بالصحراء، محل الزيارات الكثيرة التي يقوم بها تجار مكة وغيرها من المراكز التجارية في شبه الجزيرة العربية.

(*) يستخدم المؤلف «لوه» مرة أخرى، ولكنه يريد هنا ألا ينسب الفضل لقوة الجيوش الإسلامية، أو تنظيمها، أو حماسها الدينية - وهي أمور ذكرها في الصفحات السابقة - وينسب الأمر إلى ضعف العدو فحسب. (المترجم)

وكانت البلاد أرضاً مألوفة بالنسبة لقادة الجماعة المسلمة الباكرا وكان من الطبيعي أن تكون أول أهداف الجيوش الإسلامية الجديدة . والمأثور عن أن النبي نفسه زار بلاد الشام قبل أن تنزل عليه الرسالة خبر تاريخي قديم تؤكد شواهد جيدة. ذلك أن المدينة الفلسطينية بيت المقدس كانت القبلة الأولى التي يتجه إليها المسلمون في صلاتهم ، قبل أن يتحولوا باتجاه مكة . وكان أبو سفيان ، زعيم المعارضة المكية للنبي يمتلك ضياعاً في الأردن، بما فيها قرية قبش في ناحية البلقاء الخصيبة جنوب عمان التي اعتاد أن يستخدمها قاعدة لنشاطه التجاري^(٢). كانت مدن بلاد الشام مستودعات التجارة على امتداد حافة الصحراء وكان كثير من أبناء النخبة المسلمة الجديدة قد زاروا البلاد وعرفوها جيداً. وعندما كان النبي محمد، في أواخر حياته ، يبحث عن مناطق توفر موارد جديدة للمسلمين ، كان طبيعياً أن يتطلع صوب الشمال. ففي هذا الصدد كانت الشام تختلف تماماً عن العراق التي كان من زاروها قبل بداية الفتوح من أبناء النخبة المسلمة الجديدة عدداً قليلاً كما كانت بلاداً غير مألوفة بالنسبة لهم .

كانت هجمات المسلمين على بلاد الشام قد بدأت على نطاق صغير ولم تكن ناجحة كثيراً في العامين الأخيرين من حياة النبي. ويشاهد زوار الأردن المسافرون جنوباً على «الطريق الملكي السريع»، وهو الطريق القديم الذي يمتد على طول المرتفعات الخصيبة شرق البحر الميت ، من الكرك إلى البتراء ، قبور الأبطال المسلمين الأوائل ، بقبابها المرتبة وأدغال الأشجار ، وهي حديثة جداً. ولكن موقعها يبدو من الآثار الحقيقية الباقية عن المواجهة بين المسلمين والبيزنطيين . وفي سنة ٦٢٩م كان النبي قد أرسل سرية في اتجاه بلاد الشام ، وربما كانت تبحث فقط عن الغنائم في أثناء الاضطراب الذي أعقب انسحاب الجيش الفارسي. وبينما كانت القوة الإسلامية الصغيرة تسير على «الطريق الملكي»، قابلتهم تجريدة من الجنود البيزنطيين، ومعظمهم من أبناء القبائل العربية المحلية، يسيرون جنوباً على الطريق لإعادة الحكم البيزنطي إلى المنطقة . وفي اشتباك قصير عند مؤتة، هُزم المسلمون، وأجبروا على الفرار، وقتل عدد من قادتهم ودفنوا في المقابر التي ما نزال نراها اليوم. ومن بين المسلمين الذين فروا ليحاربوا يوماً آخر كان خالد بن الوليد «سيف الله المسلول» الذي قيض له فيما بعد أن يلعب دوراً مهماً في فتح الشام.

كانت هزيمة مؤتة إهانة للدولة المسلمة الناشئة ولكن يبدو أن النبي كان لا يزال على تصميمه في مواصلة مشروع غزو بلاد الشام . ففي سنة ٦٣٠م أرسل سرية تم التخطيط لها بحذر ضد تبوك في شمال الحجاز ربما كانت تجربة للهجمات على بلاد الشام . ومن بين القادة الذين اكتسبوا خبرة عسكرية مفيدة في هذه الحملة كان عمرو بن العاص، الرجل الذي سوف يرسل فيما بعد لفتح مصر بعد عقد من الزمان. ولا يمكن أن يكون هناك شك في أنه حينما شرعت القيادة العليا الإسلامية في فتح بلاد الشام، فإنهم كانوا يواصلون السياسة التي كانت قد أرسيت بالفعل على يدى نبيهم.

وبعد وفاة النبي مباشرة، أرسل الخليفة أبوبكر الصديق حملة أخرى إلى بلاد الشام، وهى حملة كانت علامة على بداية الفتح الحقيقى للبلاد . عند هذه النقطة يصير ترتيب الحوادث تاريخياً غاية في الارتباك. فلدنا كتلة هائلة من الماثورات عن المعارك الرئيسية والاشتباكات الصغرى وعن الاستيلاء على المدن. ولكن الحقيقة أنه لا توجد طريقة للتوفيق بين مختلف الهياكل التأريخية التابعة التي زاد فيها مختلف المؤرخين المسلمين ، كما أن هناك القليل جداً من المصادر الخارجية التي يمكن أن تعطينا أى نوع من التوجيه . وكما اشتكى المؤرخ المسلم الكبير «ابن جرير الطبرى» عندما كان يجمع روايات الفتح قال ما نصه : «قال أبوجعفر : ونذكر الآن أمر فحل إذ كان في الخبر الذى فيه من الاختلاف ما ذكرت من فتوح جند الشام. ومن الأمور التي تُستنكر وقوع مثل هذا الاختلاف الذى ذكرته في وقته ؛ لقرب بعض ذلك من بعض^(٣) (*)». وفي النهاية ، لا يسعنا سوى أن نكون متأكدين من أن إرسال الحملات بدأ منذ سنة ٦٣٢م ، وأنه بعد ثمانى سنوات، أى سنة ٦٤٠م، كانت بلاد الشام كلها تحت نوع ما من الحكم الإسلامى باستثناء مدينة قيسارية الساحلية. والرواية التالية قامت على أساس التتابع الزمنى الذى يحظى بأكبر اتفاق عام، ولكنه يجب أن يؤخذ بحذر كثير.

* الطبرى ، ج ٢ / ص ٤٤٢ .

كان هدف هذه الحملات الباكرة تأييد سيطرة المدينة المنورة على القبائل العربية على حواف المناطق المستقرة. فعلى الحدود الغربية للأرض الخصيبة فى العراق وعلى امتداد حافتي وادى النيل فى مصر، كانت الحدود بين الصحراء والزرع عبارة عن خط ثابت نسبياً بين إقليم يبنى وآخر. أما فى بلاد الشام فإن التمايز يبدو بينهما أقل وضوحاً. إذ إن التحرك شرقاً من ساحل البحر المتوسط الذى تتوفر به المياه، يجعلنا ندخل فى فضاء أرض تصير جرداء بالتدريج. وعند خط ٢٠٠ مم إيزوبايت (أى الخط الذى بعده تقل نسبة الأمطار السنوية عن ٢٠٠ مم فى المتوسط) تكون الزراعة المستقرة مستحيلة بدون مياه الرى المتوفرة فى الواحات. ويقع غرب هذا الخط إقليم يمكن استخدامه للرعى من جانب البدو أو للزراعة الجافة. ذلك أن كثيراً من البدو كانوا مزارعين لبعض الوقت أيضاً، يزرعون حقولاً صغيرة من الغلال كما يقومون برعى حيواناتهم. وقد أدت سياسة ضمان إخلاص بدو الشام للإسلام بالضرورة إلى الدخول فى الصراع ضد السلطات الإمبراطورية البيزنطية وحلفائهم العرب. وكانت سياسة واعية وعمدية للغاية من جانب الخليفة أبى بكر الصديق وبقية القيادة الإسلامية: إذ كان على جميع البدو العرب إعلان ولائهم للدولة المسلمة، وأولئك الذين لم يفعلوا ذلك طواعية كان لابد من إجبارهم.

ويقال إن أبى بكر جرد أربعة جيوش صغيرة لكى تعمل بصورة مستقلة فى مناطق الحدود شرق البحر الميت ووادى الأردن، وقد رفعوا الرايات على رماح القادة إعلاناً لسلطتهم. ولابد أن اختيار القادة كان أمراً مهماً للغاية فى تاريخ الدولة الإسلامية الباكرة. وكان أحدهم يزيد بن أبى سفيان، الذى أخذ معه أخاه معاوية. وكما رأينا، كانت للعائلة بالفعل ممتلكات فى بلاد الشام وكانت على معرفة جيدة بالمنطقة. وقِيض ليزيد أن يكون أحد القادة المسلمين البارزين فى الفتح، وقد ساعده هذا هو وأخاه على تأسيس سلطة عائلتهما فى بلاد الشام. ومات يزيد بالطاعون قبل أن تكتمل الفتوح نهائياً، ولكن أخاه معاوية ورث دوره. وتم بناء قاعدة السلطة فى بلاد الشام أثناء الفتوح وفى أعقابها مباشرة؛ مما ساعده على فرض نفسه أول خليفة أموى سنة ٦٦١م وأن يحكم العالم المسلم كله من دمشق.

وثمة تعيين آخر كانت له نتائجه بعيدة المدى هو تعيين عمرو بن العاص ، الذى كان داهية أكثر منه محارباً عظيماً ، كان هو أودسيوس المراويغ فى الجيوش الإسلامية الباكرة. وكانت خلفيته بوصفه تاجراً فى غزة بمثابة التوصية لدى النبى ، الذى كان قد اختاره لجمع أموال الزكاة من القبائل على الطريق من المدينة إلى بلاد الشام. وقد اختار أن يقود رجاله ، ويقال إن عددهم كان ثلاثة آلاف رجل ، ومنهم كثير من مكة والمدينة^(٤)، إلى المنطقة التى كان على ألفة بها بالفعل. وسار على امتداد ساحل البحر الأحمر حتى رأس خليج العقبة ثم اتجه غرباً وعسكر مع رجاله ، فى المنخفض الرملى الكبير بين الأردن وفلسطين والمعروف باسم «وادي عربة» . ومن هناك صعدوا الجرف إلى هضبة النجف قبل أن يتوجهوا صوب البحر عند غزة . وهنا بدأ عمرو التفاوض مع القائد العسكرى المحلى ، وربما يكون قد طلب منه الأموال، وهناك حكاية ماثورة عن أن القائد البيزنطى حاول أسره أو قتله فى أثناء محادثتهما . وأخيراً ، فى ٤ فبراير ٦٣٤م^(٥)، جرت معركة هزم فيها عمرو وجيشه الجيش البيزنطى الصغير عند قرية تسمى داثين بالقرب من غزة، وقتل قائدها . وترك الانتصار العربى تأثيراً سريعاً . فقد انتشرت الأنباء بسرعة ، ولدينا خبر بأن جماعة يهودية قرب قيسارية أعلنت فرحها صراحة لموت الضابط البيزنطى وإهانة السلطة البيزنطية^(٦).

وربما كان النصر الذى حققه المسلمون فى داثين صغيراً ولكنه حول السلطات البيزنطية تجاه التهديد الجديد القادم من الجنوب. كان الإمبراطور هرقل هو القائد الأعلى . وكان عمره حوالى ستين سنة فى ذلك الوقت ، ومن المؤكد أنه لم يكن نزيلاً مدلاً فى قصور القسطنطينية الشاسعة الفاخرة ؛ وإنما كان رجلاً يتمتع بقدر هائل من الخبرة العسكرية، معتاداً تماماً على مشاق الحملات العسكرية ومصاعبها . وكان أيضاً فى قمة قوته كما كان ، حتى عندما بدأت الغارات الإسلامية الباكرة على بلاد الشام، قد فرغ لتوه من الاحتفال بالانتصار العظيم وعودة صليب الصلبوت إلى القدس. ولم يقم هرقل أبداً بقيادة جيوشه ضد المسلمين (ولكن أيضاً لم يقم أحد من الخلفاء بنفسه بقيادة جيوش الإسلام) ، ولكنه بقى خلف الخطوط فى الشام، فى حمص أو فى أنطاكية، يوجه العمليات ، ويعين القادة ويصدر التعليمات . والصورة التى ترسمها

المصادر العربية لهرقل صورة مثيرة جداً^(٧)؛ فهو مشهور بذكائه الحاد وحكمته وقدرته على التنبؤ بالمستقبل . وفى إحدى القصص ؛ يحكى أبوسفيان الأرسطراطي المكي كيف رأى هرقل عندما كان يزور بلاد الشام مع جماعة من التجار . «كنا قوماً تجاراً ، وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا ، فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله ، لم نأمن ألا نجد أمناً ، فخرجت فى نفر من قريش تجار إلى الشام ، وكان وجه متجرنا منها غزوة ، فقدمنها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من فارس ، وأخرجهم منها ، وانتزع له منهم صليبه الأعظم ، وكانوا قد استلبوه إياه ، فلما بلغ ذلك منهم ، وبلغه أن صليبه قد استنقذ له - وكانت حمص منزله - خرج منها يمشى على قدميه متشكراً لله حين ردُّ عليه ما ردُّ ، ليصلى فى بيت المقدس ، تُبسط له البُسط ، وتلقى عليها الرياحين ، فلما انتهى إلى إلباء وقضى فيها صلاته ، ومع بطارقه وأشراف الروم ...»^(٨) فهو يظهر هنا منتصراً ولكنه متواضع ومتدين^(٩).

وفى عدد من الحكايات ، قيل إن هرقل اعترف بعظمة النبی محمد وكان يود لو أسلم لو لم يكن النبلاء البيزنطيون على هذه الدرجة من العداء للفكرة . وبالنسبة للعرب كان هو المفتاح والقائد الرمزي للمقاومة البيزنطية لجيوش الإسلام ، العدو القديم . وتظهره المصادر العربية فخوراً وحاكماً فردياً ولكنه أيضاً يمر بلحظات عندما يكون بمفرده بعيداً عن مستشاريه وحاشيته يرى فيها مدى قوة المسلمين ويعترف بأن السيادة ستكون من نصيبهم . والصورة التى ترسمها المصادر العربية لهرقل ليست غير متعاطفة تماماً ؛ فهو شخصية مأساوية لأن عدم اعتناقه الإسلام كان يعنى نهاية حياته بالمهانة والفشل.

وحتى هذه النقطة كانت الهجمات التى يشنها المسلمون على بلاد الشام قد تصاعدت إلى ما هو أكثر قليلاً من مناقشات الحدود . فقد بدأت المرحلة التالية من الفتوح مع وصول خالد بن الوليد ورجاله بعد مسيره من العراق عبر الصحراء ،

* النص كاملاً من الطبرى، ج ٢ ، ص ٦٤٤ - ص ٦٤٦ .

حيث كان يشن الغارات على طول حدود الصحراء. ولقيت مسيرة خالد عبر بادية الشام، ومعه حوالى خمسمائة من قواته، حفاوة وتبجيلاً فى التاريخ والأسطورة على السواء^(٩) : فالمصادر العربية رأت فى تحمله أعجوبة ومعجزة؛ ورأى الباحثون المحدثون فيه واحداً من أساتذة الاستراتيجية^(١٠)، وتروى القصة غالباً كيف أنه عبر صحراء لا ماء فيها على مدى ستة أيام بأن جعل بعض الإبل تشرب من الماء كميات أكثر مما تحتاجها ، وربط فكيها حتى لاتجتز ، ثم ذبحها واحداً بعد الآخر حتى استطاع رجاله أن يشربوا الماء من بطونها . وفى مرحلة أخرى، عندما كان خالد ورجاله يواجهون العقبات وحدهم، ويعانون شدة العطش ، سأل أحد رجاله، رافع الذى كان فى المنطقة من قبل ، عما إذا كانت لديه فكرة عن الماء . وقال رافع إن الماء فى متناولهم «... نادى خالد رافعاً : ما عندك ؟ قال : خير، أدركتم الرى وأنتم على الماء. وشجعهم وهو متحير أرمداً، وقال : أيها الناس، انظروا علمين كأنهما ثديان . فأتوا عليهما وقالوا : علمان ، فقام عليهما فقال : اضربوا يمينه ويسرة - لعوسجة كقعدة الرجل - فوجدوا جذمها ، فقالوا : جذم ولا نرى شجرة ، فقال احتفروا حيث شئتم ، فاستثاروا أوشالاً وأحساء رواء، فقال رافع : أيها الأمير ، والله ما وردت هذا الماء منذ ثلاثين سنة ، وما وردته إلا مرة وأنا غلام مع أبى»^{(١١)*}، وهكذا تمضى الرواية لتقول إنهم جهزوا أنفسهم وهاجموا العدو، الذى لم يستطع أن يصدق أن أى جيش يمكنه عبور هذه الصحراء إليهم.

والمشكلة أن الروايات الواردة عن هذه الحملة مشوشة للغاية، على الرغم من حيويتها. ويمكن أن نكون متاكدين من أن خالد بن الوليد عبر الصحراء بالفعل من العراق إلى بلاد الشام فى وقت ما من الربيع أو مطلع صيف سنة ٦٣٤م ، وأن ذلك كان عملاً خالداً من أعمال الاحتمال والجلد العسكرى وأن وصوله إلى بلاد الشام كان عاملاً مهماً فى انتصار الجيوش الإسلامية هناك. والمشكلة أن بعض المصادر توحي بأنه

* الطبرى، ج ٣، ص ٤٠٩- ص ٤١٠. (المترجم)

ذهب على الطريق الجنوبي الطويل بجوار دومة الجندل ، على حين أن هناك آخرين متاكدين بالدرجة نفسها من أنه قام برحلته عن طريق بالميرا فى الشمال. وهناك مناقشات جيدة على كلا الجانبين وببساطة لا نعرف ما هى الرواية الصحيحة.

والروايات العربية تعزز بخالد باعتباره أكفأ القادة ، حتى بعد أن كان عمر بن الخطاب قد عزله من مركز القائد الأعلى الذى كان يشغله وعين أبا عبيدة بن الجراح بدلاً منه . فقد كان خالد هو الذى وحد الجيوش الإسلامية عندما وصل ، وكان خالد هو الذى بدأ فتح دمشق بفتح الباب الشرقى، وكان خالد هو الذى وضع التكتيكات التى أدت إلى النصر فى معركة اليرموك . ثم واصل عمله ليقوم بدور بارز فى فتح حمص وقنسرين . وقد بقيت شهرته بوصفه قائداً عظيماً عبر الأجيال وهناك شوارع تحمل اسمه فى جميع أنحاء العالم العربى. وعلى الرغم من إنجازاته التى لا يرقى إليها الشك ، فإن سمعته فى المصادر مختلطة. فقد جاء من واحدة من أرقى العائلات الأرستقراطية فى مكة وكان مثل الكثير من أبناء طبقته يراوده الكثير من الشك فى النبى محمد وما جاء به من الدعوة إلى العدالة الاجتماعية والتوحيد . ولم يكن واحداً من أوائل الذين اعتنقوا الإسلام ؛ فالواقع أنه كان من بين أعداء النبى، وبالفعل حارب ضده فى غزوة أحد ، ولكنه اعتنق الإسلام بعد ذلك بوقت قصير. وما إن أعلن إسلامه حتى صار مسلماً مخلصاً وبدأ يكرس كل مواهبه العسكرية الهائلة لمساندة الدولة الإسلامية الجديدة. وبناء على أوامر النبى، دمر واحداً من أشهر الأصنام القديمة، تمثال الإلهة العزى فى نخلة بالقرب من مكة . وكان محل ثقة الخليفة أبى بكر الصديق الذى عهد إليه بقيادة الجيوش ضد القبائل العربية المتمردة فى حروب الردة . وقد أحرز انتصارات عظيمة ولكنه اشتهر أيضاً بالقسوة وأحياناً برود فعله المتسارعة جداً: ففى إحدى المناسبات ذبح مجموعة كاملة من المسلمين عن طريق الخطأ ، وربط بين هذا الاعتداء والزواج حالاً من أرملة أحد الضحايا^(١٢). ويبدو أن شهرته قد زرعت الضغينة فى قلوب بعض المسلمين الأوائل فيما بعد ، ولاسيما الخليفة عمر بن الخطاب ، الذى كان يؤمن بقوة أن السبق فى الإسلام أمر جوهرى بالنسبة لمن يريد أن يكون قائداً ، واعتناق الإسلام فى وقت متأخر لا يکفى، وأن قليلاً من التواضع لن يضيع سدى . وثمة

قصة تحكى عن خالد بن الوليد تحاول أن تفسّر حياته وأن ترد له اعتباره . ففي حوار مع القائد الأرمنى جرجة جورياه قبل معركة اليرموك مباشرة، يبدو خالد وهو يبرر حياته ويشرح لماذا كان يسمى «سيف الله» : «... قال: إن الله عزّ وجلّ بعث فينا نبيه صلى الله عليه وسلم ، فدعانا فنفرنا عنه وثأينا عنه جميعاً . ثم إن بعضنا صدقه وتابعه، وبعضنا باعده وكذبه ، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله . ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا ، فهدانا به ، فتابعناه . فقال : أنت سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين ودعا لى بالنصر ؛ فُسميت سيف الله بذلك، فأنا من أشد المسلمين على المشركين»^(٥).

كان خالد قد تلقى تعليمات من أبى بكر بأن يسرع بقدر ما يستطيع للمساعدة فى فتح الشام، وكانت أحداث الفتح قد وصلت آنذاك إلى حالة حرجة . وفى عيد الفصح (٢٤ أبريل ٦٣٤م) ظهر فجأة مع قواته وانقضوا على الغساسنة النصارى حلفاء البيزنطيين أثناء احتفالهم بين العشب والنضير وأزهار الربيع فى مراح الراحة شمال دمشق^(١٣). ثم اتجه جنوباً لينضم إلى القادة المسلمين الآخرين الذين كانوا يقاتلون فعلا فى الشام، ويبدو أنهم كانوا قد توحيدوا تحت رايته لمواجهة تحدى القوات الإمبراطورية البيزنطية. وبدءوا بالهجوم على مدينة بصرى^(١٤).

تقع بصرى شمال الحدود السورية - الأردنية الحديثة مباشرة فى أرض مسطحة ولكنها خصيبة تتداخل مع كتل الصخور البازلتية السوداء لتشكل خصائص المنطقة. وشمال المدينة تبرز تلال حوران البركانية التى يمكن رؤيتها بوضوح من فوق أسوار المدينة. وعلى الرغم من أن الجبال جرداء، ومرتفعة بشكل لافت، فإنها تضم رقعاً من تربة غاية فى الخصوبة ، شأنها شأن كثير من المناطق البركانية. وكانت المنطقة الظهير الداخلى لبصرى كما كانت أقرب المناطق إلى شبه الجزيرة العربية، ومصدر إمدادات القمح والزيت والنبيد الذى يريده البدو. وكانت المدينة قد صارت غنية لأنها كانت مستودعاً تجارياً ، وشاع الاعتقاد على نطاق واسع بأن النبى نفسه كان قد زارها

* النص من الطبرى، ج ٢ ، ص ٣٩٨-٣٩٩ . (المترجم)

فى شبابه وأنه عرف أسرار الديانة المسيحية هناك على يد بحيرا الراهب . وكانت بصرى أيضا مركزاً سياسياً . وعندما كان الإمبراطور الرومانى تراچان Tragian قد ضمّ مملكة النبط فى سنة ١٠٦ م وحولها إلى الولاية العربية Arabia ، نقل العاصمة من بترا البعيدة فى الجنوب إلى مدينة بصرى التى يسهل الوصول إليها من روما . وإذ كانت المدينة مبنية من البازلت الأسود الصلب ، فإن أطلال مدينة بصرى القديمة من أكثر الآثار جمالاً فى الشرق الأدنى . ولا يزال المسرح الرومانى الضخم هناك باقياً كما هو تقريباً ، ويشكل مركز قلعة بُنيت فى وقت لاحق فى العصور الوسطى . والأعمدة وأحجار الرصف تشير إلى الشوارع القديمة ، وهناك بقايا الحمامات وعدد من الكنائس المسيحية المهمة ، ومن ضمنها كاتدرائية مستديرة فخمة .

وليس من الواضح ما إذا كان البيزنطيون قد أعادوا بناء السلطة الإمبراطورية بالمدينة عقب رحيل الساسانيين . ويبدو أن المدينة قد أبدت قدراً بسيطاً من المقاومة ، وقرب نهاية شهر مايو سنة ٦٣٤م عقدت صلحاً مع المسلمين ، ووافق مواطنوها على دفع ضريبة سنوية وكانت أول مدينة كبرى فى بلاد الشام يستولى عليها الغزاة .

بعد استسلام بصرى ، سارت القوة الإسلامية غرباً لى تتقابل مع عمرو بن العاص . وكان عمرو ، بعد انتصاره فى داثين يواجه قوة بيزنطية كبيرة كانت قد تجمعت جنوب غرب بيت المقدس على الطريق صوب غزة . وعبر خالد والآخرين وادى الأردن دونما مقاومة واضحة وقابل عمرو بن العاص ورجاله . ويقال إن الجيش الإسلامى المشترك كان حوالى عشرين ألفاً تحت قيادة عمرو ، الذى كان القائد العربى الوحيد الذى ذكرته المصادر التى كانت تصوره على النوام داهية ذكياً . ويوصف بأنه يتجسس على معسكر العدو بشخصه أو يرسل الجواسيس للقيام بذلك ، على حين يكتب القائد البيزنطى إليه باعتباره شخصاً يضاهيه فى الدهاء^(١٥) . وتقابلت الجيوش فى مكان يسميه الكتاب المسلمون أجنادين ، وجرت هناك معركة كبرى ، وليست لدينا معلومات تفصيلية عن طبيعة الصراع ولكن من الواضح أن الهزيمة كانت من نصيب البيزنطيين وأن شرانم جيشهم انسحبت إلى القدس وغيرها من المواقع الحصينة . وانتشرت أنباء الانتصار الإسلامى فى شتى الأنحاء ، ويبدو أنها المعركة التى تشير إليها حولية فردجار Fredgar

الفرنجية التى تم تأليفها بعد حوالى عشرين سنة فى فرنسا . وهى تتضمن التفاصيل المثيرة ، وربما الحقيقية ، عن أن المسلمين عرضوا أن يبيعوا لهرقل المغانم والأسلاب التى كانوا قد استولوا عليها لتوهم من رجاله المهزومين ، ولكن الإمبراطور رفض أن يدفع فى مقابل أى شىء من هذه الغنائم^(١٦) .

ويخبرنا المؤرخ الأرمنى المعاصر سيبيوس كيف أن القوات البيزنطية تلقت أوامر من الإمبراطور بأن يبقوا فى حالة دفاع^(١٧) . وبدلاً من ذلك ، تركوا معسكرهم بجوار النهر ليحتموا فى مدينة بيللا ، على الضفة الشرقية للنهر . وكانت بيللا مدينة مزدهرة فى الأراضى الخصيبة بوادى الأردن وقلعة محصنة يسهل الدفاع عنها ترتفع فوق الشوارع الكلاسيكية ذات الأروقة على أرضية الوادى . وهناك تعرضوا للهجوم مرة أخرى . وكما هى العادة ، فإن مجرى المعركة ليس واضحاً تماماً ولكن يبدو أن هناك بعض الملامح علقت فى الذاكرة . فقد عبرت القوات البيزنطية وادى الأردن من سكيثو بوليس Scythopolis على الضفة الغربية ، ولكى يعطلوا المسلمين الذين يطاردونهم ، قطعوا بعض مصارف مياه الرى ، بحيث جعلوا المياه تنساب على الأرض المسطحة فى قاع الوادى بحيث صارت محيطاً من الطين^(١٨) . وشن المسلمون هجومهم وهم لا يعرفون ما فعله البيزنطيون ، وعلقت الكثير من خيولهم فى المستنقع ولكن الله أنقذهم . وفى النهاية كان البيزنطيون هم الذين وقعوا فى مصيدة الوحل وتم ذبح كثير منهم .

وانسحبت شراذم القوات البيزنطية آنذاك إلى دمشق . وطاردهم المسلمون . وصار حصار دمشق واحدة من المعارك المتلاحمة فى فتح الشام . ويمكن لنا إلى حد كبير أن نقتفى أثر تقدم الحصار بسبب الأوصاف التفصيلية التى أمدتنا بها المصادر وبسبب الحفاظ على نسيج المدينة . ذلك أن أسوار دمشق ، سواء كانت رومانية فى أصلها أو أقدم من ذلك ، وكان يتم تجديدها باستمرار ولا تزال متماسكة إلى درجة كبيرة . وفى الطرف الغربى فحسب من المدينة التى توسعت فى العصر العثمانى نجد الدائرة القديمة قد تصدعت . وجميع البوابات القديمة باقية باستثناء واحدة وهى اليوم تحمل الأسماء نفسها التى كانت تحملها فى المصادر العربية الباكرة .

إنها مثال مدهش على استمرارية الجغرافيا الحضرية والهندسة الحضرية طوال القرون الأربعة عشرة. وتخبّرنا المصادر أن خالد بن الوليد قد تمركز عند الباب الشرقي، وعمرو بن العاص عند باب توما، وأبو عبيدة عند باب الجابية الذي أزيل الآن على الناحية الغربية ويزيد بن أبي سفيان عند الباب الصغير وباب كيّسان على الجانب الجنوبي من المدينة.

واتخذ المسلمون حيطتهم أيضاً بأن وضعوا قوة على الطريق شمال دمشق. وقد برهن هذا على حكمة هذه الحركة ، لأن هرقل الذي قيل إنه كان في حمص آنذاك ، أرسل قوة من الخيالة لكي تحاول التخفيف من وطأة الحصار ولكن تم اعتراضها ولم تصل أبداً^(١٩). وليس من الواضح طول المدة التي استمر فيها الحصار. ومن الأمور المربكة أن المصادر العربية تقدم تقديرات تختلف اختلافاً بيناً ، ما بين أربعة أشهر إلى أربعة عشر شهراً . ولا يبدو أنه كان لدى العرب أى آلات حصار، أو أية تجهيزات أكثر تعقيداً من الحبال والسلالم ، وحتى السلالم كان لابد من استعارتها من الدير المجاور^(٢٠). ويبدو أن كل ما استطاع المهاجمون أن يفعلوه ضد الأسوار القوية للمدينة هو أن يضيقوا عليها الخناق على أمل أن المجاعة، أو الضجر ، أو المنازعات الداخلية سوف تتسبب في استسلام المدافعين. وعندما صار من الواضح أنه لا توجد قوة إنقاذ في الأفق ، بدأ اليأس يدب في نفوس المدافعين عن دمشق . وحسبما تقول إحدى الروايات، جاءت النهاية عندما ولد طفل للقائد البيزنطي المسئول عن المدينة وسمح لرجاله بالاسترخاء والأكل والشرب احتفالاً بهذه المناسبة . وقرر خالد بن الوليد، الذي كان يتصيد الفرص دائماً والذي كان يعرف بالضبط ما كان يجري في المدينة، أن ينتهز الفرصة. وكان معه الحبال والسلالم . واقترب بعض رجاله من الباب مستخدمين جلود الحيوانات المنفوخة لعبور الخندق . وسحبوا حبالهم حول الشرفات المفتوحة في الأسوار وتسلقوا إلى أعلى ، وأخذوا الحبال معهم حتى لا يراهم أحد. ثم ، وعند إشارة متفق عليها ، اقتحموا الباب وهم يُكبّرون بصيحات «الله أكبر» ، وقتلوا حراس باب المدينة وكل من قاومهم .

وفى الوقت نفسه ، عند الطرف الآخر من المدينة ، كان أهل دمشق قد فتحو باب التفاوض من أجل الاستسلام صلحاً وبدأت القوات المسلمة تدخل المدينة من الغرب. وتقابل المجموعتان ، خالد ورجاله من الشرق والآخرين من الغرب ، فى وسط المدينة فى الأسواق القديمة ، وبدأت المفاوضات. وتم وضع الشروط تاركين السكان أمنين فى مقابل الجزية. أما الممتلكات الخاصة للخزانة الإمبراطورية فقد تمت مصادرتها لصالح جميع المسلمين، وقد صارت جزءاً من الفئى^(٢١). وكما جرت العادة تم تقسيم الغنائم وحرص القادة على الاحتفاظ بنصيب أولئك الذين كانوا متمركزين على الطريق شمال المدينة ، فعلى الرغم من أنهم لم يلعبوا دوراً مباشراً فى الحصار ، فإن وجودهم أسهم فى النصر وحصلوا على نصيبهم من الغنائم . وربما تكون القصص المركبة التى تولدت على الاستيلاء على دمشق ، من ناحيتين مختلفتين وبطريقتين مختلفتين ، محاولة لحل الموضوع الشائك عما إذا كانت المدينة قد فُتحت صلحاً أم عنوة . وفى هذه الحال يبدو أن السلطات قد حاولت الوصول إلى حل وسط لا يجعل فتح دمشق صلحاً أو عنوة.

كما تعكس روايات سقوط دمشق الولاءات المنقسمة بين سكانها . فقد كانت المدينة مركزاً من مراكز السلطة الإمبراطورية ولها حاكم عسكري عينه الإمبراطور نفسه ، ولكن كثيرين من السكان إن لم يكن معظمهم كانوا من العرب المسيحيين . ومن الواضح أن الكثير منهم كانوا قد خلعوا ولاهم للإمبراطورية البيزنطية وأنهم شعروا بأنهم أقرب إلى العرب خارج أسوار المدينة منهم إلى الروم والأرمن الذين كانوا يشكلون جزءاً كبيراً من الحامية^(*). وأياً ما كان التفسير ، فمن الواضح أن دمشق

(*) هناك سبب مهم يتجاهله المؤلف ، ولا أعلن أنه بجهله ، وهو أن الصراع المذهبي بين المسيحيين الأرثوذكس ، ومنهم مسيحيو دمشق بطبيعة الحال ، والسلطات البيزنطية وكنيسة القسطنطينية من ناحية أخرى؛ قد تسبب فى أضرار شديدة وقعت على المسيحيين العرب فى دمشق وغيرها . وقد تمثلت هذه الأضرار فى الاضطهادات العنيفة ومصادرة الكنائس والأديرة الملوك لأنصار مذهب الطبيعة الواحدة وممتلكاتهم لصالح أنصار مذهب الروم الأرثوذكس وكنيستهم . فقد حاولت كنيسة القسطنطينية فرض مذهبها بالقوة . وكانت نتيجة ذلك كراهية رعايا الإمبراطورية البيزنطية لحكومتها ، ورأوا فيها وحشاً لا يستحق الإنقاذ . (المترجم)

نجت من أهوال القتال والنهب . وفى القرن الذى أعقب الفتح، صارت المدينة عاصمة العالم المسلم كله ودخلت عصرها الذهبى.

وفى وقت سقوط دمشق تقريباً ، وكالعادة نجد ترتيب الحوادث هنا محل شك كبير ، توفي أبوبكر الصديق ، خليفة رسول الله وأول من تولى منصب الخلافة فى تاريخ المسلمين. ونعرف أن وفاته كانت فى يوليو سنة ٦٣٤ ميلادية (جمادى الآخرة سنة ١٢ هجرية) . وما هو أقل وضوحاً هو أية مرحلة كانت تلك فى الفتوح ، ولكن هناك عدداً من الروايات عن أن أخبار الوفاة وصلت الجيوش الإسلامية فى بلاد الشام أثناء حصار دمشق. كان الخليفة الجديد هو عمر بن الخطاب الزاهد الصارم ، الذى تصوره الكثير من الروايات فى صورة العقل المدبر وراء حركة الفتوح . ولم تكن هناك معارضة لخلافته بين القوات فى بلاد الشام ولكن الخليفة الجديد كانت لديه أفكار واضحة عن القيادة . وكما رأينا ، لم يكن عمر يحب خالد بن الوليد وكان ساخطاً عليه. وحقيقة أن خالد بن الوليد كان قد حارب بهذا الشكل المبهر فى سبيل الإسلام ضد المرتدين فى شرق شبه الجزيرة العربية ثم فى العراق وبلاد الشام لم يكن لها تأثير فى تحسين وضع خالد أمام الخليفة الجديد. وفى ذلك الحين أمر بطريقة فظة بعزل خالد وعودته إلى المدينة. وفى إحدى الروايات أن أبا عبيدة بن الجراح الذى تولى مكان خالد قائداً أعلى، تلقى أمراً بأن يطلب من خالد أن يعترف بأنه كان كاذباً . فإذا رفض، كما كان متوقعاً ، فيجب نزع عمامته ومصادرة نصف أمواله. وإذا واجه القائد العظيم هذا الإنذار طلب مهلة للاستشارة ، ليس مع أحد الأصدقاء أو مع مؤيديه كما قد يتبادر إلى الذهن ، وإنما مع أخته . وكانت واضحة تقرير فى أن عمر بن الخطاب يكره أخاها وأنه إذا ما اعترف بأنه كاذب سيتم عزله على كل حال . ولم يكن هناك ما يبرر أن يحاول استرضاء الخليفة بالاعتراف بجرائم لايعتقد أنه كان قد ارتكبها.

وفى انعكاس مثير لقوة الخليفة ووحدة المسلمين، أحس خالد أنه لابد من الذهاب إلى المدينة. ولو أن قائداً بينظلياً كان فى الموقف نفسه لتصاعد الأمر إلى درجة التمرد والعصيان ولجأ إلى قواته لمساندته فى محاولة الوثوب إلى العرش. وعلى النقيض من هذا ، قبل القائد العظيم للجيش المسلم عزله وإهانته فى حلم وصبر . وعندما وصل

المدينة واصل عمر بن الخطاب تصرفاته الثأرية [ويقول الطبري] «... كان عمر كلما مرَّ بخالد قال: يا خالد ، أخرج مال الله من تحت إسطك ، فيقول : والله ما عندي من مال ؛ فلما أكثر عليه عمر قال له خالد : يا أمير المؤمنين ما قيمة ما أصبت في سلطانكم ؟ أربعين ألف درهم ؟ فقال عمر : قد أخذت ذلك منك بأربعين ألف درهم ، قال : هو لك ، قال : قد أخذته . ولم يكن لخالد مال إلاَّ عدة ورقيق ، فحسب ذلك ، فبلغت قيمته ثمانين ألف درهم فناصره عمر ذلك ، فأعطاه أربعين ألف درهم ، وأخذ المال . فقيل له : يا أمير المؤمنين ، لو رددت على خالد ماله . فقال : إنما أنا تاجر للمسلمين ، والله لا أردده عليه أبداً . فكان عمر يرى أنه اشتفى من خالد حين صنع به ذلك»^(٩). وسرعان ما عاد خالد بن الوليد إلى بلاد الشام ، ليلعب دوراً رئيسياً في معركة اليرموك وما أعقبها من فتوح حمص وقنسرين ، حيث استقر هناك نهائياً . وقيل إن عمر في النهاية اعترف بأنه أذى «سيف الله» وأن أبا بكر الصديق ، الذي أزر خالد وسأله كان أفضل من عمر بن الخطاب في الحكم على الرجال^(١٠). ومات القائد العظيم في سلام سنة ٦٤٢م (سنة ٢١ هجرية) ، وكان قائدا عسكريا لامعاً ، قاسياً ، ولكنه كان قائدا لم يكن المسلمون الأكثر تديناً يستطيعون أن يشعروا بالراحة معه .

وفي الوقت نفسه ، كان الإمبراطور هرقل يجهز للقيام بجهد كبير آخر لطرد المسلمين من بلاد الشام . إذ كان قد تقهقر بعد سقوط دمشق إلى أنطاكية شمال بلاد الشام ، وكانت العاصمة التقليدية للمنطقة بأسرها . وهناك انطلق في توجيه آخر حملاته العسكرية . وجمع البيزنطيون كل ما استطاعوا جمعه من قوات . وتعطينا المصادر العربية أرقاماً كبيرة للغاية ، فوق مائة ألف^(١١) ، بيد أن المقارنات مع الجيوش البيزنطية الأخرى في تلك الفترة تجعل من الواضح أن هناك مبالغة كبيرة ، فالأعداد التي تتراوح ما بين خمسة عشر وعشرين ألفاً تبدو ممكنة أكثر . وضمت الجيوش مجموعات متنافرة للغاية من الرجال . كان هناك الروم البيزنطيون تحت قيادة تيودور تريثوريوس Theodore Trithurios ، وفيلق كبير من الأرمن تحت قيادة جرجه والعرب المسيحيون

(٩) النص من الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٢٧ . (المترجم)

المحليون يقودهم ملك الفساسنة، الحليف التقليدى للبيزنطيين، جبلة بن الأيهم. وكان القائد الأعلى أرمنيا يدعى قاهان Vahan . وكانت الفرق المختلفة تتكلم بالضرورة لغات مختلفة - اليونانية ، والأرمنية والعربية - وربما كانت هناك صعوبة فى الاتصالات فيما بينهم . وكانت هناك أيضا اختلافات دينية وثقافية عميقة. فلا بد أن الأرمن والروم قد جاءوا من خلفيات مستقرة، ربما كانت القرى الريفية ، وكانوا معتادين على الحياة والقتال فى الأراضى المرتفعة والجبلية .، أما العرب، من ناحية أخرى ، فكانوا من البدو الذين اعتادوا تقاليد الترحال والحركة فى حروب الصحراء. وقد جاءت جميع القوات من خلفيات مسيحية، ولكن كلاً من الأرمن والعرب المسيحيين كانوا يُعتبرون هراقة فى نظر البيزنطيين الأرثوذكس. وليس من الواضح إلى أى مدى أثرت هذه الانقسامات حقاً على أداء الجيش البيزنطى، ولكن المصادر غاصة بأخبار شتى عن الاستياء والسخط ، وعن اعتناق جرجه Jurjah الإسلام على يدى خالد بن الوليد عشية المعركة وانضمام المسيحيين العرب إلى الجانب المسلم أثناء سير المعركة. وتتحدث المصادر العربية أيضا عن الجنود البيزنطيين الذين كانوا مربوطين بالسلاسل معاً حتى لا يمكنهم الفرار، ولكن هذه قصة نجدها فى روايات كثيرة عن الفتوح، استخدمت للمقابلة بين المسلمين الأحرار فى دوافعهم والجنود الأعداء الذين يحبون أنفسهم : وليس هناك دليل حقيقى على مثل هذه الفكرة غير العملية وعن تطبيقها ، على الرغم من أنها يمكن أن تكون انعكاساً بعيداً لممارسة استخدام دروع المشاة وإقبالها سويّاً لإقامة حائط حماية^(٢٤).

ومن المحتمل أن تكون القوات البيزنطية قد اجتمعت فى حمص وسارت جنوباً عبر وادى البقاع، ومرت ببعلبك بمعابدها الوثنية الكبيرة - التى كادت أن تكون فى ذلك الحين خاوية من المتعبدين ولكنها كانت لا تزال عظيمة رغم تدهورها - ومن هناك إلى دمشق . ويبدو أن توقعوا احتلالها دون مقاومة. وليست لدينا معلومات عن الكيفية التى وجدوا بها المدينة ولكن هناك روايات عن التوتر بين القادة البيزنطيين الذين كانوا يطلبون المؤن والإمدادات لرجالهم، حسبما كانت ممارسات البيزنطيين المعتادة، والمسئول المالى المحلى، منصور العربى، الذى أصر على أن المدينة لا تملك ما يكفى من

الموارد لإطعامهم . ومن المؤكد أن الجيش لم يستخدم دمشق قاعدة له وإنما واصل مسيره صوب الجنوب .

وتجمع الجيش البيزنطى عند الجابية فى مرتفعات الجولان . وكان هذا وقت الرعى الصيفى التقليدى للغساسنة . ووفقا لأقرب الروايات إلى الاحتمال ، كان ذلك الوقت شهر أغسطس ٦٣٦م ، وكانت الجولان توفر الكثير من الطعام المطلوب ، والماء والمرعى للجيش . وفى الوقت نفسه استبعدت القوات المسلمة لمواجهة البيزنطيين والاحتفاظ بمكاسبها التى جنتها منذ وقت قريب . وتجمع جيشهم أيضا فى منطقة الجولان ، إلى الشمال الشرقى من البيزنطيين . وكانت مختلف الجيوش الإسلامية قد تجمعت فى ذلك الحين تحت قيادة أبى عبيدة بن الجراح ، وربما تحت قيادة خالد بن الوليد . وكان كل من يزيد بن أبى سفيان وعمرو بن العاص يقود فرقة من الجيش . ووفقا للمصادر الإسلامية كان عدد الجيش الإسلامى أربعة عشر ألف مقاتل . وفى ضوء ما تم من مراجعة هبطت بالأرقام على الجانب البيزنطى ، فمن الممكن ألا تكون أعداد الجيشين متفاوتة بدرجة كبيرة .

وتعرف المعركة التى نشبت بين المسيحيين والمسلمين عادة باسم معركة اليرموك . وكان تاريخها المتفق عليه صيف سنة ٦٣٦ م^(٢٥) (١٣هـ) . ومعركة اليرموك ، ومعركة القادسية فى العراق ، واحدة من المعارك الرئيسية التى صارت ترمز إلى الانتصارات الإسلامية فى منطقة الهلال الخصيب . وكما هو الحال فى القادسية فإن الروايات العربية كثيرة ومشوشة ومن الصعب أن تكون واضحة بشأن ما حدث بالضبط . فليست هناك رواية معاصرة أو يمكن الاعتماد عليها من وجهة النظر البيزنطية . وتقول المصادر الإسلامية إن كلاً من الجانبين كانت تلهمه الحماسة الدينية . وبينما بقى البيزنطيون فى معسكرهم الحصين ، يستعدون للمعركة ، « ... فلزموا خندقهم عامة شهر يحضضهم القسيسون والشمامسة والرهبان ويتعنون لهم النصرانية^(٢٦) »^(*) وعلى الجانب

(*) النص من الطبرى، ج ٢ ، ص ٢٩٥ . (المترجم)

الآخر خاطب بن الوليد رجاله قائلاً : «... إن هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغى. أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم ، فإن هذا يوم له ما بعده ؛ ولاتقاتلوا قوماً على نظام وتعبية ، على تسائد وانتشار، فإن هذا لا يحل ولا ينبغي»^(٢٧) (*) .

ونهر اليرموك ، وهو مجرى مائي دائم، يفيض من هضبة حوران إلى وادي الأردن، إلى الجنوب مباشرة من بحر الجليل. وفي مجراه إلى داخل الوادي الصخري ، حفر ممراً منحدرًا ، تحفّ به من الجانبين منحدرات صخرية شاهقة . وعلى الجانب الشمالي يلحق به عدد من الوديان الصغيرة، هي وادي الرقاد . وكانت هذه المنحدرات هي التي حددت مجرى المعركة وربما كانت كارثية على المهزومين عندما حاولوا الهرب من ساحة المعركة . والموقع الفعلي للمعركة ، بين ممر اليرموك في الجنوب ومرتفعات الجولان في الشمال ، أرض ذات تلال صخرية منحدرّة تتخللها وترصّعها القرى والمزارع . والحقيقة أنها كانت بلاداً جيدة مفتوحة تصلح لمناورات الفرسان، ولكنها أيضاً كانت غطاء من الصخور أو الأشجار يختبئ فيها الرجال أو يعدوا الأكمنة . ومنذ سنة ١٩٤٨م صار هذا الموضع مثار حساسية بالغة من الناحية السياسية؛ لأنه يقع فيما بين حدود سوريا (في الشمال من النهر) والأردن (جنوب النهر) والجولان المحتلة. وهذا ما جعل الوصول إلى ميدان المعركة أمراً بالغ الصعوبة بالنسبة للمؤرخين . وعلى أية حال، فإن الأمر لم يكن على هذا النحو دائماً . فقبل الحرب العالمية الأولى، عندما كانت المنطقة كلها جزءاً من الإمبراطورية العثمانية ، زار المنطقة المؤرخ والمستشرق الإيطالي الكبير ليوني كايثاني Leone Caetani أمير سرمونيتا Sermoneta . وقد استغل ملاحظاته التي عاينها بنفسه ومعرفته بالمصادر العربية في إنتاج سياق جغرافي للمعركة ، وهو الذي شكل أساس أكثر الروايات الحديثة قبولاً^(٢٨) .

كانت معركة اليرموك سلسلة من الصراعات التي ربما تكون قد استمرت على مدى أكثر من شهر ثم تصاعدت إلى معركة كبرى قرب نهاية أغسطس^(٢٩) . وقد حدثت المواجهات الأولى في إقليم الجابية، وبعدها تقهقر المسلمون تجاه درعه . وأعقب ذلك

(*) الطبري ، ج٢ ، ص ٣٩٥ .

فترة انتظار ومناوشات عندما جهز البيزنطيون جيشهم وحاولوا بذر الشقاق فى صفوف المسلمين. ويبدو أن القتال الفعلى بدأ عندما تظاهر المسلمون بأنهم ينسحبون من مواقعهم وأغروا عناصر من الجيش البيزنطى لتتبعهم إلى أرض وعرة ، حيث كان هناك كمين فى انتظارهم . وفى أثناء الهجوم المضاد الذى شنه المسلمون ، صار الفرسان البيزنطيون منفصلين عن المشاة، مما ساعد الفرسان المسلمين على أن يوقعوا خسائر فادحة فى صفوف المشاة على حين كان الفرسان البيزنطيون يشقون طريقهم عبر الصفوف الإسلامية^(٣٠) ويقال إن خالد نظم فرسان المسلمين فى نظام قتال لم يستخدمه العرب من قبل ؛ فقد قسّم الفرسان إلى «كراديس» ، عدد كل منها يتراوح ما بين ٣٦ و ٤٠ فارساً ، بحيث يبدو كأنهم أكثر عدداً فى عيون العدو^(٣١). وربما لم يكن البيزنطيون أيضاً غير مستقرين بسبب عاصفة ترابية هبت عليهم. وعندئذ كانت القوة البيزنطية الأساسية قد سيقّت نحو الغرب وترددت فيما بين الأودية القاحلة فى وادى الرقاد ووادى العلان ، مع الحواف الصخرية الشاهقة لمر اليرموك خلفهم. وتم القضاء على أية محاولة للتقهقر غرباً عندما عبر خالد بن الوليد القنطرة الرومانية القديمة فوق وادى الرقاد، ومضت قوات المسلمين لى تعصف بمعسكر البيزنطيين عند الياقوصة على الطريق إلى بحر الجليل. وبينما كان العدو يضغط على البيزنطيين زاد تدهور معنويات القوات البيزنطية من جراء الشائعات بأن المسيحيين قد استسلموا للمسلمين . وانهارت معنويات القوات البيزنطية وتفككت صفوفها تماماً . وهناك روايات عن الجنود المرهقين المكتئبين ، وقد التفوا فى عباءاتهم، يتحسرون على حقيقة أنهم لم يكونوا قادرين على الدفاع عن المسيحيين وأنهم ينتظرون الموت^(٣٢). وسيق الآخرون أسفل المنحدرات الصخرية إلى الوديان، ولم يأخذ المسلمون سوى عدد قليل جداً من الأسرى.

كانت هزيمة اليرموك كارثة على البيزنطيين وانتشرت أخبارها فى شتى الأرجاء. ففى فرنسا البعيدة، سجل كاتب مؤرخة فردجار الحادثة بعد عشرين سنة من الهزيمة المرعبة كما وصفها . وكتب أن الجيش الإسلامى كان عدده مائتى ألف مقاتل. وحسب روايته ، أنه فى الليلة السابقة على المعركة «ابتلى جيش هرقل بجيش الرب: فقد مات اثنان وخمسون ألفاً من رجاله أثناء نومهم». ولا غرابة فى أن الناجين قد خارت قواهم

بشكل خطير. «وعندما شاهد رجاله ، فى اليوم التالى، عندما بدأت المعركة ، أن قسماً كبيراً جداً من قواتهم سقطت بحكم الرب، لم يجرؤوا بعدها على التقدم صوب المسلمين ولكنهم تراجعوا حيثما رأوهم قادمين»^(٢٣). وقرب نهاية القرن السابع، تذكر الزاهد سان أنستاسيوس السيناي ، St. Anastasius of Sinai ، فى دير النائي المنعزل الهزيمة باعتبارها «أول هزيمة للجيش الرومانى مخيفة ولاسبيل إلى إصلاح آثارها»^(٢٤).

وفى أعقاب النصر، استمر المسلمون فى إخضاع مدن بلاد الشام. فقد قامت قوة من الجيش المسلم بقيادة أبى عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد، بالتوجه شمالاً من دمشق إلى حمص التى كانت مدينة مهمة فى العصور الرومانية المتأخرة^(٢٥). وحاصروا المدينة طوال الشتاء (ربما سنة ٦٣٦-٦٣٧م) على الرغم من البرد القارس وخروج الحامية البيزنطية لشن الهجمات . فقد كان المدافعون على قناعة بأن البرد سوف يُجبر العرب، الذين لايلبسون سوى النعال، على رفع الحصار، على الرغم من أنه عندما جاء الربيع وكانوا لا يزالون فى مكانهم ارتفعت الأصوات فى المدينة تحت على الصلح والمفاوضات . ووفقاً لرواية أخرى، جاءت المساعدة للمسلمين عندما تعرضت أسوار المدينة لضرر بالغ من جراء أحد الزلازل ، وهى علامة أكيدة على أن الله كان بجانبهم . وفى نهاية الأمر عقد الجانبان الصلح . وكما هى العادة ، اضطر السكان إلى دفع الجزية إلى المسلمين، وكان بعضها بقدر ثابت ، على حين كانت الضرائب الأخرى بنسب تتغير وفقاً لدرجة رخائهم فى ذلك الحين. وكان ضمان حياتهم ، وممتلكاتهم ، وأسوار المدينة وكنائسهم وطواحينهم وسواقيهم على المسلمين فيما عدا كنيسة يوحنا، التى كان يجب أن تتحول إلى مسجد^(٢٦). وفى الوقت نفسه تخبرنا رواية بأنهم قد تصالحوا على أن تكون نصف دورهم للفاحين . ويقال إن قائد الغزو الإسلامى للمدينة قد قسّمها بين السكان والمسلمين بحيث يحتلوا . كما أسكنهم أيضاً فى كل مكان أخلاه شاغلوه وفى كل حديقة مهجورة^(٢٧). كانت حمص مدينة مهمة على أطراف بادية الشام وربما كانت هناك فكرة بأن مكانها هو المكان المناسب لاستقرار البدو. ومن المحتمل أن المدينة كانت أول مدينة فى بلاد الشام بها عدد كبير من السكان .

والفقرة الخاصة بتسليم ريع كنيسة يوحنا لى تستخدم مسجداً قد تبدو غريبة وربما غير ممكنة: فعلى كل حال كيف كان لهاتين الديانتين ، اللتين كان أتباعهما لتوهم مشتبكين فى حرب عنيفة، أن ينتهى بهما الأمر إلى مقاسمة المبنى الدينى الرئيسى فى المدينة؟ وعلى أية حال ، لدينا رواية أن هذا حدث أيضاً فى دمشق، حيث استخدم المسلمون نصف مساحة مبنى الكاتدرائية لتكون أول مساجدهم . ولم يحدث سوى مع بداية القرن الثامن ، أى بعد مرور ستين سنة على الفتح، أن تم إخراج المسيحيين وبناء مسجد فى المدينة. وحتى فى ذلك الحين دفعت التعويضات وبنى المسيحيون كاتدرائية جديدة فى كنيسة مريم، على مسافة حوالى نصف كيلو متر شرق المسجد، وبقيت هذه كاتدرائية الملكانيين (الروم الأرثوذكس) فى دمشق حتى اليوم. ومن المثير، أننا نجد تأكيداً أثرياً عن هذه الممارسة فى مدينة صغيرة بالنجف، Sabetta. فهنا توجد كنيسةتان بيزنطيتان كبيرتان. وفى الرواق بإحدى الكنيستين نجد أساس مسجد صغير. ويمكننا أن نقول إنه مسجد بسبب المحراب الواضح للعيان . وكل هذا الدليل يوحى بأنه، بعد الهزيمة السياسية للقوات المسيحية، تعايشت الجماعات الدينية (المسلمون والنصارى) معاً ، على أساس من التسامح المتبادل، إن لم يكن فى حال من الانسجام والتوافق .

وكانت المدينة التالية على الطريق مدينة قنسرين^(٣٨). وبينما لا تزال حمص واحدة من أهم المدن فى سوريا ، فإن قنسرين قد اختفت فعلاً من الخرائط . ولم يحدث سوى فى وقت قريب أن كشفت عمليات المسح والتنقيب فى قرية صغيرة إلى الشرق مباشرة من طريق دمشق - حلب عن الموقع القديم. وتقع قنسرين (خالكيس Chalkis عند الروم) فى وسط سهل خصيب تزرع فيه الغلال؛ وعلى الرغم من أنها كانت مركزاً إدارياً مهماً، فإنها لم تكن أبداً مدينة كبيرة. ويمكن تمييز قلعة المدينة القديمة ، كما يمكن التعرف على المدينة الإسلامية الباكرة، التى تقع خارج حدود المدينة الكلاسيكية : فقد استقر العرب خارج الأسوار فيما صار بالفعل ضاحية جديدة، داخل المدينة نفسها . وبعد سقوط المدينة قرر خالد بن الوليد أن يتخذها سكناً وموطناً ولحقت به هناك زوجته .

وربما عرف المسلمون في ذلك الوقت تقريباً جانباً غير مرغوب بالمرة من جوانب الحياة ببلاد الشام في ذلك الزمان، أى الوباء. ومن بين الضحايا كان القائد الأعلى للقوات المسلمة ، أبو عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبى سفيان ، الذى ورث مركزه أخوه معاوية، الذى صار فيما بعد أول خليفة أموى^(٣٩).

ويبدو أن هرقل قد تحرك من أنطاكية بعد معركة اليرموك واستقر فى الرها ، حيث حاول تنظيم الدفاع عن شمال بلاد ما بين النهرين، وجنوب شرق الأناضول. ثم انتقل على طول أعالي الفرات قبل أن يتجه غرباً ، قاصداً القسطنطينية ، عاصمته التى لم يكن قد زارها طوال السنوات العشر الأخيرة . وليس هناك دليل، كما اقترح البعض، على أنه كان عاجزاً بفعل الشيخوخة، أو الإحباط، وإنما لا بد أنه كان متعباً ومدركاً بشكل مؤلم لدى الهزيمة التى لحقت ببيزنطة. ويضع الكتاب العرب عدداً من الكلمات الحزينة وكلمات الوداع على لسانه وقد شاعت قصة وداع هرقل لسوريا . وفى إحدى هذه الروايات نُسب إليه أنه قال «عليك السلام يا سورية، سلاماً لا اجتماع بعده، ولا يعود إليك رومى أبداً إلا خائفاً، حتى يولد المولود المشنوم ، ويا ليت لا يولد. ما أحلى فعله ، وأمر عاقبته على الروم»^{(٤٠)(*)}. وهناك رواية أخرى تقول إنه وهو يعبر من خلال الممرات فى جبال طوروس ، ونظر خلفه قائلاً «عليك السلام يا سورية» وتحسر على ضياع سوريا الغنية بيد أعدائه^(٤١). وعندما انسحب أخذ معه جميع الحاميات فى النواحي على امتداد الحدود الجديدة ، ليخلق نوعاً من الأرض المحايدة بين المناطق البيزنطية والمناطق الإسلامية فى الركن الشمالى الشرقى من البحر المتوسط^(٤٢). وثمة مصدر سوريانى لاحق، معاد تماماً لكل ما هو بيزنطى، يقول إن هرقل «أصدر الأوامر لقواته بنهب أقرى والمدن وتخريبها ، كما لو كانت الأرض مملوكة للعدو بالفعل. وسرق البيزنطيون ونهبوا كل ما وجدوه ، ودمروا البلاد أكثر من العرب»^(٤٣).

ومع رحيل الإمبراطور، تركت المدن البيزنطية الباقية لتواجه مصيرها . فلم تبذل أنطاكية، عاصمة سوريا القديمة ، سوى القليل من المقاومة ويبدو أن السكان الباقين لم

(*) الطبرى، ج ٢ ، ص ٦٠٢ .

يبدلوا أى جهد لاستغلال الأسوار الضخمة التى كان الإمبراطور جستنيان Justinian قد بناها حول مدينتهم منذ أقل من مائة سنة قبل ذلك لإبقاء المهاجمين خارج المدينة: ومن المحتمل أنه لم يكن يوجد سوى عدد قليل جداً منهم للدفاع عن هذه الدائرة الضخمة. ويقال إنهم تمربوا ضد الحكم الإسلامى فيما بعد، ولكن هذا قد يعنى فحسب أنهم رفضوا دفع الضرائب أو عجزوا عن دفعها وتم إرغامهم على دفعها. وفى مدن صغيرة أخرى، كان الاستسلام للجيش الإسلامية يتخذ شكل الكرنفال تقريباً . ففي مدينة شيزر الصغيرة على ضفاف نهر العاصى وسط بلاد الشام خرج السكان لمقابلة المسلمين ومعهم الطبول والصنوج كما جرت العادة عند استقبال الزوار المهمين^(٤٤). وحدث الشيء نفسه فى معرة النعمان وأفاميا Apamea التى كانت ذات مرة العاصمة الفخورة لولاية سوريا الثانية فى الإمبراطورية الرومانية، ولكنها كانت آنذاك تعاني اضمحلالاً شديداً بعد أن نهبها الجيش الفارسى بوحشية قبل ستين سنة، أى فى سنة ٥٧٣ م . ولم يكن الأمر دائماً يمثل هذه السهولة : فعندما خرج أهل درعا^(٤٥) فى جنوب بلاد الشام لتحية الخليفة عمر بن الخطاب بالطبول والغناء وهم يحملون السيوف وحزم نبات الآس العطرى، أمر الخليفة الزاهد بأن يوقفوا عن فعل هذا . وشرح قائده أبوعبيدة بن الجراح الذى كان قد اعتاد آنذاك عادات المدن الصغيرة فى بلاد الشام ، أن هذه عاداتهم وأنه لو منعهم من القيام بها، لظنوا أنه ينقض الصلح الذى عقده المسلمون معهم. وبشئ من التردد سمح لهم الخليفة الصارم بالاستمرار .

كانت أقوى مقاومة واجهها المسلمون فى مدن الساحل الشامى والفلسطينى. وكانت هذه على الدوام المناطق التى كانت فيها الحضارة اليونانية أكثر رسوخاً وجنورها أكثر تغلغلاً . وكان السبب أيضاً وراء ذلك أن البيزنطيين كانوا قادرين على إعادة تموين وإعادة تعزيز هذه المدن عن طريق البحر . وكانت قوات كثيرة من القوات البيزنطية فى فلسطين قد انسحبت إلى مصر، ولكن قيصرية وغزة كانتا لا تزالان صامدتين . وكانت غزة مسرح المواجهة الأولى بين عمرو بن العاص والبيزنطيين عند البداية الأولى للفتح ، ويبدو أنه عاد للمدينة آنذاك ونجح فى أخذها وكان طبيعياً من ذلك الموقع أن تتجه أفكار عمرو بن العاص إلى مصر التى كانت تربطها بغزة روابط وثيقة.

وإلى أعلى الساحل باتجاه الشمال كانت أقوى مقاومة في مدينة قيصرية. وبينما كانت غزة مأهولة بالسكان وعامرة باستمرار بحيث لم يبق سوى القدر الضئيل من آثار ماضيها الكلاسيكي، كانت قيصرية مهجورة إلى حد كبير، كما أن حدود المدينة القديمة التي أسسها هيرود الكبير Herod The Great (٧٢ - ٤ ق.م) لتكون نافذة على عالم البحر المتوسط، واضحة للعيان. وبقيت المدينة مزدهرة في القرن السادس الميلادي، مع أحياء سكنية جديدة بنيت فيما بين الآثار العظيمة التي خلفتها الفترة الكلاسيكية، وأسفل الميناء توجد كنيسة مئمنة الاضلاع تطل على أحواض السفن والأرصعة. ويبدو أن المدينة صمدت بعض السنين، ربما حتى سنة ٦٤١م أي بعد خمس سنوات من هزيمة القوات البيزنطية في معركة اليرموك، وعرفنا أنها لم تسقط إلا بعد أن دُل سكانها اليهود المسلمين على كيفية دخولها من خلال قناة مغطاة. ويقال إن الرجل الذي قاد جيش الفتح كان هو معاوية بن أبي سفيان. وإذا كان الأمر كذلك، فإن هذا كان أول نصر عسكري للرجل الذي قُبِضَ له أن يحكم العالم الإسلامي بأسره من قاعدته في دمشق. ولأن السكان كانوا قد قاوموا على مدى فترة طويلة وأخذت المدينة عنوة تم استرقاق عدد كبير منهم وأخذوا إلى الحجاز، حيث عملوا «في الكتابة والأعمال للمسلمين»^(٤٦). وربما نرى هنا بدايات أخذ المسلمين من الثقافة اليونانية، وهو أمر من أوضح خصائص الفترة الإسلامية الباكرة.

وفي اللاذقية، أكبر موانئ سوريا الحديثة، أغلق السكان البوابة الكبرى لأسوار مدينتهم في وجه الغزاة ويقال إن العرب بذلوا جهداً عظيماً وحفروا الخنادق عميقة بحيث تغطي رجلاً راكباً فرسه. ثم تظاهروا بالتراجع صوب حمص. وعندما هبط الليل عادوا إلى أماكن اختبائهم وفي الصباح فتح السكان البوابة لإخراج قطعان ماشيتهم للرعي؛ ومن الواضح أن هذه كانت مدينة زراعية تماماً. وبرز العرب فجأة من أماكن اختبائهم واقتحموا البوابة، ووضعوا أياديهم على المدينة. وهنا تم السماح للسكان بالاحتفاظ بكنيستهم وبنى المسلمون مسجداً جديداً لأنفسهم^(٤٧). أما مدن لبنان، بيروت، وصور وصيدا فلم تبد أية مقاومة. وفي طرابلس فقط صمد البيزنطيون فترة

طويلة ، ولأن المدينة كانت تتلقى إمدادات عن طريق البحر ، فقد استمر الدفاع عنها حتى بداية عهد الخليفة عثمان بن عفان فى سنة ٦٤٤م. وبنى المسلمون حصناً صغيراً خارج الأسوار لى يراقبوا السكان وأخيراً استيقظوا ذات يوم ليجدوا المدافعين جميعاً قد تم إخلأهم تحت جناح الليل بواسطة السفن البيزنطية^(٤٨). وكان سقوطها يعنى النهاية الأخيرة للسيطرة البيزنطية على أى جزء من الساحل الشرقى للبحر المتوسط.

وكانت هناك مدينة واحدة كان فتحها رمزياً أكثر منه ذا أهمية عسكرية، وهى مدينة بيت المقدس. وللمدينة أهمية عظمت بالنسبة للمسلمين، باعتبارها أولى القبلتين وارتبطت بقصة الإسراء التى تفتحت فيها أسرار السماء أمام النبى محمد . وكانت بيت المقدس عند نهاية القرن السادس الميلادى مركزاً للحج المسيحى والإدارة الكنسية. وكانت الأسوار تضم مساحة تضاهى مساحة القدس العتيقة اليوم تقريباً . ولدينا نظرة فاحصة غير عادية على مظهر مساحة المدينة بسبب وثيقة تعرف باسم خارطة مدبه Madaba^(٤٩). وهى خريطة من الفسيفساء للأرض المقدسة تم صبها على أرضية كنيسة فى بلدة أردنية صغيرة هى مدبه ، ربما فى نهاية القرن السادس . وتبدو مدينة القدس شاخصة بوضوح فى هذه الخريطة. ويمكن أن نرى الشوارع الكلاسيكية التى تحف بها الأعمدة ، والتى هى نفسها شوارع المدينة الرئيسية اليوم كما يمكننا أن نرى الأسوار والأبراج وكنيسة الضريح المقدس الكبرى، مع بيان المكان الذى صُلب فيه المسيح ، ودُفن ، ثم قام مرة أخرى. ويمكن أن نرى أيضاً الكنيسة الجديدة الكبيرة Nea ، التى بناها الإمبراطور جستينيان فى سياق حملته لتجميل المدينة. وقد كشفت الحفائر منذ سنة ١٩٦٧م عن أسس الكنيسة والشارع الجديد الذى كان يؤدى إليها ، مما يؤكد دقة الخارطة . وهناك منطقة واحدة فى المدينة لم نخبرنا بالخارطة عنها، منطقة جبل المعبد. وهذه ساحة واسعة حيث كان يقوم معبد هيرود وربما كانت خالية منذ دمر الرومان المعبد سنة ٧٠م. ويعد الفتح الإسلامى بستين سنة قام الخليفة الأموى عبد الملك

ببناء قبة الصخرة فى الموضع^(*)، وتعتبر قبة الصخرة ثالث الأماكن المقدسة بعد مكة والمدينة بالنسبة للمسلمين السنة . وسيكون من المذهل أن نعرف ماذا وجد عمر بن الخطاب فى الموقع، إذا كان قد وجد شيئاً على الإطلاق، ولكن من الأمور المضنية المعذبة، أن الفسيفساء قد تحطمت فى الموضع الذى كان يجب أن يوجد فيه المعبد ولو أن صدفة البقاء كانت قد حفظت لنا عدة سنتيميترات أخرى من الفسيفساء ، لربما وجدنا الإجابة عن هذا السؤال^(**).

كان الرجل المسئول عن بيت المقدس قد تولى منصب البطريك منذ وقت قصير، وهو البطريك صفرونيوس. وكان رجل كنيسة يونانياً ، متعلماً وذكياً ، ويحترق البدو الأجلاف . وبالنسبة لصفرونيوس ، كان ظهور العرب علامة على غضب الرب بسبب خطايا النصارى. وفى موعظة نارية وبخهم بقوله «من أين حدثت الحروب ضدكم ؟ من أين تعددت غزوات البرابرة؟ من أين صعد المسلمون فى مواجهتكم ؟ ممن يتزايد بهذا القدر الكبير من الدمار والنهب؟ من أين تأتى إراقة الدماء الإنسانية التى لا تتوقف ؟ ما سبب أن طيور السماوات تلتهم الأجساد البشرية ؟ ما سبب أن الصليب محل سخرية ؟ وما سبب أن المسيح نفسه ، مانح كل خير ومصدر النور لنا ، تجدف بحقه الأفواه البربرية ؟ » واستمر يقول : « لقد ظهر المسلمون بشكل غير متوقع ضدنا بسبب خطايانا ونهبوا كل شئء بالقوة وبوحشية وبجسارة لاتعرف الدين ولاتعرف الرب»^(٥٠). هذا هو الصوت الحقيقى للثقافة الإغريقية ، وقد أثار الفتح الإسلامى لبلاد الشام رعبه وفرزه .

(*) ليس هناك أى دليل أثرى ، أو غير أثرى، على أن المعبد كان قائماً فى مكان قبة الصخرة وليس مفهوماً الربط بين الهيكل الذى بناه هيرود الذى هدمه الرومان، وبين مكان قبة الصخرة ؛ إذ إن كل السوابق الإسلامية (التي ذكرها المؤلف فى الصفحات السابقة) تؤكد احترام أماكن عبادة الآخرين بالإبقاء عليها أو تعويض السكان عنها، فلماذا يشذ المسلمون عن هذا السلوك مع معبد اليهود؟ والراجح أنه لم يكن موجوداً؛ سواء كان كاملاً أو فى صورة خرائب وأطلال. (المترجم)

(**) هناك تهاوت أوضح من هذه العبارات التى تؤكد أن المؤلف يروج لأفكار غير صحيحة - على الرغم من جديته الواضحة - فى سياق غير سياقها. (المترجم)

وعلى الرغم من احتقاره ونفوره من العرب، فقد كانت الظروف العسكرية تعنى أن صفرونيوس ليس أمامه بديل سوى التفاوض معهم . وعلى أية حال، فإنه أصرّ على أنه سوف يسلم المدينة فحسب إلى الخليفة عمر بن الخطاب نفسه . وصار تسليم بيت المقدس موضوعاً للتاريخ والأسطورة ، ومصدراً للأمثلة لكل من يريدون مناقشة بعض النقاط حول العلاقات الإسلامية - المسيحية.

فقد لاحت الفرصة عندما زار عمر بلاد الشام . وكما هي عادة المصادر العربية هناك قدر كبير من الارتباك حول وقت قيامه بهذه الزيارة، وحول ما إذا كانت زيارة واحدة أم عدة زيارات^(٥١). والسيناريو الأرجح من غيره هو أن الخليفة جاء إلى الجابية في سنة ٦٣٧م أو سنة ٦٣٨م وفى أثناء إقامته هناك ، يعالج عدداً كبيراً من المسائل الإدارية، جاء وفد من المدينة لوضع الشروط للصلح . وجاءوا على ظهور الخيل ، وقد شرعوا سيوفهم ، وافترض بعض الذين فى معسكر المسلمين أنهم مغيرون من الأعداء، ولكن الخليفة الذى اتسم بالحكمة كعادته دائماً استطاع أن يؤكد لهم أنهم ما جاءوا سوى للتفاوض . وفحوى نص المعاهدة التى تم التوصل إليها كما وصلنا :

«بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان؛ أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمتها وبريئتها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم، ولا شئ من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منهم الروم واللاهوت (الصلوص) ، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ؛ ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى صليبهم ، حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان ، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شئ»

حتى يُحصَد حصادهم ؛ وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية . شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبى سفيان، وكتب وحضر سنة خمس عشرة» (٥٢) (*) .

وسواء كان هذا هو نص الصلح الذى وافق عليه عمر بن الخطاب، أو اصطناعاً قديماً ، فهو أمر لا يمكننا أن نتأكد منه، بيد أنه يعطى انطباعاً عن الكيفية التى كان المسلمون يستجيبون بها لرعاياهم المسيحيين فى البلاد المفتوحة حديثاً . ولاشك فى أن حقيقة أنه يحمل اسم عمر بن الخطاب تضيف إليه وزناً وحُجَّةً . والتأكيد على ضمان حرية الديانة أمر لا يثير الدهشة ، إذا ما وضعنا فى اعتبارنا المكانة الخاصة لببيت المقدس . ولكن الذى لم يكن متوقعاً هو اشتراط عدم السماح لليهود بالاستقرار فى المدينة . فقد كان هذا المنع من ملامح القانون الرومانى وحقيقة أن مصدره إسلامياً يسجلها يوحى بأن المفاوضات المسيحيين كانوا متشددتين . وبعض العبارات تلقى ضوءاً مثيراً على ظروف المدينة . إذ يشير الشرط الخاص برحيل الموظفين البيزنطيين (الروم) إلى هجرة الطبقة العليا وطبقة الموظفين، والفقرات التى تتناول أهل البلاد الذين جاءوا إلى المدينة انعكاس واضح للظروف المعاصرة .

ثم قام عمر بن الخطاب بزيارة المدينة . وأكمل رواية عن زيارته للمدينة وردت فى مؤرخة المؤرخ المسيحي العربى سعيد بن البطريق الذى يعرف أيضاً باسم أوتياخا Eutychius^(٥٣) وقد كتب فى القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى، وحفظ لنا ماثورات قُصد بها أن توضح كيف أن عمر بن الخطاب قد ضمن وضع المسيحيين فى المدينة المقدسة . ووفقاً لروايته ، فإنه صفرونيوس رحب بالخليفة عمر فى المدينة وأعطى الناس الأمان على أنفسهم وممتلكاتهم مع ضمان حرية العقيدة . وعندما حان وقت الصلاة اقترح البطريق عليه أن يصلى فى كنيسة الضريح المقدس، ولكن عمر بن الخطاب رفض لأنه قال إنه لو فعل هذا ، فإن المسلمين سيتخذونها مسجداً وسوف يخسرها

(*) النص من الطبرى ، ج ٢ ، ص ٦٠٩ . (المترجم)

المسيحيون . ثم أصدر مرسوماً يمنع فيه المسلمين من الصلاة فى أجزاء الكنيسة ، ونتيجة لهذا بقيت الكنيسة بأيدي النصارى منذ ذلك الحين. ثم طلب عمر موضعاً لبناء مسجد وأخذهُ البطريرك بيده إلى الصخرة التى كان يقوم عليها معبد هيرود . ومع الواضح أن الرواية قد صيغت لبيان أن مكانة المسيحيين فى القدس كانت قائمة على أساس من سلطة عمر بن الخطاب نفسه والتى لا يمكن لأحد أن يشكك فيها .

وفى الموروث العربى أن عمر بن الخطاب كان يرشده «كعب الأخبار» ، وهو يهودى اعتنق الدين الإسلامى ويقال إنه قدم الكثير من القصص والمأثورات عن اليهود فى الديانة الجديدة^(*). وفى إجابة عن سؤال الخليفة، اقترح كعب أن الصخرة ، التى تقوم فى وسط الساحة ، يجب أن تكون قبلة صلاتهم فى ذلك اليوم، ولكن عمر بن الخطاب قد رفض هذا وأوضح أن الله قد احتفظ بدور القبلة للكعبة فى مكة. فقد كان الخليفة واعياً تماماً أن الموقع علامة على مكان المعبد اليهودى الذى كان الرومان قد دمروه بعد التمرد اليهودى سنة ٧٠ ميلادية وترك ليكون مكاناً للقمامة فى العصور البيزنطية . وبدأ ينظف المكان بنفسه ثم تبعه الناس فى ذلك. وربما يكون قد أمر بإقامة مكان بسيط للصلاة. ومن المؤكد أنه حينما زار الحاج المسيحى الأوروبى أركولف Arculf مبنى قبة الصخرة فى سنة ٦٨٥م، وجد مكاناً أساسياً للعبادة هناك. وكان لهذا السبب أنه يشار إلى قبة الصخرة أحياناً على سبيل الخطأ بأنها مسجد عمر^(**).

ويحلول سنة ٦٤٠م كانت بلاد الشام بأسرها، باستثناء مدينة أو مدينتين على الساحل قد دخلت تحت الحكم الإسلامى كان الحد الشمالى للحكم الإسلامى قد أرسى فى أنطاكية، ومدينة Cyrrhus القديمة ومنبج . وتم وضع الحاميات وانضم إليهم

(*) هذه صياغة غير صحيحة من جانب المؤلف ؛ فالحقيقة أن المأثورات التى نقلت عن كعب الأخبار والتى تعرف بالإسرائيليات قد تسربت إلى بعض كتب التفسير والحديث ولكنها لم تدخل فى صلب الديانة الإسلامية التى حددها القرآن الكريم، وربما كانت ثقافة المؤلف هى التى جعلته يخلط الأمور على هذا النحو . (المترجم) .

(**) هذا الإصرار على مسألة المعبد اليهودى تحت قبة الصخرة يثير العجب . (المترجم)

الأهالى المحليين لكى يخبروا المسلمين عن أى قوات بيزنطية تقترب . وعلى أية حال ، كان البيزنطيون الذين أنهكتهم الهزيمة ، فضلاً عن موت هرقل فى فبراير ٦٤١م ، والصراعات على العرش التى أعقبته ، غير قادرين على شن أى هجوم مضاد .

وقد فتح اتمام غزو بلاد الشام الطريق أمام جيوش المسلمين لكى تعبر نهر الفرات وتبدأ فتح الجزيرة . وقد استخدم مصطلح «الجزيرة» منذ القرن السابع الميلادى ليصف الأرض بين دجلة والفرات فى سوريا والعراق حالياً . وكانت حدود الجزيرة من الشمال جبال طوروس جنوب شرق الأناضول ، وكانت تلك الحدود بشكل ما على امتداد الحدود التركية الحديثة . والأرض فى معظمها سهول مسطحة مفتوحة وصحراء . وقد لاحظ مؤرخ حديث أن : « الجزيرة تشبه البحر المتوسط إلى حد ما ، عبارة عن محيط من الاستبس ترصعها مجموعات من وديان الأنهار والتلال وقد استقرت بشكل متفاوت على شواطئها»^(٥٤) . وهناك وحدة طبيعية فى هذه المنطقة كما أن الاتصالات سريعة وسهلة ، ولكن فى وقت الفتح الإسلامى كانت مقسمة بين البيزنطيين فى الغرب والساسانيين فى الشرق ، مع الحدود قرب مدينة نصيبين القديمة ، بما يحاذى الحدود العراقية - السورية الحديثة بقدر أو بآخر . هذا التقسيم حدد الطريق الذى تم فتحها من خلاله ، إذ استولت قوات المسلمين القادمة من بلاد الشام على الأراضى الواقعة على الجانب البيزنطى من الحدود ، على حين استولت القوات القادمة من العراق على الأراضى التى كانت تحت حكم الساسانيين فيما قبل والواقعة على الجانب الشرقى .

وكانت هناك فى وديان الأنهار عدة مدن قديمة كانت أشهرها مدينة الرها . وكانت الرها أحد مراكز المسيحية الباكرة . فى القرن الميلادى الأول يقال إن ملكها آنذاك الملك أبجار Abgar كان أول ملك فى العالم يعتنق المسيحية . وكانت كاتدرائيتها الكبيرة ، التى لم يبق منها شئ الآن ، أحد المباني الأكثر فخامة فى العالم المسيحى الشرقى . كما كانت مركزاً سياسياً مهماً ، وكان هرقل قد اتخذها قاعدة له فى المراحل الأخيرة من حملته فى بلاد الشام .

كان فتح الجزيرة مرحلة مهمة فى تقوية الحكم الإسلامى فى منطقة الهلال الخصيب . فلو أنها بقيت بأيدي البيزنطيين لشكلت تهديداً رئيسياً للشام والعراق . وعلى الرغم من أهميتها الاستراتيجية وعراقة مدنها ، فإن فتح الجزيرة قد سجل بأسلوب موجز تماماً فى المصادر العربية ، وتُبدى مثل هذه الروايات اهتماماً أكثر بشروط الاستسلام من اهتمامها بمجرى المعارك والحملات العسكرية^(٥٥) . ومعظمها تتفق على أن الفتح كان تحت قيادة عياض بن غنم الذى أمره الخليفة عمر بن الخطاب بقيادة قوة من عرب الشام عبر نهر الفرات . ووفقاً لإحدى الروايات لم يكن معه سوى خمسة آلاف رجل^(٥٦) ، ولكن على الرغم من هذه الأعداد الصغيرة لم يواجه سوى القليل من المقاومة الجدية . ويبدو أن انسحاب البيزنطيين ترك الأهالى المحليين أمام خيار الاستسلام بشروط سهلة نسبياً قدمها لهم العرب . وحتى فى آمد وديار بكر التى كانت أسوار مدينتها القوية تمثل أحد أمجاد العمارة العسكرية فى العصور القديمة والعصور الوسطى ، يبدو أنه لم تكن هناك مقاومة على الإطلاق ، ويصدق الأمر نفسه على القلعة الكبيرة التى كان البيزنطيون قد بنوها فى القرن السادس الميلادى فى دارا لدفع الفُرس وهجماتهم^(٥٧) . ويبدو أن الرها قد استسلمت بسرعة بشرط أن يحتفظ المسيحيون بكاتدرائيتهم ولكنهم اتفقوا على ألا يبنوا أية كنائس جديدة وألا يساعدوا أعداء المسلمين . كذلك سقطت مدينة الرقة على نهر الفرات بعد مقاومة قصيرة . ولا يمكن التأكد من الطريق الذى سار فيه جيش عياض وهو يجوب هذه الأنحاء ويقبل استسلام المدن الصغيرة ، ولكن يبدو أنه ربما أنهى رحلته بالإغارة على امتداد الطريق القديم الذى كان يؤدى إلى أرمينيا قبل أن يتوقف عند تبليس . ثم عاد إلى بلاد الشام ، حيث وافته المنية .

كانت الجيوش التى فتحت بلاد الشام قد تم تجنيدها من الحجاز . وعلى أية حال ، فلم ينتج عن هذا تدفق مهاجرين جدد من شبه الجزيرة العربية . وكانت قريش وحلفاؤها من النخبة المسلمة يعرفون بلاد الشام جيداً وأرادوا السيطرة على مواردها . ولم يكونوا يريدون تقاسمها مع جماهير البدو الفقراء . وقد تشجع هؤلاء على الانتقال إلى العراق بدلاً من ذلك . ويمكن أن يقال فى لغة الجيش البريطانى إن بلاد الشام كانت للضباط ، وأن العراق كانت للرتب الأخرى . ولم يؤسسوا مدناً جديدة على نحو ما حدث

فيما بعد في العراق ومصر . ذلك أن كل المدن التي كانت مهمة تحت الحكم الإسلامي كانت مهمة في العصور الرومانية (على الرغم من أن بعض المدن، مثل سكيثوبوليس، التي كانت مهمة في العصر الروماني، تدهورت واختلفت بالفعل في الفترة الإسلامية) . وفي إحدى المراحل يبدو أنه كان هناك مشروع لتأسيس مدينة جديدة في الجابية بمرتفعات الجولان، التي كانت أرض مخيمات الصيف للفساسنة . وكان في هذا المكان أن جاء الخليفة عمر بن الخطاب لمقابلة قادة الجيش المنتصر أثناء زيارته لبلاد الشام. ولكن الجابية بقيت كما هي ، أرض مخيمات صيفية : ولم يتم بناء أى مسجد هناك ، ولا أى قصر للحكم ، كما لم يتم منح أى خطط للقبائل . وبدلاً من ذلك، يبدو أن المسلمين قد فضلوا الاستقرار في المدن الموجودة. وقد رأينا كيف أن مساكن حمص قد أويحت لسكانهم . وفي قنسرين وحلب كانت الضواحي البدوية الحقيقية قد بُنيت خارج أسوار المدينتين القديمتين .

ومن ناحية أخرى كان هذا ممكناً بسبب أن قسماً من النخبة البيزنطية كانوا قد هربوا إلى القسطنطينية ، أو مناطق أبعد منها غرباً، مما ترك فراغاً في المدن . فبعد سقوط دمشق غادر الكثير من الناس المدينة للانضمام إلى هرقل^(٥٨)، وتمكن المسلمون البارزون من الإقامة بالمدينة: فقد كان عمرو بن العاص يمتلك عدة منازل وضياح في دمشق وفلسطين . وقد افترض الصلح الذي عقده عمر بن الخطاب مع مواطني بيت المقدس أن هناك عناصر من البيزنطيين سيرحلون ، سواء طواعية أم غصباً . ويبدو أيضاً كما لو أن مناطق كثيرة في الشام قد عانت نقص السكان بسبب الوباء والحرب كما أن الفاتحين المسلمين طردوا الكثير من السكان الروم خارج المدن الساحلية^(٥٩). وكانت هناك صعوبة في العثور على الرجال اللازمين للحاميات في المدن الموانئ على ساحل البحر المتوسط. وقد اضطر معاوية لتسكين اليهود في طرابلس، لأنه لم يكن هناك مسلم يمكن إقناعه بالإقامة فيها . كما استقر المسلمون في القرى حول طبرية وفي بعض الأحيان كانوا يمنحون الأراضي المهجورة بشرط استزراعها . وليس هناك دليل على حدوث هجرات من نوع الهجرات التي شهدتها العراق .

ويمكن أن نعرف شيئاً عن العلاقة اليومية بين القبائل العربية وسكان القرى والمدن من خلال مجموعة من البرديات ثنائية اللغة، اليونانية والعربية ، عُثر عليها في بلدة نصّاناً القديمة بالنجف^(٦٠). وبعض هذه الوثائق تحمل أوامر للسكان المسيحيين في البلدة بأن يقدموا لبدو المنطقة المؤن من القمح وزيت الزيتون ، والأموال أحياناً . ويبدو أن الدفع كان لشيوخ القبائل مباشرة ؛ إذ لم تكن هناك إدارة معقدة . ويبدو أن مسألة جمع المؤن وتقسيم الأعباء قد تركت لتقدير السكان المحليين. وتكشف الوثائق التي يرجع تاريخها إلى عامي ٦٧٤ - ٦٧٥م، أي بعد جيل من الفتح ، عن أن الاحتلال العربي كان بسيطاً وغير رسمي بشكل ما .

كانت ثمة نتيجة أخرى لنموذج الاستقرار العربي في بلاد الشام . ففي العراق ومصر كان المسلمون الذين توطنوا في المدن يعتمدون على الدولة مباشرة في معاشهم ، وغالباً ما كانت تلك وسيلتهم الوحيدة لكسب عيشهم . أما في الشام، على النقيض ، فكان كثير من أبناء النخبة الجديدة لهم من الممتلكات ما يمكنهم من العيش على عواندها . وفي غضون جيل كان أبناء النخبة المسلمة في بلاد الشام يتجهون إلى حياة الرفاهية، ويبنون منازل فاخرة في الريف، يبدو أنها لم تكن معروفة حقاً في العراق أو مصر.

إذن، فلو لم يكن ثمة تدفق ضخم لهجرات العرب لبلاد الشام بحيث يزيحون الحضارة اليونانية الرومانية جانباً ، فما الذي كان سيتغير بالفعل نتيجة الفتوح الإسلامية؟ كانت قمة جهاز الحكم تحت سيطرة المسلمين المتحدثين بالعربية، وهو المستوى الأكثر وضوحاً ، بيد أن النظرية المتأنية تكشف عن أن هذا التغيير لم يكن درامياً على ما قد يبدو للوهلة الأولى. فعلى مدى نصف القرن الأول، استمرت الإدارة تستخدم اللغة اليونانية ، وكان عدد كبير من الموظفين من المسيحيين المحليين. وكانت هناك ديانة نخبة جديدة بيد أنه يبدو أن تأثيرها على البيئة القائمة كان قليلاً . ففي العراق في المدن الجديدة الكوفة والبصرة ، كان المسجد يقوم في قلب المدينة الإسلامية ؛ وفي دمشق في الوقت نفسه كان على المسلمين أن يقنعوا بنصيبهم الذي كان نصف الكنيسة الكاثدرائية بمركز المدينة باعتباره بديلاً مؤقتاً .

وهناك قليل من الأدلة ، أيضا ، على تغلغل البدو في الريف. ويبدو أن الانطباع السائد بأنه نجم عن الفتح العربي قدوم جحافل من البدو الذين دخلوا البلاد ونهبوا المناطق المستقرة انطباع خاطئ في عمومها ، على الرغم من أنه ربما كانت هناك حوادث عنف وتدمير في سياق الغزوات . وفي هذه المناطق الهامشية الهشة مثل مناطق الاستبس الشامية شرق حمص ، وشرق الأردن والنقب جنوب فلسطين ، وهي مناطق حيث كانت تتغير الحدود بين الأراضي المزروعة ومراعى البدو ، وتتبدل بحسب التغيرات السياسية والثقافية ، يوحى الدليل بأن القرن الأول من الحكم الإسلامي شهد توسعاً في الزراعة المستقرة . ولم يحدث حتى سنة ٧٥٠م ، عندما تمت الإطاحة بالأمويين الذين ارتكز حكمهم على بلاد الشام على أيدي العباسيين الذين كانت قاعدتهم في العراق ، أن تراجعت حدود مناطق الاستقرار وتوسعت مناطق البدو .

وعلى أية حال ، فإن الفتح الإسلامي لبلاد الشام كانت له آثار عميقة على تاريخ المنطقة في المدى الطويل. فقد أنهى ما كاد يقرب من ألف سنة من حكم الناطقين باليونانية والروابط القائمة مع عالم البحر المتوسط. ومنذ هذه النقطة فصاعداً ، لم تعد العلاقات الأهم مع روما أو القسطنطينية وإنما مع مكة والمدينة، وفيما بعد مع بغداد أو القاهرة . ولم يكن ممكناً ظهور الإسلام باعتباره الدين السائد واللغة العربية لغة عالمية تقريباً بدون الفتح . هذه التغيرات العميقة في اللغة والثقافة ربما تكون قد استغرقت بعض الوقت بيد أنها لم تكن لتحدث بدون الفتوح العسكرية التي جرت في ثلاثينيات القرن السابع الميلادي .

الهوامش

A. Cameron, 'Cyprus at the time of the Arab conquests', *Cyprus Historical Review* (١) 1 (1992): 27-49, reprinted in eadem. *Changing Cultures in Early Byzantium* (Aldershot, 1996), VI.

Baladhuri, *Futuh al- Buldan*, ed. M.j, de Goeje (Leiden, 1866, repr. Leiden. 1968), (٢) p. 129.

Tabari, *Ta'rikh* I, p. 2156. (٣)

Donner, *Early Islamic Conquests*, p. 119. (٤)

(٥) عن هذا الترتيب الزمني على مؤرخة ٧٢٤م انظر :

Donner, *Early Islamic Conquests*, p. 126; Baladhuri, *Futuh*, p. 109.

'Dcictrina.Iacobi Nuper Baptizati' , ed. with French trans. V. Deroche in *Travaux*; (٦) et *Memoires College de France, Centre de recherche d'histoire et civilisation de Byzance*) 11 (1991); 47-273, cap. V, 16 (pp. 208-9).

(٧) انظر :

N. M, El Cheikh, *Byzantium Viewed by the Arabs* (Cambridge, MA, 2004), pp. 39-54.

Tabari, *Ta'rikh*, I pp. 1561-2. (٨)

Tabari, *Ta'rikh*, I, pp. 2108-25, Baladhuri, *Futuh*, pp. 110-12, Ibn Athcam al-Kufi, (٩) *Kitab al-Futuh*, ed. S. A. Bukhari, 7 vols. (Hyderabad, 1974), vol. I, pp. 132-4 al-Ya 'qubi, *Ta'rikh*, ed. M. Houtsma, 2 vols. (Leiden, 1883), vol. U, pp. 133-4.

See Donner, *Early Islamic Conquests* pp, 119-27 for the best discussion. (١٠)

Tabari, *Ta'rikh*, b, pp. 2113-14. (١١)

P. Crone, 'Khalid b. al-Walid', *Encyclopaedia of Islam*, 2nd edn. (١٢)

Tabari, *Ta'rikh*, I, pp. 2097, 2114-5 ; Baladhuri, *Futuh*, p. 112. (١٣)

(١٤) هذه الرواية قائمة على أساس الترتيب الزمني الذي كتبه ابن إسحق والواقدي ، وهما اثنان من أهم مصادر القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي وقد وصفهما دونر :

Doner, Early Islamic Conquests, pp. 128-34.

وعن ترتيبات زمنية أخرى انظر :

Ibid., pp. 134-9 (Sayf b. Umar) and pp. 139-420.

Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2398-401. (١٥)

Fredegar, Thr Fourth Book of the Chronicle : of Fredegar with its Continuations, (١٦)
trans. J. M. Wallace-Hadrill (London, 1960), p. 55.

Sebeos, The Armenian History, trans. R. W. Thomson, with notes by J. Howard- (١٧)
Johnston and T. Greenwood, 2 vols. (Liverpool, 1999), I, p. 97.

Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2145-6, 2157. (١٨)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2152. (١٩)

Baladhuri, Futuh, p. 121. (٢٠)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2154. (٢١)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2393. (٢٢)

(٢٣) انظر مثلاً :

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2099.

W. E. Kaegi, Byzantium and the Early Islamic Conquests (Cambridge, 1992), (٢٤)
p. 127.

Donner, Early Islamic Conquests, p. 133. Kaegi, Byzantium, p. 121, (٢٥)

يقول إن ذروة المعركة كانت في يوم ٢٠ أغسطس دون الإشارة لأي مصادر .

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2091. (٢٦)

Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2091-2. (٢٧)

(٢٨) انظر :

Caetani, Annali dell'Islam (Milan, 1905-26), III, pp. 491-613, and the discussion
in Kaegi, Byzantium, pp. 122-3, esp. n. 23.

(٢٩) الرواية التالية على أساس :

Kaegi, Byzantium, pp. 119-22 . and the map on p. 113.

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2099. (٣٠)

Tahari, Ta'rikh, I, p. 2092. (٣١)

Tahari, Ta'rikh, I, p. 2100. (٣٢)

Fredegar, Chronicle, p. 55. (٢٢)

Quoted in Kaegi, Byzantium, p. 141. (٢٤)

Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2390-93; Baladhuri, Futuh, pp. 130-31. (٢٥)

عن سقوط حمص .

Baladhuri, Futuh, p. 131. (٢٦)

Baladhuri, Futuh, p. 131 and Yaqut, Mu'jam al-Buldan, ed. F. Wüstenfeld (٢٧)
(Leipzig, 1886), 'Horns'.

Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2393-5. (٢٨)

Baladhuri, Futuh, pp. 139-40. (٢٩)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2396. (٤٠)

Baladhuri, Futuh, p. 137. (٤١)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2396. (٤٢)

Michael the Syrian, Chronicle, ed. with French trans. J.-B. Chabot, vols. (٤٣)
(Paris, 1890-1924), II, p. 424.

Baladhuri, Futuh, p. 131: (٤٤)

المقلس (مفردها مقلس) الذي يضرب الدف ويقابل أو يمشي أمام الملوك أو غيرهم من الرجال العظماء
مع غيره من الأدوات الموسيقية في مناسبات النصر .
(٤٥) أذرع القديمة :

Baladhuri, Futuh, p. 139.

Baladhuri, Futuh, p. 142. (٤٦)

Baladhuri, Futuh, pp. 132-3. (٤٧)

Baladhuri, Futuh, p. 127. (٤٨)

(٤٩) عن الخريطة انظر :

H. Donner, The Mosaic Map of Madaba: An introductory guide (Kampen, 1992).

Translated in R. Hoyland, seeing Islam as Others Saw It: A Survey and (٥٠)
Evaluation of Christian, Jewish and Zoroastrian Writings on Early Islam
(Princeton, NJ, 1997), pp-72-3 .

Donner, Early Islamic Conquests, pp.151-2. (٥١)

Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2405-6. (٥٢)

Sacid ibn Batriq, Das Annalenwerk des Eutychios von Alexandrien, ed. M. Breydyin (٥٣) Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium, vol. 471 Scriptores Arabici, t. 44 (Leuven, 1985); see also R. L. Wilken, The Land Called Holy: Palestine in Christian History and Thought (New Haven, CT, 1992), pp. 233-9.

C. F. Robinson, Empire and Elites after the Muslim Conquest: The (٥٤) Transformation of Northern Mesopotamia (Cambridge, 2000), p. 34.

On the sources for the conquest and the problems they raise, see Robinson, (٥٥) Empire and Elites, pp. 1-32.

Baladhuri, Futuh, pp. 172-3. (٥٦)

Baladhuri, Futuh, p. 176. (٥٧)

Baladhuri, Futuh, p. 123. (٥٨)

Baladhuri, Futuh, p. 126. (٥٩)

(٦٠) عن الوثائق انظر :

C. J. Kraemer, J. r, Excavations at Nessana, vol. 3: Non-Literary Papyri (Princeton, NJ, 1958), pp. 175-97.

فتح العراق

أخيراً ، يلوح فى الأفق خط رفيع ، صلب .. ويستغرق الأمر عشرين يوماً من الركوب عبر الصحراء من مقر القيادة الإسلامية فى المدينة، وهى أيام من حرارة القيظ والريح القاسية وليالى البرد القارص المؤلمة يمضيها المرء تحت عباءة أو يسير متثاقلاً تحت النجوم . وهذه الصحراء ليست هى كثبان الرمل والواحات التى تحف بها أشجار النخيل والتى تسكن الخيال الشعبى، وإنما هى فضاءٍ قاسٍ مرير من الصخور والأحجار والحصباء ، والتلال المنخفضة المتماوجة وتجد بها أحياناً أشجاراً معقدة وشوكية . ثم يأتى خط الأفق الذى يهيج الشوق إليه والذى يبين أن نهاية الرحلة قد لاحت فى الأفق . وعلى مدى اليوم التالى أو اليومين التالين ، يتسع عرض الخط، ويمكن للمسافر المرهق أن يبدأ فى تمييز أشكال الأشجار وربما البيوت فى الأراضى المستقرة ، لأن هذه هى أرض السواد أى السهول الطميية فى وسط العراق . وهى مسطحة على امتداد البصر ، وهى أرض النخيل وحقول الغلال التى تخصبها مياه نهري دجلة والفرات . وعلى مدى القرون كانت هذه المنطقة واحدة من أغنى المناطق وأكثرها إنتاجاً فى العالم.

وعلى مدى أربعمئة سنة قبل الفتح الإسلامى كان العراق جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية الساسانية^(١). وكان اسم «الساسانيين» يطلق على السلالة الحاكمة التى كانت قد أحيت إمبراطورية إيران وحكمتها فى القرن الثالث الميلادى . وإلى جانب الامبراطورية البيزنطية كانت الإمبراطورية الساسانية إحدى القوتين العظميين

فى العالم القديم ، ولكن كلا من الدولتين كان لها نظام إمبراطورى يختلف تماماً عن نظام الأخرى. ويمكن ، مع المخاطرة بالوقوع فى التبسيط المخل، أن نجادل بأنه بينما كانت الإمبراطورية البيزنطية محكومة بجهاز إدارى وجيش مستعد، كانت المملكة الساسانية محكومة بأرستقراطية محاربة. وعندما قام الإمبراطور چستنيان بإصدار الأوامر برسم صورته هو وزوجته تيودورا بالفسيفساء على حوائط كنيسة رافنا، جاءت صورتها واقفين هادئين، أنيقين، ويرتديان ملابس مدنية خالصة. وعندما أمر الملك الساسانى كسرى الثانى (خسرو) برسم صورته بالحفر على الحجر فى الكهف الطبيعى فى تقى بستان كانت صورة رجل فعل ، صياد عظيم قوى ، يمتطى حصاناً وهو بكامل سلاحه أو يستعرض مهاراته فى الرمى بالقوس.

كان الملك الساسانى يحكم باعتباره ملك الملوك «شاهنشاه» ، مما يعكس حقيقة أن الإمبراطورية كانت تتباهى بعدد من العائلات الأرستقراطية العريقة والشهيرة مثل الساسانيين أنفسهم ، وكانت إمبراطوريتهم تضم إيران الحديثة كلها، والعراق غرباً ومعظم أفغانستان وتركمانستان شرقاً. وكانت للملوك عاصمة هى طيسفون (المدائن) فى سهول العراق ، إلى الجنوب الشرقى من بغداد الحديثة مباشرة ، ولكن يبدو أنهم كانوا يمضون الكثير من وقتهم فى الترحال بين الضياع الريفية ، جيئةً وذهاباً على امتداد الطرق التى تشق جبال زاجروس من سهول ما بين النهرين حتى مرتفعات إيران.

وبينما كانت الطبقات العليا فى بيزنطة تميل إلى الحياة فى المدن، فإن أبناء هذه الطبقات فى الإمبراطورية الفارسية كانوا متمركزين أكثر فى ضياعهم وقصورهم الريفية . ويبدو أن المدن، أيضاً كانت تبدو مختلفة عن مدن العالم البيزنطى. فلو كانت فى معظمها مبنية من الآجر أو من الأحجار المصقولة ، ونادراً ما كانت شوارعها مستقيمة ولم يكن بها إطلاقاً مجالس مدن لإنفاق الأموال على تجميلها . وكان نموذج الاستيطان الحضرى فى العراق وإيران تحت الحكم الساسانى هى البلدة الريفية ، وربما كانت لها قلعة ومركز للمدينة تحيط به الأسوار، يعرف باسم شهرستان يقوم بوظيفة السوق ومركز الصناعة ولكنه يخلو من أية مظاهر للعظمة الحضرية أو الحكم الذاتى.

كانت النسبة الغالبة من سكان الإمبراطورية البيزنطية يدينون بالمسيحية ، على حين كانت ديانة الامبراطورية الساسانية هي الزرادشتية^(٢). ويؤمن الزرادشتيون بوجود قوتين عظميين تناضلان من أجل السيادة على العالم، إله خير يسمى أهرمزد وإله شرير اسمه أهريمن . وكانت العبادة متمركزة في معابد النار، لأن الاعتقاد كان سائداً بأن النار عنصر مقدس يجب أن تبقى نقية وغير ملوثة. وكان يتولى رعاية معابد النار فريق من الكهنة عرفوا باسم السحرة : وربما كان الرجال الحكماء الثلاثة الذين جاؤوا لزيارة المسيح في طفولته كانوا من الكهنة الزرادشتيين (المجوس) . وكان الكهنة السحرة (المجوس) يلقون المساندة من الملوك الساسانيين وكانت معابد النار تُمنح ضياعاً واسعة لكي تتفق منها على مستلزماتها . وعلى حين كانت الكنائس الرئيسية في المسيحية البيزنطية في المراكز السكانية وكانت يقصد بها أن تضم عدداً كبيراً من المتعبدين الذين كانوا يتجمعون معاً للاشتراك في العبادة، كانت أهم معابد النار فيما يبدو قد بنيت في أماكن ريفية نائية ، كما أن الغرف الصغيرة ذات القباب التي كانت فيها النار المقدسة لم تكن بالتأكيد مصممة لتسع أعداداً كبيرة من المتعبدين . والانطباع الذي تتركه ، أنها ديانة نخبة راسخة ، آمنة بثروتها وبنيتها الهريراركية ولكنها لا تتمتع سوى بقدر قليل من الجاذبية الشعبية . ولم يكن هناك رهبان زرادشتيون يمكن مقارنتهم بالنسك البطوليين في العالم المسيحي ، وفي حدود علمنا ، لم يكن هناك مبشرون زرادشتيون عظام كان يمكن لكلماتهم أن تحرك الناس نحو التدين العاطفي العميق . وكان هذا يصدق على العراق بوجه خاص، حيث كان هناك عدد كبير من السكان النصارى واليهود . ولم يكن بالعراق أى معبد نار رئيسي ويبدو أن الديانة الزرادشتية كانت مقصورة على الإداريين والجنود الفرس.

كانت المسيحية قد انتشرت انتشاراً واسعاً في الإمبراطورية الساسانية . فالعراق، أغنى أجزاء الامبراطورية وأكثرها سكاناً ، ربما كان أكثر سكانه مسيحيين ، على الرغم من أنه كان هناك عدد لا بأس به من اليهود أيضاً^(٣). وكان معظم المسيحيين من النساطرة ، أى الكنيسة السريانية الشرقية ، الذين كانت السلطات البيزنطية تعتبرهم من الهرطقة . وكان في هذا بعض الفائدة للكنائس تحت الحكم الساساني

لأنه كان يعنى أنها لم تكن موصومة بالعلاقات مع الإمبراطورية البيزنطية . وتبقى الحقيقة ، مع هذا ، أن قسماً كبيراً من سكان الإمبراطورية الفارسية لم يدخلوا فى ديانة الأرستقراطية الفارسية الحاكمة وأنه لم يكن ممكناً أن تكون هناك رابطة مشتركة فى مواجهة ما جاء به الإسلام.

كان معظم الدخل الذى قامت عليه فخامة الملكية الفارسية يأتى من الأراضى الزراعية الغنية فى العراق^(٤). فقد كان هناك أعضاء من الأسرة الملكية والعائلات الأرستقراطية الكبرى يمتلكون ضياعاً شاسعة منتجة يزرعها عدد كبير من الفلاحين الذين كانوا فى ظل ظروف تشبه حياة الأقنان^(٥). وكانت هناك هوة شاسعة اجتماعية واقتصادية بين الأرستقراطية والناس الذين كانوا يفلحون أراضيهم . ومن الناحية النظرية على الأقل ، كان التزاوج بين الطبقات ممنوعاً بشكل صارم . وكانت الطبقات العليا معفاة من ضريبة الرأس الكريهة ، التى كان التجار والفلاحون مجبرين على دفعها للشاه الساسانى . وكان أبناء الأرستقراطية يلبسون التيجان ، والأحزمة الذهبية وأربطة الأيدي والقبعات المخروطية الطويلة التى تعرف باسم «القلنسوة». وكان رستم ، القائد الفارسى الذى قاد الجيش ضد الغزاة العرب، ينحدر من هذه الخلفية، ويقال إن قلنسوته كانت تساوى مائة ألف درهم فضى. وتلى الطبقة الأرستقراطية الكبرى مجموعة كبيرة من الدهاقين . وكان هؤلاء من صغار ملاك الأراضى الذين قامت عليهم الإدارة الساسانية والنظام الضريبى.

كانت الأرستقراطية تتحدث اللغة الفارسية ولكن معظم السكان كانوا يتحدثون الآرامية . فقد كان الآراميون^(٦) هم الفلاحين والمزارعين الذين جعلوا الأرض على هذا القدر من الانتاجية. وربما كان بعض الآراميين يطمحون إلى الوصول إلى مكانة الدهاقين، بيد أن الدخول فى الأرستقراطية كان مستحيلاً . وعادة ما لم يكونوا يخدمون فى الجيش ، الذى كان فى معظمه مجنداً من الفرس ومن أناس مثل الأرمن الذين كان لهم تراث حربى قوى. أما الفلاحون الآراميون المحقرون فلم يكن من المحتمل أن يخاطروا بحياتهم للدفاع عن سادتهم.

وهناك وصف مثير للجيش الفارسي في بداية القرن السابع الميلادي في كتاب الاستراتيجية Strategikon الذي يُنسب إلى الإمبراطور البيزنطي موريس Maurice (٥٨٢-٦٠٢) وهو يبدأ بالتأكيد على أن الفرس أذلاء يطيعون حكامهم بدافع الخوف . وهي فكرة نجدها أيضا في المصادر العربية. كما أنهم وطنيون يتحملون المشاق العظيمة في سبيل أرض آبائهم . وفي الحرب يفضلون الأسلوب المنظم على الشجاعة المندفعة. ويفضلون أن يعسكروا داخل التحصينات و«عندما يقترب وقت المعركة يحيطون أنفسهم بخندق وسياج من مواد حادة». وفي مواجهة الرماح يحبون اختيار أرض منكسرة ويستخدمون النشاب لكسر هجوم العدو. ويحبون تأجيل المعركة ، لاسيما إذا عرفوا أن خصومهم جاهزون للقتال. ويزعجهم هجوم تشكيلات المشاة جيدة التنظيم وهم أنفسهم لا يستخدمون الرماح والدروع . ويكون الهجوم فعلاً ضدهم لأنهم «مدربون على القتال السريع ولا يعرفون كيف يستديرون فجأة لمطاردة من يهاجمونهم مثلما يفعل الإسكيثيون البدو». وهم مكشوفون أيضا أمام الهجوم على أجنحة جيشهم وعلى المؤخرة والهجمات الليلية الفجائية عليهم مؤثرة «لأنهم يقيمون خيامهم بلا تمييز ودونما نظام داخل تحصيناتهم»^(٧). والوصف مثير لأنه يتناسب تماماً مع روايات المعارك في المصادر العربية ، ولاسيما التأكيد على التحصينات والحرب الدفاعية وتوخى الأمان بشكل عام . هذه الأساليب المتحفظة جعلت الفرس في وضع أدنى أمام العرب الأكثر حركة ومغامرة .

كذلك كانت الحرب العظمى بين البيزنطيين والفرس التي دمرت الإمبراطورية البيزنطية بهذا الشكل في العقود الثلاثة الأولى من القرن السابع الميلادي كارثة أيضا على الساسانيين^(٨). ففي البداية كادت الجيوش الفارسية أن تحقق النصر الكامل. وفي سنة ٦١٥م كان الجيش الفارسي قد وصل إلى البسفور قبالة القسطنطينية ، وفي سنة ٦١٩م دخلت القوات الفارسية وأكملت فتح مصر. ثم بدأ المد ينحسر في مارس سنة ٦٢٤م عندما أبحر الإمبراطور هرقل إلى البحر الأسود وبدأ غزو أرمينيا وأذربيجان . وعندئذ تم الالتفاف حول الفرس وأجبروا على الانسحاب بجيشهم من الأناضول لمواجهة الإمبراطور، الذي كان يهاجم آنذاك من الشمال. وفي سنة ٦٢٧م زحف عبر شمال

غرب إيران، قبل أن ينزل إلى سهول شمال العراق ويهزم الجيش الفارسي في نينوى (١٢ ديسمبر ٦٢٧م) . وكانت أعظم كارثة عسكرية عانت منها الإمبراطورية الساسانية على الإطلاق. وكان كسرى قد تراجع إلى العاصمة (المدائن) طيسفون تاركاً قصره في دستجرد لكي ينهبها الرومان . وهناك بدأ يبحث عن كبش فداء يلومه على الانقلاب الهائل في حظوظه . ويبدو أنه كان قد قرر إعدام أهم قادته العسكريين «شهر براز» ، ولكن قبل أن يتمكن من التصرف حدث انقلاب . وتم اغتيال كسرى في بواكير سنة ٦٢٨م، واعتلى العرش ابنه ، الذي كان وافق على اغتيال أبيه، العرش تحت لقب قباز الثاني .

وفى الحال بدأ قباز التفاوض على الصلح مع هرقل على أن يتم إطلاق سراح كل الأسرى وتعود الحدود إلى ما كانت عليه قبل الحرب. وربما كان يمكن أن تسير الأمور على ما يرام لو لم يمت الملك الجديد في أثناء السنة نفسها ، بسبب الوفاء على ما يرجح. وقد خلفه ابنه القاصر أردشير الثالث، ولكن القائد شهربراز ، رفض قبول هذا واستولى على العرش في يونيو سنة ٦٢٩م وكانت هذه المرة الأولى في مدى أربعة قرون التي يحاول فيها رجل لم يكن من أبناء الأسرة الساسانية الجلوس على العرش ، وكانت هناك مقاومة كبيرة. وبعد شهرين بالضبط ، تم اغتياله هو أيضاً ، ولأن كسرى لم يكن قد خلف أى أبناء فإن العرش كان من نصيب ابنته ، بوران، التي كان من الواضح أنها حاكم كفء ولكنها ماتت لأسباب طبيعية ، بعد سنة واحدة . ثم تلى ذلك تتابع مُحير على العرش لحكام من ذوى العمر القصير ، حتى اعتلى العرش في نهاية الأمر يزيدجرد الثالث ، حفيد كسرى العظيم، في سنة ٦٣٢م.

وتفاصيل هذه المكائد ليست مهمة بحد ذاتها. ولكن تأثيرها العام كان حاسماً على أية حال. فقد تم تخريب الإمبراطورية الساسانية على يد جيش غازي كما تم تدمير أية فكرة عن أنها لا تُقهر. ويوحى الدليل الأثرى بأن أماكن الاستقرار في الجزء الأغنى من العراق باتت مهجورة من جراء الحرب^(٨). وفضلاً عن ذلك فإن بيت ساسان ، الذي كان الدعامة الأساسية وسبب الوجود Raison d'être للدولة ، قد تمزق بسبب التنازع والاغتيال. ومن الراجح أن يزيدجرد، لو كانت أمامه فسحة من الوقت ، لكان قد

أعاد السيطرة والهيبة الملكية(*)، ولكن سنة ارتقائه العرش كانت سنة وفاة النبي محمد: وكانت القبائل تنتهز فرصة الفوضى لكى تخترق الأراضى المستقرة فى العراق، وكان خالد بن الوليد، القائد المسلم، فى طريقه إلى هناك. وفى هذه الظروف ، ليس هناك ما يدعو للدهشة فى أن الفرس هزموا أمام العرب ؛ ولكن المدهش أنهم قاتلوا بمثل هذه العزيمة.

وفى كثير من الأحيان تكون الحدود بين الأراضى الزراعية والصحراء ودقيقة : فأنت تستطيع بالفعل أن تقف بإحدى قدميك على أحد جانبي الحدود وبالقدم الأخرى على الجانب الآخر من الحدود البيئية . بيد أن الحدود لم تكن حاجزاً يحول دون الحركة والتواصل الإنسانى. وكانت للقبائل العربية التى تجوب الصحراء على امتداد الضفة الغربية لنهر الفرات تراث طويل من التفاعل مع سكان أرض السواد المستقرين الذين كان معظمهم من الناطقين بالآرامية^(١٠). هذه العلاقات ربما كانت سلمية - أى تبادل اللحم والجلود التى كان البدو ينتجونها مقابل الغلال والنبذ والمنسوجات الفاخرة من الأراضى المستقرة . كما كان يمكن أن تكون علاقات عنيفة، عندما يقوم البدو بطلب الإتاوات وفرضها ، ويستغلون حركيتهم ومهاراتهم العسكرية لإرهاب القرويين. كذلك كان بعض البدو يقومون بالخدمة العسكرية للحكومة الساسانية ، أو ببساطة أكثر ، يتقبلون المنح من السلطات حتى لا يستخدموا قوتهم العسكرية ضد الناس المستقرين .

وكان بنو شيبان واحدة من هذه القبائل ، ويبدو أنهم كان متمركزين فى الأراضى الصحراوية شرق بلدة الحيرة العربية القديمة . وكان بعض شيوخ القبيلة يمتلكون القصور فى المدينة. ومثل الكثير من القبائل كان بنو شيبان بعيدين عن الاتحاد

(*) التاريخ ، باعتباره علماً ، لا يتعامل مع «لو» . فالاحتمالات تدخل فيما يمكن حدوثه فى المستقبل ولا يمكن أن نعمل عليها فيما حدث بالفعل . ومهمة المؤرخ أن يتعامل مع ما حدث بالفعل من منطلق تفسير «لماذا» حدث ما حدث . فإذا كان هدف الكتاب ، حسب عنوانه، محاولة فهم تأثير الفتح الإسلامية على حياتنا الآن، فإن هذا لايتأتى من خلال الافتراض بآثر رجعى. (المترجم)

وتنافست الأنساب المختلفة من أجل زعامتهم . وعندما توفي النبي، واجه الزعماء القدامى التحدي من جانب زعيم ناشئ هو المثنى بن حارثة ، الذي كان من أحد البطون الصغيرة في القبيلة. وكان المثنى يحاول أن يبنى سمعته بقيادة من يتبعه للإغارة على الأراضي المستقرة ؛ ومن خلال تأسيس نفسه جامعاً ناجحاً للأسلاب والغنائم ، تمكن من اجتذاب المؤيدين الذين قبلوه زعيماً قبلياً كبيراً . وعلى مدى بعض السنوات قبل وصول الجيش المسلم الأول في سنة ٦٣٢م كان يشن غاراته على أراضي الحدود، ولم يستقر أو يقوم بالفتح ولكنه كان يؤكد حق البدو في الحصول على الإتاوة .

وربما لم يكن المثنى رجلاً ذا قناعة دينية عميقة، وربما لم تكن لديه مثل هذه القناعة على الإطلاق ، ولكن الظروف جعلت منه واحداً من أوائل القادة المسلمين في العراق. وكان البطل السائد من بطون بني شيبان قد اتبعوا المتنبئة سجاح وقاوموا الجيش الإسلامي في حروب الردة. وتمكن المثنى من اغتنام فرصته . فعندما اقتربت الجيوش الإسلامية تحت قيادة خالد بن الوليد من العراق، انضم إليهم مع أتباعه ، على حين عارضهم شيوخ بني شيبان القدامى وتم تهميشهم واستبعادهم. وكان هناك أعضاء من القبيلة نفسها من أوائل مؤيدي المسلمين في فتح العراق ومن أكثر أعدائهم ضراوة في الوقت نفسه. وقد تفاعلت السياسات القبلية مع الدافع الديني بعدة طرق مركبة ومتنوعة وغالباً ما انتهز القادة المسلمون المنافسات المحلية لاجتذاب مؤيدين جدد لقضيتهم.

وقد تم دفع خالد بن الوليد ، الذي كان أرسقراطياً مكياً وقائداً عسكرياً لا يبارى، إلى أراضي الحدود في العراق استمراراً طبيعياً لعمله في إخماد حركات الردة بشمال شرق شبه الجزيرة العربية. ومنذ وقت وفاة النبي ، كان لابد أن يخضع جميع البدو العرب للحكم الإسلامي ولم تكن قبائل منطقة الفرات استثناء في ذلك.

ومن المحتمل أن يكون خالد قد وصل إلى حدود العراق في ربيع سنة ٦٣٢م أو أوائل الصيف^(١١). وكانت القوة الإسلامية التي جاء بها صغيرة تماماً ، وربما حوالي ألف رجل^(١٢)، ولكنهم كانوا مجموعة جيدة التنظيم تحت قيادة حسنة . ويبدو أنه

قد تجول على امتداد الحدود، ولاشك في أنه قمع أية مقاومة واجهها بين البدو وهزم الحاميات الفارسية في حصون الحدود^(١٣). ثم وصل مدينة الحيرة القديمة . وكانت الحيرة مدينة صغيرة وقدّر أحد المصادر العربية اللاحقة عدد الذكور من سكانها بستة آلاف^(١٤)، أى حوالى ثلاثين ألفا إجمالاً . ولم تكن مدينة مدمجة وليست هناك أية إشارة إلى أنها كانت مدينة مسورة ؛ وإنما كانت مستوطنة ممتدة ، حيث كان الشيوخ العرب يعيشون فى قصور محصنة متناثرة بين أشجار النخيل.

وكشفت الحفريات عن واحد من هذه القصور سنة ١٩٣١م على يد بعثة من أوكسفورد^(١٥). وكان المبنى محاطاً بسور من الآجر المحروق وكان من طابقين ، والطابق الأدنى به أقبية بلا نوافذ . وفى الداخل، الذى كان مشيداً من الطين، كان هناك فناء تحيط به الحجرات. وكشف الأثريون عن عدد من اللوحات الزخرفية عليها نماذج، إما تجريدية أو نباتية ، توحى بأن السكان عاشوا عيشة طيبة على نحو ما . وكان معظم سكان المدينة من العرب، والكثيرون منهم يرتبطون بروابط عائلية مع البدو فى الصحراء المجاورة . وكان كثير من هؤلاء العرب أيضاً من المسيحيين وكانت هناك أديرة وكنائس شهيرة فيما بين البيوت. وكانت المدينة كرسى الأسقفية النسطورية. وقد اكتشف الأثريون بقايا كنيسةتين مبنيتين على طراز البازيليكا من الآجر، لأنه، كما هو الحال فى معظم أنحاء بلاد النهرين، لم تكن هناك حجارة جيدة للبناء. وكانت الأجزاء الداخلية مزينة وبها ملصقات دينية من الجص ، لم يبق منها سوى شذرات صغيرة.

وكان لابد من قدر قليل من القتال لإقناع السكان بالاستسلام ؛ وكان أعيان العرب يحصنون أنفسهم فى قصورهم وكانوا يحدقون من فوق شرفاتهم على حين كانت قوات المسلمين تجوب المساحات الخالية بينها^(١٦). ثم بدأت المفاوضات . وكان أعيان العرب مستعدين لعقد الصلح فى مقابل الجزية ووعد بعدم التعرض للبيع (الكنائس) والقصور^(١٧). وكانت الجزية التى دُفعت هى أول جزية تُرسل من العراق إلى المدينة ؛ وكانت تلك مجرد البداية لشلال من الثروة التى انسابت من أرض السواد إلى عواصم الخلافة ، المدينة، ودمشق ثم بغداد فيما بعد .

ولم يسترح خالد بفتح الحيرة ولكنه واصل مسيره شمالاً إلى الأنبار، وهي مدينة عربية أخرى على حواف الصحراء ، ثم غرباً إلى الواحة المدينة عين تمر . وفي كل من هذه المدن واجه مقاومة من القوات الفارسية ومن جانب العرب المحليين أيضاً، الذين كان كثير منهم، مثل أهل الحيرة، مسيحيين .

ويقال إن كثيراً من الأسرى تم أسرهم في هذه الفارات الأولى . وكالعادة تم الاحتفاظ بهم عبيداً لبعض الوقت ، وغالباً ما كان يتم إرغامهم على القيام بالأعمال اليدوية الشاقة ؛ ولدينا معلومات عن رجل تم إجباره على العمل حفاراً للقبور . وتم تحرير الكثير منهم فيما بعد وصاروا موالى للقبائل العربية ودخلوا في زمرة المسلمين. ومن بين أولئك الذين يقال إنهم أسروا في ذلك الوقت كان نصير ، والذي قُبِضَ لابنه موسى بن نصير أن يقود الفتح الإسلامي لإسبانيا في سنة ٧١٢^(١٨). وكانت هذه هي الطريقة التي كسب بها المسلمون الكثير من الناس الذين فتحوا بلادهم وضموهم إلى قواتهم العسكرية للقيام بالمزيد من الفتوح.

وحتى ذلك الوقت كانت هجمات خالد بن الوليد على العراق أكثر قليلاً من حروب الردة. وكان هدفه أن يضمن ولاء القبائل العربية للحكومة المسلمة في المدينة . وقد أكدت هزائم قوات الحدود الفارسية والجزية التي تم الحصول عليها جدارته قائدًا عسكرياً . ومع هذا ، فإنه لم يكن قد توغل بعيداً في الأراضي المستقلة ، كما لم يكن قد واجه القوة الكاملة للجيش الفارسي. ولم يكن ليفعل هذا أبداً لأن الأوامر التي وصلتته من الخليفة أبوبكر الصديق في المدينة كانت تأمره أن يقود قوة عبر الصحراء للمساعدة في الفتح الإسلامي لبلاد الشام، حيث كانت المقاومة قوية على غير ما هو متوقع ؛ وفي هذه المرحلة، كانت الأولوية ما تزال لبلاد الشام على العراق لدى القيادة الإسلامية . ويبدو أنه أطاع الأوامر في الحال.

وقد أدى رحيل خالد بن الوليد إلى ترك القوات الإسلامية الباقية على امتداد الحدود العراقية بلا قائد . ولوهلة يبدو المثني وقد تولى القيادة ، ولكن عندما صار عمر بن الخطاب خليفة قرر أن يرسل جيشاً آخر إلى مناطق الحدود العراقية لتأكيد

استمرار ولاء القبائل العربية هناك . ولم تكن تلك قوة كبيرة ، إذ كان عددها على الأكثر خمسة آلاف وربما أقل من ذلك كثيراً . ويبدو أن التجنيد كان صعباً ، ولدينا معلومات عن أن التجنيد كان صعباً ولدينا معلومات بأن الرجال لم يحبوا الذهاب إلى هناك بسبب سلطة الفرس ، وقوتهم وعظمتهم ومجدهم وانتصاراتهم على الأمم الأخرى^(١٩) . وكان كثير منهم مجندين من الأنصار في المدينة ، ولم يشتهروا بمهاراتهم العسكرية ، وكان يقودهم رجل اسمه عبيد ، من قبيلة ثقيف بالطائف ، المدينة الصغيرة على التلال القريبة من مكة . وربما يكون قد حدث أواخر سنة ٦٣٤ م ، أن واجه أبو عبيد ، الذي كان قد تقابل مع المثني ورجاله ، قوة فارسية واشتبك معها في معركة صارت تعرف باسم موقعة الجسر^(٢٠) . وكان يتولى قيادة القوات الفارسية رستم ، الذي كان قد تم تعيينه حديثاً قائداً عاماً . وقيل إنهم كانوا مسلحين بشكل جيد ، وخيولهم مكسوة بالزرد (التجافيف) ، والفرسان يحملون الرايات الدالة عليهم (الشُّعر) ، ومعهم عدد من الفيلة^(٢١) . وجلبوا معهم راية عظيمة من جلد النمر كانت للملك الفرس طولها أربعين متراً وعرضها ستة أمتار^(٢٢) . وكانت بين الجيشين قناة للرى عليها جسر قديم اعتاد أهل الحيرة القريبة أن يعبروه للوصول إلى حقولهم . وعلى الرغم من النصيحة ، صمم أبو عبيد الذي تصوره المصادر عنيداً يتملكه الخوف من الاتهام بالجبن ، على العبور للقاء العدو . ويبدو أن الفيلة أخافت خيول المسلمين ورماة السهام الفرس ألحقوا ضرراً بليغاً بصقوف المسلمين . وكما هو معتاد في حروب الفتوح ، نزل المسلمون عن خيولهم وبدأوا القتال المتلاحم بالسيوف ، ويقال إن أبا عبيد نفسه حاول أن يهاجم أحد الأفيال ، إما بطعنه بالرمح في بطنه أو قطع خرطومها ، ولكن الفيل ردَّ بأن داسه بأقدامه وسحقه حتى مات . وكان موت قائد المسلمين قد أدى إلى إشاعة الاضطراب بينهم . وحدث في هذه اللحظة أن قرر واحد منهم أن يقطع الجسر حتى يوقف المسلمين عن الفرار ويجعلهم يصمون في أماكنهم ، أو هكذا قال^(٢٣) . ونتيجة لهذا هلك كثير من المسلمين غرقاً وهم يحاولون السباحة عبر القناة طلباً للسلامة . ولم يبق سوى عدد قليل من الناجين أعاد المثني تجميعهم وتقهقروا إلى الصحراء .

كانت وقعة الجسر أسوأ هزيمة تكبدها المسلمون في حروب الفتح الأولى. وكان يمكن أن تكون علامة على نهاية حملتهم على العراق، الذي كان سيبقى إلى حد كبير أرضاً مسيحية يسكنها الناطقون بالأرامية تحت الحكم الفارسي. وكان هذا لم يحدث يرجع إلى سببين - الفوضى بين صفوف الفرس، وتصميم الخليفة الجديد ، عمر بن الخطاب ، على الثأر لهذه الهزيمة.

ففي أعقاب الهزيمة مباشرة ، كان الناجون من الجنود المسلمين، تحت قيادة المثنى، الذي جرح جرحاً بليغاً في معركة الجسر ومات بعد وقت قصير ، قد قنعوا بما كان العرب يفعلونه غالباً من قبل، أى الإغارة على امتداد حافة الصحراء عندما تكون السلطة الفارسية ضعيفة بحيث تعجز عن منعهم . وكان رد عمر بن الخطاب المباشر أن استدعى التعزيزات . وعلى أية حال ، كانت القوة البشرية قد بدأت تصير مشكلة . إذ كانت قبائل الحجاز التى شكلت قلب القوة الإسلامية الباكرة قد توزعت حينذاك على نطاق واسع، معظمها فى الشام، كما أن الهزيمة كانت قد استنزفت المزيد من صفوفهم. ولكن عمر بن الخطاب لم يكن يريد الاعتماد على رجال من تلك القبائل التى كانت منذ سنة أو إثنين فقط، قد تحدث الزعامة الإسلامية فى حروب الردة . ولهذا اتجه بدلاً من ذلك إلى رجال القبائل الذين كانوا محايدين بدرجة أو أخرى فى تلك الحروب التى كانت قد انتهت لتوها. فإلى الجنوب من الحجاز ، تجاه حدود اليمن، تقع منطقة جبلية تسمى السراة . وجاءت غالبية القوات الجديدة من قرى ومضارب الخيام فى هذه المنطقة يقودها زعيم قبلى اسمه جرير بن عبدالله البجلي . وكانت لجرير ميزات إسلامية طيبة، إذ كان قد اعتنق الإسلام قبل سنوات قليلة من وفاة النبى ومنذ ذلك الحين فصاعداً صار واحداً من الصحابة . ومن ناحية أخرى ، كان زعيماً قبلياً ، فخوراً بنسبه القديم ومكانته الاجتماعية العالية. ولم يكن يرى سبباً يجعل قدوم الإسلام يقوض السلطة والهيبة لرجل فى وضعه .

ومنذ البداية كانت العلاقة بينه وبين المثنى صعبة ، أى منافسة انعكست فى المصادر التاريخية حيث حاول مؤيدو كل منهما المبالغة فى إنجازاتهم بطولهم^(٢٤). وكانت هناك أخطار جديدة تلوح فى الأفق، فعلى مدى فترة من الزمان كانت القوات

مسلمة مقيدة فى حدود الإغارات المتقطعة ، إذ إن الملك الفارسى الشاب يزددجرد الثالث، كان قد صار قوياً بما يكفى لتأكيد سلطته وتعبئة قواته للتخلص من أولئك البدو المزعجين إلى الأبد^(٢٥). ويقول الأرمنى سيببوس، أقرب الكتّاب إلى الأحداث (فقد كان سيببوس يكتب فى خمسينيات القرن السابع الميلادى، أى أكثر قليلاً من عشر سنوات بعدها) إن عدد الجيش الفارسى وصل إلى حوالى ثمانين ألف رجل ، وربما كانت لديه معلومات جيدة من الداخل لأن عدداً من الأمراء الأرمن جاءوا بفرقهم العسكرية التى تراوحت أعدادها ما بين ألف وثلاثة آلاف رجل للانضمام إلى الجيش الامبراطورى.

ورداً على ذلك بدأ عمر بن الخطاب يعد جيشاً آخر. ولكى يحل مشكلة القيادة، اختار رجلاً كان من النخبة الإسلامية الباكرة وهو سعد بن أبى وقاص . وكان من قريش بمكة ولكنه كان أيضاً من أوائل الذين دخلوا الإسلام ، وكان واحداً من الصحابة المبجلين الذين قاتلوا إلى جانب النبى فى انتصاره الأول فى غزوة بدر سنة ٦٢٤م . وقد اشتهر فى الموروث الإسلامى بأنه شخص حاد الطبع إلى حد ما . فعندما كان أعداء النبى فى مكة يسيئون إليه قبل الهجرة، ضرب سعد بن أبى وقاص واحداً منهم بعظمة فك جمل وأسأل دمه . وفيما بعد حظى بسمعة طيبة باعتباره أول من أطلق سهماً فى سبيل الإسلام^(٢٦). ولم يكن بوسع المثنى أو جرير الذى وصل منذ فترة قصيرة سوى الامتثال لقيادته . وعلى أية حال ، فإن الجيش الذى جاء به لم يكن كبيراً . فقد جند قسماً كبيراً منه من الحجاز واليمن ومناطق أخرى من شبه الجزيرة العربية ، وربما كان قوامه أربعة آلاف رجل عندما غادر المدينة فى خريف سنة ٦٢٧م جاءوا من عشر جماعات قبلية مختلفة^(٢٧). وأمر عمر بن الخطاب أيضاً بانضمام فرق من بلاد الشام إلى هذه الفرق المقاتلة فى العراق ، بما فيها، على ما يبدو، بعض أولئك الذين كانوا قد غادروا العراق من قبل متوجهين إلى الشام مع خالد بن الوليد. وفى وقت المجابهة بين المسلمين والجيش الفارسى الرئيسى ، ربما كانت قوات سعد بن أبى وقاص تتراوح بين ستة آلاف واثنى عشر ألف رجل^(٢٨). وهو أصغر كثيراً من عدد الفرس : وحسبما يلاحظ أهم متخصص حديث فى الفتوح ، «ومع أهمية معركة القادسية فإنها تبدو كأنها كانت صداماً بين جيشين صغيرين إلى حد ما»^(٢٩).

وتقع بلدة القادسية الصغيرة بين بساتين النخيل على حافة الأراضى المستقرة فى العراق. وفى السنوات اللاحقة كان الحجاج يتجمعون فى هذا المكان قبل الانطلاق على الطريق الصحراوى الطويل إلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة، وكانت نقطة طبيعية لوصول جيش سعد بن أبى وقاص وتجمعه . وفى هذه البقعة تحدد مصير العراق.

وقد شكلت قصة معركة القادسية الأساس الذى قامت عليه أساطير عظيمة^(٢٠). ذلك أن ذكرى انتصار جيش عربى صغير فقير سيىء التجهيز على قوة الجيش الإمبراطورى الفارسى كانت إلهاماً للعرب على امتداد العصور. وفى بغداد، أثناء حكم صدام حسين ، كان الحى الواقع على امتداد نهر دجلة والذى تسكنه معظم الوزارات الحكومية يسمى حى القادسية . وعندما أصدر صدام حسين صكوكاً سنة ١٩٦٨م لتمويل الحرب ضد إيران ، أسماها صكوك القادسية . وعلى نحو أقل تناسباً ، كانت وسائل الإعلام الرسمية غالباً ما تطلق على حرب الخليج الثانية سنة ٢٠٠٣م «قادسية صدام» ، وفى جميع الأحوال كان ثمة جهد واع يُبذل للنقر داخل الذاكرة الشعبية عن زمن كانت فيه الجيوش العربية منتصرة على الخصوم بأعدادهم الهائلة .

وعلى الرغم من الأهمية الهائلة للمعركة ومكانتها المبجلة فإن ما نعرفه عن المجرى الفعلى للصراع قليل بشكل لافت للنظر، ومن الواضح أن كثيراً من التفاصيل تمت صياغتها. بل إن العام الذى وقعت فيه المعركة غير مؤكد بالمرّة . والمصادر العربية تتناقض بشكل نمطى حول هذه التواريخ ، فهى تقترح تواريخ ما بين سنة ٦٣٥ وسنة ٦٣٨م^(٢١)، ومعظم المؤرخين يتفقون على سنة ٦٣٦م . ومن ناحية أخرى، فإن البحث الحديث فى المصادر الأرمنية يقترح أن ربما تكون هذه المعركة الحاسمة قد جرت فى عيد الميلاد الأرثوذكس (٦يناير) سنة ٦٣٨م^(٢٢). ويغطى وصف المعركة حوالى مائة وستين صفحة فى تاريخ الطبرى، وعلى الرغم من أنه حافل بالأحداث والتفاصيل ، فإنه لا يقدم صورة كلية واضحة. وتوضح المصادر الأرمنية أن الفرس عانوا من هزيمة كارثية، ولكن الأمراء الأرمن، بطبيعة الحال، حاربوا بشجاعة عظيمة، ولقى اثنان من أهمهم حتفهما ، مع الكثير من أعيان الفرس.

وتبدأ الروايات العربية بتجنيد الجيش وإرساله من المدينة، مع الاهتمام بالأسماء والأنساب القبلية لأولئك الذين شاركوا. وبعد وصول الجيش إلى الحدود العراقية هناك روايات عن سفارات متبادلة بين العرب وكسرى الفرس يزججرد الثالث. وتخبرنا المصادر عن مجادلات ومشاورات في مجالس حرب فيما بين المسلمين ، وتم التوضيح مراراً وتكراراً أنهم لا يجب أن يتوغلوا في أعماق الأراضي الزراعية وقنوات أرض السواد وإنما ينبغي أن يحاربوا على أطراف الصحراء ، حتى إذا ما ساءت الأمور أمكنهم الهرب في البرية، وبذلك أكدوا على حرج موقف المسلمين .

ونسمع أيضاً عن المجادلات فيما بين الفرس. وعندما وصلت القوات الفارسية على حافة الصحراء وبدأت في الإغارة على المناطق المستقرة، أرسل ملاك الأراضي المحليون رسائل إلى الملك الجديد الشاب يزججرد الثالث في عاصمته طيسفون (المدائن) يطلبون النجدة والحماية. وأصدر الملك أوامره إلى رستم بقيادة حملة ضدهم . وكان رستم واحداً من أهم مؤيدي يزججرد في الصراع على العرش. وكان قائداً محنكاً وكان الحاكم الفعلى على العراق^(٣٣). وفي بعض الأحيان تصفه المصادر العربية بأنه أرمنى ، ولا شك في أن الجيش الذى كان تحت قيادته قد ضم بعض الفرق الأرمنية تحت قيادة أمرائها. وثمة مصادر أخرى تقول إنه جاء من همذان أو الرى، ويبدو كما لو أن سلطته كانت قاعدتها ميديا وسط غرب إيران، على حين كان يزججرد الثالث يلقي المساندة أولاً. من جانب أعيان فارس، التى تقع إلى الجنوب. وربما كانت المنافسات الإقليمية قد قوضت الجهود الحربى الفارسي . وترسم المصادر العربية صورة لرستم باعتباره رجلاً حكيماً ، ذا خبرة وذا ميول تشاؤمية بشكل عام^(٣٤). وفي الملحمة الفارسية العظمى، الشاهنامة للفريوسى، التى أتم نظمها حوالى سنة ١٠٠٠م يرد وصفه بأنه «رجل داهية، ذكى، ومحارب قدير . وكان عالم فلك واسع المعرفة اهتم بنصائح الكهنة»، كما أن الفريوسى يقدم لنا نص خطاب طويل صيغ شعراً يقال إن رستم كتبه إلى أخيه قبل المعركة، يتنبأ بالهزيمة ونهاية السلالة الساسانية^(٣٥).

هذا البيت سوف يخسر كل دلائل السيادة

والمجد الملكى والنصر

فالشمس تنظر إلى أسفل من عليائها

وترى يوم هزيمتنا يقترب

فأمامنا الحرب وصراع بلانهاية

بحيث أن قلبى الموحوع يائس من الحياة

إننى أرى ما سيكون ، واختار الطريق

طريق الصمت طالما لم يعد هناك ما أقول

ولكنى سأبكى من أجل الفرس ، ومن أجل

بيت ساسان الذى ستدمره هذه الحرب

وآسفاه على تاجهم العظيم وعرشهم ،

لأن العظمة الملكية والفخامة كتب عليها السقوط الآن .

وينهى قصيدته الطويلة برثاء نفسه على موته الوشيك وتحذير ونصيحة بالولاء

للملكية الفارسية المحكومة عليها بالموت.

إن قبرى فى ميدان معركة القادسية

وسيكون تاجى دمى ، وسيكون كفنى درعى

هذه إرادة السماء ؛ ولعل موتى لا يسبب

لقلبك الحزن والأسى أكثر مما فى أحكام السماء

راقب الملك دائما ، ولتكن على استعداد

أن تضحى بحياتك من أجل أن يحيا

ووفقاً للمصادر العربية ، فإنه حثُّ الملك الشاب يزجدر ألا يحارب العرب إلا إذا دعت الضرورة القصوى. وكان وحده من بين الفرس الذى اعترف بالقدرات العسكرية والالتزام الدينى لدى البدو الذين يزديهم الفرس وأدرك أن النصر سيكون حليفهم .

والروايات عن السفارات التى أرسلت إلى الفُرس والمجادلات التى نشبت من بين أكثر الأجزاء إثارة فى سرديات الفتح، ليس لأنها تمثل تسجيلاً دقيقاً لما حدث فعلاً ولكن بسبب النظرة الثاقبة التى تقدمها لنا عن مواقف المسلمين الأوائل من الفتح . وإحدى أكثر الروايات اكتمالاً^(٣٦) تبدأ بسعد بن أبى وقاص وهو يخبر مجموعة من مستشاريه أنه سوف يرسلهم فى سفارة إلى الفرس. ورد أحدهم أن هذا يظهر قدراً كبيراً جداً من الاحترام وأنه يجب إرسال رجل واحد، وهكذا تم إرسال المتحدث ، ربيع بن عامر التميمي وحده . ووضعت السلطات الفارسية تحت الحراسة وأخذوه لمقابلة رستم. وقبل إحضاره لمقابلة القائد، اتفق الفرس على أنهم يجب أن يرهبوا هذا البدو ويخيفوه . وانطلقوا فى بيان ثروة البلاط الفارسى ورقية . فقد تم عرض الأشياء الثمينة (الزبرج) ، وأخرجت الأرائك والسجاد . وكان رستم نفسه جالساً على عرش ذهبي ، وكان مزينا بالأنماط والوسائط مطرزة بخيوط الذهب . وتبرز المصادر التناقض بين هذا وحالة ربيع الذى جاء على فرس مشعث مُغبر^(٣٧). وكان سيفه لامعاً ولكنه كان فى غمد من القماش المشعث . وكان رمحه مربوطاً بأوتار الجمل، وكانت معه درع حمراء مصنوعة من جلد البقر «على وجهها أديم أحمر مثل الرغيف»^(*).

وبدلاً من تروييعه ، كان البدوى جريئاً غير هباب . وكان مظهره مستفزاً عن عمد . فقد كان كما تقول المصادر «العرب شُعة» ولم يكن يفعل شيئاً لتحسين صورته . وكانت عباءته غطاء راحلته وصنع فيه ثقباً، وكان يربطه إلى وسطه بحبال من القصب . وكان غطاء رأسه عبارة عن حبل من حزام سرج راحلته لفته مثل عصاة الرأس.

(*) الطبرى ، ج ٢ ، ص ٥٢٠ . (المترجم)

وفوق رأسه كانت توجد أربع خصلات من الشعر ، كانت تبرز مثل قرون الماعز. أما سلوكه فكان فى مثل خشونة مظهره ، وبدلاً من أن يترجل من فوق فرسه حسبما أمر ، قاد فرسه حتى وطأ السجاد ، وعندما نزل مزق وسادتين لاستخدامهما فى ربط حصانه . وعندما طلب منه أن يضع أسلحته ، رفض فى عناد، قائلاً إن الفرس قد دعوه وعليهم أن يقبلوه كما هو أو يذهب عائداً . وعندما أحضروه فى النهاية فى حضرة رستم كان سلوكه مدمراً فى كبريائه : فقد استخدم رمحه فى إحداث حفر وخدوش فى السجاد والوسائد بحيث لم يبق فيها ما لم يتضرر . وعندما سأله عن السبب فيما فعل ، أجاب «إننا لانستحب القعود على زينتك هذه»(*) .

ثم سأله رستم ما الذى جاء به إلى هناك وأجاب ربهى :

«... الله ابتعثنا ، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبداً ، حتى نفضى إلى موعود الله»(**) .

وعندما سأله رستم عن موعود الله، أجاب «الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقى»(***) ، فسأله رستم ما إذا كان رئيس المسلمين وأجاب ربهى بأن «المسلمين كالجسد بعضهم من بعض ، يجير أدناهم على أعلاهم»(****) .

ثم طلب رستم وقتاً للتشاور مع رفاقه وبعد تردد أجابهم ربهى بمهلة أيام ثلاثة، لأن هذا كان الوقت الذى سمع به النبى . وعندما ذهب هذا الزائر الفظ، وبقي رستم وحده مع النبلاء الفرس، أعرب عن إعجابه بما قاله ربهى. وخاف الفرس من أن يكون

(*) الطبرى، ج ٢ ، ص ٥٢٠ . (المترجم)

(**) الطبرى، ج ٢ ، ص ٥٢٠ . (المترجم)

(***) الطبرى، ج ٢ ، ص ٥٢٢ . (المترجم)

(****) نفسه، ج ٢ ، ص ٥٢٢ . (المترجم)

رستم يفكر فى التخلّى عن ديانتّه بناءً على نصيحة هذا الجلف. فأجاب بأنهم لا يجب أن ينظروا إلى ثيابه وإنما أنظر إلى الرأى والكلام والسيرة»(*) .

فتوجه الأعيان وتفحصوا أسلحة ربيعى وانتقدوا نوعيتها ، ولكنه أظهر لهم أنهم كانوا يقصدون العمل عندما أخرجوا سيفه من غمده «كأنه شعلة من نار»(*) . وعندما جاء أمر الرمى بالنشاب «... ثم رمى تُرساً ورموا حجفته (أى ترسه) ، فخرق ترسهم وسلمت حجفته » وعاد ربيعى إلى معسكر المسلمين ليمنح الفرس وقتاً يتدبرون أمرهم .

واستمر الفرس يتجادلون فيما بينهم حول الرد المناسب ، وطلب رستم عودة ربيعى فى اليوم التالى. وبدلاً منه أرسل المسلمون رجلاً آخر، لإظهار فكرة أنهم متساوون جميعاً ومتحنون ، وركب هو أيضاً على السجاد الثمين كما قدم لهم بجسارة الاختيارات الثلاثة «الإسلام وننصرف عنكم ، أو الجزاء ونمنعكم إذا احتجتم ، أو المنازعة»(*) كانت هذه الخيارات الثلاثة قد صارت العرض المعتاد فى المفاوضات بين المسلمين وخصومهم . واقترح رستم هدنة . ووافق العربى على هدنة أيام ثلاثة فقط «تبدأ من أمس»(*) .

وعلى الجانب الفارسى استمرت المجادلات وطلب رستم إرسال رجل ثالث . وكان هذا الرجل هو المغيرة بن شعبه ، وكان شخصاً أكثر أهمية من الاثنين السابقين ورجلاً قُدِّرَ له أن يلعب دوراً رئيسياً فى فتح العراق والاستقرار به . ومرة أخرى أراد الفرس ترويع زائرهم؛ وكانوا فى ثيابهم المطرزة بالذهب ويلبسون التيجان . وأمامهم كانت سجادة طولها قدر رمية قوس، ولم يكن ممكناً لأحد أن يقترب منهم دون أن يمشى فوقها . ومثلما يحتمل أن يكون الفرس قد خمنوا، فإن المغير لم يتأثر وأبدى احتقاره بالقفز على كرسى العرش إلى جوار رستم. وأزاحه الفرس بعنف ، ورد على ذلك بخطبة قصيرة عن المساواة ، وكان حديثه بواسطة مترجم ، عربى من الحيرة . وكانت حجته أن المسلمين يعاملون أحدهم الآخر باعتباره أنهم متساوون وقد راعه أنهم لا يفعلون

(*) الطبرى، ج ٣ ، ص ٥٢٠ . (المترجم)

ذلك، ليصل إلى نتيجة مؤداها «... علمت أن أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون ، وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ، ولا على هذه العقول»(*) وقد أدى هذا أيضاً إلى جدل بين الفرس: إذ قال «السفلة» إن المغيرة على صواب ولكن ملك الأراضى (الدهاقين) قالوا إنه كان يقول ما كان عبيدهم يقولونه دائماً ولعنوا أسلافهم لأنهم لم يأخذوا العرب مأخذ الجد.

والقى رستم مزحة محاولاً أن يلفظ الخلافات أمام المغيرة . ثم جرى نزاع أكثر رسمية. فقد ألقى كل من رستم والمغيرة خطبة قصيرة عن طريق المترجم^(٢٨) الذى كان يقف بينهما. وبدأ رستم بالتأكيد على مجد الفرس وهيبتهم. ولو أنهم هزموا مؤقتاً، فإن الله سيعيد إليهم مجدهم. واستمر فى حديثه قائلاً إن العرب عاشوا دائماً عيشة العوز والحاجة وعندما دهمتهم المجاعة والقحط كانوا يسعون للحصول على المساعدة على الحدود. وأنه كان يعرف أن ذلك ما كانوا يفعلونه آنذاك ، ولذلك فإنه سيعطى كلاً منهم حملاً من التمر وثوبين حتى يمكنهم الرحيل؛ وليست لديه الرغبة فى قتل أى منهم أو اتخاذهم أسرى.

ورفض المغيرة بصراحة هذا العرض المتفضل المتعالى . وقال إن كل ما فيه الفرس من نعيم يرجع إلى الله وأنهم لم يحمده بما يكفى. وموقف العرب آنذاك لم يكن بسبب الجوع أو العوز وإنما لأن الله قد أرسل إليهم نبياً . ومضى ليؤكد الوضع الدينى مثلما فعل الاثنان اللذان سبقاه. وعندما وصل إلى عبارة «... وإن احتجت أن نمنعك فكن لنا عبداً تؤدي الجزية عن يد صاغر ، وإلا فالسيف إن أبيت...»(**) فقد رستم أعصابه وأقسم بالشمس ألا يبرز فجر اليوم التالى قبل أن يكون قد قتلهم جميعاً . وهكذا، توقفت المفاوضات . وبعد أن رحل المغيرة ، أخبر رستم قومه من الفرس أن أحداً لا يمكن أن يصمد أمام قوم يمثل هذه الأمانة والذكاء والإخلاص للهدف.

(*) الطبرى، ج ٢ ، ص ٥٢٢ . (المترجم)

(**) الطبرى، ج ٢ ، ص ٥٢٢ . (المترجم)

وقد مال المؤرخون المحدثون إلى عدم الاعتداد بمثل هذه القطع الموضوعية في النصوص العربية ؛ وعلى أية حال ؛ فقد تم تدوينها بعد زمن طويل، كما أنها حافلة بالموضوعات المجازية والتقليدية ، ولا يمكن أن تكون بقصد رواية الحوادث والخطب الحقيقية . هذه الرواية وصلت عن طريق اثنين على الأقل من الإخباريين الأوائل قبل أن يجمعها سيف بن عمر^(٣٩) ، (ت بعد ٧٨٦) وثمة احتمالات أن يكون قد تم تأليفها في شكلها الحالي في غضون مائة سنة بعد الأحداث التي تروى أخبارها . وربما تكون قد زيدت عندما كانت قوات المسلمين ما تزال تمتد حدود العالم الإسلامي نى إسبانيا ووسط آسيا . وبالمعنى الحقيقي تكون هذه الرواية وثيقة أصلية عن عقلية الفتح، فإذا كان نريد فهم الوضع العقلي للفاتحين العرب الأوائل ، فيجب أن نلتفت إلى مثل هذه الوثائق.

والنقطة الأساسية التي يسعى النص لتوصيلها ، أن المسلمين كانت تلهمهم معرفة أن الله وتعاليم رسوله يؤازرهم . وإلى هنا فالأمر يمكن أن نتوقعه . أما ما هو أكثر إثارة للدهشة فهو الوعي والانتباه إلى التقسيمات الثقافية بينهم وبين الفرس . فالفرس يلبسون ثياباً غالية ويعيشون بين السجاد والرياش الفاخرة ، والعرب فقراء في أسمال بالية . والجزء الوحيد في عدة العرب الذي ليس قديماً ووضيعةً أنصال سيوفهم اللامعة . ويحتقر العرب ثروة خصومهم . وهناك أيضاً الإحساس القوي بأن العرب اعتقدوا أنهم كانوا يعيشون في مجتمع أكثر مساواة على النقيض من المجتمع الفارسي الطبقي التراتبي ، وأن هذا كان مصدراً مهماً للقوة بالنسبة لهم . وأخيراً، هناك موضوع اعتراف الفرس بالقوة والتفوق الأخلاقي لدى العرب . ففي هذه الحال يتشاجر رستم مع رجال بلالطه بينما يعترف بهذا ويبقون على جهلهم وازدراؤهم للعرب .

وبينما كان العرب ينتظرون المواجهة، يقال إنهم شنوا الغارات في أرض السواد ، وعادوا ومعهم الحيوانات التي استخدموها لطعامهم . وفي إحدى الحالات كان هناك عرس لبعض أبناء الطبقة العليا من الفرس، وكمنوا له، فقتلوا الرجال وسبوا النساء . وتم إظهار العرب أيضاً في صورة الخبراء المهرة في التجسس ، يتسللون في معسكر خصومهم، يقطعون حبال خيامهم ويسرقون مطاياهم لنشر الذعر بين أفراد العدو.

وهناك روايات عديدة عن المعركة النهائية فى القادسية ولكن التفاصيل مشوشة للغاية ومن المستحيل أن نحصل على صورة كلية. فهناك العديد من الحكايات العربية القصيرة غير المترابطة تحدثنا عن شجاعة أحد الرجال ، أو موت رجل آخر، ومن حين لآخر عن جبن رجل ثالث. وثمة موضوعات بعينها تتسم بالاتساق : حقيقة أن القتال استمر عدة أيام وليالي، وحقيقة أن الفرس استخدموا الفيلة فى المراحل الأولى من الصراع ولكنها لم تكن فعالة إلى درجة كبيرة . ويبدو كما لو أن أشد القتال ضراوة جرى على الأقدام ونزل الفرسان عن خيولهم للاشتراك فيه. وثمة رواية عربية قصيرة تركز على أهمية رماة السهام فى تحقيق نصرهم^(٤٠). وقد استدعى أحد الجنود فى الجيش الفارسى إلى ذاكرته ما حدث بقوله : «شاركت فى معركة القادسية عندما كنت لا أزال من الصابئة (وقد اعتنق الإسلام فيما بعد) . عندما أطلق العرب سهامهم تجاهنا بدأنا نصيح «دوك، دوك» التى تعنى المغزل . وقد استمرت هذه «المغازل» تمطرنا بالسهام حتى غلبنا . وكان الرامى منا يرمى سهماً من قوسه ولكنه لم يكن يفعل شيئاً سوى الاشتباك بثوب واحد من العرب على حين كان السهم من جانبهم يمزق عباءة من الزرد والدرع المزدوج الذى نضعه» وربما كانت القوة المتفوقة للرماة العرب عاملاً مهماً فى نجاح قوات المسلمين هناك .

ويتضح من المصادر الإسلامية وغير الإسلامية على السواء أن الفرس عانوا من هزيمة كارثية وأن الكثير من القادة الفرس، بما فيهم رستم نفسه، قتلوا ، وتجعله الشاهنامه يموت ميتة بطولية فى اشتباك منفرد مع سعد بن أبى وقاص^(٤١)، ولكن المصادر العربية لا تعرف شيئاً عن هذا ، وتلاحظ فى إيجاز أن «... فوجد بدنه مملوءاً ضرباً وطعنا فلم يُعلم من قاتله...»^(*). وبعد القادسية ، صار وسط العراق مفتوحاً أمام الفاتحين المسلمين .

(*) البلاذرى ، فتوح البلدان ، (مكتبة الهلال، بيروت ١٩٨٢م)، ص ٢٥٥ . (المترجم)

وفى أعقاب المعركة طاردت القوات الإسلامية الفرس الهاربين عبر القنوات وحدائق النخيل فى أرض السواد. وكان يمكن أن يؤدى عبور الممرات المائية إلى حدوث مشكلات ، ولكن بعض النصر فى القادسية ، قام ملاك الأرض الفرس المحليون بتصرف حكيم عندما قدموا المساعدة للمسلمين، مثل بيستام ، دهقان بورص ، الذى بنى جسراً عانما عبر القنوات وأرسل معلومات عن تحركات القوات الفارسية . وقد أدى تفكك القيادة الفارسية إلى ترك الكثير من السكان المحليين بلا بديل سوى وضع شروط الصلح مع العرب بقدر ما يمكنهم.

وقد اشتبكت قوات الطليعة فى جيش المسلمين مع بقايا القوات الفارسية فى بابل، وهناك، بالقرب من استحكامات عاصمة حمورابى ونبوخذ نصر التى طال هجرها «فهمزهم فى أسرع من لفت الرداء»^(٤٣). وقد تبعثر القادة الناجون من الفرس آنذاك لمحاولة تنسيق المقاومة فى الأقاليم. فذهب فيزوران إلى مدينة نهاوند الصغيرة فى جبال زاغروس «وبها كنوز كسرى» ، وبدأ يجمع جيشاً . أما الهرمزان فقد فرّ جنوباً إلى ولاية خوزستان الغنية حيث أخذ يجمع الضرائب لتمويل المقاومة . وفر آخرون على طول الطريق الرئيسى المؤدى إلى العاصمة طيسفون (المدائن)^(٤٤).

وعلى امتداد الطريق كانت هناك مناوشات واشتباكات فردية. ويصف سيف بن عمر أحد هذه الاشتباكات بين شهريار ، قائد قوات المؤخرة فى الجيش الفارسى ، وبدوى يسمى نائل وقد اقترب كل منهما على صهوة جواده:

«... ومع كل واحد منهم الرمح، وكلاهما وثيق الخلق، إلا أن الشهريار مثل الجمل، فلما رأى نائلاً ألقى الرمح ليعتنقه ، وانتضيا سيفيهما فاجتلدا، ثم اعتنقا فخرا عن دابتيهما ، فوقع على نائل كأنه بيت، فضغطة بفخذه ، وأخذ الخنجر وأراغ حلّ أضرار درعه ، فوقعت إبهامه فى فم نائل ، فحطم عظمهما، ورأى منه فتوراً، فتاوره فجلد به الأرض ، ثم قعد على صدره ، وأخذ خنجره ، فكشف درعه عن بطنه ، قطعته فى بطنه وجنبه حتى مات، فأخذ فرسه وسواريه وسلبه»^(٤٥).

(*) الطبرى، ج ٢ ، ص ٦٢٠ - ٦٢٢ . (المترجم)

بعد هذا الانتصار كافأ سعد بن أبى وقاص نائل بن جشعم الأعرجى بأن أعطاه معدات الفارسي المقتول «... عزمت عليك يا نائل بن جشعم لما لبست سواريه وقبائه ودرعه، ولتركبن برذونه...» (*). وكان السواران جزءاً مهماً من تجهيزات النبلاء الفرس^(٤٦) وحذر سعد بن أبى وقاص ألا يرتديهما سوى وهو ذاهب إلى المعركة . وهذه القصة تقدم تفاصيل غنية ومشهداً قتالياً جيداً ، وهى تكرر الموضوعين اللذين رأيناها فى الشاهنامة : تفوق التجهيزات العسكرية لدى الفرس ورفض العرب لأساليبهم المرفهة الناعمة .

لم يكن الفرس الذين يشبهون الجمال فى بنيتهم الجسدية يمثلون الأخطار الوحيدة عبر أرض السواد. وفى نقطة ما واجه المسلمون كتيبة من الجنود كانت الملكة بوران قد جندتهم وكانت قد أقسمت أن ملك فارس ل ينتهى طالما بقيت على قيد الحياة . وكان معهم أسد أليف، اسمه المُقَرط، كان من ممتلكات كسرى فارس. ويبدو أن الأسد خاض المعركة من أجلهم ولكن أحد الجنود العرب ذبحه بعد أن قفز من فوق حصانه وقتله . وبعد هذه الخسارة انهارت مقاومة الفرس^(٤٧). وقد مرّ المسلمون أيضاً بأعداد كبيرة من الفلاحين الفرس الذين يعيشون فى القرى القائمة على امتداد نهر دجلة . وكان كثير منهم قد استخدموا لحفر خنادق حماية للجيش الفارسى، ولكن يبدو أنهم كانوا غير مسلحين ولا تسمح حالتهم بالمقاومة. أما شیرزاد، الذى كان أحد الدهاقين الفرس الذين انحازوا إلى جانب المسلمين، فقد أقنع سعد بن أبى وقاص بالآ يؤذيههم لأنهم ليسوا سوى «علوج أهل فارس» ولن يكونوا مصدر أى خطر على الإطلاق ؛ ويُقال إن مائة ألف منهم سجلوا أسماءهم، حتى يمكن جمع الضرائب منهم، وأطلق سراحهم . وطالما كانوا يدفعون ضرائبهم ولا يقومون بأى عمل عدائى ، فلا يتعرض لهم المسلمون بسوء ومن المؤكد أنهم لم يبذلوا أى جهد لتحويلهم إلى الإسلام : فقد كانت الأرستقراطية الفارسية والجيش الفارسى هم العدو.

(*) (الطبرى، ج ٢، ص ٦٢٠ - ص ٦٢٢). (المترجم)

كان الهدف الاستراتيجى التالى العاصمة الساسانية طيسفون (المدائن) ، على مسافة مائة وستين كيلو متراً ، أى مسيرة ثلاثة أو أربعة أيام، عبر أرض السواد نحو الشمال الشرقى ، ومن هناك كان الملك يزدجرد الثالث قد حاول أن يوجّه المعركة.

كانت العاصمة الفارسية ، التى تعرف عموماً لدى المؤرخين الغربيين باسمها المتأغرق Ctesiphon ، طيسفون مجموعة ممتدة من المدن، وهى حقيقة تنعكس فى الاسم العربى «المدائن» . ويمتد الموقع فى غير نظام على نهر دجلة الذى يوفر المياه مانحة الحياة كما يجلب الفيضانات المميتة للمدائن ؛ وكان النهر فى بعض الأوقات يغير مجراه بشكل درامى وهو يشق طريقه عبر الأراضى المسطحة فى السواد، بحيث يحفر مركز المدينة ويعزل كل ضاحية عن الأخرى . وليست لدينا أية أوصاف تفصيلية عن المدينة فى ذلك الوقت كما أن الحفائر الأثرية كانت متفرقة . وأول استيطان كبير على ما يبدو كانت مدينة سلوقيا على الضفة الغربية لدجلة . ومنذ سنة ١٧٠ ق.م صارت طيسفون العاصمة الشتوية للموك البارثيين فى إيران. ويعد أن استولى الساسانيون على المدينة فى سنة ٢٢٤م ، ظلوا يستخدمونها عاصمة لهم ، على الرغم من أنه فى الواقع كان الملوك يقيمون غالباً فى ضياع ريفية على التلال. وفى سنة ٢٣٠ ميلادية تقريباً ، وضع أردشير الأول، المؤسس الفعلى للسلالة الساسانية ، أساس مدينة دائرية محصنة على الضفة الغربية للنهر، ولكن فى منتصف القرن الخامس الميلادى غير النهر مجراه، بحيث قطع المدينة المدوّرة إلى اثنتين. وفى وقت وصول المسلمين، كان الجزء الرئيسى من المدينة قائماً على الضفة الشرقية، على الرغم من أنه كان لا يزال هناك منطقة سكنية كبيرة على الضفة الغربية. وعلى الضفة الشرقية كانت توجد قصور وحدائق ومناطق سكنية حيث بيوت الطبقة العليا التى كشفت عنها الحفريات ، ولكن لا يبدو أنه كانت هناك أية استحكامات . أما المنازل المبنية من الطوب اللبن فقد تحلت مرة أخرى فى سهل بلاد النهرين والمبنى الكبير الوحيد الذى نجا من عواذى الزمن جزء من القصر الكبير المعروف باسم إيوان كسرى. وهذا هو ما تبقى من قاعة ضخمة، ربما يكون خسرو الثانى (٥٩١-٦٢٨م) قد بناها بمقياس فاق أى قصر آخر بناه الساسانيون أو خلفائهم المسلمون. وقد بقى مصدراً للإبهار للأجيال

التالية بل إنه فى حالاته المشوهة المحزنة لا يزال يكشف عن شىء من القوة والعظمة التى كان عليها الملوك الكبار.

وعلى الرغم من حقيقة أن طيسفون كانت العاصمة الفعلية للعاصمة الفارسية ، فإنها كانت من عدة وجوه مدينة غير فارسية تماماً . ويرجح أن الغالبية الساحقة من سكان المنطقة من الناطقين باللغة الآرامية ، وكانت بها كنائس مسيحية ومعابد يهودية، ويبدو أنها لم تكن تضم أى معابد نار .

وبسرعة وصل المسلمون إلى أقسام المدينة الواقعة على الضفة الغربية لنهر دجلة وكان هذا الجزء من المدينة محمياً بالمتاريس الترابية والحراس وغيرها من أنواع التجهيزات العسكرية . وبدأ المسلمون يقصفون المدينة بالمجانيق والعرادات التى قيل إن شيرزاد بناها بأوامر من سعد بن أبى وقاص . وربما تكون الإشارة إلى آلات الحصار تحمل مفارقة - فليس هناك تأكيد لهذه الحقيقة فى نصوص أخرى . ومع ذلك تبقى هذه الإشارة أحد الأمثلة الباكورة عن استخدام المسلمين لآلات القصف ضد التحصينات . وهى تشهد أيضاً مرة أخرى بالقوة الاستراتيجية للمسلمين ، وقدرتهم على تجنيد القوات المحلية والإفادة من مواهبهم على نحو جيد.

واستمر الفرس يدافعون عن أنفسهم وراء أسوارهم وقاموا بهجوم مفاجئ واحد غير ناجح على الأقل فى محاولة لكسر الحصار . وهناك أيضاً روايات عن أن يزددرد الثالث، الذى كان لا يزال فى القسم الرئيسى من المدينة على الضفة الشرقية للنهر، أرسل رسالة يعرض الصلح على أساس أن يكون نهر دجلة خط الحدود بين العرب والامبراطورية الفارسية ، ويتملك الفرس كافة الأراضى الواقعة شرق النهر. ويقال إن المفاوضات العربى أجاب بأنه لن يكون هناك صلح أبدا حتى يستطيع العرب أن «حتى ناكل عسل أفريذين بآترج كوئى»(*) - وهو ما يعنى حتى يتموا فتح أراضى العراق وإيران جميعاً^(٤٨) (إفريذين بين الرى ونيسابور شمال شرق إيران ، وكوئى بالعراق).

(*) الطبرى، ج ٤ ، ص ٧ . (الترجم)

وفى اليوم التالى عندما اقترب العرب من الأسوار مرة أخرى وبدأوا القصف بالمجانيق ، كان هناك صمت رهيب ، ولم يظهر أحد على شرفات الأسوار . وبقي رجل واحد فسرّ لهم ما حدث بأن ثقة العرب فى أنفسهم ورفضهم الصلح جعلت الفرس يهجرون المدينة ويخلونها إلى الضفة الشرقية للنهر . وحينذاك تحرك سعد بن أبى وقاص ب رجاله إلى داخل الدائرة المحصنة لكى يستخدمها قاعدة لهم.

وفى ذلك الحين كان نهر دجلة، سريع الجريان المراوغ ، يفصل بينهم وبين الجزء الرئيسى من المدينة . ولم يكن هناك جسر وكان الناس عادة ما يعبرون النهر بالقوارب، ولكن الفرس كانوا قد حركوا جميع القوارب إلى الضفة الشرقية من النهر. وهكذا صار عبور النهر ومهاجمة الموقع الحصين اقتراحاً يصعب تنفيذه تماماً ، ولكن سعد حث رجاله على المحاولة ، مشيراً إلى أن الأرض كلها وراءهم أمانة باتجاه الغرب ، بحيث يمكنهم أن ينجوا بأنفسهم إذا ساءت الأمور . وأرشد بعض الأهالى المحليين العرب إلى مكان فيه قاع النهر راسخ ويمكن عبوره على ظهور الخيل . ويقال إن مقدمة الجيش كانت مؤلفة من ستين رجلاً ، تطوعوا للعبور أولاً لتأمين الأرصفة حتى يمكن للجيش كله أن يعبر فى أمان . وقسموا خيولهم إلى سرية من الخيول الذكور وأخرى من الإناث ، لكى يجعلوها أسهل قياداً، حسبما قيل ، ونزلوا يخوضون فى النهر: واستعد ستمائة رجل آخر للحاق بهم.

وفى الوقت نفسه رأى الفرس ما يجرى فساقوا خيولهم أيضاً للخوض فى الماء. ونشبت معركة وسط مجرى النهر. وصاح القائد العربى فى رجاله «الرماح الرماح، أشرعوها وتوخوا العيون»^(*). ثم قاتلوا يداً بيد حتى تراجع الفرس إلى الضفة البعيدة. والتحم المسلمون معهم على الشاطئ ، وقتلوا كثيراً منهم، وملكوا الأرصفة على النهر. وتبعته بقية القوات عن قرب بحيث لا يكون لدى العدو الوقت لإعادة تجميعهم: وركبوا بين الأمواج ، وكانت مياه دجلة الداكنة تقذف الزبد الأبيض . واستمر الرجال يتحدثون

(*) الطبرى، ج ٤ ، ص ٩ . (المترجم)

مع بعضهم البعض وهم يسبحون لعبور النهر، فى مجموعات متماسكة ، يثرثرون كما لو كانوا يسيرون فوق أرض جافة . وفاجأوا الفرس على نحو لم يظنوا أنه ممكن^(٤٩). ونرى المصادر العربية تؤكد على صلابة العرب واستعدادهم للمخاطرة بشكل تتجنبه الجيوش التقليدية .

وفيما بعد تداول الجنود قصص العبور فيما بينهم. ووفقا لإحدى القصص عبر المسلمون جميعاً فى أمان ، عدا رجلاً واحداً «... زال عن ظهر فرس له شقراء، كائى أنظر إليها تنفض أعرافها عرياً والغريق طاف، فثنى القعقعا بن عمرو عنان فرسه إليه، فأخذ بيده فجره حتى عبر ، فقال البارفى - وكان من أشد الناس: أعجز الأخوات أن يلدن مثلك يا قعقا وكان للقعقا فيهم خؤولة»^(٥٠).

كذلك كانوا يتذكرون الحوادث التافهة . فقد قيل إن أحداً لم يفقد شيئاً سوى رجل واحد ، كان له قدح مربوطة بخيط متهرئ فانقطع ، وطفاً بعيداً فوق سطح الماء. ولاحظ الرجل الذى كان يسبح بجانبه إن هذا أمر الله ، ولكن صاحب القدح قال : «والله إنى على جديلة ما كان الله ليسلبنى قدحى من بين أهل العسكر. فلما عبروا إذا رجل ممن كان يحمى الفراض ، قد سفل حتى طلع عليه أوائل الناس ، وقد ضربته الرياح والأمواج حتى وقع إلى الشاطئ، فتناوله برمحه ، هجاء به إلى العسكر فعرفه، فأخذه صاحبه ، وقال للذى كان يعاومه: ألم أقل لك؟»^(٥١) كانت مثل هذه الحكايات ، بغض النظر عن أنها قصص جيدة، مناسبة أمام المسلمين ليتذكروا كيف كان الله يرفع أسلافهم.

وفى الوقت نفسه بالمدينة نفسها استعد الفرس للتخلى عن عاصمتهم . وحتى قبل أن يعبر العرب النهر، كان يزجر قد أرسل أهل بيته بعيداً . ثم رحل هو نفسه، على الطريق المؤدى إلى إيران، ليلحق ببقية أهل بيته فى حلوان . وقد سافر فى أرض ضربها الوباء والجاعة ، وهو الوباء نفسه الذى تسبب فى مثل هذا الخراب فى بلاد الشام^(٥٢).

(٥) الطبرى ، ج٤، ص١٢ . (المترجم)

ويبدو أن الرجال الذين تركهم قد فقدوا إرادة المقاومة . فسرعان ما كانوا يحملون ما غلا ثمنه وخف حمله من أشياءهم ويقدر ما أمكنهم حمله من الكنوز على ظهور خيولهم وبغالهم . وتم إخلاء السكان والأطفال الفرس أيضا . وعلى أية حال ، فإنهم تركوا وراءهم كميات هائلة من الثياب وكل أصناف الأشياء الثمينة ، وكذلك جميع قطعان الماشية والأغنام والطعام والشراب الذي كانوا قد جمعوه لمقاومة الحصار الذي لم يحدث أبداً .

ويبدو أن الجيوش العربية قد واجهت قليلاً من المقاومة عندما دخلت المدينة شبه المهجورة . وكانت هناك بعض المقاومة الضعيفة حول القصر الأبيض ، ولكن سرعان ما تم التغلب عليها . ثم جعلها سعد بن أبي وقاص مقر قيادته ، وأمر بأن يتحول إيوان كسرى العظيم إلى مسجد للمسلمين . وكانت المساجد الأولى تحتاج إلى القليل جداً من الأثاث ، ربما محراب وجهته مكة ، ومنبر لخطبة الجمعة^(٥٢) . ولابد أن الإيوان الضخم كان مكاناً فخماً للصلاة ، على خلاف المساجد البسيطة التي بناها المسلمون في المدن الجديدة مثل الكوفة والبصرة في السنوات التالية . وربما كان هذا التحويل الباكر لقطعة مهمة من العمارة إلى مسجد هو الذي ضمن بقاءها . إذ لم يتم الحفاظ على الإيوان الكبير فقط دون أن يمسسه سوء وإنما تركت التماثيل في مكانها ، على الرغم من أن المسلمين كانوا يصلون في الساحة التي تطل عليها^(٥٣) .

ثم بدأ تقسيم الغنائم . وتصف المصادر العربية بقدر كبير من الاستمتاع كيف تم تقسيم كنوز أكاسرة الفرس بين الفاتحين^(٥٤) . وتؤكد القصص على موضوعين : التناقض بين البساطة الخشنة والأبهة والثراء الذي اتسم به البلاط الفارسي والاهتمام المدقق والأمانة التي تم بها توزيع الغنائم .

وهناك قصص عن استرداد الملك الفارسية . ووفقاً لإحدى الروايات ، كانت قوات المقدمة في جيش المسلمين تطارد الفرس المتقهقرين على امتداد الطريق إلى الجبال . وعندما وصلوا إلى الجسر الذي يعبر قناة النهر وان ، تجمع الهاربون وتزاحموا للعبور وتم دفع أحد البغال في الماء . وبذل الفرس جهداً كبيراً وهم يناضلون

إخراجه من الماء ولاحظ القائد العربي ذلك «... فقال زهرة : إني أقسم بالله إن لهذا البغل لشئاً ؛ ما كلب القوم عليه ولا صبروا للسيوف بهذا الموقف الضنك إلا لشئ بعد ما أرادوا تركه»^(*)، وترجل العرب للاشتباك مع العدو ، وعندما تم القضاء عليهم أمر القائد رجاله بإخراج البغل من الماء بكامل حمولته . ولم يحدث حتى عادت الجماعة إلى نقطة التجمع المركزية في المدائن أن فتحوا ما كان على البغل من متاع «... وإذا الذي عليه كسرى؛ ثيابه وخرزاته ووشاحه ودرعه التي كان فيها الجواهر ، وكان يجلس فيها للمباهاة»^(**). وفي رواية أخرى، تم الإمساك ببغلين يحملان سلتين ، إحداهما بها تاج الملك، وكان لا يحمله إلا إسطوانتان و«... وإذا على الآخر سفطان فيهما ثياب كسرى التي كان يلبس من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجواهر وغير الديباج منسوجاً منظوماً»^(***). وفي رواية ثالثة ، وجد العرب أيضا سيوف كسرى «... ومغفره وساقاه، وساعده ، ودرع هرقل ، ودرع خاقان ودرع داهر ودرع بهرام...» ودرع الأعداء الآخرين لمولوك فارس والتي كان يحتفظ بها على سبيل التذكار^(***).

وهناك مجموعة أخرى من القصص تتناول السجادة الكبيرة التي كانت تزين القصر الملكي وكانت هذه السجادة تسمى «القطف» أو «بهار كسرى» (أي ربيع الملك) بالفارسية . وكان بساطاً ضخماً حوالى ثلاثين متراً مربعاً . وكان البلاط الفارسي يحتفظ به للاستخدام فى الشتاء، عندما يجتمعون للشراب ، وكان يمكنهم الجلوس عليه ويتخيلون أنهم فى حديقة تتفتح فيها كل الزهور. وكانت أرضيته ملونة بالذهب، وكان «... وشبه بفصوص ، وثمره بجوهر، وورقه بحرير وماء الذهب ، وكانت العرب تسميه القطف...»^(***) وثار السؤال حينذاك عما يجب فعله بهذا الشئ الفاخر . ولو كان الموقف مختلفاً ، فربما كان قد استخدم لتزيين قصر الحاكم الجديد مثلما كان يزين قصر الحاكم القديم، والواقع أن بعض الناس اقترحوا أن يعطوه للخليفة عمر بن الخطاب ،

(*) الطبرى ، ج ٤ ، ص ١٧ . (المترجم)

(**) الطبرى ، ج ٤ ، ص ١٧ - ١٨ . (المترجم)

(***) نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٢ . (المترجم)

ولكن المسلمين الأوائل كانوا صارمين بشأن عدالة توزيع الغنائم . ولم يكن هناك بديل . وتم إرساله إلى الخليفة جزءاً من الخمس . وهناك تم تقطيعه في عدد كبير من القطع المختلفة . وأخذ على بن أبي طالب ابن عم النبي الذي لم يشارك بنفسه في الفتوح ، قطعة باعها بعشرين ألف درهم ، ولاشك في أن عدداً آخر من النخبة أخذوا أنصبتهم^{(٥٩)(٥٠)} .

وبعد فتح المدينة جريت القوات البدوية الخشنة بنفسها عظمة الملكية الفارسية . ولم يكن رجال القبائل يعرفون بالكاد ماذا يفعلون بمظاهر الرفاهية التي جاءت إليهم . فقد ظن العرب أن الكافور الثمين الذي كان يُعطى البلاط هو الملح ، لأنهم لم يكونوا قد رأوه قط ، فاستخدموه في طهي طعامهم^(٦٠) .

وفي الوقت نفسه كان الحكم الفارسي يواجه تحدياً في الريف كذلك . وتحكى إحدى القصص عن أحد رجال الفرسان الفرس من المدائن كان في قرية مملوكة له عندما بلغته الأنباء بأن العرب غزوا البلاد وهرب الفرس . وفي البداية لم يُعر تلك الأنباء اهتماماً ، لأنه كان رجلاً واثقاً من نفسه تماماً ، وواصل أعماله حتى وصل إلى منزل حيث وجد «بعض أعلاج له» يحرمون متاعهم ويستعدون للرحيل . وعندما سألهم أخبروه أن «الزنابير» طردتهم من بيوتهم . وتمثلت استجابته المباشرة في محاولة حل المشكلة ؛ وطلب قوساً وقطعاً من الطين ، وبدأ يقذفها صوب الحشرات مما جعلها تلوث الحوائط . ولابد أنه قدر في الحال أن هناك ما هو أكثر مما تراه العين ، وأدرك أن عبيده يهربون من سيطرته ، ففقد أعصابه . وأمر واحداً منهم أن يسرج له مطية . ولم

(*) ما أخذه على والصحابة كان حسب قانون الفئ سورة الأنفال ، آية ٤١ ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الذي يقسم الغنائم إلى خمسة أنصبة ، ولم يكن الأمر مجرد توزيع على أفراد النخبة كما قد يوحي النص الذي كتبه المؤلف ، وعلى أية حال ، فإن المؤلف يعرف ما يكتبه جيداً وهو على ألفه واضحة بالموارد التاريخية العربية ، وعلى بينة من التاريخ الإسلامي الباكر .
(المترجم)

يمض بعيداً عندما قابله جندي عربى غرس رمحه فيه حتى مات^(٦١). ومن الواضح أن هزيمة الجيوش الفارسية كانت تعنى أن الطبقة الحاكمة الفارسية لم تعد تحظى بالاحترام وأن الفلاحين لم يعوبوا يطيعون سادتهم. فقد كان النظام القديم يعانى سكرات الموت.

وبينما تراجعت القوات الفارسية صوب الجبال ، تحرك جيش المسلمين الذى كان قوامه حوالى اثنى عشر ألفاً صاعداً الطريق وراء هذه القوات . وعندما وصل الفرس إلى جلولاء ، قرروا التوقف . وكانت جلولاء مفترق طرق : فوراها يوجد فرس أذربيجان ، والشمال الغربى يمضى فى طريق ، على حين تمضى ميديا وفارس فى طريق آخر. وإذا كان لهم أن يتوقفوا فقد كان ذلك هو المكان المناسب . وواصل الملك تحركه عبر جبال زاجروس، تاركاً الرجال والمال مع قائده مهراز ، على حين تجنب هو نفسه مواجهة العدو شخصياً . واتخذ الفرس موقفاً دفاعياً فى جلولاء . وكما يحدث غالباً ، يبدو أنهم فضلوا اتخاذ أسلوب دفاعى جامد فى الحرب، وحصنوا أنفسهم مع القيام بهجمات من حين لآخر ، على النقيض من أسلوب العرب الذى اتسم بقدر أكبر من الحركية . وفى جلولاء بنوا مكاناً من المتاريس والتحصينات الترابية على قممتها «حسك من الخشب» ذى القمم المدببة، ثم استبدلوه فيما بعد بقضبان من الحديد المدب^(٦٢). ولم يبن المسلمون أية تحصينات ولكنهم شنوا هجمات متكررة على خصومهم. ووفقاً لإحدى الروايات تصدعت التحصينات عندما خرج الفرس للهجوم وفتحو ثغرات فى الدفاعات لكى تسمح بعودة خيالتهم إلى الداخل مرة أخرى^(٦٣). وبسرعة كانت جماعة من العرب قد وطلدوا أنفسهم داخل الحجاز وفتحو الطريق لغيرهم حتى يلحقوا بهم. وكان النصر كاملاً والمذبحة مرعبة.

وكانت هناك غنائم أخذوها وقسموها . وبين أكثر الغنائم إثارة للانتباه كان تمثال «... ناقة من ذهب أو فضة موشحة بالدر والياقوت مثل الجفرة إذا وضعت على الأرض ، وإذا عليها رجل من ذهب موشح كذلك»^(٦٤)(*) . وكانت هناك أيضاً غنائم من النوع

(*) الطبرى، ج ٤ ، ص ٢٩ . (المترجم)

الآدمي. وتذكر أحد الجنود العرب كيف أنه دخل خيمة فارسية كان بها مرافق (وسائد) وثياب «... وإذا فُرش على إنسان فأنبشهُ، فإذا امرأة كالغزال في حُسن الشمس ، فأخذتها وثيابها، فأدبت الثياب، وطلبت في الجارية حتى صارت إلى فاتخذتها أم ولد»^{(٦٥)*}. هكذا كانت متعة النصر ، ولم يكن ثمة ما يحرم الاستمتاع بها .

وقد أمّن النصر في جلواء السيطرة العربية على أرض السواد . وتوغلت القوات الإسلامية شمالاً بعد قرقيسيا على نهر الفرات وتكرت على نهر دجلة . وكان السؤال الكبير هو ما إذا كان ينبغي أن يمضوا إلى أبعد من ذلك ، عبر ممرات جبال زاغروس إلى الهضبة الإيرانية وما وراءها .

وفي الوقت نفسه بينما كان يجرى غزو السواد، كانت القوات العربية تتوغل للمرة الأولى في جنوب العراق. وجرت الأنشطة العسكرية هناك وفق النموذج الذي كان في الشمال تقريبا ، فقد بدأت بغارات من جانب القبائل المحلية التي حاولت انتهاز فرصة ضعف الدفاعات الساسانية . وفي الحال أرسل عمر بن الخطاب ، قائداً هو عُتبة بن غزوان ، من المدينة بالتعزيزات ، وربما كانوا عدة مئات قليلة من الرجال^(٦٦)، لكي يضمن أن أية مكاسب تم تحقيقها تكون تحت سيطرة القيادة الإسلامية. ونعرف أيضا أن الحملة كانت جزءاً من استراتيجية إسلامية أوسع في مداها ، لشغل انتباه الفرس في جنوب العراق وفارس عن مساعدة مواطنيهم في الشمال^(٦٧). وكان أول فتح كبير يحرزوه مدينة أبله . وكانت في ذلك الوقت ميناء على رأس الخليج . ولا نعرف سوى القليل من المعلومات وتفاصيل الفتح باستثناء أن العرب وجدوا نوعاً جديداً من الخبز يصنع من الدقيق الأبيض هناك.

ومن هذه القاعدة خرجت الحملات العسكرية لفتح البلدات والقرى القريبة. وكالعادة لدينا تفاصيل كثيرة ولكن ليست لدينا صورة شاملة. وكانت المقاومة الفارسية مقصورة على الحاميات المحلية والدهاقين ولم تكن هناك أية محاولة لشن حملة كبيرة

(*) نفسه، ج٤، ص ٢٧ . (المترجم)

ضد الغزاة. وبينما كانت النواحي المختلفة تدخل تحت سيطرة المسلمين، كان يتم جمع الضرائب وتوزيعها فيما بين الجيوش الغازية. وكان عدد قليل جداً من البدو يستطيعون القراءة والكتابة وعهدت مهمة حفظ الحسابات إلى شخص يُدعى زياد على الرغم من أنه كان صبيّاً . وكان يُمنح راتباً أساسياً قدره درهمان في اليوم مقابل ذلك : وكانت تلك بداية حياة إدارية لامعة وكبر الصبي زياد ليكون واحداً من مؤسسي الجهاز الحكومي الإسلامي.

وبعد وفاة عتبة وهو عائد من الحج ، خلفه المغيرة بن شعبة . وقد رأينا بالفعل المغيرة الرجل الذي جرؤ على الجلوس مع رستم على عرشه . وقد اختاره عمر بن الخطاب ليقود المسلمين في جنوب العراق ؛ لأنه لم يكن بدوياً ولكنه كان من مناطق الحضر في الحجاز. وعلى الرغم من أنه كان قد اعتنق الإسلام قبل عامين فقط من وفاة النبي، فإنه كان يعد من الصحابة . وكان المغيرة قائداً صلباً داهية ولكن حياته العملية لم تلبث أن تعرضت لفضيحة كادت تؤدي بحياته .

فقد بدأ علاقة مع امرأة اسمها أم جميل ، كانت متزوجة من رجل من قبيلة ثقيف وعرف رجال آخرون من أبناء القبيلة بالعلاقة وعقدوا العزم على الحفاظ على شرف قريبهم. وانتظروا حتى ذهب لزيارتها وزحفوا ليروا ماذا حدث . وشاهدوا المغيرة وأم جميل وكلاهما عار من ثيابه وهو راقد فوقها . وتسألوا وذهبوا يخبرون الخليفة عمر بن الخطاب. وقام بدوره ليعين أبو موسى الأشعري الذي عرف بصلاحه لكي يذهب ويتولى القيادة في البصرة ويرسل المغيرة بن شعبة إليه في المدينة لكي يتم التحقيق معه . وعندما وصل واجهه عمر بالشهود الأربعة . وكان الأول متأكداً مما رآه «... فشهد عليه أنه رآه بين رجلين أم جميل وهو يدخله ويخرجه كالميل في المكحلة»^(*). وشهد الاثنان الآخران الشهادة نفسها . وعندئذ تحول عمر إلى الشاهد الرابع ، الشاب زياد، الذي كان قائماً بالفعل على حسابات الجيش . وكان الخليفة يأمل ألا تؤدي هذه الشهادة إلى

(*) الطبري، ج ١ ، ص ٧١ .

رجم أحد الصحابة حتى الموت . وقد أظهر زياد موهبة دبلوماسية وسرعة بديهة خدمته تماماً ببقية حياته ، إذ قال : «رأيتَه جالساً بين رجلَى امرأة ، فرأيتُ قديمين مخضوبتين تخفقان ، واستين مكشوفتين ، وسمعت حفزاناً شديداً . قال هل رأيت كالميل فى المكحلة ؟ قال : لا ، قال : فهل تعرف المرأة ؟ قال : لا ، ولكن أشبهها ، قال : ففتح ، وأمر بالثلاثة فجلّوا الحدّ ، وقرأ : ﴿لَوْ لَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (*) فقال المغيرة اشفنى من الأعبد ، فقال اسكت ، أسكت الله نأمتك أما والله لو تمت الشهادة لرجمتك بأحجارك» (**)(٦٩) . وغالباً ما كرر الفقهاء المسلمون القصة ، لأن الخليفة العظيم عمر ، أهم المشرعين بالنسبة للسنة بعد النبى نفسه ، هو الذى جعل الإدانة بالزنا فى هذه الحال أمراً إشكالياً للغاية فى الواقع .

وعندها تقرر أن يتولى أبو موسى الأشعرى ، التقى الكفاء ، قيادة التقدم الإسلامى فى الجنوب ، وكان هو قائد الجيوش الإسلامية التى فتحت خوزستان . وبعد أن عبرت هذه الجيوش الأرض المروية حول نهر الفرات الأدنى ، حيث تأسست مدينة البصرة بعد فترة وجيزة ، كان من الطبيعى أن تتقدم صوب خوزستان وتدخلها . وتقع خوزستان ، التى اشتق اسمها من شعب الخوز القديم الذى اختفى منذ زمن طويل ، بين الركن الشمالى الشرقى من الخليج وجمال زاجروس الجنوبية . وكانت تلك أرض العلاميين القدامى ، والهيكال الآشورى الهائل على تل الزنبيل (شوجا زنبيل) ، والذى كان عمره قد بلغ ألفى سنة بالفعل وقت الفتح الإسلامى ، والذى لا يزال باقياً ليشهد على قوتهم وراثتهم . وكانت الأرض فى كثير من أجزاء المنطقة من عدة وجوه استمراراً لسهل ما بين النهرين ، ولكن عندما ترتفع الأرض ببطء تجاه سفوح التلال ، يتغير الانبساط اللانهائى لأرض العراق ليتحول إلى تلال منحدرية وتنبو للعيان تنوءات الصخور .

(*) سورة النور : آية ١٢ .

(**) الطبرى ، ج ٤ ، ص ٧٢ .

وفى أيامنا هذه ، فإن خوزستان ، بعاصمتها غير المحبوبة ، الأهواز ، مركز صناعة البترول فى إيران، ولكن عندما وصل العرب كانت الزراعة وصناعة النسيج قد جعلتا المنطقة واحدة من أكثر المناطق ازدهاراً فى الشرق الأوسط.

وتروى خوزستان ، ليس فحسب من نهري دجلة والفرات ، اللذين يفيضان ويتوقفان عبر السهول الواقعة إلى الغرب، وإنما هناك أيضا عدد من الأنهار الصغيرة ، أهمها قارون، الذى يسير فى مجرى متعرج ملتو عبر التخوم فى جبال زاغروس الجنوبية حتى يصل إلى السهل . وتوفر الثلوج الذائبة على الجبال ما يكفى من الماء لرى الزراعات . وفى السفح أسفل الجبال المنحدرة تشق الأنهار مجاريها بعمق فى التلال المنحدرة ، وكان لا بد من بناء سدود كبيرة لرفع مستوى المياه لملء قنوات الرى. وبعض هذه السدود، مثل السد والقنطرة اللذين بناهما الساسانيون فى تُسْتَر ، تركت من آثارها ما يكفى لبيان المعدل الضخم لنشاط الرى هناك .

ويبدو أن رخاء خوزستان قد تزايد إلى درجة كبيرة فى العصور الساسانية. إذ إن المدن مثل تُسْتَر وجنديسابور، والأهواز قد أنشئت أو تم توسيعها . وكان الأرز والسكر ينموان بشكل جيد هناك ولكن المنطقة استمرت شهرتها من زراعة الكتان والقطن فى المحل الأول . كما كانت هناك جماعة مسيحية كبيرة وتم تأسيس عدد من الأسقفيات . وكان أن تقدمت القوات العربية فى هذه المنطقة المزدهرة المأهولة بالسكان فى المرحلة التالية.

ومثل تاريخ فتح العراق، لا يتسم مسار فتح خوزستان بالوضوح التام ، كما أن القصص الكثيرة حول مختلف المواجهات والمعارك تزيد من الفوضى بدلاً من أن تحدد منها. وعلى أية حال ، هناك اختلافان . أولهما أننا يمكن أن نحصل على فكرة واضحة كثيراً عن البيئة المادية للفتوح . ذلك أن مدن وبلدات العراق فى القرن السابع لاتعنى شيئاً بالنسبة لنا أكثر من الأسماء التى تحملها إلا قليلاً . حقاً ، لدينا فكرة ما عن طبوغرافية طيسفون (المدائن) وبعض الحفائر المتناثرة فى الحيرة ، ولكن بلدات مثل أوبللا والقادسية قد اختفت تماماً ، وابتلعت فى طمى وسط العراق أو اكتسحتها المياه

فى المجارى المائية دائمة التغير . وفى خوزستان ، حيث تحفر الأنهار فى الصخر بدرجة أعمق ، هناك قدر أكبر كثيراً من الاستمرارية ويمكن أن نستخدم الطبوغرافية الحديثة لتساعدنا فى تفسير المصادر القديمة . ولدينا أيضاً مصدر محلى كتب بعد أحداث الفتح بوقت قصير ، وهو بمثابة نوع من الضبط للروايات العربية الكثيرة المرتكبة . وقد كتبت المؤرخة المسماة «تاريخ خوزستان» باللغة السورانية، لغة الكنيسة الشرقية ، ألفها كاتب مسيحي مجهول^(٧٠). ومعظم المؤرخة موجز للغاية ولكن المؤلف، أو أحد المؤلفين، يفرد مكاناً لوصف فتح بلاده على أيدي هؤلاء الغزاة الجدد . ويوفر المصدر صوتاً آخر ، يؤكد الكثير من الأحداث الواردة فى المصادر العربية، وهكذا يمكننا أن نتأكد بشكل معقول من الخطوط الرئيسية لتاريخ فتح هذه المنطقة.

وكان قد تم إسناد مهمة الدفاع عن خوزستان إلى القائد الهرمزان ، الذى كان قد ذهب إلى المقاطعة بعد سقوط الدائن . وقد قاد مقاومة حازمة بروح عالية ، وكان يعقد المعاهدات حين يكون ذلك مناسباً له، ولكنه كان أيضاً يتحدى العرب عندما كان يشعر أنه قوى بما يكفى لمواجهةهم.

ويبدأ كاتب المؤرخة ليبين كيفية استيلاء الغزاة على معظم المدن الحصينة بسرعة شديدة، بما فى ذلك مدينة جنديسابور الرئيسية. وكانت جنديسابور مدينة بها أسقفية وعدد كبير من السكان المسيحيين ، واشتهرت بكونها موطن عائلة بختشيوغ من الأطباء، الذين خدموا أجيالاً من الخلفاء. ومن المحزن ، أن فكرة قيام مدرسة طبية مزدهرة فى فى هذه المدينة ، التى كانت تسلياً للمؤرخين منذ القرن التاسع عشر ، قد تم التخلّى عنها بفعل النظرة الفاحصة للبحث الحديث : ومن المؤكد أن الجماعة المسيحية فى هذا المكان قد أخرجت عائلات من الأطباء، بيد أنه لم تكن هناك أكاديمية منظمة. وموقعها مهجور الآن، ولكن التصوير الجوى يُظهر آثاراً لمدينة مستديرة ومدينة مربعة على السواء، ذلك أن الأساسات الساسانية تطفى على كل منهما الأخرى. ولم تكن هناك أية دفاعات طبيعية ويبدو أن المسلمين واجهوا صعوبة قليلة فى الاستيلاء على المدينة.

ويقدم فتح المدينة فى سياق واحدة من تلك الحكايات الأخلاقية التى تسعى إلى بيان فضائل المسلمين الأوائل . ووفقاً لهذه القصة^(٧١) التى تقول إن المدينة قاومت بضراوة «... فلم يفجأ المسلمين إلا وأبوابها تفتح، ثم خرج السرح، وخرجت الأسواق ، وانبث أهلها، فأرسل المسلمون: أن ما لكم ؟ قالوا : رميتم إلينا بالآمان فقبلناه ، وأقررنا لكم بالجزاء على أن تمنعونا . فقالوا : ما فعلنا ، فقالوا : ما كذبنا ، فسأل المسلمون فيما بينهم ؛ فإذا عبد يدعى مُكنفاً كان أصله منها، هو الذى كتب لهم . فقالوا : إنما هو عبد، فقالوا إننا لانعرف حركم من عبدكم ، قد جاء أمان فنحن عليه قد قبلناه ، ولم نبذل ، فإن شئتم فاغدروا : فأمسكوا عنهم، وكتبوا إلى عمر، فكتب إليهم إن الله عظم الوفاء، فلا تكونون أوفياء حتى تفوا، ما دمت فى شك أجيزوهم، وفوا لهم. فوفوا لهم، وانصرفوا عنهم»^(*). والمبدأ الأخلاقى واضح : حتى الوعد الذى يبذله عبد ينبغى احترامه.

ويستمر المؤلف المسيحى ليقول إنه سرعان ما لم يصمد سوى السوس (سوسا) وتُسْتَر. وكان سوسا أحد مواطن الحكام الأخمينيين العظام فى إيران القديمة؛ وكانت قصورها تنافس قصور بربسبوليس فى الحجم والعظمة . وقد نهبها الإسكندر الأكبر ، ونهب ثرواتها الرائعة ، وفيها رتب حفل الزفاف الشهير، حيث تزوج عشرة آلاف من الإغريق والفرس على نحو أسطورى. وفيما بعد، فى العصور الساسانية صارت مركزاً مسيحياً مهماً، ونتيجة لهذا دمرها الملك الساسانى سابور الثانى (٣٠٩-٣٩٧م) الذى انتهج سياسة نشطة ضد المسيحيين . ويمرور الزمن تعافت بالقدر الكافى لأن تبدى قدراً من المقاومة تجاه الفتح الإسلامى، وفيما بعد بنى بها المسلمون واحداً من أوائل المساجد المعمرة فى إيران. واليوم، تتحكم فى الموقع قلعة ، لم يشيدها أحد حكام العصور الوسطى، وإنما أقامتها بعثة أثرية فى نهاية القرن التاسع عشر لحماية أفرادها من هجمات البدو. وعلى أية حال، فإنه بالنسبة للمسلمين الأوائل كانت أهم ملامح المدينة جدارة بالملاحظة لا التراث الأخمينى بها أنها كانت محل قبر النبى دانيال .

(*) الطبرى، ج ٤ ، ص ٩٢-٩٤ . (المترجم)

وقد استولى المسلمون على المدينة بعد أيام قليلة وقتلوا جميع النبلاء الفرس بها . وفى المصادر العربية يوصف سقوط المدينة باعتباره نوعاً من المعجزة^(٧٢). ومن الواضح أن الرهبان النصارى والقساوسة كانوا قد ظهرُوا على شرفات الأسوار يسخرون من المسلمين قائلين إن أحداً لا يمكنه أن يستولى على سوسا ما لم يكن المسيح الدجال بينهم. واستمروا فى القول إنه إن لم يكن المسيح الدجال بينهم ، فعلى المهاجمين ألا يتعبوا أنفسهم وعليهم أن ينصرفوا فى الحال . وفى نوبة غضب وإحباط ، قام أحد القادة المسلمين متسلقاً إحدى البوابات وفتحها . وفى الحال انقطعت السلاسل ، وانكسرت الأقفال ، وانفتحت البوابة على مصراعيها . ولم يكن بوسع السكان أن يستجدوا الصلح .

كما أنهم استولوا على «بيت مار دانيال» وأخذوا الكنز الذى كان محفوظاً هناك بأمر من الملوك الفرس منذ أيام داريوس وقيرس ، وهو مثال آخر على فتح كنوز الأحجار الثمينة التى غالباً ما كان يصاحب الفتوح الإسلامية . كما أنهم فتحوا الكفن الفضى وحملوا معهم الجسد المحنط فى داخله : «وقيل ... هذا جسد دانيال فى هذه المدينة، قال : وما لنا بذلك ...» وكان دانيال يحظى بتبجيل كثير ويقال إن الإمبراطور هرقل كان قد حاول أن يأخذ جسده ليضمه إلى مجموعته الكبيرة من الذخائر المقدسة فى القسطنطينية. ولا يظهر دانيال فى صفحات القرآن الكريم، بخلاف شخصيات العهد القديم الأخرى ويبدو أن ردة الفعل الأولى من جانب المسلمين كانت تتجه إلى تدمير هذه العبادة، فقد أمر الخليفة عمر بن الخطاب بدفن الجثمان أسفل مجرى النهر . وكان المسلمون قد نزعوا الخاتم المنقوش، الذى كان يحمل صورة رجل بين أسدين عن الجسد، وأمر عمر بن الخطاب بإعادته^(٧٣). ولكن سرعان ما صار دانيال شخصية مبدلة لدى المسلمين أيضاً. وبدأ المسلمون يزورون الموضع ومقبرة دانيال لا تزال موجودة فى قلب المدينة، وهى قبة بيضاء عالية تطل على النهر. وهذا مثال باكراً جداً على الكيفية التى هدل بها الإسلام عبادة كانت موجودة قبله وصبغها بالصبغة الإسلامية.

ومع سقوط السوس (سوسا) ، لم يتبق سوى تُسُتر. وكانت المدينة تقع على نتوء صخري إلى جوار النهر وكانت تحميها قلعة ، لا تزال بقاياها قائمة . وكان على النهر سدٌ وجسر، وكلاهما من المشروعات الهندسية الضخمة يقال إن الأسرى الرومان الذين كان قد تم أسرهم بعد أن هزم الملك سابور الأول فاليريانوس سنة ٢٦٠م هم الذين بنوهما . وهما معروفان حتى يومنا هذا باسم بندى قيصر، أى سد قيصر ، واعتبرهما الكتاب العرب بمثابة إحدى عجائب الدنيا ؛ ولا يزال الكثير منهما باقياً . وخلف السد تم حفر نفقين فى الصخر الذى قامت المدينة عليه لتوصيل المياه لرى المزيد من الحقول فى الجنوب . وتصف مؤرخة خوزستان هذا السد وصفا تفصيليا : «شوشترا (تُسُتر) هذه واسعة وقوية جداً ، بسبب الأنهار العظيمة والقنوات التى تحيط بها من كل جانب مثل الخنادق المائية . وكانت إحدى هذه القنوات تسمى أردشيرجان باسم الملك الساسانى أردشير الذى حفرها . وقناة أخرى، كانت تعبرها سميت «سميرام» باسم الملكة وثالثة اسمها داريجان على إسم داريوس . وأكبر هذه القنوات كانت عبارة عن سيل جارف تفيض نازلة من الجبال الشمالية».

وقرر الهرمزان أن تكون وقفته الأخيرة هنا، وحسبما تروى المؤرخة الخوزستانية ، صمدت تُسُتر على مدى سنتين . وفى النهاية كانت الخيانة لا القوة العسكرية هى التى أدت إلى سقوط المدينة؛ ذلك أن رجلين لهما منزلان على أسوار المدينة تأمرا مع العرب: فى مقابل ثلث الغنائم وأتاحا لهم الدخول إلى المدينة^(٧٤). ووفقاً لهذا الاتفاق تم حفر الأنفاق تحت أسوار المدينة وتمكن العرب من الدخول إلى الأسوار من خلالها . وتقهر الهرمزان إلى القلعة وتم أسره حياً ، ولكن واحداً من الأساقفة المحليين قتل «قتل ومعه عدد من الطلاب والقساوسة والشمامسة» .

وقصة فتح خوزستان بها مقطع ختامى غريب يتمثل فى الروايات عن مصير الهرمزان^(٧٥). ومثلما كان الحال مع رستم الحكيم المتشائم ، القائد المهزوم فى القادسية ، تم تفصيل شخصية الهرمزان لتوضيح نقاط بعينها عن الفروق بين العربى والفارسى، بين المسلم وغير المسلم وما يربط بين الاثنين . فبعد استسلامه فى تُسُتر تم إحضاره إلى المدينة لكى يمثل أمام الخليفة. وقبل أن يدخل المدينة برفقة القوة التى

تحرسه ؛ ألبسوه ثيابه الفاخرة الموشاة بالقصب والذهب وتاجاً مرصعاً بالياقوت . ثم اقتادوه فى الشوارع بحيث يتمكن الجميع من رؤيته . وعلى أية حال ، فإنهم عندما وصلوا إلى بيت عمر بن الخطاب، وجدوا أنه لم يكن هناك، ولذلك ذهبوا يبحثون عنه فى المسجد ولكنهم لم يجدوه هناك أيضاً . وأخيراً مروا بمجموعة من الصبية يلعبون فى الطريق، أخبروهم أن الخليفة نائم فى ركن من المسجد وعباعته مطوية تحت رأسه بمثابة وسادة.

وعندما عادوا إلى المسجد وجدوه على الحال التى ذكرها الصبية : وكان قد انتهى لتوه من استقبال وفد من الكوفة، وعندما غادروا ، تمدد بساطة لكى يغفو قليلاً . ولم يكن بالمسجد أحد سواه . وجلسوا على مسافة قصيرة منه. وسأل الهرمزان أين حرسه ومن يقومون على خدمته ولكنهم أخبروه أنه ليس لديه حرس أو خدام «... قال: فينبغى له أن يكون نبياً ، فقالوا : بل يعمل عمل الأنبياء، وكثر الناس؛ فاستيقظ عمر بالجلبة ، فاستوى جالساً ، ثم نظر إلى الهرمزان ، فقال : الهرمزان ؟ قالوا : نعم فتأمله، وتأمل ما عليه ، وقال : أعوذ بالله من النار، وأستعين الله ... فقال الوفد : هذا ملك الأهواز فكلمه ، فقال : لا ، حتى لايبقى عليه من حليته شىء، فرمى عنه بكل شىء عليه إلا شيناً يستره، وألبسوه ثوباً صفيقاً...»(*) .

وسأل عمر بن الخطاب الهرمزان عن رأيه فى تحول الأحداث على هذا النحو، وأجابه الفارسى بقوله: «... يا عمر إنا وإياكم فى الجاهلية كان الله قد خلّى بيننا وبينكم ، فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم ، فلما كان معكم غلبتمونا . فقال عمر: إنما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا»(*) . وكان عمر بن الخطاب ميالاً إلى إعدامه انتقاماً للمسلمين الذين قتلهم. وطلب الهرمزان بعض الماء ولما أعطى الماء قال إنه يخشى أن يُقتل وهو يشرب . وأجاب الخليفة بأنه لن يقتل قبل أن يشرب الماء ، وعندها «... فقال : لاجابة لى فى الماء، إنما أردت أن أستمئن به ، فقال له عمر : إني قاتلك ، قال : قد أمنتنى، فقال : كذبت . فقال أنس(*) : صدق يا أمير المؤمنين قد أمنتته ، قال:

(*) الطبرى، ج ٤ ، ص ٨٧-٨٨ . (المترجم)

ويحك يا أنس ، أنا أؤمن قاتل مجزأة والبراء» وفى النهاية، اعتنق الإسلام ، وسُمح له بالحياة فى المدينة ومنح معاشاً طيباً . وربما تكون حيلة الهرمزان موضوعاً فولكلورياً تم تطعيمه بالأحداث التاريخية ، ولكنها تفى بالغرض منها لبيان التناقض بين التفاخر والرفاهية الفارسية والبساطة الإسلامية، وأمانة المسلمين ودمج عناصر النخبة الفارسية فى التراتبية الإسلامية.

وكان هناك ملمح لافت للنظر فى فتح العراق، وهو ملمح قد ساعد المسلمين بالتاكيد، تمثل فى انتقال أعداد كبيرة من القوات الفارسية إلى الجانب العربى وقد رحب العرب بضم هؤلاء فى جيوشهم ودفعوا لهم الرواتب . ومن بين هؤلاء كان الحمراء^(٧٦)، وكان بعضهم قد انضموا إلى المسلمين قبل معركة القادسية وشاركوا فى تقسيم الغنائم التى كان قد تم أخذها من رفاق السلاح القدامى^(٧٧)، وانضم آخرون إليهم فيما بعد وحاربوا فى صفوف الجيش فى جلولاء، ومن بينهم كان أربعة آلاف رجل من جبال الديلم ، فى الركن الجنوبى الشرقى من بحر قزوين، ويبدو أنهم كانوا وحدة نخبة من الجند فى جيش الشاهنشاه . واستقر كثير منهم فيما بعد بمدينة الكوفة الإسلامية الجديدة ، حيث كان لهم حى خاص بهم^(٧٨).

وثمة طائفة أخرى من الذين انضموا إلى المسلمين كانوا هم الأساورة^(٧٩)، وهم جماعة مؤلفة من ثلاثمائة من الخيالة ثقيلى التسليح ، وكثير منهم من أصول أرسقراطية . وكان يزدجرد الثالث قد أرسلهم أمامه باعتبارهم طليعة حرسه عندما غادر العراق فى طريقه إلى إيران ولكن، ربما بسبب عدم ثقتهم فى قيادته، انتقلوا إلى الجانب المسلم واستقروا فى البصرة^(٨٠). وشأنهم شأن الحمراء فى الكوفة حصلوا على مكانة متميزة فى القوات المسلمة .

كان المسلمون آنذاك قد فتحوا بلاداً شاسعة غنية . كان عددهم صغيراً ، ربما لم يكن يزيد على خمسين ألف رجل ، وسط سكان عددهم أكثر بكثير . وكانت المسألة التى واجهتهم كيف سيحتفظون بها ويستغلون مواردهم . وفى أعقاب النصر الذى تحقق فى العراق ، استقر المسلمون فى مدينتين بنيتا بهذا القصد ، وهما الكوفة والبصرة . وتخبرنا المصادر أن عمر بن الخطاب أمر المسلمين ألا يتفرقوا فى المدن الصغيرة

وريف العراق ، ولا يعوبوا إلى حياة البداوة في الصحراء القريبة. وبدلاً من ذلك كان عليهم أن يتجمعوا سنوياً في المدن المشيدة حديثاً ، التي كانت موطناً وقواعد عسكرية بالنسبة لهم .

ونحن نعرف عن تأسيس الكوفة معلومات أكثر بكثير مما نعرفه عن تأسيس البصرة وقد روى سيف بن عمر رواية كاملة عما فعلوه ولماذا فعلوه . فبعد سقوط العاصمة الفارسية المدائن مباشرة، كان جيش المسلمين قد استقر، أو بالأحرى عسكر، هناك ، على حين خرجت الحملات شرقاً إلى حلوان عند سفوح جبال زاغروس وشمالاً من القادسية على نهر الفرات. وقيل إن المناخ في العاصمة الفارسية القديمة لم يكن صحياً. وتخبرنا المصادر أن عمر بن الخطاب لاحظ أن العرب العائدين من هناك يبدوون منهكين. وعلاوة على ذلك، كانت أوزانهم تزيد وعضلاتهم ترتخي. وسأل أحد العرب حين وصل إلى الموقع: «هل تصلح بها الإبل؟ قالوا: لا، إن بها البعوض، قال: قال عمر: إن العرب لا تصلح بأرض لا تصلح بها الإبل ... قال : فخرج عمّار بالناس نزل الكوفة(*)».

وأرسلوا رجلين للبحث عن موضع على حواف الصحراء. وأخذ كل منهما يبحث منفصلاً على امتداد الفرات من الأنبار جنوباً حتى تلاقيا في مكان يسمى الكوفة(**)، قرب الحيرة شمالاً. وهناك وجدا ثلاثة أديرة مسيحية صغيرة ، وأكواخ من القصب فيما بينها ، «... فأعجبتهما البقعة ، فنزلا فصليا ، وقال كل واحد منهما: اللهم رب السماء وما أظلت ، ورب الأرض وما أقلت ، والرياح وما ذرت ، والنجوم وما هوت، والبحار وما جرت ، والشياطين وما أضلت ، والخصاص وما أجنّت ، بارك لنا في هذه الكوفة ، واجعله منزل ثبات»(***) .

(*) الطبري، ج ٤ ، ص ٤١ ، (المترجم)

(**) الكوفة هي الأرض التي يختلط بها الحصباء والرمل، الطبري، ج ٤ ، ص ٤١ ، (المترجم)

(***) النص من الطبري، ج ٤ ، ص ٤١ . وقد تفاضيت عن النص الذي أورده المؤلف لأنه يختلف كثيراً من النص الأصلي؛ إذ إن الترجمة الحرفية لكلام المؤلف هي: «... وتلى أحدهما قصيدة تلفت النظر بسبب ما يبدو أنه أيقونتها الوثنية». وكما يبدو من نص الطبري ، ليست هناك قصيدة ، كما أنه ليس هناك ما يمت إلى الوثنية بصلة . (المترجم)

وجاء سعد من المدائن ، ومن الواضح أنه قرر أن هذا سيكون مكان بناء المدينة، وقد شرح مزاياها لعمر بن الخطاب على هذا النحو : «إني قد نزلت بكوفة منزلاً بين الحيرة والفرات برياً بحرياً ، ينبت الحلى والنّصى (نوع من العشب الصالح للرعى) ، وخيرت المسلمين بالمدائن، فمن أعجبه المقام فيها تركته كالمسلمة، فبقى أقوام من الأفناء ، وأكثرهم بنو عَيسٍ»(*) .

هذه، على الأقل، قصة كيفية اختيار المكان حسبما ورد ذكره في تاريخ الطبرى. وربما لا يكون الكلام قد نُطق على الصورة التي ورد بها أبداً ولكن الدوافع مقنعة . وربما كانت المدائن غير صحيحة بالنسبة للبؤ وحيواناتهم وقد وفرت الكوفة لهم مراعى أفضل كثيراً. ومن المحتمل أنه كانت هناك اعتبارات أخرى كذلك. وكان أحد هذه الاعتبارات الحاجة إلى الحفاظ على الاتصالات الجيدة مع المدينة المنورة ، ولكن ربما كان أهم الاعتبارات الإبقاء على المسلمين معاً ، بحيث يمكن التعامل معهم والحفاظ على فعاليتهم العسكرية، بدلاً من رؤيتهم يتبعثرون ويفقدون تماسكهم .

وقد اختار معظم المسلمين فى المدائن الانتقال إلى الموضع الجديد، وافترض أحد الباحثين أن السكان الذكور البالغين فى المرحلة الأولى من نمو المدينة كانوا حوالى عشرين ألفاً، وهو ما يبدو معقولاً^(٨٢)، على الرغم من أن هذا الرقم سرعان ما تم ابتلاعه فى خضم موجات المهاجرين الجدد من شبه الجزيرة العربية ، الذين كان يحدهم الأمل فى الحصول على نصيب من العمل. ويقال إنهم جلبوا معهم أبواب دورهم لتركيبها فى مساكنهم الجديدة، مع ما جلبوه من بقية ممتلكاتهم . وتم بناء البيوت الأولى من الأقصاب المحلية ولكن بعد أن دمرت إحدى الحرائق الكثير من هذه المنازل ، طلبوا الإذن من عمر بن الخطاب لكى يبنوا بالطوب اللبن . وأذن لهم بذلك شريطة أن لا يبنى أحدهم بيتاً يضم أكثر من ثلاث حجرات وألا تكون المباني شديدة الارتفاع : ومرة أخرى نرى التأكيد على التواضع والمساواة بين المسلمين .

(*) الطبرى، ج ٤ ، ص ٤٣ . (الترجم)

وتم تخطيط المدينة الجديدة بقدر من العناية على يد رجل يدعى أبو الهياج ؛ الذى يبدو أنه كان أول مخططى المدن المسلمين . فقد خرجت الطرق من النقطة المركزية ، وتوطن الرجال فى جماعاتهم القبلية على امتداد هذه الطرق بحيث تم توطين الرجال من مختلف القبائل فى المنطقة نفسها ، فى البداية على الأقل . ولا بد أن هذه الطريقة قد عززت التضامن القبلى وزادت من المنافسات القبلية . ويقال إن عمر بن الخطاب هو الذى قرر عرض الشوارع: عشرون متراً للطرق الرئيسية ، وعرض الشوارع الجانبية خمسة عشر متراً أو عشرة أمتار ؛ أما الحارات الأصغر فكان عرضها ثلاثة أمتار ونصف ولا يجب أن يكون عرض أى ممر أقل من ذلك^(٨٣) . كانت هذه مدينة تم تخطيطها بوضوح ولم تكن كتلة متشابكة من الحارات حيث يستقر الناس ويبنون حسب هواهم .

وفى المنتصف كان هناك ما يمكن وصفه بأنه مركز المدينة . وكان أول مبنى تم تشييده المسجد الذى يقع فى وسط ميدان مفتوح . وتم استدعاء أحد رماة السهام الأقوياء فى المركز ليطلق السهام فى كل اتجاه ؛ وسمح للناس بأن يبنوا بيوتهم بعد الأماكن التى سقطت فيها السهام . وتركت المنطقة الداخلية من الميدان لتكون ساحة يتقابل فيها الناس .

ويبدو أن المسجد نفسه كان مربع الشكل ، وكان طول كل ضلع من أضلاعه مائة متر فى كل اتجاه^(٨٤) . ويقال إن المسجد فى مرحلته الأولى لم تكن له حوائط على الجوانب وكانت هناك تغطية جزئية فى أحد الجوانب . وربما كان قد بُنى على هيئة بسيطة للغاية من القصب أو الطوب اللبن . وإذا ما جلست بداخله أمكنك أن ترى دير هند المسيحى المجاور ، وعلى مسافة أبعد كانت البوابة التى تؤدى إلى الجسر المصنوع من القوارب عبر النهر^(٨٥) . وبعد بناء قصر والى بوقت قصير سرقت الخزانة فقرر سعد أن يمد المسجد حتى القصر بحيث يكون الحائط بينهما مشتركاً . وحقيقة أن المسجد كان يرتاده الناس ليلاً ونهاراً كانت بمثابة أفضل حماية ضد السرقة . هذا المسجد الجديد ربما كان أكثر متانة . ففى أحد أطرافه كانت توجد مساحة مسقوفة طولها حوالى مائة متر «سماؤها كأسمية الكنائس الرومية» ، ويفترض أن المقصود

بهذا الدعامات الأفقية المفتوحة تسندها أعمدة من الرخام^(٨٦) ويقال إن الأعمدة جاءت من كنائس مسيحية^(٨٧). ولم يحدث حتى ولاية زياد ، فى زمن معاوية بن أبى سفيان أول الخلفاء الأمويين، أن تم بناء أسوار حول المسجد . وقد عملت أعمدة جديدة ارتفاعها خمسة عشر متراً من الأحجار المجلوبة من الأهواز بمراكز من الرصاص ومثبتات من الحديد .

وإذا كان المسجد يمثل البساطة بحد ذاته ، فإن القصر كان مبنى أشد تعقيداً وصار موضوعاً لنزاع شديد . ويحكى سيف بن عمر القصة التى نقلها عنه الطبرى^(٨٨). ووفقاً لروايته بنى القلعة لسعد فارسى من همدان اسمه «روزبه بن جمهر» ، وقد بنيت من الآجر المأخوذ من قصر قديم للملك الحيرة قبل الإسلام . ولأن القصر يقع فى مركز المدينة، التى كانت تعج بالضجة الشديدة والهياج ، فإن سعد أمر بصنع باب خشبى يغلق عليه. وعندما سمع الخليفة عمر بن الخطاب بذلك، أرسل رجلاً ليحرق الباب، موبخاً سعد لأنه وضع حاجزاً بينه وبين المسلمين العاديين، مما يحول بينهم والدخول وقتما يشاؤون . والقصة جزء من أدب الجدل الهجوى ضد الحكام الذين حاولوا فصل أنفسهم عن عامة المؤمنين أو فوقهم. وربما تكون قصة أن قصر سعد كان مبنىً من الطوب المستعمل حقيقية على أية حال^(٨٩).

كان مسجد الكوفة البدائى يقع فى الموقع نفسه الذى يقوم فيه مسجد المدينة الحديث. كان هذا هو المكان الذى تم فيه اغتيال الخليفة على بن أبى طالب سنة ٦٦١م، ومنذ زمن طويل كان محل تبجيل الشيعة، ولذلك لم يكن ممكناً القيام بأية حفائر أثرية . وعلى أية حال ، كانت هناك حفريات للكشف عن القصر فى خمسينيات وستينيات القرن العشرين. وتم التحقق من ثلاث مراحل فى البناء ، كلها فوق بعضها مرحلة باكرة ، مرحلة أموية ، ومرحلة عباسية . وبحلول القرن التاسع الميلادى / الثالث الهجرى ، هُجر المبنى أساساً وشغله من وضعوا أيديهم عليه. وقد تمت إزالة المرحلة الأولى حتى الأرض عندما بنى المبنى الأموى الثانى. وكل تلك البقايا خارج أسوار القصر لها شرفات محصنة مربعة صغيرة تبرز على مسافات منتظمة . هل كانت هذه

أساسات قصر سعد، حسبما ظن الأثرى الذى كشف عنه أو المبنى الذى بناه زياد بعد جيل فى بداية الفترة الأموية، حسبما اعتقد المؤرخ الرئيسى للمدينة ؟ من المستحيل الإجابة على هذا السؤال .

وعلى أية حال، يمكننا أن نكون متأكدين من أنه فى غضون جيل من تأسيس المدينة، كانت تضم اثنين من المباني العامة، الجامع والقصر، اشتراكا فى حائط بينهما. وهكذا تأسس التخطيط العمرانى المركزى التقليدى للمدينة الإسلامية ، ولانظير له فى العمارة قبل الإسلام وكان له أن يستمر على مدى عدة قرون. وثمة عنصر ثالث أضيف إلى هذا المجمع الرسمى هو الأسواق^(٩٠). ومن الواضح أنه كانت بالكوفة أسواق منذ البداية الأولى: وعلى كل حال، كان على أفراد القوات العربية الطاقرة إنفاق نصيبهم من الدراهم التى أخذوها من الغنائم فى مكان ما. وفى مرحلة باكرا كانوا يتقاضون الرواتب أيضا كما كانوا ينفقون رواتبهم هذه على الضروريات وعلى مواد الرفاهية كذلك . ويقال إن ضجيج السوق دفع سعد إلى تقوية أسوار قصره وبواباته . ولسنا نعرف شيئا عن شكل الأسواق القديمة أو هيئتها سوى أنها كانت تشغل الفضاءات المفتوحة حول المسجد والقصر . ولا يبدو أنه كانت هناك أعمال بناء حتى أواخر الفترة الأموية، أى بعد قرن من تأسيس المدينة . وقبل هذا، ربما كانت نوعاً من الأكواخ المتهالكة التى بنيت من الخشب والقصب ، ومسقوفة بالحصير . ومع هذا فإن وجود الأسواق ، فى قلب المدينة ، تحيط بالمسجد والقصر، أرسى النموذج الأساسى للمدن الإسلامية التالية.

كذلك أسس المسلمون العاملون فى جنوب العراق مدينة على أطراف الصحراء بالبصرة والروايات المتعلقة بالاستيطان الباكر فى البصرة مشوشة للغاية، على الرغم من أن حوية خوزستان تنسبها بوضوح إلى أبى موسى الأشعزى ، قائد القوات التى فتحت وطنه . كما أنها كانت أصغر كثيراً من الكوفة ، وربما كانت فقط ألف رجل، لأن الجيش الذى فتح الجنوب كان أصغر كثيراً^(٩١)، ويُعرف الموضع الذى قامت عليه مدينة البصرة الأولى حالياً باسم الزبير ويقع على مسافة حوالى عشرين كيلو متراً من المدينة الحديثة. وكانت على بعد مسافة من ضفة النهر وتطلب الأمر حفر قنوات لجلب المياه

إلى المدينة . وعلى الرغم من أن موقع المدينة معروف جيداً والكثير من أجزائها شبه صحراوي ، فلم تُنشر عنها أية حفريات أثرية ولم يتم أى مسح جاد لها . ولو كانت الظروف أكثر سلمية مما هي عليه وأنا أكتب ، لكانت فرصة مدهشة لدارسى المدن الإسلامية الباكرا لى يستكشفوا عمارة هذه المستوطنات العسكرية الأولى .

وفى هذه المدن الجديدة تطورت الإدارة المالية الإسلامية بشكل ناضج جدا على نحو سريع^(٩٢) . فكان السكان يعيشون على أموال العطاء التى كانت تمنح لهم نقداً . وفى البداية كان هذا قد تمثل فى الرواتب العينية، الغلال، والزيت وغيرها (أى الرزق) ، ولكن هذه انتهت تدريجياً وحلت النقود محلها . وتم إدخال أسماء أولئك الذين يستحقون الرواتب فى سجلات عرفت باسم الدواوين . وكانت إدارة هذا النظام معقدة للغاية . ففى البصرة، على سبيل المثال، يقال إنه كان هناك ثمانون ألف رجل عند نهاية خلافة معاوية بن أبى سفيان، كان مخصصاً لكل منهم مائتى درهم فى السنة على الأقل . وكان هذا يتطلب جباية ستة عشر مليون درهم وتوزيعها ، وهى مهمة ضخمة تتطلب عاملين مهرة . وكان المسلمون مضطرين إلى استخدام محاسبين وموظفين كانوا يعملون فى خدمة الساسانيين المهزومين ، وجلبوا معهم التقاليد الفارسية القديمة للإدارة المالية والممارسة البيروقراطية .

وقد لعبت كلا المدينتين الجديدتين، الكوفة والبصرة ، دوراً مهماً للغاية فى تاريخ العالم المسلم الباكر، أولاً باعتبارهما قاعدتين عسكريتين كان يتم إرسال الجيوش منهما لفتح إيران والشرق وبعد ذلك باعتبارهما مركزين ثقافيين . وكانت الكوفة مهمة من الناحية السياسية أيضاً ، ومركزاً رئيسياً لمقاومة الخلفاء الأمويين فى دمشق ومركز حركة مساندة عائلة النبى وهى الحركة التى قبض لها أن تتحول إلى المذهب الشيعى . وقد أدى تأسيس بغداد، على مسافة كيلو مترات قليلة فقط إلى الشمال، إلى إنزال ضربة قاصمة برحاء المدينة . وبحلول القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى كانت تعاني من الاضمحلال الكامل، ولم يبقَ المدينة حية سوى مكانة المسجد القديم بوصفه مزاراً . أما البصرة ، فكانت على النقيض من الكوفة بعيدة بما يكفى لأن تنجو من

جاذبية بغداد وتبقى ميناء مهماً على رأس الخليج . وعلى الرغم من أن مركز المدينة قد تحول ، فإن الأساسات التي وضعها أبو موسى الأشعري قد نجت من عواصف الزمن عبر العصور وهي الآن ثاني أكبر مدينة بالعراق .

وفى الوقت نفسه تقريباً ، كانت هناك قوة من الكوفة تسير صاعدة نهر دجلة تجاه الجزيرة ، وتقبل استسلام المدن والقرى على امتداد ضفتى النهر وفى السهول المجاورة. وعندما وصلوا إلى الموقع الذى تقوم فيه مدينة الموصل الآن وجدوا قلعة ، وبعض الكنائس المسيحية وعدداً قليلاً من البيوت ومستوطنة من اليهود . وبعد غزو هذا المجتمع الصغير مباشرة ، شرع العرب فى بناء مدينة جديدة فى الموقع، كانت هى أساس مدينة الموصل الحديثة. وتم توزيع خرائط الأرض على العرب لبناء المنازل ونمت المدينة بسرعة لتصير واحدة من المراكز الحضرية الرئيسية فى العراق^(٩٣).

ومن الصعب تماماً أن نتأكد من التتابع الزمنى للأحداث ، بيد أننا يمكن أن نكون واثقين بشكل معقول من أنه بنهاية سنة ٦٤٠م كانت قوات المسلمين قد سيطرت على الأراضى الزراعية فى العراق من تكريت فى الشمال حتى الخليج فى الجنوب وشرقاً حتى سفوح التلال فى جبال زاغروس . وظل الاستقرار الإسلامى مبعثراً إلى حد بعيد كما كان مركزاً بدرجة كبيرة فى مدن الحاميات التى كانت قد تأسست منذ وقت قريب فى الكوفة والبصرة وعلى نطاق أصغر فى الموصل. وكانت هناك حامية تحفظ العاصمة الفارسية القديمة المدائن (طيسفون) وربما هناك حاميات أخرى لانعرف عنها شيئاً . كانت أعداد الفاتحين قليلة للغاية لا تكفى أن يخضعوا هذه البلاد الكبيرة المأهولة ويحافظوا عليها . وكان العشرون ألفاً من الذكور البالغين الذين استقروا بالكوفة فى البداية محاطين بعدد من السكان فى الريف المحيط يعتقد أنهم وصلوا إلى نصف مليون نسمة^(٩٤). وعلى الرغم من أن عدد العرب قد ذاب فى أعداد المهاجرين الجدد، فإنهم كانوا دائماً أقلية صغيرة جداً ، ولم يكن ممكناً ، فى الجيل الأول، أن يشكلوا أكثر من عشرة بالمائة من المجموع الكلى . ولا بد أن مشكلاتهم كانت مركبة بطبيعة الأرض التى كانت تتخللها قنوات الري. ومن المؤكد أنه لم يكن ممكناً فتح الأرض

والحفاظ عليها لو واجه المسلمون مقاومة شعبية حاسمة . وعلى أية حال ، فإن المقاومة الجادة الوحيدة جاءت من قبل الجيش الملكي الفارسي . ولأسباب ليست واضحة كلية ، فشل هذا الجيش مراراً أن يصمد في مواجهة القوات العربية . ففي ميادين المعارك في القادسية وجلولاء ، وفي مدن مثل المدائن وتُستَر ، لقيت القوات الساسانية هزائم قاصمة . ومع انهيار الجيش الفارسي ، كان العرب جاهزين لوضع شروط سهلة مع بقية السكان - إذ إنهم لم يرتكبوا مذابح ضد سكان المدن والقرويين ، ولم يستولوا على منازلهم أو أراضيهم ، ولم يتدخلوا في دياناتهم أو عاداتهم ، بل إنهم لم يستقروا بينهم . وطلبوا فقط دفع الضرائب ، وألا يساعد السكان أعداءهم . ولا يمكن التحقق مما إذا كانت الضرائب أكثر أو أقل مما كانت عليه تحت الإدارة السابقة ، ولكننا يمكن أن نكون واثقين من أن غالبية الناس في العراق كانوا يعتقدون إنها صفقة جيدة .

الهوامش

- (١) عن التاريخ العام للإمبراطورية الساسانية انظر :
A. Christensen. L'Iran sous les Sassanides (rev. 2nd edn, Copenhagen, 1944);
Cambridge History of Iran, vol. III; The Seleucid, Parthian and Sasanian Periods,
ed. E. Yarshater (Cambridge, 1983); M. Morony, 'Sasanids', in Encyclopaedia of
Islam, 2nd edn, with full bibliography; Z. Rubin, 'The Sasanian Monarchy', in
Cambridge Ancient History, vol. XIV: Late Antiquity: Empire and successors. A.D.
425-600, ed. A. Cameron, B. Ward-Perkins and M. Whitby (Cambridge, 2000),
pp. 638-61; for Iraq under Sasanian rule, see M. Morony, Iraq after the Muslim
Conquest (Princeton, NJ, 1984),
(٢) عن الزرادشتية في إيران انظر : Morony, Iraq, pp. 281-300.
(٣) عن المسيحيين واليهود انظر : Ibid., pp. 306-42.
(٤) عن تاريخ الزراعة والاستقرار في وسط آسيا انظر :
R. McC. Adams, The Land behind Baghdad: A history of settlement an the Diyala
Plain (Chicago, IL, 1965).
(٥) Morony, Iraq, pp. 185-90.
(٦) On the Aramaens, see ibid., pp. 160-90.
(٧) Maurice's Strategikon; handbook of Byzantine military Strategy, trans. G. T. Dennis (v)
(Philadelphia, PA, 1984), pp. 113-15.
(٨) الرواية التالية قائمة على أساس :
R. N. Frye, 'The political history of Iran under the Sasanians', in Cambridge
History of Iran, vol. III: The Seleucid, Parthian and Sasanian Periods, ed. E.
Yarshater (Cambridge, 1983), pp. 168-71.
(٩) Adams, Land behind Baghdad, pp. 81-2.
(١٠) Donner, Early Islamic Conquests, pp. 170-73.
(١١) Ibid., p. 178.
عن حملات خالد في العراق، انظر : Baladhuri, Futuh, pp. 241-50.

Donner, Early Islamic Conquests, p. 179. (١٢)

Baladhuri, Futuh, pp. 242-3. (١٣)

Baladhuri, Futuh, p. 243. (١٤)

(١٥) نُشرت الحفائر التي قادها د. تاليت راييس بعنوان :

The Oxford excavations at Hira, 1931", Antiquity 6.23 (1932): 276-91

ومن المحزن أنه لم تكن هناك بعثات أخرى في الموقع .

Baladhuri, Futuh, p. 244. (١٦)

Baladhuri, Futuh, p. 243. (١٧)

Baladhuri, Futuh, pp. 247-8. (١٨)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2159. (١٩)

Baladhuri, Futuh, pp. 251-2. (٢٠)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2178. (٢١)

Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2174-5. (٢٢)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2179. (٢٣)

Baladhuri, Futuh, p. 254. (٢٤)

Baladliuri, Futuh, p. 2 55. (٢٥)

Firestone, Jihad: The Origin of Holy War, p. 106. (٢٦)

Donner, Early Islamic Conquests, p.206. (٢٧)

Ibid., p. 221. (٢٨)

Ibid., p. 205. (٢٩)

Baladhuri, Futuh, pp. 255-62. (٣٠)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2377. (٣١)

Sebeos, The Armenian History, pp.98-9 , 244-5 ; Movses of Dasxuranci, The (٣٢)

History of the Caucasian Albanians, trans. C.J. F. Dowsett (Oxford, 1961), pp. 110-11.

Christensen, L'Iran, pp. 499-500. (٣٣)

Especially Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2247-9. (٣٤)

Firdawsi, Shahnamah, trans. D. Davis (Washington, DC, 1998-2004), Vol. III, (٣٥)
pp. 492-6.

Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2269-77. (٣٦)

Tabari, Ta'rikh I, p. 2270. (٣٧)

(٣٨) الكلمة المستخدمة هي «ترجمان» ، وتنطق جيم مصرية وصارت dragoman المصطلح المستخدم من جانب الرحالة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في شرق المتوسط لتسمية المرشدين والوكلاء المحليين.

(٣٩) أسماء الساري والشعيب Tabari, Tarikh, T, p. 2269.

(٤٠) Baladhuri, Futuh, pp. 259--60.

(٤١) Firdawsi, Shahnumah, III, p. 499.

(٤٢) Baladhuri, Futuh (A, p. 258).

(٤٣) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2421.

(٤٤) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2411.

(٤٥) نائل بن جشعم وعرفجه التميمي :

Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2422-4, trans. Juynboll.

(٤٦) Morony, Iraq, p. 186.

(٤٧) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2425.

(٤٨) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2429-30.

ويقترح جوينبول تعريف أفريديون ولكنه ليس مؤكداً . والمعنى العام للملاحظات واضح تماماً على أى حال.

(٤٩) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2433-4.

(٥٠) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2438.

(٥١) Baladhuri, Futuh, p. 263. p. 52. Tabari, Ta'rikh, I, p. 2451.

(٥٢) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2441, 2451.

(٥٣) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2450-56.

(٥٤) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2445.

(٥٥) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2446.

(٥٦) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2446-7.

(٥٧) Tabari, Ta'rikh, I, p. 2453.

التقاليد الفارسية في نسج السجاد قديمة جداً ولكن ليس هناك أثر من السجاد باق من هذه الفترة ويرجع تاريخ أقدم سجاد فارس إلى القرن الخامس عشر وأكثر القطع اكتمالاً مثل سجادة أردبيل ترجع إلى القرن السادس عشر ومثل هذه الأوصاف توضح أن مثل هذه الأعمال الفنية كان موروثة عن تراث استمر ألف سنة.

(٥٨) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2453-4.

(٥٩) Baladhuri, Futuh, p. 64; Tabari, Ta'rikh, I, p. 2445.

(٦٠) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2442-3.

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2457. (١٢)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2459. (١٣)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2463. (١٤)

Tahari, Ta'rikh, I, pp. 2462. (١٥)

Donner, Early Islamic Conquests, p. 213, estimates the numbers. (١٦)

Baladhuri, Futuh, p. 341. 6y. Koran, 4:15-16. (١٧)

Baladhuri. Futuh, p. 345. (١٨)

(٧٠) عن هذا النص انظر :

C. V. Robinson, 'The conquest of Khuzistan; a historiographical reassessment',

Bulletin of the School of Oriental and African Studies 67 (2004) : 14-39 .

Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2567-8. (٧١)

Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2464-6. (٧٢)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2567. (٧٣)

Khuzistan Chronicle and Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2554-5. (٧٤)

Tabari Ta'rikh, I, pp. 2557-9; Tabari, Ta'rikh, I, p. 2560. (٧٥)

يقدم تنويهاً مع قليل من الاختلاف .

(٧٦) عن الحمراء انظر :

Morony, Iraq, pp. 197-8; M. Zakeri, Sasanid Soldiers in Early Muslim Society.

The origins of 'Ayyarin and Futuwwa (Wiesbaden, 1995), pp. 116-20 .

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2261. (٧٧)

Tabari , Futuh. p. 280; Morony, Iraq, p. 197. (٧٨)

See Morony, Iraq, p. 198 ; Zakeri, Sasanid Soldiers, pp. 114-15.80. (٧٩)

Baladhuri, Futuh, p. 280. (٨٠)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2484. (٨١)

Donner, Early Islamic Conquests, p. 229. (٨٢)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2488. (٨٣)

(٨٤) عن المسجد انظر :

see Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2488-94; H. Djait, Al-Kufa: naissance de la ville
islamique (Paris, 1986), pp. 96-100.

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2494. (٨٥)

Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2490-91. (٨٦)

- Tabari, Ta'rikh, I, p. 2492. (٨٧)
- Tabari, Ta'rikh, T, pp. 2491-5. (٨٨)
- Djait, Naissance, pp. 102-3. (٨٩)
- يرفض رواية سيف دون إعطاء أسباب مقنعة والحقيقة أننا لانعرف .
- Djait, Naissance, p. 108-111. (٩٠)
- On this, see Donner, Early Islamic Conquests, p. 230. (٩١)
- See H. Kennedy, The Armies of the Caliphs (London, 2001), pp. 60-74. (٩٢)
- Baladhuri, Futuh, p. 332. (٩٣) عن أصل الموصل وتطورها الباكر انظر
- Robinson, Empire and Elites, pp. 63-71.
- Morony, Iraq, p. 175. (٩٤)

فتح مصر

كانت فتوح الشام والعراق قد أعقبت فتح شبه الجزيرة العربية بشكل طبيعي. ففي بلاد الشام، وفي العراق بدرجة أقل، كتان هناك عرب بالفعل، من المستقرين والبدو على السواء، إما تم دمجهم في جيوش المسلمين أو تم إخضاعهم. وكان منطقياً، بل حتمياً أن تتحرك الجيوش الإسلامية من هناك لغزو الشعوب غير العربية بالمنطقة .

أما مصر فكانت مختلفة تماماً^(١). ففي العالم الحديث نفكر في مصر باعتبارها بلداً عربياً، وهي من عدة وجوه مركز سياسى وثقافى فى العالم العربى . وفى بداية القرن السابع الميلادى لم تكن هذه هى الحال على الإطلاق . فلم يكن هناك على ما يبدو استقرار عربى كبير، ولم تكن هناك قبائل عربية تجوب الصحراء وكان هناك عدد قليل من التجار العرب يمارسون العمل فى المدن. ومن المؤكد أن المسلمين الأوائل كانوا يعرفونها ولكن يبدو أن اتصالاتهم معها كانت قليلة .

وقصة الفتح موسعة فى المصادر العربية بكم هائل من التفاصيل المربكة^(٢). وقد أنتجت مصر فى القرنين الثانى والثالث الهجريين/الثامن والتاسع الميلاديين مدرستها الخاصة فى الكتابة التاريخية وكانت منفصلة تماماً عن التقاليد العراقية التى نعتمد عليها فى تاريخ فتوح الهلال الخصيب وإيران. فالمؤرخ الكبير الطبرى الذى استقر فى بغداد، والذى كرس مئات الصفحات لجمع قصص الفتوح فى بلاد الشام ، والعراق وإيران ، يخصص لفتح مصر أقل من عشرين صفحة^(٣). وقد تطورت فى مصر تقاليد محلية قوية فى كتابة التاريخ، على أية حال. وقد تم جمع قصص الفتح الإسلامى

البلاد وتدوينها على يدي المؤرخ عبد الرحمن بن عبد الحكم (٨٠٥م تقريباً - ٨٧١م) في منتصف القرن التاسع الميلادي/الثالث الهجري^(٤). وهو ابن لعائلة عربية كان أجدادها قد جاءوا مع الفتح ، وسعى إلى تسجيل وحفظ ذكرى الأعمال العظيمة في ذلك الزمان . فقد كتب في وقت كانت فيه الأرستقراطية العربية القديمة في مصر قد استبدلت بنخبة عسكرية من الأتراك الذين تم إحضارهم من الشرق ، وتحمل تقاريره أريج الحنين إلى الأيام التي كانت فيها عائلته ، والعائلات التي تشبهها ، تحكم البلاد. وقد استقى معلوماته من مؤلفات متنوعة ، مفقودة الآن، كان تم تأليفها في القرن الثامن وبداية القرن التاسع الميلاديين (الثاني والثالث بعد الهجرة) بمصر^(٥)، وربما كانت هذه المصادر نفسها قد قامت على أساس من التراث الشفوي المحلى وتعكس ذاكرة اجتماعية إسلامية باكرة حقيقية عن الفتح . ومن المفيد أن نعتبر هذه النصوص مجموعة منفصلة من الأدب المكتوب وسوف أشير إلى هذه المادة باعتبارها الكتابة المصرية - العربية.

وفي الوقت نفسه ، فإن الفتح الإسلامي مسجل في مؤرخة مسيحية معاصرة كتبها يوحنا أسقف نقيوس ، وهي مدينة صغيرة على الحواف الغربية للدلتا^(٦)(*) . وكان يوحنا معاصراً قريباً من الأحداث التي يصفها ، ولذلك فإن روايته انعكاس للمواقف في ذلك الوقت. كما أنه يمدنا ببعض التواريخ الواضحة التي تساعدنا في الحد من الفوضى المربكة للسرديات العربية ووضعها في إطار زمني متابعي . وعلى أية حال، فإن المؤرخة لاتخلو من المشكلات الخاصة بها . فالأصل القبطي مفقود منذ زمن طويل ولا يوجد سوى في مخطوط وحيد مترجم إلى اللغة الجعزية (وهي اللغة الطقوسية القديمة للكنيسة الحبشية) كتب في القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) . ومن الواضح أن الترجمة مشوشة في بعض الأماكن ومن الصعب معرفة مدى دقتها في نقل الأصل. وهناك ثغرات أيضاً في نقاط حاسمة ، مثل استسلام حصن بابليون. وعلى أية حال ، فإن يوحنا يقدم بالفعل سرداً متماسكاً كما يوفر لنا تحقيقاً مفيداً للتراث المصري العربي.

(*) كانت نقيوس (التي اندثرت في العصر الفاطمي) تقع في نطاق مركز كفر الزيات بمحافظة الغربية حالياً . انظر : عمر صابر عبد الجليل ، تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي - رؤية قبطية للفتح الإسلامي (دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ٢٠٠٠م). (المترجم)

وفى العصر الحديث تمت تغطية تاريخ فتح مصر فى كتاب ألفريد بتلر

A. Butler A The Arab Cpnquest of Egypt and the last Thirty Year of Roman Donina tion"(*)^(٧).

وبأسلوبه الجزل الرنان الذى ينتمى إلى العصر الفيكتورى المتأخر، يقدم بتلر صورة باهرة عن الأحداث المثيرة المرتبكة . كان بتلر شديد الحماسة للأقباط وأحسُّ بأنه قادر على إصدار أحكام أخلاقية كاسحة ضد أعدائهم ، وأولئك الذين يطعنون عليهم بطريقة يتردد المؤرخون المحدثون كثيراً فى اتباعها . كما كان باحثاً عظيماً ، على أية حال، ومع أنه كتب قبل أن يصير النص الأصيل لابن عبد الحكم متاحاً ، فإن الكثير من أفكاره واستنتاجاته صمدت لاختبار الزمن.

كانت مصر أرض الفراعنة ، الذين تُسيطر آثارهم ومعابدهم على كثير من المشهد فى مصر، وأدهشت أهرامهم العجيبة الغامضة المسلمين آنذاك مثلما تدهشنا الآن. ولم يكن أى رحالة أو غاز لم ينبهر بآثار العظمة القديمة . وقد عرف المسلمون مصر من خلال قصة يوسف ، التى أعاد القرآن الكريم حكايتها ، أو بالأحرى علق عليها(**)، وكانت الأهرام بالنسبة لهم مخازن الغلال التى بناها يوسف(***) .

(*) ترجمه إلى العربية محمد فريد أبو حديد بعنوان فتح العرب لمصر (المترجم)

(**) هذا كلام يفتقر إلى الدقة لأن صلات عرب شبه الجزيرة بمصر قديمة ووثيقة على نحو ما تخبرنا المصادر التاريخية ، والبحوث الأثرية ، لاسيما فى إقليم الحجاز، كما أن من الثابت أن عدداً من العرب زاروا مصر قبل الإسلام لأغراض التجارة والعمل ، كما ذكر المؤلف نفسه. (المترجم)

(***) الناظر فى المصادر التاريخية العربية لن يجد بسهولة ما يؤيد ما ذهب إليه المؤلف ببساطة ؛ فقد تحدثت هذه المصادر عن الأهرام بوصفها قبوراً لملوك مصر القديمة، كما تحدثت عن وصفها من الداخل بعد أن نجح البعض فى ثقبها عند زيارة الخليفة المأمون بن هارون الرشيد لمصر ؛ انظر المقرئى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، (طبعة سلسلة الذخائر - قصور الثقافة - ، رقم ٥١) ، ج ١ ، ص ١١١-١٢٢ ، حيث لا يرد ذكر لمسألة مخازن الغلال التى بناها يوسف عليه السلام . ولكن هناك روايات أخرى عن أنها كانت مخازن الغلال التى بناها يوسف ؛ إلا أن المؤرخين المسلمين لم يعتدوا بها كثيراً. (المترجم)

ولكن فى الوقت الذى عبرت فيه جيوش المسلمين الحدود المصرية للحرّة الأولى، كانت قد مضت تقريباً ألف سنة منذ خلع الإسكندر الأكبر آخر الفراعنة (الفترة الزمنية نفسها التى تفصلنا عن معركة هاستنجز والفتح النورمانى لانجلترا)^(٨). وفى الفترة الواقعة بينهما كانت البلاد تحت حكم خلفاء الإسكندر، البطالمة، وكانت قد صارت ولاية غنية وقيمة من ولايات الإمبراطورية الرومانية، تمد العاصمة بالكثير من الغلال. ومصر فى أيامنا هذه مستورد رئيسى للطعام، حيث إن موارد نهر النيل لايمكنها إطعام سبعين مليوناً من السكان. وفى العصور الرومانية، على أية حال، ربما لم يكن هناك أكثر من خمسة ملايين نسمة يعيشون فى المنطقة: وفى أواخر الفترة الرومانية، ونتيجة لأحد الأوبئة، ربما لم يكن العدد يزيد على ثلاثة ملايين^(٩). وإذ كانت الأراضى الخصبة على امتداد النهر تحت إدارة سليمة، يروىها الفيضان السنوى ويجدد خصوبتها، فإنها كانت تنتج فائضاً منتظماً.

وعلى الرغم من أن هذه المنفعة كانت لصالح الأجانب، فإن الكثير من الأشياء فى مصر بقيت دونما تغيير. فقد كان الأباطرة المؤلهون قد تواءموا بسهولة داخل مجمع الآلهة المصرى والواقع أن مصر صدّرت الآلهة مثل أوزيريس مع الغلال إلى روما. وكان قدوم المسيحية بمثابة بداية الانفصال الحقيقى عن الماضى القديم.

كان القرنان الرابع والخامس الميلاديان نوعاً من العصر الذهبى للمسيحية المصرية^(١٠). فقد صار بطارقة الإسكندرية آنذاك بمثابة كبار موظفى الإمبراطورية الشرقية، يجنون الثروات الطائلة ويمارسون نفوذاً هائلاً. وكان الأنبا باخوم (ت ٣٤٦م) هو الذى قاد حركة تأسيس الأديرة الجماعية الكبيرة، التى كانت هى الأولى فى العالم المسيحى، وكان فى مصر أكثر من أية منطقة أخرى فى العالم المسيحى الباكر أن تطورت الديرية لأول مرة. وقد عاش النُساك من أمثال الأنبا أنطونيوس (ت ٣٥٦م) فى الصحراء الموحشة التى تحف بوادى النيل وضرب مثلاً للزهد المسيحى فى كل مكان.

وإذا كان ذلك وقتاً للبداية والأمل بالنسبة للمسيحيين، فإنه كان نهاية عصر الوثنية المصرية القديمة والثقافة التى واكبتها أيضاً. وفى الإسكندرية المتأغرقة تم نهب

السرايوم الشهير بأمر من البطريك ثيوفيلوس Theophilus (٢٨٥-٤١٢م) وتحول إلى كنيسة مكرسة ليوحنا المعمدان على حين صار المعبد والسرايوم فى كانوبوس كنيسة مكرسة للقديسين سيريل ويوحنا . وهرب آخر المثقفين الوثنيين خوفاً على حياتهم ، على حين لجأ الرهبان إلى وضع أيديهم على أطلال العظمة القديمة. والأسطورة التى تزعم أن العرب أحرقوا مكتبة الإسكندرية، وأحرقوا معها الموروث العظيم ، للتعليم الكلاسيكى، لها تاريخ طويل ولا تزال لعبة بأيدي أولئك الراغبين فى الحط من قيمة الإسلام الباكر. والحقيقة الحزينة هى أن مكتبة البطالمة العظيمة يحتمل أن تكون قد دُمرت فى سنة ٤٨ ق.م عندما أحرق يوليوس قيصر الأسطول فى ميناء الإسكندرية وانتشر اللهب . ويرجح أن مكتبات المعبد التى جاءت بعدها قد نالها الدمار أو تفرقت شذراً على أيدي المسيحيين فى القرن الرابع الميلادى^(١١).

وفى الوقت نفسه خضع الإرث الكلاسيكى لهجوم قوى فى الإسكندرية، وكانت تقاليد مصر الفرعونية فى سبيلها إلى النهاية أخيراً . وكان آخر نقش هيروغليفى مؤرخ، يسجل مهرجان الاحتفال بمولد إيزيس قد نقش يوم ٢٤ أغسطس سنة ٣٩٤م على جدران معبد فيله بأسوان^(١٢). وقبل فتح العرب للبلاد بزمان طويل، كانت معرفة الخط القديم، الذى كان قد سجل أعمال الفراعنة ، وقساوستهم ووزرائهم ، قد توارى فى غياهب النسيان وبقي كذلك، حتى بالنسبة للمصريين ، طوال العصور الوسطى.

ولم يكن فقدان الموروثات الوثنية يعنى أن الكتابة والتسجيل قد اختفيا من مصر. إذ كانت الإدارة الإمبراطورية تعمل باللغة اليونانية ، كما كان حالها فى شتى أنحاء الإمبراطورية الشرقية . وإلى جانبها لجأت الكنيسة إلى اتخاذ تنويع من الأبجدية اليونانية لكتابة اللغة المصرية الوطنية الشفوية . وصارت «اللغة القبطية» الوسيلة التى تم بها حفظ الأدب الكنسى النامى وتراث مصر، كما أعطت اسمها للكنيسة المحلية .

لم يكن رسوخ المسيحية ديانة رسمية وحيدة فى مصر ، واعتناق غالبية السكان لها ، يعنى نهاية الصراع الأيديولوجى، لأن الانشقاق المونوفيزيتى (مذهب الطبيعة الواحدة) الذى كان قد قسم الكنيسة فى بلاد الشام على هذا النحو، اندلع على نحو

أشد حدة وضراوة فى مصر. إذ رفضت الغالبية العظمى من الأساقفة والرهبان المصريين قرارات مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م ، التى أرست المذهب الديوفيزيتى (مذهب الطبيعتين) باعتباره دين الدولة فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) . ومنذ ذلك الحين فصاعدا ، كان هناك صدع صريح وعنيف غالباً بين بطاركة الإسكندرية الذين تعينهم الإمبراطورية وبقية الكنيسة المصرية. وأخذت المعارضة ، التى يمكن تسميتها الكنيسة القبطية فى ذلك الحين، تنتخب بطاركتها وأساقفتها. وفى المدن الصغيرة والقرى على امتداد وادى النيل ، وفى الأديرة الكثيرة المتناثرة على طول الحواف الصحراوية ، كانت الكنيسة الإمبراطورية بالإسكندرية تُعتبر كنيسة أجنبية غريبة ، ظالمة بل هرطقية . ومن المحتمل أنه لم يكن هناك سوى قلة قليلة من الناس يمكن أن يحتشدوا لمساندتها إذا ما هاجمتها قوة خارجية .

وكما كان الحال فى مناطق أخرى من الشرق الأوسط ، كان الحكم البيزنطى قد اهتز من جراء سلسلة من الكوارث منذ منتصف القرن السادس الميلادى فصاعداً . وفى سنة ٥٤١م كانت مصر أول بلد فى حوض البحر المتوسط يحل بها الوباء الذى تسبب فى مثل هذا الخراب فى جميع أرجاء المنطقة. وكان أول انتشار له متبوعاً بموجات أخرى، وقد افترض البعض أن السكان قد انخفض عددهم إلى حوالى ثلاثة ملايين نتيجة لهذا^(١١). وصارت مصر أرضاً شبه خالية. كذلك كانت للحروب الفارسية الكبرى ، التى بدأت سنة ٦٠٢م ، أثرها على مصر . وفى البداية كانت الحملات محدودة بشمال بلاد الشام والأناضول ، ولكن بعد سقوط بيت المقدس بأيدي الفرس فى مايو سنة ٦١٤م ، كانت مصر فى خط الجبهة . وغمرت البلاد موجات من اللاجئين الهاربين من الغزاة . وفى سنة ٦١٧م دخل جيش فارسى مصر عن طريق الساحل من فلسطين. واستولوا على بلوزيوم (قرب بورسعيد حالياً) ، ونهبوا الأديرة ثم توجهوا جنوباً إلى رأس الدلتا . وليست هناك تقارير عن مقاومة من جانب الحصن الرومانى فى بابليون ، الذى كان يحرس هذه النقطة الاستراتيجية المهمة ، ثم توجهت الجيوش الفارسية صوب الشمال الغربى على طول الحافة الغربية للدلتا إلى الإسكندرية . وهناك واجهوا المقاومة العسكرية الجادة الوحيدة طوال حملتهم . ومن الواضح أن أسوار

المدينة كانت بحالة جيدة . ويخبرنا مصدر سورى معاصر أن المدينة «كانت قد بناها الإسكندر حسب نصيحة أستاذه أرسطو ، مدينة تحيط بها الأسوار، وتطوقها مياه النيل ، ولها بوابات كبيرة»^(١٤). وتم الدفاع عن هذه الأسوار بهمة ومكث الجيش الفارسى لحصار المدينة. كما أنهم انتهزوا الفرصة لنهب الأديرة وسلبها بالضواحي المحيطة بالمدينة. وربما كان السكان قد تدهورت معنوياتهم بسبب قطع إمدادات الغذاء التى كان ترد إليهم من بقية أنحاء مصر وعدم وجود أمل فى المساعدة من القسطنطينية ، بيد أن لدينا أيضا قصة عن الخيانة من جانب أحد السكان. ففى النهاية يبدو أن الفرس دخلوا المدينة عن طريق الميناء والبوابات المائية التى كان الدفاع عنها أقل منه على البوابات الأرضية ، وفى سنة ٦١٩م كانوا قد أعلنوا أنفسهم سادة على الإسكندرية . ثم سارت الجيوش الفارسية إلى الجنوب ونهبت الكثير من الأديرة حتى إخضاع وادى النيل كله إلى أسوان.

ويبدو أن الغزو الفارسى الأول لمصر ، وفلسطين كان مدمراً للغاية ، للأرواح والممتلكات على السواء ، وخاصة بالنسبة للكنائس ومحتوياتها ، ولكنهم ما إن أرسوا سيطرتهم ، يبدو أن حكمهم كان أخف وطأة : ومن المؤكد أنه ليس هناك مؤشرات على أنهم بذلوا أى جهد لإجبار الناس على اعتناق الزرادشتية ، أو حتى لتشجيع الناس على اعتناقها . ولابد أن الفرس قد بقوا أقلية منفصلة وأجنبية بون أن تكون لهم جذور ثابتة فى البلاد.

وقليل ما نعرفه عن الإحدى عشرة سنة من الحكم الفارسى غير أنه انتهى نهاية سلمية تماماً. ففى يوليو سنة ٦٢٩م، تقابل الإمبراطور هرقل الذى كان فى ذلك الوقت قد غزا فارس ونهب طيسفون (المدائن) مع القائد الفارسى شاهبراز فى أرابيسوس Arabissos جنوب شرق تركيا الحالية ووافق على الانسحاب السلمى لما تبقى من القوات الفارسية فى مصر .

ولم يكن استئناف الحكم البيزنطى بداية فترة من السلم والانسجام . فكما كان يحدث غالباً فى هذه الفترة ، كان السبب الحقيقى فى الصراع كامناً فى العداوة بين

المذاهب والطوائف المسيحية ، وفى هذه الحال بين الأغلبية القبطية المونوفيزيتية والأقلية الخلقونية (الملكانية) التى كانت تتمتع بدعم حكومة القسطنطينية . وفى حالة مصر تفاقمت الأمور بسبب المنافسة الشخصية القوية. فقد كان البطريرك القبطى بنيامين سليل عائلة من ملاك الأراضى الأثرياء^(١٦) وفى عيد الميلاد سنة ٦٢١م ، فى أثناء الاحتلال الفارسى ، كان قد دخل أحد الأديرة قرب الاسكندرية وسرعان ما تميز بتدينه وعلمه . ووفقا لما كتبه كاتب سيرته المعجب به ، كان «وسيماً فصيحاً ، هادئاً مبعجلاً فى كلامه»^(١٧). وانتقل بسرعة إلى المدينة مساعداً رئيسياً للبطريرك أندرونيكوس ، وقبل أن يموت سنة ٦٢٣ عيّن بنيامين ، الذى يحتمل أن عمره آنذاك كان خمسة وثلاثين عاماً ، خليفة له. وفى البيئة اللطيفة نسبياً تحت الحكم الفارسى ، انطلق البطريرك الجديد فى العمل على إصلاح الكنيسة ، وقام بجولة تفتيشية فى بابلليون وحلوان ، وكان يلقى الترحيب فى كل مكان بالهتاف من الناس.

وقد أنهى إعادة فرض الحكم البيزنطى هذه الفترة من التسامح . فمتلما كان الحال ببلاد الشام كان هرقل قد عقد العزم على إعادة توحيد الكنيسة فى مصر تحت السلطة الإمبراطورية. وتحقيق هذا عين رجلاً يسمى كيروس Cyrus ، الذى عرفته المصادر العربية باسم المقوقس لأسباب غير واضحة بالمرّة^(*). وكان مثل الكثيرين من مؤيدى هرقل قد جاء من منطقة القوقاز حيث كان فيما سبق أسقف فاسيس Phasis . وعلى خلاف بنيامين لم تكن له جذور فى مصر ولا أية خبرة بالبلاد . وكان قد تم تعيينه آنذاك بطريرك كنيسة الاسكندرية وأيضاً والياً مدنياً على مصر ، نائباً فعلياً للإمبراطور. وعند وصول كيروس فى خريف سنة ٦٢١م هرب بنيامين من المدينة ، ويقال إن ملاكاً زاره فى المنام لتحذيره . وقبل هروبه جمع الإكليروس والعلمانيين من رعايا الكنيسة ، وحثهم على التمسك بكنيستهم ، وكتب إلى جميع الأساقفة ، ينصحهم بالهرب إلى

(*) ربما كان اسم «المقوقس» مشتقاً من إسم منطقة القوقاز بنطقها اليونانى "Caucasus" كاوкасوس ، وإذا قلبت الكاف قافاً ، على عادة العرب وتم وضع الميم فى البداية لتسهيل النطق بينو الشبه قريباً للغاية. ومن ناحية أخرى جرت عادة العرب على نسبة الناس إلى قبائلهم أو بلادهم. (الترجم)

الجبال والصحارى للاختباء من الغضب الآتى. ثم غادر المدينة ليلاً ، واتجه فى البداية غرباً إلى مدينة سانت ميناس (مارمينا) ثم على امتداد الجانب الغربى من الدلتا ، ليشق طريقه أخيراً إلى دير صغير بالقرب من قوص فى صعيد مصر ، اشتهر على مر القرون باعتباره المكان الذى لجأ إليه^(١٨).

ووصل كيروس مسلحاً بالثقل الكامل للسلطة الإمبراطورية وعُهد إليه بمهمة توحيد الخلقونيين الديوفيزيتيين والأقباط المونوفيزيتيين فى الصيغة اللاهوتية المونوثليتيية المخزية التى وضعها الإمبراطور فى محاولة لإيجاد أرضية وسطى بين الإثنين . ويقدر ما يمكننا أن نحكى كان كيروس رجلاً حازماً ولكنه بلا جاذبية ، كانت القيادة لا الإقناع من خصاله الطبيعية . وعقد مجلساً فى الإسكندرية ولكن الاجتماع فشل . وشعر الخلقدونيون أنه قد تم التسليم بأكثر مما ينبغى وأن دعمهم كان تدمراً فحسب ؛ أما الأقباط ، فقد رفضوا هذه الصيغة تماما . فبالنسبة لهم لم تكن الصيغة توفيقاً على الإطلاق ، وإنما هى مجرد محاولة لفرض المذاهب الكريهة لمجمع خلقونية. كان الصدع بين الطبقة الحاكمة والعسكرية الناطقة باليونانية فى الإسكندرية وأغلبية السكان الأقباط ، عميقاً بحيث لا يمكن إصلاحه كما كان دائماً .

كانت الحاميات البيزنطية متمركزة فى جميع أنحاء البلاد وسعى كيروس إلى فرض السلطة الإمبراطورية بالقوة . وترسم المصادر القبطية - سير البطارقة والقديسين - صورة حية للاضطهادات الوحشية والمنظمة ، التى قام فيها كيروس بدور أولئك البطارقة الذين كانوا يواجهون الاضطهاد فى القرن الثالث الميلادى. وكان حلول الحكم المسيحى محل الفرس لايمثل ميزة للكنيسة القبطية . وحسب تعبير بتلر «لقد أعقب الضرب بالسياط التأديب بالعقارب»^(١٩). وقد زادت القصص عن قسوة كيروس والسلطات الإمبراطورية، والمقاومة البطولية التى أبداها الأقباط . واستشهد مينا أخو بنيامين ، وكان العذاب الذى قاساه من أجل عقيدته يتم تذكره بحب . فقد عُدب بالنار أولاً حتى سقط شحمه من جانبيه على الأرض». ثم خلعت أسنانه . ويعدها تم وضعه فى غرارة مليئة بالرمال . وكان يُعرض عليه فى كل مرحلة إنقاذ حياته إذا ما قبل قرارات مجمع خلقدونية؛ وكان يرفض فى كل مرحلة . وأخيراً أخذوه مسافة سبع

رميات بالقوس إلى البحر وأغرقوه. ولم يكن ثمة شك لدى كاتب سيرة بنيامين فيمن يكون المنتصرون . «لم يكونوا هم المنتصرين على ميناء، بطل العقيدة ، ولكن ميناء تغلب عليهم بالصبر المسيحي»^(٢٠).

وقيل إن الاضطهادات قد استمرت على مدى عشر سنوات. وسواء كان الاضطهاد قاسياً صارماً حسبما تزعم سير الشهداء المسيحيين أم لا ، فإننا لانعرف الحقيقة ، ولكن الروايات تكشف عن مناخ من الخوف والعداوة العميقة المتمكنة تجاه السلطات الإمبراطورية. وكان كثير من القبط يظنون أن أى شئ سيكون أفضل من ذلك .

على هذه الخلفية، التي تمثلت فى إدارة تمت إقامتها منذ وقت قريب للغاية من جديد للدولة البيزنطية وفى الانقسام الحاد بين الروم والقبط، بدأ الفتح الإسلامى لمصر. وبينما حاول كيروس ، بقدر قليل من النجاح، أن يفرض إرادته على مصر ، كانت الفتوح الإسلامية تحت الخطى فى بلاد الشام . ولا بد أن يكون القلق قد انتاب السلطات فى الإسكندرية بشكل خطير وبحلول سنة ٦٣٦م ، عندما كانت غزة ومعظم الساحل الفلسطينى فى أيديهم، كانت ربود الفعل مختلطة تجاه هذا الخطر الجديد . فقد كان كيروس مستعداً لتقديم الجزية إلى المسلمين فى مقابل معاهدة عدم اعتداء ، بل إنه اقترح تحالف زواج بين ابنة الإمبراطور إيودوكيا Eudokia وعمرو بن العاص، قائد قوات المسلمين فى جنوب فلسطين، وبعدها لابد من تعميم عمرو مثل برايرة كثيرين آخرين فى التاريخ البيزنطى «لأن عمرو وجيشه كانت لديهم ثقة كبيرة فى كيروس ويعاملونه بتقدير»^(٢١) أو ربما تكون الجزية قد دفعت بالفعل فى الفترة ما بين فقدان بلاد الشام والغزو الإسلامى لمصر. وفى سنة ٦٣٩م أوروبا فى سنة ٦٤٠م تغيرت سياسة هرقل. فقد شجب المعاهدة التى عقدها كيروس واستبدل البطريرك / الوالى برجل عسكرى صدرت إليه التعليمات بتنظيم دفاع أكثر قوة. وتم إرسال كيروس منفياً إلى جزيرة قبرص والقسطنطينية ، واحتج فى جلسة استماع عامة بأنه إذا كانت خطته قد مضت قدما وجمع الضرائب للعرب بفرض ضريبة على التجارة، لبقوا فى سلام . ويبدو أن عدم دفع الجزية كان بمثابة الزناد المباشر الذى أطلق الغزو الإسلامى^(٢٢).

وتبدأ الروايات المصرية - العربية عن الفتح بأسطورة حول عمرو بن العاص وهو يكتشف ثروة مصر بنفسه . فقبل أن يبدأ الفتح الإسلامى، كان قد جاء إلى مصر مع مجموعة من قريش للتجارة فى بيت المقدس. وتناوبوا فى رعى إبلهم على التلال المحيطة بالمدينة. وذات يوم عندما جاء دور عمرو فى الرعى، مرُّ بأحد القساوسة ، وهو يتجول فى التلال. وكان الجو قائظا وكان القسيس على شفا حفرة من الموت عطشاً ، واسقاه عمرو من قربته ثم رقد القسيس واستغرق فى النوم. وبينما كان راقداً هناك، برزت حية ضخمة من حجر قريب حيث كان راقداً . ورأى عمرو الحية فضربها بسهم قتلها ، وعندما استيقظ الشمساس ، سأل عما حدث ، وعندما شرح له عمرو ما حدث ، وقد انبهر لأن هذا الرجل أنقذ حياته مرتين، من الموت عطشاً ومن الحية . وسأل عمرو عما يفعل وشرح له عمرو أنه يتاجر ، على أمل أن يحصل على ما يكفى من المال لشراء جمل ثالث يضمه إلى الجميلين الموجودين معه . وسأل الشمساس عمرو كم دية الرجل التى يقدمونها فى قومه لإنقاذ حياة رجل آخر ، فأخبره أنها مائة بغير، وأجاب بأنهم لا يملكون الجمال فى بلاده، ولكن كم قيمتها بالدنانير ؟ وكانت الإجابة ألف دينار.

وشرح الشمساس الوضع بأنه غريب عن البلاد، وأنه جاء ليصلى فى كنيسة الضريح المقدس ولكى يقضى شهراً فى البرية وفاء لقسم كان قد قطعه على نفسه. وكان فى سبيله إلى العودة إلى وطنه ، ودعا عمرو أن يأتى معه، على وعد بأنه يعطيه ضعف الدية حينما يصل إلى دياره .

وهكذا ترك عمرو رفاقه وذهب إلى مصر، وأدهشه حجم مدينة الإسكندرية ورخاها وعمائرها، حيث جاء به الشمساس إليها . وكافأه الشمساس حسبما وعده ، ثم عين له مرشداً لكى يعيده إلى رفاقه فى بيت المقدس، وقد بات مدركاً للثروة التى يمكن لمصر والاسكندرية أن تقدمها .

وسنكون على حق إذا ما تشككنا فى تفاصيل هذه القصة ، ولكنها توضح أن عمرو بن العاص، ربما كان الوحيد بين القادة المسلمين الأوائل، الذى يعرف شيئاً عن مصر وعن الفرص التى توفرها . ويبدو أنه كان قد استشار الخليفة عمر بن الخطاب شخصياً، وربما كان ذلك عندما جاء إلى الجابية فى زيارته لبلاد الشام، حول خطة

لغزو مصر . ووافق عمر بن الخطاب على المشروع ، على الرغم من وجود مؤشرات تدل على أنه كانت تساوره الشكوك فى المشروع . وانطلق عمرو بن العاص بقوة تتراوح ما بين ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل وأربعة آلاف رجل ، اختارهم من القبائل ، ولا سيما من قبيلة عك ، التى كان أبناؤها يعيشون فى اليمن، بقرى سهل تهامة على امتداد شواطئ البحر الأحمر . ولم يكن هؤلاء من سكان الخيام مثل البدو فى مناطق الاستبس فى بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية ، ولكنهم كانوا قوماً من الناس يعيشون فى أكواخ من القصب أو الأشجار على الشاطئ ، أو فى البيوت الحجرية بالقرى الجبلية ، والذين كانوا يزرعون الحقول . وكانوا عادة من الناحية الجسدية أصغر قامة وأكثر نحافة من بدو الاستبس ، ولكنهم يضاهونهم فى الخشونة والصلابة . كما أنهم كانوا معتادين على الحياة المستقرة ، إن لم يكن فى المدن ففى القرى على الأقل، ولم يكونوا يجلبون معهم الأغنام والماشية التى تحتاج إلى المرعى؛ ومن عدة نواحٍ ربما يكونوا قد وجدوا المدن والقرى فى الدلتا ووادى النيل بيئة مألوفة ، على الرغم من أنه لم يكن هناك شيء فى موطنهم يمكن مقارنته بفخامة الإسكندرية.

لقد كانت تلك مهمة جسورة إلى أبعد الحدود. وكان على هذا الجيش الضئيل أن يعبر سيناء ثم، أرض الدلتا غير المألوفة ، وأن يهزم الجيش البيزنطى المحلى ويستولى على عدد من المدن جيدة التحصين . وكانوا بعيدين عن النجدة إذا ما ساءت الأمور. ووفقاً لقصة معروفة جيداً ، غير الخليفة رأيه وكتب إلى عمرو بن العاص ، قائلاً إنه إذا كان قد دخل مصر بالفعل فليواصل سيره ولكن إذا لم يكن قد عبر الحدود فعلاً فيجب عليه أن يتخلى عن المشروع . وخمن عمرو محتويات الخطاب ورفض أن يفتحه حتى وصل العريش التى هى بداية الأراضى المصرية^(٢٣)، فى يوم ١٢ ديسمبر سنة ٦٣٩م^(٢٤). وكان بوسعه حينذاك أن يزعم أنه حصل على موافقة الخليفة على ما يفعل .

وقد سار الجيش الصغير على الطريق القديم بحذاء ساحل مصر. ولكن بتر يلاحظ «أنه كان الطريق السريع العتيق إلى مصر ، الطريق الذى كان قد شهد فيما قبل التاريخ مرور أوائل البشر الذين استقروا بمصر، ومرَّ به إبراهيم ويعقوب ويوسف، كما مرَّ به قمبيز، والإسكندر وكليوباترا، والعائلة المقدسة، وأخيراً الغزاة الفرس»^(٢٥).

وكانت أول مدينة هي الفرما ، بيلوزيوم القديمة ، التى تقع بالقرب من الساحل شرق بور سعيد الحالية مباشرة . وموقعها مهجور الآن ، ولكنها كانت مدينة مهمة فى العصور الفرعونية والرومانية . وتوضح الرسوم الباقية على خريطة Madaba مدينة ذات شوارع على جانبيها الأعمدة ، يحيط بها سور فيه أبراج . ولا بد أن البيزنطيين فى مصر كانوا قد عرفوا بفتح العرب فلسطين فى وقت سابق ، حتى لو كانت معرفتهم قد جاءت عن طريق اللاجئين الذين وصلوا من هناك، ولكن يبدو أنه لم تكن بالفرما حامية قوية. فقد حاصرها العرب لمدة شهر قبل الاستيلاء عليها، بيد أنه ليست فى حوزتنا أية تفاصيل عن الصراع .

ويبدو أن بعض القبط على الأقل رأوا فى وصول العرب فرصة للإطاحة بالبيزنطيين المكرومين . وكان بتلر يستبعد بقوة فكرة أن الأقباط ساعدوا المسلمين على الإطلاق ويقول إن الفكرة لا توجد سوى فى مصادر متأخرة جداً^(٢٦)، ولكن عاطفته تجاه الأقباط وعدم وجود أية طبعة لكتاب ابن عبد الحكم تسببت فى تضليل أحكامه . (إذ إن ابن عبد الحكم، الذى عكس بالتاكيد مفاهيم القرن الثامن الميلادى / الثانى الهجرى السائدة بين العرب ، يميز تمييزاً حاداً بين الأقباط والروم . فبينما كان الروم هم أعداء المسلمين الرئيسيين، ولم يكن ممكناً الاتفاق معهم على حل وسط ، لعب الأقباط دوراً أكثر غموضاً) . ويقول بتلر إنه حينما وصل العرب كتب بنيامين إلى أتباعه يقول إن الحكم البيزنطى قد انتهى وأمرهم بالذهاب لمقابلة عمرو بن العاص . ونتيجة لهذا كان قبط الفرما أعواناً نشطاء لعمرو فى أثناء الحصار^(٢٧).

ثم سار المسلمون على الجانب الشرقى من الدلتا ، ومن المحتمل أنهم بقوا فى الصحراء بدلاً من أن تعطلهم القنوات والقرى فى المناطق المستقرة . وعند بلبس أبدى البيزنطيون بعض المقاومة واستغرق إخضاع المدينة شهراً . ثم واصلوا زحفهم إلى أم دُنين ، ويحتمل أنها كانت تقع على ضفاف النيل شمال القاهرة الحالية. ووفقاً للتراث المصرى ، كان البيزنطيون قد حصنوا أنفسهم فى خنادق ببوابات وبعثروا حسك الحديد فى المساحات المفتوحة . كان القتال صعباً وكان النصر بطيئاً^(٢٨).

وبعد النصر وَزَّع عمرو بن العاص بعض المكافآت المتواضعة على أتباعه : ديناراً وجبةً وبرُنْساً وعمامة وزوجين من الأحذية . كانت الجبة والبرنس ملابس مصرية نمطية : لقد كان اليمنيون قد بدءوا يتخذون عادات البلاد^(٢٩).

وما حدث بعد الانتصار الذى تم إحرازه بصعوبة فى أم دنين ليس واضحاً . ولا بد أن الهدف الرئيسى للمسلمين كان حصن بابليون الكبير، الذى كانت الحامية البيزنطية تحافظ عليه بقوة . ولكن ربما كان عمرو بن العاص قد أحس أن هذا يفوق قوته حتى يرد إليه المدد من شبه الجزيرة العربية. وعند هذه النقطة يتولى مصدر مسيحي ، هو يوحنا النقيوسى، رواية القصة (لأن الصفحة التى قد تكون وصفت التوغل العربى الأولى ربما فُقدت) . وحسب روايته، قرر عمرو أن يتجاوز الحصن حتى تصله الإمدادات من شبه الجزيرة العربية وأن يتحرك جنوباً صوب واحة الفيوم الخصيبة. ومن أم دنين عبر نهر النيل وسار مروراً بالأهرام وأطلال منف (ممفيس) العاصمة المصرية القديمة، من خلال حدائق النخيل وحقول وادى النيل حتى مدخل الفيوم . والفيوم واحة كبيرة على مسافة حوالى سبعين كيلو متراً جنوب شرق القاهرة^(*). وكانت مشهورة فى العصر الرومانى بإنتاجها من الغلال ، ولا بد أنها كانت هدفاً مغرياً لعمرو بن العاص ورجاله حينما كانوا فى انتظار الإمدادات .

وحملة عمرو بن العاص على الفيوم ليست مسجلة فى أى مصدر عربى، ولكن يوحنا النقيوسى وصفها وتحدث عنها^(**). ودافعت الحامية المحلية عن الفيوم ويبدو أن

(*) تقع الفيوم جنوب غرب القاهرة . وربما يكون هذا خطأ مطبعياً، أو سهواً من المؤلف. (المترجم)

(**) يرى بعض الباحثين أن رواية يوحنا النقيوسى عن امتلاك المسلمين الفيوم بعد معركة أم دنين غير صحيحة، كما أنها تناقض ما ورد فى المصادر العربية (ابن عبد الحكم، ص ٢٢٧-٢٢٨ : البلاذرى ، فتوح البلدان، ص ٢٢٤ : الخطط المقريرية، ج ١ ، ص ٢٤٨) من أن المسلمين ظلوا حوالى سنة يجهلون وجود الفيوم أصلاً، وعندما عرفوا مكانها أرسل عمرو بن العاص حملة استولت عليها صلحاً . وتبدو هذه الرواية معقولة أكثر من رواية يوحنا ، لاسيما وأن جيش عمرو كان صغيراً وبقي ينتظر الإمدادات ، ولم يكن ليفامر بالابتعاد عن بابليون فى مغامرة عسكرية غير مألوفة . انظر عمر صابر عبد الجليل ، تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى - رؤية قبطية للفتح الإسلامى ، (دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة سنة ٢٠٠٠م)، ص ١٩٤ ، هامش رقم ٣ . (المترجم)

العرب كانوا عاجزين عن التوغل بعيداً، وقنعوا بالاستيلاء على بعض الأغنام والماعز من الأرض المرتفعة على حافة المنطقة المزروعة . واستولوا بالفعل على مدينة البهنسا الصغيرة ، على أية حال ، ونهبوها ، وذبحوا كل سكانها من الرجال والنساء والأطفال (حسب رواية يوحنا النقيوسي) . وتعرضت تحركات عمرو للتكدير بسبب قائد الميليشيا البيزنطية المحلية المسمى يوحنا، ومعه خمسون رجلاً، ولكن عمرو بن العاص اكتشف وجودهم. وحاولت القوات البيزنطية الهرب إلى حصنهم في أبويط، فكانوا يسيرون ليلاً ويختبئون في الحدائق ويساتين النخيل نهاراً . وخانهم رجلٌ من الأهالي وشى بهم فتم تطويقهم وقتلوا جميعاً . وأغرق يوحنا في النهر ، ويبدو أن عمرو بن العاص سمع حينئذ بوصول الإمدادات المرتقبة وشق طريقه شمالاً عائداً إلى حصن بابلين ليفرض عليه الحصار.

ويبدو أن الغارة على الفيوم ومصرع يوحنا قد تسببت في بث الذعر في أوساط الروم: فقد كانت الغارات على امتداد الحواف الصحراوية للدلتا شيئاً ، ولكن التوغل في وادي النيل كان شيئاً أخطر كثيراً . وتم انتشار جسد يوحنا من النهر بشبكة وتم تحنيطه وإرساله إلى القسطنطينية في الحال . ويقال إن الإمبراطور هرقل قد انتابه غضب شديد من الذي حدث وهرع قائد القوات البيزنطية في مصر ، تيودور ، إلى الفيوم ليرى ما الذي يمكنه أن يفعله . وثمة قائد آخر اسمه ليونتيوس Leontios تم إرساله إلى الفيوم لإرساء الدفاعات . ووفقاً لرواية يوحنا النقيوسي «كان شخصاً بديناً وغير عارف بأمور الحرب»، وبعد أن ترك نصف قواته في الفيوم عاد إلى بابلين. وتم إنقاذ الفيوم ، ولكن بشكل مؤقت .

وفي الوقت نفسه ، كانت تعزيزات جيش المسلمين تقترب على امتداد الجانب الشرقي للدلتا ، مثلما كان عمرو قد فعل بالضبط . وعندما عاد من الفيوم تعين عليه أن يعبر النهر ثانية لكي يقابلهم. وكانت لحظة خطيرة ، ولكن القادة البيزنطيين أخفقوا في الاستفادة من هذه الفرصة ونجح عمرو بن العاص في الانضمام إلى القادمين الجدد. وقيل إن الجيش الجديد كان عدده حوالي اثني عشر ألف رجل^(٢١)، تحت قيادة

الزبير بن العوام . وكان الزبير واحداً من أوائل الصحابة وكانت له هبة عظيمة باعتباره من أوائل من اعتنقوا الإسلام ، بيد أن هذه كانت حملة عمرو بن العاص ولم يكن هناك شك في أنه سيبقى في موقع المسؤولية . ويوصف بأنه متوسط القامة ، حسن الطلعة ، له بشرة شاحبة ، ورأسه دقيقة ويغطي جسده شعر كثيف . وكان شجاعاً^(٩٠)، بل كان مندفعاً ، في المعركة ، ولكن عمرو بن العاص كان بمثابة العقل المدبر للعملية برمتها ، وظل القائد الأعلى^(٩١).

عسكرت جيوش المسلمين التي توحدت عند مدينة أون القديمة (عين شمس حالياً)، وهي الآن إحدى ضواحي القاهرة الكبرى، ولكنها كانت حينذاك على حواف الصحراء . وكانت للمدينة أهمية كبيرة في الزمن القديم ولكنها كانت في ذلك الحين مهجورة إلى حد كبير: «عندما جاء العرب ، كان القليل من العظمة القديمة باقيا وراء بعض الأسوار المتهدمة ، وتماثيل أبى الهول نصف المدفونة، والمسلة الوحيدة التي تقف حتى اليوم بمثابة تذكرة بالعالم الذي اختفى»^(٩٢). كان الموقع على أرض مرتفعة وتتوفر به المياه . واتخذ عمرو بن العاص قاعدة له . ولأنه كان يعرف أنه يفتقر إلى المعدات أو الخبرة التقنية اللازمة للحصار ، فقد حاول أن يستدرج الروم خارج حصنهم ويشتبك معهم في معركة بالريف المفتوح . وتقدمت القوة البيزنطية الرئيسية تحت قيادة تيودور تجاه عين شمس عبر الأراضي المنبسطة فيما بين نهر النيل وتلال المقطم، حيث تقوم القاهرة الحديثة الآن. وربما كان الجيشان قد تقابلا في شهر يوليو سنة ٦٤٠م. وقد اشتبكت قوات عمرو الرئيسية مع البيزنطيين، ولكنه أرسل تجريدة صغيرة من الفرسان من حوالى خمسمائة رجل عبر التلال في ظلام الليل حيث يمكنهم أن يكمنوا للعدو من المؤخرة. وقد نجحت الخطة، فبينما كانت القوات الرئيسية مشتبكة شنت قوات الكمين هجومها وتخبط الجيش البيزنطي في الفوضى . ونجح البعض في الوصول بأمان إلى

(٩٠) قال ابن عبد الحكم (فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، سلسلة الذخائر ، رقم ٤٩ الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ص٩٥) إن الزبير بن العوام كان «... أبيض ، حسن القامة، ليس بالطويل، قليل شعر اللحية، أهدب، كثير شعر الجسد...» (المترجم)

أسوار بابليون ، ولكن كثيرين هلكوا أثناء محاولتهم الهرب عن طريق البر وعن طريق النهر^(٢٤).

كان الهدف الثانى للغزاة حصن بابليون نفسه. هذا الحصن كان نتاجاً ضخماً من نتاج الهندسة العسكرية الرومانية^(٢٥)، وربما كان قد بُنى حوالى سنة ١٠٠م على يدى الإمبراطور تراچان رداً على التمرد اليهودى فى الإسكندرية . ويقع فى منطقة حاسمة على رأس الدلتا حيث تتسبب جزيرة الروضة فى ضيق مجرى النيل بحيث يمكن عبوره على جسر من القوارب. أمّا اسم بابليون ، الذى يبدو أنها كانت معروفة به فى الأزمنة القديمة ، فقد تسبب فى ظهور عدد من الأساطير حول تأسيسه على يدى نبوخذ نصر أو اللاجئين الذين جاءوا فيما بعد أو المستعمرين من بابل (بابليون) الأصلية فى العراق . وقد عرفه العرب باسم قصر الشمع ، بيد أن اسمه القديم استمر موجوداً فى أوربا العصور الوسطى ، حيث كان سلطان مصر يُعرف غالباً باسم سلطان بابيلون Soldan of Babylon على سبيل الخلط . كان الحصن مثلث الشكل تقريباً ، وكانت الأسوار الكبيرة من الآجر والحجارة بارتفاع اثنى عشر متراً وسمكها حوالى ثلاثة أمتار ، تمتد بحذاء ضفة النهر تجاه الغرب وعبر الحقائق والمجمعات الديرية إلى الشرق والشمال . وإلى الجنوب كانت هناك بوابة على جانبيها برجان على شكل حرف D ، تعرف باسم البوابة الحجرية ، تفضى إلى الميناء الرومانى . وكان هناك برجان ضخمان آخران يُطلان على ضفة النهر قطرها ثلاثون متراً . وكانت مساحته خمسة هكتارات، ويضم حوالى عشر كنائس أو أديرة داخل أسواره وعدداً كبيراً من السكان المدنيين، إلى جانب الحامية العسكرية . وربما كان عمره يزيد على ستة قرون زمن الفتوح الإسلامية ، بيد أنه لم يكن قد فقد شيئاً من قوته . وقبل القرن العشرين ظلت التحصينات متماسكة بالفعل ، وتضم داخل أسوارها الكنائس القبطية ومعبد يهودياً . ومنذ ذلك الحين ، على أية حال تهدم الكثير من نسيج المكان ولم تبق سوى آثار من عظمته القديمة .

وكان عند بداية سبتمبر سنة ٦٤٠م تقريباً أن بدأ عمرو بن العاص هجومه على الحصن. وقد افترض البعض أنه كانت هناك حامية مؤلفة من خمسة آلاف أو ستة

آلاف رجل فى الحصن تتوقر لديهم المؤن الكافية بحيث يمكنهم الصمود أمام الحصار. ولم يكن باستطاعة العرب أمام الأسوار القوية سوى أن يحشدوا بعض آلات الحصار البدائية وحاولوا أن يصعدوا إلى الشرفات مستخدمين السلالم . ولو كان هناك أمل بوصول نجدة أو مساندة واسعة من الناس فى الريف المحيط بالحصن ، فربما كان قد صمد . ولكن لم يحضر أى جيش بيزنطى للنجدة وأكدت سياسة القهر التى اتبعتها كيروس ضد القبط أنهم كانوا يتطلعون إلى مصيره دونما مبالاة أو حتى عداوة.

وفى الوقت نفسه ، كان المدافعون لا يزالون صامدين داخل حصن بابليون . وليست هناك رواية متماسكة عن الحصار ولانعرف سوى حكايات قليلة مُنمقة ، قصد بها بيان تطهيرية المسلمين العسكرية . وفى إحدى هذه الحكايات فوجئ الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت بالعدو أثناء صلاتهما ، ولكنهما وثبا على فرسيهما وساقا المهاجمين الذين تقهقروا إلى الحصن. وفى أثناء تقهقر البيزنطيين ألقوا أحزمتهم الثمينة وزينتهم الفاخرة على أمل أن يتوقف العربيان لكى يلتقطاها . وعلى أية حال، أبدى المسلمان احتقارهما المعتاد للثروة ، وطاردا أعدائهما حتى أسوار المدينة، حيث جرح أحدهما بحجر ألقى من شرفات الحصن . ثم عاد البطلان إلى صلاتهما ، تاركين الغنائم الثمينة بلا مساس.

وفى مارس سنة ٦٤١م وردت الأنباء بموت الإمبراطور هرقل ونشوب أزمة حكم فى الإمبراطورية . ولابد أن هذا الحدث أحبط المدافعين ورفع معنويات العرب، الذين كانوا لا يزالون فيما يبدو ينظرون إلى الإمبراطور المسن نظرة خشية معينة. ولأنه لم تكن هناك نجدة فى المستقبل المنظور، فإن النهاية لم تكن لتتأخر. وفى يوم عيد الفصح، الاثنين ٩ أبريل سنة ٦٤١م، استسلم البيزنطيون فى النهاية وسلموا الحصن الكبير إلى المسلمين ورحلوا، وأخذوا معهم بعض ذهبهم ولكنهم تركوا معداتهم العسكرية الثمينة^(٣٦).

ووفقاً لإحدى الروايات ، كان الزبير بن العوام هو الذى استولى على المدينة فى نهاية المطاف . فقد أحضر السلالم لكى يتسلق الأسوار وصاح «الله أكبر» ،

وعند سماع التكبيرة كانت هناك هجمة جماعية وتخلّى الأمل عن المهاجمين فاستسلموا^(٢٧). وفي ظاهرها تبدو حكاية تقليدية ، تشبه على نحو يثير الشك الرواية التي تتحدث عن كيفية هجوم خالد بن الوليد على أسوار دمشق ، ومن المؤكد من ناحية أخرى أن المسلمين في مصر أخذوها على محمل الجد . وتم الاحتفاظ بالسلم الذي تسلمه الزبير بن العوام أثراً مباركاً. ويسجل البلاذري الذي كتب في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري أن الزبير بنى بيتاً ، ورثه ابنه فيما بعد ، ثم أحفاده كان السلم لا يزال محفوظاً فيه في أيام البلاذري^(٢٨). وهناك مصدر لاحق يقول إنه بقي حتى دمرته حريق بالدار سنة ٨٠٠٠ م ، أي بعد أكثر من ثلاثة قرون ونصف^(٢٩).

وحقائق القصة مهمة أيضاً لأن استسلام بابليون كان ضربة كارثية للسلطة البيزنطية في مصر «ومصدر حزن بالغ بالنسبة للروم» حسب تعبير المؤرخ القبطي المعاصر يوحنا النقيوسي. ولم يكن يساوره شك في الأسباب : «... لأنهم لم يكرموا آلام الخلاص لسيدنا ومخلصنا يسوع المسيح الذي وهب الحياة لمن يؤمن به». وكانوا قد صبوا اضطهادهم على الأرثوذكس بوجه خاص (وكان يعنى بهم رفاقه القبط بطبيعة الحال) . ويبدو أن قادة القبط كانوا محبوسين في الحصن طوال مدة الحصار. وفي يوم أحد عيد الفصح أطلق سراح السجناء ولكن «... لم يتركهم أعداء المسيح هؤلاء دون أذى ، بل أساءوا إليهم وقطعوا أيديهم»^(٤٠).

ويحتمل أن الوثيقة المعروفة باسم معاهدة مصر بين المسلمين والسلطات البيزنطية قد تم وضعها في هذا الوقت، على الرغم من أن السياق المضبوط لهذه الوثيقة يبقى غير واضح^(٤١). وهي من عدة وجوه شبيهة بالعهد الذي وضعه عمر بن الخطاب لبيت المقدس ومن المفترض أنها صيغت على منوالها . وهي تبدأ بعبارة عامة تؤمن للناس ملتهم ، وأملاكهم، وصلبانهم وأراضيهم ومجاري مائهم . وسيكون عليهم دفع الجزية كل سنة حين تنتهي زيادة النهر، أي بعد الفيضان^(٤٢). وإذا قصر النيل عن حد الوفاء ، يتم تخفيض الجزية بقدر نقصانه. وإذا لم يوافق أحد ما على هذا العهد، لا يكون ملزماً بدفع الجزية ولكنه لن يكون تحت الحماية. ويمكن للنوبيين والروم الذين يريدون التمتع بالشروط نفسها أن يفعلوا هذا ومن لم يشأ منهم عليه أن يرحل . وهناك المزيد من

العبارات التي تتعلق بالنوبيين بصفة خاصة : إذ لم يكن لهم أن يستقروا في مساكن الرعية ، ولكن أولئك الذين كانوا قد قبلوا المعاهدة سيكون عليهم تقديم عدد كبير من العبيد ومن الخيول . وشهد على المعاهدة الزبير بن العوام وابنه عبدالله وابنه محمد وكتبها وردان(*) .

هذه رواية واحدة عن الصلح من بين عدة روايات بينها اختلافات طفيفة عن شروط الصلح مع أهل مصر^(٤٣) . وفي كثير من هذه الروايات قُدرت قيمة الجزية بدينارين للرجل البالغ مع استثناء الفقراء . وذكر البعض إنه كان على المصريين أيضا تقديم المؤن للمسلمين^(٤٤) . فقد كان على كان «ذى أرض» تقديم ثلاثة أراذب من القمح (تساوي مائتين وعشرة كيلو جرامات من القمح) ، وقسطين من الزيت ، وقسطين من العسل ، وقسطين من الخل (كان القسط المصري يساوي ١٠٦ ، ٢ لتر) . كما كان لهم أن يحصلوا على الملابس: فقد كان مقرراً لكل مسلم أن يحصل سنوياً على جُبة من الصوف وبُرنس أو عمامة ، وزوج من السراويل وزوج من الأحذية . وربما كان السبب في ذلك أن الكثير من عرب الجنوب هؤلاء قد وصلوا غير مستعدين لبرد الشتاء في مصر(**) .

(*) أورد الطبري (ج ٤ ، ص ١٠٩) نص الصلح كما يلي :

«بسم الله الرحمن الرحيم» . هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم ومُلُتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم ، ويرهم ويحرهم ، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ولا يساكنهم النوب . وعلى أهل مصر أن يُعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح ، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف ، وعليهم ما جنى لصوتهم (أي لصوصهم) ، فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم ، وذمتنا ممن أبى بريئة ، وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رُفع عنهم بقدر ذلك . ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم ، وعليه مثل ما عليهم ، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ، أو يخرج من سلطاننا . عليهم ما عليهم أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم . على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته ورسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذم المؤمنين ، وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً ، وكذا وكذا فرساً ، على ألا يُغزوا ولا يُمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة . شهد الزبير وعبدالله ومحمد ابناه . وكتب وردان وحضره . (المترجم)

(**) النص الكامل في البلدان ، فتوح البلدان ، ص ٢١٢ .

وإذ صار حصن بابليون فى أيدى المسلمين ، سارع عمرو بن العاص للإعداد للهجوم المحتوم على الإسكندرية . كان ذلك قبل أربعة أشهر فقط من الفيضان الذى كان سيجعل الحركة غاية فى الصعوبة . ورُممت أسوار الحصن وأعيدت إلى حالتها . ثم أمر بإعادة إقامة جسر القوارب عبر النيل . وحسب قصة حفظها التراث العربى بحب بنت يمامة عشها فى خيمة عمرو قبل فكها للتوجه فى الحملة على الإسكندرية . فأمر بأن يتركوها فى سلام مكانها ، وقال : «لقد تحرّم منا بمتحرّم» (*). وزيد فى القصة لتجميلها بتعيين حراسة على الخيمة (الفسطاط) حتى لاتنزعج اليمامة^(٤٥).

ووفقا للتراث المصرى لقيت الحملة مساعدة كبيرة فى هذه المرحلة من جانب الأقباط الذين ذهبوا مع الجيش «... وقد أصلحوا لهم الطرق، وأقاموا لهم الجسور والأسواق ، وصار لهم القبط أعوانا على ما أرادوا من قتال الروم» (**)(٤٦).

وكما هى العادة فإن المجرى الفعلى للحملة مرتبك . ويبدو أن الهدف الرئيسى كان نقيوس، موطن الأسقف - المؤرخ يوحنا النقيوسى . وكانت قلعة قوية على الضفة الغربية للنيل بالقرب من منوف الحالية . وكان القائد الرومانى تيودور قد غادر تاركاً أحد مساعديه ، وهو دومنتيانوس Domentianus ، قائداً للحامية والأسطول النهري ، ولكنه أصيب بالدُعر عند اقتراب الجيش العربى، وهرب بالسفن إلى الإسكندرية . وعندما وجد أفراد الحامية أن قائدهم قد هرب، رموا أسلحتهم وحاولو الهروب بالقوارب، ولكن أرباب المراكب كانوا قد فروا إلى قراهم . وقبض العرب على الجنود الذين كانوا يقفون إلى جوار الماء وأعمل السيف فيهم جميعاً باستثناء رجل واحد اسمه زكريا، قيل إنه تم الإبقاء على حياته بسبب شجاعته . وبخل المسلمون المدينة بلا مقاومة يوم ١٣ مايو سنة ٦٤١ م ، ويروى يوحنا النقيوسى أن المسلمين «... ذبحوا كل من وجوه فى الطرقات والكنايس من الرجال والنساء والأطفال ولم تأخذهم شفقة بأحد»^(٤٧).

(*) النص الكامل فى ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ١٣٢ : المقرئى، الخطط، ج ٢، ص ٢٩٦ .
(المترجم)

(**) النص من ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب (تحقيق شارلز تورى) ، ص ٧٢ . (المترجم)

وحينذاك طارد المسلمون الجيش الروماني تحت قيادة ثيودور أثناء تقهقره شمالاً تجاه الإسكندرية . ولم يكن الأمر سهلاً على الدوام بالنسبة للعرب . ففي إحدى النقاط، أحاطت القوات الرومانية بقائد قوات المقدمة في جيش المسلمين ، شريك بن سُمي (*)، وتعرض لخطر شديد . وأمر واحداً من رجاله ، كان له فرس أشقر «... وكان لا يُجاري سرعة...» ، أن يسرع إلى عمرو ، على مسافة ٢٦ كيلو متراً بمؤخرة الجيش في منطقة «ترنوط» ، لكي يخبره بالخطر . وانطلق الرومان لمطاردة الرسول ولكنهم لم يتمكنوا من اللحاق به . وعندما سمع عمرو بن العاص الرسالة التي جاء بها رسول شريك ، تقدم بما أمكنه من سرعة وتقهر العدو، لأنه لم يكن على استعداد للقاء في المعركة . ويعد ذلك، عرف المكان دائماً باسم «كوم شريك» .

واستمرت القوات العربية في تقدمها . وكانت هناك مواجهة وحشية أخرى عند الكريون في الدلتا . ويبدو أنه في ذلك المكان حارب الروم والقبط معاً وجاءتهم التعزيزات من جميع المدن والقرى المحيطة (**)(٤٨). وقد استئصلت قوات ثيودور بعد معركة قاسية لدرجة أن «... عمرو بن العاص صلى يومئذ صلاة الخوف...» (٤٩) وفي هذه المعركة جرح ابن عمرو جرحاً بليغاً وهو يحارب في طليعة الجيش. وفي النهاية أجبر ثيودور ومن بقي من قواته على التقهقر إلى الإسكندرية.

وحينئذ اقتربت القوات العربية من المدينة . ويقدم لنا بتر وصفاً معبراً عن عواطفه الخاصة يتخيل فيه ما كان يجب أن يشاهده (٥٠) :

«لا بد أن كثيراً من الجنود في ذلك الجيش العربي كانوا قد شاهدوا مدناً جميلة في فلسطين، مثل الرها، ودمشق ، والقدس (٢٠)، بل يمكن أن يكون بعضهم قد حملقوا

(*) كتب المؤلف Sharik b. Shuway . وقد أثبت الصيغة من ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ٧٢ .
(المترجم)

(**) يقول نص البلاذري (فتوح البلدان ، ص ٢١٨) : «... وكان من دون الإسكندرية من الروم والقبط قد تجمعوا له ، وقالوا : فغزوه بالقسماط قبل أن يبلغنا ويروم الإسكندرية فلقبهم بالكريون فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة . وكان فيهم من أهل سخا ، وبلهيت ، والخيس ، وسلطيس وغيرهم قوم رقدوهم وأعانوهم» .
(المترجم)

فى روائع أنطاكية ذائعة الصيت أو عجائب الميرا ؛ بيد أن شيئاً لم يكن يجعلهم مستعدين للفخامة الخارقة للمدينة التى كانت تتراعى أمامهم آنذاك، وهم يمرون بين البساتين والأعنان والأديرة التى تكثُر فى ضواحيها . كانت الإسكندرية، حتى فى القرن السابع ، أرقى مدينة فى الدنيا: ويمكن أن نستثنى قرطاج وروما القديمتين ، إذ لم ينتج فن البناء مثيلاً لها من قبل أو من بعد. وعلى مرّ القرون اللاحقة لتثير حماسة الرُّحالة . وكانت القباب والواجهات المثلثة تومض من وراء الأسوار ومن فوقها ، ومعها الأعمدة والمسلات والتماثيل ، والمعابد والقصور . وإلى اليسار [حيث كان العرب يقتربون من الجنوب الشرقى] كان المشهد محدوداً بالسراييوم المتعالى بأسقفه المطلية اللامعة ، والقلعة التى يقف عليها عمودا دقلديانوس شامخاً : وإلى اليمين كانت كاتدرائية مرقص تبدو للعيان، وبعيداً فى الغرب كانت تلك المسلات العظيمة المعروفة باسم مسلات كليوباترا^(٥٢)، التى كان عمرها آنذاك يزيد على ألفى سنة، أو ضعف عمر بناء المدينة. وكان الفضاء فيما بينها يمتلئ بالخطوط العامة للعمارة الباهرة : وفى الخلفية ، يقف الأثر المذهل المعروف باسم فاروس ، الذى يعتبر بحق إحدى عجائب الدنيا السبع . وحتى أولئك المحاربون أنصاف البرابرة القادمون من الصحراء^(٥٣) قد تحركوا بشكل غريب من جراء الفخامة والعظمة.

وعلى أية حال ، يوحى الدليل الأثرى بأن بعضاً من مجد الاسكندرية كان قد ولىّ منذ زمن طويل^(٥٤). كان المنار (فاروس) لا يزال متماسكاً، يضىء مدخل الميناء، والشارع الرئيسى فى المدينة ما زال يجرى على امتداد الطريق الكانوبى *Via Canopica* القديم، ولكن معظم الجزء الشرقى من المدينة القديمة كان مهجوراً خاوياً. وعلاوة على ذلك ، كان الميناء الجنوبي المهم على بحيرة مريوط قد بات خراباً من جراء القتال بين مؤيدى الإمبراطور فوكاس ومنافسه هرقل فيما بين سنة ٦٠٨م وسنة ٦١٠م ، وهو القتال الذى دمر أنظمة القنوات . وفى أعقاب هذا الدمار، تم التخلّى عن الكثير من

(*) هذا الوصف العنصرى ليس المؤلف مسئولاً عنه لأنه ينقل نصاً عن بئر فى كتابه الشهير والملى بالانحيازات.
(المترجم)

الجزء الجنوبي من المدينة أيضاً. وعندما أمر الخليفة المتوكل العباسي (٨٤٧-٨٦١م) ببناء مجموعة جديدة من أسوار المدينة في القرن التاسع ، كانت تضم فقط حوالى ثلث المدينة القديمة . لقد أدت الزلازل ، والدمار الذى حاق بالمدينة من جراء إغارة الفرنج الصليبيين على المدينة سنة ١٣٦٥م^(*)، وإعادة بناء المدينة بأوامر من محمد على فى مطلع القرن التاسع عشر، إلى طمس معظم معالم الإسكندرية القديمة والوسيطه ، وعلى أية حال، فإن الأدلة الأثرية المتناثرة توحى بالفعل أن المدينة التى فتحها العرب كانت قد انكششت داخل أسوارها القديمة وأن مناطق كثيرة فيها كانت مهجورة . وربما كانت التحصينات ، التى يرجع تاريخها إلى أيام عز المدينة زمن البطالمة ، أطول مما يلزم بالنسبة لعدد السكان بحيث لايمكن أن تدافع عن المدينة بكفاءة.

وعلى الرغم من هذه المشكلات ، ربما كانت مدينة الاسكندرية قد صمدت على مدى عدة أشهر أو حتى عدة سنوات ، خاصة إذا وصلتها الإمدادات عن طريق البحر، بيد أن هذا لم يكن ليحدث. فقد كانت الإمبراطورية بأسرها والإسكندرية خاصة ممزقة أشلاء بسبب التنافس والغيرة والضغائن . وعن تفاصيل هذه المنافسات والضغائن نعتمد تماماً على رواية يوحنا النقيوسى، لأن الكتّاب العرب لا يخبرونا بشيء عن هذه الصراعات.

كان الإمبراطور هرقل قد مات يوم ١١ فبراير سنة ٦٤١م ، أى قبل شهرين من استسلام بابليون . وكان قد رتب أن يتم اقتسام السلطة الإمبراطورية بين ولديه ، قنسطنطين وهرقل . ولم يقدر لهذا المشروع أن يرى النور أبداً ، وقام قنسطنطين بهجوم فعال . فقد استدعى كيروس ثانية من المنفى ودعاه هو وقائد القوات العسكرية فى مصر إلى اجتماع ، ووافق فى الاجتماع على إرسال المزيد من القوات إلى مصر.

(*) هذه إشارة إلى الغارة التى قام بها بطرس لوزنيان ملك قبرص الصليبي من سلالة لوزنيان على الإسكندرية حيث مارست قواته الصليبية التى جاءت من قبرص وبعض الأوربيين، أعمالاً وحشية وغادرت بعد أيام قليلة هرباً من قوات الجيش المملوكى التى اقتربت من الإسكندرية، ورمت بعض حمولتها فى مياه البحر المتوسط تخففاً لضمان سرعة أكبر فى الهروب. (المترجم)

وكانت الاستعدادات للحملة تجرى على قدم وساق عندما مات قنسطنطين فجأة يوم ٢٤ مايو . وحينئذ انتقلت السلطة إلى أخيه الأصغر غير الشقيق هرقل وأمه الطموح مارتينا Martina . ويبدو أن الحكومة الجديدة كانت قد عقدت العزم على الصلح مع المسلمين وتم إرسال كيروس إلى الإسكندرية مرة أخرى ، ليس لتقوية المقاومة وإنما للبحث في ماهية الشروط التي يمكن التفاوض بشأنها . وربما يكون الحكام الجدد بالقسطنطينية قد شعروا بأنهم في حاجة إلى كافة مواردهم العسكرية للحفاظ على مكانهم في العاصمة. وربما كان كيروس يأمل في أن يستطيع إعادة بناء ترتيبات الجزية التي كان قد وضعها قبل سنة ٦٣٩م. وعلى أية حال، فإن البيزنطيين غالباً ما كانوا يدفعون الإتاوات للبرابرة لكي يبقوا خارج ممتلكاتهم ، وربما ظنوا أن تكون هذه المجموعة الصغيرة من المغيرين على استعداد لقبول الشروط.

في الوقت نفسه كانت ثمة منازعات مريرة في الإسكندرية بين اثنين من المتنافسين على موقع القائد العسكري: دومنتيانوس Domentianus ، الرجل الذي كان قد سلم الفيوم أولاً ثم نقيوس، وميناس Menas الذي قيل إنه كان أكثر شعبية . وكان يساند كلا من الرجلين أحد حزبي السيرك(*)، فقد كان الزرق يؤيدون دومنتيانوس على حين كان الخضر يؤيدون ميناس وكانت فرق السيرك المتنافسة ، التي تسمى بأسماء الألوان تؤيد في الأصل سائقي عربات السباق التي تجرها الخيول . وكانت بؤرة مهمة للولاء والصراع في أواخر العصور القديمة بيد أنه لم تبق أي من هذه الفرق بعد الفتح

(*) كانت أحزاب الملعب أو السيرك من ضمن ما ورثته الإمبراطورية البيزنطية عن الإمبراطورية الرومانية القديمة ، وكانت في البداية أربعة حسب ألوان العناصر الأساسية في الحياة، ثم بقي منها حزبان فقط: الخضر والزرق. وكانت أحزاب الملعب (السيرك Circus) تتمتع بقوة سياسية ضخمة مما جعل الدولة تعين عدداً كبيراً من الموظفين على رأس كل حزب منهما، ويتولى انتخاب هؤلاء الموظفين عدد من الأثرياء الذين ينفقون على مؤسسات التدريب والسباق فضلاً عن ألعاب الدببة والكلاب والألعاب البهلوانية التي كانت تجرى أثناء الاستراحة في سباق العربات . وكان الحزبان يشكلان خليطاً غريباً من الانتماءات السياسية والاجتماعية والدينية ، فضلاً عن الرياضة . وكثيراً ما أثار النزاع بينهما اضطرابات عنيفة في العاصمة أشهرها ما عرف باسم ثورة «نيكا» التي كادت تطيح بالإمبراطور جستنيان الأول (٥٢٧-٥٦٥م). (المترجم)

الإسلامى. وكان باستطاعة القائدين استدعاء مؤيديهما ، وفعلًا ذلك، للخروج إلى الشوارع. وليس واضحاً ما إذا كانت هذه العداوة أكثر من عداوة شخصية : إذ يتحدث يوحنا النقيوسى عن توترات دينية ولكنه لا يقدم المزيد من التفسير . وربما كانت أيضا اختلافا فى السياسة : فقد وافق دومنتيانوس مع مارتينا وكيروس حول الوصول إلى اتفاق مع العرب.

ولا يذكر يوحنا أى قتال خطير ولكن التراث المصرى - العربى يصف حصاراً يدب فيه الحيوية من حين لآخر بخروج أفراد الحامية للهجوم أو بالاشتباكات الفردية. ومن الواضح أنه كانت هناك بعض المناوشات خارج أسوار المدينة، ولكن ، لم يكن هناك هجوم عام فيما يبدو . وعندما حانت النهاية، كانت من خلال المفاوضات بدلاً من العمل العسكرى.

عاد كيروس إلى الإسكندرية صباح يوم الصليب المقدس ١٤ سبتمبر ٦٤١ م . وتوقف أولاً عند دير تابنسى Tabensi بالقرب من الميناء حيث كانت شظية من صليب الصليبوت، أرسلت بناء على أوامر الإمبراطور هرقل، محفوظة فيه. ثم أخذها كيروس فى موكب خلال الشوارع إلى كنيسة قيساريون الشهيرة . ويخبرنا يوحنا النقيوسى كيف غطى الناس الطريق بالسجاد وأنشدوا الترانيم تشریفاً له، وكانت الحشود كبيرة جداً لدرجة أن الناس داسوا بعضهم بعضاً^(٥٤). ومن المثير أن المؤرخ القبطى يسجل الترحيب الشعبى الذى لقيه العدو الأكبر لكنيستته . وقد ألقى موعظة فى موضوع صليب الصليبوت ولكن فى نهاية صلاته قام أحد الشمامسة بترتيل خاطئ ، آملاً أن يفرح البطريرك بإشارة مباشرة لعودته . وهز الناس رؤوسهم بسبب الخروج غير المناسب عن المألوف وتنبأوا بحكمتهم بأن كيروس لن يرى عيد الفصح ثانية بالمدينة ؛ أو هكذا قيل لنا .

وفى أكتوبر غادر كيروس المدينة فى هدوء وذهب للتفاوض مع عمرو بن العاص فى القسطنطينية . وكان ذلك وقت فيضان نهر النيل، وكان عمرو قد عاد من حملته فى مصر الوسطى إلى قاعدته. ووفقاً لرواية يوحنا النقيوسى رحب عمرو بالبطريك قائلاً:

«أحسنتم عملاً بقدومكم إلينا» ، وأجابه كيروس بأن «الرب سلم هذه الأرض إليكم : فلا تكن عداوة بينكم وبين روما» . ووفقاً لرواية مؤرخة سوريانية ، شرح كيروس أنه لم يكن هو المسئول عن نقض المعاهدة وعدم دفع الجزية وتوسل إلى المسلمين بلسان فصيح لكي يقبلوا الذهب الذي قدمه لهم، ولكن عمرو بن العاص أجابه «الآن وقد ملكنا البلاد ، لن نتخلى عنها»^(٥٥). وشعر كيروس أنه لا يملك بديلاً سوى القبول بالأمر الواقع وتم في النهاية الاتفاق على الصلح يوم ٢٨ نوفمبر ٦٤١ م . وتعين على أهل الإسكندرية أن يدفعوا الجزية . وكان على الجيش البيزنطي أن يغادر المدينة بممتلكاته وخزائنه ويعود إلى القسطنطينية عن طريق البحر. وتقررت هدنة لمدة أحد عشر شهراً لتنفيذ هذه الترتيبات . وفي الوقت نفسه ، كان للمسلمين أن يحتفظوا بمائة وخمسين جندياً ، وخمسين مدنيّاً ، رهائن ، لكي يضمنوا تطبيق شروط الاتفاقية.

وعاد كيروس بعد ذلك إلى الإسكندرية لتسويق اتفاقيته لدى القائد العسكري تيودور ولكي يبلغ الإمبراطور . وجاء أهل المدينة جميعاً لدفع الجزية إليه ولكنه لم يجرؤ على أن يشرح لهم ما كان قد فعله . ولم يحدث حتى ظهور القوات العربية لجمع الدفعة الأولى من الجزية أن أدرك أهل الإسكندرية أن الصلح قد تم . وعندما رأى السكندريون القوات الإسلامية جمعوا أسلحتهم استعداداً للمعركة ، ولكن القادة العسكريين أعلنوا أن المدينة قد استسلمت . وكان رد الفعل الشعبي المباشر عدائياً للغاية وهددوا البطريك بالرجم بالحجارة. وعند هذه النقطة ظهر كيروس واضحاً : فقد تساقطت دموع الحزن من مقلتيه وهو يحث الناس على قبول الشروط ، قائلاً إنه عقد المعاهدة لكي ينقذهم وأطفالهم وأخيراً كسبهم إلى جانبه؛ وتم جمع الأموال ودفعها يوم ١٠ ديسمبر سنة ٦٤١ م ، الذي صادف يوم رأس السنة الهجرية سنة ٢١ هـ .

وبعد سقوط الإسكندرية ، كانت هناك مقاومة قليلة . ويبدو أن عمرو بن العاص كان قد قاد بالفعل جيشاً في مصر الوسطى . وكانت هناك بعض المقاومة من الحاكم المحلي في أنتينوبوليس ولكن الجيوش الإسلامية لم تواجه أية معارضة في أى مكان آخر. وفي أثناء فترة الهدنة التي أعقبت استسلام الإسكندرية ، زارت الجيوش الإسلامية المدن الصغيرة شمال الدلتا . ومرة أخرى ، كانت هناك مقاومة هزيلة ولكن لم توجد أية معارضة قوية.

وفى الوقت نفسه ، كانت الإسكندرية تتوأم مع الموقف الجديد . فقد أبحر كثير من الروم ، بما فيهم القسم الأساسى من الجيش على ما يفترض ، متوجهين إلى القسطنطينية من المناطق التى ما زالت بأيدي البيزنطيين . ومات كيروس نفسه ميتة هادئة لأسباب طبيعية . كان هذا مقياساً لكون الأمور طبيعية فقد تم انتخاب خليفة البطريك الخلقدونى فى موعده . وفى الوقت نفسه عاد البطريك القبطى بنيامين إلى الظهور من مخبئه وتمكن من العودة إلى المدينة . وأبحرت آخر القوات البيزنطية تحت قيادة تيودور إلى قبرص يوم ١٧ سبتمبر ، وتم المشهد الأخير عندما دخل عمرو المدينة رسمياً دونما مقاومة فى يوم ٢٩ سبتمبر ، بعد نهاية هدنة الأحد عشر شهراً . لقد انتهت فترة طولها ألف سنة من الحكم اليونانى - الرومانى^(٥) .

ومن عدة وجوه كان الحكم الإسلامى استمراراً لما جرى من قبل . ونحن نعرف من أوراق البردى الإدارية التى تخبرنا بالكثير عن الحياة اليومية فى مصر أن جباة الضرائب أنفسهم كانوا يجمعون الضرائب نفسها تحت الحكم البيزنطى وتحت الحكم الإسلامى على السواء وأنهم استمروا فى استخدام اللغة اليونانية لغة للحكم . وقد استمر هذا الوضع نصف قرن آخر قبل أن تصير اللغة العربية لغة الإدارة .

وعلى أية حال ، لم يكن الفتح الإسلامى يعنى تغييرات رئيسية من عدة جوانب . ومن أوضح الأمور أن الأوامر آنذاك كانت تأتى من المدينة المنورة لا من القسطنطينية ، وأن الولاة كانوا من المسلمين الناطقين بالعربية ، وليسوا من المسيحيين المتحدثين باليونانية . وكان المؤشر على هذا التغيير هو تحول وجهة صادرات الغلال . إذ كانت الغلال من مصر تعول روما فى البداية ، ثم القسطنطينية . وبعد الفتح كانت تعول المدينة ومكة . وكان أحد المشروعات الأولى التى نفذتها الحكومة الجديدة إعادة فتح

(٥) هذه صياغة فضفاضة جداً ، بل غير حقيقية من الناحية التاريخية . إذ لم تكن مصر تحت حكم أسرة البطالمة أرضاً محتلة وإنما كانت دولة إقليمية مستقلة وقوية ، ولم تسقط تحت الاحتلال سوى بعد مصرع كليوباترا السابعة إثر هزيمتها هى وأنطونيوس فى معركة أكتيوم البحرية سنة ٣٤ ق.م ، فصارت «ولاية رومانية» ، واستأثر بها أوغسطس أول حكام الإمبراطورية الرومانية . (المترجم)

القناة القديمة التي كانت تجرى من نهر النيل عند موقع القاهرة حالياً إلى البحر الأحمر. وعندها بات من الممكن شحن الغلال بالسفن مباشرة إلى عاصمة الخلافة الجديدة من حقول مصر الخصيبة.

وتقول القصة إن عمرو بن العاص كان ينوى أن يجعل الإسكندرية عاصمته، وهو تحرك كان سيبدو طبيعياً ، ولكن الخليفة عمر بن الخطاب منعه من فعل هذا ، لأنه خشى من النفوذ المسيحي الهليني^(*) في المدينة . وبدلاً من ذلك استقر الوالى وجيش الفتح إلى الشمال مباشرة من حصن بابليون فى المكان الذى صار نواة القاهرة القديمة . وتزعم الموروثات المصرية - العربية أن الخليفة عمر بن الخطاب اتخذ القرار، لأنه لم يكن يريد أن تكون جيوش المسلمين معزولة عن شبه الجزيرة العربية بالماء، مثمناً فعل فى الكوفة والبصرة . كما كانت الفسطاط أيضاً فى موقع استراتيجى حاكم على رأس الدلتا ، لا تبعد سوى عدة كيلومترات قليلة عن منف عاصمة القراعنة . وهنا (فى الفسطاط) تم بناء أول مسجد . وعلى الرغم من أن معظم نسيجه المعمارى بنى فيما بعد، فإن المسجد لا يزال معروفاً باسم مسجد عمرو بن العاص ويشغل الموضع الذى بناه فوقه . وحول المسجد بنى العرب خططهم حيث أقاموا خيامهم وبنوا مساكنهم. وأسماء القبائل المختلفة التى استقرت هناك محفوظة بشكل محبب فى المصادر التاريخية المصرية - العربية، وعلى مدى قرنين من الزمان على الأقل ظلت تحتفظ بأسماء الأجداد الذين كانوا قد وفدوا مع الفتح وهو ما كان يعنى ليس فحسب الهيبة الاجتماعية وإنما الحق فى نصيب من عوائد الضرائب أيضاً . ويظهر من القائمة أن الغالبية الساحقة من الذين استقروا كانوا من عرب الجنوب، من مناطق الاستقرار فى

(*) ربما يكون من الأصح القول بأنه هيلينستى لأنه من المعروف أنه فترة ما بعد الاسكندر الأكبر تعرف عادة باسم العصر الهيلينستى لاختلاط العناصر الهيلينية (أى اليونانية) بالعناصر الآسيوية . وعلى أية حال، فإننا لانوافق على هذا التقسيم الذى يجعل الحضارة الآريية الحضارة المرجعية فى العالم على مدى العصور، فضلاً عن أنه تقسيم فضفاض يتجاهل الاختلافات الثقافية الواضحة بين الجماعات البشرية المختلفة. (المترجم)

اليمن وحضرموت وجنوب شبه الجزيرة العربية . وصار المكان الذى استقروا به يعرف باسم الفسطاط ، إما مشتقاً من واحد من الأسماء العربية العديدة للخيمة أو تحريف للكلمة اليونانية فسأتُن Fossaton التى تعنى الخندق . كانت الفسطاط ، مقارنة بالمدينة الإسلامية الجديدة فى العراق، أى الكوفة ، التى يبدو أنها كانت قد بنيت بشوارع واسعة ومركز حضرى مفتوح، أكثر عشوائية وتداخلاً . فقد استقرت مختلف القبائل والعائلات حيثما شاعوا وتطورت الشوارع عن الممرات الملتوية التى كانوا يسلكونها للذهاب إلى النيل طلباً للماء أو فى طريقهم إلى المسجد أو السوق . وكانت المدينة منتشرة على مساحة واسعة تمتد حوالى خمسة كيلو مترات من الشمال إلى الجنوب على امتداد ضفاف نهر النيل وعرضها كيلو متر واحد على الأقل من الغرب إلى الشرق . وتوطن الناس فى جماعات عرقية ، كل منها ما بين ثلاثمائة وثلاثمائة وخمسين رجلاً خُصصت لهم «خطة» يبنون فيها منازلهم . وكانت الفسطاط الأولى ، حسب كلام مؤرخها الأعظم : «خليط متلاحم من ثلاثين أو أربعين مستوطنة قبلية (أو من عدة قبائل) تضم عدة مئات من الخيام والاكواخ المصنوعة من الأقصاب أو الطين ، وقد بنيت متقاربة إلى بعضها البعض وتفصل بين كل مستوطنة وأخرى مساحات فسيحة من الأرض غير المأهولة»^(٥٦). وقد أكد البحث الأثرى الحديث أن معظم الموقع كان مفتوحاً وغير مبنى زمن الفتح الإسلامى وأن بناء المساكن الدائمة من الطوب الأحمر كان قد بدأ فى وقت باكراً للغاية^(٥٧).

وكان مقدراً لهذا الاستيطان العشوائى فى الفسطاط أن يحظى بمستقبل مجيد . فمئذ زمن تأسيسها على يدى عمرو بن العاص سنة ٦٤١م حتى يومنا هذا ، ظلت هذه المدينة على رأس الدلتا عاصمة لمصر . حقا إن مركز القوة قد انتقل تدريجياً نحو الشمال، من خلال الحى الرسمى الذى بنى فى القرن التاسع الميلادى (الثالث الهجرى) على الحدود الشمالية للفسطاط (أى العسكر والقطائع) حتى مدينة القاهرة ذات الأسوار التى أسسها الفاطميون سنة ٩٦٩م ، ولكن على الرغم من هذه الهجرة البطيئة إلى الشمال، بقيت الفسطاط مركزاً للسكان والتجارة حتى عام ١١٧١م ، عندما أحرقت

أجزاء كبيرة منها زمن الحروب الصليبية خوفاً من الغزو(*) . ومنذ ذلك الحين بقى معظم موقع القسطنطينية خراباً ، حيث تغطى أكوام الحطام المنخفضة بقايا المنازل والمساجد والحمامات . بيد أن حصن بابليون القديم ظل مركزاً لديانة الأقباط وثقافتهم، ولا يزال المسلمون يصلون فى المسجد الذى يحمل اسم عمرو بن العاص ، وييجلون به باعتباره أقدم مساجد مصر.

وقد أنهى تأسيس القسطنطينية دور الإسكندرية بوصفها العاصمة. فعلى مدى ألف سنة تقريباً كانت مصر تحكم من هذه المدينة البحر المتوسطية بواسطة نخبة من الناطقين باليونانية . وكان الإتصال بروما والقسطنطينية عن طريق البحر المتوسط سهلاً ويحدث كثيراً . وفى أثناء الهدنة فيما بين مفاوضات استسلام المدينة ووصول الحامية العربية ، رحل عدد كبير من أفراد هذه النخبة . وصارت الإسكندرية ثغراً أو مدينة حدودية . وفى أواخر سنة ٦٤٥م ، نزلت قوة بيزنطية تحت قيادة من يدعى مانويل الإسكندرية واستولت عليها بسهولة . ومن هناك انطلقوا يعيثون فى الدلتا فساداً، ولكنهم فشلوا فى اغتنام الفرصة ومهاجمة القسطنطينية . فقد أعيد تعيين عمرو بن العاص ، الذى كان قد خلع من منصبه الوالى آنذاك ، على وجه السرعة ليقود الجنود الذين تولى قيادتهم من قبل بهذا القدر من النجاح فى الفتح الأول. وأرغم البيزنطيون على التقهقر إلى الإسكندرية مجدداً. وفى صيف ٦٤٦م فرض الحصار على المدينة. ويقول البعض إن المهاجمين المسلمين هدموا أسوار المدينة بآلات الحصار، ويقول آخرون إن السبب فى سقوطها يرجع إلى خيانة أحد حراس البوابات. ويستحيل إثبات صحة أى من هاتين الروايتين. وعلى أية حال، فالواضح أن المدينة قد أخذت عنوة : وهرب بعض الجنود البيزنطيين بحراً على متن السفن ، على حين لقي كثير غيرهم، ومن

(*) أحرقها شاور أحد الوزيرين المشتبكين فى صراع على السلطة بعد أن استنجد بقوات نور الدين محمود فى مواجهة غريمه ضرغام والفرنج ، ثم غدر بالمسلمين واستنجد بالفرنج ثم خاف منهم وأحرق القسطنطينية التى ظلت النار مشتعلة بها خمسين يوماً . وقد قتله صلاح الدين الأيوبي فى أحد شوارع القاهرة. (المترجم)

بينهم مانويل نفسه، مصرعهم فى القتال. وهذه المرة كان مجئ العرب مقروناً بإحراق أجزاء كثيرة من المدينة وذبح أعداد كبيرة من أهلها حتى أوقف عمرو بن العاص القتل فى مكان عرف منذ ذلك الحين باسم مسجد الرحمة.

وقد أكد الفتح الثانى وضعية الفسطاط بوصفها العاصمة كما حسم مصير الإسكندرية التى صارت حينئذ مدينة إقليمية. ومن بعض الجوانب كانت تلك عودة إلى نموذج أكثر قدماً: فقد خلفت الفسطاط منف العاصمة الفرعونية.

لقد ظل الاستيطان العربى محدوداً للغاية. ومن غير المحتمل أن يكون العدد قد زاد عن أربعين ألف رجل^(٥٨) مع عائلاتهم ، ولنقل إنها كانت هجرة قوامها مائة ألف نسمة^(٥٩). وبعد تأمين البلاد عرف العرب كيف يديرون مواردها لصالحهم ، ولم تكن لديهم نية أو رغبة فى تشجيع المزيد من الهجرات: إذ كان هذا سيعنى توزيع الموارد بأنصبة أقل. كما أنهم لم يرغبوا فى تشجيع الأقباط على اعتناق الإسلام ، لأنهم كانوا سيطلبون نصيبهم أيضاً^(٦٠). وعلى مدى معظم القرن الذى أعقب الفتح، كان الاستقرار العربى محصوراً فى الفسطاط، وحامية الإسكندرية وحامية أخرى فى أسوان للدفاع عن مصر العليا ضد الهجمات من النوبة. وبقيت الأغلبية الغالبة من السكان قبطية مسيحية كما أن الوظائف الدنيا فى الإدارة كان يشغلها إلى حد كبير العائلات والمجموعات نفسها التى كانت تخدم الإدارية الإمبراطورية البيزنطية والفارسية من قبل . وكانت الوظائف العسكرية والوظائف العليا فى الإدارة من العرب فحسب .

وقد لقي الأبطال الرئيسيون فى دراما فتح مصر مصائر مختلفة . وكان كيروس أول من ذهب ، ومات لأسباب طبيعية فى فترة الهدنة ما بين معاهدة الاستسلام

(*) هنا نجد المؤلف ، على الرغم من اتساع أفقه العلمى ومنهجه الدمش فى الدراسة، يركن إلى التفسير الأحادى للظاهرة التاريخية. فهو يتحدث عن أمرين مختلفين ؛ ومع ذلك ينسبهما إلى سبب واحد هو المكاسب المادية. وقد نسى عقد الذمة الذى كتبه عمرو لأقباط مصر ، وحفظ لهم حرية العقيدة . وكان ذلك السبب الجوهرى فى بقاء الأقباط غالبية السكان حتى منتصف القرن الهجرى الثالث / التاسع الميلادى. وعلى أية حال ، فإننى لا أستطيع الموافقة على ما ذهب إليه. (المترجم)

والاحتلال العربى النهائى . وإذ كتب بتلر بصورة تخيلية اعتماداً على يوحنا النقيوسى،
أعاد بناء تاريخ الشهور الأخيرة فى حياة كيروس :

«كان كيروس آنذاك رجلاً منكسراً فى ذهنه وبدنه. فقد تلاشت جميع أحلامه
الطموح : وذهبت آماله الشخصية فى السلامة [بسبب غضب الإمبراطور مما فعله] .
وعندما شعر بالظلال تتجمع حول حياته ، صحا ضميره وأحس بجرائمه وإخفاقاته
على السواء . وإذ تمزق بفعل الندم الذى لاينفع ، فقد انتابه أسى بسبب خيانتته لمصر
وذرف دموعاً بلا توقف . وكان غارقاً فى الكآبة والقنوط لدرجة أنه سقط فريسة سهلة
للدوستناريا التى أمسكت به يوم أحد السعف وفى يوم الثلاثاء الذى يليه، ٢١ مارس
سنة ٦٤٢م، مات»^(٦٠).

وفى الحقيقة ، ربما كان كيروس محقاً فى الموافقة على دفع الجزية واللعب على
الوقت بدلاً من المخاطرة بهزيمة عسكرية على أيدي العرب. ولو أنهم اتبعوا سياسته ،
فربما كان تاريخ مصر مختلفاً لغاية.

ولم تكن السنوات الأخيرة فى حياة البطريك القبطى بنيامين تختلف كثيراً^(٦١).
ولدينا بعض التفاصيل فى السيرة القريية من المعاصرة والمالية جداً للبطريك .
فعندما احتل عمرو بن العاص الإسكندرية أقنعه نبيل قبطى اسمه سانوتيوس Sanutius
أن يرسل إعلان أمان لبنيامين ويدعوه للعودة إلى الإسكندرية . وعندما وصل ، بعد
ثلاثة عشر عاماً من الاختفاء ، عامله عمرو بحب واحترام وقال : «فى جميع البلاد التى
فتحتها لم أر رجلاً للرب مثل هذا». ثم أصدر له تعليمات بأن يستأنف السيطرة على
الكنيسة القبطية ويشرع فى مصالحه أولئك الأقباط الذين كانوا قد هجروا العقيدة فى
أثناء حكم كيروس، وفيهم عدد من الأساقفة. ورتب لإعادة بناء أديرة وادى النطرون
إلى كانت قد دُمرت على أيدي الخلقونيين بما فى ذلك البيت الكبير للأبنا مكاريوس ،
الذى لا يزال موجوداً حتى اليوم «لقد نمت الأعمال الطيبة للأرثوذكس (الأقباط)
وتزايدت وفرح الشعب بها مثل صغار العجول عندما تفك قيودها وتطلق لى تتغذى
على لبن أمها»^(٦٢). وعندما عاد بنيامين إلى الإسكندرية مرة أخرى، وجلس بين رعيته ،

وطد نفسه فى دير سان متراس ، لأن جميع الرهبان هناك كانوا مصريين ولم يسمحوا بأن يلوثة الخلقونيون المكروهون .

وأرسى بنيامين أيضا علاقات طيبة مع عمرو بن العاص . فبعد سقوط الإسكندرية بفترة قصيرة ، استعد عمرو للإنطلاق بحملته إلى ليبيا . وطلب من بنيامين طلباً : «إذا صليت من أجلي حتى ذهب إلى الغرب والمدن الخمس وأتملكها مثلما تملك مصر وأرجع بالسلامة ويسرعة فإننى سأفعل كل ما تطلبه منى». ويقدم لنا ساويرس بن المقفع كاتب سيرة بنيامين صورة مذهلة للبطريرك الذى يصلى من أجل نجاح القائد المسلم ضد سكان برقة النصارى(٥)(٦٣).

وقد عاش بنيامين ما يقرب من عشرين سنة بعد سقوط مصر بأيدي المسلمين، ومات عن عمر مديد معزراً مكرماً سنة ٦٦١م . وتم دفنه فى دير الأنبا مكاريوس، حيث لا يزال يحظى بالتبجيل باعتباره من القديسين . ولا يمكن أن يكون هناك شك فى أنه لعب دوراً رئيسياً فى بقاء الكنيسة القبطية فى أثناء فترة الانتقال إلى الحكم العربى.

وعاش عمرو بن العاص بعد بنيامين ثلاث سنوات أخرى، ولكنه لم يستمر حاكماً على مصر. ففي سنة ٦٤٥م خلعه الخليفة الجديد عثمان بن عفان ، الذى كان يحاول أن يركز حكومة الخلافة ، وعين محله عبدالله بن سعد بن أبى السرح ، الذى لم تربطه مثل هذه العلاقات الوثقى مع الجيش الفاتح ، وكان يمكن الاعتماد عليه فى إرسال المزيد من الدخلى إلى المدينة المنورة . ولكن عمرو بن العاص لم يكن قد انتهى أمره بعد.

(*) تدخل كتابات ساويرس بن المقفع فى كتاب «سير البطارقة» ضمن ذلك النوع من الأدب التاريخى المعروف باسم «سير القديسين Hagiography»، وهى كتابات لا تسجل التاريخ كما حدث ، وإنما تقوبه فى قوالب مسيحية نمونجية تصور القديس فى الصورة التى ينبغى أن يكون عليها ، لا فى صورته التاريخية الحقيقية؛ ومن هنا يكتنف الشك هذه الكتابات كثيراً . ومن ناحية أخرى، فإن المصادر التاريخية الأخرى لا تتحدث عن طلب عمرو بن العاص ، وهو واحد من الصحابة ، من البطريرك المسيحى أن يصلى من أجله وهو يحارب تحت راية الجهاد فى سبيل الله . والمدهش أن المؤلف يأخذ رواية ساويرس على علاقتها مع أنه يشكك فى الروايات الواردة لدى المؤرخين المسلمين باستمرار. (المترجم)

إنَّ لعب دوراً مهماً باعتباره مستشار قريبه معاوية بن أبي سفيان ، أول الخلفاء الأمويين، فى الصراع الذى أعقب مقتل عثمان بن عفان سنة ٦٥٦م. وفى ٦٥٨م عينه معاوية قائداً لجيش ينتزع مصر من منافسه على بن أبى طالب. وعلى الرغم من أنه كان لا يزال قادراً على جذب التأييد من الفاتحين الأحياء وأولادهم. وفى معركة قاسية بالقرب من الفسطاط فى صيف سنة ٦٥٨م هزم مؤيدى على بن أبى طالب ، ودخل العاصمة التى كان قد أسسها ظافراً . وبقى والياً حتى بلغ حوالى السبعين من عمره وتوفى لأسباب طبيعية فى بواكير سنة ٦٦٤م ، ودفن عند سفح جبل المقطم ، الذى يرتفع إلى الشرق من الفسطاط ، ولكن المسلمين الأوائل لم يكونوا يهتمون بتحديد أماكن دفن موتاهم ولم يتم التعرف على قبره أبداً .

وتعطى المصادر التاريخية عمرو بن العاص سمعة طيبة. وعن كفايته قائداً عسكرياً وسياسياً لا يمكن أن يكون هناك شك - ذلك أن النتائج تتحدث عن نفسها- ولكنه كان أيضاً يشتهر بالسلوك المستقيم والعدالة. وفى التراث المصرى- العربى، يُشار إليه ليس باعتباره فاتحاً فحسب وإنما بوصفه رجلاً لم يرع مصالح الجنود وعائلاتهم فى الجيش الفاتح على حساب الحكومة المركزية فى المدينة أو فى دمشق. وقد تم تصويره على فراش الموت رجلاً حكيماً ورعاً تقياً ، رجلاً من الذين أوصى عليهم النبى نفسه (من المبشرين بالجنة)^(٦٤). كما أن صورته جيدة أيضاً فى المصادر القبطية المسيحية. وقد رأينا بالفعل كيف أن كاتب سيرة بنيامين يصف العلاقات الطيبة التى كانت تجمع عمرو بن العاص ببطله. بل إن ما يذهل أكثر هى شهادة يوحنا النقيوسى . ولم يكن يوحنا معجباً بالحكم الإسلامى وكان قاسياً فى إدانة ما رأى أنه اضطهاد أو إساءة معاملة، ولكنه يقول عن عمرو بن العاص: «لقد استخرج الضرائب التى كانت قد تقرر ، ولكنه لم يأخذ شيئاً من أموال الكنائس ، ولم يرتكب أى فعل من أفعال السلب والنهب، وحافظ عليها طوال أيامه»^(٦٥).

ومن بين جميع الفتوح الإسلامية الباكرة، كان فتح مصر هو الأسرع والأكمل. وفى غضون عامين كانت البلاد قد خضعت تماماً للحكم العربى. بل إن ما يلفت الانتباه أكثر ، أنها بقيت تحت الحكم الإسلامى منذ ذلك الحين. ونادراً ما يحدث فى التاريخ أن

يحدث مثل هذا التغير السياسى الضخم بمثل هذه السرعة وأن يستمر على هذا المدى الطويل.

وبينما خضعت البلاد للحكم العربى - الإسلامى ، لم تصبح فى هذه المرحلة أرضاً عربية أو مسلمة. فعلى مدى عدة قرون، كان الناطقون بالعربية والمسلمون أقلية، فى البداية أقلية صغيرة للغاية أخذت تنمو ببطء . وإذا ما اقترحنا أن العدد الكلى للسكان العرب كان مائة ألف نسمة من بين إجمالى السكان البالغ عددهم ثلاثة ملايين نسمة يمكن أن تكون لدينا فكرة عن كيف كانت هذه الأقلية، بنسبة واحد إلى ثلاثين صغيرة^(٦٦). وعلى أية حال، فإنه من الأمور المتناقضة أن حقيقة كون الفاتحين قلة قليلة ربما تكون بالفعل قد جعلت الحكم أكثر سهولة . إذ إنهم فى البداية لم يمارسوا ضغطاً لا يمكن احتماله على الموارد، كما أنهم لم يحرموا الأهالى من أرضهم أو منازلهم ؛ وعاشوا على عوائد الضرائب وبنوا مدينة جديدة يعيشون فيها. كذلك فإنهم لم يتدخلوا فى الممارسات الدينية أو مبانى المسيحيين . وقد استمرت الإدارة إلى حد كبير دونما تغيير. ومن المؤكد أنه بعد مائة سنة، كانت الضرائب تبدو مرهقة للغاية ونسمع عن ثورات قبطية عنيفة ، ولكن فى ذلك الوقت كان الحكم الإسلامى قد رسخ تماماً بحيث لا يمكن الإطاحة به.

وقد جاء المسلمون لحكم مصر بسبب نجاحهم العسكرى. فقد هزموا الجيش البيزنطى فى عدة معارك واستولوا على قواعده فى بابلون والإسكندرية . وليس من الواضح تماماً السبب فى أن أداء القوات البيزنطية كان سيئاً إلى هذا الحد. ومن المؤكد أن السبب لم يكن التفوق العددي أو الأساليب التكنولوجية التى أتاحت للمسلمين أن ينتصروا . وربما كان جزء من المشكلة يتمثل فى التناقض الذى تحب المصادر التاريخية العربية أن تبرزه بين الجنود المسلمين بصلابتهم وزهدهم والبيزنطيين المترفين المدللين ، ومن المثير أن نلاحظ أن يوحنا النقيوسى يعلق على الوزن الزائد ليوحنا الذى جعله غير لائق للقتال وفشل فى الدفاع عن الفيوم.

كان هناك أيضاً فشل فى القيادة على الجانب البيزنطى. وأحد الأسرار الثابتة المتعلقة بالفتح الإسلامى يتمثل فى السياسات التى اتبعها كيروس تجاه العرب.

فقد أمضى السنوات العشر التي سبقت قدوم المسلمين فى محاولة مستمرة وقاسية لفرض السلطة الإمبراطورية على الأرض والكنيسة فى مصر. ومع هذا توضح شهادة كل من المصادر الإسلامية والمسيحية أنه يئس بسرعة من الدفاع عن الأرض ضد المسلمين وأخذ يستعد لشروط الاستسلام . ووصف يوحنا النقيوسى لتسليمه الإسكندرية سرّاً مثال ناطق على هذا. ومن الصعب تفسير هذا الموقف . وبالنسبة لبتلر، الذى كان يكتب بإحساس عميق بالشجاعة الأخلاقية ، كان كيروس متأمراً خائناً ، يعمل على خيانة الإمبراطورية لكى يبنى سلطة البطيريركية^(١٧). «فقد لعب دوراً خبيثاً خائناً» فى الأحداث «وينبغى أن يبقى ذنب الخيانة المتعمدة للإمبراطورية الرومانية وصمة لا تُمحى على ذكراه»^(١٨). وربما كان قد فقد أعصابه ببساطة ، بيد أنه من الممكن أيضاً أن يكون قد تصور نفسه سيكون نائباً للخلفاء مثلما كان نائباً عن الأباطرة فى حكم البلاد. وسواء كانت سياسات كيروس نتاجاً لعدم الكفاءة أو السياسة الواقعية المشوشة المرتبكة ، فمن الواضح أنها كانت عاملاً مهماً إن لم تكن عامل الحسم فى مجرى الأحداث.

ويمكن جزء من تفسير سرعة الفتح فى البناء السياسى لمصر. فمنذ العصور الفرعونية كانت إدارة البلاد مركزية بدرجة كبيرة. وفى أواخر العصور القديمة ، كانت أمور الدفاع فى أيدي الحاكم وجيشه . ولم يكن لدى معظم السكان سلاح ولم يكونوا مدربين عسكرياً . ولم يكن هناك سادة شبه مستقلين لهم أتباعهم من العسكريين الذين يمكنهم أن يواصلوا المقاومة على أساس محلى . وهنا تناقض واضح مع إيران ، حيث كان السادة والأمراء المحليون يحافظون على ثقافتهم المحلية وعلى درجة من الاستقلال بعد هزيمة الحكومة الساسانية المركزية بوقت طويل.

ويبقى موقف الأقباط ، الذين كانوا الغالبية العظمى من السكان ، موضع جدل ونقاش . هل ساعدوا المسلمين ، أم أنهم لم يساعدهم؟ وبالنسبة لبتلر كانت المسألة واضحة : إنهم لم يساعدهم وهو يدين مراراً وتكراراً بشكل عنيد أى كاتب يقترح أنهم ربما كانوا قد ساعدوهم. كان بلتر حجة فى الثقافة القبطية ومن الواضح أنه كان قد

عقد العزم على تبرئتهم من أية تهمة بخيانة المسيحية^(*). وإذا عدنا القهقري إلى المناقشات التي جرت في أواخر القرن التاسع عشر تبدو الصورة أقل وضوحاً . فالتراث المصرى العربى يشير مراراً إلى أن الأقباط ساعدوا المسلمين ، ولكن دائماً فى الإمداد والتموين ، ولم يحدث أبداً أن كانوا جنوداً محاربين. ويقال إن البطريك القبطى بنيامين قد حث أتباعه على إقامة علاقات ودية مع عمرو بن العاص بمجرد أن بدأ الغزو . وهذا دليل مثير . ويبدو أنه لم يكن هناك سبب جيد يفسر لنا سبب ذكر المصادر التاريخية المصرية العربية هذا الأمر ، لاسيما وأنه من المرجح أن يكون تدوينها قد تم للمرة الأولى فى القرن الثامن الميلادى/الثانى الهجرى ، فى وقت كانت العلاقات فيه متدهورة بين المسلمين والقبط^(*). ومن الصعب أن نرى لماذا تنسب المصادر التاريخية العربية فضلاً للقبط فى بعض الإنجازات العسكرية التى أحرزها العرب ما لم تكن جزءاً قديماً وأصيلاً من القصة. هذه الإشارات كلها هى الأكثر دلالة لأنه لا يبدو أن هناك نظيراً لها فى أى مكان آخر: إذ إن قصص الفتح فى بلاد الشام ، مثلاً ، لا تقدم أية أمثلة محددة على أن المسيحيين المونوفيزيتيين، الذين كانت علاقتهم بالسلطات البيزنطية لا تختلف كثيراً عن علاقة القبط بها، قد ساعدوا المسلمين.

وشهادة يوحنا النقيوسى أكثر وضوحاً . ولم يكن يوحنا مبرراً للحكم الإسلامى. فبالنسبة له كان الإسلام «عقيدة الوحش»^(٦٩). ومع هذا فإنه يسجل أن أنتينوى فى مصر الوسطى كان سكانها ، الذى كانت غالبيتهم حتماً من القبط ، خضعوا للمسلمين ودفعوا لهم الجزية. وأعملوا السيف فى جميع البيزنطيين الذين واجهوهم^(٧٠). والحقيقة أن القبط، يقال إنهم ساعدوا المسلمين فى عدد من المناسبات ، ولكن هذا لم يكن

(*) الحقيقة أن هذه صياغة غريبة تماماً للموضوع : فالمعروف جيداً أن الدولة البيزنطية «المسيحية» أذاعت الأقباط «المسيحيين» الأمريين، ومارست عليهم كل أنواع القهر والاضطهاد ، وكان كيروس أداة قاسية فظة فى فرض سياسة الإمبراطورية مما تسبب فى هرب بنيامين . وقد أشار المؤلف إلى هذا كثيراً فى كتابه . وهنا لا يمكن أن تكون مساعدة الأقباط للمسلمين «خيانة للمسيحية»، وإنما هى عمل له جوانبه السياسية المتشعبة فى الرغبة فى التخلص من الحاكم البيزنطى الظالم. (المترجم)

نموذجاً عاماً ، وقد عانوا مثل البيزنطيين من السلب والنهب الذى مارسه المسلمون ومن آثار الضرائب الباهظة والاعتباطية(*) . ويبدو أن الحقيقة هى أن استجابات القبط اختلفت وربما كانت مرتبكة : ذلك أن بعضهم فى بعض الأوقات رحبوا بشكل واضح بالفاحين وتعاونوا معهم . وفى أوقات أخرى ، كانوا يحاربون إلى جانب الروم . ولا بد أن كثيراً من المصريين فى القرى والمدن الصغيرة بوادى النيل والدلتا شعروا ببساطة أنهم غيروا جماعة من الحكام الأجانب المستغلين بجماعة أخرى .

(*) ربما يكون الأصح القول بأن العلاقة المتدهورة كانت بين الحكومة من ناحية ، وبين سكان مصر من المسلمين والقبط بسبب السياسة الضريبية الجائرة من ناحية أخرى . فقد ثار القبط كما ثار المسلمون الذين استقروا بمصر ضد هذه السياسة . (المترجم)

الهوامش

(١) عن مصر أوائل القرن السابع انظر :

W. E . Kaegi, 'Egypt on the eve of the Muslim conquest', in Cambridge History of Egypt, vol. I: Islamic Egypt, 640-1517, ed. C. Petry (Cambridge, 1998), pp. 34-61.

(٢) في هذا الفصل تتبع الترتيب الزمني لدى : Kaegi, 'Egypt on the eve', pp. 60-61.

(٣) Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2579-95.

(٤) Ibn Abd al-Hakam, Abu'l-Qasim 'Abd al-Rahman b. 'Ahd Allah, Futuh Misr, ed. C. C. Torrey (New Haven, CT, 1921). For critiques of this work, see R. Brunschvig, 'Ibn cAbdal-hakam et la conquete de l'Afrique du Nord par les Arabes: etude critique', Annales de l'Institut des Etudes Orientales 6 (1942-7): 108-55, and W. Kubiak, Al Fustat, Its Foundation and Early Urban Development (Cairo, 1987), pp. 18-22.

وكلاهما يرى ابن عبد الحكم قاضيا يبحث عن السوابق الشرعية أكثر منه مؤرخاً وأظن أن المحتوى التاريخي أكثر أهمية ومن المؤكد أن كوبياك يبالغ عندما يقول (pp. 18-19) إن هدفه الأولي لم يكن نقل المعرفة بالحقائق الماضية والحوادث أو تمجيد المحاربين من الجيل الأول من الفاتحين المسلمين ولكن يقدم تفسيراً تاريخياً مقنعاً لعدد من الموروثات الدينية الفقهية الخاصة بفتح مصر وشمال أفريقيا .

(٥) Kubiak, Al-Fustat, p. 19.

يبين أن أول من جمع المأثورات عن الفتح كان يزيد بن أبي حبيب (ت ٧٤٥م) .

(٦) John of Nikiu, The Chronicle of John (c.690 AD) Coptic Bishop of Nikiu. trans. R. H. Charles (London, 1916).

(٧) See the second edition by P. M-Fraser (Oxford, 1978).

For Ancient Egypt, see R. E. Ritner, 'Egypt under Roman rule : the legacy of (٨) ancient Egypt', in Cambridge History of Egypt , vol I : Islamic Egypt, 640-1517, ed. C. Petry (Cambridge, 1998), pp. 1-33.

(٩) Kaegi, 'Egypt on the eve', p. 33.

(١٠) عن مصر في هذه الفترة انظر :

R. Bagnall, *Egypt in Late Antiquity* (Princeton, NJ, 1993).

(١١) انظر المناقشة بشأنها في : Butler, *Arab Conquest*, pp. 401-25.

(١٢) Kitner, 'Egypt', p. 30.

(١٣) Kaegi, 'Egypt on the eve', p. 34.

(١٤) Quoted in Butler, *Arab Conquest*, p. 72.

(١٥) See Kaegi, 'Egypt on the eve', pp. 42-4.

(١٦) On Benjamin, see his biography, in Sawirus b. al-Muqaffa, 'Life of Benjamin I the thirty-eighth patriarch A.D. 622-61', in *History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria*, trans B. Evetts (*Patrologia Orientalis* 1.4, 1905), pp. 487-518.

(١٧) Sawirus, 'Life of Benjamin', p. 496.

(١٨) Butler, *Arab Conquest*, pp. 176-9.

(١٩) *Ibid.*, p. 183.

(٢٠) Sawirus, 'Life of Benjamin', pp. 491-2.

(٢١) Nikephorus, *Patriarch of Constantinople, Short History*, trans. C. Mango (Washington, DC, 1990), pp. 72-5.

(٢٢) هذا السرد على أساس :

on R. Hoyland, *Seeing Islam as Others Saw It*, pp. 574-90, which uses non-Arab sources, notably the Byzantine Chronicle of Nicephorus, to produce a plausible reconstruction; cf. the blunt dismissal of this possibility that Cyrus paid tribute by Butler", *Arab Conquest*, pp. 207-8.

(٢٣) Baladhuri, *Futuh*, p. 213 ; Ibn Abd al-Hakam, *Futuh*, pp. 56-7.

(٢٤) Ibn Abd al-Hakam, *Futuh*, p. 58.

(٢٥) Butler *Arab Conquest*, pp. 209-10.

(٢٦) *Ibid.*, p. 211.

(٢٧) Ibn Abd al-Hakam, *Futuh*, pp. 58-9.

(٢٨) Ibn Abd al-Hakam, *Futuh*, pp. 59-60.

(٢٩) Ibn Abd al-Hakam, *Futuh*, p. 60.

(٣٠) القصة مرتبكة إلى حد ما في :

John of Nikiu, *Chronicle*, pp. 179-80.

استخدمها بتل في روايته (arab Conquest , pp. 222-5) التي أقمت على أساسها هذا السرد .

- apud Ibn Ahd al-Hakam, Futuh, p. 61. (٢١)
- ولكن انظر أيضا الأرقام في بتر حيث يلاحظ أنه لا يوجد أى نوع من الارتباك بين المصادر العربية . أما
يوحنا النقيوسي فيتحدث عن أربعة آلاف رجل جديد .
- Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p. 64. (٢٢)
- Butler, Arab Conquest, p. 228. (٢٣)
- John of Nikiu, Chronicle, p. 181; Ibn Abd al-I Hakam, Futuh, p. 59; Butler, Arab (٢٤)
Conquest, pp. 228-33.
- See Butler, Arab Conquest, pp. 238-48, with a plan at p. 240; Kubiak, Al-Fustat, (٢٥)
pp. 50-55.
- John of Nikiu, Chronicle, pp. 186-7. (٢٦)
- Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p. 63; see Butler, Arab Conquest, p. 259 n. 1. (٢٧)
- وفيها يناقش تنويعات لاحقة أخرى للقصة والغرض غير المقننة، في المصادر العربية . انظر أيضا :
- Butler, Treaty of Misr' (published with separate pagination (1-64) and index at
the end of Butler, Arab Conquest), pp. 16-19.
- Baladhuri, Futuh, p. 213. (٢٨)
- Yaqut, 'Fustat, Butler, Arab Conquest, p. 270, n. 3. (٢٩)
- John of Nikiu, Chronicle, pp. 186-7. (٣٠)
- Ta'rikh, I, pp. 2588-9: ورد النص في الطبري ،
- Treaty of Misr'. وتمت مناقشتها في مقالة بتر .
- Butler 'Treaty of Misr', pp. 46-7. (٣٢)
- O. R- Hill, The Termination of Hostilities in the Early Arab Conquests AD 634-656 (٣٣)
(London, 1971), pp. 34-44.
- Baladhuri Futuh, pp. 214-15. (٤٤)
- Yaqut, 'Fustat'. (٤٥)
- Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p. 73. (٤٦)
- John of Nikiu, Chronicle, p. 188; Ibn Abd al-Hakam, Futuh; Butler, Arab (٤٧)
Conquest, pp. 286--7.
- Baladhuri, Futuh, p. 220. (٤٨)
- Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p. 74. (٤٩)
- Butler. Arab Conquest, pp. 291-2, (٥٠)
- ibid., pp. 368-400. ووصف المدينة قائم في أساسه على المصادر العربية .

(٥١) الاستخدام الحر لكلمة «فلسطين» لوصف سوريا الكبرى في أدبيات البحث العلمي أواخر القرن التاسع عشر .

G. Le Strange, *Palestine under the Moslems: A description of Syria and the Holy Land from A.D. 650 to 1500* (London, 1890).

(٥٢) كما يلاحظ بتر أن هذه المسلات كانت في انتظار التخريب البريطاني والإنجليزي لإزالتها من مصر واحدة الآن على نهر التيمس ، واحدة في نيويورك ... ارتفاعها حوالي ٦٨ قدماً ، سوف تساعد على رؤية قيمتها من مسافة قصيرة بدون الأسوار .

M. Rodziewicz, 'Transformation of Ancient Alexandria into a Medieval City', in (٥٢) *Colloque international d'archeologie islamique*, ed. R-P. Gayraud (Cairo, 1998), pp. 368-86.

John of Nikiu, *Chronicle*, pp. 192-3. (٥٤)

See Hoyland's reconstruction of the 'common core' of the Syrian chronicle (٥٥) tradition in *Seeing Islam*, pp. 577-8.

Kubiak , *Al fustat* , p. 71. (٥٦)

R.-P. Gayraud, 'Fostat: evolution d'une capitale arabe du VII au XII siècle d'après (٥٧) les fouilles d'Istabl cAntar', in *Collque international d'archéologie islamique*, ed. R.-P. Gayraud (Cairo, 1998), pp. 436-60.

Ibn Abd al-Hakam, *Futuh*, p. 102. (٥٨)

(٥٩) وضعت تقديري على أساس اقتراض أن كثيراً من الناس كانوا عزاباً وتزوجوا نساء من الأهالي ولكن طبعاً كل هذه الأرقام قابلة للتأمل .

Butler, *Arab Conquest*, p. 361. (٦٠)

Ibid., pp. 439-446, . (٦١) يناقش إعادة بنيامين لمنصبه .

Sawirus, 'Life of Benjamin,' p. 500. (٦٢)

Ibid., pp. 496-7. (٦٣)

Ibn Abd al-Hakam, *Futuh*, pp. 180-82. (٦٤)

John of Nikiu, *Chronicle*. p. 200. (٦٥)

(٦٦) رقم ثلاثة ملايين هو الرقم المتحفظ من جانب كايجي ورقم ١٠٠,٠٠٠ تكبير مبالغ فيه لرقم ٤٠,٠٠٠ رجل الذي قدمه ابن عبدالحكم ، فتوح ، ص.١٢٠ باعتباره أقصى رقم في الديوان في العصر الأموي الباكر (انظر ما سبق) .

Butler, *Arab Conquest*, pp. 305-7. (٦٧)

Ibid., p. 534. (٦٨)

John of Nikiu, *Chronicle*, p. 182. (٦٩)

Ibid., p. 184. (٧٠)

1. The first part of the document is a letter from the President of the United States to the Congress, dated January 1, 1861.

2. The second part is a report from the Secretary of the Treasury, dated January 1, 1861.

3. The third part is a report from the Secretary of the Interior, dated January 1, 1861.

4. The fourth part is a report from the Secretary of the Navy, dated January 1, 1861.

5. The fifth part is a report from the Secretary of the War, dated January 1, 1861.

6. The sixth part is a report from the Secretary of the State, dated January 1, 1861.

7. The seventh part is a report from the Secretary of the Army, dated January 1, 1861.

8. The eighth part is a report from the Secretary of the Navy, dated January 1, 1861.

9. The ninth part is a report from the Secretary of the War, dated January 1, 1861.

10. The tenth part is a report from the Secretary of the State, dated January 1, 1861.

11. The eleventh part is a report from the Secretary of the Army, dated January 1, 1861.

12. The twelfth part is a report from the Secretary of the Navy, dated January 1, 1861.

فتح إيران

ترتفع جبال زاغروس شاهقة في سلسلة من التنيات من السهول المسطحة في بلاد ما بين النهرين^(١). وسفوح التلال خضراء وبودة في الربيع، وقد استخدمها الحكام المتتابعون للأراضي السهلية في العراق ليجدوا بعض البرودة وليهربوا من حرارة الجو في السهول. وكان الملوك الساسانيون يحبون بناء قصورهم فيها، وفيما بعد كان خلفاء العباسيين في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين/الثاني والثالث الهجريين يحبون المجئ إليها للصيد . والجبال الأعلى جرداء تماماً ويوجد بها الجليد في الشتاء، بحيث يغلق معظم المسالك بين العراق وإيران. وهناك سهول خصيبة صغيرة في ثنايا الجبال ولكن الكثير من الأرض لا يصلح سوى لاستخدام قبائل الرعاة الرحل، وكان معظمهم من الناطقين باللغة الكردية زمن الفتح. وهم أسلاف أولئك الأكراد الذين لا يزالون يسكنون الجبال شمال غرب إيران وجنوب شرق تركيا .

وتجرى حواف جبال زاغروس موازية لحافة السهل، لتشكل عقبات كبيرة، الواحدة تلو الأخرى . وبعبداً عن ممرات الرعاة ، لا يوجد سوى طريقين كبيرين عبر الجبال. وكان أهمهما «طريق خراسان الكبير»، وهو عبارة عن سلسلة الوديان والممرات التي تخرج من حلوان في السهول العراقية ، عبر القصور والحدائق الساسانية في «قصرى شيرين» و«الديسكرة»، والقوس المنحوت في الصخر عند «طاقى بستان»، ببركته التي تملؤها مياه الربيع والتماثيل المجسمة للملك الساساني وهو يمارس الصيد. ومن هناك يلتوى الطريق صاعداً من خلال الشعب الضيقة في السهل إلى بيسيطون. وهنا،

وقبل ألف سنة من مرور الجيوش العربية من هذا الطريق ، كان داريوس قد نصب نقشاً ثلاثى اللغة ، فى موضع شاهق يطل على الطريق الواقع فى السهل البعيد أسفل الجبال. ولم يكن من المحتمل أنه يوسع أى شخص فى ذلك الوقت أن يفهم اللغات القديمة، والفارسية القديمة، والعلامية، المنحوتة بالخط المسمارى القديم، ولكن ربما كان بوسعهم أن يروا صورة الملك الذى كان جالساً بتاجه على حين كان خصومه المقهورون يمرون أمامه ليستعرضهم . وكان ذلك طريق عبره الملوك العظماء على مدى القرون، تاركين بصمتهم على الشريان الرئيسى للإمبراطورية الساسانية. وخلف سهل ببسيطون، يلتف الطريق صاعداً الممر الصعب فوق أسد أباد قبل أن يصل الهضبة . وهنا تنبسط الأرض وتتقلص الجبال ويصل المسافر مدينة همدان القديمة.

ويقع الطريق الآخر الذى يصل بين السهل والهضبة بعيداً فى الجنوب. وكان يمرُّ من خلال الأرض المنبسطة الخصيبة فى خوزستان حول رأس الخليج، عابراً نهر الطاب على الجسر الساسانى الطويل عند أراجان ، قبل أن ينحرف عبر الجبال إلى ببشاپور عاصمة الملك شابور الأول، وإصطخر ، العاصمة القديمة لفارس . وكان هذا الطريق أطول من الطريق الشمالى، شديد الحرارة فى الصيف ، ولكنه كان يجرى فى أرض تتوفر بها المياه ونادراً ما كانت تسدُّ الثلوج . وبطبيعة الحال كان المسافر أو الغازى القادم من شبه الجزيرة يستطيع أن يعبر الخليج أيضاً بالقوارب ليصل إلى ميناء صغير مثل چنابه على الساحق بحرارته الحارقة، ثم يشق طريقه صاعداً خلال الجبال. وكان من خلال هذه الطرق جميعاً أن توغل الغزاة العرب فى داخل إيران.

وليس بالهضبة الإيرانية نفسها سوى القليل من العقبات التى تعوق تحركات الجيوش. فالوسط تشغله سلسلة من الصحراوات الملحية التى يستحيل عبورها بالفعل، ولكن هناك سهولاً منبسطة فى الشمال وفى الجنوب على السواء بين سلاسل الجبال. وتوجد المياه والعشب اللازم للحيوانات ، خصوصاً فى فصل الربيع ، وكانت الجيوش العربية قادرة على الحركة خلال هذه الأرض وتقطع مسافات طويلة بسرعة مدهشة . وقد ساعدهم هذا على تحقيق السيادة على مناطق شاسعة من الهضبة الإيرانية فى فترة وجيزة من الزمن، هى فترة السنوات الثمانى ما بين ٦٤٢م حتى سنة ٦٥٠م.

وكان معنى هذا أن معظم الفتح بقى سطحياً . فقد فرضوا سيطرتهم على معظم الطرق الرئيسية والمدن الأساسية وربما كان بها جباة ضرائب عرب تحميهم قوة عسكرية صغيرة . وعلى أية حال، كان الاستقرار العربي الكبير الوحيد فى القرن السابع فى مرو على الحدود الشمالية الشرقية. وكثير من المناطق الجبلية لم تمسها الفتوح فعلياً ، لأن سادتها رتبوا ببساطة أن يدفعوا الجزية للمسؤولين المسلمين.

وربما كانت الهزيمة النهائية التى لقيتها القوات الفارسية فى سهول العراق نهاية القتال. ولابد أنه كان هناك منطق معين لدى القوات الإسلامية جعلها تتوقف وتتقوى لفترة من الزمن، وثمة إحياءات فى المصادر بأن هذا الخيار كانت قد تمت مناقشته فى القيادة المسلمة. فقد كان العراق جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية الساسانية ، على أية حال، ولم يكن أى ملك يحترم نفسه ليستطيع ببساطة أن يتخلى عنه العدو . وقد صمم الإمبراطور يزيدجرد الثالث، الذى صار آنذاك عازماً على بناء السلطة بعد الفوضى السياسية التى كانت قد أعقبت موت كسرى الثانى سنة ٦٢٨م، على استعادة السيطرة على الأراضى الغنية فى سهول بلاد ما بين النهرين. وكان قد هرب بعيداً إلى الشرق فراراً من الغزاة ، ولكنه كان آنذاك قد بدأ يحاول حشد الدعم لمنعهم من الوصول إلى الهضبة الإيرانية. وتم إرسال الخطابات إلى جميع الأقاليم فى غرب إيران وشمالها وصدرت الأوامر إلى القوات بالتجمع فى مدينة نهاوند ، على الطريق الجانبى الخارج من الطريق السريع فى جبال زاجروس. وكانت نهاوند بلدة قروية صغيرة ولكنها قديمة اشتهرت بإنتاج الزعفران وإنتاج العطور. وربما يكون قد تم اختيار الموقع بسبب السهول المفتوحة والمراعى الجيدة التى جعلت منها مكاناً مناسباً لتجميع عدد كبير من القوات .

وتبدأ قصص حملة نهاوند^(٢) سنة ٦٤٢م بسلسلة من الخطابات وجهها الخليفة عمر بن الخطاب إلى الكوفة والبصرة ، يأمر بضرورة تجميع الجيوش. كان أكثر المجندين حماسة من أولئك الذين كانوا قد وصلوا حديثاً من شبه الجزيرة العربية ولم تواتهم الفرصة لكى يميزوا أنفسهم فى القتال الذى جرى قبل وصولهم أو حصلوا على الغنائم؛ وكانت هذه الحملة الجديدة ستمنحهم الفرصة لتعويض الوقت الضائع^(٣).

وتجمعت الجيوش الإسلامية على طريق خراسان القديم ورعت خيولهم فى مرج القلعة حيث احتفظ الخلفاء العباسيون فيما بعد بمزرعة خيولهم. ثم واصلوا السير تجاه الجيش الفارسى فى نهاوند ، على مسيرة حوالى مائة كيلو متر ، دون أن يواجهوا أية مقاومة^(٤). وفى الوقت نفسه صدرت الأوامر لقوة أخرى بأن تتمركز على الحدود بين أقاليم فارس وإصفهان لمنع الساسانيين من إرسال التعزيزات من الجنوب^(٥).

ووفقاً للمصادر العربية الرئيسية ، وجد الغزاة الجيش الفارسى متجمعاً على الجانب القريب من وادٍ ضيق شديد الانحدار ، ثبت فيما أنه كان قاتلاً بالنسبة لكثير منهم. ويقال إن الجيش العربى كان عدده ثلاثين ألف رجل ، وهو ما يبدو معقولاً ، وأن الجيش الفارسى كان عدده ثلاثة أو أربعة أمثال هذا العدد ، وهى مبالغة نمطية اتسمت بها المؤرخات العربية^(٦). ومثل القوات العربية، تضخمت قوات الجيش الفارسى بسبب المتطوعين من جميع المناطق المجاورة ممن فاتهم معركة القادسية والقتال فى العراق والذين كانت تحذوهم الرغبة آنذاك فى إثبات جدارتهم. وكان قد تم تجميع الجيش بالطريقة التقليدية، وقائده الفيرزبان فى المنتصف وجناحان على كل جانب . وحسبما ورد فى روايات أخرى عن المعارك، نعرف أن القوات الفارسية كانت مربوطة أو مقيدة بالسلاسل معاً حتى لا يهربوا^(٧)، وأنهم نشروا نباتات شائكة على الأرض خلفهم، لكى يمنعوا الخيالة من الهرب أيضاً. وكان المؤرخون العرب يحبون بيان التناقض بين القوات الإسلامية ، التى تلهمها الحماسة الدينية ، وخصومهم المستعبدین، المجبرین على القتال . وليست هناك مصادر إيرانية تقدم وجهة نظرها .

توقف الجيش العربى ونصبت الخيمة التى استخدمت مركزاً للقيادة . وكان الفرس قد حصنوا أنفسهم وراء الخنادق . وحاولت الجيوش الإسلامية أن تعصف بهم ولكنها لم تحرز نجاحاً كبيراً، ولم يكن الفرس المنظمون يخرجون من موقعهم الحصينة سوى عندما يكون ذلك مناسباً لهم. وبعد عدة أيام، اجتمع القادة المسلمون فى مجلس حرب . ومرة أخرى يتم تصوير المسلمين نمطياً على أنهم يتصرفون بالاتفاق بعد مشاورات هادئة ، ربما فى تناقض ضمنى مع بناء القيادة الاستبدادى لدى خصومهم.

وفى النهاية تقرر أن يتقدم الفرسان العرب ويهينوا خصومهم ويتظاهروا بأنهم يهاجمون الخنادق . ثم انسحبوا وأغروهم تدريجياً بالخروج من مواقعهم المجهزة بحثاً عن الغنائم . وفى الوقت نفسه كان الجيش الإسلامى الرئيسى تحت السيطرة . وعلى الرغم من الاحتجاجات التى صدرت عن أفراد الجيش القلقين، أبقاهم القائد النعمان بن مقرن فى الخلف حتى انقضى النهار وأوشك الظلام على بسط ردايه ، زاعماً أن هذا كان الوقت المفضل لدى النبى فى غزواته . وقام بجولة للتفتيش على القوات راكبا حصانه البنى الممتلى، ليتوقف عند كل راية لكى يحث رجاله . وأخبرهم أنهم لا يحاربون من أجل الأرض والغنائم التى رأوها حولهم وإنما يحاربون فى سبيل دينهم وشرفهم . كما أنه ذكرهم برفاقهم هناك فى الكوفة ، الذين سيعانون معاناة قاسية إذا ما نالتهم الهزيمة . واختتم قائلاً: «... فإنكم بين خيرين منتظرين ؛ إحدى الحسنين ؛ من بين شهيد حى مرزوق ، أو فتح قريب وظفر يسير...» (٨) (*) .

وعندما هاجموا العدو فى النهاية، جاعهم النصر سريعاً . وكما هى العادة، حارب معظم الجيش راجلاً وسيوفهم مسلولة . وسرعان ما امتصت الأرض الدماء الفارسية ، وبدأت الخيول تنزلق، ووقع النعمان القائد المسلم من فوق فرسه وقُتل . وعلى الرغم من هذا واصل المسلمون تقدمهم . وأخذ الفرس يهربون ، وفى الظلام الدامس ضلّ كثير منهم طريقهم وسقطوا فى الأخدود ليلقوا حتفهم . وعندما أخذ الكاتب الموسوعى العربى العظيم ابن حوقل يجمع القاموس الجغرافى الذى ألفه فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى/السابع الهجرى، أى بعد ستمائة سنة من الواقعة، كان المجرى المائى لا يزال يحمل ذكرى المكان الذى تم فيه تدمير الجيش الفارسى لتتفتح الهضبة الإيرانية أمام الفتح الإسلامى .

وحاول الناجون من الفرس ، وفيهم الفيرزّان ، الهرب فوق الجبال إلى همدان ولكن تقدمهم على امتداد الممرات الجبلية تأخر لأن الطريق كان مليئاً بقوافل من

(*) النص من الطبرى، ج٤، ص ١٣١ .

البغال والحمير التى تحمل العسل. وحاول الفرزبان نفسه أن يتجنب مطارديه بأن ترك المسار وتسلق الجبل على قدميه، ولكن المسلمين سرعان ما تعقبوه ومات وهو يدافع عن نفسه^(٩).

وجاء استسلام المدينة بسرعة عقب النصر العسكرى. فبعد المعركة مباشرة أحاط الغزاة بمدينة نهاوند الصغيرة نفسها . ومكثوا هناك فترة قصيرة من الوقت فقط عندما قدم الهرىذ، الكاهن الزرادشتى الرئيسى فى المدينة (صاحب بيت النار) ، إلى معسكر المسلمين لكى يبدأ المفاوضات . وكانت معه هدية يقدمها، كمية كبيرة من المجوهرات كان الملك قد تركها هناك تحسباً للطوارئ. وعرض تقديمها فى مقابل الأمان للسكان . وتم قبول هذا وانتقلت المدينة إلى الحكم الإسلامى بونما مزيد من الصراع^(١٠).

ووفقاً لإحدى الروايات^(١١)، كان الكنز يحتوى على سفيطين من الجواهر النادرة. وعندما تلقى الخليفة عمر بن الخطاب خبر هذا، أمر حسب سياسته المعتادة أن تباع الجواهر نقداً ويُقسَم عائدها بين المسلمين . وبناء على ذلك بيعت محتويات السفيطين إلى واحد من التجار ، وهو شاب من قرىش اسمه عمرو بن حريث «... فاشتراهما بأعطية الذرية والمقاتلة...»^(*) أى بالأموال التى كانت عطاء له ولعائلته . ولما أخذ السفيطين ، ذهب عمرو إلى الكوفة وباع أحد السفيطين بثمن يعادل ما دفعه فى الاثنى أصلاً، واحتفظ بالسفط الثانى لنفسه «... فكان ذلك أول لهوة مال اتخذ...»^(*) ويمكننا أن نرى هنا عملية تسييل الأموال، أى تحويل الكنز إلى نقود لدفع عطاء الجنود، وكيف كان أبناء النخبة المسلمين، حتى الذين لا ضمير لهم، يمكنهم بذلك أن يستغلوا العملية لتكوين ثروة.

كان الناجون من الجيش الفارسى قد فروا خلال الجبال إلى همدان يطاردهم جيش عربى قوامه حوالى اثنى عشر ألفا . وكانت همدان مكافأة أكبر كثيراً من نهاوند^(١٢). وكانت مدينة بالغة القدم، وكان الجغرافيون الكلاسيكيون مثل إكباتنا Ecbatana.

(*) البلازى، فتوح البلدان، ص ٢٩٨ . (المترجم)

يعرفونها كما كانت عاصمة ميديا. وهى مدينة مكشوفة ، على أرض عالية ، تقع عند النهاية الشرقية للطريق الرئيسى الذى يمرُّ من خلال ممرات جبال زاجروس وكانت مركزاً سياسياً مهماً منذ تأسيسها فى القرن الثامن قبل الميلاد فيما يزعمون . وفى وسط المدينة يقع حصن قديم على قمة أحد التلال . وعندما تم تأسيس المدينة قيل إنه كانت لها سبعة خطوط من الأسوار لكل منها لون مختلف، وأن السورين الداخليين كانا مصفحين بالفضة والذهب^(١٣). وليست هناك إشارة إلى أن هذه الثروة المتباهية ظلت موجودة حتى الفتح الإسلامى، حين كانت أسوار القلعة مبنية على ما يبدو من الطين العادى. كما كانت همدان مشهورة بأنها مقر إقامة إستر الزوجة اليهودية لملك الفرس (٤٨٦-٤٦٥ ق.م) التى يحمل اسمها أحد أسفار العهد القديم المزيفة (الأبوكريفا) : ولا يزال الزوار يشاهدون قبرها . وربما كانت المدينة متدهورة فى ذلك الوقت : إذ إن الجغرافى العربى ابن حوقل ، الذى كتب بعد ثلاثمائة سنة من الأحداث، يقول إنها قد أعيد بناؤها منذ الفتح الإسلامى .

وحدث أن برهنت التحصينات على أنها قليلة الجدوى . وكان قائد الحامية خُسروشنوم الذى كان قد أخفق بالفعل فى الحفاظ على حلوان فى مواجهة الغزاة . أما الآن فقد اتفق على تسليم المدينة واستسلمت همدان صلحاً .

وتلى ذلك جمع الغنائم وتقسيمها . وكالعادة تناقش المصادر العربية هذا الأمر بتفصيل كبير - فقد أخذ الفارس المقاتل ستة آلاف درهم، على حين أخذ كل جندي من المشاة ألفى درهم. كذلك دُفعت الأنصبة لأولئك الرجال الذين بقوا فى المؤخرة بمرج القلعة وغيرها من النقاط على امتداد الطريق. وتم الاحتفاظ بالخُمس للحكومة وأرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب فى المدينة. وكما هو الحال دائماً ، يجب أخذ المبالغ المالية بقدر كبير من التحفظ وربما كان التأكيد على عدالة توزيع الأنصبة على الجميع انعكاساً لحماسة المؤرخين اللاحقين لإيجاد أمثلة على الممارسة الكاملة فى العصر الإسلامى الباكر أكثر من حماسهم لأية حقيقة تاريخية.

كان الهدف التالى للجيش العربية إصبهان^(١٤)، لأنها كما قال أحد الفرس الذين أسلموا للخليفة عمر بن الخطاب وهو يستشيرهم «... أن عمر بن الخطاب شاور الهرمزان، فقال: ما ترى؟ أبدأ بفارس أم بأذربيجان ، أم بإصبهان ؟ فقال: إن فارس وأذربيجان الجناحان ، وإصبهان الرأس ، فإن قطعت أحد الجناحين قام الجناح الآخر ، فإن قطعت الرأس وقع الجناحان، فابدأ بالرأس...»^(١٥) ومنذ القرن السادس عشر كانت إصبهان تشتهر بمساجدها المشيدة بالقرميد، وقصورها وحدائقها ، ولكن إصفهان التى فتحها المسلمون كانت مكانا مختلفا للغاية. فقد كانت فى الأساس سهلاً كثير المياه بين الجوانب الشرقية من جبال زاجروس والصحراء الكبرى فى وسط إيران. وكانت هناك فى السهل عدة قرى وبيت نار على نتوء صخري منعزل. وكانت إحدى القرى تسمى اليهودية وهى مستوطنة غير حصينة يسكنها اليهود ، قىض لها أن تكون فيما بعد نواة المدينة فى العصور الوسطى والحديثة . وعلى أية حال، كانت المستوطنة الوحيدة المحصنة هى مدينة چى المستديرة، التى تقع على ضفاف نهر زياندا رود على بعد حوالى أربعة كيلومترات من المدينة الحالية. وقالت أسطورة محلية إن چى بناها الإسكندر الأكبر ولكن الأسوار أعيد بناؤها فى العصور الساسانية ، وكان لها أربع بوابات ومائة وأربعة برج مستدير . ووفقاً لمصدر محلى ، لم تكن چى مدينة مسكونة حقاً وإنما كانت حصناً ومكاناً لإيواء السكان من قرى المنطقة^(١٦). ولا بد أن التحصينات كانت مبهرة ، على الرغم من أنه لم يبق شئ فى الموقع باستثناء دعائم الجسر الذى بناه الساسانيون عبر النهر.

ومرة أخرى ، لم يتم اختبار التحصينات أبداً . فقد قاد القائد المحلى قواته خارجاً لمقابلة العرب المتقدمين . وقيل إنه جرت مبارزة فردية بينه وبين قائد القوات العربية قبل أن يعقد الفرس اتفاقاً ، سُمح للسكان بمقتضاه أن يبقوا فى منازلهم ويحتفظوا بممتلكاتهم فى مقابل دفع الجزية . وقد ورد نص المعاهدة فى المصادر. وأخذ شكل الاتفاق الشخصى بين القائد العربى والحاكم الفارسى . وكانت الشروط المهمة الأخرى الوحيدة هى أن المسلمين العابرين يجب أن ينالوا ضيافة يوم ومطية للمرحلة التالية من الرحلة.

وغادر ثلاثون من أنصار النظام الساساني المدينة ليذهبوا باتجاه الشرق إلى كرمان وينضموا إلى المقاومة ، ولكن الأغلبية الكبرى قبلوا الحكم الجديد^(١٧). ويبدو أن الاحتلال كان وقعه خفيفا . فلم يكن هناك عنف أو نهب. وكان إزعاج المجتمع المحلي محدوداً ؛ فلم يكن هناك استيطان إسلامي واسع النطاق ولم يتم بناء مسجد كبير على مدى القرن ونصف القرن التالي.

وفى بعض الأحيان كان العرب يلقون الترحيب من السكان المحليين. وفى مدينة قُم الصغيرة ، التى اشتهرت فيما بعد بوصفها واحدة من المزارات العظمى فى إيران، رحب الحاكم المحلى يزدانفر ، بالمستوطنين العرب، وأعطاهم قرية لسكانهم وزودهم بالأراضى والحيوانات ، والبذور لكى يبدأوا الزراعة . وكان سبب هذا الكرم أن أهل قم كانوا يعانون من إغارات الديلم القادمين من الجبال فى الشمال وكان يزدانفر يأمل فى أن يقوم العرب بالدفاع عن الجماعة التى سكنوا بينها ضد أعمال السلب والنهب التى يقوم بها أولئك المغبيرون. ويبدو أنه فى الجيل الأول نفع هذا الاجراء وكانت العلاقات منسجمة بين الجانبين. وفيما بعد ، عندما زادت أعداد المهاجرين العرب، كان هناك توتر حول ملكية الأرض وحقوق المياه مما أدى إلى اندلاع العنف، ولكن «الفتح» الأولى للمنطقة كان سلمياً إلى حد كبير^(١٨).

وإندفعت الجيوش الإسلامية على امتداد الطريق الذى كان يؤدى إلى خراسان والشرق. وبعد هزيمة جيش من الديلم وغيرهم من أهل الجبال كانوا يحاولون عرقلة تقدمه فى واج الروذ اتجه إلى الرى. وتقع الرى إلى الجنوب مباشرة من طهران الحديثة، التى لم تكن أكثر من قرية مغمورة حتى تم اتخاذها عاصمة لإيران على يد أسرة قجر أواخر القرن الثامن عشر الميلادى. وقد عرف الإغريق القدامى الرى باسم Rhages . وكانت قائمة بالفعل عندما مرُّ بها الإسكندر الأكبر فى مطاردته لدارا الثالث ، وأعيد بناؤها لتكون مدينة مقدونية على يد سيليوكوس نيكاتور حوالى سنة ٣٠٠ ق.م . وقد أسماها يورويوس Europos على اسم مسقط رأسه فى مقدونيا، ولكن كما يحدث غالباً، كان الاسم القديم هو الذى لصق بها. وفى سنة ٢٠٠ ق.م تقريباً استولى عليها البارثيون

وصارت مقر الإقامة الصيفي للملوك . ويصفها إسيذور الخرکسى Isidore of Charax بأنها أعظم مدينة فى ميديا، وكان موقعها الاستراتيجى يعنى أنها استمرت فى الازدهار تحت حكم الملوك الساسانيين.

كانت الرى ذات أهمية استراتيجية هائلة . فإلى الجنوب تقع الصحراء الكبرى فى وسط إيران. وإلى الشمال سلسلة جبال البرز ترتفع بصورة مفاجئة من السهول. وكانت المياه النازلة من تلك الجبال هى التى خلقت نهريْن صغيرين وكانت تروى المدينة قبل أن تتبدد فى الهامش الصحراوى إلى الجنوب. وكان على أى جيش يريد أن يمر من غرب إيران إلى خراسان والشرق أن يستخدم هذا الحزام الضيق من الأرض الخصيبة وفيرة المياه ويمر بمدينة الرى. وجاء سيافوش ، حاكم هذا المكان المهم، من واحدة من أكبر العائلات الأرستقراطية فى إيران، المهرانيين ، الذين توارثوا موقع سادة الرى^(١٩). فقد كان حفيد بهرام شوبين العظيم، الذى كان واحداً من أكثر القادة احتراماً فى الجيش الساسانى وحاول اغتصاب العرش من الشاب كسرى الثانى فى سنة ٥٩٠م . وفشل التمرد واستعاد كسرى عرشه بمساعدة عسكرية بيزنطية. وقُتل بهرام ولكن من الواضح أن عائلته استمرت فى سيطرتها على الرى.

ولا بد أن الجيوش العربية وجدت مدينة مسورة ، بها بيوت من الآجر أو الطين تتحكم فيها قلعة على نتوء صخرى تطل على الموقع. وربما كانوا يتوقعون أن من الضرورى شن هجوم كبير أو فرض حصار عليها . وقد حدث أن أتاحت لهم المنافسات فيما بين الفرس فرصة. فقد كانت سيادة عائلة مهران على الرى مرفوضة من عائلة الزينابى المنافسة وجاء زعيم عائلة زينابى لمقابلة الجيوش العربية عند قرية على الطريق الرئيسى من قزوين إلى غرب المدينة. وقدم عرضاً بأن يقود بعض الخيالة إلى داخل الأسوار عن طريق خلفى. وشن المسلمون هجوماً ليلياً . وفى البداية ثبت الفرس ولكن الخيالة داخل المدينة هاجمهم من الخلف حينئذ ، وهم يصيحون «الله أكبر» . وانهارت المقاومة وتملك الغزاة المدينة بسرعة . ومن الواضح أنه كانت هناك كمية كبيرة من الغنائم ، وقيل إن كم الغنائم التى أخذت من الرى كان كبيراً ويُعادل ما أخذ من العاصمة الإمبراطورية المدائن . ولم ينتج عن الغزو العربى احتلال عربى بقدر ما نتج

عنه إعادة توزيع المواقع بين النخبة الفارسية. فقد خسرت عائلة مهران سلطتها وتعرض الحى الذى تسكنه فى المدينة، والذى عرف فيما بعد باسم «المدينة العتيقة» للخراب . وفى الوقت نفسه تم تعيين الزينابى والياً ، بل منح رتبة المرزبان الفارسية . وأعطى الأوامر ببناء مركز جديد للمدينة ، وسيطرت عائلته ، بما فيها ولداه شهرام ، وفروخان، على المدينة فعلاً^(٢٠).

واستمرت الجيوش العربية فى تقدمها على طول طريق خراسان إلى مدينة بسطام الجبلية الصغيرة ، التى اشتهرت بخصوبة تربتها وامتياز فاكهتها، واستسلمت صلحاً فى قومن.

وبينما كان الجيش العربى معسكراً فى بسطام ، بدأ قائده سويد بن مقرن يطرح عروضاً دبلوماسية على حكام المناطق الجبلية فى الشمال. ومن جيلان فى الغرب، عبر طبرستان ودويند فى الوسط إلى جوجان فى الشرق، تتحكم سلاسل الجبال فى الشواطئ الجنوبية لبحر قزوين ، وتصل الجبال أقصى ارتفاع لها عند قمة دموند . وتختلف الجبال تماماً عن معظم أراضي إيران . فعلى النقيض من المنحدرات المفتوحة المكشوفة وقمم جبال زاجروس الجرداء ، فإن الغابات غالباً ما تغطى قمم سلاسل جبال البرز . والمنحدرات الشمالية رطبة وهى اليوم مناسبة لنمو الأرز والشاي . والطرق عبر الجبال قليلة وضيقة . ولم تكن منطقة تُغرى أى قائد عربى بالهجوم عليها : فقد تجنبوا دائماً الممرات الجبلية الضيقة والوديان المنحدرة.

وبدأ سويد الاتصال بحاكم جرجان . وتقع أراضي جرجان إلى الجنوب الشرقى من بحر قزوين. وفى هذا المكان تتقابل الجبال مع سهول وسط آسيا الممتدة بلا حدود . وكانت دائماً منطقة حدود ومكان التقاء الشعوب الإيرانية المستقرة فى الجنوب والغرب والشعوب الناطقة بالتركية من البو فى الشمال الشرقى: وعلى مدى معظم القرن العشرين كانت هى الحدود بين إيران وأراضى الاتحاد السوفييتى. واليوم تمتد حدود إيران وتركستان عبر هذه المنطقة. وقد بنى الملك الساسانى العظيم كسرى الأول (٥٣١-٥٧٩م) سوراً طويلاً ، دعمه بحصون على مسافات منتظمة يمتد من ساحل بحر قزوين مسافة مائة كيلو متر بامتداد الحدود الصحراوية.

كانت جُرجان البعيدة على الدوام جزءاً شبه منزوع من الإمبراطورية الساسانية ، ويحكمها أمراء وراثيون يحملون لقب صول. وكان الصول فى ذلك الوقت هو رُزبان ، الذى دخل فى مفاوضات مع سويد. وتقابل الاثنان على حدود الولاية وتناقشا فى تقدير قيمة الجزية التى ينبغى دفعها . وسُمح لجماعة من الترك بالإعفاء من الضرائب لقاء الدفاع عن الحدود ، وربما كانت تلك هى المرة الأولى فى تاريخ طويل لاحق شهد استخدام المسلمين للأتراك جنوداً . ويعكس نص المعاهدة^(٢١) الوضع غير العادى للولاية. وكانت الجزية واجبة على كافة البالغين ما لم يطلب المسلمون مساعدة عسكرية والتى ستكون ، فى هذه الحال ، بديلاً عن الدفع . وتم السماح للأهالى بالاحتفاظ بممتلكاتهم وديانتهم الزرادشتية وقوانينهم طالما أنهم لا يسببون أذى لأى من المسلمين الذين اختاروا الإقامة هناك. كان هذا غزواً بالاسم فحسب. إذ ظل الحاكم التقليدى مسئولاً ، وكان يدفع الجزية آنذاك إلى المسلمين بدلاً من الملك الساسانى، بيد أنه لا يوجد مؤشر على استيطان المسلمين أو الاحتلال العسكرى الإسلامى.

وفى الوقت نفسه ، بدأ حاكم طبرستان ، فى الغرب، المفاوضات لترتيب موقفه . كانت طبرستان أشد مناعة من جُرجان وكانت الجبال تغطيها بأسرها، باستثناء شريط ضيق من الأرض بامتداد شاطئ بحر قزوين . وقد اشترطت المعاهدة التى عقدها سويد مع الحاكم المحلى أن عليه أن يكبح جماح اللصوص والعصابات من مهاجمة المناطق المجاورة وأنه يجب أن يدفع خمسمائة ألف درهم من الدراهم المسكوكة محلياً فى السنة. وكان عليه ألا يؤوى الهاربين أو يقوم بأى خيانة. ولن يقوم المسلمون بزيارة البلاد سوى بإذن من الحاكم.

ولم يزر طبرستان أى جيش مسلم، وفقاً للمعاهدة على الأقل، وكانت الجزية تدفع جملة عن المنطقة كلها، بدلاً من أن تكون ضريبة رأس . ويبدو كما لو أن كافة جوانب الحكم ، بما فيها جباية الضرائب وسك العملة، ظلت بيدى الحاكم المحلى. ومنح حاكم جيلان المجاورة فى الغرب شروطاً مماثلة . وكان «الفتح العربى» فى هذه المناطق سريعاً للغاية لأنه كان يساوى القليل جداً فى الشروط الحقيقية : فربما كان الحكام يدفعون ضريبة أقل حتى مما كانوا يدفعونها فى العصور الساسانية . وكانت الحقيقة

أن هذه المناطق بقيت خارج السيطرة الإسلامية حتى القرن الثامن الميلادي/الثاني الهجري. وظل الطريق الشرقي من الرى غير آمن واضطرت القوات الإسلامية الزاهبة إلى خراسان إلى استخدام الطريق المؤدية إلى جنوب الصحراء الكبرى ثم يتجه شمالاً عبر سستان .

وفى الوقت نفسه كان المزيد من الجيوش الإسلامية تتحرك داخل أذربيجان وكانت أذربيجان الولاية الشاسعة إلى الشمال الشرقى من الهضبة الإيرانية . كانت هذه أرضاً تتناقض فيها البيئات بقوة، ففى بعض المناطق السفلى بحذاء ساحل قزوین كانت الأرض دافئة وتتوفر بها المياه بصورة نسبية . ويعيداً فى الجنوب والغرب كانت الأرض شاسعة ومفتوحة بها جبال عالية. وكانت هذه أرضاً يطيب فيها المرعى صيفاً ، ومن المرجح أن معظمها كانت سكناً للقبائل الكردية ، الذين كانوا يقضون شتاءهم فى سهول إيران الشمالية أو مناطق مغل الإستبسية بجوار بحر قزوین ويمضون صيفهم فى مراعى الأراضى المرتفعة . وكانت هناك مدن قليلة مهمة متناثرة فى الفضاء الشاسع . ولابد أن الغنائم كانت ضيئلة للغاية أيضاً ، وليس فيها شيئاً من إغراءات المدن الغنية فى العراق أو فارس .

وقد انطلقت القوات الأولى من خلوان تحت قيادة بكير بن عبدالله الليثى^(٢٢). ويبدو محتملاً أنهم وجدوا الزهاب عسيراً ، وبعد فتح همذان كان النعمان قد تلقى الأوامر بإرسال قوات من جيشه لدعمهم. وقد اختار النعمان أن يتأخر بعد أن أمّن الرى. ومرة أخرى، لقى العرب المساعدة بفضل تعاون شخص مهم من النخبة الإيرانية، كان أسفندياز أخورستم الذى كان قد تولى قيادة الجيوش الفارسية فى هزيمتها الكارثية بالقادسية هو ذلك الشخص . وربما كانت العائلة قد جاءت من هذه المنطقة، وقاد اسفندياز جيوش أذربيجان فى محاولة بلا طائل لوقف تقدم النعمان فى نهاوند . وقد أسره بكير فى بداية حملة أذربيجان ووافق على أن يكون وسيطاً بين القائد العربى والسكان المحليين . وحذر بكير بأنه إن لم يعقد الصلح مع الأهالى، فإنهم سيتفرقون فى القوقاز وشرق الأناضول، حيث سيكون من المستحيل تقريباً اقتلاعهم. ومرة أخرى كانت الدبلوماسية هى التى ضمنت نجاح جيوش المسلمين. والتفاصيل نادرة جداً

ولكن يبدو كما لو كان هناك قليل من القتال وأن معظم الناس اتفقوا على دفع الجزية مقابل السماح لهم بالاحتفاظ بممتلكاتهم وعاداتهم وديانتهم . وليس هناك ذكر لآى حصار ، كما لا يبدو أنه تمت إقامة حاميات عسكرية عربية.

وتحركات الجيوش العربية بحذاء الشاطئ الغربى لبحر قزوين إلى المدينة التى يسميها العرب «باب الأبواب» ، التى تسمى الآن الدربند . وهناك تنحدر السلسلة الرئيسية لجبال القوقاز تجاه ساحل البحر. وعند هذه النقطة كان الساسانيون قد أسسوا موقعاً حصيناً. ولا تزال الأسوار الطويلة الحجرية القوية تمتد من البحر إلى الجبال. ومثل جُرجان ، كانت هذه أرضاً حدودية. وفيما وراء الأسوار كانت هناك أرض يسكنها البدو، وهى السهول الشاسعة فيما يعرف الآن بجنوب الروسيا.

كان قائد الحامية الساسانية رجلاً يدعى شهربراز . وكان واعياً تماماً لأصوله الأرستقراطية ومن الواضح أنه لم يكن يتعاطف مع أهل القوقاز والأرمن الذين كانوا يحيطون به . ولأنه كان يعرف أن الحكم الساسانى قد انهيار فى الأماكن الأخرى فقد سعى إلى الارتباط مع القادة العرب، ودخل فى سلسلة من المفاوضات تم الاتفاق فيها على إعفائه هو ورجاله من دفع الجزية فى مقابل الخدمة العسكرية فى جيش الحدود. وبهذه الطريقة لم تتم هزيمة العناصر الباقية من الجيش الساسانى وإنما أدخلوا فى صفوف جيوش الإسلام. ولاشك فى أن بعضهم سرعان ما اعتنقوا الإسلام. ومن المثير، أن روايات أخرى تكشف عن أنه بينما كان القادة العرب حريصين على مهاجمة البدو فيما وراء أسوار الباب، حذرهم القادة الفرس المحربون من هذا قائلين إنهم ينبغي أن يتركوا الكلاب النائمة فى رقودها^(٢٣). ولم يشن العرب غارات شمال الأسوار ، ولكنهم لم يحرقوا أى مكاسب دائمة. وعلى المدى الطويل، بقيت الحدود التى أرسيت عند السور سنة ٦٤١-٦٤٢م هى حدود العالم الإسلامى فى شرق القوقاز حتى اليوم.

وقيل إنه تم اتخاذ ترتيبات مماثلة مع السكان المسيحيين فى مرتفعات أرمينية، وتوغلت الجيوش العربية حتى تبليسى فى جورجيا، ولكن التفاصيل شحيحة وليس من الواضح ماذا كان الأثر الذى نتج عن ذلك النشاط.

وفى الوقت نفسه، كانت هناك حملة منفصلة تماماً يجرى الإعداد لها فى إيران الجنوبية. فقد بدأ فتح فارس^(٢٤) بغزو بحرى . إذ كانت هناك على الدوام علاقات وثيقة بين الشعوب على كلا شاطئى الخليج ، وكانت لعمان بصفة خاصة تقاليد بحرية قديمة ولم يكن عبور المياه الهائلة بين الشاطئى الإيراني والعربى يمثل مشكلة بالنسبة لكثير من البحارة عادة . وفى زمن الفتوح الباكرة كان الخليج بحيرة ساسانية فعلاً ، إذ كان للفرس عدد من المواقع الصغيرة على الشاطئ العربى. وفى عدم وجود الغابات الخشبية الكبيرة والحديد، كانت الملاحه ممكنة فى القوارب المصنوعة من جذوع النخيل، التى تربط معاً بالحبال ، وهى أسلاف القوارب التى يمكن رؤيتها فى المياه المحلية اليوم. وكان من الطبيعى عندما رأى عرب عمان والبحرين نجاح أبناء عمومتهم الشماليين ضد العراق الساسانى، أن تحذوهم الرغبة أيضا فى الانضمام إليهم.

وفى مناطق أخرى ، أعقبت الفتوح الأولى حروب الردة مباشرة . إذ إن حاكم البحرين الذى عينته المدينة المنورة، علاء بن الحضرمى الذى كان واضحاً أنه يتصرف بمبادرة منه، استولى على المواقع الفارسية على الساحل العربى. وفى سنة ٦٣٤م أرسل حملة بحرية تحت قيادة عرفة^(*) استولت على جزيرة مجهولة الاسم قبالة الشاطئ الفارسى واتخذها قاعدة لغاراته. ويبدو أن الخليفة عمر بن الخطاب، الذى يتم تصويره دائماً مرتاباً فى الحملات البحرية ، لم يوافق على هذا العمل الجرى ويبدو أن القوة قد انسحبت دونما مكاسب دائمة.

وقام بالمحاولة الثانية عثمان بن أبى العاص ، الذى تم تعيينه سنة ٦٣٦م وكان مسئولاً عن معظم فتوح فارس. ولم يكن من أهالى ساحل الخليج. وهو مثل كثير من القادة المسلمين الأوائل جاء من مدينة الطائف الواقعة أعلى التل بالقرب من مكة ولاشك فى أنه قد تم تعيينه لضمان سيطرة المدينة المنورة على المنطقة. وفى سنة ٦٣٩م تقريباً أرسل حملة بحرية عبر الخليج بقيادة أخيه الحكم . ولابد أن بعض مقاصده كانت أن يشغل طاقات رجال القبائل المحليين ويوفر لهم فرص الحصول على الغنائم ، ولكن من

(*) هرثمة بن عرفة البارقي من الأزد (البلاذرى، فتوح البلدان، ص٣٧٤). (المترجم)

المحتمل أيضا أن عمر بن الخطاب كان يمكن أن يرى في الهجوم من هذه الناحية تشتيئاً للقوات الفارسية التي كانت لا تزال متماسكة وقوية عن الصراع الدائر في العراق، وكان هذا الهجوم بصفة خاصة سيحول طاقات الفرس في فارس بحيث لايمكنهم الانضمام إلى الجيوش الرئيسية في الشمال. كذلك أمر عمر بن الخطاب أنه على عائلة الجلندا ، حكام عمان الوريثيون، تقديم الدعم إلى الحملة . وكانت قوة الحملة صغيرة نسبياً ، ما بين ألفين وستمئة وثلاثة آلاف رجل، وهو الرقم الذي ورد في المصادر، وجاء معظمهم من قبيلة الأزد العمانية الكبيرة . وانطلقوا من ميناء الجلفر على موقع إمارة رأس الخيمة الحديثة ووطدوا أنفسهم على جزيرة ابركاوان (وهي تعرف اليوم باسم قشم) قبالة الشاطئ الإيراني مباشرة. وكانت رحلة بحرية طولها حوالي مائة وثلاثين كيلو متراً ولم تكن لتستغرق أكثر من يومين إذا ما كانت الريح مواتية . ومثل سابقهم سنة ٦٢٤م كان قصدهم استخدام الجزيرة لتأمين قاعدة للهجوم على البلاد.

وعقد القائد المحلي صلحاً معهم دون أن يبدي مقاومة ، ولكن يزدجرد الثالث كان لا يزال يحاول حشد مقاومة شديدة ضد الغزاة . فأمر حاكم كرمان بشن حملة من هرمز لاستعادة الجزيرة، ولكن هذه الحملة هُزمت . ثم تحرك المسلمون عابرين إلى الأرض الرئيسية وبدؤوا يشنون الغارات على المناطق المحيطة. ولا غرابة في أن مرزبان فارس الساساني ، شهر ك ، انطلق لمعارضتهم ولكن جيشه لقي الهزيمة في رأس شهر سنة ٦٤٠م وقتل هو نفسه . وبعد هذا، في سنة ٦٤٢م، عندما كان النصر في نهاوند والفتح العربي للأهواز قد قلل من الخطر الذي يمثله الجيش الفارسي ، أسس المسلمون قاعدة دائمة في بلدة توج الصغيرة ، التي صارت مصراً لهم، أي قاعدتهم العسكرية . والمدينة لا تقع على الساحل نفسه، ولكنها على بعد عدة كيلومترات قليلة داخل الأرض، حيث كان نهر شابور يعمدها بالماء . وكانت جو المدينة حاراً للغاية مثل جميع المستوطنات على الجانب الفارسي من الخليج ، ولكنها محاطة بالنخيل . وهناك بنوا مسجداً ، يفترض أن بناءه كان بسيطاً جداً من الطوب اللبن وجذوع النخيل . وربما كانت توج قد تطورت مثل البصرة أو الكوفة ولكن على مستوى أصغر ولكن الأحداث تحولت

أفي اتجاه آخر . فقد استمرت البلدة في الازدهار بوصفها مركزاً تجارياً واشتهرت بكتانها المنسوج بخيوط الذهب ، ولكن دورها باعتبارها قاعدة عسكرية انتهى عندما تحركت الجيوش الإسلامية أكثر في الأراضي الداخلية.

وإذ انطلق عثمان بن أبي العاص من توج بدأ في غزو منطقة المرتفعات في فارس . وكانت فارس واحدة من أهم الولايات في الامبراطورية الساسانية ويمكن أن نجد فيها الآثار العظيمة لأول أسرة حاكمة فارسية ، الأخمينيين، وكانت القاعات العظيمة ذات الأعمدة في مدينة برسوپوليس شهوداً على تلك الفخامة القديمة. وترجع أصول السلالة الحاكمة الساسانية نفسها إلى مدينة اصطخر في فارس حيث كانوا هم المسئولين عن بيت النار في أنهتيا . وكان أول ملكين في الأسرة قد بنيا عاصمتين جديدتين في چور وبیشابور ، وعلى الرغم من أن الملوك اللاحقين نادراً ما أقاموا هناك ، فإنها كانت لا تزال تذكر باعتبارها مسقط رأس الأسرة. وكان يزدجرد الثالث، في أثناء هربه ، قد عاد إلى اصطخر ، إلى مهد عائلته ، لكي يحاول حشد التأييد والدعم . وكانت الجغرافيا أيضاً إلى جانبه. فقد كانت هذه أرضاً تغطيها الجبال الجرداء التي تفصلها الممرات الضيقة عن السهول التي تنمو فيها الغلال وبحيرات الملح.

ولدينا تفاصيل قليلة عن الحملة التي أخضعت هذه المنطقة المهمة للحكم الإسلامي، بيد أنه يبدو أن الحملة واجهت مقاومة كبيرة. فقد كانت فارس أرض القلاع الرابضة على قمم الجبال^(٢٥)، والممرات التي يسهل الدفاع عنها. وقد فشلت المحاولة الأولى للهجوم على العاصمة اصطخر في سنة ٦٤٤م. وفي سنة ٦٤٧م استولت القوات الإسلامية على مدينة بيشابور بعد أن وصلتها التعزيزات من البصرة. ويمكن مشاهدة خرائب المدينة المهجورة اليوم. وتقع في وادٍ خصيب عند سفح جبال شاهقة حيث يجري نهر ماؤه عذب رقراق عبر صخور الحجر الجيري شديدة الانحدار إلى السهول . وعلى امتداد جانبي الممر، كان شابور الأول باني المدينة قد أمر بحفر نقوش تسجل انتصاراته. وفي قلبها يقع بيت نار عظيم مشيد بالحجارة، قيل إنه تم بناؤه بأيدي الأسرى الرومان في الحرب، الذين تم أسرهم عندما هزم شابور الأول الإمبراطور الروماني فاليريان في سنة ٢٦٠م . وإلى جانب ذلك يقع المعبد الذي بنى تحت الأرض

لأنها تربة المياه . وحوله تنتشر المدينة نفسها ، وقد بنيت على خطة شبكية مثل مدينة إغريقية أو رومانية Pollis . وعاشت هذه المدينة بعد الفتح الإسلامى ولكن بحلول القرن الثامن الميلادى كان سكانها قد نزحوا بالفعل إلى مدينة كازيرون النامية بالقرب من العاصمة الإسلامية الجديدة شيراز . وبحلول القرن الثانى عشر كانت قد تحولت إلى أطلال خاوية.

وفى سنة ٦٤٨م عقد المسلمون مع أرچان على الطريق الرئيسى بين العراق ومناطق المرتفعات فى فارس ودرابجرد فى مرتفعات الشرق . وكانت درابجرد مدينة مستديرة أخرى، وتقوم فى منتصفها قلعة. وحسبما يقول البلاذرى كانت منبع العلم والديانة الزرادشتية(*) على الرغم من أنه لم يوضح ماذا كانت تعنى هذه الإشارة المربكة . ومع هذا ، كان زعيم دينى «الهرىذ» هو الذى سلمها للمسلمين بشرط أن يكون للناس الشروط والضمانات نفسها التى حصلت عليها المدن الأخرى فى المنطقة(٢٦).

وبحلول سنة ٦٥٠م كانت العاصمة اصطخر ومدينة چور المستديرة صامدتين أمام المسلمين. وفى تلك السنة تمت مراجعة البناء القيادى تماماً. فقد عُهد بالسلطة فى فارس إلى حاكم البصرة الجديد عبدالله بن عامر. وكان عبدالله أُرستقراطياً من قريش قبيلة النبى، واشتهر بثروته وكرمه . وحفر قنوات جديدة للرى فى البصرة وحسن إمدادات المياه للحجاج فى مكة . وكان أيضاً قائداً عسكرياً جسوراً، على استعداد لقيادة جيشه بعيداً عن ديارهم فى العراق إلى أبعد المواقع فى الإمبراطورية الساسانية. وكان تعيينه يعنى أيضاً أن كل موارد القاعدة المسلمة فى البصرة يمكن أن تتركس لفتح جنوب إيران وشرقها . وكما هى العادة فإن الروايات الخاصة بهذه الحملة النهائية قليلة ومرتبكة على السواء، ولكن يبدو واضحاً أنه كانت هناك مقاومة كبيرة فى كل من چور واصطخر . وتقول الروايات إن چور كانت قد تعرضت للإغارة فترة من الوقت ولكنها لم تسقط بأيدي قوات ابن عامر سوى بعد أن دلهم كلب، خرج من المدينة يبحث عما يأكله فى معسكر المسلمين، على طريق سرى خلفى إلى داخل المدينة(٢٧).

(*) يقول البلاذرى (فتوح البلدان، ص ٢٧٦) : «وكانت شادروان علمهم ودينهم».

وبعد هذا ، جاء نور عاصمة فارس. ولا تزال البقايا الضئيلة لمدينة أصطخر شاخصة إلى اليوم . وهى تقع فى الأرض المسطحة على الطريق الرئيسى على بعد كيلومترات قليلة إلى الشمال من أطلال برببوليس القيمة. وهو موضع ليس حصيناً بالطبيعة ولكن من الواضح أنه كان مسوراً فى ذلك الوقت. ويبدو أن المدافعين قد أبدوا مقاومة أطول منها فى أى مكان آخر . وكما حدث فى عدة أماكن أخرى، قيل إن المدينة قد استسلمت بشروط ثم تمردت أو خرقت الاتفاق . وحدث أثناء إعادة الفتح أن نشب القتال، ووفقا لإحدى الروايات^(٢٨) أخذ رجال عبدالله بن عامر المدينة بعد قتال شديد، استخدم فيه الرمي بالآلات الحصار. وأعقب الفتح مذبحة هلك فيها أربعون ألفاً من الفرس، ومن بينهم عدد كبير من عائلات النبلاء والفرسان الذين كانوا قد لجأوا إليها .

ويبدو أن معدل الموت والدمار فى أصطخر لم يكن يماثله شئ فى فتح غرب إيران وشمالها، وكانت تلك المعركة الوحيدة التى قيل إن آلات الحصار استخدمت فيها لكى تخضع مدينة مسورة وكانت المناسبة الوحيدة التى حدثت فيها مذبحة على هذا النطاق. ويبدو أيضا أنه كانت هناك محاولة منتظمة لتدمير الرموز الأساسية للديانة الفارسية القديمة، بيوت النار، ومصادرة الأملاك . وقيل إن شخصاً يدعى عبيدالله بن أبى بكرة قد كسب أربعين ألف درهم من إطفاء النار، وتدمير بيوت النار وجمع العطايا التى كان الحجاج الزرادشت قد وضعوها بها^(٢٩). وعلى الرغم من ضالة المعلومات، وعلى الرغم من أننا لا نملك روايات فارسية نضعها بإزاء السرديات العربية الخالصة، فإنه يبدو أن المقاومة كانت ضد العرب الغزاة فى فارس ولا سيما فى أصطخر أقوى مما كانت فى أى مكان آخر فى إيران. وربما يكون نور هذه الولاية بوصفها مهد الأسرة الحاكمة الساسانية ومسقط رأسهم قد دفع الأهالى المحليين لمحاربة الغزاة بمثل هذه الشدة.

واستمر عبدالله بن عامر فى الاندفاع شرقاً من فارس، متعقباً يزدجرد الثالث بهمة، حيث كان قد هرب قبل سقوط أصطخر . وتحرك بسرعة إلى ولاية كرمان. وهناك سقطت المدن الرئيسية ، بما فيها بيمنذ والشيرجان التى كانت العاصمة آنذاك، بسرعة. وعرفنا أن الكثير من السكان هجروا بيوتهم وأراضيهم بدلاً من العيش تحت السيادة الإسلامية . وجاء العرب واستقروا فى أملاكهم.

وتقع ولاية سيستان ، أوسجستان ، إلى شمال شرق كرمان . وفى أيامنا هذه فإن هذه المنطقة نادرة السكان وغالباً ما لا يسود فيها القانون وتمتد بلا نظام بين الحدود الإيرانية - الأفغانية . وهى تعاني من مناخ قارى قاسٍ ، وتصل الحرارة بالنهار إلى درجة خمسين درجة مئوية بشكل منتظم فى الصيف، على حين تكتسح العواصف الثلجية الأرض المقفرة فى الشتاء ومعظمها صحراء كما تتناثر فيها خرائب المباني القديمة المبنية بالطوب اللبن الذى لا شكل له. ولم تكن دائماً على هذا النحو الطارد، وربما يرجع القفر الذى تتسم به المنطقة الآن إلى غزوات المغول وتيمورلنك فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين . وكانت المنطقة تدين بازدهارها لمياه نهر هلمند ، الذى يجلب المياه الناتجة عن نويان الثلوج فوق جبال الهندوكوش فى أفغانستان إلى السهول . ومثل نهر المرغب فى مرو ونهر زرفشان فى سمرقند وبخارى ، كان يمكن استخدام النهر فى رى الأراضى الخصبة قبل أن تتبدد فى الصحراء . وقد امتدح الرحالة المسلمون الأوائل الحقول والمحاصيل فى مناطق صارت الآن أرضاً جرداء بلا أشجار . وأخذت سيستان اسمها عن الساكا ، وهم شعب هندي إيراني لعب دوراً مهماً فى تاريخ الفترة البارثية : فقد كان الخيالة الساكا بمعاطف الزرد عنصراً مهماً فى الجيش البارثى الذى اشتهر بإنزال الهزيمة بالقائد الرومانى كراسوس Crassus فى كارهائى سنة ٥٣ ق.م وكانت كل الذكريات عن الساكا قد ضاعت فى زمن الفتح الإسلامى ، ولكن السستانيين اشتهروا بالصلافة والقوة العسكرية ، على الرغم من أن شهرتهم غالباً ما انحصرت فى كونهم من الجنود المشاة.

كانت سستان مهمة أيضاً باعتبارها مسرح معظم الأحداث المهمة فى الشاهنامة، الملحمة الشعرية الوطنية الفارسية . وكانت هذه الولاية موطن البطل العظيم رستم، المحارب الممتاز فى التراث الإيرانى القديم. وكان رستم هذا هو الذى ذبح ابنه سهراب فى واحدة من أشهر قصص الدراما فى المجموعة كلها، والقصص كما وصلت إلينا ألفها الشاعر الفربوسى فى أوائل القرن الحادى عشر/الخامس الهجرى . والحقيقة أن الأساطير عن رستم كانت معروفة جيداً عندما جاء المسلمون، لا فى إيران وحدها ولكن فى شبه الجزيرة العربية أيضاً. ونعرف أنها كانت تُحكى فى مكة أثناء حياة النبى وقيل

إنها كانت تصرف العقول المأجنة عن دعوته. وليس واضحاً ما الحقيقة التاريخية التي تكمن خلف الأساطير، إذا ما كانت هناك حقائق تاريخية على الإطلاق فيها، ولكن ما يسمى فرس الرخش ، حصان رستم الشهير، كان لا يزال يُعرض للرحالة في بداية الفترة الإسلامية. وفي زمن الفتوح كانت بالولاية بيوت نار زرادشتية شهيرة في كركويا. وقد بقيت بعد الفتح الإسلامي وكانت لا تزال مستخدمة في القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري عندما قيل إن بيت النار هذا كانت به قبتان يرجع تاريخهما إلى «زمن رستم القوى» . ولم تكن النار تُترك لتذوى أبداً تحت القبتين. وكان يقوم على خدمتها جماعة من الكهنة. ويجلس الكاهن الذي في الخدمة بعيداً عن ألسنة اللهب وعلى فمه قناع حتى لا يلوث النار بأنفاسه. وكان وقود النار من خشب شجر الطرفاء التي يتم التقاطها بملاقط من الفضة . وليست لدينا فكرة عن متى تم تدمير المعبد (بيت النار) ولكنه ربما راح ضحية الفوضى التي غطت المنطقة بأسرها زمن غزوات تيمورلنك في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي/ الثامن الهجري.

وكانت سستان أيضاً موطن جماعة مسيحية صغيرة . وخارج هذه المنطقة شرق الامبراطورية الساسانية ، كان المسيحيون جميعاً من النساطرة ، أى أنهم كانوا ينتمون إلى الكنيسة السوربانية الشرقية، التي تعتبرها كنيسة الروم الأرثوذكس في القسطنطينية، كنيسة هرطقية (منشقة) . ومن الأمور النمطية أن كافة معلوماتنا عن هذه الجماعة تأتي نتيجة نزاع نشب حول انتخاب الأساقفة المتنافسين في سنة ٥٤٤م، عندما اضطر البطريرك في المدائن إلى أن يُبرم اتفاقاً على حل وسط بتعيين أسقف في العاصمة زرنج وواحد آخر في بُست بالشرق، في شرق أفغانستان حالياً. ويسجل نص مسيحي مؤلف سنة ٨٥٠م تقريباً أيضاً أن دير سان ستيفان في سستان كان موجوداً ، ولكن تاريخ هذا الدير وكل ما يتعلق به مجهول تماماً .

كان الغزو العربي لسستان^(٢٠) هو الاستمرار المنطقي لمسير عبدالله بن عامر صوب الشرق في مطاردة يزيدجرد الثالث أثناء هربه من الغزاة . وكان الطريق من كرمان إلى سستان صعباً على الدوام، حيث كان يقع عبر ركن من صحراء الملح الكبرى ، الدشتي لوت. والطريق طویل وشاق ، وتم مسح الغارة الأولى للمسلمين،

لا بفعل الحرارة وإنما بسبب العواصف الجليدية القاسية . وفى سنة ٦٥١ - ٦٥٢م أرسل عبدالله حملة إلى داخل الولاية . وكما هى العادة استسلمت مدن كثيرة ، ورضيت بعقد صلح بشروط تجنبهم الحرب والدمار . وعلى أية حال، فإن العاصمة المحلية زرنج كانت مدينة جيدة التحصين، وبها قلعة حصينة قال البعض إنها كانت قد شُيّدت على يد الإسكندر الأكبر. وهناك وقع بعض قتال عنيف قبل أن يوافق المرزبان على عقد الصلح . وعقد مجلساً من الأعيان المحليين ، ومنهم الموياذ ، وهو زعيم دينى زرداشتى، واتفقوا على الاستسلام تجنباً للمزيد من إراقة الدماء. وكانت الشروط دفع مليون درهم فضة جزية سنوية ومعها ألف وصيف (عبد صبى) ، وفى يد كل منهم قدح ذهبى. وبعد الاستيلاء على زرنج ، تشاور الغزاة فى القيام بهجوم على بُست ، المدينة الرئيسية فى جنوب أفغانستان ولكنهم واجهوا مقاومة عنيفة.

كان يزجرد الثالث ، آخر الملوك الساسانيين، لا يزال سادراً فى هروبه ، يبحث عن مكان يلجأ إليه حيث يمكنه حشد شرائم الفارين من جيشه^(٣١). ووجد الملك ملجأ فى إمارة طبرستان الجبلية. وربما كان هذا سينقذ حياته، ولكنه كان من الصعب أن يعبئ الموارد الكافية فى طبرستان لاستعادة مملكته . وهناك أيضاً حكاية عن أنه التمس العون من حكام الصين . وبدلاً من ذلك توجه صوب سستان، وربما بقصد الوصول إلى خراسان فى نهاية المطاف . ووفقاً لقصة لاحقة ، أصر على التحرك بحاشية ضخمة فاخرة ، على الرغم من ظروفه الضائقة . وقيل إنه كان معه أربعون ألف رجل : من العبيد ، والطهارة ، والخدم الخصوصيين (الشماشرجية) والسياس، والسكرتارية ، والزوجات ، وغيرهن من النساء ، وعجائز وأطفال من العائلة - ولكن لم يكن معه محارب واحد . ومما زاد الموقف سوءاً بالنسبة لجيشه المتردد أنه أيضاً لم يكن يمتلك المال لإطعامهم: فقد كان عليهم أن يكونوا كرماء وشجعان كذلك^(٣٢). وقد نزلت توسلاته من أجل المساعدة فى سيستان على أذن صماء، فقد كان ملكاً لفترة قصيرة جداً فقط ولم يكن له رصيد من الولاء يستند إليه. ويبدو أن السادة المحليين كان يفضلون فكرة أن يعقدوا صلحاً خاصاً بهم مع الغزاة بدلاً من إسداء ولائهم لملك سجله حافل بالفشل.

ومن سستان تحرك إلى خراسان . وهناك فى الركن الشمالى الشرقى من إمبراطوريته، فى أرض ربما لا يكون قد زارها من قبل أبداً ، جرت مباراة النهاية فى الامبراطورية الساسانية . وكانت نهاية بائسة لقصة عظيمة . ويبدو أن الملك الهارب قد اعتبر ضعيفاً غير مرغوب فيه وليس بطلاً، كما أن الانقسامات التى قوضت المقاومة الساسانية للغزو العربى استمرت حتى نهاية النهاية. وفى طوس أعطاه السيد المحلى الهدايا، ولكنه أيضا أوضح له أن القلعة ليست كبيرة بما يكفى لاستيعاب حاشيته؛ وكان عليه أن يواصل الحركة.

وهكذا حدث أن يزدجرد جاء إلى مدينة مرو الحدودية الكبيرة. وعلى مدى زمن طويل كانت المعقل الشرقى لمواجهة أترك مناطق الإستبس . وكانت مدينة ضخمة وعتيقة للغاية وفى قلبها كانت القلعة ، ضخمة ومستديرة إلى حد ما مشيدة من الطوب اللبن، مع الأسوار الشاهقة المنحدرة التى هى من خصائص آسيا الوسطى. ويرجع تاريخها إلى العصور الأخمينية إن لم يكن قبل ذلك . وكان السلوقيون قد أضافوا إلى هذا سياجاً مستطيلاً يضم الآن الأحياء السكنية فى المدينة . وكان يتم الدفاع عنها أيضاً بواسطة استحكامات ضخمة تتوجها على مسافات أبراج مشيدة بالأجر . وقد تمت تقوية قمم الدفاعات فى وقت قريب بإضافة حوائط ذات أعمدة بها فتحات لإطلاق السهام . وكان بإمكانها الصمود ضد الغزاة العرب إلى مالانهاية . وفى داخل الأسوار كانت المدينة متاهة من الشوارع الضيقة وبيوت ذات طابق واحد مبنية من الطوب اللبن . وقد تم اكتشاف آثار المعابد البوذية، ولا بد أنه كانت هناك بيوت نار للزرادشتية كذلك. ونحن نعرف أنه كانت هناك جماعة مسيحية لعبت دورها فى المؤسسة التى كانت تتكشف فصولها .

كان رد فعل مرزبان مرو إزاء وصول مليكه الهارب هو محاولة التخلص منه بأسرع ما يمكن. وتحالف مع الرؤساء الأتراك من جيرانه ، وهم أعداؤه القدامى ، ضد يزدجرد . وحدث أن سمع الملك أن القوات كان يتم إرسالها للقبض عليه وغادر المدينة سراً تحت جنح الليل. وسرعان ما لجأ الملك المرهق إلى طاحونة مائية على نهر المرغاب، الذى يروى واحة مرو ، وهناك تم إعدام آخر الساسانيين . وما جرى بالضبط فى تلك

الليلة لا يمكن معرفته أبدا^(٣٣)، ولكن الملحمة الإيرانية العظيمة الشاهنامة ، تقترح ما جرى ، ويستخدمها الشاعر الفردوسي اختتام ملحمة الكبيرة عن الملكية الفارسية^(٣٤).

ووفقاً للشاهنامة ، فبعد هزيمة رستم وموته فى القادسية ، استشار يزدجرد الفرس. واقترح مستشاره فروخزا عليه يجب أن يهرب إلى نروان فى الطرف الجنوبى من بحر قزوين ، ويستعد لحرب عصابات ، ولكن الملك لم يقتنع . وفى اليوم التالى جلس على عرشه ووضع تاجه على رأسه وطلب النصيحة من النبلاء والكهنة. ولم يحببوا الخطة ووافق الملك قائلا: «هل أنقذ رأسى وأتخلى عن نبالة فارس ، وجيوشها القوية ، والأرض نفسها ، وعرشها وتاجها ؟ ... وبالطريقة نفسها التى يدين بها رعايا الملك له بالولاء فى السراء والضراء كذلك لا ينبغي لملك العالم أن يتخلى عنهم ويتركهم لمعاناتهم على حين يقرُّ هو بحثاً عن السلامة والرفاهية».

ثم اقترح الملك أن يذهبوا إلى خراسان «لدينا هناك أبطال كثر مستعدون للقتال من أجلنا . هناك نبلاء وأتراك فى خدمة الإمبراطور الصينى، وسوف يقفون إلى جوارنا». وعلاوة على هذا، كان ماهويه، سيد مناطق التخوم هناك، راعياً متواضعاً حتى رفعه يزدجرد إلى الثروة والسلطة . ولم يكن فروخزاد ، المستشار الحكيم ، مقتنعاً ، مجادلاً بأنه لا يجب أن يثق برجال «طبيعتهم دنيئة» ، وهو مثال نموذجى على السياق العقلى الأرستقراطى للنبلاء الساسانيين. وانطلق الملك قاصداً خراسان ، تصحبه أصوات العويل من الفرس والصينيين على السواء . وقد ذهبوا مرحلة بعد مرحلة إلى الرى ، حيث «استراحوا فترة من الزمن ، وهم يواسون أنفسهم بالخمير والموسيقى»، قبل أن يسرعوا الخطى «مثل الريح».

وعندما اقتربوا من مرو، كتب الملك إلى الحاكم ، ماهويه، الذى خرج للقائه مظهراً الولاء بشكل كبير . وعند هذه النقطة سلم فروخزاد المسؤولية عن مليكه إلى ماهويه وغادر قاصداً الرى، وقد ملأه إحساس كئيب يتوقع شراً وهو ينعى رستم «أحسن فارس فى الدنيا»، قتله أحد أولئك الغرباء بعمائمهم السوداء . وتحولت أفكار ماهويه

صوب الخيانة. وكتب إلى طرخان، حاكم سمرقند، واقتراح خطة مشتركة ضد يزدجرد. ووافق طرخان وأرسل قواته من الأتراك ضد مرو. وعندما تلقى يزدجرد تحذيراً باقترابهم، لبس سلاحه مستعداً لمواجهةهم. وعلى أية حال، فإنه لم يلبث أن أدرك أن رجاله قد تخلوا عنه وأن ماهوى كان قد انسحب من القتال تاركاً الملك وحده. وحارب بضراوة ولكنه اضطر إلى الفرار في نهاية الأمر، تاركاً جواده بسرجه الذهبي، وقضيبه وسيفه في الجراب الذهبي. واحتفى بطاحونة مائية على أحد أنهار مرو.

عند هذه النقطة في تدهور حظوظ الملك، يفكر الشاعر متأملاً بذلك التشاؤم الذي أضجرت الحياة والذي ميز أعمال الشعراء الفرس اللاحقين من أمثال عمر الخيام، في قسوة القدر.

«هذه طريقة الدنيا الخادعة، ترفع قدر الرجل عالياً ثم تطيح به أسفل سافلين. فعندما كان الحظ حليقه، كان عرشه في السماء، والآن بات نصيبه من الدنيا طاحونة؛ وفي الدنيا مباحج كثيرة، ولكن سمومها أكثر. فلماذا يجب عليك أن تربط قلبك بهذه الدنيا، على حين تدق الطبول مشيرة إلى رحيلك باستمرار، تصبحها صيحة قائد القافلة «استعدوا للرحيل»؟ إن الراحة الوحيدة هي التي ستجدها في القبر. وهكذا جلس الملك، دونما طعام، وقد اغرورقت عيناه بالدموع، حتى بزغت الشمس.

«وفتح الطحان باب الطاحونة، وهو يحمل حملاً من القش على ظهره. كان رجلاً وضيعاً اسمه خسرو، لم يكن له تاج ولا عرش ولا ثروة، ولا أية سلطة. كانت الطاحونة مصدر رزقه الوحيد. وشاهد محارباً مثل شجرة سرو باسقة جالساً على الأرض الصخرية مثل رجل حطه اليأس؛ وعلى رأسه تاج ملكي وثيابه مصنوعة من القصب الصيني اللامع. وحملق خسرو فيه مندهشاً ودمدم باسم الرب. وقال: «يا صاحب الجلالة، إن وجهك يلمع مثل الشمس: أخبرني، ما الذي جاء بك إلى هذه الطاحونة؟ كيف لطاحونة مليئة بالقمح والغبار والقش أن تكون مكاناً تجلس فيه؟ أى نوع من الرجال أنت بجسدك هذا ووجهك هذا، وأنت تُشع مثل هذا المجد، لأن السماء لم ترك أبداً على هذا الشكل؟».

وأجاب الملك : «إننى واحد من الفرس الذين هربوا من جيش الطورانيين». وقال الطحان فى غمرة ارتباكـه : «إننى لم أعرف أبداً سوى الفقر ، ولكن إن استطعت أن تأكل بعض خبز الشعير وبعض الأعشاب الشائنة التى تنمو على ضفة النهر، فإننى سوف أحضرها لك، وأى شىء آخر يمكن أن أجده. إن الرجل الفقير يدرك دائماً أن ما يملكه قليل » وفى الأيام الثلاثة التى مضت منذ المعركة لم يكن الملك قد تناول طعاماً . فقال «أحضر لى ما لديك واحضر لى حزمة مقدسة(*)» وبسرعة أحضر الرجل سلة من خبز الشعير والأعشاب ثم أسرع ليحضر الحزمة المقدسة من مكتب تحصيل الضرائب عند النهر. وهناك قابل رئيس الزرق وسأله أن يعطيه حزمة مقدسة. وكان ماهويه أرسل الناس فى كل مكان بحثاً عن الملك ، وقال الرئيس «قل لى أيها الرجل، من هو الذى يريد حزمة مقدسة؟» وأجابه خسرو : «هناك محارب على القش فى طاحونتى ، إنه طويل مثل شجرة السرو، ووجهه مجيد مثل وجه الشمس، وحاجباه مثل قوس ، وعينه الحزيتان مثل زهور النرجس : وفمه ملىء بالتهنيدات ، وجبهته مقطبة عابسة. إنه هو الذى يريد الحزمة المقدسة لكى يصلى». وفى الحال أرسل الرئيس الطحان إلى ماهويه، الذى أمره بالرجوع إلى الطاحونة وقتل الملك، مهدداً إياه بإعدامه إذا لم يفعل ، وأضاف أن التاج، والأقراط، والخاتم والملابس الملكية لا يجب تلويثها . وعاد الطحان المرتبك إلى الطاحونة وفعل ما أمر به ، وطعن الملك بخنجر . وسرعان ما ظهر رجال ماهويه المواليين، وجردوا الجثة من شارات الملك ثم ألقوا بها فى النهر.

وفى قفلة ختامية مثيرة للقصة، يصف الشاعر كيف أن الرهبان المسيحيين فى دير قريب شاهدوا الجثة ، وتجردوا من مسوحهم وسحبوا الجثة خارج المياه. وأقاموا له شاهد قبر فى حديقة . وجففوا جرح الخنجر وعالجوا الجثة بالمراهم والقطران والكافور والمسك ؛ ثم ألبسوها ثوباً من القصب أصفر اللون ، ووضعوها على قماش المسلمين ووضعوا فوقها طليسان أزرق . وأخيراً قام أحد القساوسة بمسح قبر الإمبراطور بالنيذ والمسك والكافور وماء الورد.

(*) هى حزمة من أغصان شجرة معينة مربوطة معاً يمسكها من يتلو صلوات النعمة الزرادشتية قبل الأجل. ومغزى القصة أن أحد النبلاء فقط هو الذى يطلب هذه.

وكان ماهويه بطبيعة الحال قد استشاط غضباً ، قائلاً إن المسيحيين لم يكونوا أبداً أصدقاء لإيران وأن كل من له علاقة بمراسم الموت ينبغي أن يُقتل . وداهمته هو نفسه نهاية سيئة . فهو مثل ماكث ، ندم على قتل الملك : « لا يسميني رجل حكيم ملكاً وسلطة خاتمي لا يحترمها الجيش... فلما أهدرت دماء ملك العالم ؟ أمضيت الليالي معذباً بالقلق، والرب يعلم بالحال التي أعيشها » . وسرعان ما جاء مالكوم الخاص به على هيئة قائد قوات طرخون سمرقند . وأخذ ماهويه الخائن وبنيه، ويعد أن قطعوا أياديهم وأرجلهم ، ثم دفنهم أحياء .

ويختتم الشاعر باقتضاب «وبعد ذلك جاء زمن عمر، وعندما جاء بالدين الجديد، حل المنبر محل العرش» .

وأعقب موت يزدجرد الثالث احتلال العرب لمرو ، ويبدو أنه كان سلميًّا ، ولكن التفاصيل غائبة تمامًا .

كان سقوط مرو وموت آخر الساسانيين علامة نهاية المرحلة الأولى من الفتوح الإسلامية في إيران . وبالفعل كانت كل ما هي الآن أراضى إيران الحديثة ، ومعها بعض مناطق القوقاز وتركمانيستان ، قد اعترفت بالسيادة الإسلامية بشكل أو بآخر . فقد كان سقوط الإمبراطورية الساسانية العظمى سريعاً وحاسماً . وعلى الرغم من الشهرة الكبيرة للملكية القديمة ، فقد كانت محاولات إحيائها قليلة بلا فاعلية . لقد ولى النظام السياسي القديم إلى غير رجعة ، ولكن الكثير من الثقافة الإيرانية بقي إلى ما بعد الفتوح الإسلامية، لقد هزم العرب الجيوش الساسانية . وضمنوا الجزية من معظم المدن الرئيسية والسيطرة على معظم الطرق الكبرى ولكنهم لم يسيطروا عليها كلها بأي حال من الأحوال . وكانت الحامية العسكرية الكبيرة الوحيدة موجودة في مرو، على الحدود الشمالية الشرقية فيما يبدو ، وحتى هناك كانت يتم إرسال القوات بالتناوب من العراق على مدى بعض السنين ، بدلاً من استقرارها بشكل دائم . وعلى امتداد نصف القرن الأول من الحكم الإسلامي ، لم يكن هناك وجود كبير للمسلمين لو لم يتم تأسيس مدن إسلامية جديدة ، ولم يتم بناء مساجد كبيرة . وغالباً ما كان «الفتح» نوعاً

من التعاون مع النخب المحلية الإيرانية، مثلما كان الحال في قُم وفي الري. وكانت مناطق كثيرة، مثل إمارات الجبل في شمال إيران خارج السيطرة الإسلامية تماماً ، كما أن الطريق المباشر من الري إلى مرو بقي غير مستخدم بسبب التهديد الذي مثلته هذه الإمارات .

وربما كان سقوط مرو علامة على نهاية الحملة ضد الساسانيين وبناء الهيمنة الإسلامية في مناطق إيران الحالية ، ولكن كان هناك المزيد من القتال قبل أن يصير الحكم العربي حقيقة في الكثير من نواحي البلاد. فطوال أواخر القرن السابع الميلادي والعقود الأولى من القرن الثامن الميلادي (الأول والثاني للهجرة) ، كانت الجيوش العربية مندفعة في أرض مجهولة وصولاً إلى حواف العالم الإيراني.

وثمة مثال مثير على هذه الفتوح الثانوية يمكن أن نراه في حالة جُرجان وطبرستان. والقصة مركبة ولكنها توضح فعلاً كيف أن العديد من العوامل المختلفة يمكن أن تكون داخلة في فتح منطقة ما ، كما توضح التفاعل ما بين القوى السياسية القائمة والوافدين العرب كانت طبرستان الإقليم الجبلي على الساحل الجنوبي لبحر قزوين ، وكانت جُرجان هي المنطقة السفلى إلى الشرق حيث تخطى مرتفعات الهضبة الإيرانية مكانها لأراضي الإستبس والصحراء في وسط آسيا . وفي زمن الفتوح الأولية ، كان حكام هاتين المنطقتين ، صول جرجان وإصبيها طبرستان ، قد دخلا في ترتيبات صلح مع القادة العرب أتاحت لهما بالفعل الاحتفاظ بالسيطرة على ممتلكاتهما . ومع بداية القرن الثامن الميلادي/الثاني الهجري ، عندما قوى حكم المسلمين في باقي أنحاء إيران ، بدا هذا الوضع شاذاً بصورة متزايدة . إذ كانوا يمثلون تهديداً واضحاً للمواصلات بين القاعدة العربية في مرو والغرب ، ولم يستطع العرب سوى بعد ٧٠٥م أن يستخدموا الطريق المباشر من الري إلى مرو ، بدلاً من الطريق الجنوبي الأطول عبر كرمان وسستان^(٣٥). وكانت المقاومة المحلية أيضاً قد ضعفت بسبب التوتر بين أتراك دهستان على أطراف الصحراء ، والذين يقودهم الصول من ناحية ، وسكان جرجان المستقرين من ناحية أخرى.

وفى سنة ٧١٧م ، قرر يزيد بن المهلب ، الوالى الجديد على خراسان، أن يقوم بحملة عسكرية كبرى فى هذه المناطق . وكان سلف يزيد فى حكم الولاية، قتيبة بن مسلم، قد حاز شهرة عريضة بسبب فتوحه فيما وراء النهر، وليس هناك شك فى أن يزيد أراد أن يحاكي قتيبة ويظهر أن بوسعه قيادة الجيوش ضد غير المؤمنين ويكافئ جنوده بالغنائم الوفيرة ويقال إنه جمع مائة ألف رجل من خراسان، ومن المدينتين العسكريتين العراقيتين الكوفة والبصرة^(٣٦). ويبدو أن الهدف الأول كان مدينة دهستان، وكانت موقعاً معزولاً فى صحراء تركمانستان. وحاصر المدينة وأغلقها مانعاً وصول الإمدادات الغذائية ، وبدأ الترك الذين كانوا جمهور المدافعين ، يغشاهم الخوف . وكتب الدهقان المسئول يطلب الصلح من يزيد. ولم يطلب سوى السلامة له ولعائلته وحيواناته. ووافق يزيد، ودخل المدينة ، وأخذ الغنائم والسبايا؛ وراح أربعة عشر ألفاً من الأتراك الذين لاحول لهم ولا قوة ، ولم يدخلوا ضمن الأمان، ضحايا الإعدام بالسيف^(٣٧).

وفى رواية أخرى للقصة ، تراجع صول دهستان إلى حصنه الحصين فوق جزيرة فى الركن الجنوبي الشرقى من بحر قزوين . وبعد حصار دام ستة أشهر ، انتابت الأمراض المدافعين من جراء مياه الشرب السيئة وفتح الصول المفاوضات ووافق على الشروط . وكما هى العادة ، هناك أوصاف يشوبها الإعجاب بالمغانم بما فيها أكياس الطعام والملابس. وحاز يزيد نفسه تاجاً ولكنه مرره بسرعة إلى واحد من مرؤسيه. فقد كانت التيجان تُلبس كثيراً على رؤوس أبناء الأرستقراطية الإيرانية ، ولكن المسلمين الأكثر تقوى وزهداً كانوا ينظرون إليها فى ارتياب عميق، وكانوا يرون فيها نموذجاً للخيلاء ، والتيه لدى الفرس. وربما بسبب هذا، احتج المرؤوس بأنه لا يريد التاج وأعطاه لواحد من الشحاذين. وسمع يزيد بهذا واشترى التاج ثانية من الشحاذ.

وبعد هزيمة الصول ، كان يزيد قادراً على احتلال معظم الأراضى المستقرة فى جُرجان دون مقاومة كبيرة ، خاصة وأن بعض السكان المحليين الإيرانيين على الأقل كانوا سعداء بقبول المساندة العربية لحمايتهم من الأتراك . ثم حول يزيد انتباهه إلى طبرستان الجبلية . وكان الحاكم المحلى اصبهاذ قد جمع الحلفاء من المقاطعات الجبلية فى جيلان والديلم ناحية الغرب.

وكان أهل طبرستان قد أحبطوا المحاولات الإسلامية الباكرة لاختراق الممرات الضيقة في جبالهم^(٣٨) وعقدوا العزم على أن يفعلوا هذا مرة ثانية. وعندما تقابل الجيشان في السهول، كانت الميزة للمسلمين، ولكن بمجرد أن تراجعوا، تمكن الأهالي من استخدام التراب للدفاع عن أنفسهم «... حتى انتهى المسلمون إلى فم الشعب؛ فذهبوا إليه ليصعدوا فيه، فأشرف عليهم العدو يرشقونهم بالنشاب، ويرمونهم بالحجارة، فانهزم الناس من فم الشعب من غير كبير قتال ولا قوة من عدوهم على إتباعهم وطلبهم، وأقبلوا يركب بعضهم بعضاً، حتى أخذوا يتساقطون في اللهب...»^(٣٩). وقد أدى هذا النجاح إلى جسارة الأهالي، وكانت هناك انتفاضة ضد العدد الصغير من العرب الذي كانوا يشكلون الحامية في جرجان^(٤٠)، ولفترة من الزمن كان جيش يزيد يواجه خطراً جدياً بأن يقع في مصيدة ويتم تدميره. ولم ينقذهم سوى قدر من الدبلوماسية الماهرة التي أتاحت لهم عقد صلح، وهو ما تم تصويره باعتباره نجاحاً. فبالإضافة إلى مبالغ كبيرة من المال وافق إصبنهاذ طبرستان على تقديم أربعمائة بغل محملة بالزعفران وأربعة آلاف عبد. ويجب أن يكون كل عبد مرتدياً «... بُرنس، على البُرنس طيلسان ولجام من فضة، وسرقة (أي قطعة) من الحرير...».

ولم يكن للحرير والفضة أن تخفي حقيقة أن الحملة الضخمة قد انتهت بفشل جزئي. فقد تم إخضاع الأراضي الواطنة في جرجان للحكم الإسلامي، ولكن أهل طبرستان الذين تحميهم جبالهم، قد حاربوا ضد المسلمين. ووفقاً لكتاب محلى عن تاريخ المنطقة، كتب بعد عدة قرون من الحوادث ولكنه كان لا يزال يحتفظ بالمأثورات القديمة، انطلق يزيد في عملية تحويل جرجان إلى منطقة حضرية لأنها حتى ذلك الحين لم تكن مدينة حقيقية على الإطلاق. ويقال إنه قد بنى أربعة وعشرين مدينة صغيرة، لكل قبيلة عربية مسجداً، وكان لا يزال يمكن التعرف على معظمها في أيام الكاتب نفسه^(٤١). وهذه علامة على البداية الحقيقية للحكم الإسلامي في جرجان، بعد سبعين سنة من

(*) النص من الطبري، ج ٦، ص ٥٣. والجدير بالذكر أن المؤلف يحيل النص في هوامشه إلى الجزء الأول من النص الأصلي (راجع الأصل الإنجليزي pp. 386-7) على حين أن النص موجود في الجزء الثاني من أصل كتاب الطبري. (المترجم)

الفتح العربى الأول. وحتى فى ذلك الحين يبدو أن المجتمع الإسلامى كان مقيداً بحدود العاصمة التى تأسست حديثاً ؛ وكان للأمر أن يأخذ وقتاً أطول بالنسبة للدين الجديد حتى يتوغل فى القرى ومضارب البدو^(٤٢).

وجاءت أقوى صور المقاومة التى واجهها العرب فى أراضى الإمبراطورية الساسانية من منطقة شرق سستان ، وهى مقاطعة هلمند وقندهار فى أفغانستان الحديثة . كما أن الحملات فى هذه المنطقة كانت مثيرة أيضاً بسبب ضراوة القتال استفزت العصيان الكامل الوحيد الذى تم تسجيله فيما بين القوات العربية فى ذلك الحين . وتمثل المناطق الصحراوية جنوب أفغانستان بيئة صعبة لأى جيش من الغزاة . ذلك أن الحرارة اللاهبة توهن الجنود كثيراً وتوفر التلال الغليظة نقاطاً لاحتصار لها لاختباء المدافعين الذين يعرفون المنطقة جيداً . ولم تكن هذه أرضاً زرداشتية أو بوذية وإنما كانت أرضاً للإله زون ، الذى كانت صورته الذهبية وعيناه من الياقوت محل تبجيل فى كافة أرجاء المنطقة . وكان ملوك هذه الأرض يعرفون بالزُنَيْيل، وهو لقب كان يعلن ولاءهم لهذا الإله، وكانوا ينتقلون ما بين قصورهم الشتوية فى السهول بجوار نهر هلمند ومقار إقامتهم الصيفية فى زابلستان ، منطقة الجبال الباردة فى الشمال.

وكانت قوة من المسلمين قد شنت غارة على المنطقة سنة ٦٥٣ - ٦٥٤ م ، عندما قام أحد القادة العرب بصب احتقاره على تمثال الإله فيما زعموا ، وكسر أحد ذراعيه وانتزع عينيه الياقوتيتين . وقد أعادهما إلى الحاكم المحلى قائلاً إنه أراد أن يوضح فقط أن الصنم لا حول له ولا قوة . وعلى أية حال ، فإن الإله بقى بعد هذه الإهانة وكان لا يزال محل تبجيل فى القرن الحادى عشر ، مما يرمز إلى المقاومة الضارية لأهالى هذه التلال ضد التدخل الخارجى. وكان المسلمون مدركين تماماً بأن هذه المنطقة كانت طريقاً محتملاً إلى الهند ، بكل ثرواتها ، ولكن الزنابلة وأقاربهم حكام كابل (كابُلشاه) وشعوبهم ، خاضوا مقاومة جسورة لفترة طويلة ضد العرب، مما جعل من المستحيل على الجيوش الإسلامية أن تصل إلى شمال الهند.

فى هذه البيئة المعادية بشدة قاد عبيد الله بن أبى بكر «جيش التدمير» سنة ٦٩٨م^(٤٣). كان عبيدالله نفسه مثلاً نموذجياً لرجل من أصول متواضعة أفاد تماماً من الفتح الإسلامى. فقد كان أبوه عبداً حبشياً بمدينة الطائف قرب مكة . وعندما كان المسلمون يحاصرون المدينة سنة ٦٢٠م، أى قبل سنتين من وفاة النبى، أعلن أن أى عبد ينضم إلى جانبه، سيكون حراً . واستخدم أبوبكرة بكرة يتدلى بها من أسوار المدينة ومن هنا جاءت كنيته، أبوبكرة . وقد تزوج امرأة عربية حرة ، وورث ابنهما، عبيدالله ، لونه الداكن . وقد استغل هجاؤه لونه الأسود وأصوله العبودية . وقد انتقلت الأسرة إلى البصرة عندما تم تأسيس المدينة وكسب مبالغ كبيرة من الأموال من التطور الحضرى ببناء الحمامات العامة . وقد تمكن عبيدالله من أن يبنى لنفسه بيتاً بثمن كبير وأن يحتفظ بقطيع من ثمانمائة جاموسة فى أرض المستنقعات ضد العراق . وقد أتاح له فتح فارس المزيد من الفرص لجمع الأموال، ورأينا أنه كسب مبالغ طائلة من مصادرة بيوت النار هناك . وباختصار كان رجلاً وضع الأصل قليل الخبرة العسكرية وجنى ثروة من الفتوح.

ثم عينه الحجاج بن يوسف الثقفى، حاكم العراق والمشرق بأسره ، قائداً على جيش من المسلمين «... ثم إنه غزا رُبَيْل وقد كان مصالحاً ، وقد كانت العرب قبل ذلك تأخذ منه خراجاً ، وربما امتنع فلم يفعل ، فبعث الحجاج إلى عبيدالله بن أبى بكر أن ناجزه بمن معك من المسلمين فلا ترجع حتى تستبيح أرضه ، وتهدم قلاعاه ، وتقتل مقاتلته، وتسبى ذريته ...» وتجمع الجيش فى قاعدة بُسْد الإسلامية المتقدمة ، ثم اتجهوا شمالاً فشرقاً لمطاردة رُبَيْل «... فأصاب من البقر والغنم والأموال ما شاء ، وهدم قلاعاً وحصوناً، وغلب على أرض من أرضهم كثيرة ، وأصحاب رُبَيْل من الترك يخلون لهم عن أرض بعد أرض، حتى أمعنوا فى بلادهم، ودنوا من مدينتهم ...» ثم إنهم استدرجوا قوات عبيدالله إلى أن باتوا فى وضع حرج «... فسقط فى أيدي المسلمين، وظنوا أن قد هلكوا...» وبدأت المفاوضات . وأجبر من كان يفترض أن يفتح المنطقة على عرض مهين «... إنى مصالح القوم على أن أعطيهم مالاً ويخلوا بينى وبين

الخروج ، فأرسل إليهم مصالحتهم على سبعمائة ألف درهم...»^(*) وأن يقدم رهائن من بينهم ثلاثة من أبنائه ، وأن يقسم ألا يغزو أرض رُبَيْل . وتسلى عبيد الله مع الحاكم بصحبة الخمر والنساء^(٤٤) . ولم يكن جميع المسلمين راضين بهذه الإهانة وصمم بعضهم على القتال ونيل الشهادة ، وجادلوا بأنه لا ينبغي أبداً منع المسلمين من مهاجمة الكفار ، كما أنه من الناحية العملية سوف يستقطع مبلغ الفدية من عطائهم ، بحيث يمنع العطاء مكافأتهم مقابل ما تجشموه من الصعاب في هذه الحملة .

واختار قلة من الشجعان أن يقاتلوا واستشهدوا حسبما أرادوا . أما الغالبية فقد اتبعوا قائدهم في تقهقر بانس إلى بسد . ولم ينج سوى عدد قليل وهلك الباقون جوعاً وعطشاً . وكان الشعراء بلا رحمة تجاه عدم كفاءته ، وطمعه ، وقبل هذا وذاك تجاه الطريقة التي استغل بها قواته لجمع الأموال .

عينوك أميراً عليهم

إلا أنك قضيت عليهم والحرب لا تزال دائرة^(٤٥)

وبقيت معهم ، أبالهم ، وهكذا قالوا (النص من أنساب الأشراف)

... وتبيعهم الحصرم

ربما كانت تلك أهم نكسة لحقت بالجيش الإسلامية منذ بدأت الفتوح العربية . وصمم الحجاج في العراق على الثأر ويبدو أنه كان خائفاً من أن يقوم رُبَيْل بالهجوم على المناطق التي كانت تحت حكم المسلمين بالفعل : فإذا انضم إليه انتفاضة من جانب الأهالي المحليين فربما ضاعت إيران كلها . وكتب إلى الخليفة عبد الملك بن مروان في دمشق : «... فإن جند أمير المؤمنين الذين بسجستان أصيبوا فلم ينج منهم إلا القليل ، وقد اجتراً العدو بالذي أصابه على أهل الإسلام فدخلوا بلادهم ، وغلبوا على حصونهم وقصورهم ، وقد أردت أن أوجه إليهم جنداً كثيفاً من أهل المصريين ، فأحببت أن استطلع

(*) اعتمدت على رواية الطبري ، (ج ٦ ، ص ٢٢٢-٢٢٣) لتفسير نص المؤلف الذي اختصر القصة بشكل مُركب ، وقد التزمت بنص المؤلف ووضعت كلمات الطبري لتوضيحه . (المترجم)

رأى أمير المؤمنين فى ذلك...» وجاءت الإجابة تحمل تصريحاً مفتوحاً له بأن يفعل ما يراه مناسباً .

وأخذ الحجاج فى تنظيم الجيش ، عشرين ألف رجل من الكوفة وعشرين ألفاً من البصرة ودفع لهم عطاياهم كاملة بحيث يمكنهم تجهيز أنفسهم بالخيول والسلاح. وتفقد الجيش بنفسه، وأعطى المزيد من الأموال لأولئك الذين اشتبهوا بشجاعتهم . وأقيمت الأسواق حول المعسكر بحيث يمكن للرجال أن يشتروا المؤن وألقيت خطبة تحت الجميع على القيام بنصيبيهم فى الجهاد^(٤٧). وصارت القوة تعرف باسم «جيش الطاووس» بسبب أناقة مظهرها .

وعلى الرغم من هذه الاستعدادات ، فإن الحملة بدأت سلسلة الحوادث التى أدت إلى حالة التمرد الوحيدة فى تاريخ الفتوح الباكرة ، وكانت المرة الوحيدة التى يرفض فيها جيش عربى الاستمرار فى القتال وينقلب على سادته السياسيين المسلمين. ولم يكن الأمر كله مباشراً حسبما كان يبدو. إذ كان الحجاج يناضل على مدى عدة سنوات لإجبار القوات المحلية فى المدن العراقية على طاعته هو والخليفة الأموى فى دمشق . وكان لابد أن تكون هناك ميزة كبرى من وراء إرسالهم فى حملة بعيدة صعبة : فإذا انتصروا سوف يصيرون أثرياء وربما تسببوا فى استقرار المنطقة . وإن أخفقوا ، فإن قوتهم سوف تنكسر حينئذ. واختار ابن الأشعث ليكون قائداً . وعلى خلاف عبيدالله التمس، كان الأشعث ابناً للشرائح العليا فى الطبقة الاستقرائية فى جنوب شبه الجزيرة؛ إذ كان ينحدر مباشرة من نسل ملوك كندة قبل الإسلام. وكان أيضاً رجلاً فخوراً لا يجب أن يصدر إليه أحد أمراً، وكان قد صار واحداً من قادة المعارضة العراقية ضد الحجاج بن يوسف الثقفى. وكان تعيينه فى القيادة بمثابة تقديم كأس مسموم إليه.

وفى البداية سار كل شىء سيراً حسناً . وكتب الرتبيل ، الذى يبدو أنه كان على علم تام بالاستعدادات الإسلامية ، إلى ابن الأشعث يعرض الصلح . ولم يتلق رداً وبدأت القوات المسلمة احتلال أراضيها بشكل منظم ، بحيث استولوا عليها ناحية بعد أخرى، وعينوا جباة الضرائب، ووضعوا حراسات على الممرات كما وضعوا خدمة بريد عسكرية.

ثم قرر ابن الأشعث أن يتوقف بقطرته ويعزز قواته، قبل أن يتقدم في السنة التالية . وكتب إلى الحجاج عن هذا المسار المعقول تماماً لتصرفه وتلقى هجوماً عاصفاً رداً على هذا . فقد أتهم الحجاج القائد بالضعف وسوء التقدير وبعدم الاستعداد للثأر لأولئك المسلمين الذين قتلوا في الحملة. وأمره بأن يستمر في التقدم فوراً . وحينئذ طلب ابن الأشعث النصيحة . واتفق الجميع على أن مطالب الحجاج غير معقولة وأن القصد منها تحقير الجيش وقائده . وقال أحدهم : «... إن الحجاج والله ما يبالي أن يخاطركم بلاداً كثيرة اللهب والصبوب (أى أن جبالها صعبة ومضايقها وشعبها كثيرة) ، فإن ظفرتم فغنمتم أكل البلاد وحاز المال، وكان ذلك زيادة في سلطانه ، وإن ظفر عدوكم كنتم أنتم الأعداء البغضاء الذى لا يبالي عنتهم، ولا يبقى عليهم...»^(٤٨)(*) وقال المتحدث التالى إن الحجاج يحاول أن يخرجهم من العراق ويجبرهم على الاستقرار فى هذا الاقليم المنعزل. واتفق الجميع على أن الجيش يجب أن يخلع طاعته للحجاج. ثم قرر ابن الأشعث أن يقودهم غرباً لتحدى السيطرة الأموية على العراق وأن يتصدى للخلافة ، تاركا للرتبيل السيطرة على أرضه وترك الموتى المسلمين بلا ثأر .

ولم ينجح العصيان العسكرى. فقد لحقت الهزيمة بابن الأشعث وأتباعه العراقيين على أيدي الجيش الأموى الشامى وتم سحقهم . بيد أن القصة مهمة فى حوليات الفتوح: إذ إن جيشاً مسلماً كان قد قرر أن تأكيد حقوقه ضد الحكومة المسلمة أهم من توسيع دار الإسلام وأن حفظ رواتبهم كان أكثر قيمة من الحصول على غنائم جديدة. ويمكننا أن نرى أن حركة الفتوح قد أخذت تفقد قوتها الدافعة .

كان إخفاق الجيوش الإسلامية فى جنوب أفغانستان علامة على نهاية الفتوح فى إيران. ولم تستمر حروب الفتوح سوى فى الشمال الشرقى وراء نهر أمودريا (جيحون) وسيردريا (سيحون)^(**) أى منطقة ما وراء النهر. وقد خلفت الفتوح الإسلامية بطبيعتها وتناثرها فى إيران ميراثاً ثقافياً مهماً. ففى بلاد الشام، والعراق، ومصر أدت الفتوح

(*) النص من الطبرى، ج ٦ ، ص ٣٣٥ - ص ٣٦٥ . (المترجم)

(**) هى المنطقة الواقعة بين هذين النهرين وقد أسماها العرب « ما وراء النهر». (المترجم)

الإسلامية أيضا إلى انتصار اللغة العربية سواء باعتبارها وسيطا للثقافة الراقية أو لغة الحياة اليومية الدارجة. ولم يحدث هذا في إيران. فعلى مدى قرنين من الزمان بعد الفتح ، وعلى مدى أطول من ذلك فى بعض المناطق ، كانت العربية لغة الإدارة لحكومة الخلافة . كما كانت لغة الخطاب الدينى والفلسفى . ولكنها لم تكن لغة الحياة اليومية . وعندما أكدت السلالات الحاكمة الإيرانية استقلالها عن حكم الخلافة فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين/الثالث والرابع الهجريين، كانت الفارسية هى اللغة المستخدمة فى بلاطهم . وكانت «الفارسية الجديدة» تكتب بحروف عربية واحتوت على الكثير من الكلمات التى استعارتها من العربية ، ولكن القواعد النحوية والمفردات الأساسية كانت فارسية بشكل واضح ، وهى لغة هندو - أوروبية تتناقض مع اللغة العربية السامية. ويجدر بنا أن نتأمل كيف أن هذا الموقف مختلف عن الوضع فى مصر. فلم يكن أحد فى مصر سنة ٦٠٠م أحد يتحدث اللغة العربية ؛ وبحلول القرن الثانى عشر الميلادى/ السادس الهجرى على أقصى تقدير كان الجميع يتحدثون العربية . وفى العصور الحديثة تعتبر مصر المركز الرئيسى للثقافة العربية . وفى إيران سنة ٦٠٠م لم يكن هناك من يتحدث العربية؛ وفى القرن الثانى عشر (٦هـ) كانوا لا يزالون لا يتحدثون العربية . لقد رسخت العربية بوصفها لغة لأنماط بعينها من الخطاب الفكرى، بحيث تشابهت كثيرا مع اللاتينية فى أوروبا العصور الوسطى وفى العصور الحديثة لا تعد إيران بلدا عربياً بالتأكيد.

كان بقاء اللغة الفارسية مقروناً ببقاء جوانب من الثقافة السياسية الفارسية . ففى بلاطات الأمراء فى شمال إيران وشمالها الشرقى حيث لم تصل الموجة الكبيرة من هجرات العرب، كان الحكام لا يزالون ينظرون إلى النماذج الإيرانية القديمة ويزعمون أنهم ينحدرون من نسل الملوك الساسانيين والعائلات النبيلة . وكانت هذه البلاطات تعمل كأنها احتياطات للثقافة الإيرانية، وكان أن برزت فيهم المقاومة الفارسية، والإحياء الثقافى العظيم فى القرن العاشر الميلادى/ الرابع الهجرى، الذى تجلى فى أعمال مثل شاهنامه الفردوسى.

كان بقاء ثقافة إيران غير العربية يرجع جزئياً إلى طبيعة الفتوح العربية الأولى، والمعدل البطيء جداً للاستقرار العربي والطريقة التي أبقى الفاتحون على بنى القوة القائمة سليمة متماسكة . لقد صارت البلاد إسلامية راسخة . ولم يعد هناك أحد غير مسلم بين الأمراء والنبلاء بأعدادهم الكبيرة، ولكن في الوقت نفسه، بقيت اللغة الفارسية والهوية الفارسية حية حتى القرن الحادى والعشرين.

الهوامش

(١) عن قصة سقوط الإمبراطورية الساسانية والغزو الإسلامي لإيران، انظر :

A. Chrisensen, L'Iran sous les Sassanides (rev. ; 2nd edn, Copenhagen.1944), pp. 497-509.

Tabari, Ta'rikh, 1, pp. 2596-633; Baladhuri, Futuh, pp. 302-7; Ibn Actham al-Kufi, (٢) Kitab al-Futuh, ed. S. A Bukhari, 7 vols. (Hyderabad, 1974), II, pp. 31-59. On the sources, see A. Noth, 'Isfahan-Nihawand- Eine quellenkritische .Studie zur fruhislamischen Historiographie'. Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft 118 (1968): 274-96.

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2616. (٣)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2618. (٤)

Tarari, 'Ta'rikh, I, p. 2617. (٥)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2632. (٦)

Baladhuri, Futuh, p. 303. (٧)

Tabari. Ta'rikh, 1, pp. 2623-4. (٨)

Tabari, Ta'rikh, I, p, 2626. (٩)

Tabari, Ta'rikh, pp. 2617, 2649-50. (١٠)

Baladhuri, Futuh, p. 305. (١١)

sec Baladhuri, Futuh, p. 309. (١٢) عن فتح همدان انظر:

S- Matheson, Persia : An Archaeological Guide (2nd rev. edn, London, 1976), (١٣) p. 109.

see Baladhuri, Futuh, pp. 312-14. (١٤) عن فتح همدان انظر:

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2642. (١٥)

Abu Nucaym al-Isfahari, Geschichte Ishahans, pp. 15-10. (١٦)

Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2639-41. (١٧)

P. Pourshariati, 'Local histories of Khurasan and the pattern of Arab settlement:', (١٨)
Studio Iranica 27 (1998): 62-3.

Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2650-711. See Bahram VI Cobin' in Encyclopaedia Iranica, (١٩)
ed. E. Yarshater (London, 1985), III, pp.519-22.

Tabari, Ta'rikh, I, pp. 2653-5. (٢٠)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2659. (٢١)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2635. (٢٢)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 2667. (٢٣)

(٢٤) هذه الرواية قائمة على أساس :

G. M. Hinds, 'The first Arab conquests in Fars, Iran 22 (1984): 39-53, reprinted in
idem. Studies in Early Islamic History, ed.J. L. Bacharach, L. I. Conrad and P.
Crone (Princeton, NJ. 1996).

Al-Istakhri, Kitab Masalik wa'l Mamalik, ed. M.J. de Goeje (Leiden, 1927). (٢٥)

Baladhuri, Futuh, p. 388, (٢٦)

Baladhuri, Futuh, p. 389. (٢٧)

Baladhuri, Futuh, p. 389. (٢٨)

Baladhuri, Ansab al'Ashraf, I, ed. M. Hamidullah (Cairo, 1959), p. 494. (٢٩)

Baladhuri, Futuh, pp. 293-4. (٣٠) عن الفتح الأولى لسيستان انظر :

For discussion, see Christensen, Iran, pp, 506-9. (٣١)

Bafami, quoted by Christensen, Iran, p.507- (٣٢)

For Arabic accounts, see Baladhuri, Futuh, pp. 315-16. (٣٣)

(٣٤) روايتي قائمة على أساس شاهنامه الفردوسي .

Firdawsi, Shahnamah, trans. D. Davis, vol.III: Sunset of Empire (Washington, DC,
1998-2004), pp.501-13.

Tabari, 'Tarikh, I, p. 132;. (٣٥)

Tabari, Ta'rikh, I,p. 1318. (٣٦)

Tabari , Tarikh , T, p. 1320; Baladhuri, Futuh, pp. 33,-6. (٣٧)

Baladhuri, Futuh, p. 335. (٣٨)

Tabari, Ta'rikh,I,pp. 1320-22, 1328. (٣٩)

Tabari, Ta'rikh, I, p. 1328. (٤٠)

Ta'rikh Zurjan, pp. 56-7; see also P. Poursnariati, 'Local histories of Khurasan and (٤١) the pattern of Arab settlement', *Studia Iranica* 27 (1998): 41-81.

(٤٢) عن أسلحة جورجان :

R. Bulliet, *Islam: The View from the Edge* (New York, 1904).

(٤٣) عن هذه الحملة انظر:

C.E. Bosworth, 'Ubaidallah b. Abi Bakra and the "Army of Destruction" in Zabulistan (79/698)', *Der Islam* i (1973): 268-83.

Baldhuri, *Ansab al-Ashraf*, ed. Ahlwardt, p. 314. (٤٤)

Baldhuri, *Ansab*, p. 315-16. The translation is based on that of Bosworth, slightly (٤٥) simplified.

Tabari, *Ta'rikh*, I, pp. 1038-9. (٤٦)

Tabari, *Ta'rikh*, I, pp. 1043-7. (٤٧)

Tabari, *Ta'rikh*, I, pp. 1054-5. (٤٨)

فى المغرب

إذا ما سافرت على امتداد الطريق الساحلى على طول المسافة من الإسكندرية إلى قرطاجة، عاصمة ولاية أفريقية الرومانية ، تكون قد قطعت مسافة تزيد على ألفى كيلو متر، ثم تقطع مسافة أخرى طولها حوالى ألف وخمسمائة كيلو متر من هناك حتى مضيق جبل طارق^(١). وإذا ما طاب السفر بحيث يقطع مسافة طولها عشرين كيلو متراً فى اليوم، فربما استغرقت الرحلة سنة تقريباً . ولا بد أن تتم الرحلة دون أن تتوقف يوماً ، أو تكون هناك خيول مريضة ، أو موظفون ، أو أعداء خطرون (يعيقون التقدم) . وكان لابد للرحلة أن تأخذك عبر بلاد كثيرة مختلفة وبيئات عدة متنوعة . وفى الشطر الشرقى من الرحلة كان لا بد من ملازمة الشاطئ على امتداد الأرض المنبسطة على الساحل المصرى. وفى قورينه (بليبيا الحالية) تكاد جبال منطقة «الجبل الأخضر» تصل فى انحدارها إلى البحر المتوسط، وتسقط عليها كمية من الأمطار تكفى لوجود الاستقرار الدائم، لا على الساحل فحسب ، وإنما فى الوديان الجنوبية التى تتخلل سلسلة الجبال أيضاً. وهناك ازدهرت زراعات منطقة البحر المتوسط من القمح والكروم والزيتون.

فإذا ما استمر المسافر ماضياً صوب الغرب دار حول خليج سرت . وهو تغيير فى الاتجاه مسافة طويلة . وتأتى الصحراء نازلة إلى البحر وربما لا يمرُّ المسافر على مدى شهر بشيء من الحدائق والحقول والقرى والمدن. وحتى طرابلس تريبوليتانيا Tripolitania لا يصل إلى الأراضى المستقرة مرة ثانية حيث الأرض المزروعة والمراعى ومدينة طرابلس

«وهى مدينة بحرية كبيرة، يحيط بها سور من الحجارة والحجر الجبرى، وغنية بالفواكه، والكمثرى والتفاح ومنتجات الألبان والعسل»^(٢). وإلى الغرب من طرابلس كان الطريق يؤدي إلى أراضى الاستقرار فى تونس الحالية. وكانت الولاية الجنوبية تسمى Africa Byzacena أفريقيا بيزاكيئا، والمقاطعة الشمالية المعروفة باسم Africa Zeugitania أفريقيا زويجتانيا ، وقد عرفت كلتاهما فى العربية بعد ذلك باسم «أفريقية» ، أو «إفريقية» ، حسبما كانوا يفضلون كتابتها . وكانت ولايتا «بيزاكيئا» و«زويجتانيا» فى العصر الرومانى المتأخر قلب الحكم الرومانى. وهناك كان القمح والنبذ والزيتون والفخار تُنتج ليشكل الصادرات الرئيسية ، وهناك كانت المدن والبلدات الريفية عديدة جداً . وكانت قرطاج ، عند الركن الشمالى الشرقى فى ولاية أفريقيا البروقنصلية ، هى العاصمة الحقيقية ، لا لتونس فحسب وإنما لشمال أفريقيا الرومانية كلها . إذ كانت عاصمة هانيبال والقرطاجيين القدماء قد صارت عاصمة رومانية وبقيت المركز السياسى الرئيسى فى أواخر العصور القديمة .

ويستمر الطريق الرئيسى غرب قرطاج ليتوغل فى أرض الداخل على امتداد الهضبة العليا، الواقعة بين البحر والجبال الساحلية فى الشمال وبدايات الصحراء فى الجنوب، بحيث تصنع نوعاً من الممر الطبيعى بين الشرق والغرب. وعلى الساحل كانت هناك موانئ صغيرة بُنيت حول مصبات الوديان ومراسى محمية. وفى الأراضى الداخلية، كانت الهضبة موطناً للبدو. وفى نهاية المطاف كان لا بد أن يصل المسافر إلى المدينتين التوأم سبته وطنجة اللتين تطلان عبر مضيق جبل طارق إلى إسبانيا، الغنية المغربية . وفيما وراء ذلك ، إلى الجنوب من طنجة ، تقع السهول المنبسطة وفيرة المياه على ساحل المحيط الأطلسى فى المغرب الحالية وأخيراً جبال أطلس المرتفعة، التى تقع على حدود الصحراء من ناحية الشمال.

كانت شمال أفريقيا واحدة من أغنى المناطق فى العالم الرومانى. ويمكن أن نرى بعضاً من الثروة فى الأطلال الكبيرة لمدينة مثل دليلة Volubilis فى المغرب، تمجاد Timgad فى الجزائر ، ومدينة ليبتيس ماجنا Leptis Magna فى ليبيا ، التى تعد من بين أهم المواقع الكلاسيكية وأكثرها تأثيراً داخل حدود الإمبراطورية الرومانية . كانت المدن

الكبيرة الأنيقة تعتمد على قاعدة من الموارد الزراعية القوية جيدة الإدارة. إذ كانت الأراضي الخصيبة بطبيعتها تزرع ، وكانت الأراضي القفر الجرداء ، التي لا تساعد على العيش ، مثل وديان قورينة على مداخل الصحراء ، تستزرع عن طريق الري الواعي والتخصيب المستمر. وكانت الغلال تنمو ، ولكن كانت زراعة الزيتون هي التي تميز زراعة المنطقة قبل غيرها. كما كان تصدير زيت الزيتون ، إلى روما وجميع أنحاء حوض المتوسط، مصدراً رئيسياً للثروة . وكان زيت الزيتون ينقل من شمال أفريقيا في قوارير أسطوانية طويلة، صممت بحيث يمكن رصها في عنابر السفن . كذلك كان الفخارون في شمال أفريقيا ينتجون كميات ضخمة من أنوات المائدة الفاخرة ، الأدوات الأفريقية الحمراء، التي كانت ترمص بعناية ، مثل الأمفورا ، في عنابر البضائع بالسفن. وقد باتت الأواني والأطباق الحمراء اللامعة البراقة أكثر أنواع الفخار الفاخر شيوعاً وأكثرها توزيعاً في عالم البحر المتوسط أواخر العصور القديمة .

وحتى بدايات القرن الخامس الميلادي ، كانت شمال أفريقيا قد باتت منطقة مزدهرة في الإمبراطورية الرومانية، كما كانت مندمجة تماماً في النظام الإمبراطوري، وكانت الحكومة الرومانية تأخذ الكثير من فائض الإنتاج الزراعي على سبيل الضرائب. وقد اعتمد رخاء البلاد على روابطها عبر البحر المتوسط ، حيث كانت الأسواق لصادراتها موجودة . وكانت مدنها رومانية بشكل متمايز مثل أية مدينة في إيطاليا ، أو بلاد الغال (فرنسا الحالية) أو إسبانيا، وفيها ساحاتها العامة أو أسواقها ، ومعابدها ، وحماماتها، ومسارحها . وكانت هناك ثقافة لاتينية راقية متطورة كما انتشرت بها المسيحية مبكراً . ومع بداية القرن الخامس كانت شمال أفريقيا قد صارت راسخة في مسيحيتها شأن أي منطقة أخرى في الإمبراطورية. كانت المدن والريف مزدانة بالكنايس الجميلة كما أن سان أوغسطين (ت ٤٣٠م) أهم شخصية فكرية في ذلك العصر ، كان أسقف مدينة هيبو Hippo الصغيرة في شمال أفريقيا .

وفي القرن الخامس ، كانت شمال أفريقيا، مثل معظم مناطق الإمبراطورية الرومانية الغربية ، قد ضاعت من السيطرة الإمبراطورية. فالقبائل الجرمانية، التي عُرفت باسم القانдал Vandals ، عبروا مضيق جبل طارق من إسبانيا، وفيما بين

سنة ٤٢٩م وسنة ٤٤٠م كانوا قد غزوا جميع الولايات الرومانية . وقد أعطى القانдал اللغة الإنجليزية أكثر الكلمات شيوعاً في الدلالة على العنف والدمار. وفي الحقيقة ، لا يبدو أن القانдал قد ألحقوا ضرراً أكبر مما ألحقه الغزاة الجرمان الآخرون بالعالم الروماني، وقد سعوا إلى الاستيلاء على البنى الرومانية والأساليب الرومانية في العمل واستخدموها في خدمة أغراضهم من عدة جوانب. وقد بقيت مملكة القانдал حتى سنة ٥٢٢م عندما أرسل الإمبراطور جستنيان حملة عسكرية نجحت في وضع نهاية لسلطتهم وعادت بالمنطقة ثانية إلى الحكم الإمبراطوري . وكانت شمال أفريقيا في النصف الثاني من القرن السادس وأوائل القرن السابع، على أية حال، مختلفة من جوانب كثيرة عنها في القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد ، عندما كانت المدن الكبرى قد شيدت والمناطق الزراعية قد وصلت إلى أعظم مدى. وكان أحد الاختلافات المهمة هو أن لغة الإدارة الرومانية التي أعيد إحيائها كانت هي اللغة اليونانية، وهي لغة غربية تماماً لم تستخدم على نطاق واسع في المنطقة أبداً؛ ولابد أنها جعلت السلطات الإمبراطورية تبدو في صورة الغزاة الأجانب أكثر منها في صورة الذين يعيدون بناء الأمجاد القديمة(*) . كذلك كانت هناك توترات دينية مستمرة بين المسيحيين في شمال أفريقيا والسلطات الإمبراطورية في القسطنطينية ، ولجأ كل من جستنيان في القرن السادس وهرقل في القرن السابع إلى الاضطهاد لفرض الانصياع لآرائهما اللاهوتية(٢) . وكما كان الحال في الهلال الخصيب، لا بد أن كثيراً من نصارى شمال أفريقيا كانوا يرفضون السلطات البيزنطية ولا يتقنون بها.

وكان الكثير من أراضي المغرب وغرب الجزائر حالياً، باستثناء مدينة سبته الحصينة، حيث أعاد جستنيان بناء الأسوار وشيد كنيسة جديدة ، كانت قد صارت جزءاً خارجاً عن الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث الميلادي. وفي المناطق التي

(*) يبدو أن المؤلف نسي أن سكان شمال أفريقيا لم يكونوا من الرومان ، وأن حاجز اللغة كان موجوداً أيضاً عندما كانت الإدارة الرومانية تستخدم اللغة اللاتينية، وعندما كان القانдал يستخدمون لغتهم الجرمانية (٤٤٠-٥٢٢م) في الإدارة. أما الأمجاد القديمة التي يتحدث عنها فلم تكن تخص سكان المنطقة، وإنما كانت تخص روما والرومان . (المترجم)

بقيت بالفعل تحت السيطرة الإمبراطورية ، كان الحضر والريف مختلفين للغاية . فقد كانت مراكز الكثير من المدن الكبرى خاوية على عروشها . فقد نال الدمار من تمجاد ، التي كانت مدينة صاخبة داخل الأراضي الجزائرية وبها المباني الكلاسيكية الباهرة ، على أيدي أبناء القبائل المحلية «حتى لا يكون للرومان عذر لى يقتربوا منا ثانية»^(٤) . كانت الآثار الرئيسية فى قضاء أى مدينة القلعة البيزنطية ، التي كانت تبنى فى العادة من أنقاض الساحة العامة ، وواحدة أو أكثر من كنائس القرن الخامس أو القرن السادس الميلادى ، وغالباً ما يكون بناؤها فى مناطق الضواحي الحضرية بعيداً عن وسط المدينة القديمة . وكانت المدن قد صارت قرى ، وبها كنائس أبرشية ، وحامية صغيرة ، وجابى الضرائب غير المستديم أو جامع الإيجار دون أن تكون هناك هيراركية محلية ، أو شبكة من الخدمات أو هيكل إدارى . وحتى فى العاصمة قرطاج ، حيث قامت بعض المباني الجديدة بعد الاسترداد البيزنطى ، كانت الأحياء الجديدة مليئة بالفوضى والأكواخ فى بواكير القرن السابع الميلادى . ومنذ منتصف القرن السابع عانت المدينة ما وصف بأنه «نوبان ضخمة» - فقد تجمعت الأكواخ فى ساحة الألعاب (السيرك) وصار الميناء المستدير مهجوراً^(٥) .

كانت ولاية أفريقيا ، أكثر من أية ولاية أخرى فى الإمبراطورية ، تعتمد على تجارة البحر المتوسط والنظام الضريبى . ذلك أن الغلال وزيت الزيتون المنتج فى هذه الولاية كان يمون مدينة روما . ومعظم هذا الزيت كان يؤخذ ضريبة ، ولكن من الواضح أن السفن التى كانت تأخذ الضريبة العينية هذه كانت تنقل أيضاً المنتجات التى تنتجها ولاية أفريقيا للبيع . وقد انكسر النظام الضريبى بسبب الغزو القانداالى لقرطاج سنة ٤٣٩م ، وبدأ حجم الصادرات الأفريقية يضمحل على نحو قاس وبدأت المنتجات الأفريقية تختفى من أسواق البحر المتوسط . ولم يؤد الاسترداد البيزنطى للولاية سنة ٥٣٣م إلى قلب هذا الاتجاه الهابط إلى الاتجاه المعاكس . إذ كانت أسواق غرب المتوسط آنذاك فقيرة بالقدرة الذى يحول بينها وبين استيراد الكثير ، على حين كان شرق المتوسط قادراً على البقاء دون منتجات ولاية أفريقيا . وبحلول سنة ٧٠٠م لم يعد الفخار الأفريقى الأحمر يُصنع . فقد باتت ولاية أفريقيا هامشية بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية^(٦) .

وهذا ما يفسر ، أكثر من أى شىء آخر، فشل القوات البيزنطية فى شمال أفريقيا فى صد القوات العربية: ففى النهاية لم تكن السلطات الإمبراطورية لتهتم بالقدر الكافى(*) .

وربما كان شمال أفريقيا تحت الحكم البيزنطى أيضا قد ضعف بسبب الأحداث السياسية. ففى سنة ٦١٠م كان الحاكم هرقل قد استخدم الجيش فى الولاية للإطاحة بالإمبراطور فوقاس وانتزع لنفسه اللقب الإمبراطورى . ثم صار متورطا فى الصراع من أجل البقاء فى مواجهة الغزو الفارسى. وليست هناك أية علامة على أن القوات التى كان قد سحبها من الولاية ، والتى ربما كانت أفضل القوات فى المنطقة ، قد حلت محلها قوات أخرى.

وقد عانت مناطق الريف بقدر ما عانت المدن . إذ إن الحفائر الأثرية توحى بأنه قد تم نزوح عام من المواقع المستقرة . فعلى سبيل المثال، فى المنطقة المحيطة بمدينة Segermes القديمة (قرب الحمامات الحديثة) كان هناك ثلاثة وثمانون موطناً مستقراً فى منتصف القرن السادس. وفى غضون المائة وخمسين سنة التالية كان سكان نصف هذه الأماكن قد نزحوا . وفى سنة ٦٠٠م كانت مدينة سجرميس نفسها قد باتت مهجورة إلى حد كبير ومع حلول الشطر الأول من القرن السابع الميلادى، قبل الفتح العربى مباشرة ، لم يكن باقياً سوى ثلاثة مواضع، كلها فى مواقع يمكن الدفاع عنها بقوة . ولم يحدث هذا الانكماش فى الاستقرار فى منطقة حدودية نائية وإنما فى قلب ولاية أفريقيا البروقنصلية الزراعية ، على مسافة خمسين كيلو متراً فقط من العاصمة ومركز الحكم فى قرطاج^(٧).

(*) من الأمور اللافتة للنظر أن المؤلف يبحث فى كل حالة من الأسباب التى أدت إلى فشل القوات المحلية فى التصدى للمسلمين ؛ وهو يسوق أسباباً صحيحة لتفسير هذا، ولكنه يتجاهل تماماً الأسباب المتعلقة بالمسلمين الفاتحين وكأنه يحاول أن يجردهم من أى فضل. ومن ناحية أخرى، فإن السبب فى حالة شمال أفريقيا ؛ أى عدم الاهتمام الكافى من جانب السلطات البيزنطية، يبدو واضحاً متهافناً . فقد هُزم البيزنطيون فى بلاد الشام ومصر من قبل على الرغم من شدة اهتمامهم. (المترجم)

ويبدو أن الاستقرار في ولاية أفريقيا البروقنصلية قد وصل ذروته في منتصف القرن السادس الميلادي ؛ ولكن التدهور كان قد بدأ قبل ذلك في أماكن أخرى. ففي إقليم طرابلس Tripolitania كان تفاقم انعدام الأمن قد أدى إلى النزوح من عدة مواقع منذ نهاية القرن الخامس ، وهناك دليل على تربية الحيوانات بطريقة شبه بدوية على حساب الزراعة المستقرة في أفريقيا بيزاكيما في الفترة نفسها . أما في تلك المواقع التي بقيت فعلاً ، كانت هناك حركة من القرى المفتوحة إلى الجماعات التي تعتمد على الجسور (ومفردها جَسْر، وهي لهجة عن العربية الفصحى قصر/ قصور) وهي مباني مزرعة محصنة ، عبارة عن شكل معماري استمر ببعض التنوعات من القرن الثالث الميلادي حتى ما بعد الفتح الإسلامي^(٨).

وليست لدينا، بطبيعة الحال، أية إحصائيات عن السكان ، ولامعلومات اقتصادية راسخة، ولكن نتائج المسوح الأثرية وبعض الحفريات تشي بأن الغزاة المسلمين الأوائل وجدوا أرضاً كانت نادرة السكان المستقرين منهم على الأقل، وكانت مدنها قد نالها الخراب بحيث باثت أشبه بالقرى الحصينة في حجمها ومظهرها ، بعد أن كانت مدناً واسعة بهية.

وكانت تسكن هذه الأرض ثلاث مجموعات مختلفة من الناس . ولاشك في أنه كان يوجد جنود وإداريون يتحدثون اليونانية في قرطاج وغيرها من مدن الحاميات ، ولكن ليس هناك سبب يدعونا إلى افتراض أن أعدادهم كانت كبيرة جداً . وكان يعيش معهم، في تونس الحالية، الأفارقة الذين ربما كانوا من سلالة القرطاجيين، وربما كانوا لا يزالون يتحدثون يونانية إلى جانب اللاتينية. وفي زمن الفتح الإسلامي كانوا سكاناً مسيحيين مستقرين ليس لهم أي تراث في النشاط العسكري . ويصفهم ابن عبد الحكم بأنهم «... خدم للروم على صلح يؤذونه إلى من غلب على بلادهم...»^{(٩)(١٠)}.

* النص من ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٣٩ .

وعلى أية حال ، كانت الغالبية العظمى من السكان من البربر . والإسم «بربر» مشتق طبعاً من مصطلح برابرة Barbari (أى الأجانب) الذى استخدمه الرومان لوصف هؤلاء الناس، ولكن الكلمة مرت إلى اللغة العربية «بربر» . ويمتد نطاق سكن البربر من حدود وادى النيل فى الشرق حتى مراکش فى الغرب. ولم يكونوا متوحدين سياسياً بأى معنى وكانوا ينتمون إلى عدد محير من القبائل المختلفة ، ولكنهم كانوا متحدّين فى لغة مشتركة أو عائلة لغوية واحدة ، متميزة تماماً عن كل من اللغة اللاتينية واللغة العربية. ونادراً ما كانت الحكايات أو النصوص الإدارية تكتب بهذه اللغة قبل القرن العشرين وكان على البربر الراغبين فى المشاركة فى الحكومة أو التعليم أن يتعلموا اللاتينية أو اليونانية فى أثناء الفترة الرومانية ، أو اللغة العربية بعد الفتح الإسلامى .

ويمكن وصف المجتمع البربرى بأنه مجتمع قبلى، بيد أنه كانت هناك أساليب حياة بربرية مختلفة كثيرة . فبعض البربر ، وأكثرهم فى المناطق الجبلية، يعيشون فى قرى قبلية، ويمارسون الزراعة . وكان آخرون من الرّحل ، ينقلون قطعانهم إلى أعلى الجبال فى شهور الصيف، وينزلونها فى الشتاء . وكان هناك آخرون من «البدو الخالص» يجوبون الصحراء الشاسعة فى إقليم الصحراء الجنوبية . وتقدم المصادر الكلاسيكية أسماء الكثير من القبائل البربرية فى شمال أفريقيا، ويعد ذلك بقرون قليلة، أمدتنا المصادر العربية بهذه الأسماء . وحتى مع التسليم بالاختلافات فى اللغة والخط فإنه يصعب تحقيق الكثير من الاستمرارية الحقيقية، ويبدو أن الفترة من القرن السادس الميلادى إلى القرن الثامن الميلادى قد شهدت حركة واسعة النطاق بين البربر كما شهدت اختفاء بعض الجماعات القبلية وظهور غيرها . وبصفة عامة، يبدو أن البربر انوا يتحركون من الشرق إلى الغرب فى القرن السابق على الفتوح العربية . وربما تكون هذه الحقيقة منعكسة فى الطريقة التى حكّت بها المصادر العربية اللاحقة عن أن الجماعات البربرية الرئيسية جاءت من شبه الجزيرة العربية أو من فلسطين^(١٠). وليس هناك دليل حقيقى على هذا ؛ والواقع أن حقيقة أن اللغة البربرية ليست لغة سامية توحى بأن هذا أمر غير ممكن ، ولكنها يمكن أن تكون انعكاساً لهذه الهجرات الغربية .

فقد تحركت قبيلة لواتة من منطقة برقة إلى منطقة طرابلس في أثناء القرن السادس الميلادي^(١١)، وطردت الحاكم البيزنطي خارج ليبيا سنة ٥٤٢م^(١٢). وتبعته قبيلة هواره ، وهي مجموعة بربرية أخرى تحركت من قورينه تجاه المغرب ، وعملية «التغريبة» ، أي الرحيل غرباً ، والمستخدم للدلالة على حركة القبائل العربية في القرن الحادي عشر الميلادي/الخامس الهجري، يبدو أنها كانت لها سوابق بين البربر في القرن السادس وبواكير القرن السابع الميلاديين.

ويبدو أن فتح شمال أفريقيا قد بدأ باعتباره استمراراً طبيعياً لفتح مصر. وتأتي معلوماتنا عن الغارات الأولى كلها من المؤرخ المصري عبد الرحمن بن عبد الحكم، الذي استخدمت رواياته جميع المصادر اللاحقة . وربما يكون قد حدث في صيف سنة ٦٤٢م، بعد الاستسلام النهائي للإسكندرية بوقت قصير للغاية، أن قاد عمرو بن العاص قواته صوب الغرب^(١٣). ولا يبدو أن الرحلة كانت رحلة صعبة ويبدو أن الجيش كان يتحرك بسرعة دون مواجهة أية مقاومة حقيقية حتى وصل إلى برقة . وانسحبت الحامية البيزنطية ، يصبها بعض ملاك الأراضي المحليين، أمامهم وتراجعت إلى ميناء توكرا الساحلي (Tauchir القديمة) ومن هناك رحلوا فيما بعد عن طريق البحر. ويبدو أن معظم سكان المدينة كانوا من قبيلة لواتة^(١٤)، وعقد عمرو بن العاص معهم ، وليس مع السلطات البيزنطية ، الصلح في مقابل الجزية ومقدارها ثلاثة عشر ألف دينار. وقيل إن المعاهدة تضمنت الشرط المربك إلى حد ما والغريب الذي يقضى بأن الناس يمكنهم بيع بناتهم وأولادهم لدفع أموال الجزية^(*). وربما يشير هذا إلى الاستغلال الهائل البربر واستخدامهم عبيداً وهو ما كان من خصائص القرن الأول لوجود المسلمين في شمال أفريقيا . وتم الاتفاق أيضاً على ألا يدخل أحد من جباة الضرائب المسلمين إلى المنطقة وأن أهل برقة سوف يقومون بأنفسهم بأخذ الجزية إلى مصر حين يتم جمعها^(٥).

(*) نص ما ذكره ابن عبد الحكم، (ص ٢٢٩): «... كتب عمرو بن العاص على لواتة من البربر في شرطه عليهم، إن عليكم أن تبيعوا أبنائكم وبناتكم فيما عليكم من الجزية». (المترجم)

ثم قاد عمرو بن العاص رجاله حول خليج سرت، ماراً، بجوار تكرا، إلى طرابلس. وهناك واجهوا مقاومة أكثر جدية . وصمدت الحامية البيزنطية على مدى شهر . ويحكى ابن عبد الحكم كيف جاءت النهاية فى واحدة من تلك الحكايات التى تضىء الحيوية على السرديات العربية دون أن تشجع أى اعتقاد فى صدقها . وتحكى القصة أنه فى أحد الأيام ذهب واحد من العرب الذين يحاصرون المدينة للصيد ومعه سبعة من رفاقه. وداروا حول غرب المدينة، وصاروا منعزلين عن بقية الجيش وإذ غلب عليهم الحر قرروا الرجوع على امتداد ساحل البحر. وكان البحر قد وصل إلى أسوار المدينة وكانت سفن الروم مشدودة فى مرساها إلى بيوتهم . ولاحظ العربى ورفاقه أن البحر قد انحسر قليلاً عن الأسوار وأن هناك مسافة بين الماء والأسوار. ودخلوا عن طريقها حتى وصلوا إلى الكنيسة الرئيسية ، ثم هلّوا مكبرين . وانتاب الذعر الرومان وهربوا إلى سفنهم بما استطاعوا حمله ، وفردوا الأشرعة ثم هربوا . وإذ رأى عمرو بن العاص هذه الفوضى ، قاد جيشه إلى داخل المدينة ، التى تم نهبها حينذاك^(١٥). وليس هناك دليل على احتلال العرب للمدينة، فى هذه المرحلة وربما عادت المدينة إلى السيطرة البيزنطية عندما رحلت قوات المسلمين .

وسرعان ما رحل عمرو بن العاص ثانية ليقود رجاله إلى سبرته (Sabra) وهنا كان السكان المحليون الذين تصوروا أن عمرو صار بعيداً ومشغولاً بحصار طرابلس قد أسقطوا دفاعاتهم وتم الاستيلاء على المدينة ونهبت . وبعد هذا مباشرة سقطت لابلا ليبتس ماجنا فى أيدي العرب . ثم عاد عمرو بن العاص إلى مصر ، ولاشك فى أنه كان سعيداً بالغنائم التى جمعها هو وأصحابه . كانت غارة كبرى ولكنها لم تكن فتحاً . ولم يترك عمرو بن العاص أى وجود سوى فى برقة عندما فرض الضرائب وعين والياً ، هو عقبة بن نافع الفهري، الذى قيض له أن يصبح بطل الفتوح الإسلامية فى شمال أفريقيا، والذى قدر لاسمه، مثل خالد بن الوليد فى العراق والشام، أن يجرى فى التاريخ والأسطورة باعتباره مثلاً للقيادة العسكرية والجرأة البطولية.

وكان عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر سنة ٦٤٥م (أنظر ما سبق) يعنى أنه كانت هناك فترة توقف فى العمليات العربية . ولم يستمر هذا التوقف طويلاً. ففي سنة ٦٤٧م أرسل الخليفة عثمان بن عفان جيشاً جديداً إلى مصر للمساعدة فى الحملة على أفريقيا . وثمة قائمة بتكوين الجيش توحى بأن عدده قد تراوح بين خمسة آلاف وعشرة آلاف، كان معظمهم مجندين ، مثل غالبية العرب الذين كانوا قد فتحوا مصر فى الأصل ، من قبائل جنوب شبه الجزيرة العربية^(١٦). وكانوا تحت قيادة والى مصر الجديد عبدالله بن سعد بن أبى السرح. وتحركت الحملة بسرعة على طول ساحل شمال أفريقيا فى جنوب تونس الحالية. ولا يبدو أنهم قد ضيعوا وقتاً فى إعادة الاستيلاء على طرابلس. وكانت القوات البيزنطية فى المنطقة تحت قيادة جريجورى حاكم أفريقية. ويبدو أنه كان قد قرر أن يتحرك من العاصمة التقليدية قرطاج (قرطاجنة) وتمركز فى سبيلته جنوب تونس ، بحيث يمكن أن يتقابل مع الحلفاء البربر ويواجه الغزاة بقدر أكبر من الفعالية. وتقابل الجيشان خارج المدينة. ولحقت بالبيزنطيين هزيمة ثقيلة ، ووفقاً للمصادر العربية ، قتل جريجورى فى المعركة ، على الرغم من أنه وفقاً لثيوفانس وغيره من المصادر المسيحية ، تقول الرواية إنه هرب وكافأه الإمبراطور فيما بعد .

كانت هذه هى المواجهة الرئيسية الوحيدة بين القوات الإسلامية والقوات البيزنطية فى شمال أفريقيا . ومن المهم أن نلاحظ أن جريجورى لم يبذل أى محاولة لاستخدام الحصوم البيزنطية المشيدة فى المنطقة، ولكنه اختار مواجهة العدو فى ميدان قتال مفتوح . وبعد هذه الهزيمة يبدو أن ما بقى من الجيش الإمبراطورى تقهقر إلى قرطاج وترك العرب والبربر يتقاتلون من أجل السيطرة على الريف.

كان حجم الغنائم مهولاً، وكما كان يحدث غالباً، خصصت المصادر العربية مساحة كبيرة لتخبرنا عن حجم المغام وكيفية تقسيمها تساوى ما خصصته للحديث عن بقية الحملة عموماً. (فعلى سبيل المثال ، تلقى الفرسان ثلاثة آلاف دينار ذهباً، ألف وخمسمائة للحصان، وألف وخمسمائة للرجل. أما الجنود المشاة فأخذ كل منهم ألف وخمسمائة دينار ذهبى) .

وعلى مدى ما يقرب من عشرين سنة لم تقم هذه القوات العربية بأية محاولة ممتدة للقيام بالمزيد من الفتوح الدائمة فى شمال أفريقيا . ومن المحتمل أن برقة وقورينه بقيتا تحت الحكم الإسلامى فى هذه الفترة، ولكن يبدو أن هذا كان حد التوسع . وكان يتم شن بعض الغارات من حين لآخر يقوم بها القادة العرب - المصريون مستخدمين القوات المصرية داخل منطقة طرابلس وفزان ولكن الجيوش كانت تعود دائماً إلى قواعدها بعد الحصول على أكبر قدر من الغنائم .

وفى أثناء تلك الفترة الطويلة ، يبدو أن عقبة بن نافع فقط هو الذى كانت لديه رؤية لعمل شيء أكبر من مجرد شن الغارات قصيرة المدى. وفى وسط الجزائر ، حيث جبال الشمال تنبسط تدريجياً حتى تقابل أطراف الصحراء، تقع مدينة سيدى عقبة ، التى بنيت حول مقام قديم، ولا يزال الزوار يقصدونها، أملين فى الحصول على البركة التى يمكن أن تتألم من جراء قربهم للضريح وصاحبه . وعقبة هو «عقبة بن نافع الفهري» ، الرجل الذى يرجع إليه الفضل فى السجل التاريخى وفى الخيال الشعبى فى جلب الإسلام والحكم الإسلامى إلى بلاد المغرب. وهو الوحيد بين القادة المسلمين الكبار الأوائل الذى لا يزال ضريحه مبعلاً بهذه الطريقة. وكان من صحابة النبى أيضاً ، حتى ولو كان قد قابله وهو لا يزال طفلاً صغيراً . وقد أعطاه هذا هيبة كبيرة فى عيون الأجيال التالية. وقد وُلد عقبة فى مكة قرب نهاية حياة النبى، وكان من قبيلة قريش التى ينتمى إليها محمد (عليه الصلاة والسلام) ، من بطن آخر هم فهر . وكانت خلفيته بانتمائه إلى الأرستقراطية الحضرية فى مكة نموذجاً لانتحاء الرجال الذين شكلوا النخبة فى الدولة الإسلامية الباكرة وقادوا جيوشها . وكان الوحيد بين الصحابة الذى لعب دوراً مهماً فى فتح الجزائر والمغرب ، ويمكن أن يُقال إنه جلب بركة النبى نفسه إلى هذا الجزء من شمال أفريقيا. وبالإضافة إلى ذلك ، كان هو العضو المهم الوحيد من قريش الذى حارب هناك، وهو ما أسهم أيضاً فى مكائته وسمعته . ولكى يتوج هذا كله، صار عقبة شهيداً عندما واجه وعصيته الصغيرة من المحاربين جيشاً أكبر كثيراً من البربر فى سنة ٦٨٢م واستشهد هو نفسه.

وكان عقبة يدين بأول صعود له إلى مراكز السلطة إلى حقيقة أن خاله لأمه كان هو عمرو بن العاص ، فاتح مصر. وكان طبيعياً أن يثق عمرو في ابن أخته القادر الطموح ويعهد إليه بالأموار المهمة. وسرعان ما أظهر عقبة شهيته للمغامرة . وقد انضم إلى أول حملة يقودها عمرو بن العاص إلى برقة سنة ٦٤٢م وميز نفسه بقيادة جماعة من الغزاة إلى واحة زويلة ، إلى الجنوب من طرابلس . ونسمع عنه مغيراً في غدامس في عمق الصحراء الليبية ، وربما ، وهو أمر أكثر أهمية، تمكن من إقامة علاقات مع بربر لواته في منطقة طرابلس^(١٧). ويقول الجغرافي العربي ياقوت إن عقبة كان قد بقي في منطقة برقة وزويلة منذ أيام عمرو بن العاص وجمع حوله البربر الذين اعتنقوا الإسلام^(١٨).

في سنة ٦٧٠م عين الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان عقبة والياً على البلاد الواقعة تحت الحكم الإسلامي في شمال أفريقيا تابعاً لوالى مصر^(١٩). وقرر القيام بحملة لفتح «إفريقية» (وهي تونس الحديثة تقريباً) ويثبت الحكم الإسلامي بها. وبخبرته الطويلة في المنطقة، كان لابد لعقبة أن يعرف أنها لحظة مواتية ليضرب ضربته . إذ كانت الإدارة البيزنطية تعاني الضعف آنذاك، وكان العرب يهاجمون القسطنطينية نفسها وكان مطلوباً توفير كافة موارد الإمبراطورية للدفاع عنها . ويقدر خطورة هذا الأمر ، اندلع نزاع داخلي كان قد قوض الإمبراطورية إلى هذا الحد من قبل. فقد كان الإمبراطور قنسطنطين قد واجه مدعياً يطالب بعرشه في صقلية واضطر إلى سحب قواته لقتاله . وعلى أية حال، لم يكن الروم يشكلون تحدياً حقيقياً : إذ كان الغزو أو التصرف مع البربر هو الأمر الحاسم .

ووصل عقبة إلى جنوب تونس ومعه جيش غالبية من عرب مصر . وقيل إنه كان معه عشرة آلاف من الفرسان العرب وتضخمت هذه الأعداد بانضمام البربر إليهم ، وربما كان معظمهم من قبيلة لواته التي كانت قد اعتنقت الإسلام بالفعل . وكان هدفه الأول أن يؤسس قاعدة عسكرية في قلب إفريقية (تونس) . وقد روى لنا قصة تأسيس مدينة القيروان، الجغرافي ياقوت الذي عاش في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي.

«تقع فى الإقليم الثالث . وهى مدينة عظيمة بأفريقية ، غربت دهرًا وليس بالغرب مدينة أجل منها إلى أن قدمت العرب إلى أفريقية ، وأخربت البلاد فانتقل أهلها عنها ، فليس بها اليوم إلا صعلوك لا يطعم فيه، وهى مدينة مصرت فى الإسلام فى أيام معاوية رضى الله عنه ، وكان من حديث تمصيرها ما ذكره جماعة كثيرة من أهل السير ، قالوا : عزل معاوية بن أبى سفيان بن حُديج الكندى عن أفريقية واقتصر به على ولاية مصر وولى أفريقية عقبة بن نافع الفهري ، وكان مقيما بنواحي برقة وزويلة منذ ولاية عمرو بن العاص له ، فجمع إليه من أسلم من البربر وضمهم إلى الجيش الوارد من قبل معاوية، وكان جيش معاوية عشرة آلاف، وسار إلى أفريقية ، ونازل مُدنها فافتتحها عنوة ووضع السيف فى أهلها وأسلم على يده خلق من البربر ، وفشا فيهم دين الله حتى اتصل ببلاد السودان ، فجمع عقبة حينئذ أصحابه وقال: إن أهل هذه البلاد قوم لا خلاق لهم إذا عضهم السيف أسلموا وإذا رجع المسلمون عنهم عادوا ودينهم ، ولست أرى نزول المسلمين بين أظهرهم رأيا ، وقد رأيت أن ابنى ههنا مدينة يسكنها المسلمون ، فاستصوبوا رأيه فجاؤوا إلى موضع القيروان ، وهى فى طرف البر وهى أجمة عظيمة وغيضة لا يشقها الحيات من تشابك أشجارها ، وقال : إنما اخترت هذا الموضع لبعده من البحر لئلا تطرقها مراكب الروم فتهلكها وهى فى وسط البلاد ، ثم أمر أصحابه بالبناء فقالوا : هذه غياض كثيرة السباع والهوام فنخاف على أنفسنا هنا، وكان عقبة مستجاب الدعوة فجمع من كان فى عسكره من الصحابة وكانوا ثمانية عشر ونادى: أيتها الحشرات والسباع نحن أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، فارتحلوا عنا فإننا نازلون فمن وجدناه بعد قتلناه ، فنظر الناس يومئذ إلى أمر هائل ، كان السبع يحمل أشباله والذئب أجراؤه والحية تحمل أولادها وهم خارجون أسراباً أسراباً فحمل ذلك كثيرا من البربر على الإسلام ، ثم اختط دارا للإمارة واختط الناس حوله وأقاموا بعد ذلك أربعين عاما لا يرون فيها حية ولا عقربا ، واختط جامعها فتحير فى قبلته فبقى مهموما فبات ليلة فسمع قائلا يقول : فى غد أدخل الجامع فإنك تسمع تكبيرا فاتبعه فأتى موضع انقطع الصوت فهناك القبلة التى رضىها الله للمسلمين

بهذه الأرض ، فلما أصبح سمع الصوت ووضع القبلة واقتدى بها بقية المساجد وعمر الناس المدينة فاستقامت فى سنة ٥٥ هـ . وقد قتل عقبة فى سنة ٦٣ هـ ...» (*) .

ومع كل ما تحمله أسطورة التأسيس هذه من زخارف إعجازية، فإنها تكشف مع ذلك عن الكثير من دوافع تأسيس المدينة. فقد كان الهدف أن تصبح حامية دائمة للمسلمين فى المنطقة. وقد تم اختيار الموقع لأنه لم تكن هناك مبانى أقدم . كما أن الروايات المختلفة تؤكد أهمية الرعى فى المنطقة^(٢١). وكانت بعيدة تماماً عن الساحل . وكان الروم لا يزالون يشكلون تهديداً من البحر، فضلاً عن البر . وكان تأسيس المدينة غاية فى البساطة . ولم تتطلب سوى وضع مخطط المسجد ، وبيت الإمارة وقطع الأرض التى يبني الناس بيوتهم فوقها . وليس هناك دليل على أن السلطات العربية قد شيدت الأسواق ، والحمامات ، والفنادق أو أى مبانى عامة أخرى، وعلى الرغم من بداية القيروان المتواضعة ، فإنها ازدهرت . وكانت وحدها من بين جميع المدن العسكرية التى شيدها العرب فى أعقاب الفتوح التى بقيت مأهولة بالسكان على الموقع نفسه حتى اليوم: ففي العراق صارت البصرة العتيقة أطلالاً لا تكاد تُرى على حافة الصحراء، واختفت الكوفة القديمة، والفسطاط فى مصر موقع أثري مهجور ومقلب للقمامة ومرو فى خراسان ساحة شاسعة من الأطلال المهجورة . أما القيروان فهى على النقيض ، مدينة قديمة ساحرة ، يفوح منها أريج العصور الإسلامية القديمة.

كان تأسيس القيروان خطوة حاسمة فى بناء الوجود الإسلامى فى إفريقية بيد أن هذا لم يكن يعنى نهاية الفتح. إذ كانت قرطاجة لا تزال بأيدي الروم ولم يكن أى جيش إسلامى قد توغل بعد غرب الحدود التونسية - الجزائرية الحديثة.

وكان عقبة بن نافع ، مثل عمرو بن العاص قبله فى مصر وموسى بن نصير بعده فى إسبانيا، قد عُزل عن حكم البلاد التى كان قد فتحها لتوه . وفى سنة ٦٧٥ م قبض

(*) ياقوت الحموى، معجم البلدان ، (دار صادر - بيروت ١٩٩٥)، ج ٤ ، ص ٤٢٠ - ص ٤٢١ ؛ ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ٢٦٤ - ص ٢٦٥ .

عليه خليفته وأهانه وأبقاه مقيداً بالسلاسل قبل أن يرسله إلى الخليفة معاوية بن أبي سفيان في دمشق . وعلى أية حال ، كان مقدراً له أن يعود عودة فخمة مهيبة .

لم يكن الوالى الجديد «أبو المهاجر» عربياً على الإطلاق ولكنه كان مولى لوالى مصر رئيس عقبة . وربما كان قبطياً أو رومياً أو حتى من أصل بربرى . وجاء معه قوات جديدة من مصر ربما كانت من غير العرب^(*) ، وعندما وصل إفريقية أقام خارج القيروان ، وربما لأنه عرف أن كثيراً من السكان ظلوا موالين لعقبة بن نافع^(٢٢) . كانت أهم أولويات الوالى الجديد أن يكسب الزعيم القوى فى المغرب إلى جانبه . وكان كسيلة «ملك بربر أوربة» قد امتدت أملاكه من الأوراس فى غرب الجزائر حتى قولوبس فى المغرب . وربما كان كسيلة وكثير من أتباعه مسيحيين كما كانت تربطهم بالروم علاقات طيبة . وواجه أبو المهاجر كسيلة فى قاعدته تلمسان ونجح فى تحويله إلى الإسلام وكسبه إلى جانب المسلمين . وجاء كسيلة ليعيش مع الوالى فى قاعدته خارج القيروان . كان هذا التحالف الاستراتيجى الذكى يطلق حرية أبى المهاجر فى مهاجمة قرطاجنة . وفرض عليها حصاراً سنة ٦٧٨م وعلى الرغم من أن المدينة لم تسقط فى هذا الوقت ، فإن الحكم البيزنطى وقتها انحصر فى حدود قرطاجنة والمناطق المجاورة لها مباشرة .

وكما هو الحال غالباً فى تاريخ الفتوح العربية ، تشكلت الأحداث بفعل التغيرات التى جرت فى حكومة الخلافة بقدر ما تشكلت بفعل أحداث الحملة العسكرية . وفى سنة ٦٨٠م مات الخليفة معاوية بن أبى سفيان وقرر ابنه وخليفته يزيد أن يعيد تعيين عقبة بن نافع فى قيادته القديمة . وحينئذ جاء دور أبى المهاجر دينار ليرسف فى القيود عندما عاد عقبة ظافراً . وكانت عودة ظهوره علامة على تغير مهم فى السياسة . فقد اتخذ سياسة معاكسة تماماً لسياسة سلفه فى استرضاء البربر . وانضم كسيلة إلى راعيه وحليفه فى الأصفاد واستعد عقبة بن نافع لمغامرته الأخيرة الكبيرة .

(*) ليس فى نص رواية ابن عبد الحكم (ص ٢٦٦) ما يشير إلى هذه الافتراضات التى يضعها المؤلف فقد كان مولى مسلمة بن مخلد الأنصارى ، «أول من جمعت له مصر والمغرب» . وليس هناك ما يشير إلى أن جيش أبى المهاجر دينار كان من غير العرب! وهو أمر مستبعد فى هذه الفترة . (المترجم)

ووفقاً لما ترويّه مدونة تاريخية عربية، توقف عقب برهة لالتقاط الأنفاس فى القيروان^(٢٣). وترك ابنه مسئولاً عن القوات هناك قائلاً «لقد بعث نفسى لله سبحانه وتعالى» وعبر عن شكوكه من ألا يراهم ثانية ، ثم انطلق باتجاه الغرب، إلى أرض لم تطأها أى قوات مسلمة قط. وتحرك هو وجيشه الصغير بسرعة عبر الهضبة الواقعة إلى الجنوب من الجبال الساحلية. وكانت مواجهته الأولى فى بغاية عند سفح جبال الأوراس، حيث هزم كتيبة من الروم واستولى على عدد كبير من الخيول . ثم ذهب غرباً إلى مونستير. وخرج المدافعون لمواجهته وكان القتال عنفاً ولكن «الله منحهم النصر». ولا يبدو أن القوات الإسلامية قد استولت على المدينة ولكنها جمعت كمية من الغنائم قبل أن تتحرك إلى تاهرت ، حيث كان البربر والبيزنطيون فى انتظاره . ومرة أخرى كان القتال عنيفاً ومرة أخرى انتصر المسلمون .

واستمرت قوات الحملة فى مسيرها . ولدى المرء انطباع عن عصبية من الرجال، ربما عدة آلاف قليلة ، يتحركون بسرعة عبر الأرض الفضاء . وليس هناك تسجيل لأية مقاومة حتى وصلوا طنجة . وكانت طنجة واحدة من الأماكن الحضرية القليلة فى المغرب الحالية . ووفقاً لابن عذارى المؤرخ الذى عاش فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى كانت واحدة من أقدم المدن فى المغرب، ولكنه يواصل القول بأن المدينة العتيقة، التى ورد ذكرها فى الروايات التى تناولت غزوة عقبة بن نافع ، دفنت فى الرمال، وتقع المدينة اليوم أعلاها على الساحل، وقال إنه لو حفر أحد فى خرائبها فسوف يجد كافة أنواع الجواهر^(٢٤). وكانت طنجة تحت حكم جولييان الغامض ، الذى يلعب فيما بعد دوراً مهماً فى تاريخ الغزو الإسلامى الأول لإسبانيا . ويبدو أن اهتمامه الرئيسى كان التخلص من عقبة بن نافع بأسرع ما يمكن ، ولذلك أثنائه عن محاولة العبور من مضيق جبل طارق إلى إسبانيا وشجعه بدلاً من ذلك على الذهاب إلى سواحل المغرب المطلة على الأطلنطى .

كانت محطته التالية مدينة وليمه . وعلى النقيض من طنجة ، فإننا نعرف الكثير عن وليمه فى ذلك الوقت . وتحت إسم Volubilis كانت واحدة من أهم المدن فى موريتانيا فى العصور الرومانية . وعلى الرغم من أن الحكومة الإمبراطورية كانت قد انسحبت

بالفعل فى القرن الثالث الميلادى ، أى قبل أربعمائة سنة قبل غارة عقبة ، وكان لها سمة حضرية وكان جزء من المدينة العتيقة على الأقل لا يزال عامراً بالسكان. وعلى الرغم من أنه يحتمل أن معظم السكان كانوا من البربر ، فإن شواهد القبور التى يرجع تاريخها إلى القرن السادس الميلادى توضح أنها كانت تحمل أسماء وألقاباً من الطراز الرومانى^(٢٥). ومرة أخرى ، يقال إن عقبة هزم البربر المحليين ولكنه واصل تحركه بسرعة . وكان آنذاك يحث الخطى باتجاه الجنوب عبر السهول المنبسطة فى المغرب صوب جبال أطلس . ويبدو أنه عبر الجبال إلى وادى دُرعة لمطاردة بعض البربر الهاربين ثم عاد ليحاصر مدينة أغمات ، بالقرب الذى تقوم فيه مراكش اليوم. وكان سكان المدينة من البربر المسيحية ، ويبدو أنها كانت واحدة من الأماكن القليلة التى استولى عليها عقبة بالقوة .

وتوغل حينئذ فى جبال أطلس مرة أخرى، مُتبعاً الممرات التى كانت تؤدى إلى الأراضى الخصيبة فى وادى السوس (سوسة) ، الذى يجرى فيما بين أطلس العليا وجبال أطلس المواجهة الأكثر جذباً ليصل إلى البحر قرب أغادير . كانت هذه هى الأرض التى يسميها العرب السوس الأقصى . ولم يكن الرومان قد غزوها قط وهى التى ستصبح هى الحدود النهائية للحكم الإسلامى على مدى القرون التالية . وعلى النقيض من مناطق كثيرة التى كان عقبة بن نافع قد مرّ بها ، ويبدو أن السوس كانت كثيفة السكان من القبائل البربرية الذين يعيشون فى القرى الجبلية، مثلما هو الحال اليوم. وقد أبدوا مقاومة عنيدة ضد هذه العصابة من المغيرين . وحقق عقبة بعض الانتصارات. وعندما فتح مدينة نفيس الصغيرة يقال إنه أسس مسجداً هناك، وربما كان وفاء لنذر وتقدير شكر على انتصاراته أكثر منه مكاناً يصلّى فيه جموع المسلمين . وفى أماكن أخرى كان أقل نجاحاً، وثمة مكان يسمى «موضع الشهداء» وآخر يسمى «مقبرة الشهداء» سجلا للأجيال التالية الأماكن التى سقط فيها رفاقه فى المعركة.

وعند نهاية غارته فى السوس وصل عقبة بن نافع إلى ساحل الأطلنطى . وهى اللحظة التى تحول فيها إلى أسطورة. ويقال إنه^(٢٦) «... قلما انتهى عقبة إلى البحر

أقحم فرسه فيه حتى بلغ نحره، ثم قال : اللهم إني أشهدك ألا مجاز، ولو وجدت مجازاً لجزت...»^(*) وصورة المحارب العربي الذي توقف تقدمه في الغزو باسم الله فحسب بسبب المحيط تظل واحدة من أكثر الصور جاذبية وبقاء في الذاكرة في تاريخ الفتوح بأسره .

ومن الحافة الغربية للقارة ، شق طريقه عائداً إلى جبال الأوراس . وهناك قسم جيشه ، وسمح للكثير من قواته بالعودة لوطنهم . وأبقى معه قوة صغيرة بقصد فتح طُبنة في الزاب. وهناك تقابل مع جيش كبير يقوده كسيله ، الذي كان قد هرب من إقامته الجبرية في القيروان. وكان في ذلك الحين قد تبرأ من تحالفه السابق مع المسلمين وأعاد نفسه مرة ثانية قائداً للمقاومة البربرية . ويبدو أنه كان صراعاً قصيراً غير متكافئ ووجد عقبة الشهادة التي قيل إنه كان ينشدها .

وتبقى حملة عقبة بن نافع إلى المغرب واحدة من أهم أساطير التأسيس عن المغرب الإسلامي. وعلى أية حال ، فإنه على المستوى العملي كانت النتائج ضئيلة للغاية . ويقال إنه كان متردداً في حصار المعقل الحصينة ، مفضلاً الإغارة على الأراضى البعيدة في الصحراء باتجاه الغرب^(٢٧). وعندما عاد لم يترك أية حاميات في الأماكن التي كان قد «فتحها» ولم يضع أى ترتيبات لجباية الجزية أو الضرائب . وبغض النظر عن مسجد القيروان نفسه، لا ينسب إليه سوى مسجدين في السوس وواى درعة^(٢٨)، وليس هناك دليل على أن أيًا منهما قد عمّر طويلاً . وعلى أية حال، كان هناك جانب أكثر شراً في غاراته . إذ يقال إنه حصل على سبائا من بنات البربر «لم ير أحد في العالم لهن مثيلاً»^(٢٩). وكانت الواحدة منهن تساوى ألف دينار ذهباً في أسواق الشرق

(*) النص من ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب، ص ٢٦٩ . أما النص الذي أورده المؤلف نقلاً عن ابن عذارى ، البيان المغرب، فيختلف قليلاً ، وفيه زيادات ونصه : «... ثم سار عقبة من إيجلى ، حتى وصل ماسة، فأدخل فرسه في البحر ، حتى وصل الماء ثلاثيه، وقال : «السلام عليكم يا أولياء الله» فقال له أصحابه : «على من تسلم؟» قال : «على قوم يونس» ثم قال : «اللهم إني أعلم أنى لم أطلب إلا ما طلب عبدك ووليك ذو القرنين ألا يُعبد في الأرض غيرك...» النص من ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ج ١ ، ص ٢٧ . (المترجم)

الأوسط وكان أبناء النخبة : وكانت أم الخليفة المنصور العباسي (٧٥٤-٧٧٥م) واحدة من أمثال هذه البنات البربر ، فقد تم سبيها في وقت مقارب. وكان لتجارة الرقيق هذه أن تستمر طوال نصف القرن الأول من الحكم الإسلامي في شمال أفريقيا وأثارت استياء مريراً بين البربر الذين أسلموا حديثاً .

وربما كان معنى موت عقبة وهزيمته نهاية الوجود العربي في المغرب . فقد كانت حملته العدوانية قد وحدت القبائل البربرية الرئيسية لمقاومة الغزاة العرب. وتوحدوا معاً تحت زعامة كسيلة الذي قرر الزحف على القيروان. وفي المدينة كانت الفوضى واليأس. وتجمع الرجال في المسجد لكي يقرروا ماذا هم فاعلون . وكان هناك أولئك الذين عقنوا العزم على الصمود وتحدثوا بلغة الاستشهاد مثل زهير بن قيس : «إن الله أنعم بالشهادة على أصحابكم ودخلوا جنات النعيم، فسيروا على مثالهم». وكان هناك آخرون لم يقتنعوا قائلين إنهم يجب أن يتقهقروا إلى الشرق بحثاً عن الأمان . وعلى الرغم من هذه الكلمات المثيرة ، قررت الأغلبية الانسحاب ، وإذ وجد زهير أنه لم يبق معه سوى عائلته ، تبع الباقين ، ولم يتوقف إلا عندما وصل إلى قصره في برقة^(٣٠).

وعندها احتل كسيلة المنتصر المدينة التي كان عقبة قد أسسها. وهناك أقام نفسه «أمير إفريقية والمغرب»، وقدم ضمانات بالأمان لأولئك المسلمين الذين رغبوا في البقاء وربما جمع الضرائب منهم، وهو انقلاب تام في الأدوار . وعلى مدى حوالى أربع سنوات (٦٨٤-٦٨٨م) حكم كسيلة القيروان ، محتفظاً بالسيطرة على الداخل ، بينما كان البيزنطيون لا يزالون صامدين في قرطاجنة على حين كان أسطولهم يقوم بخفارة الساحل ، سعياً إلى دعم معاقلهم الباقية ولنع المسلمين من مهاجمة صقلية.

ويمكن تفسير ضعف العرب جزئياً في ضوء الفوضى التي سادت الخلافة بعد موت يزيد بن معاوية في سنة ٦٨٣م. وحتى بعد جلوس عبد الملك بن مروان خليفة أموياً سنة ٦٨٥م، مرت عدة سنوات قبل أن يكون المسلمون في وضع يسمح لهم بمحاولة استعادة مكانتهم في تونس . وفي سنة ٦٨٨م أمر عبد الملك في بلاد الشام بتعيين زهير ، المجاهد المثالي ، لقيادة حملة من طرابلس لاستعادة القيروان .

ويقول أحد المصادر إن قواته كانت تتألف من أربعة آلاف من العرب وألفين من البربر^(٣١). ويبدو أنهم وصلوا القيروان دون أن تواجههم مقاومة . وعندما اقتربوا من المدينة ، تلقى كسيلة وعدا وقرر أن ينسحب . وكانت المدينة فى هذه المرحلة بلا أسوار ولهذا لم يكن بها سوى القليل من الحماية . وكان لا يزال قلقاً من أن المسلمين المقيمين هناك ربما يشكلون طابوراً خامساً كما أراد أن يكون قريباً من الجبال إذا ما ساءت الأمور. وعسكر فى مكان يسمى مَمْس على حافة جبال الأوراس . وهناك هزمه جيش زهير وقتله. وكما يحدث غالباً، من الصعب أن نرى أسباباً لنجاح قوات المسلمين وانتصارها على جيش أكبر وله دراية جيدة بالأرض. ويمكن لنا فقط أن نلاحظ مرة أخرى ، أنه عندما كان الأمر يتعلق بالمعارك الحاسمة ، كانت القوات المسلمة تثبت تفوقها .

وبينما لا يبدو أن البيزنطيين قدموا لكسيلة أية مساعدة عسكرية فى صراعه الأخير، كان أسطولهم لا يزال قوة يُعمل لها حساب على امتداد ساحل البحر المتوسط. وفى ذلك الحين شنوا هجوماً، يبدو أن القصد منه كان تحويل انتباه المسلمين صوب قورينة، وقام زهير، الذى أبدى نفورا وزهدا فى السلطة السياسية والحكم ، مضطراً ، بقيادة رجاله شرقاً لى يواجه التهديد. ووجد أن البيزنطيين كانوا قد احتلوا برقة آنذاك ، التى كانت بأيدي المسلمين منذ أول احتلال لها على يد عمرو بن العاص قبل نصف قرن . وعندما حاول طردهم مات شهيداً ولحقت الهزيمة بجيشه الصغير .

كان موت زهير بن قيس فى برقة النقطة الدنيا فى محاولات المسلمين احتلال شمال أفريقيا، ولكن هذا كله كان على وشك التغيير. فبحلول سنة ٦٩٤م كان الخليفة الأموى عبد الملك القوى النشط قد هزم جميع أعدائه الكثيرين داخل الأراضى الإسلامية. وتوفرت له آنذاك القوات التى يمكن أن يوفرها . وكانت هناك أسباب أخرى قوية وراء إعادة إرسال الحملات العسكرية إلى شمال أفريقيا. فإذا كانت برقة فى أيدي معادية ، فإن مصر نفسها ستكون عرضة للهجوم. وإلى جانب هذا فإن المسلمين لم يكونوا قد تنازلوا قط حتى ذلك الوقت عن السيطرة على الأراضى التى كانوا قد فتحوها مرة ؛ إذ لم يكن لأحد ممن حمل لقب أمير المؤمنين أن يسمح بحدوث هذا دون أن يثير ضده مقاومة قوية.

وعين الخليفة حسان بن النعمان الغسانی قائداً. وكان حسان سليل عائلة غسانیة، كانت تتولى قيادة العرب في بادية الشام في القرن السابق على الفتح الإسلامي. وكان بعض أبناء العائلة قد هاجروا عبر الحدود إلى مصر تحت الحكم البيزنطي ولكن آخرين بقوا في الشام ودخلوا في النخبة الأموية مع غيرهم من أبناء القبائل العربية في بلاد الشام ممن كانوا بمثابة العمود الفقري للنظام الأموي. وقد منح لقب «الشيخ الأمين» . وقدّر له أن يثبت أنه قائد كفء وإداري يعتد به وكان ، من جوانب كثيرة ، المؤسس الحقيقي لشمال أفريقيا الإسلامية . وقد أمدّه الخليفة أيضاً . بجيش قوامه أربعين ألف رجل ، ليكون أكبر قوة إسلامية شوهدت بالمنطقة على الإطلاق. وكان لهذه الحملة أن تصير حملة كبرى.

وعندما وصل إفريقية بعد مسيرة طويلة على امتداد ساحل شمال أفريقيا، قرر حسان أن تكون أولويته مهاجمة قرطاجنة ، مركز ما تبقى من الإدارة البيزنطية بالمنطقة. ومن بعض الجوانب يبدو غريباً أن القوات المسلمة لم تهاجم المدينة قبل ذلك . والتفسير الأكثر احتمالاً لهذا هو أنهم أدركوا أن البربر كانوا عدواً أقوى كثيراً وأن من المهم هزيمتهم أو الاتفاق معهم على نحو ما أولاً . وسُمح للبيزنطيين أن يحتموا وراء أسوار المدينة. إذ كان الهجوم البحري الحديث على برقة قد أوضح أنهم كانوا لا يزالون يمثلون تهديداً ، وقرر حسان أن يضع نهاية لهذا التهديد إلى الأبد.

كان سقوط قرطاجنة حادثة رئيسية لأنه كان يعني النهاية الباترة للسلطة البيزنطية في أفريقيا. وبالمعنى العسكري، يبدو أنه كان احتلالاً سلمياً أكثر منه حصاراً رئيسياً . فقد كانت المدينة الواقعة على موقع مدهش بجوار البحر تطل على خليج تونس، تلعب دور محور السلطة الرومانية على ساحل شمال أفريقيا على مدى ما يقرب من ثمانمائة سنة. وفي إحدى المراحل كانت قد نعمت بالعديد من المباني الفخمة ، وفي أواخر العصور القديمة حل محل هذه المباني الكنائس الفاخرة الكبيرة . وفي القرن الثاني بعد الميلاد وصل سكانها إلى نصف مليون نسمة على ما يظن الباحثون، وكانت الحمامات الأنطونية Antonine Baths ، التي لا تزال أطلالها باقية، أكبر الحمامات في العالم الروماني. ويقول المؤرخ العربي ابن عذاري (حوالي ١٣٠٠م) يقول إن المدينة كانت في

أيامه لا تزال تتميز بآثارها المبهرة ، المباني الضخمة ، والأعمدة الضخمة القائمة ، التي أظهرت أهميتها للناس في الماضي . ويضيف إن سكان تونس القريبة ، تماماً مثل السياح في العصر الحديث ، يزورون الموقع لكي يتأملوا العجائب والآثار التي نجت من عوادي الزمان^(٣٢) (*) . أما قرطاجنة سنة ٦٩٨ م فكانت مجرد ظل للمدينة العظيمة التي كانت موجودة منذ زمن طويل قبل الغزو الروماني . ويقول ابن عبد الحكم لم يكن بها سوى عدد قليل من السكان الضعفاء^(٣٣) . ويبدو أن المدينة كانت مهجورة إلى حد كبير ، ولم تكن بها أية مبانٍ مهمة على مدى نصف قرن من الزمان على الأقل . ومع انهيار تجارة البحر المتوسط ، كانت المدينة قد فقدت مبررات وجودها ، ولم يكن بها آنذاك سوى عدد قليل من السكان وحامية صغيرة يعيشون بين الأطلال .

وليس مما يثير الدهشة أن المدينة فيما يبدو لم تقاوم إلا قليلاً . فحسبما ذكرت بعض المصادر كان السكان قد حزموا أمتعتهم بالفعل في السفن وأبحروا بعيداً تحت ستر الليل بحيث كانت المدينة مهجورة فعلاً عندما دخلتها الجيوش العربية^(٣٤) . وليست لدينا أي تقارير عن أي حصار رسمي ولا روايات عن غنائم تم الاستيلاء عليها بعد الفتح ، وهو مؤشر آخر على أن المدينة ربما كانت مهجورة بالفعل قبل الفتح العربي . وبعد أن رسخت سيطرة المسلمين على المدينة لم يبذلوا جهداً لوضع حامية في المدينة أو بناء مسجد . وفي الحقيقة ، أن مركز السكان انتقل من جوار البحر في قرطاجنة إلى القيروان في الداخل ، تماماً مثلما تحول في مصر من جوار البحر في الإسكندرية إلى القسطنطينية في الداخل .

ربما كان سقوط قرطاجنة علامة على نهاية الوجود البيزنطي في شمال أفريقيا ولكن الكثير من قبائل البربر بقيت متحدة وجسورة . ففي ذلك الوقت كانت قيادة المقاومة البربرية في يدي «الكاهنة» الغامضة . وشهرة هذه الكاهنة البربرية ، بشعرها

(*) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ١ ، ص ٢٥٠ ... وفي هذه المدينة آثار عظيمة ، وأبنية ضخمة ، وأعمدة ثابتة غليظة ، تدل على عظم قدر الأمم الدائرة ، وأهل تونس إلى الآن ، لا يزالون يُطلعون في خرابها على أعاجيب ومصانع لاتقطع بطول الزمان لتأمل . (المترجم)

الأشعث الطويل ونبوءاتها الزهدية، بقيت عبر القرون فى التاريخ والأسطورة رمزاً للمقاومة ضد الغزو العربى والنظام الأخلاقى للحياة الإسلامية التقليدية. إذ إن الثقافات الحديثة تحتفى بها بطرق متنوعة باعتبارها بطلة لتحرير المرأة وسلطتها، وباعتبارها بطلة للمقاومة البربرية والاستقلال ، وأميرة يهودية «لم تتخل أبداً عن دينها»، وباعتبرها ملكة إفريقية عظيمة . ومن المؤكد أنها كانت بربرية من أحد بطون قبيلة زناتة الكبيرة ، ولكن قيل إنها تزوجت واحداً من البيزنطيين وأنها ربما كانت إما يهودية(*) أو مسيحية .

وقد لخص إدوارد جيبون رأى التقليدى فى الكاهنة فى قطعة نثرية بالإنجليزية ترجع إلى القرن الثامن عشر ، فهو يصف كيف تم توحيد البربر «الفوضيين» :

«تحت راية ملكتهم الكاهنة حازت القبائل المستقلة قدراً من الاتحاد والنظام ؛ ولأن المغاربة كانوا يحترمون فى نسائهم شخصية المتنبئة ، فإنهم هاجموا الغزاة بحماسة تماثل حماسهم . وكانت جماعات الجنود تحت قيادة حسان لا تكفى للدفاع عن إفريقية ؛ وضاعت فتوحات عصر فى يوم واحد؛ وإذ غلب القائد العربى أمام سيلهم الجارف، تقهقر إلى حدود مصر لينتظر على مدى خمس سنوات النجدة التى وعده بها الخليفة.

ثم يستمر مبينا كيف أن الكاهنة كانت عقدت العزم على إثناء العرب عن العودة: «جمعت الكاهنة المنتصرة الرؤساء والمغاربة ، وأوصت باتباع سياسة غريبة وحشية وقالت «إن مدننا وما تحويه من الذهب والفضة تجتذب الجيوش العربية باستمرار.

(*) من المستبعد تماماً أن «الكاهنة» كانت يهودية ، لأنها قادت بعض البربر ؛ وقد ذكر ابن عبد الحكم (ص ٢٧٠) ما نصه «... وغزا (حسان بن النعمان) الكاهنة ، وهى إذ ذاك ملكة البربر، وقد غلبت على جل إفريقية ...» ولا يمكن أن تكون ملكة يهودية تحكم على رعيا من المسيحيين أو الوثنيين. ومن ناحية أخرى ، فإن المصادر التاريخية لم تذكر شيئاً عن قيام مملكة يهودية فى تلك الأنحاء . فضلاً عن ذلك هناك نص صريح فى كتاب ابن عبد الحكم أيضاً (ص ٢٧١) يقول : «... وضع الخراج على عجم إفريقية ، وعلى من أقام معهم على النصرانية من البربر، وعامتهم من البرانس إلا قليلاً من البتر...» وليس فى هذا النص أى ذكر لليهود ولكنها مباحة غير مفهومة. (المترجم)

هذه المعادن التافهة ليست محط طموحنا ؛ فإننا نقنع بإنتاج الأرض البسيط . فلندمر هذه المدن؛ ولندفن فى خرائبها هذه الكنوز المؤذية الخبيثة ، وعندما يتجرّد جشع أعدائنا من الإغراء ، فربما يكفون عن إزعاج هدوء شعب محارب».

«وتم قبول الاقتراح بموافقة عامة. ومن طنجة إلى طرابلس تمت إزالة المباني ، أو التحصينات على الأقل، وتم قطع أشجار الفاكهة ، وتحولت البلاد من جنة خصيبة عامرة بالسكان إلى صحراء وكان بوسع المؤرخين الأكثر شباباً أن يتبينوا الآثار الكثيرة للرخاء والخراب الذى حل بأسلافهم . وهكذا هى حكاية العرب فى العصر الحديث»^{(٢٩)(*)}.

ومن الصعب تقدير مدى الحقيقة وراء أسطورة الكاهنة . كانت سلطة الكاهنة مرتكزة على منطقة جبال الأوراس . وجبال الأوراس شاهقة فى غرب الجزائر ترتفع إلى ألفين وثلاثمائة متر فى أعلى نقاطها . ولا يبعد قلب الجبال أكثر من مائة كيلو متر من الغرب إلى الشرق وخمسين كيلو متراً من الشمال إلى الجنوب . وإلى الشمال تقع الهضبة الخصيبة ؛ وإلى الجنوب تنحدر الأرض بميل شديد نحو أطراف الصحراء . والجبال جرداء وصخرية تحمى الوديان العميقة القرى المنعزلة وغابات النخيل . فقد كانوا فى موقع استراتيجى مهم. وعلى الرغم من أن هذه الجبال كانت وعرة لا يمكن الوصول إليها ، فقد كانت على مسيرة أيام قليلة فقط من سهول تونس ومراكز القوة العربية . وكانت سلسلة الجبال تتحكم أيضاً فى الطريق من تونس إلى بقية الجزائر والمغرب ؛ وحتى تم إخضاع الأوراس، أو صار صديقا على الأقل، لم يكن ممكناً لأى جيش عربى أن يعمل بسلام فى هذه المناطق. لقد كانت معقلاً نموذجياً بالنسبة لأولئك الذين كانوا يريدون مقاومة الغزاة من الخارج ، وكانت دائماً مركز المقاومة البربرية ؛ إذ انطلقت أولى رصاصات الثورة الجزائرية ضد الحكم الفرنسى فى الأوراس سنة ١٩٥٤م.

(*) تفيض كتابات إدوارد جيبون بالعداوة الصريحة ضد العرب والمسلمين ولا تحتاج إلى تعليق منا . (المترجم)

وتأتى أكثر الروايات اكتمالاً عن الكاهنة من كتاب ابن عذارى. فعندما دخل حسان القيروان سأل عمن كان أهم ملك لا يزال باقيا فى إفريقية، وأخبروه إنها الكاهنة فى جبال الأوراس وأن جميع البيزنطيين ذهبوا خوفاً منها وأن كل البربر يدينون لها بالطاعة . وأضافوا أنه إذا قتلها فإن المغرب كله سوف يسقط بين يديه. وانطلق لمواجهة . ووصل إلى مدينة باغايه قبله، وطردت البيزنطيين ودمرت المدينة خوفاً من أن يكون حسان يريد الذهاب إلى هناك ويتخذها قاعدة حصينة له . وقد اقترب من الجبال وأقام معسكره فى وادى مسكيانة ، وهناك جاءت الكاهنة لمقابلته . وكان معسكره على قمة الوادى على حين كانت قواتها أسفل الوادى . وقد اتصل الفرسان من كلا الجانبين ببعضهما ذات مساء ولكن حسان رفض الدخول فى المعركة ذلك اليوم، وقضى الجيشان ليلتهما على سروج الخيل متأهبين . وفى اليوم التالى نشب قتال صعب طويل ولكن فى النهاية أجبرت قوات حسان على الفرار. وطاردته الكاهنة ، وقتلت الكثير، وأخذت الأسرى، ودفعته إلى ما وراء قابس. ويبدو أنه لجأ إلى برقة، ومن هناك كتب إلى الخليفة، يطلب منه التعزيزات ويشرح له أن أمم المغرب ليس لها برامج أو أهداف سياسية ، ولكنهم مثل قطعان الماشية التى ترعى بحرية ، وأجاب الخليفة ، يأمره بأن يبقى حيث هو . وكانت القلاع التى أقامها هو ورجاله بالقرب من برقة لا تزال تعرف أيام ابن عذارى، أى بعد ستة قرون، باسم «قصور حسان» .

ثم يواصل مؤلفنا روايته ليحكى عن خطبة زعم أن الكاهنة قد ألقتها، وكانت هى أساس رواية چيبون. وبحسب هذه الرواية خاطبت البربر بالكلمات التالية:

«إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعى، فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها، حتى يئأس منها العرب، فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر». فوجهت قومها إلى كل ناحية يقطعون الشجر ويهدمون الحصون ؛ فذكروا أن أفريقية كانت ظلاً واحداً من طرابلس إلى طنجة وقرى متصلة ومدائن منتظمة حتى لم يكن فى الدنيا أكثر خيرات، ولا أوصل بركات، ولا أكثر مدائن وحصونا من إقليم إفريقية والمغرب .. فخربت الكاهنة ذلك كله...»(*) .

(*) ابن عذارى ، المغرب ، ص ٣٦ .

والرواية مثيرة. فهي تكشف عن اعتراف واضح في مصدر عربي يرجع إلى العصور الوسطى بالتدهور البيئي والاضمحلال الحضري في المنطقة التي أذهلت الأثريين وغيرهم من الباحثين في العصر الحديث . وهي رواية غير عادية ، كما لاحظ جيبون ، وهي تختزل التغييرات التي جرت في قرنين أو ثلاثة قرون في عدة سنين . وتشير الرواية ، إلى بعض الحقائق الأساسية . ولا شك في أن القرنين السادس والسابع قد شهدا تدهورا في الحياة الحضرية والزراعة المستقرة بالمنطقة ، ارتبطت بالنمو في مجال الرعي. كما أن الرواية تلقى على الفتوح العربية ضوءا غير عادي. وهنا يبدو العرب بمظهر المحافظين على الحياة الحضرية والحضارة ، وليس في مظهر المدمرين على نحو ما يحدث كثيرا في الكتابات الحديثة.

وبدا كأن انتصار الكاهنة كان كاملاً ، وكأن حسناً تخلص عن إفريقية بالفعل. ولم يلبث أن تلقى المزيد من القوات من الخليفة. كما أنه اجتذب أعداداً كبيرة من البربر الذين كانوا غير مستعدين لقبول سلطة الكاهنة. وقيل إن اثني عشر ألفاً منهم انضموا إلى الجهاد . وبهؤلاء الجنود سار إلى إقليم قابس حيث هزم قواتها. ثم طاردها إلى معقلها في الأوراس . وجرّت المعركة النهائية شمال مدينة طبنه الحديثة ، ربما في سنة ٦٩٨ م . ولدينا تفاصيل قليلة للغاية عن المعركة التي هزم حسناً فيها الكاهنة وقتلها ، باستثناء ما يقال عن أنها كانت قد تنبأت بالكارثة التي كانت ستقع عليها . ويشعرها المنقوش ، نطقت بنبوءات وحشية عن الكارثة وكانت في الوقت نفسه ، ترسل بولديها لتحصل لهما على الأمان في المعسكر العربي^(٣٦).

وإذ انتهى التمرد، وطد حسان نفسه مرة أخرى في القيروان . وهناك بدأ يرسى دعائم منظومة الإدارة الأموية، فأسس ديواناً للجند وفرض على النصاري دفع الخراج. ووفقاً لبعض المصادر ، أسس مدينة تونس الجديدة ، بالقرب من قرطاجنة. وكان مقدراً لتونس أن تكون قاعدة بحرية لمنع أية غارات أخرى يشنها البيزنطيون ، وتم نقل ألف صانع قبطي من مصر للعمل هناك^(٣٧). وهذه علامة على بداية الإدارة الإسلامية الدائمة في إفريقية وبداية مرحلة أخرى في تحول البربر إلى الاسلام وتجنيدهم في الجيش الإسلامي بإفريقية، وهي عملية لعبت دوراً أساسياً في الفتح الإسلامي لإسبانيا .

وفى سنة ٧٠٤م خلع حسان من منصبه . وكانت خسارته لمنصبه نتيجة للعلاقات المتدهورة بين الخليفة عبد الملك بن مروان فى دمشق وأخيه عبد العزيز والى مصر . فقد أراد عبد العزيز أن يؤكد سلطته ، وسلطة مصر ، على شمال أفريقيا . كما أنه أراد لتابعه الذى يحميه أن يُعيّن فى منصب الوالى . وكان الرجل الذى فى ذهنه هو موسى بن نصير . وكانت أصوله متواضعة ومن المؤكد أنه لم يكن ينتمى لواحدة من عائلات النخبة الكبيرة فى الخلافة الأموية . وكان رجلاً ذكياً قوياً شق طريقه صاعداً بفضل قدراته الخاصة وثقة راعيه . وقد بدأ حياته العملية فى بلاد الشام ، فى خدمة الحكومة الأموية ، وجاء إلى مصر للمرة الأولى سنة ٦٨٤م . ويرجح أنه بينما كان هناك استلقت نظر عبد العزيز بن مروان الذى انطلق لترقيته وتقدمه فى وظائفه . وبحلول سنة ٧٠٤م كان عبد العزيز وموسى قد عملا معاً على مدى عشرين سنة ؛ وأراد عبد العزيز أن يكافئه وعرف أنه الرجل المثالى الذى يمكنه إخضاع ولاية إفريقية العنيدة الغنية لسيطرته .

ووصل ليجد الولاية فى حال من الفوضى . فقد كان حسان قد أنقذ إفريقية العربية من البربر وطرده البيزنطيين . وتوقفت السلطة العربية عندما يعرف حالياً بالحدود التونسية - الجزائرية . ولم تكن الغارة الخاطفة التى شنّها عقبة بن نافع على المغرب الأقصى قبل أكثر من عشرين سنة قد أسفرت عن أى استقرار دائم . فقد كان البربر فى جبال الأوراس والمناطق الواقعة فى غربه لا يزالون فى وضع يسمح لهم بمقاومة السلطة العربية .

وكان موسى عازماً على أن يغير هذا . وغادر حسان الولاية عائداً إلى دمشق . وعندما وصل إلى مصر ، جرده عبد العزيز بن مروان من كل ممتلكاته ، حتى الهدايا التى كان يحملها إلى الخليفة الجديد الوليد بن عبد الملك . وفى الوقت نفسه ، كان موسى ابن نصير ، فى إفريقية ، يخطط لهجمة كبيرة فى الغرب داخل المغرب . وبدأ بهجوم على القلعة البربرية فى زغوان ، على بعد كيلومترات قليلة من القيروان . وسرعان ما تم الاستيلاء عليها وتم إحضار أوائل الأسرى إلى العاصمة . وكان الأسرى هم الهدف الرئيسى من وراء حملته . وفى الروايات عن الفتوح الإسلامية فى المدن وفى

الأراضي بالشرق الأوسط ، نجد إشارات مستمرة إلى كمية الغنائم - من البضائع والمنقولات قبل هذا وذاك . ولدينا أخبار عن مدى الحرص في تقسيم الغنائم بين الفاتحين . وفي الرواية عن حملات موسى بن نصير في المغرب، نجد أن أعداد الأسرى الذين تم الحصول عليهم وأرسلوا إلى الشرق تسيطر على الروايات. وهناك مبالغة في الأرقام بحماسة غير محدودة ، ويبدو الجهاد الإسلامي في صورة غير مريحة وكأنه قد تحول إلى غارة رقيق عملاقة. وما أن وصل موسى بن نصير إلى القيروان حتى أرسل اثنين من أبنائه في غارتين منفصلتين في المغرب وعاد كل منهما بمائة ألف أسير. وعندما كتب موسى إلى راعيه عبد العزيز بن مروان أنه أرسل إليه ثلاثين ألف من السبايا نصيب الحكومة من الغنائم ، افترض عبد العزيز إن هناك خطأ في الرسالة لأن الرقم كان كبيراً بالقدر الذي بدا مستحيلاً . والحقيقة أن الكاتب قد أخطأ ، ولكن في الاتجاه المعاكس : إذ كان الرقم الحقيقي ستين ألفاً^(٢٨)(*) .

وسرعان ما انطلق موسى نفسه صوب الغرب . وفي سجومة سمح لأبناء عقبة بن نافع بأن ينتقموا لموت أبيهم «... فقتلوا من أهل سَجُومة ستمائة رجل من كبارهم...» . ثم واصل مسيره لإخضاع القبائل البربرية الكبرى ، هواره، وزناتة، وكتامه فأخذ منهم السبايا وعين لهم رؤساء جدد ليكونوا موالين للفاتحين المسلمين . وكانت المقاومة قليلة جداً من جانب الناس المستقرين لأن الكثير من مدن إفريقية كانت خالية بسبب عداوة البربر تجاههم حسبما لاحظ المؤرخ ابن عذارى^(٢٩) . وإذا سار موسى بن نصير على خطوات عقبة بن نافع ، فإنه واصل اندفاعه صوب الغرب مطارداً القبائل البربرية التي

(*) تقول رواية ابن عبد الحكم (فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٧) «... فلما أتى كتابه بذلك قال الناس: ابن نصير والله أحمق، من أين له عشرون ألفا يبعث بها إلى أمير المؤمنين في الخمس؟ فبلغ ذلك موسى بن نصير، فقال: ليعبثوا من يقبض لهم عشرين ألفا... وفي هذه الرواية لا نجد رقم ثلاثين ألفا أو ستين ألفا أما رواية ابن عذارى (المغرب، ص ٤٠) فتقول: «... فكتب موسى إلى عبد العزيز يعلمه بالفتح ، ويعلمه أن الخمس بلغ ثلاثين ألفاً . وكان ذلك وهماً من الكاتب ؛ كتب ثلاثين ألفاً بدلاً من ستين ألفاً . فلما قرأ عبد العزيز بن مروان الكتاب وأن السبى من الخمس ثلاثون ألفاً ، استكثر ذلك ... فكتب إلى موسى ... فاستكثر ذلك وظننته وهماً من الكاتب . فاكتب بالحقيقة. فكتب إليه موسى: قد كان ذلك وهماً من الكاتب على ما ظنه الأمير ، والخمس أيها الأمير ستون ألف رأس ثابتاً بلا وهم .» (المترجم)

كانت تفر أمامه ، ويخلاف عقبة ، لم يتحول عن طنجة . وقيل إنه استولى على المدينة وعين مولاه الذى كان من عتقاء البربر، طارق بن زياد، والياً، وهى المرة الأولى على ما نعرف التى يتولى واحد من البربر المسلمين منصب قيادة فى الجيش المسلم. وترك معه حامية ، تكونت فى معظمها من البربر الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً ومعهم عدد قليل من العرب وأمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يرشدوهم فى أمور الدين .

وأعطيت الأرض لحامية طنجة واختط للمسلمين الخطط. وكان تأسيس هذا الموقع الأمامى الإسلامى ، عبر مضيق جبل طارق الذى يفصلها عن أراضى جنوب إسبانيا الغنية المغربية، مقدمة للغزو وكان للحامية أن تصير نواة القوة المسلمة الأولى التى ستقوم بغزو شبه الجزيرة الأيبيرية. واستمر موسى بن نصير فى حملاته على الجنوب والغرب حتى وصل فى النهاية إلى السوس ووادى درعة، وأخذ رهائن من قبيلة مصمودة فى جبال أطلس . وعندئذ رجع إلى القيروان فى الشرق.

وربما كان الفتح والاستقرار الإسلامى فى طنجة قد اكتمل سنة ٧٠٨ م . وقد استغرق الأمر أقل من سبعين سنة منذ عبرت القوات المسلمة الأولى من مصر إلى برقة. وفى أثناء ذلك الوقت كانت الحرب فى جزر ومد بشكل درامى. وطوال هذه الحرب كان المفتاح يتمثل فى سيطرة المسلمين على تونس وعاصمتهم الجديدة فى القيروان. وبحلول سنة ٧٠٨م كانت هناك إدارة عربية راسخة تماماً فى تونس. وإلى الشرق كانت كل من برقة وطرابلس تحت الحكم الإسلامى. أما مناطق الجزائر الحديثة والمغرب الحديثة فقد بقيت «الغرب المتوحش» حقاً. ويبدو أن الوجود الإسلامى الرئيسى الوحيد فى هذه المنطقة قد تمثل فى حامية طنجة. وفى مناطق أخرى، كانت سيطرة المسلمين تعتمد على الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع زعماء القبائل البربرية ، الذين يحتمل أنهم كانوا قد اعتنقوا الإسلام، اسمياً على الأقل. وكان للحكم الإسلامى أن يواجه التحدى مرة أخرى، لاسيما التمرد البربرى الكبير سنة ٧٤٠ - ٧٤١م، ولكن لم تتم الإطاحة به أبداً.

الهوامش

(١) المكتوب في المصادر الثانوية عن فتح شمال أفريقيا ليس كثيرا . وعن رواية سردية قائمة على قراءة واعية للمصادر العربية القليلة، انظر :

A. D. Taha, *The Muslim Conquest and Settlement of North Africa and Spain* (London, 1989). V. Chrisides, *Byzantine Libya and the March of the Arabs towards the West of North Africa*, British Archaeological Reports, International Series 851 (Oxford, 2000).

وهو أيضا موضوع على أساس النصوص العربية ولكنه يقدم بعض المادة الإضافية من سير القديسين والمصادر الأثرية.

Muqaddasi, *Ahsan al-Ta'asim: The Best Divisions for Knowledge of the Regions*, (٢) trans. R. Collins (Reading, 2001), p. 224.

See A. Cameron, 'Byzantine' Africa - the literary evidence', in *Excavations at Carthage 1975, 1978*, ed-J.H. Humphrey, vol. VII (Ann Arbor, MI, 1977-78), pp. 29-62, reprinted in eadern. *Changing Cultures in Early Byzantium* (Aldershot. 1996), VII .

M. Brett and R. Fentress, *The Berbers* (Oxford, 1996), pp. 79-80, quoting (٤) Procopius, *Bellum Vandalicum* IV, xiii, pp. 22-8.

C.J. Wickham, *Framing the Early Middle Ages: Europe and the Mediterranean, c. 400-c. 800* (Oxford, 2005), p. 641.

Ibid., pp. 709-12, 725. (٦)

A. Leone and D. Mattingly, 'Landscapes of change in North Africa', in *Landscapes of Change: Rural evolutions in late antiquity and the early Middle Ages*, ed. N. Christie (Aldershot, 2004), pp. 135-62 at pp. 142-31.

J. Sjoström, *Tripolitania in Transition: Late Roman to Islamic settlement: with a catalogue of sites* (Aldershot, 1993), pp. 81- 5.

Ibn Abd al-Hakam, *Futuh*, p. 170. (٩)

Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p. 170 . details the movement of Berber tribes to the west. (١٠)

Sjostrom, Tripolitania, p. 26. (١١)

Ibid., p.40. See also D.Mattingly, 'The Laguatan : a Libyan tribal confederation in the late Roman Empire', Libyan Studies 14 (1983); 96-108; D. Pringle, The Defence of Byzantine Africa from Justinian to the Arab Conquest, British Archaeological Reports, International Series 99 (Oxford, 1981). (١٢)

The chronology here follows Christides, Byzantine Libya, pp.38-39. (١٣)

Ibid., p. 15. (١٤)

Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p. 173. (١٥)

Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p. 184, Taha, Muslim Conquest, p. 57; Christides, Byzantine Libya, pp.42-3. (١٦)

Taha, Muslim Conquest, p. 58. (١٧)

Yaqt , Mucjam el-Buldan. (١٨)

Maslama b.Mukhallad al- Ansari. (١٩)

Ibn al-Athir, Al- Kamil fil Ta'likh, ed. C-J. Tornberg, 13 vols. (Leiden, III, p. 465, (٢٠)

حيث يقول في وضوح إنه يبنى روايته على أساس مصادر شمال أفريقية «أهل التاريخ من المغرب لأن معلوماتهم كانت أفضل من معلومات الطبري».

Mucjam al-Buldan, IV, pp. 212-13.

Taha, Muslim Conquest, pp. 61-2. (٢١)

Following Taha, Muslim Conquest, pp. 63-5, here. (٢٢)

(٢٣) جميع مصادر حملة عقبة الكبرى لاحقة زمنيا للأحداث بفترة طويلة، وأكمل رواية عند ابن عذاري (حوالي سنة ١٢٠٠م) . وهذا ما أدى بالبعث ، مثل برونتشفيش، إلى الشك في تاريخية الرواية كلها . وقد ناقش ليفي برونتسال لأن يجادل بشكل مقنع بأن الرواية مستمدة من التراث المغربي الأندلسي ويجب تناولها بجديّة وهو يترجم رواية منسوبة إلى من يسمى زيو على صالح بن أبي صالح بن عبد الحليم الذي كان في نفيسة في أعالي جبال الأطلس حوالي سنة ١٢٠٠م . ونشر النص العربي حسبما وعد ليفي برونتسال في مقالته لم يحدث بسبب موته سنة ١٩٥٤م. انظر :

Levi-Provencal, 'Un recit de la conquete de l'Afrique du Nord', Arabic I (1954): 17-43.

Ibn Idhari, Bayan, II, p. 26. (٢٤)

Wickham, Framing, p. 336. (٢٥)

Ibn Idhari, Bayan, II, pp. 26-7. (٢٦)

- Ibn Idhari, Bayan, II, pp. 25-6. (٢٧)
- Ibn Idhari, Bayan, II, p. 26. (٢٨)
- Ibn Idhari, Bayan, II, p. 27. (٢٩)
- Ibn Idhari, Bayan, IT, pp. 30. (٣٠)
- Taha , Muslim Conquest, p. 68. (٣١)
- Ibn Idhari, Kayan, II, p. 35. (٣٢)
- Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p. 200. (٣٣)
- Bakri, Description de l'Afrique septentrionale, ed. Baron de Slane (Algiers, (٢٤)
1857), p. 37.
- Gibbon, Decline and Fall, III, p. 300. (٣٥)
- Following' the chronology proposed by Talbi in Encyclopaedia of Islam, 2nd edn, (٣٦)
- بعض الروايات تنسب تأسيس تونس إلى وفاة لاحقين انظر : (٣٧)
- Taha, Muslim Conquest, pp.72-3.
- K. Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p. 40. (٣٨)
- Ibn Idhari, Bayan, II, p. 41. (٣٩)

عبور نهر أموداريا

كان الفتح الأول لإيران قد اكتمل بحلول سنة ٦٥١ م . وكانت الجيوش التي تطارد يزدجرد الثالث قد وصلت مرو^(١). ومن هنا كانت المسافة إلى نهر جيحون (أموداريا الحديث) مسيرة أيام قليلة باتجاه الشمال الشرقي. ووراء النهر عرفت المنطقة باسم ما وراء النهر ، وهى عالم يختلف تماماً عن إيران . وعلى الرغم من أن كثيراً من سكان المدن والقرى كانوا من الناطقين بالفارسية ، لم تكن الإمبراطورية الساسانية تسيطر حقاً على المنطقة بأى معنى إدارى . وبدلاً من الحكومة الإمبراطورية المركزية كان هناك عدة بلاطات فى قصور المدينة وفى قلاع الجبال، كما كانت هناك مضارب خيام البدو حيث السيادة بأيدى رؤساء القبائل التركية الكبار . ويعيدا فى الشرق تقع حدود الصين وكان الأباطرة الصينيون من أسرة تانج قد كسبوا ولاء سكان المنطقة. لقد كانت أرضاً غنية مليئة بالفرص والثروات ولكن كان يدافع عنها محاربون حريصون على استقلالهم للغاية . وقد برهن بريق الثروة وتحدى القتال أنه شئ لا يمكن للمحاربين العرب مقاومته .

ومن بين كل حملات الفتوح العربية المبكرة كان القتال فيما وراء النهر الأضعب والأطول فى مداه . ومرّ قرن بكامله فيما بين فتح مرو (٦٥٠ - ٦٥١ م) وعبور العرب نهر جيحون لخوض معركة تلاس النهائية ، التى أنهت احتمال التدخل الصينى سنة ٧٥١ م وقد شهدت المرحلة الأولى من الفتوح ، التى استمرت بشكل متقطع فيما بين خمسينيات القرن السابع وسنة ٧٠٥ م، الولاة العرب يقودون غارات متفرقة عبر النهر ،

ولكنهم كانوا يرجعون دائماً إلى قاعدتهم فى مرو قبل قدوم الشتاء ولا يتركون أى وجود دائم فى تلك الأنحاء . وكانت المرحلة الثانية هى ولاية قتيبة بن مسلم الباهلى من سنة ٧٠٥ إلى سنة ٧١٥ م ، عندما كانت هناك محاولات منظمة لغزو طخارستان ، وبلاد الصغد ، وخوارزم وأقيمت حاميات عربية فى المدن الكبرى مثل بخارى وسمرقند . والمرحلة الثالثة من ٧١٦ إلى حوالى ٧٢٧ م كانت تميزها انتكاسات خطيرة للعرب على أيدي الأتراك الذين استعادوا نشاطهم وحلفائهم من بين الأمراء المحليين . وكانت المرحلة الرابعة والأخيرة (٧٢٧ - ٧٥١ م) قد شهدت اثنين من الولاة العرب هما أسد بن عبدالله ونصر بن سيار ، توصلا إلى الاتفاق مع الأمراء المحليين يقضى بأن يعترفوا بالسيادة العربية على حين يحتفظون بالكثير من سلطتهم ومكانتهم.

وتاريخ الفتوح العربية فى آسيا الوسطى مهم لسبب آخر. إذ إن هذه الحملات هى التى وصلتنا عنها تقارير كاملة من بين جميع حملات الفتوح الإسلامية الباكورة حتى الآن بدلاً من الروايات الغامضة والأسطورية التى لدينا عن الفتوح السابقة ، وعن فتح إسبانيا الذى كان معاصراً ، فإن حكايات المعارك التى جاءت من بلاد ما وراء النهر فى أوائل القرن الثامن مليئة بالتفاصيل الواضحة الواقعية . وهنا فحسب يمكن أن نأمل فى الحصول على بعض الإحساس بالحقيقة القاسية للغزو والدمار ، وعن الهزيمة والنصر . ونحن ندين بهذه المادة لمؤرخ يسمى أبو الحسن المدائنى . ولد فى البصرة سنة ٧٥٣ م ، ولكنه عاش معظم سنى حياته فى المدائن (حيث جاء لقبه) ، وفى بغداد حيث توفى فى وقت ما بعد سنة ٨٢٠ م^(٢). ويقال إنه جمع عدداً ضخماً من كتب التاريخ بما فيها تواريخ غزو خراسان وتراجم الولاة ، ومن بينهم قتيبة بن مسلم ونصر بن سيار . وحوالى سنة ٩٠٠ م حرر الطبرى هذه المادة ، وأدخلها فى تاريخه ، مع الاعتراف الكامل بنقلها عن المدائنى ، وعن هذا الطريق وصلت المادة إلينا .

وبالمقارنة مع الروايات عن الفتوح الباكورة لبلاد الشام والعراق وإيران، نجد أن التتابع الزمنى مضمون أكثر على الرغم من أن الروايات لا تزال من تأليف مؤلفين مختلفين طوروا رواياتهم لأغراض مختلفة تماماً^(٣). وتدخل بعض الخيوط فى نطاق الموروثات القبلية ، ومن الواضح أنها تمجد ذكرى شيوخهم الكبار والدور الذى لعبوه

فى هذه الأحداث الحىوية . فقد حفظت قبيلة الأزد ذكرى الأعمال والفضائل المنسوبة لشيخها الكبير المهلب وابنه يزيد، كما أن شهرة أعظم القادة المسلمين فى هذه الحملات، قتيبة بن مسلم، حفظها أتباعه من قبيلة باهلة . وفضلاً عن ذلك، فإن لدينا تراث تاريخى محلى مستقل محفوظ فى «تاريخ بخارى» الذى كتبه النرشخى ، يخبرنا بالكثير عن كيفية تأثير الفتح على مدينة واحدة والريف المحيط بها .

ونهر أموداريا نهر مدهش. فإذا ما قاربته على امتداد الطريق القديم إلى الشرق، مسافراً عبر الصحراء المنبسطة الجرداء من مرو إلى نقطة العبور التقليدية عند شارجوى(*)، فإنك ستصل إليه فجأة . وهو يفيض فيما بين قراقوم (أى الرمال السوداء) فى الغرب، وقزل قوم (الرمال الحمراء) فى الشرق، وعلى ضفتيه جرف منخفض . وهناك القليل من الرى وقليل من المستوطنات ؛ ويشق النهر طريقه ويتعرج عبر أرض جرداء بلا سكان : فليس هناك نخيل وحقول وقرى مثل تلك التى تشكل ضفاف النيل فى مصر بحيث يبدو بهجة للناظرين أما النهر نفسه، وعرضه وقوة تياره ، فإنه يبدو غازياً غريباً فى هذا الفضاء الصحراوى المنبسط.

ويناجى الشاعر الفيكتورى ماثيو أرنولد Matthew Arnold فى نهاية قصيدته «سهراب ورستم» التى نظمها على أساس واحدة من القصص العظيمة فى الشاهنامه، النهر. وبعد أن قتل رستم ابنه الوحيد فى خطأ مأساوى ، عادت الجيوش الفارسية والتركية إلى معسكرها ، وأشعلوا نيرانهم، وبدءوا طهوهم ، تاركين البطل وحده مع الجثة. ويتخيل الشاعر مجرى النهر العظيم كله :

ولكن النهر الجليل استمر فى جريانه

خارجاً من الضباب ومن طين تلك الأرض الواطئة .

فى ضوء النجوم المكمل بالصقيع ، وهناك تحرك

فرحاً ، عبر أراضى خوارزم الخاوية الساكنة

(*) أمول القديمة.

تحت القمر المتوحد : فاض
صوب النجم القطبي مباشرة ، عبر أورجونجي
مُترعاً ، مضيئاً ، وكبيراً : ثم تبدأ الرمال
لكي ترسم الحواف على مسيرته المائية ، وتعترض جريانه
وتقسم تياراته ؛ لتجعل منها عُصاً كثيرة
ونهر أموداريا المدعم المنقسم يجاهد على طول مجراه
من خلال مجارى من الرمال والجزر المندفعة الملبدة
ونهر أموداريا نسي سرعته البراقة التي كانت
في مهده الجبلى العالى فى بامير
جوالاً مبارزاً غير مباشر - حتى النهاية
يُسمع اصطدام الموجات الذى طال الشوق إليه ، وواسعاً
ينفتح موطن المياه المضيء فيه ، لامعاً
وهادئاً ، ومن أرضيته ، تبرز النجوم التى استحمت مجدداً
لتتألق فوق بحر الآرال .

لقد كان نهر أموداريا خط حدود حقيقياً . وأشار العرب إلى ما وراءه ببساطة
فى عبارة «ما وراء النهر» ، واستمر هذا الاسم مستخدماً حتى اليوم، بعد أن توقف
الناس فى المنطقة عن الحديث بالعربية . وعلى مدى فترة طويلة استخدم الباحثون
والرحالة الغربيون مصطلح «ما وراء النهر Transaxania لوصف المنطقة . وفى الفترة
الإسلامية الباكرة ، كانت هذه الأراضى تعتبر جزءاً من خراسان ، تلك الولاية
الشاسعة التى ضمت أيضاً شمال شرق إيران ، وكانت تُحكم من العاصمة الإقليمية فى
مرو، حيث كان الوالى يقيم عادة.

وهى أرض تضم بيئات كثيرة مختلفة حسمت أهداف العرب واستراتيجياتهم . وهناك وديان أنهار خصيبة حيث تتجمع المدن والقرى معاً . وبالقرب منها ، فى بعض الأحيان لايفصلها سوى السور حول الواحة ، كانت هناك صحراوات شاسعة حرماً قانظ فى الصيف ، وبردها قارص فى الشتاء ، لم يكن يستطيع العيش فيها سوى أشد البدو صلابه . ثم كانت هناك الجبال ، التى ترتفع غالباً بميل شديد مثل الأسوار من السهول ، وهى الجبال التى أوت الثقافات القديمة وأساليب الحياة وكفلت لها الحماية على مدى القرون بعد أن سيطر الغزاة الغرباء على السهول . وهناك عالم آخر ، مختلف من القرى الجبلية النائية حيث كان الناس يتحدثون لهجات تستعصى على الفهم ويعبدون أمراءهم باعتبارهم آلهة .

كان التقسيم الأساسى الأعظم بين الناس الذين عاشوا فى هذه الأراضى المتناقضة يفرق بين الناطقين باللهجات الإيرانية وأولئك الذين استخدموا إحدى اللغات التركية المختلفة . وهو تمايز مستمر إلى اليوم بين الطاجيك الناطقين بالفارسية والأوزبك الناطقين بالتركية . وفى القرن السابع عندما وصل العرب لأول مرة ، كانت الفروق اللغوية مصحوبة بفروق ثقافية ملحوظة ، إذ كان الناطقون بالفارسية ، عموماً ، سكان المدن والقرى فى الأراضى المستقرة على حين كان الناطقون بالتركية فى معظمهم من البدو .

ومن الناحية السياسية والاجتماعية ، انقسمت الأراضى الواقعة على امتداد نهر جيحون إلى أربعة أقاليم متميزة ومنفصلة^(٤) . وحول وادى النهر الأوسط تقع أراضى طخارستان ، التى يحدها من الشمال سلسلة جبال حصار وغيرها من السلاسل الجبلية ، وإلى الجنوب جبال الهندوكوش العظيمة ، التى تشكل الحدود مع جنوب أفغانستان وسهول الهند . ومنذ القرن التاسع عشر شكل النهر الحدود بين أفغانستان فى الجنوب وطاجيكستان التى تحكمها روسيا فى الشمال ، ولكن فى القرنين السابع والثامن لم تكن هناك مثل هذه الحدود وعلى كلا صفتى النهر كان الناس جزءاً من المجتمع نفسه والثقافة نفسها .

كانت طخارستان مرصعة بالمستوطنات القديمة . وكانت أهمها بلخ ، التى لا تزال أسوارها الكبيرة المشيدة من الطوب اللبن تطل على السهل المنبسط المؤدى إلى الجبال فى الجنوب . وكانت بلخ المخربة المهجورة منذ دمرها جيش چنكيزخان فى سنة ١٢٢٠م ، ذات مرة من المدن الكبرى فى آسيا الوسطى . وكان الاسكندر الأكبر قد غزاها وصارت عاصمة المملكة الإغريقية فى بكتريا . وهناك فى قلب آسيا على ضفاف نهر جيحون، أسس جنود الإسكندر وسلالتهم مركزاً للثقافة الهيلينية . وقد سكوا العملات وعليها صور حكامهم ، على الطراز الإغريقى، تضاهى فى رقيها العملات التى تم إنتاجها فى العالم اليونانى. وكان قصر الملوك المطل على نهر جيحون عند أى خنوم مشهداً معمارياً مستوراً مباشرة من مقدونيا، وقد بنى بشوارع واسعة مستقيمة ، قصر به ساحة بالأعمدة وچيمنازيوم للألعاب الرياضية .

وكانت المملكة الإغريقية قد ذبلت بحلول القرن الثانى قبل الميلاد وحلّت الثقافة البوذية التى جلبها ملوك كوشان محل هيللنية البحر المتوسط وآلهة الإغريق . وصارت بلخ مركزاً كبير للثقافة البوذية وجاء الحجاج من مناطق نائية مثل الصين لكى يزوروا معبد نوبهار الكبير فى الحقول خارج المدينة .

وفى الوقت الذى بدأ فيه العرب لأول مرة يغزون المنطقة بعد سنة ٦٥٠م ، كانت طخارستان منقسمة إلى الكثير من الإمارات ، على الرغم من أن الأمراء ، الذى كان الواحد منهم يحمل لقب چبغو ، كانوا يزعمون لأنفسهم نوعاً غامضاً من السيادة العليا على المنطقة . وكان حكام هذه الإمارات من أصول إيرانية أو تركية ، وديانتهم إما زرادشتية أو بوذية . وكانت أبوعدها ، على الطريق شرقاً إلى أعالي نهر جيحون ، إمارة بدخشان الجبلية، حيث كان يتم استخراج الباقوت واللازورد من مناجمها ، ثم إمارة ختل ، قبذيان وصغانيان، وإلى الجنوب ، فى أعماق جبال الهندوكوش كثيرة الشقوق، ترقد باميان، حيث رأس بوذا العملاق فى كرم يطل على الحقول الخضراء الحية فى أرض الوادى، وفيما وراء ذلك كانت كابول .

وبعد المرور بمدينة ترمذ الحصينة، وهى واحدة من المستوطنات القليلة التى تقع فعلاً على ضفاف النهر ، يتحول نهر جيحون (أموداريا) شمالاً. وفى النهاية يصل إلى

الأراضي المنبسطة المعروفة باسم خوارزم، التي تعرف اليوم بخورزم، لتفصل ما بين أوزبكستان وطاجيكستان^(٤). وهنا ينقسم إلى المجارى المختلفة والقنوات المختلفة التي تشكل دلتا النهر. وبعيداً ، منعزلة في الصحراء من جميع الجوانب، كانت هذه الأراضي الخصيبة مأهولة بالسكان من الألف الرابع قبل الميلاد الذين استقروا هناك بثقافتهم المتميزة . وكانوا يتحدثون بلغتهم الإيرانية الخاصة التي تذكر الغريب «بشقشة الزراير ونقيق الضفادع»^(٥)، والتي كانت تكتب في صيغة خطية مأخوذة عن الخط الآرامى القديم. وكانت الأرض الخصيبة تحت حكم سلالة من الملوك ، شاهات أسرة الفرغانيين، الذين كانت لهم السيادة على مدى ثلاثة قرون قبل قدوم الجيوش العربية ، بينون القصور الحصينة ويدافعون عن حدود بلادهم ضد البدو المعادين.

وأخيراً يصل النهر، أو كان من المعتاد أن يصل، إلى بحر الأورال . وأسفاه ، فإن «تلاطم الأمواج» الذى تخيله الشاعر لا يمكن سماعه بعد الآن، لأن البحر جفت مياهه ، فقد أخذت منه مياه كثيرة لرى حقول القطن فى تركمنستان؛ أما الآن فإن قوارب الصيد ترقد حيث كان خط الشاطئ فيما قبل يحيط به عالم موحش من الرمال والغبار المحمل بالملح .

وإلى الشرق من نهر أموداريا وشمال جبال حصار، فى أوزبكستان الحديثة ، تقع أرض الصفد، حول النهر المعروف فى أيامنا هذه باسم زرفشان (ناثر الذهب) ولكنه كان معروفاً للفاحين العرب باسم «نهر الصفد». ويفيض النهر من الشرق إلى الغرب، صاعداً فى جبال تركستان، ويفيض عبر الأراضي المنخفضة، مروراً بسمرقند وبخارى، ثم يتبدد فى الرمال فى صحراء قزىل قوم قبل أن ينضم إلى نهر أموداريا . وقد خلق النهر بلاد الصفد مثلما خلق أموداريا خوارزم أو مثلما خلق نهر النيل مصر .

ومعلوماتنا عن بلاد الصفد أكبر كثيراً من معلوماتنا عن غيرها من المناطق . فقد كانت مركزاً لحضارة قديمة كانت لها أيضاً لغتها الإيرانية الخاصة ، مكتوبة ، مثل لغة خوارزم، فى تنويع من الخط الآرامى. وقد بقى من عوادي الزمن عدد كبير من الوثائق الصفدية . كما كانت مسرحاً لأطول وأصعب قتال فى الحملات العسكرية العربية ،

وتخبرنا المصادر العربية عن أعمال الملوك المحليين، مثل ملك سمرقند العنيد المراوغ غورك.

كانت بلاد الصغد أرضاً للأمراء ، وكان أهمهم متمركزين في المركزين الحضريين الكبيرين بخارى وسمرقند. وكان هؤلاء الأمراء يحافظون على ثقافة البلاط والفروسية ، وقد بقيت منها صور على رسوم الجدران التي تم اكتشافها في القصور الصغدية في سمرقند القديمة وبنجيكت . ويمكن أن نلمح شيئاً من جو بلاط إحدى هذه الإمارات في الرواية التي يقدمها واحد من مؤرخي بخارى المحليين ، وهو النرشخي^(٧)، عن بلاط مدينته قبل الفتح العربي بوقت قصير في زمن السيدة خاتون (تقريباً سنة ٦٨٠-٧٠٠م) ، التي قيل عنها «... في زمانها لم يكن هناك من هو أقدر منها. فقد حكمت بحكمة وكان الناس يطيعونها» هذا الثناء مدهش بشكل واضح على النقيض من الموقف المعادي عامة لحكم النساء في المصادر التاريخية الإسلامية الباكرة. وقد اعتادت أن تركب يوماً خارج بوابة القلعة الكبيرة في بخارى إلى الأرض الرملية المفتوحة والمعروفة باسم رجستان. وهناك كانت تجمع بلاطها، وتجلس على العرش تحيط بها حاشيتها وخصيانها. وكانت قد أجبرت ملاك الأراضي المحليين والأمراء على أن يرسلوا مائتي شاب يومياً يتمنطقون بأحزمة من الذهب يحملون السيوف على أكتافهم. وعند خروجها، كانوا يصطفون صفين وهي تستفسر عن شئون الدولة وتصدر الأوامر ، وتمنح أثواب التشريفة للبعض وتعاقب البعض الآخر . وفي وقت الغذاء كانت ترجع إلى القلعة وترسل صحاف الطعام إلى حاشيتها . وتخرج مرة أخرى في المساء وتجلس على عرشها على حين ينتظر الملوك والأمراء في حضرتها صفين . ثم تمتطى حصانها ثانية ، لتعود إلى القصر ويعود الضيوف إلى قراهم وفي اليوم التالي تحضر مجموعة أخرى، ويكون متوقعاً أن تأخذ كل مجموعة دورها في البلاط أربع مرات سنوياً .

كانت بلاد الصغد أيضاً بلاد التجار . وقد شهدت الفترة من القرن الخامس إلى القرن الثامن أول ازدهار كبير «لطريق الحرير» البري فيما بين الصين والغرب ، «وطريق الحرير» مصطلح يحبه المؤرخون الرومانسيون وشركات السفر مستحضرين عالماً من بضائع الرفاهية ، والمدن المكسوة باللآلئ ، يفوح منها عبق التوابل وأريج

رحلات القوافل النيرة الطويلة عبر أكثر الطرق الأشد عزلة وجدياً على سطح الأرض. والحقيقة أكثر واقعية . إذ إن الطرق البرية بين الصين والغرب لم تكن تستخدم للتجارة سوى على فترات منقطعة ، وعلى مدى فترات كثيرة من العصور الوسطى كان الطريق البحرى من الشرق الأوسط عبر المحيط الهندى إلى الصين أهم كثيراً فى التجارة . وكانت هناك فترتان تاريخيتان رئيسيتان عندما ظهر الطريق البرى وعندما صار طريق الحرير بؤرة كبرى للتجارة العالمية. وكانت أولى هاتين الفترتين قبل الفتوح الإسلامية مباشرة وفى أثنائها ؛ أما الفترة الثانية فكانت فى القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى عندما وفرت الإمبراطورية المغولية قدراً من الأمن على امتداد الطريق ، مما شجع تجاراً من أمثال ماركو بولو على السفر .

وعلى أية حال، فإن التأكيد على الحرير ليس صياغة فارغة مبتذلة : لأنه يعكس حقيقة مهمة. فعلى الرغم من أن الإمبراطورية الصينية استخدمت الكثير من العملات البيزنطية، فإنها لم تكن تملك من العملات ذات القيمة العالية سوى القليل جداً، من الذهب أو الفضة . وبدلاً من ذلك ، كان الحرير إلى جانب مكاييل القمح، يستخدم بديلاً عن العملة . والكثير من هذه «النقود» شقت طريقها إلى آسيا الوسطى. وفى القرن السابع كانت السلطات الصينية تحاول تقوية سيطرتها فى سكتيانج بإنفاق الكثير من الموارد بالدفع للموظفين والجنود. ويمكن أن نخرج من الوثائق القديمة التى تم إنقاذها من صحراء جوبى بالقرب من معبد بوذا الكبير فى دونهوانج ببعض المؤشرات عن كيفية عمل هذا . وهناك مثال يصف ضابطاً بالجيش فى سنة ٧٤٥م كانت الحكومة المركزية مدينة له بمائة وستين كيلو جراماً من العملة البرونزية عن راتبه فى نصف سنة^(٨). ومن خلال الدفع له بواسطة الحرير الخفيف الذى يمكن نقله بسهولة فقط، كان يمكن لهذا النظام أن يكون عملياً . إذ إن الموظف سيكون قادراً عندئذ على أن يبيع الحرير إلى التجار الصغد فى مقابل الفضة أو البضائع المطلوبة من الغرب. أما الصغد بدورهم فكانوا يحملون الحرير إلى أسواق إيران وبيزنطة . ومن المؤكد أن السيطرة على هذه التجارة الغنية كانت من أهم الأسباب التى جعلت العرب مصرين على هذا النحو على مد سلطانهم فى هذه المنطقة البعيدة.

أما الجزء الرابع ، والأبعد ، من بلاد ما وراء النهر فكانت الأراضى الواقعة حول نهر سيرداريا الحديث (سيحون) ، وهى الآن جزء من أوزبكستان وقازقستان . وتقع هذه الأراضى على مسافة مائة وستين كيلو متراً شمال بلاد الصفد عبر السهول المعروفة باسم مناطق الإستبس الجائعة ، حيث تبدو آثار الزحف عبر الصحراء شاخصة فى العظام التى حال لونها إلى البياض للرجال والحيوانات الذين هلكوا على طول الطريق . وإذا كان نهر «سيرداريا» أصغر من نهر «أموداريا» ويمكن خوضه فى عدة أماكن ، فإنه كان يروى أراضى إمارة الشاش (طشقند الحديثة) ، وعلى مسافة أبعد شرقاً ، سهول وادى فرغانة الشاسع المفتوحة. وفيما وراء ذلك، وعلى الجبال ، تقع كاشغر وأراضى الإمبراطورية الصينية.

ويوصف بدو آسيا الداخلية عامة فى المصادر العربية بأنهم الأتراك ، وحدث فى أثناء غزوات العرب أن واجهوا هؤلاء القوم للمرة الأولى، وكان مقدراً لهم أن يتركوا مثل هذا التأثير العميق على الثقافة الإسلامية^(١). والعلاقة بين هؤلاء الأتراك وسكان تركيا الحديثة ليست مباشرة وواضحة . وفى زمن الغزو العربى، كانت تركيا الحالية جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية، وقيض لها أن تبقى هكذا على مدى القرون الأربعة التالية. وفى حدود علمنا، لم يكن هناك تركى واحد يعيش هناك، وترجع أصول الأتراك إلى مناطق بعيدة فى الشرق. وفى منتصف القرن السادس الميلادى بدأت المؤرخات الصينية تشير إلى شعب يسمى Tu-chüch، كانوا يشيدون إمبراطورية فى أراضى الإستبس المعشوشبة الشاسعة شمال سور الصين العظيم صارت فيما بعد أراضى المغول . ويبدو أن مؤسس الإمبراطورية، حسبما جاء فى المؤرخات الصينية ، كان بومين الذى مات سنة ٥٥٢م، مع أخيه إيشتمى. ولدينا تأكيد لهذا فى سلسلة من النقوش الرائعة باللغة التركية القديمة ، منقوشة على حجارة وُجدت فى وادى نهر أورخون الذى يكسوه العشب فى منغوليا . وهناك ملك جاء فى فترة لاحقة كتب على الحجر سجلاً للأيام المجيدة لمؤسسى الأسرة الحاكمة :

«عندما تم خلق السماوات الزرقاء فى الأعلى وخلقت الأرض البنية فى الأسفل ، فيما بينهما خلق أبناء الإنسان. وفوق جميع بنى الإنسان يقف أجدادى الكاغان(*) بومين وإيشتمى. ولما صارا سيدين على شعب الترك ، أسسا الإمبراطورية وحكماها وأرسيا دعائم القانون فى البلاد. وكان أعداؤهما كثر ، ولكنهما أخضعاهم بالحملات العسكرية التى جرداهما ضدهم ، كما نشرا السلام بين أمم كثيرة فى أركان الدنيا الأربعة. وأجبراهم على أن يحنوا رؤوسهم ويثنوا ركبتهم . كان هذان حاكمين حكيمين (كاغان)، كانا كاغانات شجعان: وكان جميع ضباطهما حكماء وجسورين؛ أما النبلاء ، والناس جميعاً، والشعب فكانوا عادلين. كان هذا هو السبب فى أنهما تمكنا أن يحكما إمبراطورية فى مثل هذه العظمة، ولماذا تمكنا من فرض القانون إبان حكمهما الإمبراطورية(١٠) .»

لم تقم قوة الأتراك على أساس العدالة والبسالة الفردية فحسب وإنما قامت على ما هو أكثر من هذا. فقد تأسست على مهارات أولئك البدو الذى تميزوا بالصلابة بوصفهم محاربين فرسان، وبوصفهم رماة راكبين أولاً وقبل كل شىء . إذ كان الأتراك الأوائل بدو خيل ؛ يعيشون على خيولهم ، يشربون لبن إناث الخيل، ويأكلون لحوم الخيول ، وفى الحالة القصوى قد يفتحون عروقها ويشربون دماء الحيوانات الحية . وغالبا ما يركب التركي الحصان قبل أن يتعلم المشى. وبالإضافة إلى كونهم فرسان مهرة ، كانوا شديدي الصلابة بشكل لا يصدق . إذ تتم تربيتهم فى الحرارة القائظة والبرودة القارصة فى جوف آسيا، فإنهم يستطيعون تحمل الصعاب التى يمكن أن تودى بحياة غيرهم من الناس.

وقد جاء وصف أساليب القتال لدى الترك فى بداية القرن السابع فى كتاب الاستراتيجية Strategikum الذى يُنسب إلى الإمبراطور البيزنطى موريس ، وكتب مؤلفه : «إن أمة الترك أمة كثيرة العدد ومستقلة . وهم ليسوا بارعين أو مهرة فى معظم

(*) أى الخاجان ، ومرادفها «خان» كانت ألقاب تركية تقليدية معناها الحاكم أو الرئيس .

الأعمال الإنسانية ، ولا دربوا أنفسهم على أى شىء سوى توجيه أنفسهم بشجاعة ضد أعدائهم... ولديهم صيغة ملكية للحكم ويوقع حكامهم عقوبات قاسية عليهم جزاء أخطائهم . ولأن الخوف يحكمهم وليس الحب ، فإنهم يتحملون الأعمال والمصاعب بإخلاص . وهم يتحملون الحرارة والبرد والعوز إلى الكثير من الضروريات ، لأنهم قوم من البدو . وهم يؤمنون تماماً بالخرعبلات ، وخونة ، فاسدين ، لا دين لهم ، تتملكهم رغبة نهمة فى الثروة . ولا يحترمون عهودهم ، ولا يحافظون على معاهداتهم ، ولا ترضيهم الهدايا . وحتى قبل أن يقبلوا الهدية ، يضعون الخطط للخيانة ولنقض اتفاقياتهم . وهم بارعون فى تقدير الفرص المناسبة لفعل هذا والاستفادة منه تماماً . وهم يفضلون أن يسودوا على أعدائهم بالخدعة والهجمات المفاجئة وقطع الإمدادات أكثر من اعتمادهم على القوة».

«وهم مسلحون بالزرد والسيوف والأقواس والحراب؛ وتتدلى الحراب فوق أكتافهم ويمسكون القسي فى أيديهم ، ليستخدموا الإثنين حسبما تدعو الحاجة . ولا يلبسون الدروع حول أجسادهم فحسب، وإنما يغطون أيضاً خيول قادتهم من الأمام بالحديد أو اللباد . ويهتمون اهتماماً خاصاً بالتدريب على الرمي بالسهم من فوق ظهور الخيل.

«ويتبعهم قطع هائل من الخيول ذكوراً وإناثاً لتوفير الغذاء لهم ولكى تعطى انطباعاً بضخامة الجيش أيضاً . وهم لا يعسكرون داخل المباني مثلما يفعل الفرس والرومان، ولكنهم حتى يوم المعركة ينتشرون وفقاً للقبائل والعشائر ، ويرعون خيولهم صيفا وشتاء باستمرار . ثم يأخذون ما يظنون أنهم يحتاجون إليه من الخيول، ليربطوها إلى جوار خيامهم ، ويحرسونها حتى يحين تشكيل صف القتال، الذى يشكلونه تحت ستر الليل . ويقيمون حراسهم على مسافات متقاربة ليكون كل منهم على اتصال بغيره، بحيث لا يكون من السهولة مباغتتهم بالهجوم.

«وفى الاشتباك ، لا يشكلون صفوفهم فى أقسام ثلاثة، على نحو ما يفعل الرومان والفرس، وإنما فى عدة وحدات من أحجام غير منتظمة ، وكلها مربوطة إلى بعضها

البعض عن قرب لكى تعطى مظهر خط قتال واحد طويل. ولديهم قوة إضافية ، منفصلة عن قوتهم الرئيسية ، يمكن إرسالها فى كمين لعدو غير محترس أو تبقى احتياطياً لمساعدة قسم يتعرض لضغط شديد . ويبقون خيولهم الاحتياطية قريبة خلف خطهم الرئيسى وقافلة أمتعتهم إلى اليمين أو اليسار على مسافة حوالى ميل، أو ميلين تحت حراسة ذات حجم معقول . وكثيرا ما يربطون الخيول الزائدة سوياً إلى المؤخرة من خط قتالهم لتوفير شكل من أشكال الحماية.

«وهم يفضلون المعارك التى يخوضونها على مدى طويل، والكمائن ، والإحاطة بخصومهم، والتقهقر المصطنع والعودة المفاجئة ، والتشكيلات التى تشبه الودت ، أى فى مجموعات مبعثرة . وعندما يجبرون أعداءهم على الفرار، يتركون كل ماعدا ذلك ، ولايقنعون مثل الفرس والرومان وغيرهم من الشعوب، بمطاردتهم إلى مسافة معقولة ونهب ما معهم، ولكنهم لايتركونهم حتى يحققون الدمار الكامل لأعدائهم، ويستخدمون كل وسيلة لتحقيق هذه الغاية. فإذا ما لجأ بعض أفراد العدو الذى يطاربونه إلى قلعة فإنهم يبذلون جهوداً مستمرة متواصلة لكى يكتشفوا أى نقص فى الضروريات اللازمة للخيول أو للرجال. ثم ينهكون أعداءهم بمثل هذا النقص ويجبرونهم على قبول الشروط التى تناسبهم. ومطالبهم الأولية خفيفة تماماً ، وعندما يوافق العدو عليها يفرضون شروطاً أشد وطأة.

«ويكونون عرضة لنقص الأعلاف الذى يمكن أن ينتج عن العدد الضخم من الخيول التى يجلبونها معهم. وكذلك فى حالة المعركة، عندما يواجهون بقوة من المشاة فى تشكيل متماسك، فإنهم يظلون فوق خيولهم ولا يترجلون، لأنهم لايصمدون طويلاً فى القتال على الأقدام . فقد تمت تربيتهم على ظهور الخيل، ويسبب نقص تدريبهم ، فإنهم ببساطة لا يمكنهم السير كثيراً على أقدامهم»^(١١).

كان هؤلاء المحاربون الأشداء هم الذين واجههم العرب عندما عبروا نهر أموداريا الكبير، وانبهروا بهم.

وفيما بين سنة ٥٥٧م وسنة ٥٦١م ، تحالف الترك تحت قيادة أخى بومين وخليفته إيشتمى ، مع الشاه الساسانى كسرى الأول (٥٢١ - ٥٧٩م) لتدمير الشعب البدوى الذى يعرفه التاريخ باسم الهبثاليين Hephthalites ، الذين كانوا سادة مناطق الإستبس فيما وراء النهر على مدى قرن من الزمان. وقد جلب هذا القوة التركية إلى حدود الإمبراطورية الفارسية مباشرة. بل كان هناك زواج تحالف بين الشاه الساسانى وابنة الخاجان إيشتمى. وفى الوقت نفسه، قامت صلات دبلوماسية بين الأتراك والبيزنطيين، من أجل إنشاء تجارة فى حرير آسيا الوسطى عبر أراضى الإستبس شمال البحر الأسود.

هذه الإمبراطورية التركية العظمى الأولى لم يقدر لها أن تستمر . إذ إن المنازعات فيما بين أفراد العائلة الحاكمة أدت إلى نشوب حرب أهلية . وبحلول سنة ٥٨٢م كان الأتراك الغربيون قد انفصلوا عن أبناء عموماتهم الشرقيين وكانت خانية تركية منفصلة قد تأسست فى بلاد ما وراء النهر. وكان الخان التركى «تونج ينغو» ما يزال حاكماً عظيماً عندما جاء حاج صينى بوذى اسمه «هسونج - تسانج» ماراً بأراضيه وقابله شخصياً ، ولكنه اغتيل بعد ذلك بوقت قصير وبدأت الخانية الغربية تتداعى وتنهيار. وفى وقت وصول الجيوش العربية عند بداية القرن الثامن الميلادى، كان زعيم الترك ، تورجش خان، رئيساً بدوياً يعترف بالسيادة العليا للإمبراطور الصينى. وعلى الرغم من انهيار إمبراطوريتهم ، فعندما تحالف الترك البدو فى بلاد ما وراء النهر مع الأمراء الإيرانيين المحليين، برهنوا على أنهم ربما كانوا أشرس معارضة واجهها المسلمون على الإطلاق .

وكان فى هذه الفسيفساء من الشعوب المحاربة والثقافات الحربية المستقرة فى الأرض الشاسعة المتنوعة أن وصلت أولى الطلائع العسكرية العربية الأولى فى مطلع خمسينيات القرن السابع الميلادى.

كانت الاختراقات العربية الأولى عبر النهر حملات إغارات بسيطة ، هدفها الحصول على الجزية . والمصادر العربية غالباً ما تقدم هذه الإغارة باعتبارها فتوحاً حقيقية كما أن المقاومة التالية للهجمات الأكثر انتظاماً فتقوم على أنها حوادث تمرد

ضد السلطة الإسلامية . وقد وصلت هذه الغارات الأولى حتى سمرقند ، ولكنها واجهت مقاومة شديدة وانسحبت الجيوش العربية قبل حلول الشتاء . وقد أتاح هذا الانسحاب للأهالي المحليين بعض الراحة لالتقاط الأنفاس ، ونعرف أن «ملك خراسان» قابل القوات وانضم إليها ، واتفقوا على ألا يهاجموا بعضهم بعضاً ، ولكن على أن يتبادلوا المعلومات ويتعاونوا ضد الغزاة^(١٢) . وكان مثل هذا التعاون نادراً في السنوات التالية .

وكان لموت أحد العرب في هذه السنوات الباكرة من التوغل العربي عبر النهر عواقب غير متوقعة ولكنها كانت باقية . فقد قيل إن من بين المسلمين الذين قتلوا في سمرقند في الغارات الأولى كان قثم بن العباس ، عم النبي محمد^(١٣) . ولم يكن قثم يتمتع فحسب بالمكانة المرجوة باعتباره من الصحابة ولكنه كان أيضاً أول أبناء عمومه . وعلى الرغم من أصله ونسبه وروابطه الرفيعة ، فقد عرف بتواضعه ورفضه قبول أكثر من نصيبه العادي من الفئى لنفسه ولفرسه . وعلى الدوام كانت ذكراه مبعجة بين مسلمي آسيا الوسطى ، مهما كانت إنجازاته متواضعة ، ويُنظر إليه على أنه جلب نوعاً من جاذبية الدائرة المباشرة المحيطة بالنبي إلى هذه الأراضي النائية ، وهى رابطة مباشرة بين النبي محمد ومسلمي ما وراء النهر . وظهرت أسطورة تقول إنه لم يمت وإنما عاش في مقبرته ، فى أعماق أسوار سمرقند العتيقة المشيدة بالطوب اللبن وأطلق عليه اسم «الملك الحى» (شاهى زندا) ، وفى عصر تيمورلنك (أواخر القرن الرابع عشر الميلادى / الثامن الهجرى) صار قبره مركزاً لمجمع من المقابر دفن فيه أمراء وأميرات بلاط تيمورلنك . وتبقى أضرحتهم بقبابها الزرقاء والتركوازية من بين أفخم وأروع الأمثلة للعمارة الفارسية والزخرفة الفارسية فى أى مكان .

وفى سنة ٦٧١م رتب زياد بن أبى سفيان ، والى العراق والشرق كله ، لخروج خمسين ألف رجل من العراق ، معظمهم من البصرة ، قاصدين مرو لتخفيف الضغط على الموارد . وحتى ذلك الوقت ، كانت الجيوش العربية تأتى إلى خراسان سنوياً ، ثم تعود إلى العراق كل شتاء ، ولاتترك سوى قوة صغيرة للدفاع عن المدينة . وقد غير وصول هذا العدد الكبير من العرب بقصد الإقامة الدائمة من طبيعة الوجود الإسلامى فى المنطقة . وربما كان عدد العرب المستقرين فى مرو والبلدات والقرى المحيطة بها

أكبر من عددهم فى باقى أنحاء إيران. وكانوا يتعطشون طموحاً إلى الثروة والمغامرة : وكان قدر هؤلاء الرجال أن يشكلوا قلب الجيوش المسلمة الغازية فيما وراء النهر.

وكان تعيين سلم بن زياد والياً على خراسان سنة ٦٨١م علامة على أن الاختراقات عبر النهر قد باتت كثيرة ومتعمدة . وانطلق فى استعداداته على نحو منهجى، وكون جيشاً من عدة آلاف من الرجال من العرب المستقرين . وكان كثير من هؤلاء متطوعين أرادوا المشاركة فى الجهاد ولكن الحماسة لم تغلبهم : وهناك رجل^(١٤)، هو صلة بن أشيم العدوى كان «... يأتى الديوان فيقول له الكاتب : يا أبا الصهباء ألا أثبت اسمك فإنه وجه فيه جهاد وفضل ؟ فيقول له: أستخير الله وأنظر، فلم يزل يدافع حتى فرغ من أمر الناس ، فقالت له امرأته معاذة ابنة عبدالله العدوية: ألا تكتب نفسك؟ قال فرأى فى منامه أتياً آتاه، فقال هل : اخرج فإنك تبيع وتفتح وتتجج ، فأتى الكاتب فقال له : أثبتنى؛ قال فرغنا ولن أدعك ، فاثبتته وابنه»^(*).

ولدينا تفاصيل قليلة عن الحملة بغض النظر عن حقيقة أن «سلم» كان أول رجل يمضى الشتاء فيما وراء النهر ، ربما فى سمرقند ، مع رجاله . وهاجم الجيش خوارزم وأخذ منها الجزية قبل العبور إلى الصغد ، حيث عقدوا الصلح . ووفقاً لتراث بخارى، هاجم «سلم» المدينة، وأجبر الملكة خاتون على أن تطلب الصلح، ولكن التفاصيل مرتبكة تماماً^(١٥). وكان سلم قد أخذ زوجته معه وفى سمرقند وضعت طفلاً أطلقت عليه اسم «صغدى» تخليداً لذكرى مسقط رأسه. وأرسلت إلى زوجة صاحب الصغد تطلب استعارة بعض لوازم الطفل فأرسلت لها تاجها. وعندما تقهقر الجيش المسلم أخذت زوجة «سلم» التاج معها^(١٦). وهذا يوضح أن العلاقات بين الطبقات العليا العربية والإيرانية لم تكن عدائية دائماً وأن زوجتى العدوين رأيتا أنهما متساويتان، على الرغم من أن التاريخ لم يحفظ لنا رد فعل الملكة الصغدية إزاء خسارتها لتاجها بصفة دائمة.

(*) النص من الطبرى، ج ٥ ، ص ٤٧٢ - ص ٤٧٣ .

وقد توقفت كافة خطط سلم المحتملة لمواصلة الفتح فجأة ، بسبب الفوضى التي أنشبت مخالبيها فى الفترة التى أعقبت وفاة الخليفة الأموى يزيد بن معاوية سنة ٦٨٢م. وكانت عائلة «سلم» تتولى قيادة مؤيدى الخليفة المتوفى، فترك خراسان آنذاك ليشق طريقه عائداً نحو الغرب ، يريد المشاركة فى المناقشات الدائرة حول ولاية العرش. وترك العرب فى خراسان دونما قائد رسمى، واندلعت المنافسات القبلية ، التى كان يحتويها الولاية، بضراوة مدهشة . وكانت هناك ثلاث جماعات قبلية رسمية ممثلة فى خراسان - مضر، وربيعة، وبكر بن وائل - وبدأوا فى ذلك الحين صراعاً مستعراً من أجل السيطرة على الولاية . وتولى عبدالله بن خازم المضرى زمام السلطة فى مرو . وأمر بقتل اثنين من رؤساء ربيعة . وبذلك صار هناك دم بين الجماعتين وباتت الحرب حتمية . وقد عادت جميع الخصومات القبلية التى شهدتها الجزيرة العربية قبل الإسلام للظهور فى هذا الموقع الثانى من العالم المسلم، وزادت حدتها بسبب التنافس على الثروة فى البلاد المفتوحة . وبدأ غزاة القرن السابع هؤلاء يتنازعونها فيما بينهم.

وفرت قبيلتا ربيعة وبكر من مرو جنوباً إلى هرات ووطدوا أنفسهم هناك فى هذه المدينة العتيقة، وتبعهم عبدالله. وأقسم رجال القبائل الهاربون أنه لا مكان لمضر فى خراسان. وعلى مدى سنة كاملة تصدوا لقوات عبدالله. وعندما اخترق عبدالله صفوفهم فى النهاية، جرت عليهم مذبحة . وأقسم ليعمد من جميع الأسرى الذين يتم إحضارهم إليه قبل غروب الشمس، وقد كان عند كلمته . وقيل إنه ذبح ثمانية آلاف من ربيعة وبكر. ولم تعد الأمور فى خراسان إلى ما كانت عليه أبداً^(١٧) ونشبت الحروب فيما بين القبائل العربية بوحشية ضارية ، حتى فى الوقت الذى كانت الجيوش الإسلامية تقوم بغزو مناطق جديدة، وعندما وصلت أنباء المذبحة إلى البصرة البعيدة، والتى كانت الوطن الأصلى لهؤلاء الرجال، أثارت دورة جديدة من العنف بين القبائل فى المدينة^(١٨).

فى ذلك الحين بات عبدالله سيدياً على خراسان ، ولم يكن مسئولاً أمام أحد سوى نفسه ، ولكن المتاعب كانت تختمر . وظن أن بوسعه الاستغناء عن مساندة قبيلة تميم القوية : فقد أمين عدد من أبناء القبيلة وحلفائهم ، وتم جلد اثنين منهم بالسياط حتى الموت. وعلى سبيل الانتقام خطفوا ابن عبدالله محمد الذى كان مسئولاً عن «هرات».

وبينما كان ملقى مقيداً فى معسكرهم تلك الليلة، جلسوا يشربون ، فإذا أراد أحدهم أن يتبول، فعلها على سجينهم وقتلوه قبل الفجر^(١٩).

وإذ أهين عبدالله وتملكته الرغبة فى الانتقام ردّ لهم الضربة وتجددت الحرب فيما بين العرب بمزيد من الكثافة. بيد أنه كان لا يزال هناك مكان للفروسية القديمة على أية حال. فقد كان عبدالله رجلاً تتكاثر حوله القصص . وفى إحدى هذه القصص وافق على مبارزة فردية مع واحد من زعماء المعارضة اسمه الحريش^(٢٠) (الحريش بن هلال) «... فتصاولا تصاول الفحلين، لا يقدر أحد منهما على ما يريد...» ثم غفل عبدالله فضربه الحريش على رأسه . ولم يساعد عبدالله سوى انقطاع ركاب خصمه فهرب، عائداً إلى قومه وهو يحتضن رقبه فرسه^(٢١). وفى القتال العام الذى أعقب ذلك، انتصر رجال عبدالله، وأمسك بخصمه الذى تخلى عنه الجميع ولم يبق معه سوى اثنى عشر رجلاً ، صمدوا فى حصن مهجور وقد عقدوا العزم على الدفاع عن أنفسهم. وعرض عبد الله الصلح . وكان على خصمه أن يغادر خراسان ، وأن يدفع عبدالله أربعين ألف درهم ويتم دفع ما عليه من ديون . وبينما كان يناقشون شروط الصلح سقطت الضمادة التى حول رأس عبدالله بن خازم، والتى كانت تحمى الجرح الذى أصيب به فى المبارزة. وانحنى الحريش ليلتقطها ويضعها على رأسه «... فقال له ابن خازم : مسك اليوم يا أبا قدامة ألين من مسك أمس، قال: معذرة إلى الله وإليك، أما والله لولا أن ركابى انقطعوا لخالط السيف أضراسك. فضحك ابن خازم ، وانصرف عنه وتفرق جمع بنى تميم...».

وقال الحريش فى قتاله ابن خازم:

أزال عظم يمينى عن مركبه	حمل الردينى فى الإدلاج والسحر
حولين ما اغتضمت عيني بمنزلة	إلا وكفى وساد لى على حجر
بزى الحديد وسريالى إذا هجعت	عنى العيون محال القارح الذكّر ^(٢٢) (*)

(*) النص من الطبرى ، ج ٥ ، ص ٦٢٥ - ص ٦٢٦ . (المترجم)

على هذا النحو كان يروق للبدا أن يتذكروا أبطالهم : أشداء، منعزلين ، يعتمدون على أنفسهم، وجسورين. كانت هذه الروح هى التى أخذت الجيوش العربية إلى حدود الصين.

وعلى أية حال، لم يكن ممكناً أن يكون هناك مزاح مع الرجال قتلوا ابن عبد الله وطاردتهم فى قسوة لاترحم . ولجأوا إلى القلعة المبنية بالطين فى مدينة ميرفروود الصغيرة على ضفاف نهر المرغاب، وكان يقود الدفاع رجل يسمى الزهير كان جسوراً ومغامراً ، وكان يشن هجمات على امتداد النهر الجاف ليفاجئ رجال عبد الله، وهو يحلف أن يطلق امرأته إذا لم يكسر صفوف عبدالله، وفى إحدى المناسبات كان عبد الله قد أمر رجاله أن يضعوا خطاطيف فى رماحهم لكى تشتبك فى سلاسل الزرد التى يرتديها زهير ويسحبوه . وقد اشتبكت أربعة رماح فى كسوة الزرد التى يتدرب بها ولكنه كان قوياً بحيث استعصى عليهم، وسحب الرماح من قبضاتهم وعاد إلى قلعته ، واحتفظ بالرماح التى كانت تتدلى من سلاحه على سبيل التذكار^(٢٣).

وكان للحصار الذى استمر سنة كاملة أن يستوفى ضريرته وكان اللاجئين على وشك الاستسلام . وحثم زهير على الخروج للقتال واختراق صفوف عبد الله التى تفرض احصار، ثم قال إن طريقهم سيكون واضحاً مثل المربد ، الميدان الكبير المفتوح فى موطنهم البصرة على مسافة ألف كيلو متر . بيد أنه لم يستطع أن يحشد ما يكفى من التأييد بين المدافعين، الذين فضلوا الاستسلام والركون إلى الثقة فى رحمة عبدالله. وفتحوا البوابات ونزلوا وأيديهم مقيدة وجئ بهم إلى عبدالله . وتمضى القصة لتقول إنه حتى فى ذلك الحين كان على استعداد لأن يكون رحيماً معهم، ولكن ابنه الباقي موسى، الذى كان يقف إلى جانبه ، كان عديم الشفقة «... فأنى ابنه موسى ، وقال : والله لئن عفوت عنهم لأتكنن على سيفى حتى يخرج من ظهري، فقال له عبد الله: أما والله إنى لأعلم أن الغيَ فيما تأمرنى به، ثم قتلهم جميعاً إلا ثلاثة...»^(*) وهكذا مرة أخرى ،

(*) النص من الطبرى ، ج ٦ ، ص ٧٨ - ص ٨٠ . (المترجم)

خضع عبد الله لابنه الحاقد . وكان لزهير مطلب أخير: «... فقال له زهير: إن لى حاجة، قال: وما هى؟ قال: تقتلنى على حدة، ولا تخلط دى بدماء هؤلاء اللئام ، فقد نهيتهم عما صنعوا وأمرتهم أن يموتوا كراماً ، وأن يخرجوا عليكم مصلتين، وإيم الله لو فعلوا لذعروا بُنيك هذا ، وشغلوه بنفسه عن طلب الثأر بأخيه فأبوا، ولو فعلوا ما قتل منهم رجل حتى يقتل ...»(*) وهكذا أخذ على حدة وتم قتله بشكل منفصل .

وطالما كانت الحرب الأهلية مشتتة فى العراق والشام ، قلب الخلافة ، حكم عبدالله خراسان كأنها ضيعة خاصة ، ولكن بحلول سنة ٦٩١م، أحكم الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٨٥-٧٠٥م) سيطرته على دمشق وعقد العزم على استعادة قوة الحكومة المركزية. وكان جزء من خطته أن يقيم حكماً فعالاً على خراسان والمحاربين العرب الجامحين فيها . وبدأ بالتفاوض ، فكتب إلى عبد الله ، يعرض عليه شروطاً معقولة للغاية: أن يأخذ عائدات الولاية «طعمة» له على مدى سبع سنوات . ولكن عبدالله كان متكبراً بحيث لايقبل الشروط ، وأمر الرسول أن يأكل خطاب الخليفة إيماء إلى احتقاره له. وفى الوقت نفسه ، بدأ الخليفة اتصالاته مع المنافسين الممكنين فى الولاية. وتم تشجيعهم على التمرد ضد الطاعية . وبدأ الذعر يملك عبدالله وغادر العاصمة فى مرو ليحاول الانضمام إلى ابنه موسى فى ترمذ. وقطع عليه أعداؤه الطريق. وانتهت المعركة فى منتصف النهار. وتم تثبيت عبدالله إلى الأرض بسن رمح على حين جلس رجل على صدره واستعد لقتله ، انتقاماً لقتل أخيه . ولم يكن عبدالله قد انتهى تماماً بعد فبصق فى وجه قاتله مهمماً إن أخاه كان مجرد فلاح ، لا يستحق حفنة من نوى البلح، على حين أنه هو ، عبد الله، زعيم قبيلة مضر. وإذ بقى جسوراً حتى الرمق الأخير تم قتله وقطعت رأسه . وقال أحد الأهالى إنه رأى جثته ، مربوطة إلى جانب بغل ، معها حجر على الجانب الآخر لموازنتها . وتم إرسال الرأس إلى الخليفة. ومن المؤكد أن

(*) النص من الطبرى ، ج٦ ، ص٧٨-٨٠ . (المترجم)

كثيرين فرحوا لمصرعه ولكن أبناء قبيلته رثوه فى حزن لأنه كان زعيماً شجاعاً وكريماً
وقال أحد شعرائهم :

فقد بقيت كلاب نابحات وما فى الأرض بعدك من زئير^(٢٤)

وبحلول سنة ٦٩٦م كان هناك وال جديد ، هو أمية الذى عينه الخليفة عبد الملك
وكان من السلالة الحاكمة من بنى أمية، هادئاً ، كريماً ، محباً للسلام ، وزعم أعداؤه
أنه كان متأنقاً مخنئاً . وتعين عليه أن يخوض صراعاً قاسياً لى يبقى عرب خراسان
الجامحين خاضعين للنظام. وكانت أكثر الطرق لتحقيق هذا أن يقودهم فى حملة عبر
النهر لى يشغل أذهانهم بالأفكار الخاصة بالجهاد والغنائم بدلاً من النزاع القبلى
والثأر . وتمت الاستعدادات للقيام بحملة كبيرة ضد بخارى . وأنفق أمية مبلغاً هائلاً
من المال على الخيول والسلاح، ويقال إنه اقترض هذا المال من التجار الصغديين^(٢٥) .
وتكشف العملية عن كيفية تعقد العلاقات بين العرب والأهالى المحليين . فقد كانت
بخارى واقعة داخل بلاد الصغد ، ومع هذا كان هناك بعض الصغديين على الأقل
مستعدين لإقراض الأموال إلى العرب الذى كانوا يحاولون غزو موطنهم فى بلاد
الصغد . وكانت الحملة فى نظر كثير من العرب أيضاً مغامرة محفوفة بالمخاطر :
ونعرف أن رجلاً اقترض مالا ليجهن نفسه للانضمام إلى الحملة ولكن ، عندما قرر ألا
يذهب ، سجنه دائنوه وسدد أحد أصدقائه الأثرياء ديونه لى يخرج من السجن^(٢٦) .
والحقيقة أنه يبدو أن كثيرا من العرب وجدوا أنفسهم يواجهون صعوبات مالية، وشكوا
من أن ملاك الأرض المحليين قد تولوا مسئولية جباية الضرائب ، مما جعل لهم بعض
السلطة على الفاتحين^(٢٧) . وبالنسبة للعرب الفقراء الساخطين كانت الغارة عبر النهر
مع إمكانية الحصول على الغنائم الوفيرة اقتراحاً جذاباً للغاية.

وفى خضم الأحداث يبدو أن أمية لم يكن يتمتع باحترام قواته وثقتها وكانت
الحملة إخفاقاً تاماً . فبعد أن عبر هو ورجاله على جسر من القوارب نهر أموداريا عند
أمل ، رفض القائد الذى يليه أن يمضى وراءه أبعد من ذلك ، وعبر النهر عائداً مع
بعض رجاله ، وحرق جسر القوارب واتجه للاستيلاء على مرو وعين نفسه والياً.

وفشلت الدعوات بالتضامن الإسلامى فى التأثير عليه ولم يبال بالقلق حول مصير القوات المسلمة تحت قيادة أمية التى باتت حينذاك معزولة وراء النهر، قائلاً إن لديهم الأعداد والسلاح والشجاعة وأن بوسعهم أن يمشوا حتى الصين إذا رغبوا^(٢٨). وتمت الإحاطة بقوات أمية وفى غمرة اليأس اضطر إلى عقد الصلح مع البخاريين «على قدية قليلة»^(٢٩) وعاد ليتولى زمام الأمور . ويات واضحاً أن الشئون السياسية والمنافسات فيما بين العرب قد صارت أهم من الجهاد ونشر الإسلام. وأظهرت الأحداث بوضوح أن الحدود الشرقية الشمالية لم تكن مكاناً مناسباً للقادة الهادئين الساعين إلى السلم. وسرعان ما تم سحب أمية من الولاية .

وحينئذ أعطيت خراسان ، ومعها قيادة الحدود الشمالية الشرقية إلى ساعد الخليفة الأيمن، الحجاج بن يوسف الثقفى القاسى الكفء، والى العراق والمشرق بأسره وأحد مهندسى الدولة الإسلامية الباكرة . وعين بدوره رجلاً يسمى «المهلب بن أبى صفرة» ليتولى القيادة فى خراسان . وكان المهلب شخصاً ذا قوة تكاد تكون أسطورية فى ميدان المعركة وله سمعة ذائعة فى القيادة. وقبيلته الأزدي واحدة من أهم القبائل وأكثرها عدداً فى الشرق، كانت تبجله هو وعائلته باعتبارهم أعظم قادتهم وحرصوا على الحفاظ على ذكراه حية فى الأسطورة والأغنية. وكان قد اكتسب شهرته من القتال فى حرب عصابات فى جنوب إيران ، وكانت حملات قاسية غير مجزية فى بلاد صعبة. وكان يُعزى إليه الفضل أيضاً فى إدخال الركاب المعدنى فى جيوش المسلمين.

وجاء المهلب بابنه يزيد معه . وكان متوقعاً بطبيعة الحال أن يشن الوالى الجديد حملة فى بلاد ما وراء النهر لى يوفر فرصة الحصول على الغنائم^(*): فلم يكن أبناء قبيلته من الأزدي الذين جلبهم معه من العراق ولا العرب المقيمين منذ وقت طويل فى الولاية يتوقعون شيئاً أقل من ذلك. واختار كش هدفا له . وقد عُرِفَتْ كِش منذ القرن

(*) هناك إصرار عجيب من جانب المؤلف على الإيحاء بأن الرغبة فى الحصول على الغنائم كانت الدافع الوحيد وراء النشاط العسكرى للمسلمين فى تلك الأنحاء. ومع أن مصادره تخذله فى هذا الموقف فإنه يلج عليه بشكل يثير الدهشة. (الترجم)

الخامس عشر الميلادى باسم شاهرى سابز (المدينة الخضراء) ، واشتهرت فيما بعد بأنها مسقط رأس تيمور لك الفاتح العظيم. وهى تقع فى وادٍ خصيب عند سفح الجبال التى ترتفع فى الشمال والشرق. ولم تكن واحدة من أهم المدن فى بلاد ما وراء النهر ، ولكنها كانت لا تزال جائزة كبيرة. ويبدو أن المهلب قد تصرف بحذر شديد. فقد حاصر المدينة على مدى سنتين ، ورفض النصيحة بأن يتجاوزها ويتوغل فى بلاد الصفد . وفى النهاية انسحب مقابل جزية من المال^(٢٠). ولم يكن من السهل الاستيلاء على مدن الصفد.

وقد تركت الفوضى ونقص التوجيه فرصاً مفتوحة أمام الرجال الأكثر مغامرة وتجرداً من الأخلاق ولم يكن هناك من هو أكثر مغامرة وانعداماً للأخلاق من موسى، ابن الوالى القديم عبد الله بن خازم. وأقام لنفسه موضعاً على حدود العالم المسلم، فى أرض الحدود بين عالم الغزاة العرب وعالم الأمراء القدامى فى المنطقة. وهو يشبه على نحو ما السيد El Cid^(*) فى إسبانيا القرن الحادى عشر، يعمل على الأطراف ، وكان سعيداً بعقد التحالف مع أى شخص يمكن أن يساعده ، جشعاً يسعى إلى المال وكريماً مع أتباعه. وتاماً مثل السيد كان موسى موضوع ترجمة، أو ملحمة للأعمال البطولية ، وهكذا وصلت إلينا شهرته .

وقد تم تحرير ملحمة موسى بن عبدالله بن خازم بالشكل الذى لدينا الآن على يد المدائنى العظيم بعد أكثر من قرن على الأحداث . ومن الواضح أنه استخدم مصادر أقدم ولكنه لا يقدم أسماء مصادره^(٢١). ولل قصة أساس من الحقيقة كما هو واضح ، ولكن هناك عناصر كثيرة تبدو خيالية ، بل أسطورية، وحتى هذه توفر لنا نظرة ثاقبة على عقليات الحدود فى الزمان والمكان . وعلى خلاف الكثير من النصوص التاريخية

(*) أحد صغار النبلاء القشتاليين واسمه Ruy Diaz de Bivar ، عمل فى خدمة الملك ألفونسو السادس ، كما عمل فى خدمة حاكم سرقسطة المسلم وأحرز شهرة واسعة فى معارك ضد نصارى إسبانيا. وفى تلك الفترة عرف باسم El cid وهو اشتقاق من كلمة «السيد» العربية. ويعرف أيضاً باسم السيد القمبيطور Campeador ودارت حوله ملحمة أسطورية جعلته مسيحياً تقياً كرّس حياته لقتال أعداء المسيح. (المترجم)

العربية الباكورة ، فإن القصة عبارة عن سرد طويل ، لا يقطعه الإسناد أو الروايات البديلة . وهى تحكى حكاية مغامرات موسى، وحكمه لمدينة ترمذ وعلاقاته مع العرب وغير العرب على السواء ثم سقوطه فى النهاية. أما أخطاء موسى، وخاصة الطريقة التى انحنى بها أمام الضغوط من جانب أتباعه العرب ضد حكمه وتقديره الأفضل ، فلم يتم تفسيرها ، ولكنه يظهر بوضوح فى صورة البطل المحتال للرواية بأسرها . وتوضح الملحمة أن موسى كان يلقى مساندة من العرب ومن غير العرب، من المسلمين ومن غير المسلمين على السواء ، وفى الوقت نفسه، توضح أن كثيرا من أعدى أعدائه كانوا من العرب. وتم تفسير الشئون السياسية فى حياته التى مرت كالشهاب فى ضوء مصطلحات الهوية العرقية (العرب وغير العرب، والأتراك) والمنافسات القبلية . ولا يرد ذكر للدين على الإطلاق . ولم يكن هذا جهاداً ولم يزعم موسى أبداً ذلك. وربما يكون قد بنى مسجداً فى ترمذ وربما يكون قد صلى فيه، ولكن إذا كان الأمر كذلك، فإنه لم يرد له ذكر فى المصادر. وعلى النقيض من كثير من الروايات عن الفتوح الباكورة ، لا يرد ذكر الحماسة للإسلام وثواب الآخرة . والقيم التى تنال التمجيد والإطراء هى قيم الشجاعة فى المعركة، والولاء للقراية والرفاق، والتحمل والدهاء . كان عالم الحدود هذا بيئة مركبة معقدة حيث كانت التحالفات والانحيازات تتحول بسرعة ، حيث يعقد المسلمون وغير المسلمين تحالف ضد مسلمين وغير مسلمين آخرين، وحيث يحتل الجهاد مكانة ثانوية بعد الطموح الشخصى والرغبة فى الثروة والسلطة.

وكان موسى قد استولى على المدينة الحصن ترمذ فى أثناء حياة أبيه . وتقع ترمذ حيث يجرى نهر أموداريا سريع الجريان حول التلال المنخفضة والأسوار الطينية الصفراء المغبرة للقلعة، فى مواجهة جزيرة بالنهر تجعل من المكان مكاناً سهلاً للعبور. وعلى امتداد القلعة المستطيلة^(٣٢) كان هناك ربض مسور خارجها . وكان الإغريق قد أطلقوا عليها اسم الإسكندرية على نهر جيحون وفيما بعد تحت حكم الكوشان تم بناء عدد من الأبراج البوذية حولها . وتم هجران موضع المدينة القديمة منذ الغزو المغولى فى عشرينيات القرن الثالث عشر الميلادى/السابع الهجرى .

وربما كانت قوة القلعة والموقع الاستراتيجي عند معبر نهر أموداريا هو الذي جذب موسى إلى الموقع . وهناك وطد نفسه وتحدى القادمين جميعاً . وقد تم تصويره في صورة الشخص المتوهج الأكبر من الحياة الذي يذهب إلى المعركة بعصاة حريرية حمراء حول خوذته ، في أعلاها ياقوتة زرقاء^(٢٣) .

وكان قد جاء في الأصل إلى ترمذ بمحض الصدفة تقريباً . فعندما عيبت الدنيا في وجه أبيه وكان يخسر التأييد بين عرب مرو، أمره أبوه بأن يأخذ جميع متاعه ويضعه في مكان أمين . وكان عليه أن يعبر النهر ويلجأ إلى أحد الأمراء المحليين أو يجد قلعة مناسبة ويحتلها . وانطلق ومعه مائتا فارس ، ولكن جماعته كانت تنمو كلما مضى مسافة أبعد . وعندما وصل إلى معبر النهر عند أمل انضم إليه جماعة من الصعاليك (وليس واضحاً ما إذا كانوا من العرب أم من الإيرانيين) كما انضم إليه بعض الرجال من أبناء قبيلته . وصار عدد عصبته آنذاك أكثر من أربعمئة فرد . وعندها بات بحاجة إلى قاعدة يستقر بها هو ورجاله .

وكان أول مكان يحاول الاستيلاء عليه بخارى، ولكن أمير المدينة كان محقاً في شكه وارتياحه في موسى ونواياه «... وقال: رجل فاتك وأصحابه مثله أصحاب حرب وشر، فلا آمنه»^(٢٤) ولهذا أعطاه بعض المال وحيوانات الركوب وكسوة وصرفه . وبعد ذلك حاول موسى مع دهقان مدينة صغيرة بالقرب من بخارى . ومرة أخرى لقي استقبلاً بارداً ، وقال الدهقان إن الأهالي خائفون منه ولن يقبلوه . ومع هذا ، بقي لبضعة أشهر قليلة قبل أن ينطلق مرة أخرى بحثاً عن أمير مناسب أو قلعة مناسبة .

وفي سمرقند كان أسعد حظاً ، حيث كرمه الملك المحلي الطرخون وسمح له أن يبقى على أمل استخدام قدراته العسكرية ضد أعدائه . وكانت الأمور جيدة بحيث لم يكن ممكناً أن تستمر طويلاً . وتمضى القصة لتقول إنه كانت هناك عادة محلية في بلاد الصفد تقضى بأنه في يوم معين من أيام السنة، تمد مائدة فيها طبق من اللحم

(٢٤) الطبري ، ج ٦ ، ص ٣٩٨ - ص ٣٩٩ . (المترجم)

والخبز وقدح فيه شيء من الشراب . وكان هذا طعام «ملك الصغد» ، وكان هو الشخص الوحيد الذى يسمح له بتناوله . فإذا ما جرى أى شخص آخر على أن يأخذ شيئاً من الطعام، كان عليه أن يحارب الفارس والمائدة، ومن ثم يقاتل من أجل اللقب الذى سيؤول إلى من يقتل منهم الآخر. ولحاجة بنا إلى القول بأن هذه كانت دعوة لم يكن أولئك العرب بصلابتهم وقسوتهم يستطيعون مقاومتها ، وجاء أحد رفاق موسى وجلس على المائدة، قائلاً إنه سيحارب الفارس ويصبح هو «ملك بلاد الصغد» الجديد. «... وقيل لصاحب المائدة فجاء مغضباً فقال: يا عربى بارزنى ، قال: نعم وهل أريد إلا المبارزة ! فبارزه فقتله صاحب موسى، فقال ملك الصغد: أنزلتكم وأكرمتكم فقتلتكم فارس الصغد، لولا أنى أعطيتك وأصحابك الأمان لقتلتكم ، أخرجوا عن بلدى ، ووصله...»^(*).

وعندها صار موسى وأصحابه خارجين على القانون تماماً وكانت كل البلاد ضدهم. وعبروا الجبال جنوباً إلى كيش. وهناك حمل الملك المحلى السلاح ضدهم وطلب المساعدة من طرخون سمرقند . وحارب موسى ورفاقه السبعمائة الملك يوماً بطوله وجرح عدد كبير من رجاله . وفى المساء بدأت المفاوضات . وجادل أحد رجال موسى الطرخون قائلاً إن قتل موسى لن يعود عليه بأية فائدة ! ولابد أنه سوف يفقد عدداً من أفضل رجاله ، فضلاً أن لموسى مكانة عالية بين العرب (وهى مسألة محل نظر فى تلك المرحلة) فإذا ما قتله لابد أن ينتقم العرب له . ومن جانبه قال الطرخون إنه ليس على استعداد للسماح لموسى بأن يبقى فى كيش، التى كانت قريبة بالقدر الذى يجعلها مصدر قلق . وهكذا تم الاتفاق على أن موسى ورجاله يجب أن يواصلوا ترحالهم مرة أخرى^(٢٥).

وفى سنة ٦٨٩م سار جنوباً إلى ترمذ على نهر أموداريا ، التى قُبِضَ لها أن تكون قاعدة موسى بقية حياته . وهناك قابل أحد الدهاقين التابعين لترمز شاه ، وكان على خلاف مع سيده وكان مستعداً لتقديم المشورة إلى موسى بشأن الاقتراب منه .

(*) الطبرى، ج ٦ ، ص ٣٩٩ . (الترجم)

«... فقال لموسى : إن صاحب الترمذ متكرم شديد الحياء، فإن ألفتته وأهديت إليه أدخلك حصنه ، فإنه ضعيف، قال: كلا، ولكنى أسأله أن يدخلنى حصنه ، فسأله فأبى ، فماكره موسى وأهدى له وألطفه ، حتى لطف الذى بينهما، وخرج فتصيد معه، وكثر إلفاف موسى له ، فصنع صاحب الترمذ طعاماً وأرسل إليه : إنى أحب أن أكرمك ، فتغدُّ عندى، وانتنى فى مائة من أصحابك . فانتخب موسى من أصحابه مائة ، فدخلوا على خيولهم، فلما صارت فى المدينة تصاهلت، فتطير أهل الترمذ وقالوا لهم : انزلوا ، فنزلوا ، فادخلوا بينا، خمسين فى خمسين ، وغدوهم»(*)، وعندما فرغوا من طعامهم «... اضطجع موسى، فقالوا له : أخرج ، قال : لا أصيب منزلاً مثل هذا ، فلست بخارج منه حتى يكون بيتى أو قبرى... » واندلع القتال فى المدينة. وقُتل عدد من السكان وهرب آخرون. وسيطر موسى على المدينة وطلب من الشاه أن يغادر المدينة على ألا يعترض طريقه . وهكذا غادر الشاه . وذهب يبحث عن المساعدة من البدو الأتراك . وطردوه باحتقار وسخروا منه لأنه سمح لمائة رجل أن يطردوه من موطنه «... وقد قاتلناهم بكس فنحن لا نقاتل هؤلاء...» ولا يسجل التاريخ مصير الشاه ، الذى صار منفياً ولكن بلاد ما وراء النهر فى القرن الثامن الميلادى / الثانى الهجرى لم تكن مكاناً لحاكم ساذج غافل مثله .

وحينذاك وطد موسى نفسه حاكماً على الحصن والمدينة ولم يكن يدين بالولاء لأحد. وكان معه بالفعل سبعمائة وعندما قتل أبوه فى المعركة عندما حاول الانضمام إليه هناك نجا أربعمائة من أتباعه وانضموا إلى موسى . وبهذه العصبية القليلة انطلق ليضم المزيد من الأتباع ويحقق المزيد من الثروة ويدافع عن نفسه ضد أعدائه .

وكان هؤلاء كُثر . وقيل إنه استخدم ضد الأتراك خليطاً من الخداع والدهاء لكى يتجنب الصراع. ويبدو أن بعض القصص تنتمى إلى نوع من الفولكلور تكون فيها جماعة إثنية ذكية بشكل رهيب وجماعة أخرى بلهاء بشكل رهيب؛ فى هذه الحالة

(*) الطبرى ، ج ٦ ، ص ٤٠٠ . (الترجم)

«العرب الأذكياء ، والأتراك الأغبياء». وهى تعكس الكثير من النكات التى كانت منتشرة فى ذلك الوقت . وفى إحدى الحكايات غير الممكنة وصل وفد من الأتراك فى عز الصيف (حيث يمكن لدرجات الحرارة فى ترمز يمكن أن تصل إلى خمسين درجة) ليجدوا موسى وأصحابه يجلسون حول نار وعليهم جميع ملابسهم الشتوية . وعندما سئلوا عما يفعلون فسروا ذلك بأنهم وجدوا الجو بارداً فى الصيف حاراً فى الشتاء. واستنتج الأتراك أنهم لابد أن يكونوا من الجن لا من الناس العاديين، ومن ثم تركوا العرب دون أن يقاتلوهم^(٣٦). وفى قصة أخرى أرسل الزعماء الأتراك إلى موسى هدية من السهام (علامة على الحرب) أو قناع من العطر الثمين (دليل على السلام) وطلبوا منه الاختيار بينهما. ورد موسى بكسر السهام ورمى القناع. وعند ذلك استنتج الأتراك أنهم لا يجب أن يؤاخذوا رجلاً فقد عقله .

وعندما صار أمية والياً على خراسان فى سنة ٦٩١م، قرر أن يرسل حملة لاستئصال شائقة موسى . كما أن أهل ترمذ كانوا قد سئموا موسى وعصبته واقتربوا من الأتراك وعرضوا عليهم أن يتحالف جميعاً ضده . ووجد موسى نفسه محاصراً بين جيش عربى من جانب وجيش تركى من جانب آخر . ولدينا خبر عن إحدى جلسات المشورة تلك التى يستخدمها الرواة العرب عندما يريدون مناقشة الاستراتيجية العسكرية . وفى النهاية تقرر أن يشن موسى هجوماً ليلياً على الأتراك لأن العرب كانوا متفوقين فى القتال الليلي . ونجحت الغارة وفاجأوا الأتراك وأخذوا من معسكرهم أسرى وأسلحة وأموالاً. وقرر موسى ورجاله أن يستخدموا خدعة عسكرية. وتطوع أحد رجال موسى لكى يضربه سيده بحيث يمكنه أن يذهب إلى القائد العربى بوصفه هارباً. فعندما احتج موسى بأنه سوف يتعرض للجلد حقاً وربما تعرض للموت من جراء هذا، أجاب الرجل بأنه يخاطر بأن يقتل يومياً على أية حال وأن ضربه أهون من بقية خطته. ولابد أن آثار الجلد على ظهره قد جعلت حالته جديرة بالتصديق لأنه قبل باعتباره هارباً وانضم إلى الدائرة الداخلية المحيطة بالقائد العربى . وفى أحد الأيام وجد الحاكم وحده بدون سلاح واحتج بأنه يظن أن ليس من الحكمة أن يتجرد من سلاحه على هذا النحو ولكن القائد سحب فراشه ليكشف عن سيف بلا غمد- وفى الحال

أمسك به رجل موسى وقتله . ثم عاد مسرعاً إلى موسى قبل أن يعلم أحد بما حدث. وانهار الجيش العربى المهاجم بعد مصرع قائده ، وهرب بعضهم عبر النهر، وطلب الآخرون من موسى الأمان فأمنهم^(٢٧).

وبعد هذا الانتصار ضد العرب والأتراك المتحالفين سوياً، إزداد موقف موسى قوة. ولم يبذل الولاة العرب الذين خلفوا أمية أية محاولة لطرده من أملاكه على ضفة النهر. بل العكس، صار هو بؤرة لكل المستائين من الوجود العربى فى بلاد ما وراء النهر.

ومن بين هؤلاء كان اثنان من الأخوة هما حريث وثابت بنى قتيبة . وكانا من الأهالى المحليين ، وربما من الطبقة العليا الإيرانية، ممن كانوا قد اعتنقوا الإسلام وصاروا من الموالى لقبيلة خزاعة العربية. وقد أدى هذا إلى أن صار لهما حلفاء من القبيلة . وجعلنا نفسيهما نافعين للولاة العرب وجابيين للضرائب ووسيطين ، لأنهما كانا عارفين باللغات المحلية وبالأحوال المحلية. وكان ثابت بوجه خاص يتمتع بشعبية بين العجم ، وله سمعة عظيمة وشرف كبير . وقد قيل إنه إذا كان هناك من يريد أن يقسم بأيمان مغلفة، فإن يقسم بحياة ثابت ولايحدث فى يمينه أبداً^(٢٨). وكانا ثريين وذوى سلطان نافذ ولكنهما لم يقبلا على قدم المساواة مع العرب. وفى وقت ما، أسدى حُرَيْث معروفًا إلى ملك كيش، وسمح بعودة الرهائن الذين أخذوا ضماناً للجزية. وكان هذا ضد الأوامر الصريحة التى أصدرها والى خراسان، يزيد بن المهلب ، الذى شك بوضوح فى تعاطف حُرَيْث تجاه الملك. وقد رد حُرَيْث الهجوم بأن شكك فى نسب يزيد. واعترضته عصابة من الأتراك وطلبوا فدية ، وتباهوا بأنهم كانوا قد أخذوا فدية بالفعل من يزيد «... فقال حريث : ولدتنى إذن أم يزيد. وقاتلهم فقتلهم ، وأسر منهم أسرى ففدوهم ، فمنّ عليهم وخلصهم ، ورد عليهم الفداء»^(٢٩). وإذا كانت هناك طريقة أكيدة لإثارة غضب العربى ، فهى إهانة أمه، ووصلت كلمات حُرَيْث الطائشة إلى مسامع

(*) الطبرى، ج ٦ ، ص ٢٥٣ .

يزيد ، الذى قبض عليه ، وأمر بجلده عارياً ثلاثين جلدة . وكان الضرب مبرحاً تماماً ، ولكن العار الناجم عن تعريته على الملأ كان أسوأ : «وقال حريث : وددت أنه ضربنى ثلثمائة سوط ولم يجردنى ، أنفأ واستحياء ، وحلف ليقتلن المهلب»(*) (٣٩).

وبعد هذا قرر حريث وأخوه التخلص من الوالى حينما يمكنهما ذلك. ورحلا ومعهما ٢٠٠ من شاكريتهما(**) ومعهما بعض العرب. وركبوا فى البداية إلى طرخون، ملك سمرقند ، الذى كان قد أطلق سراح موسى منذ فترة مضت . وتبنى قضيتهم وجمع المدد من أهل بخارى وبلاد الصغد وأميرين آخرين هما نيزك والسبل من خطل . وانطلقوا سوياً لى يلحقوا بموسى فى ترمذ .

وفى الوقت نفسه انضم إلى موسى عدد كبير من رجال القبائل العربية الهاربين . فهناك فى الجنوب، فى سيستان ، كان الجيش العربى قد أعلن التمرد، بعد أن فاض به من الحملات الطويلة الصعبة فى بلاد قاسية وصعبة . وتحت قيادة عبد الرحمن بن الأشعث كانوا قد زحفوا غرباً إلى العراق لتحدى الحكم الأموى. وكان الخليفة عبد الملك بن مروان وساعده الأيمن الحجاج بن يوسف الثقفى أقوى منهم كثيراً ، وتمت هزيمة المتمردين ثم فرّ الناجون صوب الشرق. وجاء منهم ثمانية آلاف إلى ترمذ لى ينضموا لموسى .

كانت قوات موسى آنذاك قد زادت كثيراً، ولكن الشىء الوحيد الذى كان يجمعهم كانت كراهيتهم للحكم الأموى. وربما كانت العلاقات بين العرب وغير العرب متوترة ، ويبدو أن موسى قد أدرك أن عليه أن يتصرف بحذر شديد وبدبلوماسية حريصة فى التعامل مع قواته. وكان الحريث والأمراء الإيرانيون طموحين . واقترحوا على موسى عبور نهر أموداريا وطرده الوالى الأموى والاستيلاء على ولاية خراسان كلها .

(*) الطبرى، ج ٦ ، ص ٣٥٣ .

(**) كان الشاكريه هم الأتباع العسكريين والمدنيين للأرستقراطيين فى آسيا الوسطى فى ذلك الحين. وهم مجموعة من الشباب يقومون بالأعمال المنزلية وقت السلم ولكن يمكنهم أن يتحولوا إلى عصابة من المحاربين زمن الحرب.

وكانوا يظنون أن موسى سيكون أساساً دمية بأيديهم وأنه سيتم الإطاحة بنصف قرن من الفتح العربى - المسلم. وكان العرب فى جيش موسى مرتابين ، ولا يرون فى الأمر شيئاً لصالحهم : فإما أن يقوم الأمويون بهجوم مضاد ، لأنهم ببساطة لا يستطيعون ترك خراسان بأسرها تخرج من أيديهم، وإما يحكم الإيرانيون الولاية لصالحهم الخاص. وتمكنوا من إقناع موسى أن يتخذ لنفسه هدفاً محدوداً ، طرد الولاة الأمويين من جميع أنحاء بلاد ما وراء النهر، بحيث « تكون هذه الناحية لنا ناكلها»^(٤٠*).

ويبدو أنه تم تحقيق هذا دون عناء كبير، وعاد أمراء ما وراء النهر إلى بلادهم حينئذ على أمل أن يكونوا قد وضعوا حداً للتهديد العربى على ديارهم . وحكم موسى ترمذ ومعه الحريث وثابت وزيرين رئيسيين. وتدفقت الموارد وصار موسى قوياً . وعلى أية حال ، استاء كثير من مؤيديه العرب من الإداريين الإيرانيين ونفوذهم ، وأخبروا موسى أنهما خائنان وحرصوه على قتلها. وفى البداية رفض هذه المدهانات والتلق، قائلاً إنه لن يخون رجالاً فعلوا الكثير من أجله، ولكنهم عملوا على إقناعه تدريجياً.

وفى الوقت نفسه واجه موسى تهديداً أشد إلحاحاً . وربما كان الأمراء الإيرانيون يرون فيه حليفاً ولكن البدو الأتراك لم يعتبروه كذلك. وفى ذلك الحين جمعوا جيشاً قالت عنه المصادر العربية ، بقدر من المبالغة ، إنه بلغ سبعين ألف رجل «... صاحب بيضة ذات قونس»^(٤١) وهى الخوذة المدببة فى وسط أسيا التى تختلف عن الخوذة المستديرة التى يفضلها العرب. هذا الهجوم التركى الضخم ، إذا كان قد حدث حقاً ، وفر لكاتب الملحمة فرصة أخرى لإظهار مهارة موسى العسكرية ودهائه . فقد كان موسى مثل كثير من معاصريه ، يقود المعركة جالساً على كرسى ، وحوله حراسة من ثلاثمائة من الفرسان ثقيلى التسليح. وسمح للأتراك يخترقوا أسوار ضواحي ترمذ وجلس هادئاً ، يلعب ببساطة فى يده حتى رأى اللحظة المناسبة للانقضاض عليهم ويسوقهم إلى الخارج.

(*) الطبرى ، ج ٦ ، ص ٤٠٢ . (المترجم)

وانضم إلى المعركة ثم عاد إلى كرسيه وحسبما يقول الراوى، فإن الأتراك المرعويين قارنوه بالبطل الإيراني العظيم رستم (وهو الخصم الأسطوري للأتراك) وانسحبوا.

وفى الحدث التالى من أحداث الملحمة استولى الأتراك على بعض الماشية المملوكة لموسى وهى ترعى. وكان موسى محبطاً بسبب الإهانة التى نالت من هيئته ؛ ورفض أن يأكل «وجعل يعبث بلحيته»، وهو يفكر فى الانتقام. ثم قرر شن هجوم ليلى آخر . وقام معه سبعمائة من رجاله بالسير على امتداد مجرى نهر جاف، تخفيه النباتات من الجانبين حتى وصل إلى معسكر الأتراك. وهناك انتظروا حتى سيقت الماشية إلى المرعى فى الصباح. ثم أحاطوا بها، وقتلوا كل من اعترضهم، ثم ساقوا الماشية إلى ديارهم.

وفى الصباح التالى عاد الأتراك إلى القتال من جديد. ووقف ملكهم على أحد التلال يحيط به عشرة آلاف من رجاله فى أفضل تسليح (ومرة يجب أخذ الأعداد بحذر) ، وشجع موسى رجاله ، قائلاً إنهم لو هزموا هذه الجماعة ، سيكون الباقي سهلاً . وقاد الهجوم حريث ولكن سهماً أصابه وجرحه فى رأسه. ومات بعدها بيومين ودفن فى قبته. وفى الوقت نفسه، فى هجوم ليلى آخر، جرح موسى الملك وحصانه الى جرى مسرعاً إلى النهر. وهناك ثقل الملك بدرعه من الزرد فسقط فى النهر وغرق^(٤٢). وأخذت رؤوس الأعداء القتلى إلى ترمذ حيث «... بنوا من تلك الرؤوس جوسقين».

وبعد هذا النصر زادت التوترات بين العرب وثابت شقيق حريث الباقي. وكان موسى تحت ضغط مستمر لى يتخلص منه ولكنه رفض بإصرار ، ولذلك قرر العرب أن يتولوا الأمر بأنفسهم . وعلى أية حال ، كان ثابت واعياً بأن هناك شيئاً يتم تدبيره ووجد شاباً عربياً من قبيلة خزاعة ، القبيلة التى كان من موالىها ، وطلب منه أن يكون عيناً له ينقل الأخبار. وكان للشباب أن يلعب دور الخادم المتواضع الذى وقع فى الأسر من باميان البعيدة فى قلب جبال الهندوكوش. وكان عليه أن يتظاهر بأنه لا يعرف اللغة العربية . وبقي ثابت على حذره ، ومعه شاكريته يحرسونه كل ليلة . وفى الوقت نفسه كان موسى ما يزال على رفضه بقتل ثابت لأنه لم يكن هناك مبرر لذلك وأن قتله سيؤدى إلى كارثة تحل بالجميع . وفى النهاية، قرر واحد من أخوته مع بعض العرب الأصدقاء

أن يأخذوا زمام المبادرة بأيديهم . وأرهبوا موسى حتى قبل فى ضعف اقتراحهم بأن يكمنوا لثابت عندما يأتى فى اليوم التالى ، ويأخذونه إلى بيت قريب ويقتلونه . وكان موسى متردداً للغاية وحذرهم مرة أخرى بأنها ستكون نهايتهم.

وبطبيعة الحال، كان الشاب عميل ثابت قد سمع هذا كله وأخبر سيده فى الحال، فجمع عشرين فارساً وانسل خارجاً فى تلك الليلة . وعندما طلع الصباح وكان ثابت قد اختفى لم تدرك المجموعة العربية فى بداية الأمر أن مؤامرتهم قد انكشفت، ولكنهم عندما وجدوا أن الشاب لم يعد معهم، فهموا الخدعة.

وتحصن ثابت ورجاله فى بلدة قريبة^(٤٢)، حيث انضم إليه الطرخون والناس من أهل كيش . والنسف وبخارى الذين كانوا قد ساندوه عندما جاء فى الأصل إلى ترمذ . وصار الأمر صراعاً مباشراً بين العرب والأهالى . وإذ بات الصراع الواضح حتمياً ، أراد موسى أن ينهيه بأسرع ما يمكنه ، وقاد رجاله ليهاجم ثابت . وسرعان ما وجد نفسه ورجاله محاطين وضاق عليهم الخناق بشكل مرعب. ومرة أخرى كان لابد من استخدام الخديعة عندما تفشل القوة . وقرر يزيد . أحد مؤيدي موسى من العرب، أن القتل أهون من الموت جوعاً وجاء إلى ثابت متظاهراً بأنه فر من جماعته . ومن سوء حظه أن ابن عم له يدعى ظهير ، كان ناصحاً ومستشاراً مقرباً إلى ثابت وكان يعرف يزيد تماماً : وكانت الانحيازات السياسية فى بلاد ما وراء النهر غالباً ما تتقاطع مع الحدود العرقية بل وتقطع حدود القرابة . وحذر ثابت من يزيد . فقال يزيد بدوره إنه رجل عانى ما يكفيه ، وقد أجبرته السلطات الأموية على مغادرة العراق والقدم إلى خراسان مع عائلته ، وعلى أية حال فإن ظهير كان يتصرف بدافع من الحقد. ولهذا ثم السماح له بالبقاء طالما أبقى ولديه الشابين رهينتين .

وأضى يزيد وقته منتظراً فرصته . وذات يوم جاءت الأخبار من مرو بأن ابناً لواحد من مؤيدي ثابت العرب قد مات ، ومن ثم ذهب بصحبة حاشية صغيرة لتقديم العزاء . وعند رجوعهم كان الظلام قد حل ، وجاءت لحظة انفصل فيها ثابت عن أصحابه،

(*) الطبرى، ج ٦ ، ص ٤٠٣ . (المترجم)

وانتهز يزيد الفرصة ووجه إليه ضربة قوية على رأسه بسيفه . وعانى على مدى أسبوعين قبل موته . وهرب يزيد ومعه شريكاه فى الجريمة ، ولكنه ترك ولديه التعيسين ليدفعا ثمن الجريمة . فقد أحضرهما ظهير إلى الطرخون ، الذى يبدو أنه تولى القيادة بعد موت ثابت . وتم إعدام أحدهما فوراً وألقيت رأسه وجثته فى النهر . أما الثانى فقد تحول ملتفتاً عندما نزلت عليه الضربة وجرح فى صدره ، وكان جرحه بليغاً فألقى فى النهر حيث غرق .

وبنهاية ثابت ، خارت عزائم أتباعه وحلفائه . وتولى الطرخون قيادة الجيش . وعندما جاءه تحذير بأن موسى على وشك محاولة القيام بهجوم ليلى على معسكره ، ملأه الاحتقار وقال : «... موسى يعجز عن أن يدخل متوَّضأه ، فكيف ببيتنا» . ولم يكن من الحكمة أبداً الحط من قدر موسى . فقد جاء الهجوم الليلى فى موعده ونشب قتال وحشى فى المعسكر وحوله . وفى إحدى المراحل وصل أتباع موسى العرب إلى خيمة الطرخون الخاصة ، ووجدوه جالساً على كرسي أمام النار التى كان شاكريته قد أشعلوها . وهرب شاكريته الذين كان يجب أن يكونوا هناك لحمايته ، ولكنه حارب المهاجمين بنفسه ونجح فى الهجوم المضاد فى قتل أحد أخوة موسى . وأرسل رسالة إلى موسى الذى كان ، بطبيعة الحال ، يعرف تماماً أن عليه أن يستدعى رجاله إذا وافق على الانسحاب . وفى اليوم التالى حزم غير العرب أمتعتهم وعادوا إلى أراضيهم^(٤٤) .

وعلى السطح بدا هذا وكأنه نصر شهير حققه موسى ، ولكن الحقيقة أنه كان بداية النهاية . فقد كان قادراً على الحفاظ على استقلاله لأنه كان يتمتع بدعم أتباعه العرب وغير العرب تحت قيادة حُرَيْث ثم ثابت . وعندما كان لدى موسى ألف أو نحوهم من الأتباع العرب ، يبدو أنهم قادرون على التعاون ، ولكن مع وصول المزيد من العرب من الجيوش المتمردة المهزومة ، ثبت أن الضغوط كانت فوق الاحتمال . وبدون مساندة غير العرب فى بلاد ما وراء النهر ، تداعى حلم موسى فى الاستقلال . ومما يحسب له أنه هو نفسه قد فهم هذا وبذل جهوداً كبيرة لكى يحافظ على حلفه متماسكاً . ولكن فى النهاية كانت الدماء أكثر كثافة من الماء وانحاز إلى العرب ضد الباقين .

وجاءت النهاية سنة ٧٠٤م عندما أرسل والى خراسان الأموى الجديد^(٤٥) المتحالف مع الأمراء الإيرانيين جيشاً ضده فى ترمذ وقُتل موسى عندما تعثر حصانه وهو يحاول الهرب. وكان قد تمتع بخمس عشرة سنة من الاستقلال الفعلى ، ملكاً على موقعه الحصين على ضفة النهر ومغناطيساً يجتذب المتمردين ومسببى القلاقل ، من العرب والإيرانيين على السواء . كان رجلاً ذاعت شهرته فى الآفاق . وفى مدينة قومن الإقليمية الصغيرة شمالى إيران ، على مسافة ثمانمائة كيلو متر من ترمذ ، كان هناك رجل اسمه عبدالله ، يتجمع شباب الناحية فى بيته، يروى القصص ، ويصفى عامة كان الرجل مسرّقاً . وضيافة عبدالله تكلفه الكثير، وعندما تفاقمت ديونه ذهب إلى موسى قاطعاً هذا الطريق كله طلباً للمساعدة . ولم يخله وإنما كافأه بمنحة قدرها أربعة آلاف درهم فضة. وكان بين رجال مثل عبدالله أن بقيت ذكرى موسى حية، ومحل احتفاء الشعراء ، ولا بد أنهم هم الذين تذكروا القصص التى تشكل أساس ملحمة كما وصلت إلينا.

الهوامش

(١) أفضل رواية عن الفتوح الإسلامية لآسيا الوسطى تبقى رواية:

H. A. R- Gibb, The Arab Conquests in Central Asia (London, 1923).

التي اعتمدت عليها بشكل كثيف . انظر أيضا :

See also V. Barthold, Turkestan Down to the Mongol invasions, trans. H. Gibb (London, 1928, rev . edn, Gibb Memorial Series, V, London, 1968), pp. 180-93.

The Fihrist of al-Nadim, trans. B. Dodge, 2 vols. (New York, 1970), pp.220-25. (٢)

See also the comments in T. Khalidi, Arabic Historical Thought in the Classical Period (Cambridge, 1994), pp-64-5; C. F. Robinson, Islamic Historiography (Cambridge, 2003). P. 34.

For this analysis, see Gibb, Conquests, pp. 12-13. (٣)

عن الجغرافيا التاريخية لهذه المنطقة انظر الدراسة الكلاسيكية :

Barthold, Turkestan, pp. 64-179.

(٥) عن خوارزم انظر المقالة الممتازة :

by C.E. Bosworth, 'Khwarazm', in Encyclopaedia of Islam, 2 nd edn.

Ibn Fadlan's journey to Russia: a tenth-century traveler from Baghdad to the (٦) Volga River, trans. R. Frye (Princeton, NJ, 2005), p. 29.

Narshakhi, History of Bukhara, trans, R. Frye (Cambridge, MA, 1954)- PP- 9-10. (٧)

E. de la Vaissiere, Sogdian Traders: A History (Leiden, 2005), p.176. (٨)

(٩) هناك أدبيات غزيرة عن أصول الأتراك وتاريخهم الباكر . وعن تقديم واضح انظر:

D. Sinor, 'The establishment and dissolution of the Turk empire', in Cambridge History of Early Inner Asia, ed. D. Sinor (Cambridge, 1900), pp. 285-316, with bibliography pp. 478-83.

Trails. Sinor in Cambridge History of Early Inner Asia, p. 297. (١٠)

Maurice's Strategikan: Handbook of Byzantine military strategy, trans. G. T- Dennis (١١) (Philadelphia, PA, 1984), pp. Tifi-IS.

- Tabari, Ta'rikh, II, p. 394 .Gibb, Arab Conquests, is (١٢)
يشك في أن تكون المقابلة قد حدثت على الإطلاق .
- Baladhuri, Futuh, p. 412. (١٣)
- Silah b. Ashyum al-cAdawi; Tabari, 'Ta'rikh, II, p, 393. (١٤)
- Gibb.Arab Conquests, pp. 22-3. (١٥)
- Tabari, Ta'rikh, II, pp. 394-5. (١٦)
- Tabari, Ta'rikh, II, pp. 490-97. (١٧)
- Tabari, Ta'rikh, II, p. 447. (١٨)
- Tabari, Ta'rikh, II, p. 594. (١٩)
- Al-Harish b. Hilal al-Qurayci . (٢٠)
- Tabari, Ta'rikh, II, p. 596. (٢١)
- Tabari, Ta'rikh, II, p. 98. (٢٢)
- Tabari, Ta'rikh, II, p. 696. (٢٣)
- Tabari, Ta'rikh, II, pp. 831-5. (٢٤)
- Tabari, Ta'rikh, II, p. 102. (٢٥)
- 'Atlb b. Liqwa al-Ghudani had his debts paid by Bukayr b. Wishah al-Sacdi; (٢٦)
- Tabari, Ta'rikh, II, pp.1022-3.
- Tabari, Ta'rikh, II, p. 1029. (٢٧)
- Tabari, Ta'rikh, II, p. 1024. (٢٨)
- Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1024, p. 1031. (٢٩)
- Tabari, Tit'rikh, II, p. 1041; Gibb, Arab Conijiffts, pp. 26-7. (٣٠)
- Tabari . Ta'rikh , II , p. 1177 . (٣١)
- يعطى محمد بن الفضل (ت ٧٨٤-٧٨٥م) باعتباره مصدراً ، ولكن ليس من الواضح ما إذا كان هو المصدر للكثير من هذا التراث . وكان الفضل كاتب تراجم من الكوفة انضم إلى التمرد الذي قام به ابراهيم العلوي ولكن المنصور عفا عنه وأخذه لخدمة المهدي. وقد جمع الشعر العربي ما قبل الإسلام في المجموعة المعروفة باسم الفضليات ولكنه لم يسجل عنه كتابة أى رواية تاريخية.
- Tabari, Ta'rikh, II, p. 1147. (٣٢)
- Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1162-3. (٣٣)
- Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1146-7. (٣٤)
- القصة بقايا من قصة الملك الكاهن أو بحيرة ينمي التي يبدأ بها جيمس فريزر . الفروة الذهبية.
- The Golden Boueh (New York, 1922) .

- Tabari, Ta'rikh, II, p. 1147. (٢٥)
- *Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1148-9. (٢٦)
- Tabari, Ta'rikh, II, p. 1151. (٢٧)
- Tabari, Ta'rikh, II, p. 1152. (٢٨)
- Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1080-81. (٢٩)
- Tabari, Ta'rikh, II, p- 1153. (٤٠)
- Tabari, Ta'rikh, II, p. 1153. (٤١)
- Tabari, Ta'rikh, II, p. 1154. (٤٢)
- (٤٣) ورد الاسم في النص «حاشورا» أو تنويعات على ذلك ولكنه لا يزال بحاجة إلى تعريف .
- Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1150-60. (٤٤)
- Mufaddal b. al-Muhallab b. Abi Sufra; Tabari, Ta'rikh, 11, p. 1162. (٤٥)

(٨)

الطريق إلى سمرقند

إنجاز قتيبة بن مسلم (٧٠٥-٧١٥م)

مع بداية سنة ٧٠٥م كانت الجيوش العربية قد فتحت خراسان كلها حتى نهر أموداريا . وبقيت المناطق الجبلية الخارجية تقاوم وحدها . ولا يعنى هذا أن الولاية كلها كانت تحت الحكم السلمى للولاة العرب فيجمعون الضرائب من شعب مُنقاد ومطيع ، ولكن السلطات العربية كانت تمسك بزمام السيطرة . فقد كان بوسع هذه السلطات إرسال الحملات من قواعدها فى مرو وبلخ لسحق أى تمرد ونهب أراضي السكان وممتلكاتهم . وفيما وراء النهر كانت الأمور جد مختلفة . وباستثناء موقع موسى فى ترمذ ، لم يكن هناك أى استقرار للعرب والمسلمين إطلاقاً ، وعلى قدر علمنا ، لم يتم بناء مسجد واحد . إذ ظلت السيطرة بأيدي الملوك المحليين والبدو الأتراك تماماً .

كان هذا كله على وشك أن يتغير . ففي هذه السنة عين الحجاج ، والى العراق والمشرق كله ، والياً جديداً على خراسان . وكان هو قتيبة بن مسلم من قبيلة باهلة الصغيرة ، التى لم تكن مرتبطة بأى من القبائل الكبرى التى مزقت منازعاتها عرب خراسان شر ممزق . وهذا ما جعله مرشحاً مناسباً لهذه المهمة العسيرة جداً . إذ إنه تمكن من الاحتفاظ بحياده فى هذه المنازعات ، كما كان بمنأى عن الضغط الرهيب الذى كان على زعماء القبائل الكبرى تحمله من أتباعهم طلباً للحظوة والمجاملة . وكان يتمتع بمساندة الحجاج الداهية الصارم . وإذا كان يفتقر إلى ما توفره القبيلة الكبيرة

من الاتباع فإنه اعتمد على الحجاج فى سلطته . وكان هذا بدوره يعنى أن الحجاج كان على ثقة من أنه لن يقود حركة تمرد . لقد كان قتيبة رجلاً محترماً أكثر منه رجلاً محبوباً . وتؤكد المصادر على كفاءته فى التنظيم وقيادة الجيوش ، بيد أنه لا توجد حكايات عن كرمه أو رعايته للشعراء . وكان يمكن أن يكون خصماً شرساً ولم يكن ضميره ليردعه عن إعدام الأسرى ، حتى أولئك الذين كان قد منحهم الأمان ، إذا ما رأى ضرورة لهذا ، ومن ناحية أخرى ، كان مستعداً للعمل مع الملوك والزعماء المحليين إذا ما شعر أن هذا سيكون لصالح المسلمين . كما تمتع بمساندة عائلته الكبيرة القادرة ، وخاصة أخوه عبد الرحمن الذى كان يليه فى القيادة وكان ساعده الأيمن دائماً .

وقدم قتيبة بسياسة واضحة ، وهى توحيد عرب خراسان حول قضية الإسلام والجهاد ، وأن يقودهم لفتح الأراضى الغنية عبر النهر ، والتى لم يكن سابقوه قد حاولوا تأمينها . وكان يجمع فى كل ربيع الجيش الإسلامى فى مرو وينطلق ليعود إلى العاصمة فى الخريف حيث تتفرق القوات عائدة إلى مدنهم وقراهم فى خراسان حتى موسم الغزو فى السنة التالية . وكان مقيضاً للحملات التى كانت على وشك أن تبدأ أن تبرهن على كونها الأشد والأكثر دموية وربما كانت الأكثر تدميراً بين جميع حملات حركة الفتوح العربية الكبرى . ووفقاً لأحد شهود العيان ، وصل قتيبة من العراق إلى العاصمة مرو بينما كان سلفه يراجع القوات قبل أن يقوم بغارة عبر النهر . وتولى القيادة فى الحال وخاطب جنوده يحثهم على الجهاد ، وقال : «إن الله أحكم هذا المحل ليعز دينه ، ويذب بكم عن الحرمات ، ويزيد بكم المال استفاضة ، والعدو وقماً ، ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم النصر بحديث صادق ، وكتاب ناطق» ، فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (*) ووعد المجاهدين فى سبيله أحسن الثواب ، وأعظم النخر عنده فقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ

(*) سورة الصف : ٩ .

مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُفْقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِحَاجَتِهِمْ اللَّهُ أَحْسَنُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾
ثم أخبر عن قتل في سبيله أنه حتى يرزق، فقال : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (**) فتنجزوا موعود ربكم ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم ، وإياي والهوني» (٢).

ولدينا صورة مفصلة عن جيشه سنة ٧١٥م في نهاية فترة ولايته (٣). ويقال إن قتيبة في هذا الوقت كان يقود أربعين ألف رجل جاءوا أصلاً من البصرة جنوب العراق. وكانوا منظمين في جماعاتهم القبلية الرئيسية ، وجلبوا معهم الإحساس بالتضامن القبلي الذي خدمهم جيداً في ميدان المعركة ، بيد أن المنافسات القبلية أيضاً كانت يمكن أن تؤدي بسهولة إلى اندلاع العنف. وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك قوات قوامها سبعة آلاف وصلوا حديثاً من الكوفة في وسط العراق وسبعة آلاف من الموالي الذين انضموا إلى القوات الإسلامية من المسلمين غير العرب. وكانوا تحت قيادة رجل يقال له حيان النبطي. وكان أحد أسباب نجاح قتيبة يرجع إلى أنه اجتذب هذه الجماعات المحلية، التي كانت تؤلف حوالي اثنتي عشرة بالمائة من قواته إذا كان لنا أن نصدق الأرقام الواردة في المصادر. ويبدو أنهم قد حاربوا بصلابة مثل العرب، ولا بد أن معرفتهم المحلية جعلتهم مفيدين بشكل خاص ، ولكن لم يكن كل العرب مستعدين لقبولهم على قدم المساواة ، وكان هذا التوتر كامناً تحت السطح مباشرة . وربما كان أهم سبب في نجاح قتيبة ، حتى نهايته المساوية التي جاءت عندما ساءت الأمور ، هو أنه كان قادراً على التعامل مع هذه الجماعات المتفرقة وأن يجعل لهم غرضاً مشتركاً وهدفاً عاماً هو توسيع رقعة الإسلام في بلاد ما وراء النهر ربما حتى حدود الصين في نهاية الأمر.

(*) سورة التوبة : ١٢٠-١٢١ .

(**) سورة آل عمران : ١٦٩ .

وبدأ قتيبة حملاته في الحال، وقاد رجاله صاعدا النهر حتى طخارستان. وهناك كان غرضه الأساسى التهدئة لا الغزو . وقام بزيارة إلى بلخ ، حيث لقى الترحيب من ملاك الأرض المحليين. ثم عبر النهر وتقابل مع ملك الصغانيين ، الذى أعطاه الهدايا ومفتاحاً ذهبياً يرمز إلى خضوعه . وفى عودته عرضت عليه الحماية ضد ملك الشومان المجاور، حيث كانت محطة قتيبة التالية. وهناك أيضا أسرع الملك لعقد الصلح وتسليم الجزية. وإذ أمن قتيبة جناحه الجنوبي بهذا العرض الذى مزج بين القوة والدبلوماسية ، عاد إلى مرو ليقضى الشتاء فيها.

وفى السنة التالية، ٧٠٦م بدأ بإقرار بعض الأعمال التى لم تكن قد انتهت فى الجنوب. ذلك أن أقوى الأمراء المحليين، نيزك البوذى ، حافظ على استقلاله فى المنطقة الجبلية فى باذغيس ، شمال غرب هرات. وكان قد أسر بعض المسلمين وحبسهم عنده. وأرسل قتيبة إليه رسولا ، حذره من استفزاز الوالى الجديد. واضطر نيزك إلى إطلاق سراح الأسرى وذهب بشخصه إلى مرو لمقابلة الوالى. وعقد أهل باذغيس السلام على أساس أن قتيبة لن يدخل بلادهم^(٤) هذا النوع من الترتيبات على أساس مبدأ عش ودع الآخرين يعيشون كان من خصائص طبيعة الفتح العربى للمناطق البعيدة من بلاد ما وراء النهر.

ثم حول انتباهه إلى هدفه الحقيقى، أى المدن الغنية فى بلاد الصغد ووادى زرفشان. وفى بداية الربيع عبر النهر إلى بيكند، الأقرب إليهم والأولى على الطريق الممتد من النهر ليعبر عند أمل . وكان موقع المدينة آنذاك خراباً ومهجوراً على بعد حوالى ستين كيلو متراً غرب بخارى ، ولكن فى أوائل القرب الثامن الميلادى كان مركزاً تجارياً كبيراً، كان تجاره يزورون الصين بانتظام ويسافرون على طول طريق الحرير البرى. وهى تقع عند نهاية أراضي وادى زرفشان الخصيبة تماماً وتحيط بها الصحراء . وكانت جائزة مغرية تماماً ، ولكن المدينة كانت محمية جيداً بالحوائط المبنية من الطوب اللبن وبها قلعة داخلية لها بوابة واحدة فقط^(٥). وكانت قوية لدرجة أنها كانت معروفة ببساطة باسم «القلعة» أو «القلعة البرونزية» ولم يكن السكان راغبين فى الرضوخ

لمطالب العرب المالية. ويبدو أن الفتح الأولى كان سريعاً تماماً ، إذ تم دفع المدافعين إلى ما وراء الأسوار ثم طلبوا الصلح . وتم الصلح مقابل الجزية ، وعاد قتيبة يواصل مسيره من جديد إلى نهر جيحون حيث سمع أن السكان قد ثاروا وقتلوا الوالى الذى كان قد عينه؛ وكان هناك كما هو الحال غالباً، قصة عن عربى حاول أن يأخذ الأفضلية فى بنات رجل قوى من الأهالى وتم طعنه نتيجة لذلك^(٦)، ولكن يبدو من المحتمل أن يكون الأهالى قد شعروا فى ذلك الحين أن المسلمين قد انسحبوا، ولم يعودوا مضطرين إلى دفع الجزية التى كانوا قد أجبروا على الوعد بها.

وصمم قتيبة على أن يلقنهم درساً يتعلمه جميع أهل بلاد الصغد . وبعد شهر من الحصار ، أرسل عمالاً لكى يحفروا نفقاً تحت أسوار المدينة وغطى سقفه بالأخشاب. وكان قصده أن يحرقوا الدعامات الخشبية بحيث تنهار الأسوار . ولم تمض الأمور على نحو ما أراد وخطط ؛ إذ سقط السور بينما كانوا لا يزالون يضعون الدعامات ولقى أربعون من العمال التعساء حتفهم . وأسلوب حفر الأنفاق أثناء الحصار مشهود تماماً فى الشئون الحربية الغربية منذ أيام الحروب الصليبية فصاعداً ، ولكن يبدو أن هذا كان المثال الوحيد الذى تم تسجيله عن استخدامه فى الفتوح الإسلامية الباكرة ، وربما كان هذا أسلوباً تعلمه قتيبة من القوات المحلية التى جندها فى جيشه بأسيا الوسطى. وعلى الرغم من أن الأمور تبدلت بدرجة كبيرة نحو الأسوأ بالنسبة للعمال المنكوبين ، فإن النفق حقق النتيجة المرجوة - إذ إن المسلمين دخلوا المدينة عنوة، وواجهوا مصاعب جمة أثناء ذلك ، من خلال الجزء المنهار من السور . وإذ تم الاستيلاء على المدينة عنوة ، فإن سكان المدينة وثروتهم كانت تحت رحمة الفاتحين . وقد قتل جميع الرجال المحاربين، وتم سبى النساء والأطفال، وياتت المدينة خاوية على عروشها. وقيل إن الكثير من التجار كانوا قد رحلوا للتجارة فى الصين. وعندما عادوا بحثوا عن نساءهم وأطفالهم ودفَعوا الفدية للعرب وبدءوا إعادة بناء المدينة^(٧). وفى الحقيقة، يبدو أن بيكند لم تتعاف أبداً بشكل حقيقى من النهب الذى تعرضت له والدمار الذى عانت ، ولم تلبث أن توارت فى الظل بسبب نمو جارتها بخارى.

وتذكر المصادر العربية الغزو لاسبب البؤس الإنسانى الذى تسبب فيه ، وإنما بسبب الثروة التى تحققت من المغانم التى تم الحصول عليها. وقد حاول أحد الأسرى أن يفدى نفسه بخمسة آلاف قطعة من الحرير الصينى ، ثمنها مليون درهم^(٨). ووجدوا تمثالاً من الفضة فى معبد بوذى (بوتخانه) وزنه أربعة آلاف درهم وكنوزاً أخرى، من ضمنها لؤلؤتين الواحدة منها فى حجم بيضة الحمامة . وعندما سأل قتيبة من أين جاءت اللؤلؤتان . أخبروه أن طائرین جاءا ووضعاهما فى المعبد بمنقاريهما. وبالنسبة للكتاب المسلمين، كانت هذه الحكاية الأخاذة ببساطة دليلاً على خطأ البوذية^(٩). وتم إرسال اللؤلؤتين ، مع أشياء أخرى، إلى الحجاج فى العراق، وكان رده خطاباً يفيض تقريظاً لقتيبة على كرمه . وتمت إذابة بقية الفضة وسكت عملات لدفع رواتب الجند المسلمين : وبعملهم هذا ضاع الكثير من الفن القديم فى آسيا الوسطى إلى الأبد. لقد كان هناك الكثير من النقود الجديدة بحيث كانت كافية لأن يجهز المسلمون أنفسهم بأقصر الأسلحة والدروع ، وكان الجنود كالعادة يتوقعون أن يتم الدفع لهم لشراء أغراضهم الخاصة . وفى هذه الحال ، تم تسليم الأسلحة التى تم الاستيلاء عليها إلى القوات كذلك . وبعد النصر الذى حققه الجيش فى بيكند، تحرك إلى واحة بخارى، حيث شن هجوماً على بعض القرى وأرغموها على الصلح.

وفى السنة التالية ، أى سنة ٧٠٧ م ، عاد قتيبة إلى الزحف مرة أخرى . ومن جديد كانت بخارى هدفه . وفى هذه السنة صحبه نيزك، الذى يظهر الآن عضواً فى جيشه، جندياً ورهينة فى آن معاً . ولم تحقق الحملة الكثير. إذ كان الصفد آنذاك واعين تماماً للتهديد الذى كانت الجيوش العربية تمثله وكانوا قد عقدوا تحالفات مع الأتراك وأهل فرغانة البعيدة. وقد أخذ الحلفاء يجوبون مناطق الإستبس ، ينتظرون الفرصة للهجوم . وبينما تحرك الجيش العربى على امتداد الطريق نحو بخارى. كان منتشرراً تماماً على مدى يزيد على كيلو متر ونصف بين قتيبة الذى كان يتولى القيادة، وأخيه الذى كان ساعده الأيمن، عبد الرحمن الذى كان قائد مؤخرة الجيش. ورأى الأتراك الفرصة سانحة وهاجموا ذيل الطابور . وأرسل عبد الرحمن رسولاً إلى أخيه يطلب المساعدة . وفى الوقت الذى كان فيه قتيبة وبصحبه نيزك قد وصل إلى مؤخرة الجيش،

كانت القوات المسلمة تواجه الهزيمة، ولكن ظهوره قلب الأمور رأساً على عقب ،
إذ هرب الأتراك وحلت بهم الكارثة . وقرر قتيبة ألا يستمر في مطاردتهم، ولكنه عاد
إلى الجنوب وعبر النهر عند ترمذ وعاد عن طريق بلخ إلى مرو ليمضى الشتاء هناك.

كذلك كان موسم الغزو فى سنة ٧٠٨م فاشلاً . فقد هاجم قتيبة قوات حاكم محلى
فى منطقة بخارى إسمه وردان - خُدا - ، ولم يكن قادراً على أن يقوم بالغزو أو أن
يأخذ الجزية . وتلقى من الحجاج توبيخاً لازعاً زاد من ألامه^(١٠).

وفى السنة التالية ، سنة ٧٠٩م، قرر قتيبة أن يتحرك ضد بخارى مرة أخرى.
وربما ساعده على ذلك موت خصمه فى السنة السابقة، وردان خُدا . والروايات عن
هذه الحملة غير واضحة بالمرّة ، ولكن يبدو أنه عندما اقترب المسلمون من المدينة، طلب
السكان المساعدة من الصغد الآخرين والأتراك ، وكان القتال الرئيسى ضد جيش
الإنقاذ هذا . وتأتينا أكثر الروايات اكتمالاً عن هذا من قبيلة تميم ، وتبدو كما لو كانت
رواية تنتمى إلى المراحل المبكرة من حركة الفتوح، فهى مليئة بالخطب البطولية
والأفعال الفردية الباسلة ولكنها تترك الصورة الأوسع غامضة تماماً . وقد تم تصوير
قتيبة جالساً على كرسي ليتولى القيادة ، وهو يرتدى عباءة صفراء فوق أسلحته .
وفى إحدى النقاط تخبرنا القصة أن الكفار دخلوا فى معسكر قتيبة وعاثوا خلاله حتى
بدأت النساء تضربهم وتجعلهم يتقهقرون بلطم وجوه خيولهم وبيكانهن . وقد حفز هذا
الرجال على الفعل وتم صد الهجوم . وهذه هى المرة الوحيدة التى يرد فيها ذكر النساء
فى جيوش قتيبة، وبينما يمكن أن يكون الأمر اصطناعاً كاملاً، فإنه قد يوحى بأن
النساء قد لعبن فعلاً دوراً مهماً فى الحملات ولاسيما فى تنظيم المعسكرات .

ولا غرو أن يقول أبناء قبيلة تميم إن النصر جاء على أيديهم . وكان الأتراك فوق
التل على الضفة الأخرى من النهر وكانت قوات المسلمين مترددة تماماً فى عبور النهر
والاشتباك معهم . وعزف قتيبة مباشرة على نغمة الكبرياء القبلى واستثارهم بقوله إنهم
مثل معطف من الزرد تنكسر السيوف عليه ، وعاد إلى تقاليد القبيلة فى عصور
ما قبل الإسلام قائلاً إنه يريدهم اليوم أن يحاربوا مثلما كانوا قد حاربوا قديماً^(١١).

وكان شيخ القبيلة وكيع بن الحسن التميمي بدوياً صلباً ، أخرق ، بذئ اللسان ، صار فى ما بعد لعنة بالنسبة لقتيبة . وقد حمل الراية وأخذ يتقدم ماشياً نحو العدو. وحثّ الفرسان على مواصلة التقدم، ولكن عندما وصل قائد الفرسان إلى النهر رفض أن يستمر؛ وعندما حثه وكيع على أن يمضى نظر إليه نظرة جمل متوحش، ورفض أن يتزحزح. وبدأ وكيع الذى كانت له شهرة يستحقها عن جدارة بالعنف والقسوة ، يشتمه وينخسه بالقضيب الحديدى الشائك، وإذ خجل قائد الفرسان من التصرف قاد رجاله إلى أعلى التل . وفى البداية تبعه وكيع بالمشاة ، وعندما شتت الفرسان انتباه الأتراك بمهاجمتهم من الجناحين ، تمكن المشاة من دفعهم من فوق التل.

وفى أعقاب المعركة، احتل العرب بخارى للمرة الأولى. ويبدو من الأرجح أنه ما إن تمت هزيمة قوة النجدة ، حتى عقد أهل المدينة صلحهم مع المسلمين ، وربما سمحوا ببقاء حامية مسلحة بالقلعة . وقد استمر فتح بخارى على مدى أربعة مواسم غزو على الأقل ، وكان السكان يجبرون على الخضوع ودفع الجزية فى كل سنة. ولم يحدث سوى بعد المرة الرابعة أن اتخذ قتيبة خطوات لتأسيس وجود إسلامى راسخ فى المدينة.

كانت بخارى فى هذا الوقت مكونة من ثلاث مناطق متميزة. كانت أقدمها منطقة القلعة الآرك، على الأرض حيث كان يعيش الملك، الذى يحمل لقب بخارى - خُدا (أى سيد بخارى) وإلى الشرق قليلاً ، كانت المدينة المسورة تفصلها عن القلعة أرض مفتوحة ، وكانت تسمى الشهرستان حيث كان يعيش التجار وغيرهم من السكان . وأخيراً كان هناك الكثير من المساكن المحصنة وكل منها يسمى كُشك باللغة المحلية، وهى مبعثرة فى حقول الواحة وبساتينها . وكان قتيبة قد عقد العزم على أن يؤسس وجوداً إسلامياً فى قلب شهرستان ، بالإقناع أو الرشوة ، أو القوة إذا لزم الأمر. ودمّر معابد النار وبنى المساجد وفرض شريعة الإسلام . وقد أجبر السكان على أن يقدموا نصف بيوتهم وحقولهم إلى العرب حتى يمكنهم العيش معهم وأن يمدوهم بالعلف لخيولهم وبأخشاب الوقود . واختار كثير من السكان الأغنياء أن يغادروا المدينة بأسرها ويعيشوا فى منازلهم الريفية . وتم تقسيم المدينة المسورة إلى مناطق مختلفة خصصت كل منها لجماعة قبلية مختلفة لكى تسكن فيها. وسرعان ما قامت المساجد

على أيدي الجماعات المختلفة ، وكان أحدها قد أقيم موضع كنيسة مسيحية . وفي خلال جيل واحد يبدو أن المدينة المسورة قد صارت سكناً لأغلبية كبيرة من المسلمين نوى الأصول العربية على حين عاش الإيرانيون في الضواحي والقرى^(١٢). وعاش الأمراء العرب في المدينة المسورة، واستمر الملوك بخارى - خُدا ، يعيش كما كان على الدوام، في القلعة. وكانت العلاقات بين الولاة العرب والملوك عادة ، وليس دائماً، علاقات ودية، كما أن طغشادا الملك الذي قبل حكم المسلمين على المدينة، قد سمى ابنه على اسم قتيبة ، تكريماً للفتح.

وفي سنة ٧١٢ بنى قتيبة مسجداً كبيراً فوق موضع بيت نار . فقد كان الدين الجديد قد أعلن على الملأ في مركز القوة والهيبة القديمة . ولم يكن إيجاد جماعة من المؤمنين يمكنهم أن يملأوه بالأمر البسيط. إذ كان يتم دفع درهمين لكل من يحضر صلاة الجمعة من الأهالي تشجيعاً لهم. ولأنهم لم يكونوا يعرفون كيف يؤدون شعائر الصلاة، تم تعيين معلمين من الناطقين بالفارسية لكي يعلموهم كيفية الركوع والسجود. وكانت تتم قراءة القرآن بالفارسية لأن الناس لم يكونوا يعرفون العربية. ولم يكن أهل المدينة كلهم منبهرين بالدين الجديد، ونعلم أن الفقراء قد شذهم الدرهمان المقدمان ولكن كثيرين من الأغنياء بقوا في منازلهم الريفية على سبيل العناد . وفي أحد أيام الجمعة خرج المسلمون إلى هذه المنازل الريفية ودعوا السكان للقدوم إلى المسجد . وكان الرد عليهم وإبلاً من الحجارة. وحينئذ هاجم المسلمون المنازل. وعلى سبيل إهانة السكان خلعوا أبواب البيوت لكي تستخدم في المسجد الجديد . وكانت هذه الأبواب تحمل صوراً للآلهة العائلة ، وعندما أحضرت الأبواب إلى المسجد تم مسح صور الآلهة، إما نتيجة لمنع الإسلام للتصوير أو ببساطة أكثر ، لإهانة الديانة القديمة وأتباعها . وبعدها بسنوات كثيرة لاحظ النرشخي ، مؤرخ بخارى المحلى ، الصور التي أزيلت من على الأبواب واستفسر عما كان قد حدث، وهي القصة التي وصلت إلينا^(١٣). كذلك حدد قتيبة مكاناً لصلاة العيدين عند أسفل القلعة في الرجستان (الميدان) وعندما جاء المسلمون للصلاة هناك أول مرة تلقوا الأوامر بأن يجلبوا أسلحتهم معهم ، لأن الإسلام كان ما يزال حديث عهد ولم يكن المسلمون بمؤمنين من الكفار^(١٤).

وعلى الرغم من التغيرات التي جرت فى الشعائر والديانة والاحتفالات ، ظل ملوك بخارى يتمتعون بسلطة كبيرة فى المدينة والواحة المحيطة بها ، وبقيت السلالة الملكية القديمة طوال حكم الخلفاء الأمويين والعباسيين حتى قدوم السامانيين فى نهاية القرن التاسع الميلادى/ الثالث الهجرى. وهكذا ، وكما حدث فى مناطق كثيرة من بلاد ما وراء النهر، كانت الحكومة المسلمة حقا محمية وكانت السلطات العربية تحكم مع الأرستقراطية المحلية ومن خلالها . وفى أعقاب هذا النجاح، جاء طرخون ملك بلاد الصغد من عاصمته سمرقند يطلب الصلح . واقترب من معسكر قتيبة ومعه رجلان ، جاعلاً نهر بخارى بينه وبين معسكر قتيبة وبدأ المفاوضات . ووافق على أن يدفع الجزية فى مقابل الاتفاق على ألا يقوم العرب بالغزو.

وإذا كان هناك أى شعور بالرضى قد غمر قتيبة عندما عاد إلى مرو بعد الفتح الأول لبخارى فى خريف سنة ٧٠٩ م، فإنه سرعان ما تكرر بطريقة فجأة . إذ إن الأمير نيزك ، الذى كان قد جئ به إلى مرو وانضم إلى حملة قتيبة على بخارى، كان فيما يبدو آنذاك يشعر أنه إذا ما أراد استعادة استقلاله ، فإن عليه أن يتصرف قبل فوات الأوان «... فقال لأصحابه وخاصته : متهم أنا مع هذا، ولست آمنه ، ولذلك أن العربى بمنزلة الكلب ؛ إذا ضربته نبج ، وإذا أطعمته بصبص واتبعك ، وإذا غزوته ثم أعطيته شيئا رضى، ونسى ما صنعت به، وقد قاتله طرخون مراراً ، فلما أعطاه فدية قبلها ورضى ، وهو شديد السطوة فاجر...»(*) وكان مغزى هذا أن نيزك شعر أنه يمكن أن يحاول التمرد، فإذا فشل ، يمكن أن يصالح قتيبة ثانية. وعندما وصل الجيش إلى أمل على الضفة الغربية لنهر أموداريا، طلب نيزك الإذن لكى يرجع إلى بلاده ، ونال الإذن بذلك.

وقصد بلخ بما يمكنه من السرعة . وكان من الواضح أنه قد وضع خطة لإثارة جميع أمراء طخارستان ، وادى نهر أموداريا الأوسط، ضد الحكم العربى. وعندما وصل المدينة كان أول شيء فعله أن صلى فى معبد نوبهار البوذى الكبير وتبرك به من

(*) النص من الطبرى، ج ٦ ، ص ٤٤٤ - ص ٤٤٦ . (المترجم)

أجل الفوز في الصراع المرتقب. وكان يدرك أن قتيبة سرعان ما يأسف على منحه الإذن بالرحيل وسيأمر الوالي العربي المحلي باحتجازه ولهذا استمر في تحركاته. وكتب إلى قائمة كاملة من الأمراء المحليين يحثهم على الانضمام إليه، فكتب إلى إصبيهذ أمير بلخ، وإلى بازام ملك مرو، وإلى سهرب ملك الطالقان، وتوسل إلى ملك الفارياب وإلى ملك الجوزجان. وكان ردهم جميعاً إيجابياً ورتب على أن ينضموا إليه في ربيع سنة ٧١٠م. كما أنه أعد الترتيبات في حالة فشل الأمر. وكتب إلى كابل شاه البعيد، الأمن بعيداً عن متناول الجيوش العربية، طالباً مساعدته. وأرسل نيزك الكثير من متاعه إلى كابل لتكون محفوظة بشكل آمن وتلقى ضماناً بأن الشاه سوف يمنحه اللجوء إذا ما احتاج إلى ذلك^(١٥). ثم طرد وإلى قتيبة واستعد للانتظار حتى يتجمع حلفاؤه في الربيع. واتخذ كافة الاحتياطات ولكنه لم يقدر خصمه حق قدره.

كان قتيبة آنذاك في مقر قيادته الشتوية في مرو، وكانت معظم قواته قد تفرقت عائداً إلى بلادها، ولكنه أرسل في الحال اثني عشر ألف رجل تحت قيادة أخيه إلى بلخ وأمره أن يبقى هناك حتى الربيع. وفي أوائل السنة التالية (سنة ٧١٠م)، قبل أن يتجمع المتمردين كان قد جمع جيشاً من مرو ومن المستوطنات العربية في الأجزاء الغربية من خراسان وسار قاصداً طخارستان. كانت أولى محطاته مرقرود، وهي بلدة صغيرة على نهر المرغاب الأعلى، وكان حاكمها قد تعهد بتأييد نيزك. وهرب الحاكم نفسه ولكن قتيبة قبض على ولديه وصلبهما. وكانت الطالقان محطته التالية، حيث تحكى بعض الروايات، أنه قتل وصلب عدداً كبيراً من الناس لكي يربع السكان في المنطقة^(١٦). ثم أعلن ملك الفارياب خضوعه المهين وتم إنقاذه هو وشعبه. وبسرعة هرب ملك الجوزجان وواصل قتيبة زحفه حتى تلقى طاعة أهل بلخ.

وكان بوسع نيزك حينذاك أن يرى انهيار خطته. ذلك أن تصرف قتيبة الحاسم والسريع قد جعل موقفه سيئاً وتصالح كل حلفائه من الأمراء تقريباً مع قتيبة. وكان هناك ولاية عرب في جميع مدن طخارستان. وعند ذلك فر جنوباً إلى الهندوكوش، أملاً في الوصول إلى كابل. وترك قسماً من أتباعه في خلم (تشكر جان الحديثة)، حيث يترك الطريق جنوباً سهول نهر أموداريا ويدخل في ممر ضيق، ربما في القلعة

التي لا يزال من الممكن رؤية أطلالها في المدينة^(١٧). ولم يستطع قتيبة أن يجد طريقا يلتف حول هذه العقبة حتى اقترب منه أحد ملاك الأراضي المحليين وعرض عليه أن يده على ممر يدور من خلف القلعة في مقابل أن يضمن سلامته . ومرة أخرى ، أتاحت الانقسامات والمنافسات بين الأهالي للعرب أن يستفيدوا منهم . وانقض رجال قتيبة على الحامية تحت ستار الليل واستولوا على القلعة . وفي الوقت نفسه كان نيزك قد هرب على طول الطريق الذي يمتد عليه الطريق الحديث من وادي نهر أموداريا حتى ممر سلتج وكابل . واختبأ في ملجأ جبلي في موضع لا يمكن التعرف عليه الآن في ولاية بغلان . وكان قتيبة يغذ السير في أعقابهِ . وسرعان ما لحق به وفرض الحصار على ملجئه على مدى شهرين . وبدأت إمدادات نيزك في النفاد ولكن قتيبة كانت له مشكلاته أيضاً ، فسرعان ما سيحل الشتاء عليهم ولم يكن يريد أن يقع في فخاخ الشتاء والجبال .

وبدأت المفاوضات . وأرسل قتيبة مستشارا من لدنه يسمى سليم ، أخذ معه أحمالاً من الطعام ، بما في ذلك طبقا يسمى الخبيص يعمل من البلح والزبد النقي . وانقض الهاربون الذين عضهم الجوع على الطعام وأدرك نيزك أن عليه أن يعقد الصلح أو يهلك ، خاصة عندما أكد سليم على أن قتيبة على استعداد لقضاء الشتاء هناك إذا ما دعت الضرورة إلى ذلك . وعرض سليم الأمان . ولكن نيزك كانت تراوده شكوك كثيرة «... قال : ما كانت أمنه على نفسه ، ولا آتيه على غير أمان ، فإن ظني به أنه قاتلي ، وإن أمنتني ، ولكن الأمان أعذر لي وأرجى...»^(١٨).

وهكذا مضوا في طريقهم إلى أسفل من مخبأ نيزك إلى السهل ، حيث كانت حيوانات الركوب جاهزة ، وسليم الناصح يحاول طمأنته طوال الطريق . وعندما وصلوا إلى الممر ، تسحبت جماعة الحراسة التي كانت مع سليم إلى الخلف وراء نيزك تحسباً إذا ما غيّر رأيه وحاول أن يهرب ثانية إلى الجبال . وكانت تلك بادرة سوء بالنسبة لنيزك . وعندما أحضروه إلى قتيبة تحققت أسوأ مخاوفه . وعندما استجوبه الوالي ، قال إنه نال الأمان من سليم ولكن قتيبة بادره بالرد بأنه كان يكذب . وكان يمكنه

(*) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٥٦ - ص ٤٥٧ . (المترجم)

بسهولة أن يثير تمرداً آخر. ومن ناحية أخرى، كانت عهود الأمان تؤخذ بجدية شديدة والحنث فى أحدها ربما كان يجعل المفاوضات مع المتمردين الآخرين أشد صعوبة فى المستقبل. وكانت آراء المستشارين حول الوالى منقسمة تماماً. وأخيراً قال أحدهم إنه سمع الوالى يقسم بالله إذا وقع نيزك فى يديه ليقنتله وأنه إن لم يفعل هذا، فلن يكون بوسعه أن يطلب العون من الله مرة أخرى . «... قال : أقول إنى سمعتك تقول: أعطيت الله عهداً إن أمكنك منه أن تقتله ، فإن لم تفعل لا ينصرك الله عليه أبدا . فأطرق قتيبة طويلاً ، ثم قال : والله لو لم يبق من أجلي إلا ثلاث كلمات لقلت : اقتلوه، اقتلوه ، اقتلوه؛ وأرسل إلى نيزك فأمر بقتله وأصحابه فقتل مع سبعمائة»^(*)، هذا القتل القاسى والغادر كان وصمة فى سمعة قتيبة إلى الأبد ولكنه أرعب بقية الأمراء وجعلهم يخضعون . إذ كان موت نيزك يعنى نهاية التمرد وكان معظم أمراء طخارستان، على الأقل آنذاك، تحت السيطرة العربية الراسخة.

وكان قتيبة لا يزال يواجه تحدياً صغيراً لسلطته بيد أنه كان مهماً . فقد كانت مملكة الشومان الصغيرة على الضفة الشمالية لنهر أموداريا . وكانت عاصمتها مدينة حصينة فى موضع «شنابى» عاصمة طاجيكستان الحديثة. وكان ملك الشومان قد عقد الصلح مع قتيبة وقيل إنه صار صديقاً لصالح شقيق الوالى، مما يعد مثلاً آخر على الروابط التى كانت تتطور بين العرب والنخب المحلية. وكان هناك مندوب سياسى عربى قد تم تعيينه. وفى ذلك الحين نقض الملك الصلح وطرد الوكيل السياسى . وتوحى السهولة التى تم بها هذا الأمر أن المملكة كانت قد «فتحت» بطريقة سطحية تماماً ولم تكن هناك حامية عربية . وتمثلت ردود فعل قتيبة فى محاولة نجربة الدبلوماسية . واختار رجلاً وصف بأنه «من سُكَّ خراسان» ربما كان داعية وربما كان أشبه بالدرويش، ومعه عياش الغنوى. وعندما وصلا ، لقيا استقبالاً عدائياً من الأهالى المحليين الذين أطلقوا السهام عليهما. وعاد الناسك أدراجه ولكن عياش كان أصلب عوداً ونادى بصوت جهورى متسائلاً عما إذا كان هناك أى مسلم فى المدينة. وأجابه رجل واحد.

(*) الطبرى، ج ٦ ، ص ٤٥٨ . (المترجم)

وخرج يسأل عما يريد عياش الذى أجابه بأنه يطلب المساندة فى شن الجهاد ضد الأهالى. وقبل الرجل، وعلى الرغم من حقيقة أنهما كانا اثنين فقط، فإنهما اشتبكا مع العدو بقدر من النجاح. ثم شعر المسلم المحلى بأن ولاءه تجاه أبناء مدينته أقوى مما يربطه مع رفيقه فى الدين الجديد، فاستدار خلف عياش وقتله. ووجدوا به ستين جرحاً وسرعان ما ندم أهل شومان على ما فعلوه، قائلين إنهم قتلوا رجلاً شجاعاً.

بيد أن الضرر كان قد وقع. فبعد حركة التمرد القريبة التى قادها نيزك، لم يكن بوسع قتيبة أن يترك أى ملك محلى يتحدى سلطته ويخرج عليها ووطد عزمه على أن يجبرهم على الطاعة ودفع الجزية، بالقوة إذا لزم الأمر. وعلى أية حال، كان الملك فى حال من التحدى والجسارة. ولم يكن خائفاً من قتيبة لأنه كان يمتلك أقوى قلعة بين قلاع الملوك. «... وقال لرسول صالح: ما تخوفنى به من قتيبة، وأنا أمنع الملوك حصناً أرمى أعلاه، وأنا أشد الناس قوساً وأشد الناس رمياً، فلا تبلغ نشابتى نصف حصتى، فما أخاف من قتيبة»^(١٩)(*).

وبالمثال كان قتيبة لايعوقه شىء. وسار إلى بلخ، وعبر النهر وسرعان ما وصل إلى قلعة شومان. وهناك أقام المجنقات وبدأ يقصف الأسوار. وكانت إحدى هذه الآلات المستخدمة فى الحصار تسمى «الفحجاء»، وكانت تقذف الأحجار التى كانت تنزل داخل المدينة مباشرة وقتلت رجلاً فى بلاط الملك^(٢٠). ومنذ تلك اللحظة يبدو أن كل شىء قد انتهى بسرعة كبيرة. فعندما بات واضحاً أن الملك لن يستطيع الصمود أكثر من ذلك، جمع كل كنوزه ومجوهراته وألقى بها فى أعماق بئر بالقلعة، حيث لم يتم استخراجها أبداً. ثم خرج ليلقى مصرعه وهو يقاتل. وكان قتيبة قد استولى على القلعة عنوة وكان على المدافعين أن يدفعوا الثمن؛ إذ تم قتل جميع المحاربين، وتم سبى غير المحاربين. لقد تم الاستيلاء على شومان، وقتل الملك، ولكن يبدو أن الإمارة نجت وبقيت لتستعيد هويتها، لأننا نسمع عن أمير لاحق لشومان يحارب بوصفه حليفاً للمسلمين.

(*) الطبرى، ج ٢، ص ٤٦٢ - ص ٤٦٣. (المترجم)

وفى طريق عودته إلى مرو، أرسل قتيبة أخاه عبد الرحمن لزيارة طرخون ، ملك سمرقند ، فقط لكى يتأكد من أنه لا يخطط لأية أعمال عدائية وليجمع الجزية. وتقابل مع جيش طرخون فى أحد المروج بعد الظهر. وتفرق الجنود الصفد فى جماعات وبدءوا يشربون الخمر حتى «... عبثوا وعاثوا وأفسدوا، فأمر عبد الرحمن أبا مرضية - مولى لهم - أن يمنع الناس من شرب العصير، فكان يضربهم ويكسر أنيتهم ويصب نبيذهم، فسال فى الوادى، فسمى مرج النبيذ...»(*) واتخذت إجراءات صارمة لمنع العرب من أن يحذو حذوهم. وتم جمع الجزية وعاد عبد الرحمن إلى أخيه فى مرو.

كان سلوك قتيبة شديد الوطأة محل استياء فى الكثير من المناطق . ففى سمرقند كان هناك قلق متصاعد وعدم رضى متزايد تجاه موقف طرخون المتخاذل ؛ وكانوا يسمونه العجوز الشغوف بالإهانة ، كما ساءتهم حقيقة أنه وافق على أن يدفع الضرائب. وتم خلعه عن عرشه لصالح رجل يدعى غوزك(**)، قال البعض إنه أخوه^(٢١). وكان وقع الخلع على طرخون غاية فى السوء ، قائلًا إنه يفضل الموت بيديه على أن يقتله أحد، وانكفأ على سيفه حتى خرج من ظهره^(٢٢). وكانت حالات الانتحار السياسى مثل هذه غير معروفة بالمرّة فى العالم العربى، على الرغم من أنها كانت شائعة بطبيعة الحال فى روما الإمبراطورية، ويبدو أيضا أنها كانت معتادة فى آسيا الوسطى. وكان لموته عواقب وخيمة على سمرقند، لأنه أتاح لقتيبة أن يظهر فى صورة المنتقم لطرخون عندما قاد جيشه فى المرّة التالية داخل بلاد الصفد، ولكن غوزك برهن على كونه حاكمًا قديرًا مخادعًا ، يحرص باستمرار على صون استقلاله عن جيرانه الأقوياء .

وشهد موسم الغزو التالى سنة ٧١١م زهاب قتيبة جنوباً لمواجهة زُنْبِيل سيستان، الذى ربما كان أقوى الأمراء المعادين الذين واجههم المسلمون . وعلى أية حال ، ففى هذه المرّة، لم يكن هناك قتال خطير ووافق الزنبيل على معاهدة الصلح . وسيكون من

(*) الطبرى، ج ٢ ، ص ٤٦٢ - ص ٤٦٣ . (المترجم)

(**) أثبتتها المؤلف فى النص الإنجليزى Ghurak غورك، والتصحيح من الطبرى، ج ٦، ص ٢٦٣ . (المترجم)

المثير أن نعرف ما إذا كان قتيبة قد سمع أنه في السنة نفسها، ولكن على مسافة ستة آلاف كيلو متر غرباً، كان هناك قائد مسلم آخر ، هو طارق بن زياد ، قد عبر مضيق جبل طارق وبدأ فتح إسبانيا^(٢٣).

وفي السنة التالية ، وقبل بدء الحملات، كان قتيبة قد تلقى تحذيراً من أن الكثير من قواته قد أنهكوا بعد الزحف الطويل من سيستان وأنهم يريدون سنة راحة من الحملات العسكرية^(٢٤)، ولكن موقفاً طارئاً أجبرهم على استئناف الحملات . فقد لجأ ملك خوارزم إلى قتيبة طالبا المساعدة ضد أخيه خُرَزَاد المتقلب عليه. وكان خُرَزَاد معتاداً على أن يتخذ لنفسه ما شاء من العبيد، أو حيوانات الركوب، أو البضائع الغالية التي كان مغرمًا بها، بل إنه كان يأخذ بنات رجال البلاط وأخواتهم غصباً. وكان الملك عاجزاً عن التصرف ولكنه أرسل سرّاً رُسلًا إلى قتيبة ، يدعوهُ إلى بلاده لكي يقبض على أخيه ويسلمه إلى العدالة . وعلامة على إخلاصه أرسل ثلاثة مفاتيح ذهبية إلى مدن خوارزم . وكانت فرصة جيدة. بحيث لا يفوتها قتيبة الذي كان يخطط لحملة أخرى إلى بلاد الصغد ، فقرر تحويل وجهته.

وأخبر ملك خوارزم نبلاءه أن قتيبة متوجه إلى بلاد الصغد وأنهم معفون من العمل العسكري تلك السنة، ولذلك بدأوا يشربون ويسترخون ، على ما تقول الروايات . والشئ التالي الذي عرفوه أن قتيبة وجيشه ظهروا في «هزارسب» (ومعناها بالفارسية الألف حصان) وهي المدينة التي تقع على الضفة الأخرى من النهر . وأقنع رجاله بأنهم لا يجب أن يقاتلوا قتيبة، وبدأت المفاوضات : ووافقوا على الصلح في مقابل عشرة آلاف أسير وبعض الذهب . وفي أثناء المفاوضات ، حارب شقيق قتيبة وساعده الأيمن عبد الرحمن شقيق الملك وقتله وأعدم كثيرين من مؤيديه بدم بارد. وكانت تلك مرحلة أخرى في السيادة الإسلامية على المملكة القديمة في دلتا النهر، ولكن السلالة الملكية آل فريغون واصلوا الحكم بخوارزم على مدى مائتي سنة أخرى ، كما استعادت المنطقة ثقافتها وهويتها المتميزة الفردية.

وعلى أية حال، كان الهدف الحقيقي من حملة سنة ٧١٢م سمرقند. فقد كانت سمرقند أكبر وأقوى مدينة في المنطقة، وكانت العاصمة الفعلية لبلاد الصغد. والمدينة كما هي اليوم بنيت بعد نهب المغول لها سنة ١٢٢٠م وقد جعلها تيمورلنك وأسرته أواخر القرن الرابع عشر وفي القرن الخامس عشر بالقباب ذات الطلاء الأزرق والمناظر التي جلبت لها الشهرة. وفيما بعد أضاف الحكام الأوزبك المزيد من المدارس وأتموا الميدان المعروف باسم رچستان، وبعد غزو سنة ١٨٨٠م، طور الروس المدينة بشوارعها الأنيقة التي تحف بها الأشجار من الجانبين. وتقع مدينة العصور الوسطى الباكرا وراء استحکامات قوية من الطوب اللبن بين المدينة التيمورية والنهر. والموقع الآن موحش ومهجور^(٢٤). ومن السهل أن تميز خطوط السور وبقايا القلعة فيما وراء خنادقها المائية العميقة، تطل على النهر. ومن بين هذه الأطلال يوجد قصر قديم، أسواره مطلية ومرسوم عليها سلسلة متتالية من صور الأمراء الصغد وضيوفهم بأناقتهم، مما يعطى صورة حية للعالم الذى دمره العرب^(*).

وتولى الملك الجديد غوزك حكم سمرقند، وعقد العزم على مقاومة العرب بعنف. وقيل إن جيش قتيبة كان عشرين ألف رجل، وهى واحدة من بين أكبر القوات التى دفع بها المسلمون إلى ميادين القتال فى بلاد ما وراء النهر. وكانت نسبة معتبرة منهم مجندين من السكان المحليين فى خوارزم وبخارى، ولكن ليس من الواضح ما إذا كانوا قد اعتنقوا الإسلام وخرجوا تحت راية الجهاد، أم أنهم كانوا من المرتزقة، أم كانوا رجالاً أجبروا على القتال ضد إرادتهم.

ويبدو أن قتيبة قام فى البداية بمحاولة لمفاجأة المدافعين بإرسال أخيه عائداً إلى مرو، بحيث يعطى الانطباع بأن الحملات انتهت فى تلك السنة، بيد أن الخدعة لم تنطل.

(*) هذه العبارة الأخيرة تحمل عداء صارخاً وانحيازاً بيئاً من المؤلف: فالثابت أن الفتح الإسلامى لم يجلب الدمار والخراب على هذه المناطق، والدليل على هذا فى كلماته هو نفسه فى الفقرة السابقة. فقد كان العرب يعيشون ويتركون السكان يمارسون حياتهم كما أنه ذكر فيما سبق أن العرب حكموا مع الأرستقراطية المحلية ومن خلالها. ولكن «أفة الرأى الهوى». (المترجم)

على المدافعين. وفي الوقت نفسه كان السمرقنديون قد لجأوا إلى ملك الشاش (طشقند) وإخشييد فرغانة طالبين منهما المساعدة ، وأقنعوهما بالمساعدة عندما حذروهما من أن العرب لو فتحوا سمرقند، فإن الدور سيكون عليهم بعد ذلك . وانطلقت قوة من الفرسان تم تجنيدهم من بين جميع الأرستقراطيين في بلاد ما وراء النهر، ليشنوا هجوماً ليلياً مفاجئاً على المعسكر العربى. ومن سوء حظهم أن قتيبة كان قد عرف بخطتهم : ويبدو أنه كان لديه على الدوام جهاز مخابرات جيد . وأرسل واحداً من أخوته ، هو صالح ، ومعه قوة صغيرة ليكن لهم . وكان القتال الليلي وحشياً للغاية . وقد أثبت نبلاء بلاد ما وراء النهر جدارتهم ، ولكن الهزيمة كانت من نصيبهم فى نهاية الأمر ؛ وقتل كثير منهم، وتم أخذ عدد قليل من الأسرى وفقدت كثير من العائلات الشهيرة أبناءها وخيولها . وغنم المسلمون معدات غالية وحيوانات ركوب ممتازة ، وسمح قتيبة لعصبة المنتصرين الصغيرة بأن يحتفظوا بالغنائم التى حصلوا عليها من الكمين الليلي، بدلاً من تقسيمها بين الجيش كله حسبما جرت العادة.

ويبدو أن هزيمة هذه القوة قد سلبت المدافعين شجاعتهم. وحاصر قتيبة المدينة على مدى شهر، ووضع آلات الحصار خارج الأسوار، وخلق ثلثة فى السور سدّها المدافعون بأكياس الحبوب. وضغط المسلمون داخل الفتحة ، وقد رفعوا دروعهم فوق وجوههم لحماية أنفسهم من زخّات السهام التى أطلقها الصغديون عليهم. وما أن تمكنوا من ركوب الأسوار حتى أرسل غوزك الرسل لطلب الصلح . ووافق قتيبة^(٢٦)، وكان على السمرقنديين أن يدفعوا مبلغاً كبيراً من المال على سبيل الجزية سنوياً ، وعدداً كبيراً من أفضل العبيد ليس فيهم شيخ ولا صبي. وكان لسيطرة قتيبة أيضاً جانب ديني واضح. فقد أصرّ على إقامة مسجد ومنبر وأمر بتدمير بيوت النار القديمة وتحطيم الأصنام التى بها. وتم نزع ما على جميع التماثيل فى سمرقند من زينتها الفضية والذهبية والحريية وتكومت فى كوم كبير. وأمر قتيبة بحرقها . وحثه غوزك والصغد على ألا يفعل هذا ، محذرين من أن أى واحد يدمرها سوف يعانى من جراء ذلك، ولكن قتيبة لم يخش شيئاً وأشعل النار بنفسه. وتم سك مبلغ ضخم من المال من مسامير الذهب والفضة التى تم جمعها . هذه الإزالة العمدية للديانة القديمة لم تكن

عادية فى الفتوح الإسلامية . إذ كان قتيبة قد أوضح دائماً أن حملاته كانت جهاداً ، على الرغم من أنه نادراً ما كان مدمراً على هذا النحو . وربما كان الأمر أيضاً أنه أراد كسر المقاومة الصفدية إلى الأبد، وكان انتصاره واضحاً بشكل مؤكد عندما أشعل الشعلة لحرق تجهيزات الديانات القديمة.

وعلى أية حال، فإنه لم يدمر النظام السابق تماماً. فقد بقى غوزك ملكاً على الصفد، ووطد نفسه فى اشتيخان ، على بعد حوالى ٤٠ كيلو متر من سمرقند، وقنع قتيبة بترك حامية عربية من حوالى أربعة آلاف رجل فى المدينة تحت قيادة أخيه عبد الرحمن . وصارت المدينة المسورة القديمة معقلاً عربياً خالصاً. ولم يُسمح للأهالى من غير المسلمين بالبقاء داخل أسوار المدينة ، إلا إذا كانت بحوزتهم تصاريح على هيئة أختام من الصلصال على أيديهم: فإذا جفت قبل أن يرحلوا ، كان يجب قتلهم لأن ذلك يظهر أنهم بقوا فى المدينة وقتاً أطول من اللازم . فإذا جلب أحدهم السكاكين والأسلحة إلى داخل المدينة فينبغى أن يقتل ، ولم يكن مسموحاً لأى منهم بقضاء الليل داخل الأسوار^(٢٧).

كان فتح سمرقند حاسماً بيد أنه كان مزعزعاً أيضاً. فقد كان غوزك وكثير من الصفد لا يزالون مستقرين بالمنطقة^(٢٨)، على حين بقيت الحامية العربية معزولة فى بيئة معادية إلى حد كبير. ولا يمكن أن يكون هناك شك لدى الجنود المتمركزين هناك فى أن غوزك سيحاول طردهم إذا ما سنحت له فرصة.

وقد استجاب قتيبة لهذا الموقف ، لا بتقوية القبضة العربية على بلاد الصفد، وإنما بقيادة جيوشه بعيداً ليقوم بالمزيد من الغزوات . وفى سنة ٧١٢م عبر النهر كالعادة. وبالإضافة إلى قواته العربية فرض على أهل بخارى وكيش، والنسف وخوارزم تقديم عشرين ألف رجل . وساروا عبر بلاد الصفد دون أن يواجهوا مقاومة واضحة . ثم أرسلت القوات المحلية شمالاً إلى الشاش على حين قاد قتيبة رجاله شرقاً إلى فرغانة . وهناك القليل من المعلومات التى يُعتمد بها عما حققته هذه الإغارات - قصائد قليلة ودوايات غير متسقة . ويمكن أن نكون متاكدين إلى درجة معقولة أنها لم تكن كارثة، بيد أنه لم يتم فتح أراض جديدة^(٢٩).

وفى السنة التالية عاد قتيبة إلى ولايات الجاكسارات مرة أخرى محاولاً السيطرة على طريق الحرير. بل إن هناك ما يشى بأنه وصل إلى كاشغر ، التى كانت من ضمن أراضي أباطرة أسرة تانج فى الصين^(٣٠). ومن المؤكد أن الصين كانت تلوح فى آمال العرب العريضة فى ذلك الوقت . إذ يقال إن الحجاج ، فى الكوفة البعيدة ، كان قد عرض منح ولاية الصين لمن يصل إليها أولاً من قادته فى المشرق^(٣١). وكانت القوات العربية آنذاك تقترب من حدود الإمبراطورية الصينية أكثر من أى وقت مضى ، وبدأ كل من العرب والصغد يرسلون الرُسل فى محاولة لكسب تأييد الصين . وفى سنة ٧١٣م وصل وفد عربى إلى البلاط الإمبراطورى . ونعرف من المصادر الصينية أن وفدًا وصل وأنهم تسببوا فى فضيحة دبلوماسية برفضهم السجود للإمبراطور بالطريقة التقليدية ، ولكن كانت البعثة مع هذا تعتبر ناجحة. ولاشك فى أنه تمت مناقشة المسائل العسكرية والتجارية على السواء^(٣٢). وفى الوقت نفسه، لجأ حاكم الشاش ، تحت وطأة التهديد المتصاعد الذى تشكله قوة قتيبة ، إلى طلب المساعدة العسكرية من الصين ، ولكن شيئاً لم يحدث.

هذه العلاقات الدبلوماسية المتبادلة بقيت ذكراها فى كل من المصادر الصينية وفى سرديات غير معتادة فى المصادر العربية . وكما وصلتنا المصادر العربية، فيها عناصر خيالية كثيرة وقد رفضها الباحثون الحديثون على أساس عدم جدارتها ؛ ذلك أن «الملك» الصينى ليس له اسم ولم يرد بها أى ذكر لموقع جغرافى . ومن غير الواضح تماماً ما إذا كان العرب قد زاروا العاصمة الإمبراطورية شانج - أن أم أنهم ببساطة قد تفاوضوا مع قائد أو حاكم صينى فى سنكيانج . إلا أنه يكاد يكون من المؤكد أن تاريخها يرجع إلى القرن الثامن الميلادى وتخبرنا بالكثير عن تصور العرب لأنفسهم ومواقفهم تجاه الشعوب الأخرى.

وتحكى القصة أن «ملك» الصين طلب من قتيبة أن يرسل إليه بعض الرُسل حتى يمكنه أن يعرف المزيد عن العرب ودينهم. وتم اختيار عشرة أو اثنى عشر رجلاً أقوياء حسنى المظهر وأرسلوا إليه . وعندما وصلوا إلى البلاط الصينى ذهبوا إلى الحمام ثم خرجوا وقد ارتدوا ملابس بيضاء وتعطروا . ودخلوا البلاط . ولم يتحدث أحد من أى

من الجانبين ، ولم يلبثوا أن انسحبوا وعندما ذهبوا سأل الملك الصينى الحاضرين عن رأيهم، فأجابوه «... رأينا قوماً ما هم إلا نساء. ما بقى أحد منا حين رأهم ووجد رائحتهم إلا انتشر ما عنده»^(٢٢). وفى اليوم الثانى لبسوا الوشى وعمائم الخز والمطارف ، وعندما ذهبوا قال من فى البلاط إنهم أشبه بالرجال وهم كذلك. وفى اليوم الثالث ذهبوا لرؤية الملك «... فشدوا عليهم سلاحهم ، ولبسوا البيض والمغافر ، وتقلدوا السيوف وأخذوا الرماح ، وتنكبوا القسى ، وركبوا خيولهم ، وغدوا فنظر إليه صاحب الصين فرأى أمثال الجبال مقبلة، فلما دنوا ركزوا رماحهم ، ثم أقبلوا نحوهم مشمرين، فقبل لهم قبل أن يدخلوا ارجعوا، لما دخل فى قلوبهم من خوفهم»^(٢٣).

وفى ذلك المساء قابل الملك رئيس الوفد. وشرح له أنهم لبسوا فى اليوم الأول مثلما يفعلون فى عائلاتهم ، وفى اليوم الثانى مثلما يفعلون عندما يحضرون مجلس الأمير، أما فى اليوم الثالث فإنهم فعلوا ما يفعلونه إذا لقوا أعدائهم. فقال الملك حينئذ إنه كان مستعداً لأن يكون واسع الصدر عندما عرف مدى حاجة زعيم المسلمين ومدى قلة أتباعه ؛ ولو كان الأمر خلاف ذلك لأرسل إليهم من يقضى عليهم. ورد المبعوث المسلم فى حلق بأن جيش سيده كبير لدرجة أنه بينما يكون قاده فى الصين تكون مؤخرة الجيش فى منابت الزيتون^(٢٤)، وكيف يكون محتاجاً، وهو الذى ترك الدنيا بأسرها خلفه وهو قادر عليها. «... وأما تخويقك إيانا بالقتل فإن لنا أجلاً إذا حضرت فأكرمها القتل ، فلسنا نكرهه ولا نخافه ، قال : فما الذى يرضى صاحبك؟ قال : إنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطاء أرضكم، ويختم ملوككم، ويعطى الجزية ، قال : فإننا نخرجه

(*) الطبرى، ج ٣ ، ص ٥٠١ . (المترجم)

(**) رأيت إثبات النص بكامله حتى يستقيم المعنى، انظر : الطبرى، ج ٦ ، ص ٥٠٢ . (المترجم)

(***) يقول النص «قال ... فانصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف ، فإنى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، ولا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه. قال له : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وأخرها فى منابت الزيتون !»

من يمينه ، نبعت إليه بتراب من تراب أرضنا فيطأه ، ونبعت له بعض أبنائنا فيختهم ، ونبعت إليه بجزية يرضاها ...»(*) وتم حفظ شرف الجميع ، ولا يمكن أن نرى الزعماء المسلمين وقد قبلهم الحكام القدامى الراسخون باعتبارهم أنداداً لهم .

وقد برهنت سنة ٧١٥م على أنها آخر سنوات غزوات قتيبة . فقد انتهت مسيرة غزواته ، لا بواسطة القوة العسكرية الصينية ، وإنما بفعل الأحوال السياسية الإسلامية الداخلية . فقد كانت غزوات قتيبة ناجحة إلى هذا الحد بسبب اندفاعه الشخصي ولأنه كان يتمتع بمساندة غير محدودة من السلطات الأموية ؛ الحجاج والى العراق وجميع المشرق في عاصمته الجديدة واسط ، والخليفة الوليد بن عبد الملك . والآن اختفى هذان اللذان كانا يدعمانه ، فقد مات الحجاج في صيف سنة ٧١٤م /شوال ٩٥هـ ، والوليد بن عبد الملك في بداية فصل الربيع سنة ٧١٥م /جمادى الآخرة سنة ٩٦هـ ، وكان الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك معروفاً بأنه قريب من أسرة المهلب الذين كان قتيبة قد أخرجهم من خراسان . وكان قتيبة قلقاً من الخليفة الجديد ، وخاف أن يفقد مركزه أو يحل به ما هو أسوأ من ذلك . وفي البداية ظهر كأن كل شيء على ما يرام وأرسل الخليفة الجديد خطاباً مشجعاً إلى قتيبة ، يحثه على القيام بعمله الطيب في الفتوح ، ولكن قتيبة بقى على قلقه واتخذ احتياطه بنقل أهله من مرو إلى سمرقند ، حيث سيكون من الصعب تماماً أن يصل إليهم أعداؤه . ووضع حراسة على نهر جيحون عبروا ومعهم الأوامر بالآلا يدعوا أحداً يمر من الغرب إلا إذا كان معهم إذن بالعبور^(٣٤) . ومن المثير أن الرجل الذي عهد إليه بهذا الدور الأمنى المهم لم يكن عربياً على الإطلاق ، ولكنه من مواليه من خوارزم ، وكان قد اعتنق الإسلام حديثاً . وكان هذا برهانا على المرارة التي تخلفت عن المنازعات فيما بين العرب بحيث أنه كان يشعر بالأمان أكثر في سمرقند التي فتحت منذ وقت قريب ، وهو محاط بالصغد الساخطين ، بدلاً من العاصمة الإقليمية القديمة حيث كان الحكم الإسلامى قد رسخ على مدى خمس وستين سنة .

(*) نفسه ، ج ٦ ، ص ٥٠٣ . (المترجم)

ويبدو أن قتيبة قرر أنه من المؤكد أن يفقد وظيفته تحت الإدارة الجديدة وقرر رفض سلطة سليمان ، واثقاً من أن ولاء رجاله سيوفر له الدعم العسكري . وربما كان قد تصور أنه يقود جيش خراسان الذي صقلته المعارك وزادت صلابته غرباً إلى العراق ثم إلى بلاد الشام في النهاية ، ليقم على العرش خليفة مطيعاً ، مثلما فعل أبو مسلم الخراساني ومؤيدو العباسيين بعد خمس وثلاثين سنة.

وخطب في قواته^(٣٥) خطبة بسط فيها إنجازاته كما رآها وطلب منهم مساندته . وأوضح كيف أنه كان قد جاء بهم من العراق ، وكان يوزع عليهم الغنائم ويدفع رواتبهم كاملة دونما تأخير . وعليهم فحسب أن يقارنوا بينه وبين من سبقوه من الولاة ليروا مدى تفوقه عليهم. وهم يعيشون في سلام آمنين يرقلون في النعيم. وقد أعطاهم الله فرص الفتح وكانت السبل آمنة بحيث يمكن للمرأة أن تسافر على ناقه من مرو إلى بلخ دون خشية من تحرش أو مضايقة^(٣٦).

وكان حتماً أن تجيء تحية الخطبة التي ألقاها مثل صمت الحجارة. وربما لم يكن قد مهد للأمر أو استشار من حوله بما يكفي . فقد كان الجميع يعرفون أنه كان قائد عظيمًا ولكن موجة قوية من المعارضة الصامتة ضد فتح أبواب الحرب الأهلية كانت أمامه. وربما كان قتيبة قائداً عظيماً للمسلمين ضد غير المسلمين ، ولكنه لم يكن قادراً على الاعتماد على المساندة القبلية القوية لدفع قضيته ضد المسلمين الآخرين . وكان قد تحمل جهداً كبيراً لزرع ولاء المسلمين من غير العرب في خراسان وضمهم إلى جيشه ، ولكن هؤلاء أيضاً كانوا مترددين في التورط في حرب أهلية فيما بين العرب. فقد قال قائدهم حيان النبطي لأتباعه : «هؤلاء يقاتلون على غير دين، فدعوهم يقتل بعضهم بعضاً»^(٣٧).

ولم يكن هناك سبيل إلى التراجع . إذ كان قتيبة قد راهن بكل شيء على الدعوة العلنية لولاء قواته ولكنهم لم يستجيبوا . وبدا أنه فقد أعصابه تماماً آنذاك وبدأ يشتم رجال القبائل العربية بكل الاحتقار الذي تحمله البلاغة العربية التقليدية . فقد أسماهم كناسة المصريين (أي البصرة والكوفة) «... جمعتكم من منابت الشيخ والقيصوم

ومنابت القلقل»^(*) حيث كانوا يركبون البقر والحمير. وكانوا عراقيين لكنهم سمحوا للجيش الشامي أن يرقد في أفنية دورهم وتحت أسقفها . وأشار إلى كل قبيلة مفردة على حدة «... يا معشر بكر بن وائل ، يا أهل النفخ والكذب والبخل ...» ، «... يا معشر عبد القيس القساة، تبدلتم بأبر النحل أعنة الخيل، يا معشر الأزد تبدلتم بقُلوس السفن أعنة الخيل الحُصن ...»^(*) والمغزى واضح، أنهم كانوا فلاحين وصيادي أسماك، وليسوا عرباً مقاتلين فخورين . وفي غضون دقائق قليلة كان قد نجح في إبعاد أى واحد ربما كان سيقتنع بتأييده . وعندما عاد إلى بيته ، شرح لأهل بيته ما فعله «... فقال لما تكلمت فلم يجبنى أحد غضبت ، فلم أدر ما قلت»^(*) ثم واصل سب القبائل مرة أخرى : «... وأما بكر فإنها أمة لاتمنع يد لامس ، وأما تميم فجمل أجرب، أما عبد القيس فما يضرب البعير بذنبه، وأما الأزد فأعلاج شرار من خلق الله»^(*).

وصار وضعه آنذاك يائساً . فقد التفت المعارضة حول وكيع التميمي البدوي المسن الفظ. وتقدم المصادر العربية صورة حية لهذا الرجل في مصطلحات تتخطى الصياغات المعتادة في السباب. ومن بين أشياء أخرى، اتهمه أعداؤه بأنه سكير يجلس للشراب مع ندمائه حتى يلوث ثيابه الداخلية بفضلاته^(٣٨). أما مؤيدوه فزعموا أنه كان قادراً على تولى الأمر «... إن أحد لا يتقلد هذا الأمر فيصلى بحرّه ، ويبذل دمه ، ويتعرض للقتل ... فإنه مقدم لا يُبالى ما ركب ولا ينظر في عاقبة»^(٣٩). وكان على استعداد لشن هجوم على قتيبة . وعقد اتفاقاً مع قائد غير العرب، حيان النبطي، يقضى بأنهما سوف يقتسمان عوائد الضرائب في خراسان فيما بينهما. وتخلّى الجميع آنذاك عن قتيبة ولم يبق معه سوى عائلته. وطلب عمامة كانت أمه قد أعطتها له كان يلبسها دائماً وقت الشدائد وفرساً جيد التدريب كان يعتبره محظوظاً في الحرب. وعندما جاءت الفرس كان مضطرباً ولم يستطع أن يركبه . وكان هذا نذير شؤم أقنعه بنهاية اللعبة فترك نفسه لليأس، ورقد على سريره قائلاً «... هذا أمرٌ يراد...»^(٤٠).

(*) من نباتات الصحراء. أنظر الطبري، ج ٦ ، ص ٥١٠، ص ٥١١ . (المترجم)

واستمر الضرر . وأرسل قتيبة أخاه صالح ، الذى كان صديقاً لملك الشومان ، لكى يحاول التفاوض مع المتمردين ، ولكنهم أطلقوا السهام عليه وأصابوه فى رأسه . وتم حمله إلى قتيبة فى مصلاه وجلس قتيبة معه برهة قبل أن يعود إلى سريره . وانقض أهل السوق والغوغاء ، على أخيه عبد الرحمن ، الذى غالباً ما كان يقود قوات المسلمين فى أشد المواقف صعبة ، وقذفوه بالحجارة حتى قتلوه . وعندما ضيق المتمردين الخناق على قتيبة نفسه أشعلوا النيران فى الإسطبلات التى كان يحفظ فيها إبله وخيوله . وسرعان ما قطعت حبال الخيمة الكبيرة واندفع المتمردين إلى داخلها وقتلوا قتيبة . وكما يحدث غالباً كانت هناك منازعات حول من قتله فعلاً ومن كان له شرف أخذ رأسه إلى وكيع . وأمر وكيع بقتل جميع عائلة قتيبة وصلب الجثث .

وقد أدهش الغضب والحقد الذى تم به الهجوم على الرجل الذى قاد الجيوش المسلمة فى بلاد ما وراء النهر بهذا النجاح المعاصرين . وقد تعجب الفرس فى الجيش المسلم من أن العرب استطاعوا أن يعاملوا رجلاً أنجز كل هذه الإنجازات بهذا الشكل السيئ ؛ «... فقال رجل من عجم أهل خراسان : يا معشر العرب ، قتلتهم قتيبة ، والله لو كان قتيبة منا فمات فينا جعلناه فى تابوت فكنا نستفتح به إذا غزونا ، وما صنع أحد قط بخراسان ما صنع قتيبة ...»^(٤١) ولا حاجة بنا إلى القول بأن قصائد كثيرة قد نظمت عن الموضوع ، وقد مجد كثير منها أعمال أبناء القبائل الذين قتلوه . ولكن آخرين رثوا موت محارب عظيم فى سبيل الإسلام ، مثل الشاعر^(٤٢) الذى خاطب بكلماته الخليفة الجديد فى دمشق ، يحمل شيئاً من الشعور بالإثارة والمغامرة فى المجهول الذى لا بد وأن يكون قد خالج الكثير من أتباع قتيبة :

سليمان كم من عسكر قد حوت لكم	أسنتنا والمقربات بنا تجرى
وكم من حصون قد أبعنا منيعه	ومن بلد سهل ومن جبل وعر
ومن بلدة لم يغزها الناس قبلنا	غزونا نقود الخيل شهراً إلى شهر
مرنً على الغزو الجرور ووقرت	على النفر حتى ما تُهال من النفر

وحتى لو ان النار شبت وأكرهت على النار خاضت في الرغى لهب الجمر
تلاعب أطراف الأسنة والقنا بلأاتها والموت في لجج خضر
بهن أبحنأ أهل كل مدينة من الشرك حتى جاوزت مطلع الفجر
ولو لم تعجلنا المنايا جاوزت بنار دم ذى القرنين ذا الصخر والقطر
ولكن آجالاً قُضين ومدة تنأهى إليها الطيبون بنو عمر(*)

الضربة التركية المضادة ٧١٥ - ٧٣٧ م

كان موت قتبية نهاية حقبة في الفتوح الإسلامية في آسيا الوسطى . فحتى ذلك الوقت كانت القوات العربية ، ومعها أعداد متزايدة من الحلفاء المحليين، قد أحرزت تقدماً عاماً . حقاً كانت هناك نكسات ، ولكن النموذج الكلى كان نموذجاً للسلطة والنفوذ الإسلامى المتصاعد. وكان لهذا كله أن يتغير في ذلك الحين . وكان جزء من السبب وراء هذا راجعاً إلى الحوادث السياسية في العالم المسلم. فبعد موت الوليد بن عبد الملك سنة ٧١٥ م تتابع على عرش الخلافة ثلاثة خلفاء هم سليمان (٧١٥-٧١٧ م وعمر بن عبد العزيز (٧١٧-٧٢٠ م) ويزيد الثانى (٧٢٠-٧٢٤ م) بسرعة . وكان لكل خليفة مستشارون مختلفون يحملون أفكاراً مختلفة عن السياسة على الحدود الشمالية الشرقية . وكانت التغيرات المستمرة في الولاة تعنى أن المنافسات القبلية والخصومات بين العرب وغير العرب قد باتت أكثر صراحة وعنفاً في كثير من الأحيان . ولم يحدث حتى تولى هشام (٧٢٤-٧٤٣) أن تمتعت السياسة الإسلامية مرة أخرى بفترة من الاستقرار والاتساق .

بيد أنه كانت هناك ضغوط أخرى من الشرق الأقصى . ونعرف من المصادر الصينية أن أمراء بلاد الصغد كانوا يرسلون سفارات منتظمة إلى البلاط الصينى،

(*) الطبرى، ج ٦ ، ص ٥٢١ - ص ٥٢٢ .

يحاولون إقناع الصينيين بالتدخل لمساعدتهم ضد المسلمين . وفى سنة ٧١٨م، مثلاً قدم كل من طوغشادة ملك بخارى، وغوزك أمير سمرقند ، ونريانا ملك الكوماذ، التماسات يطلبون المساعدة ضد العرب ، حتى على الرغم من أن بخارى وسمرقند كانتا قد «فتحهما» العرب وكان ملكاهما قد دخلا فى معاهدة وترتيبات مع السلطات المسلمة. والحاصل أن الصينيين لم يكونوا مستعدين للتدخل مباشرة فى هذه المنطقة النائية جدا عن مراكز قوتهم ، ولكنهم قدموا بعض التشجيع إلى الأتراك الطورانيين لغزو بلاد الصغد مساندة للأمراء المحليين.

وتتحدث المصادر العربية عن اثنين من الزعماء الأتراك^(٤٣). والرئيس هو الخاقان وكان الخاقان الذى أشار إليه المؤرخون العرب فى تلك الفترة هو الزعيم التركى الذى تعرفه المصادر الصينية باسم صو - لو . وهو يظهر أحيانا فى بلاد ما وراء النهر باعتباره زعيماً للأتراك جميعاً . وله مرؤوس يسمى كورصول فى المصادر العربية وكان اسمه التركى كول - شور .

ويكاد هذان أن يكونا التركيين الوحيديين اللذين أسمتهما المصادر العربية فى رواياتها عن الغزو. فعندما تصف الجيوش العربية ، والأعمال البطولية (وغير البطولية) التى قاموا بها ، غالباً ما كانت تتم تسمية أبطالها : فقد كان حفظ هوية الأفراد من أول اهتمامات الكتّاب . أما الأتراك ، على النقيض ، فهم «الآخر» تماماً ، كتلة من المحاربين دون أية ديانة أو أخلاقيات أو هدف واضح سوى العداوة الشاملة تجاه المسلمين ولديهم رغبة نهمة فى الغنائم والأسلاب . أما القادة من أمثال الخاقان ، والكورصول (الصول) فقد وضعوهما فى مصاف خصومهم الأقوياء مثل هرقل إمبراطور الروم، ورستم القائد الساسانى الذى هُزم فى القادسية. فهما شجاعان كريمان، على طريقتهما، ولكنهما لا يمتلكان عدم الثقة بالنفس وتلك المعرفة الداخلية العميقة بأن المسلمين سوف ينتصرون لأن الله معهم على نحو ما جاء فى وصف القائدين الرومى والساسانى .

والشئون الحربية فيما بين موت قتيبة سنة ٧١٥م وموت صو - لو وانهباء الترك سنة ٧٣٩م مريكة ولن نحاول أن نتبع كل مواجهة بالتفصيل ولكننا سنقدم انطباعاً عن هذا الصراع المرير الذي كان القتال فيه صعباً . فقد كان العرب والأتراك أعداء ألداء ، يحاربون من أجل السيادة على هذه المنطقة الحبلية بإمكانيات الثروة . وقد انحصر بينهم الأمراء المحليون الذين ناضلوا من أجل الحفاظ على استقلالهم وثقافتهم ، وأبرزهم غوزك ملك سمرقند . وكانوا يأملون أصلاً فى أن يحررهم الأتراك والصينيون من نير المسلمين ولكن عندما مضى الوقت اكتشفوا أن الأتراك أيضاً كانوا سادة يتسمون بالصعوبة ويطلبون الكثير .

ولم يكن وكيع الذى كان الأداة لإسقاط قتيبة يمتلك شيئاً من مواهب سلفه لإبقاء المسلمين معاً . وتفرقت الجيوش ، وتوالى الولاة فى تتابع سريع . وفى ربيع سنة ٧٢١م قاد القائد التركى كورصول رجاله إلى داخل بلاد الصفد . وكانت لحظة مواتية لكى يضرب ضريته . وثمة وال جديد هو سعيد الذى عرفته قواته باسم خذينة ، وهى كلمة ربما تعنى «العابث» ، فلم يكن مقصوداً بالاسم أن يكون مديحاً . وكان الشعراء قساة فى انتقادهم لافتقاره إلى الخصال المادية :

سريت إلى الأعداء تلهو بلعبة وأيرك مسلول وسيفك مُغمَد
وأنت لمن عاديت عِرسٌ خفية وأنت علينا كالحسام المهنَد
فلله در السَّغْد لما تحزبوا ويا عجباً من كيدك المتردد

وقد وصل خراسان دون أن تكون لديه أية معلومات مباشرة عنها وفى الحال وجد نفسه متورطاً فى نزاع معقد حول عدم انتظام الشؤون المالية ؛ مما أدى به إلى طرد عدد من الموظفين ذوى الخبرة . وكانت الإدارة تعاني من الفوضى عندما أحاط الجيش التركى بموقع عربى صغير يسمى قصر الباهلى ، لا نعرف موقعه على وجه التحديد . وكانت هناك مائة أسرة مسلمة فقط فى الحصن وبدءوا يتفاوضون على استسلامهم . وفى الوقت نفسه دعا حاكم سمرقند المسلم المتطوعين لرفع هذا الحصار . وفى البداية

تطوع أربعة آلاف رجل، ولكن عندما ساروا في اتجاه العدو أنسل كثير منهم هاربين تاركين قائدهم «المسيب بن بشر الرياحي» مع حوالى ألف من رجاله عندما اقتربوا من القلعة المحاصرة . وأرسل المسيب اثنين من الكشافة فى ليلة مظلمة لمحاولة الاتصال بالحامية المدافعة. ولم يكن الأمر سهلاً لأن الأتراك كانوا قد أغرقوا المنطقة المحيطة بالمياه . وأخيراً وجدوا حارساً جاء بالقائد إليهم . وقال الرسولان إن قوة الإنقاذ كانت على مسافة فرسخين فقط (إثنى عشر كيلو متراً) وسألوا المدافعين ما إذا كان بوسعهم الصمود تلك الليلة. وأجاب القائد بأنهم قد أقسموا على حماية نساءهم وأنهم جميعاً على استعداد للموت سوياً فى اليوم التالى. وعندما رجع الرسولان إلى المسيب أخبر رجاله أنه سيسير فى الحال. وانقض المسلمون على معسكر الأتراك فجراً . وكان هناك قتال صعب وسقط عدد من المسلمين البارزين شهداء ، ولكن فى النهاية أجبر الأتراك على الفرار . ودخلت قوة الإنقاذ القلعة وجمعت الناجين من المسلمين . وتذكر أحدهم فيما بعد أنه قابل امرأة طلبت منه باسم الله أن يساعدها . وطلب منها أن تركب خلفه وجذب ابنها وأخذها بين ذراعيها . ثم أسرعوا وعلق المنقذ فى إعجاب بالمرأة «... فإذا هى أفرس من رجل» وفى النهاية شق المنقذون والمنقذون طريقهم حيث يجدون الأمان داخل أسوار سمرقند، ولكنهم خسروا القلعة . وعندما عاد الأتراك فى اليوم التالى، لم يجنوا شيئاً غير جثث رفاقهم^(٤٥).

كان إنقاذ المدافعين عن قصر الباهلى قصة مثيرة عن المسلمين الذين يحمون مالهم، وقد حكيت مرات ومرات واحتفى بها الشعر والأغاني، وهى تكشف عن التضامن الذى أحس به هؤلاء المستوطنون فى بلاد معادية ، بيد أنها لم تستطع إخفاء أن المسلمين كانوا يواجهون المتاعب . وقام الوالى سعيد بقيادة حملة إلى بلاد ما وراء النهر ، ولكن ما أثار احتقار مؤيديه الأكثر تشدداً أنه لم يتخط سمرقند . أما ما كان أسوأ من وجهة نظرهم فكان أنه سمح لهم بنهب الصغد بقوله إن «السغد بستان أمير المؤمنين». وكان يعنى بهذا أن بلاد الصغد من الأملاك التى يجب فرض الضرائب عليها بدلاً من تدميرها فى الصراع^(٤٦).

وبحلول ربيع سنة ٧٢٢م كان الموقف فى بلاد النهر يوصف بأنه «كارثى» بالنسبة للعرب. وحل محل خذينه وال آخر اسمه «سعيد الحريش» . وكان على النقيض من سلفه عدوانياً قاسياً قد عقد العزم على إعادة بسط السيطرة الإسلامية فى بلاد الصغد. وتتسم الأحداث التى تلت ذلك بأهمية خاصة ، لأننا نجد سلسلة من الوثائق المعاصرة تماماً تدعم سرديات المصادر العربية ، وهو أمر يكاد يكون فريداً فى حويلات الفتوح الإسلامية. ففى سنة ١٩٣٣م اكتشف أحد الرعاة سلة من الوثائق الصفدية على جبل موغ فى طاجيكستان الحالية التى كانت آنذاك جزءاً من آسيا الوسطى السوفيتية . وكان جبل موغ قلعة صفدية وكان المعقل والملجأ الأخير لآخر الأمراء الصفد المستقلين فى بنجيكت ديواشيتش^(٤٧). (ديواشنى فى الطبرى، ج ٧ ، ص ١٠) ومن المفترض أن الوثائق كانت قد تركت عندما استولى العربى على الحصن سنة ٧٢٢م وهى تحتوى على مراسلات سياسية ووثائق إدارية وقانونية. ومن الواضح أن ديواشنى كان رجلاً طموحاً يتحدى غوزك أمير سمرقند على زعامة أمراء الصفد ، وحاول جمع تحالف من النبلاء المحليين لى يواجهوا التقدم العربى. ومن سوء الحظ بالنسبة له ، أن اختار كثير من الصفد الهرب إلى الشمال الشرقى، إلى فرغانة ، هارين طلباً للملاذ بدلاً من الانضمام إلى تحالفه والقتال . فضلاً عن ذلك ، فإن كورصول زعيم الأتراك الذى كان قد طلب منه المساعدة، أثبت أنه مراوغ ولم يأت لمساعدته . والخطابات مهمة لأنها توفر بعض الرؤية الداخلية للمنافسات بين الأمراء المحليين فى محاولتهم صياغة رد على الغزوات الإسلامية وإنما لأنها أيضاً تؤكد بقوة رواية المدائنى لقصة الغزوات العربية حسبما استخدمها الطبرى^(٤٨). إنه أمر غير معتاد ، ولكنه مريح بالنسبة للمؤرخ، أن تتوفر هذه التأكيدات المباشرة على أن الروايات التى يقوم عليها فهمنا لهذه الأحداث تحمل الحقيقة التاريخية فعلاً .

وقد غزا العرب بينكت فى سنة ٧٢٢م . وهو أكثر موقع جرت به حقائق بين جميع المواقع فى الصغد. وكانت المدينة القديمة قائمة على هضبة تطل على الأراضى الخصيبة فى وادى زرفشان الأعلى . وهى تنظر شرقاً ، عبر السهل المنبسط حول النهر، حيث تبدو القمم الوعرة لسلسلة جبال تركستان ظاهر للعيان . وكانت المدينة نفسها قد بُنيت

من الآجر ومن الطوب اللبن وصارت بحلول سنة ٧٢٢م ملاذاً ومنفى لكثير من النبلاء الصغد^(٤٩). وتم تشييد المنازل الكبيرة المزينة بلوحات الجص الملونة (الفريسكو) تصور السادة الصغديين وهم يحاربون ، ويصيّدون ويقيمون الولائم . وقد انتهت كل هذه العظمة مع الغزو العربي وتعرض الكثير من أنحاء المدينة للدمار . وتمت إعادة بناء بعض الأحياء، على مستوى أشد تواضعاً، بعد سنة ٧٤٠م، عندما كانت الإدارة العربية أمنة أكثر في هذه المنطقة وبدأت التجارة تنتعش من جديد، ولكن المدينة لم تستعد رخاءها السابق أبداً .

وعلى الرغم من مثل هذا النجاح الذي حققته الجيوش العربية أحيانا ، لم يكن أحد من الولاة فى تلك الفترة قادراً على أن يضاهى إنجازات قتيبة ، ويعيد تأسيس الوضع الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر. فقد كانت القوات المشتركة من الصغد والأتراك تعنى أن قبضة العرب على الأراضى فيما وراء النهر كانت هشة كما كانت دائماً . وبحلول سنة ٧٢٨م كانت الأماكن الوحيدة فى وادى زرفشان التى بقيت بأيدي المسلمين هى مدينة سمرقند الحصينة الكبيرة والمدن الحصينة الصغيرة مثل الديوسية وكمرچه ، وللتين كانت تحميها حامية من المسلمين، على الطريق الرئيسى هناك . بل إن بخارى كانت قد ضاعت فعلاً . وكان النضال من أجل الحفاظ على هذه المواقع بمثابة فاتحة الحملات التى وجهت إلى بلاد ما وراء النهر، ويعد حصار الأتراك لكمرچه فى تلك السنة من أكثر أحداث الحرب التى جرى وصفها بحيوية . وقد بدأ الصراع بالصدفة تقريباً . فقد كان الخاقان ، زعيم الترك، يسير على امتداد الطريق الرئيسى من سمرقند قاصداً بخارى. ولم يكن المسلمون فى مدينة كمرچه الصغيرة على جانبى الطريق مدركين لما يفعله حتى أخذوا حيواناتهم خارج المدينة للشرب، وجاءوا فوق تل وشاهدوا «... جبل حديد» من القوات التركية وحلفائهم الإيرانيين . وكان على العرب أن يتحركوا بسرعة للاحتماء خلف أسوار المدينة . وأرسلوا بعض حيواناتهم لتشرب من النهر على سبيل الخداع لصرف الأتراك بعيداً ، ثم أسرعوا إلى التحصينات بأسرع ما يمكن، وشاهدهم الأتراك عندئذ فأسرعوا يطاردونهم. ولأن العرب كانوا يعرفون الأرض بشكل أفضل من الترك، فإنهم وصلوا إلى هناك أولاً بدءوا يتمترسون وراء التحصينات الترابية وأشعلوا النار فى القصب لتدمير الجسر الخشبي فوق الخندق.

وفى المساء، عندما تخلق الأتراك مؤقتاً عن الهجوم ، تلقى المدافعون عرضين بالمساعدة. وكان أحدهما من حفيد آخر ملك ساساني ، يزدجرد الثالث، الذي كان قد انضم إلى الأتراك على أمل استعادة إمبراطورية أجداده. وعرض أن يتدخل لصالحهم لدى الخاقان ويضمن لهم الأمان. ومن المؤكد أنه كان من المناسب له أن يكسب صداقة جماعة من المحاربين العرب. ولكنهم احتقروه وقوبل عرضه بالرفض والشتائم^(٥٠).

وكان العرض الثاني معقولاً أكثر. وجاء من رجل يدعى «بازغرى» . وكان من أهل المنطقة يبدو أن خاقان وثق به ليكون وسيطاً. وجلب معه إلى أسوار المدينة بعض الأسرى العرب الذين كان قد تم أسرهم فى وقت سابق فى الحملة. ونادى على المدافعين لكي يرسلوا أحداً يتفاوض معه. ولم يكن الرجل الأول الذى أرسلوه يفهم التركية ومن ثم كان عليهم أن يبحثوا عن رجل آخر، وكان من باهلة قبيلة قتيبة ، وكان يعرف اللغة التركية. وجاء بازغرى بعرض مالى من خاقان : أن يأخذ المدافعين العرب فى جيشه ويدفع لهم رواتب كبيرة؛ فأولئك الذين كانوا يأخذون ستمائة درهم سوف يأخذون ألف درهم ، ومن كانوا يحصلون على ثلاثمائة سوف يتقاضون ستمائة. وقابل المبعوث العربى هذا العرض باحتقار «... فقال له يزيد : هذا أمر لا يلتئم ، كيف يكون العرب وهم ذئاب مع الترك وهم شاء ، لا يكون بيننا وبينكم صلح. فغضب بازغرى ، فقال له التركيان اللذان معه : ألا نضرب عنقه ؟ قال : لا ، نزل إلينا بأمان. وفهم ما قالاه له يزيد ، فخاف فقال: بلى يا بازغرى إلا أن تجعلونا نصفين ، فيكون نصف فى أثقالنا ويسير النصف معه ؛ فإن ظفر خاقان فنحن معه ؛ وإن كان غير ذلك كنا كسائر دائن أهل السُّغد» ثم ذهب إلى السور، وتعلق بحبل وسحبوه إلى أعلى، وعندما وصل إلى بر الأمان ، تغيرت لهجته تماماً . فقد سأل الناس بكمرچه عما يكون شعورهم إذا ما عرض عليهم الكفر بعد الإيمان «... فنادى : يا أهل كمرچه اجتمعوا ، فقد جاءكم

(*) الطبرى ، ج ٧ ، ص ٦١ - ص ٦٢ .

قوم يدعونكم إلى الكفر بعد الإيمان ، فما ترون ؟ قالوا : لا نجيب ولا نرضى قال يدعونكم إلى قتال المسلمين مع المشركين، قالوا : نموت جميعاً قبل ذلك . قال : فأعلموهم»^(٥٠).

وهكذا صاح الناس معلنين رفضهم.

وفى الوقت نفسه أمر خاقان رجاله بأن يقذفوا الأشجار الخضراء (حتى لا تحترق) فى الخندق الذى يحيط بالمدينة على حين قذف المدافعون الحطب اليابس فى الخندق (وقد احترق) . وعندما امتلأ الخندق أشعله المسلمون وساعدهم الله بأن أرسل ريحاً قوية وفى ساعة واحدة تم تدمير العمل الذى استغرق ستة أيام. كما أن الرماة من فوق الأسوار قاموا بواجبهم، وجرح أو قتل عدد كبير من المهاجمين، بما فيهم بازغرى الذى أصابه جرح ومات فى تلك الليلة. وفى ذلك الحين بدأت الأمور تتحول إلى شىء بغيض . فقد أعدم الأتراك الأسرى العرب الذين كانوا قد أسروهم بالفعل، وكان عددهم حوالى مائة قتلوهم بدم بارد ، وقذفوا برؤوس أشهرهم إلى المدافعين . وفى المقابل ذبح العرب مائتين من أبناء الكفار على الرغم من أنهم حاربوا باستماتة . ثم هاجم الأتراك البوابة ونجح خمسة منهم فى الوصول إلى أعلى السور ولكنهم أزيحوا من مكانهم .

وقد حفظت السرديات اللاحقة الحوادث الفردية بقدر كبير من الوضوح . وفى واحدة من هذه طلب أمير الشاش (طشقند) الإذن بالقتال ، باعتباره خليفاً للخاقان . ورفض الخاقان ، قال إن هذا سيكون أمراً غاية فى الصعوبة ، ولكن الأمير أجاب أنه إذا ما كوفئ بجاريتين عربيتين فإنه سيهاجم ، فأعطى الإذن بالهجوم. وجاء هو ورجاله إلى ثلثة فى السور كان بداخلها بيت فيه فتحة تفتح على الثلثة. وكان هناك رجل يرقد مريضاً فى المنزل، ولكن على الرغم من مرضه استطاع أن يقذف خطأً اشتبك فى قميص الزرد الذى يلبسه الأمير. ثم نادى المرأة والصبيان فى البيت لكى يساعده فى سحب ضحيته إلى الداخل. ثم ضرب الأمير بحجر وطعن حتى مات. وجاء شاب تركى وذبح القاتل، وأخذ سيفه ، ولكن المدافعين أخذوا الجثة^(٥١).

(*) الطبرى، ج٧، ص ٦٢ .

وفى حادثة أخرى ، أخذ المسلمون الألواح الخشبية المستخدمة لدعم جوانب قنوات الري وأقاموها على قمة السور وصنعوا أبواباً يمكن اتخاذها للوقاية وعمل فتحات فيها للرماة . وفى أحد الأيام سنحت لهم فرصة كبيرة عندما جاء الخاقان نفسه ليتفقد الأحوال . وقذفه أحد الرماة فى وجهه ولكنه كان يضع خوذة تبتية لها قطعة تحمى الأنف (ربما كانت تشبه الخوذة التورمانية التى تظهر فى نسجية بايى) ولم يصبه أذى . كما أنه عانى أيضاً من جرح سطحي بالصدر وهرب دون إصابة خطيرة .

وطال الحصار ، ويات الخاقان قلقاً شديد الضيق . واتهم حلفاءه من أمراء الصفد بأنهم زعموا أن فى المدينة خمسين حملاً فقط ، وأن الأمر سوف يستغرق خمسة أيام فقط ، ولكن شهرين قد مضيا وبقيت المقاومة على قوتها . وبدأت المفاوضات . وقال الخاقان إنه ليس من عادة الأتراك أن يرفعوا الحصار دون فتح المدينة أو رحيل المدافعين ، على حين أجاب المسلمون بأنهم لن يتخلوا عن دينهم . ولذلك عرض اقتراح بأن يرحلوا إلى سمرقند أو الدبوسية ، وهما المدينتان الوحيدتان بالمنطقة اللتان كانتا لا تزالان بأيدي المسلمين . وأرسل المسلمون رسولاً لمشاورة أهل سمرقند . وذهب فقابل صديقاً له من نبلاء الفرس (وهى صداقة أخرى بين الأجناس نراها تظهر فى هذه المنطقة) . ورتب له أن يستعير حصانين من خيول الخاقان نفسه ، كانت ترعى فى مرج قريب . ووصل إلى سمرقند فى اليوم نفسه . وهناك نصحوه بأن حامية كمرچه يجب أن ترحل إلى دبوسيه التى كانت أقرب إليهم . وكان الحصار قد استمر على مدى ثمانية وخمسين يوماً ولم يكن المسلمون قد سقوا إبلهم على مدى الخمسة وثلاثين الأخيرة منها .

وتم الاتفاق على الاستسلام ، ولكن فى جو الشكوك المتبادلة التى تولدت عن الحصار وإعدام الرهائن ، لم يكن من السهل ترتيب الأمور . وأعطى كل فريق خمس رهائن للطرف الآخر . ورفض المسلمون الرحيل حتى يكون الخاقان والجزء الأكبر من جيشه قد غادروا ، وحتى فى ذلك الحين فرضوا رقابة صارمة على الرهائن : فقد كان كل تركى يلبس ثوباً فقط ، وليس عليه درع ، ويجلس خلفه على الحصان عربى بيده خنجر . وفى الوقت نفسه كان الإيرانيون الراحلون مع المجموعة خائفين من أن حامية الدبوسية ، التى قيل إن عددها عشرة آلاف رجل ، قد تخرج إليهم وتهاجمهم . وفى الواقع أن

حامية الدبوسية عندما رأوا الخيالة والأعلام وقوة عسكرية كبيرة تقترب ظنوا أن كمرجه قد سقطت وأن هذا جيش الخاقان يقترب منهم . واستعدوا للحرب . ثم تغير الحال تماماً عندما أخبرهم رسول من الجيش بالقصة الحقيقية، وأسرع الفرسان لمساعدة الضعفاء والجرحى من خلال أسوار المدينة. وأذن للرهائن بالانصراف واحداً بعد الآخر ، ولكن ذلك لم يحدث سوى بعد إطلاق سراح الرهائن العرب مع الأتراك . وعندما لم يعد هناك سوى رهينة واحدة على كل جانب، لم يكن أى من الجانبين يريد أن يطلق سراح رهينته أولاً . وأخيراً أخبر الرهينة العربي^(٥٢) لدى الأتراك الضابط التركي كورصول إنه سعيد لإطلاق سراح الرهينة الأخرى قبله، وفيما بعد سأله كورصول لماذا أقدم على هذه المخاطرة فأجابه العربي «... وثقت برأيك فى ، وقلت ترفع نفسك عن الغدر فى مثل هذا؛ فوصله وسلحه وحمله على برزون ورده إلى أصحابه» . وكما يحدث فى الكثير جدا من الأمور الحربية فى العصور الوسطى، كانت القسوة الوحشية تختلط بتصرفات فروسية فردية، وبعض الأتراك على الأقل نالوا الاعتراف بأنهم خصوم شرفاء جديرون بالثقة.

وهكذا صارت سمرقند خلف تحصيناتها الكبيرة من الطوب اللبن المعقل العربى الرئيسى فيما وراء نهر أموداريا (جيحون) وكان فتحها قد بات واحداً من أهم إنجازات قتيبة وأبقاها . وكانت تحت ضغط عسكرى مستمر من جانب الصفد وحلفائهم الأتراك وكان سقوط كمرجه قد جعلها أكثر عزلة : ولم يكن متوقعاً للحامية العربية هناك أن تصمد وقتاً أطول . وفى بداية سنة ٧٣٠م / ١١١هـ تم تعيين والى جديد على خراسان هو الجنيد بن عبد الرحمن^(٥٣). وحسب أحاديث النميمة فى البلاط بدمشق، كان قد حصل على الوظيفة لمجرد أنه كان قد أعطى امرأة الخليفة قلادة ثمينة بها جوهرة . وكان شاباً عديم الخبرة ، ولم يكن قد زار الولاية قبل ذلك أبداً . وما إن وصل خراسان حتى عبر النهر وبدأ غزواته .

كان هدفه الأول طخارستان، ولذلك ذهب إلى بلخ، التى كانت قد بقيت بأيدي العرب. وكان قد قسم جيشه وأرسل أقساماً فى اتجاهات مختلفة عندما جاءت رسالته من سورة بن الحر، القائد فى سمرقند ، قائلاً إنه يتعرض لهجوم وإنه غير قادر على

الدفاع عن السور الخارجى. وكان بحاجة سريعة إلى النجدة . وحذر ضباط الجيش المجريون الجنيد بأنه يجب أن ينتظر حتى يجمع قواته؛ إذ كان الأتراك جيشاً قوياً «... فقالوا إن الترك ليسوا كغيرهم ، لا يلقونك صفاً ولا زحفاً ، وقد فرقت جندك ... وقال له المجشر إن صاحب خراسان لا يعبر النهر فى أقل من خمسين ألفاً...»^(*). وعلى أية حال كان الجنيد على وعى تام بالخطر الذى كان يواجهه المسلمين فى سمرقند وبالضرر الذى سوف يلحق بسمعته إذا لم يساعدهم وسقطت المدينة. وأعلن أنه سوف يعبر النهر قاصداً سمرقند، حتى ولو كان معه فقط رجال قبيلته الذين جاءوا معه من بلاد الشام.

وكانت وقفته الأولى فى كيش. وهناك وجد أن الترك كانوا قد سمموا بالفعل الكثير من الآبار وأنهم يتقدمون ناحيته. وهناك طريقان من كيش إلى سمرقند . أحدهما طريق دائرى عبر السهول الواقعة غرباً ، ثم ينقطع عائداً حول نهاية الجبال إلى وادى زرفشان . وكان الطريق الآخر مباشراً أكثر ولكنه ينطوى على صعود ممر تشتكرتشه الوعر المنحدر . وعندما سأل الجنيد مستشاريه أى الطريقين ينبغى أن يسلكه ، كان معظمهم يفضلون الطريق المنبسط ، ولكن واحداً من أكثر ضباطه جدية ، وهو الذى كان قد نصحه ألا يعبر النهر بدون جيش كبير، قال إنه سيكون من الأفضل أن يذهب عبر الممر «... القتل بالسيف أمثل من القتل بالنار، إن الطريق المحترقة فيه الشجر والحشيش ولم يُزرع منذ سنين ، فقد تراكم بعضه على بعض ، فإن لقيت خاقان أحرق ذلك كله ، فقتلنا بالنار والدخان ...» .

وفى اليوم التالى انطلق الجيش ليتسلق الممر. وكانت المعنويات منخفضة : إذ كانت معظم القوات لا تثق بصراحة فى الجنيد وقدراته العسكرية ، وكما هى العادة زعموا أنه كان يفضل بعض القبائل على البعض الآخر. وقابلوا العدو على مسافة أربعة فراسخ (٢٤ كيلو متراً)^(**) من المدينة . وظهر العدو حين كان الرجال قد توقفوا لتناول

(*) الطبرى ، ج ٧ ، ص ٧١ .

(**) فى الأصل الإنجليزى ستة فراسخ ، ولعلها خطأ مطبعى. (المترجم)

الطعام وبسرعة رتب الجنيد صفوف قتاله بين جانبي الممر، وكل مجموعة قبلية تحارب باعتبارها وحدة تحت قاداتها، وتتجمع تحت راياتها. وأمر الرجال أن يحفروا خنادق أمام مواقعهم^(٥٤). وبدأ الجنيد قيادة القلب ولكنه سرعان ما انتقل إلى الميمنة ، حيث كانت قبيلة الأزد تتعرض لهجوم عنيف فجاء الجنيد ووقف إلى جانب رايتهم مباشرة ليظهر لهم مساندته . ولم يلق تصرفه التقدير. «... فقال له صاحب راية الأزد: ما جئنا لتحبونا ولا لتكرمنا، ولكنك علمت أنه لا يوصل إليك ومنا رجل حي، فإن ظفرنا كان لك، وإن هلكنا لم تبك علينا. ولعمري لئن ظفرنا وبقيت لا أكلمك كلمة أبدا...»(*) لقد كان التضامن القبلي حول الراية هو الذي أبقي هذه الوحدات معاً، وليس الولاء للقائد ، ولا الولاء للخليفة القابع بعيداً في دمشق.

كان القتال يداً بيد وغاية في الشراسة . وصارت السيوف كليلة بسبب كثرة استخدامها وقطع عبيد الأزد فروع الأشجار ليقاتلوا بها. واستمر القتال حتى نال الإجهاد والتعب من الجانبين . ولم يوضع ما عزم عليه حامل الراية محل الاختبار ، لأنه سرعان ما قُتل ، وهو يحارب بشجاعة ، ومعه حوالى ثمانين من الأزد .

وكما هي العادة في الروايات عن معارك الفتوح الإسلامية الباكرة، لدينا عدد من الصور القلمية الصغيرة ، بدلاً من صورة شاملة . وبعض هذه الصور القلمية عبارة عن قصص الشهداء ، ولاشك في أنها قد حفزت لإلهام المؤمنين في الحملات اللاحقة. وهي جميعاً تستخدم كلمة «الشهيد»، وتوضح الطرق المختلفة التي نال بها الرجال الشهادة.

وأحدى هذه الصور القلمية تخص رجلاً ثرياً جداً^(٥٥)، كان قد عاد لتوه من الحج إلى مكة، وكان قد أنفق فيها مبلغاً ضخماً وصل إلى مائة وثمانين ألف درهم، من المفروض أن معظمها قد أعطى على سبيل الصدقة . وفي ذلك الحين سحب الجيش ومعه قافلة إمدادات خاصة من مائة بعير محملة بالسويق، وهو نوع من ثريد الشعير ،

(*) الطبري، ج ٧ ، ص ٧٤ .

للقوات الإسلامية. وقبل أن يرحل طلب من أمه أن تدعو الله أن يمنحه الشهادة ولقيت دعواتها الاستجابة . وكان معه عندما مات عبدان . وكان قد أمرهما بالهرب وإنقاذ نفسيهما ولكنهما رفضا وقاتلا معه حتى قتلوا جميعاً ، وصار أيضاً شهيدين .

وفى قصة أخرى بطلها^(٥٦) يلبس ثياباً مزركشة فاخرة ، يمتطى فرساً أشقر ، « ... عليه تجاف مذهب ، فحمل سبع مرات يقتل فى كل حملة رجلاً ، ثم رجع إلى موقفه ، فها به من كان فى ناحيته ، فناداه ترجمان للعدو: يقول لك الملك : لا تقبل وتحول إلينا ؛ فنرفض صنمنا الذى نعبد ونعبدك ؛ فقال محمد : أنا أقاتلكم لتتركوا عبادة الأصنام وتعبدوا الله وحده . فقاتل واستشهد »^(*) . وفى قصة أخرى مثل هذه ، سأل الرجل الذى سينال الشهادة^(٧٥) زوجته عما سيكون رد فعلها عندما يجيئون به من المعركة « ... فى لبد ضرجة بالدماء ؟ فشقت جيبها ودعت بالثبور ، فقال : حسبك ، لو أعولت على كل أنثى لعصيتها شوقاً إلى الحور العين ؛ ورجع فقاتل حتى استشهد رحمه الله »^(**) .

ويبدو أن المعركة وصلت إلى ذروتها عندما شن الترك هجمة ضارية على صفوف العرب . وردّ الجنيد بأسلوب قتالي كان نمطياً فى الجيوش الأموية . فقد أمر رجاله بالنزول عن الخيل إلى الأرض . وركعوا على الأرض وقد شرعوا رماحهم مرفوعة فى اتجاه العدو ، وكونوا نوعاً من الحائط بأنسة الرماح . ولما كانت الخنادق التى حفروها من قبل تحميهم كان بإمكانهم مواجهة العدو بقدر من الثقة .

وعلى أية حال ، بقى موقف الجنيد ضعيفاً للغاية . وكان واضحاً أن قواته عانت خسائر فادحة كما أنه فشل فى اختراق صفوف العدو إلى سمرقند ، وقد احتجز فى الممر الجبلى المقفر . وهناك مؤشّر ما على أن الأتراك كانوا قد التفوا على مؤخرة جيشه وقطعوا خطوط إمداداته قرب كش^(٥٨) . وفى هذا الموقف الخطير قبل نصيحة بعض ضباطه وأرسل إلى سورة حاكم سمرقند ، يأمره بأن يترك سلامة المدينة ويأتى لمساعدته

(*) للطبرى ، ج ٧ ، ص ٧٤ .

(**) الطبرى ، ج ٧ ، ص ٧٤ - ص ٧٥ .

ولم يكن هذا قراراً شجاعاً. فقد أخبره ضباطه أنه أمام خيار بأن يهلك هو أو يترك سورة يهلك فأجاب بأن من الأهمون عليه أن يترك «سورة» يهلك^(٥٩). وعندما تلقى سورة الأوامر بالانضمام إلى الجنيد، رفض الطاعة في البداية وأوضح ضباطه أنه يسير ليدخل مصيدة الموت، ولكن الجنيد أرسل رسالة توبيخ ثانية ودعاه ابن امرأة داعرة «ابن اللخناء» وهدده بأن يرسل إليه واحداً من أعدائه ليتولى مكانه. وفي النهاية، أحس سورة أنه لا يملك خياراً سوى الطاعة. ومرة أخرى حثه ضباطه على توخي الحذر، واقترحوا أن يمضى بطريق النهر، ولكن سورة أجاب بأن هذا سوف يستغرق يومين؛ وأنه بدلاً من ذلك سوف يأمر بالمسير ليلاً حتى يصل الجنيد في الصباح. وعرف الترك في الحال بهذه التحركات وقطعوا عليه الطريق في الفجر. وجرى قتال عنيف وأشعل الأتراك النار في الحشائش ومنعوا المسلمين من الوصول إلى الماء. ومرة أخرى سأل سورة ضباطه عن رأيهم. وأشار أحدهم إلى أن الأتراك يسعون فحسب للحصول على الحيوانات والغنائم: فإذا ذبحوا حيواناتهم، وحرقوا متاعهم، وسلّوا سيوفهم، فإن الترك سوف يتركوهم. واقترح آخر أن يترجلوا جميعاً ويسيروا والرماح مشرعة أمامهم أى يكونوا بمثابة نوع من حائط الحراب المتحرك. وقد رفض سورة هذه الاقتراحات كلها وعقد العزم على شن هجوم مباشر. وكانت الظروف مرعبة؛ فقد حُجّب المسلمون والترك على السواء خلف الدخان والغبار، وسقطوا في اللهب. وسقط سورة فكسرت فخذه. وبفعل الحرارة والتراب تفرقت قوات المسلمين، وتصيدهم الأتراك واحداً وراء الآخر. ولم ينج من الاثنى عشر ألفاً الذين خرجوا مع سورة من سمرقند سوى ألف رجل.

وفي الوقت نفسه انتهز الجنيد فرصة التحول وسار نحو سمرقند، ولكن مشكلاته لم تكن قد انتهت. وبناء على نصيحة أحد كبار ضباطه^(٦٠) أقام معسكره بدلاً من السير نحو المدينة. وخيراً فعل، لأن الترك لو لحقوا به في المناطق المفتوحة، فربما قضوا عليه. وفي الصباح التالي جرى قتال شرس. وأمر الجنيد بعثق كل عبد يحارب مع المسلمين. وذهل المسلمون من الشراسة التي قاتل بها العبيد، فقد اتخذوا لبود الخيل نوعاً من الدروع بعد أن أحدثوا فيها فتحات أدخلوا فيها رؤوسهم. وانسحب الأتراك

فى النهاىة وتمكن الجنيد من مواصلة السير إلى المدينة ، لىبقى أمنا خلف أسوارها الضخمة . وإذ حُرِمَ الجيش التركى من النصر الكامل بدأ ينسحب وبقى الوجود العربى فى بلاد الصغد ، ولكن إلى حين.

كان حكم الرأى العام قاسياً على الجنيد ، وانتقده الشعراء بوحشية :

أين حماة الحرب من معشر	كانوا جَمال المنسر الحارد
بادوا بآجال توافوا لها	والعاثر المُهل كالبائد
فالعين تجرى دمعا مُسبلاً	ما لدموع العين من ذائد
أنظر ترى للميت من رجعة	أم هل ترى فى الدهر من خالد
كنا قديماً يُتقى بأسنا	وندرأ الصادر بالوارد
حتى مينا بالذى شامنا	من يعد عز ناصر آند
كمأقر الناقة لا ينثنى	مبتدئاً ذى حنق جاهد
فَتَقَتْ ما لم يلتئم صدعه	بالجحفل المحتشد الزائد
تبكى لها إن كشفت ساقها	جَدعا وعقراً لك من قائد
تركنا أجزاءً معبوضة	يقسمها الجازر الناهد
ترقت الأسياف مسلولة	تزيل بين العضد والساعد
تساقط الهامات من وقعها	بين جناحى مُبرق راعد
إذ أنت كالطفلة فى خدرها	لم تدر يوماً كيدة الكائد
إنا أناس حربنا صعبة	تعصف بالقائم والقاعد
أضحت سمرقند وأشياعها	أحدوثة الغائب والشاهد
وكم ثوى فى الشعب من	جلد القوى ذى مرة ماجد

لا هائب غُسّ ولا ناكـد	حازم يستنجد الخطب ويغشى الرغى
مرموسة بالمدر الجامد	ليتك يوم الشُّعب في حفرة
لعب صقـور بقطا وارد	تلعب بك الحرب وأبناؤها
ما قلبك الطائر بالعائد	طار لها قلبك من خيفة
كشربك المِزء بالبارد	لا تحسن الحرب يوم الضحى
وصورة في جسد فاسد	أبغضت من عينك تبريجها
نبعا ولا جدك بالصاعد	جنيد ما ييصك منسوبة
وأنت منهم دعوة الناشد	خمسون ألفا قتلوا ضيعة
ما أنت في العدو بالخامد	لا تمرين الحرب من قابل
طوق الحمام الغرد الفارد	قلدتـه طرقا على نحـره
تسمى بها البُردُ إلى خالد(*)	قصيدة حبرها شاعر

ولم يكن ممكناً أن تبقى سمعة أى إنسان بعد هجوم مثل هذا . وفقد الجنيد أية جدارة ومصداقية بوصفه قائداً عسكرياً وحلّ به العار إلى الأبد . وفى الوقت نفسه خيم أريج الشهادة على ميدان المعركة التى استشهد فيه سورة ورجاله . وزعم بعضهم أنهم رأوا خياماً منصوبة بين الأرض والسما من أجل أولئك الذين كانوا على وشك نيل الشهادة، وأكد آخرون أن الأرض التى استشهدوا فوقها كانت تفوح برائحة المسك^(١١).

وبعد أن مات الجنيد فى وظيفته سنة ٧٣٤م اندلع التمرد الصريح بين عرب خراسان وتهددت سلطة الولاة الأمويين من جانب جيش متمرّد يقوده الحارث بن سريج.

(*) اختار المؤلف عدة أبيات فقط من هذه القصيدة، ورأيت إثباتها كاملة للفائدة، والشاعر اسمه «خالد بن المعارك»، وقد اشتهر باسم «أبن عرش» . انظر: الطبرى ، ج ٧ ، ص ٨٦/ص ٨٧ . (المترجم)

وتفانم الاستياء كما أن مصاعب الحملات زادت من جراء آثار المجاعة والحروب المستمرة. وكانت السنوات التي شهدت ثورة الحارث ٧٢٤-٧٣٦م علامة على تدهور حظوظ العرب فى بلاد ما وراء النهر. ويبدو أن جميع الأراضى فيما وراء النهر قد ضاعت باستثناء كيش ويبدو أن الملك الصفدى غوزك قد استطاع استعادة السيطرة على عاصمته القديمة سمرقند^(٦٢). وكانت أقسى انتكاسة عانها الغزاة العرب فى أى مسرح عمليات، ومن اللافت للنظر أنها جاءت بعد وقت قصير من هزيمة العرب فى أوربا فى معركة بواتيه (بلاط الشهداء) فى سنة ٧٣٢م. ولكن كان هناك اختلاف مهم . ففى الغرب كانت بواتيه حقاً نهاية التقدم العربى. أما فى الشرق ، فإن النكسات التى أعقبت معركة ممر تشنكر تشه كانت نكسة خطيرة ولكنها مؤقتة.

أسد بن عبد الله ونصر بن سيار وانتصار الإسلام ٧٣٧-٧٥١م

بدأ المد يتحول لصالح العرب فى سنة ٧٣٧م . فقد مات غوزك ملك سمرقند الناجى القديم الماكر لأسباب طبيعىة وتم تقسيم مملكته بين ورثته . وفى خريف تلك السنة، قام الخاقان بالتحالف مع الحارث بن سريج المتمرد العربى بغزو طخارستان . وكان الوالى العربى آنذاك (أسد بن عبدالله) قد نقل عاصمته من مرو إلى بلخ. وربما كان يريد الهروب من الجماعات العربىة المتحاربة فى العاصمة القديمة مرو ولكنها كانت دائماً عاصمة الغزاة القادمين من الغرب، سواء كانوا من الساسانيين أو العرب، وربما يكون أيضاً قد راوده الأمل فى أنه بالانتقال إلى العاصمة فى بلخ سيكون قادراً على إرسال إشارة مختلفة إلى الأمراء المحليين . وكانت لأسد علاقات طيبة مع كثير منهم كما أن أفراداً مهمين اعتنقوا الإسلام على يديه ، بما فيهم حسبما قيل برمك مؤسس أسرة البرامكة الشهيرة وسامان خُدا جد السامانيين الذين سيتولون حكم خراسان وما وراء النهر فى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى. وربما كانت سياسة أسد الدبلوماسية والتصالحية قد أوجدت فرقاً حاسماً وأرست الأسس التى قامت عليها السيادة الإسلامية فى المنطقة مستقبلاً.

وفي ديسمبر سنة ٧٢٧م بدأ الخاقان يشن غاراته على المناطق المجاورة لبلخ . وارتكب خطأ قاتلاً عندما وزع قواته لشن الغارات على البلدات والقرى فى طخارستان، وربما كانت تلك محاولة للعثور على الإمدادات فى ذلك الوقت القارس الشحيح من السنة . وسواء كان أسد قد كسبهم بفضل مواقفه الطيبة معهم أم كانوا قد ابتعدوا بسبب لصوصية أتباع الخاقان ، فإن بعض الأمراء المحليين رموا بثقلهم إلى جانب أسد والمسلمين . ويبدو أن أسداً ومعه ثلاثون ألف جندي، خرجوا لملاقاة الخاقان وفاجأوه فى مكان يسمى خارستان فى لحظة لم يكن معه فيها سوى أربعة آلاف رجل . كان القتال شرساً ولكن ملك الجوزجان حسمه، وكان من حلفاء أسد المحليين، عندما هاجم الخاقان من المؤخرة . وفر الأتراك وأسد يطاردهم ولم ينجهم سوى عاصفة ثلجية أتاحت لهم الهرب ونجوا من مذبحة شاملة .

كانت معركة خارستان أكبر قليلاً من مناوشة ، ولكنها كانت علامة النهاية لقوة الخاقان والامبراطورية التركية . وقد تراجع بعيداً فى الشرق إلى قاعدته فى وادى إيلي . وعندما هزم ، وقد تلطخت سمعته اغتاله مرؤوسه كورصول . ولم يكن كورصول بدوره قادراً على لم شمل الأتراك سوياً فى مواجهة التدخل الصينى، وبحلول سنة ٧٢٩م كانت إمبراطورية الترك قد تفككت . ومضى قرنان آخران قبل أن تظهر دولة تركية أخرى فى وسط آسيا .

ومات أسد لأسباب طبيعية فى السنة التالية ٧٢٨م . وبعد فترة قصيرة عين الخليفة هشام بن عبد الملك نصر بن سيار والياً . ومن بعض الوجوه كان هذا اختياراً غير عادى . فقد كان جميع الرجال الذين حكموا خراسان من قبل قد جاؤا كلهم تقريباً من الغرب . ولم يكن كثير منهم قد زاروا الولاية من قبل . وكان بعضهم قادراً ، وبعضهم يبدو أنهم قد عينوا لأنهم أسدوا خدمات سياسية أو شخصية لدمشق وليس لأنهم كانوا مناسبين لهذه الولاية الإقليمية فائقة الأهمية . وكان نصر بن سيار ، على النقيض ، قد أمضى ثلاثين سنة فى الولاية ، أى حياته كلها بعد نضجه بالفعل . وكان ينتمى إلى مجموعة صغيرة من الضباط المحترفين الذين خدموا الولاة السابقين ولكنه كان أول من

يعين على قمة الولاية منهم. وكان مما ساعده أيضا على نحو ما ، أنه كان مثل قتيبة من قبل ، ينتمى إلى قبيلة كنانة الصغيرة . ولم يكن متورطاً فى المنافسات القبلية الشرسة المتعمقة التى كانت قد أمسكت بخناق الكثير من العرب فى خراسان . ولكن ، مثلما كان الحال مع قتيبة ، كان لهذا الموقع جانبه السلبى: إذ كان نصر معتمدا على المساندة من دمشق ، فإذا لم توجد لى سبب لم يكن ليستطيع أن يعول على المساندة القبلية لدعمه .

وتولى المنصب فى لحظة موأتية ؛ ذلك أن أسد بن عبد الله المأسوف عليه كان قد أرسى علاقات طيبة مع كثير من الأمراء المحليين. وفى الوقت نفسه ، لم يعد الأتراك قوة يُحسب حسابها. وكان بعض الأمراء لا يزالون على أملهم فى أن تتدخل القوة الصينية. وفى سنة ٧٤١م استقبل البلاط الصينى سفيراً من الشاش يشكو من أن الأتراك قد صاروا آنذاك رعايا الصين وأن العرب وحدهم لعنة على المملكة، ولكن بينما كان العاهل الصينى القابع بعيداً يمنح ألقاباً مدوية ذات رنين، بات واضحاً أن الصينيين لا يمكنهم التدخل لتقديم المساندة الفعالة. ولابد أن معظم الأمراء كانوا على وعى بأن ليس أمامهم سوى المسلمين : وكان عليهم الاختيار بين الاتفاق معهم أو الهلاك .

وقد عمل نصر ، مثل قتيبة قبله ، بسياسة ذات مسار مزدوج . وكما يقول جب «لقد رأى عدم جدوى السيطرة على البلاد بالقوة الغاشمة وحدها، كما أدرك عبثية الاستغناء عن القوة»^(٦٣). ويعد تعيينه بوقت قصير ألقى خطبة فى صلاة الجمعة بالمسجد الجامع بالعاصمة مرو^(٦٤)، كانت فى جوهرها إعلاناً سياسياً^(٦٥). والوهلة الأولى يبدو أنها انصبت فى معظمها على النقود . وأوضح مسئوليته عن حماية المسلمين، وأن المسلمين منذ ذلك الحين فصاعداً (وليس العرب كما ينبغى أن نلاحظ) سيكون لهم وضع ضريبى تفضيلى. فستكون الأراضى كلها خاضعة لضريبة الخراج ولكن المسلمين

(٦٥) كانت خطبة الجمعة إحدى المناسبات التى يمكن للوالى أن يخاطب فيها أعيان المسلمين فى المدينة وي طرح علنا الآراء حول الموضوعات السياسية الجارية.

سوف يعفون من الجزية، التى هى ضريبة رأس(*) . وكان المغزى واضحاً : فكل المسلمين سواء من المهاجرين العرب أو من السكان الذين اعتنقوا الإسلام ، سيكون لهم الوضع المالى الممتاز نفسه؛ وجميع الكفار مهما كانت طبقتهم أو خلفيتهم العرقية ، سيكون عليهم أن يدفعوا . وقيل إن ثلاثين ألف مسلم كانوا يدفعون الجزية لم يعودوا يدفعونها آنذاك، بينما تعين على ثمانين ألفاً من الكفار أن يبدؤوا فى دفعها . وبطبيعة الحال، كانت هناك مضامين أوسع لمرسوم نصر، أو بالأحرى لتنظيمه الموقف الفوضوى الذى كان سائداً من قبل؛ إذ بات اعتناق الإسلام يعنى المساواة مع الجماعة الحاكمة . وكان ذلك استهلالاً واضحاً وجذاباً ولعب دوراً فى خلق طبقة حاكمة فى خراسان وبلاد ما وراء النهر حدده الدين الإسلامى لا الهوية العرقية العربية. وكان هؤلاء المسلمون الخراسانيون هم الذين ثاروا فيما بعد ضد نصر بن سيار والحكم الأموى فى سنة ٧٤٧م وأقاموا العباسيين حكماً على العالم المسلم فى سنة ٧٥٠م.

وعلى المدى القصير بدا أن سياسة نصر ناجحة. وتوحى الحقيقة القائلة بأننا لانسمع بالفعل شيئاً عن طخارستان وخوارزم فى هذا الوقت ، ونسمع القليل عن الصغد ، بأن هذه المناطق كانت مسالمة إلى حد كبير تحت الحكم الإسلامى. ومن المحتمل أن معظم الأمراء فى هذه المنطقة قد اعتنقوا الإسلام آنذاك ، ومن المؤكد أن هذه حقيقة تصدق على الذين نعرف أخبارهم، ولا سيما حكام بخارى والبرامكة فى بلخ. فقد كانت هناك فيالق من بلاد ما وراء النهر تخدم فى جيوش نصر: فعندما كان يغزو الشاش فى سنة ٧٣٩م، كان عشرون ألف رجل من بخارى وسمرقند وكيش ومن أشروسنا

(*) يبدو أن هذه المسائل غير واضحة ، بالنسبة للمؤلف . فالجزية التى كانت تفرض على «أهل الذمة» من اليهود والنصارى كانت مقابل ما يداً لبقائهم فى دار الإسلام والتزام السلطات بحمايتهم والدفاع عنهم وعن عائلاتهم وأموالهم. ولم تكن الجزية تفرض سوى على القادرين على القتال، ويعفى منها النساء والأطفال والشيوخ والرمهان، كما كانت ذات فئات ثلاث: دينار للفقير ، وديناران للمتوسط ، وأربعة دنانير للقادرين . وكان يمكن تأجيلها للمفسر . أم الخراج : فهى ضريبة على الأرض الزراعية بغض النظر عن ملكيتها : سواء كانت للمسلمين أو غير المسلمين. وكان ينبغي على الجميع دفعها على أية حال. وكانت السياسة الأموية عموماً تفرق بين العرب وغير العرب من المسلمين فى هذه الأمور . وهذا ما جعل نصر يقرر إصلاح الأمور. (المترجم)

البعيدة المتوحشة ضمن قواته . وربما كان عدد قليل من هؤلاء نوى أصول عربية ، ولكن الراجح أن معظمهم كانوا من الأهالي المحليين الذين انضموا للجيش المسلمة على أمل أن ينالوا الرواتب ويحصلوا على الغنائم .

كما أنه انطلق في تشجيع تجار الصغد، الذين كانوا قد هربوا شرقاً إلى فرغانة في أثناء الحروب التي نشبت في عشرينيات القرن الثامن الميلادي، على العودة . ولم تكن هذه مسألة بسيطة . فقد وضع الصغد شروطاً . وكان أولها أن أولئك الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام ثم ارتدوا آنذاك لا يجب معاقبتهم . وكان هذا شرطاً صعباً ؛ لأن عقوبة الردة كانت (ولا تزال) الموت، ولم يكن من السهل الالتفاف على هذا . ومن المثير أن نصر لم يشعر أنه يحتاج إلى سؤال أى من الفقهاء قبل أن يتخذ قراره . كانت تلك هى الأيام التي سبقت بلورة الشريعة الإسلامية، وقرر ببساطة بمبادرة منه تقديم هذا التنازل . وحتى بعد نصف قرن ، لم يكن يخطر على البال أنه يمكن التفاوض عن مثل هذا المبدأ الواضح من مبادئ الإسلام بناء على سلطة أحد ولاة الأمصار ، ولكن في مثل هذه الظروف الحدودية التي تستدعى تمشية الحال كان بوسع نصر أن يفعل هذا في سبيل المصالح الأوسع للإسلام . ثم جاءت مسألة متأخرات الضرائب التي كان كثير من التجار يدينون بها؛ وقد تم شطب هذه الديون . وأخيراً كانت هناك مسألة الأسرى المسلمين الذين يحتجزهم الصغد . وربما ما يثير الدهشة أن نصر وافق على أن هؤلاء لا يرجعون إلا «بقضية قاض وشهادة شهود على عدول...» . وقد نال نصر قدراً كبيراً من النقد في بعض الأنحاء ، كما أن الخليفة هشام نفسه رفض في بداية الأمر أعمال الاتفاق، ولكن في النهاية تمت الموافقة عليه على أساس أن أهم شيء هو كسب هؤلاء الرجال الأقوياء الأثرياء إلى الجانب المسلم . وتم الاتفاق وعاد التجار إلى بلاد الصغد(٦٥) .

كانت العملية الهجومية الكبرى الوحيدة التي قام بها نصر هي حملة سنة ٧٣٩م على الشاش وفرغانة . والروايات عن هذه الحملات تصويرية، لكنها مرتبكة كما أن مجرى الأحداث ليس واضحاً بالمرّة . فعندما وصل جيش نصر إلى فرغانة البعيدة حاصروا مدينة قُبا ، وفي نهاية الأمر توصلوا إلى الصلح مع ابن الحاكم . وقامت

بالمفاوضات أم الأمير الشاب من خلال المترجم ؛ وقيل إنها قد انتهزت الفرصة لتلقى عظة قصيرة عن الملكية، وهو ما يعطينا لمحة أخرى، عن عقلية هؤلاء الحكام الإيرانيين الشرقيين.

«... قالت لنصر: كل ملك لا يكون عنده ستة أشياء فليس بملك : وزير يباثه بكتاب نفسه وما شجر في صدره من الكلام، ويشاوره ويثق بنصيحته، وطباخ إذا لم يشته الطعام اتخذ له ما يشتهى، وزوجة إذ دخل عليها مفتماً فنظر إلى وجهها زال غمه ، وحصن إذا فزع أو جهد فزع إليه فأنجاه - تعنى البرزون - وسيف إذا قارع الأقران لم يخش خيانتة، وذخيرة إذا حملها فأين وقع بها من الأرض عاش بها»^(٦٦) (*) .

وقد صدمها أيضا أن ترى معاملة أحد أبناء الوالى القديم قتيبة ، الذى كان يشغل مكاناً متواضعاً فى معسكر الوالى . فقالت شاكية «... يا معشر العرب، ما لكم وفاء ، لا يصلح بعضكم لبعض . قتيبة الذى وُطن لكم ما أرى، وهذا ابنه تقعه دونك . فحقك أن تجلسه هذا المجلس وتجلس أنت مجلسه »^(*) . وهذا تأكيد قوى على السمعة التى كان قتيبة ما يزال يتمتع بها بعد عشرين سنة من موته المُشين وأهمية مكانته الموروثة على السواء .

ويبدو أن هذه الحملة كانت علامة النهاية للحملات الهجومية الكبرى. وربما كان نصر قد أمضى بعض الوقت فى نشر الإسلام فى بلاد الصغد ولكن منذ سنة ٧٤٥م فصاعداً كان مشغولاً تماماً فى مرو وخراسان بحركة التمرد التى سوف تصير فيما بعد الثورة العباسية . وتم إرسال السفارات إلى الصين لتنظيم العلاقات التى لم يعد الترك آنذاك يشكلون حائلاً بون قيامها بين القوتين العظميين. ويبدو أن سفارة ذهبت سنة ٧٤٤م بقصد تطوير الصلات التجارية وكانت تضم ممثلين عن المدن الصفدية مثل طخارستان ، والشاش وحتى زُبلستان (فى شمال أفغانستان). وتم إرسال المزيد من السفارات فى سنة ٧٤٥م وسنة ٧٤٧م^(٦٧) .

(*) الطبرى، ج٧، ص ١٧٨ .

وبحلول سنة ٧٥٠م، كان فتح بلاد ما وراء النهر قد اكتمل بصورة جوهرية وقامت الحدود الشمالية الشرقية للعالم المسلم على امتداد خطوط قِيُض لها أن تبقى بلا تغيير حتى قدوم الأتراك السلاجقة بعد ذلك بثلاثة قرون . وكانت تلك أيضا حدود مناطق الاستقرار . وقد أقيم الحكم الإسلامى فى مناطق كانت بها مدن قديمة وقرى مستقرة . وإلى الشرق بعد هذا فى الأراضى العشبية فى قزخستان وقرغيزستان ، بقيت المعتقدات القديمة وأساليب الحياة العتيقة دونما تغيير كبير. لقد كان فتح بلاد ما وراء النهر أصعب مهمة قامت بها الجيوش المسلمة. فقد كان خصومهم ذوى عزم ويتصفون بالمرونة، وتحملت جيوش الإسلام نكسات متكررة . وفى النهاية، كان الولاة من أمثال أسد بن عبدالله ونصر بن سيار ، عندما تعاونوا مع النخب المحلية، هم الذين جعلوا هذا ممكناً . ولا شك فى أن الإسلام قد انتصر على الديانات المحلية فى هذه المنطقة، ولكن القيم والمثل الأميرية لدى حكام بلاد ما وراء النهر قد رُفِد لها أن تكون ذات تأثير عميق على ثقافة العالم الإسلامى الشرقى بأسره وعلى بقاء الثقافة الإيرانية فى داخله .

وعلى أية حال، كان لا بد من عمل أخير حاسم فى الصراع من أجل آسيا الوسطى ونحن بالفعل لا نعرف شيئاً عنه من المصادر العربية ، ولكن الحوليات الصينية تملأ بعض الفجوات . وفى سنة ٧٤٧م وسنة ٧٤٩م طلب أمير طخارستان مساعدة الصين ضد عصابات الجيلجيت، بالقرب من مصب نهر الهندوس ، وهى منطقة لم تدخلها الجيوش الإسلامية قط، على امتداد الطريق إلى الصين الذى كان التجار الصفد يستخدمونه فى بعض الأحيان. وأرسل حاكم كوشه الصينى موظفًا كوريًا للتعامل مع المشكلة، وفى سلسلة من الحملات المدهشة ، عبر الجبال على امتداد الطريق شديد الانحدار فيما هو الآن طريق قراقورم السريع ، وهزم المتمردين. ثم استدعاه ملك فرغانة ليساعده فى نزاع محلى مع ملك الشاش المجاور . وانتهى الأمر بالقوات الصينية بالاستيلاء على الشاش وهرب الملك سعيا وراء المساعدة من والى العباسى أبى مسلم الخراسانى، الذى كان قد وطد نفسه فى سمرقند . وأرسل قوة تحت قيادة واحد من مساعديه ، هو زياد بن صالح. وتقابل الصينيون ومعهم حلفاؤهم من فرغانة

وبعض الترك مع جيوش المسلمين قرب تراز فى يوليو سنة ٧٥١م . وكانت المرة الأولى والأخيرة التى اشتبكت فيها الجيوش العربية والصينية فى مواجهة مباشرة . وانتصر العرب ولكن المحزن أننا لانملك أية تفاصيل أخرى عن هذا الصراع .

كانت هذه المواجهة علامة على نهاية عصر. إذ إن القوات العربية لم تتوغل أبداً شرق فرغانة أو شمال شرق الشاش، ولم يحدث أبداً أن سلكت طريق الحرير إلى داخل سنكيانج وعبر صحراء جوبى. وكانت تلك أيضاً المرة الأخيرة التى تصل فيها الجيوش الصينية إلى هذه المسافة البعيدة شرقاً . وربما كانوا سيعودون بقوة لكى ينتقموا لهزيمتهم ، ولكن بعد أربع سنوات ، أى فى سنة ٧٥٥م ، كانت آسيا الوسطى ثم الصين نفسها قد تمزقت بسبب ثورة أن لوشان ، وكان لا بد من مرور ألف سنة قبل أن تظهر القوات الصينية فى كشغر مرة ثانية. وتلاشى أى أمل كان يراود أمراء الصغد بأن يساندتهم الصينيون ضد العرب إلى الأبد. إذ إن معركة تراز أو تلاس ، مثل معركة بواتيه فى سنة ٧٣٢م فى الغرب ، لم ترد عنها سوى روايات قليلة فى المصادر العربية المصادر. وعلى الرغم من أن بواتيه كانت هزيمة وتلاس كانت نصراً للجيوش العربية، فقد كانت كلاهما علامة على أقصى حدود للتوسع العربى فى منطقتهم.

وقد ورد ذكر معركة تراز أو تلاس فى التراث العربى أيضاً لسبب مختلف تماماً . فقد ذاع الاعتقاد بأن الصناع الذين أسرههم العرب فى مجرى الحملة جلبوا معهم تكنولوجيا صناعة الورق إلى العالم العربى. ومن المؤكد أن الورق كان معروفاً فى الصين قبل هذا ، ولكنه لا يظهر فى المجتمع العربى سوى فى النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى / الثانى الهجرى، وحل محل الرق والبردى باعتباره مادة الكتابة الرئيسية . ولانستطيع أن نعرف الحقيقة التاريخية الكامنة وراء الروايات عن الأسرى القادمين من تلاس. والراجع ، على أية حال، أن الاتصالات مع الصين فى آسيا الوسطى أدت إلى استيراد مادة الكتابة الجديدة هذه. ولأن الورق كان رخيصاً سهل الإنتاج والاستخدام ، فقد قُيِّض له أن يكون ذا أثر كبير على الأدب والثقافة فى العالم المسلم ثم فى العالم الأوروبى فيما بعد .

الهوامش

- Koran 3: 169. (١)
- Tabari, Ta'rikh, II, p. 1179. (٢)
- Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1290-91. (٣)
- Tahari, Ta'rikh, II, pp. 1185-6. (٤)
- Barthold, Turkestan, p. 117. (٥)
- Narshakhi, History of Bukhara, p. 44. (٦)
- Tabari, Ta'rikh, [I, pp. 1185-90; Narshakhi, History of Bukhara, pp. 43-5. (٧)
- Tabari, Ta'rikh, II, p. 1188. (٨)
- Narshakhi, History of Bukhara, p. 45 and note B. (٩)
- Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1198-9. (١٠)
- Tabari, Ta'rikh, II, p. 1202. (١١)
- Narshakhi, History of Bukhara, p. 63. (١٢)
- Ibid., pp. 47-9. (١٣)
- Ibid., p. 52. (١٤)
- Tabari, Ta'rikh, II, p. 1206. (١٥)
- Tabari, Ta'rikh, II, p. 1207, but cf. p. 1218, where it lists only a few brigands. (١٦)
- E. Knobel, The Archaeology and Architecture of Afghanistan (Stroud, 2002), (١٧)
p. 162 and Plates 7 and 17.
- Tabari, Ta'rikh, II, p. 1226. (١٨)
- Tabari, Ta'rikh, II, p. 1230. (١٩)
- Gibb, Arab Conquests, p. 42. (٢٠)
- Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1229-30. (٢١)
- Tabari, Ta'rikh, II, p. 1235. (٢٢)
- Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1240-41. (٢٣)

F. Grenet and C. Rapin, 'De la Samarkand antique a la Samarkand islamique; (٢٥) continuités et ruptures, in Colloque international d'archéologie islamique, ed. R.-P. Gayraud (Cairo, 1908), pp. 436-60.,

Tabari, Ta'rikh, II, p. 1245. See trans. n. 635 for different figures given in Balqami (٢٦) and Ibn A'tham.

Tabari, Ta'rikh, II, p. 1252. (٢٧)

Gibb, Arab Conquests, p. 45. (٢٨)

Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1256-7. 30- Gibb, Arab Conquests, pp. 52-3. (٢٩)

Ya'qubi, Ta'rikh, IT, p. 346. (٣١)

Gibb, Arab Conquests, p. 50. (٣٢)

Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1277-8. (٣٣)

Tabari, Ta'rikh, II, p. 1286. The word used for pass is Jawaz, the modern Arabic (٣٤) word for passport.

Tabari, Ta'rikh, II, p. T 287. (٣٥)

Tabari, Ta'rikh, II, p. 1288. 37. Tabari, Ta'rikh, II, p. 1291. (٣٦)

Tabari, Ta'rikh, II, p. 1291. (٣٨)

Tabari, Ta'rikh, II, p. 1290. (٣٩)

Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1294-5. (٤٠)

Tabari, Ta'rikh, II, p. 1300- (٤١)

Al-Asamm b. al- Hajjaj; Tabari, Ta'rikh, II, p. 1304, The translation is based on (٤٢) that of D. S. Powers in trans. xxiu 28, slightly amended.

(٤٣) عن الترك في حروب تلك الفترة انظر:

E. Esin, Tahari's report on the warfare with the Turgis and the testimony of teighth-century Central Asian art', Central Asiatic Journal 17 (1973); 130-34.

Tabari, Ta'rikh, II, p. 1431; (٤٤)

Tabari, Ta'rikh, II, p. 1432.

انظر أيضا القصيدة في :

Tabari, Ta'rikh, II, pp. 142 i-S. (٤٥)

Tabari, Ta'rikh, II, p. 1430. (٤٦)

On the documents, see F Grenet and E. de la Vaissiere, 'The last days of (٤٧) Penjikent', Silk Road Art and Archaeology 8 (2002); 155-96; I. Yakubovich, Mugh 11 revisited', Studio Iranica 31(2002): 213-53.

Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1446-8, in which Diwashtich is called Dawashini. (٤٨)

De la Vaissiere, Sogdian Traders, p.272. (٤٩)

Tabari, Ta'rikh, II, p. 1518. (٥٠)

Tabari, Ta'rikh, II, p. 1521. (٥١)

Siba' b. al-Nu'man al-Azdi; Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1524-5. (٥٢)

Al-Junayd b. 'Abd al-Rahman al-Murri; Tabari, Ta'rikh, II, p. 1527. (٥٣)

Tabari, Ta'rikh, II, p. 1638. (٥٤)

yazid b. al-Mufaddal al- Huddani; Tabari, Ta'rikh, II, p.1537. (٥٥)

Muhammad b. 'Abd Allah b. Hawdhan; *Tabari, Ta'rikh, II, p.1537. (٥٦)

Al-Nadr I). Rashid al-'Abd; Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1537-8. (٥٧)

Tabari, Ta'rikh, II, p. 1539. (٥٨)

Tabari, Ta'rikh, II, p. 1539. (٥٩)

Al-Mu'yashshir b. Muzahim al-Sulani; Tabari, Ta'rikh, II, p.1543. (٦٠)

Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1546, 1557-8. (٦١)

عن الدليل السليبي عن هذه الحال انظر:

Gibb, Arab Conquests, p. 79.

Ibid., p. 89. (٦٢)

Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1688-9. (٦٤)

Tabari, Ta'rikh, II, pp. 1717-8. (٦٥)

Tabari, Ta'rikh, H, p. 1697, slig-hriy abbreviated. (٦٦)

Gibb. Arab Conquests, p. 92, (٦٧)

Ibid., pp. 95-6. (٦٨)

المشرق الأقصى والمغرب الأقصى

مع نهاية القرن السابع الميلادي كانت جيوش المسلمين قد حققت نوعاً من السيطرة على شمال أفريقيا كله فى الغرب ، وخراسان ومعظم بلاد ما وراء النهر فى الشرق. ومن عدة جوانب كان هناك منطق جغرافى للحدود التى صنعوها بحيث كانت هى المكان المناسب لنهاية التوسع - مضيق جبل طارق غرباً وجبال شرق أفغانستان ومكران شرقاً . ولم يكن أى منهما يشكل عقبة دائمة ، ففى الاندفاع النهائى للفتوح العربية الباكورة فتحت جيوش المسلمين معظم شبه جزيرة أيبيريا والسند ، وهى الجزء الجنوبي من باكستان الحديثة .

كانت السند بعيدة تماماً عن شبه جزيرة العرب والأرض التى تكون قلب الدولة المسلمة الباكورة^(١). وكان الطريق البرى يمضى عبر صحراء مكران القاحلة ، حيث كان المسار يؤدى من واحة عطشى إلى أخرى، وحيث يكاد يكون مستحيل الحصول على الإمدادات . وكان الإسكندر الأكبر واحداً من القلائل الذين حاولوا قيادة جيش عبر هذه الأرض، وبرهنت حملته على أنها كانت إحدى أصعب الصراعات التى تعين عليه مواجهتها. وكان الطريق البديل بالبحر، على امتداد الساحل الجنوبى المجدب لإيران ومكران حتى الموانئ الواقعة حول مصب نهر الهندوس . وفى أى من الحالين كانت المسافات وطبيعة الأرض تجعل الرحلة غاية فى الصعوبة.

ومعلوماتنا عن الفتح العربى للسند فى أوائل القرن الثامن الميلادى محدودة جداً . فقد كانت المنطقة مهمة إلى حد كبير من جانب المصادر العربية الكلاسيكية .

والبلاذرى وحده هو الذى يقدم رواية متسقة تشغل فقط حوالى اثنتى عشرة صفحة فى النص^(٢). وليس هناك مؤشر على أنه ، أو أى من المؤرخين الذين عاشوا بالعراق، قد زار هذه المنطقة النائية فى الدولة الإسلامية ، كما أن التفاصيل القليلة التى يقدمونها تلقى ضوءاً قليلاً على البلاد أو فتحها . فضلاً عن أن المصادر المحلية ليست هى الأخرى ذات فائدة أكبر، والمؤرخة السندية الوحيدة التى تناولت الفتوح هى الشاشنامه^(٣) التى ألفها سنة ١٢١٦م على بن حامد الكوفى، وهى ترجمة لأصل عربى مفقود ، قيل إنه تم جمعها كتابة على يد قاضى الرور الذى زعم أنه من قبيلة ثقيف ، قبيلة الفاتح الأصلى محمد بن القاسم. والنصف الثانى من هذا الكتاب عبارة عن رواية عن المرحلة الأولى من الفتح أساساً^(٤). ولم يول المؤرخون اهتماماً كبيراً بكتاب الشاشنامه الذى يحتوى على كثير من الإضافات الأسطورية ، ولكن الكثير من جوهر الرواية يبدو مأخوذاً عن مصادر عربية : إذ إن المؤلف يذكر اسم المؤرخ المدائنى ، كما أن الخطوط العريضة للسرد، وبعض حوادث بعينها ، قامت على أساس نص البلاذرى بشكل قوى. وهناك موضوعان تم التأكيد عليهما فى النص . أحدهما الدور القوى الذى لعبه الحجاج فى العراق البعيد . فهو يوصف بأنه يباشر سيطرة يومية مطلقة على الحملات العسكرية. إذ إن محمد بن القاسم نادراً ما يتحرك دون أن يكتب إلى سيده وينتظر رده، الذى كان يأتى دائماً بسرعة لا تتناسب مع الظروف آنذاك صحبة البريد. وفى إحدى المناسبات يصف النص الحجاج وهو يأمر محمد بن القاسم بأن يرسم خريطة لنهر الهندوس حتى يمكنه تقديم المشورة عن المكان المناسب لعبوره^(٥). ومن الواضح أن ما يراد توصيله للقارئ هى السلطة التى كان الحجاج يمارسها على قادته فى الميدان. أما الموضوع الثانى فهو دور العرافين والحكماء ، الذين يخبرون أمراء السند باستمرار بأن الفتوح العربية كان قد تم التنبؤ بها وأن ليس هناك ما يمكن عمله لمنعها. وتحتوى الشاشنامه على بعض المادة التى قيل إنها كانت محفوظة فيما بين سلالة الفاتحين العرب الأصليين والتى ربما كانت مادة حقيقية ، وبعض الشعر العربى الذى لم تتم ترجمته إلى الفارسية مع بقية الكتاب. وهذا أيضاً ربما كان فى أصله راجعاً إلى القرن الثامن الميلادى/الثانى الهجرى.

ولم تقدم الآثار الكثير من الأدلة ، بل إن مكان بعض المواقع الرئيسية ، مثل الدُيبل، التي كانت لا تزال مزدهرة في القرن الثالث عشر الميلادي/السابع الهجري ، تظل موضع شك. وباستثناء ملتان ونيرون ، لم تحتفظ أى من المدن التي ورد ذكرها في النصوص الباكرا بأسمائها حتى العصور الحديثة، ومن ثم فإن تحديد الأسماء غالباً ما يكون محل شك.

وكانت للعرب اتصالات مع السند، قبل الإسلام . ففي العصور الساسانية الأخيرة كانت هناك تجارة متنامية عن طريق البحر بين الخليج والسند وكانت هناك مجموعة من العرب لهم أهمية خاصة في تطور هذه التجارة . وربما كانت قبيلة الأزدي في عمان بعيدة عن مراكز السلطة الإسلامية الباكرا في الحجاز ولكنهم كانوا في مكان جيد يسمح لهم بأن يلعبوا دوراً في التجارة البحرية بالمحيط الهندي. وقد اعتنقوا الإسلام ولعبوا دوراً مهماً في فتح فارس وغيرها من المناطق في إيران . وقد شكلوا جماعة ضغط قوية، وأرادوا غزو السند لتوسيع تطلعاتهم التجارية.

وقد وُصفت السند في هذه المرحلة بأنها «الحدود المتوحشة للحضارة الهندية»^(٦) ولكنها كانت بالنسبة للمسلمين الأوائل أرض الذهب والتجارة ، أرض الدواء والأعشاب الطبية ، أرض الحلوى والسلوى، والأرز والموز والأشياء العجيبة^(٧). وقد أخذت اسمها من الكلمة السنسكريتية «سندهو»، وهو اسم النهر المعروف في الغرب باسم نهر الهندوس والذي يعرفه العرب باسم مهران. والسند خلقها نهر الهندوس بالطريقة نفسها التي خلق نهر النيل مصر ، وقد أدرك الجغرافيون العرب في القرن العاشر الميلادي/الرابع الهجري هذا التشابه، وكتب ابن حوقل يقول إنه نهر كبير حلو المياه، ويوجد فيه التمساح ، مثل النيل، وهو يشبه نهر النيل أيضاً في حجمه وحقيقة أن ارتفاع مستوى مياهه تحددها أمطار الصيف . وينتشر فيضانه فوق الأرض ثم ينسحب بعد أن يخصب الأرض ، تماماً مثل النيل في مصر^(٨).

وفي وقت الغزو الإسلامي، كانت المناطق المستقرة من البلاد تحت حكم سلالة من الملوك من أصل براهميني. وكانت هذه السلالة قد أسسها شاش (٦٣٢-٦٧١م تقريباً)

وكان يقودها فى أوائل القرن الثامن الميلادى/الثانى الهجرى داهر (٦٧٩-٧١٢م تقريباً) الذى قاد المقاومة ضد المسلمين^(٩). ويبدو أن الملك كان يعيش فى المدينة التى أسماها العرب الرور، وكان الميناء الرئيسى فى مدينة الديبل . وقد أدى تحول مسار دلتا الهندوس إلى صعوبة بالغة فى التعرف على هذا الموقع ، ولكن من الممكن ربطها بأطلال بانبهور التى تقع الآن فى مسطحات ملح منعزلة على بعد حوالى كيلو متر من البحر إلى الشرق من كراتشى . وأول ظهور للمدينة كان فى السجل التاريخى للقرن الخامس الميلادى، عندما كانت موقعاً بعيداً فى الإمبراطورية الساسانية . وفى زمن الملك شاش وابنه داهر يبدو أنها كانت قاعدة للقراصنة، الذين يهاجمون التجارة بين الخليج والهند، وكان القضاء على هذه القرصنة أحد أسباب الهجوم الإسلامى^(١٠).

وكانت أجزاء كثيرة من البلاد محتلة بقبائل شبه بدوية مثل الميد والچت ، الذين عرفتهم المصادر الإسلامية باسم الرُط . وقد استعاض الميد عن معيشتهم على الكفاف فى أرضهم المجذبة بالقرصنة ضد السفن التجارية. وكان الرط مزارعين يستخدمون الجواميس فى زراعة أراضى المستنقعات على ضفاف نهر الهندوس ويزرعون قصب السكر. وحسب المصادر الإسلامية، تم نقل بعض الرط إلى جنوب العراق على يدى الشاه الساسانى بهرام جور (٤٢٠-٤٢٨م) لكى يجلب البهجة إلى شعبه بموسيقاهم^(١١).

ووفقاً للتراث العربى كانت هناك خطط لغزو السند منذ سنة ٦٤٤م ، عندما هاجم المسلمون للمرة الأولى ولاية مكران المجاورة ، وربما كانت هناك أيضاً حملات بحرية إلى الهند فى ذلك الوقت . وعلى أية حال، هناك روايات عن أن الخليفين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رفضا السماح بالإغارة فى هذه المنطقة البعيدة والخطيرة ، كما أن الروايات عن الحملات فى القرن السابع الميلادى ربما تكون أسطورية فى جانب كبير منها.

ونقف على أرض تاريخية أكثر رسوخاً مع حملة سنة ٧١٠-٧١٢م . فبحسب كلام البلاذرى كان السبب المباشر لهذه الحملة أن «ملك جزيرة الياقوت» (سرى لانكا)

أرسل إلى الحجاج بن يوسف الثقفي والى العراق والمشرق كله ، بعض النساء ممن كن بنات لتجار مسلمين ماتوا فى بلاده . ويضيف الكاتب ملاحظة أن الجزيرة عُرِفَت باسم جزيرة الياقوت «... وإنما سميت هذه الجزيرة جزيرة الياقوت لحسن وجوه نساؤها...»^(١٢) وفى أثناء الرحلة، تعرضت السفينة لهجوم بعض قراصنة الميد الذين أبحروا من الديبل وتم الاستيلاء عليها وعلى جميع ركبائها . وقيل إن واحدة من هاته النسوة صرخت منادية باسم الحجاج ، وعندما سمع بخبر الهجوم صمم على أن يبادر بالعمل .

وفى البداية كتب إلى داهر ، الملك ، يأمره بأن يطلق سراحهن ، ولكن الملك أجاب بأن لاسيطرة له على القراصنة الذين أسروهن وأنه عاجز عن تقديم المساعدة. وعندئذ أرسل الحجاج حملتين صغيرتين، ولكنهما لقيتا الهزيمة وقتل القائدان . وقرر عندها أن يرسل حملة أكبر . واختار لقيادتها ابن عم شاب له يسمى محمد بن القاسم الثقفي (من قبيلة ثقيف من الطائف أصلاً) . وكان محمد إلى حد ما صبيها ذهبيا ووصف بأنه «أنبل ثقفى فى زمنه»^(١٣). وقيل إنه عين فى قيادة عليا وهو فى سن السابعة عشرة ولكنه برهن على أنه قائد كفء وحاكم متسامح حكيم . وقد تركت حياته القصيرة التى مرت كالشهاب ونهايته المأساوية ذكرى دائمة فى كل من السند والأراضى الإسلامية المركزية . وقد أمره الحجاج بأن يجمع جيشا فى مدينة شيراز التى تأسست حديثاً فى جنوب غرب إيران ؛ وتم إرسال ستة آلاف من الجنود المحترفين من بلاد الشام لكي يشكلوا قلب الجيش وأرسل إليه كل المعدات «حتى الإبر والخيط» . وعندما تم تجهيز كل شىء ، انطلقوا على طول الطريق البرى عبر جنوب إيران ثم إلى داخل مكران واستولوا فى طريقهم على مدينة فنزبور . وفى الوقت نفسه تم إرسال السفن بالرجال والأسلحة والإمدادات .

وتقابلت القوى خارج الديبل، وبدأ محمد فى الحال يحاصر المدينة، ويحفر لأعمال الحصار. وأمر بإقامة رماح برايات القبائل تخفق عليها وأن تعسكر القوات إلى جانب راياتها . كما أنه أقام منجنيق يخدم عليه خمسمائة رجل، وكان اسمه العروس. ويوحى هذا بألة حصار كبيرة تعمل باليد، وهو مثال من الأمثلة القليلة جداً التى لدينا عن استخدام القوات الإسلامية لآلات الحصار والمنجنيقات فى أثناء حركة الفتوح.

وكانت إحدى السمات الأساسية للمدينة وجود معبد وُصف بأنه «بُد» ، يشبه منارة كبيرة في وسط المدينة؛ وربما كان هذا معبداً بوذياً (ستوبيا) . وعلى قمة المعبد كان ثمة صارى (دقل) يرفرف منه علم أحمر كبير ويلتوى في الهواء. وصار هذا الصارى هدف المنجنيق وعندما تم إسقاطه انهارت المعنويات داخل المدينة . وأمر محمد بن القاسم بوضع السلالم وسرعان ما تسلقها رجاله ليركبوا السور، ثم استولوا على المدينة عنوة^(١٤). وهرب الوالى الذى عينه داهر تحت ستار الليل. وأبيحت المدينة ثلاثة أيام للقتل وتم ذبح جميع الكهنة فى أثنائها إلى جانب آخرين. ثم أمر محمد بن القاسم ببناء مسجد كما خصص الخطط لتوطين أربعة آلاف مسلم .

وفى ذلك الحين شق محمد بن القاسم طريقه داخل البلاد نحو مدينة نيرون الحصينة قرب ضفاف نهر الهندوس . وهناك قابله اثنان من الرهبان البوذيين^(١٥) وبدأت المفاوضات وعقدا الصلح معه كما رحبا به وأعطياه المؤن^(١٦). وبينما كان يحث الخطى باتجاه النهر، كان الأمر يتكرر، وكان الرهبان البوذيون يتصرفون فى كثير من الأحيان باعتبارهم صنّاع سلام . وتروى الشاشنامة^(١٧) أن مدينة سيويستان عانت بسبب الانقسامات بين أهلها . ففى ناحية كان الفريق البوذى ، وفى الناحية الأخرى كان حاكم القلعة الهندوسى ، وأخبر البوذيون قائد القلعة أنهم لن يحاربوا «إن ديانتنا ديانة سلام»، ومذهبنا النية الحسنة تجاه الجميع. ولن نكون مع إراقة الدماء أبداً» وأضافوا أنهم يخشون من أن يعتبرهم العرب من أنصار الحاكم فيها جموهم ، وحثّوه على الصلح مع العرب «إذ يقال إنهم يوفون بكلمتهم ، وإنهم يفعلون ما يقولون» . وعندما رفض الحاكم الاستماع إلى نصيحتهم أرسلوا إلى العرب يقولون إن كافة الفلاحين والصنّاع وعامة الناس قد انفضوا عن الحاكم وأنه لا يستطيع الاستمرار فى المقاومة كثيراً . وصمدت القلعة أسبوعاً قبل أن يهرب قائدها فى ظلام الليل. ودخل المسلمون المدينة التى تمت استباحتها حسب العادة، ولكن ممتلكات الفريق البوذى حظيت بالاحترام. وكما هو الحال مع الشاشنامة دائماً ، يصعب فصل الحقيقة عن الخيال، ولكن الرواية توحى فعلاً بأن نزعة المسالمة البوذية ربما كانت من عوامل نجاح الجيوش العربية ، كما أن الانقسام بين الناس العاديين من جهة والطبقة العسكرية الهندوسية من جهة أخرى أتاح للمسلمين الاستيلاء على بعض المدن بسهولة نسبية.

وكان فى أثناء هذا الزحف أن انضم إلى محمد بن القاسم أربعة آلاف من أبناء قبائل الرُّط، مما زاد فى قواته زيادة كبيرة.

وبقى داهر زعيماً للمقاومة . أما محمد بن القاسم على الضفة الغربية لنهر الهندوس فقد واجهه عبر النهر^(١٨). تقدم الشاشنامة رواية مفصلة تبين كيف أن محمد عبر النهر لى يهاجم داهر^(١٩). وقرر أن يبنى جسراً من القوارب وجميع القوارب المملوءة بالرمال والحصى والحجارة التى رُبِطت معاً مع الألواح المتصلة . وفى الوقت نفسه ، تجمع أنصار داهر على الضفة الشرقية للنهر لى يعترضوا نزولهم . وأمر محمد بأن تحضر جميع القوارب سوياً بامتداد الضفة الغربية حتى يصل طول صف القوارب إلى مثل عرض النهر. ثم تجمع الجنود الشجعان المسلحون فوق القوارب وقاموا بتطويق صف القوارب حتى وصل الضفة الأخرى. وفى الحال ساق العرب أمامهم قوات الكفار بزخات من السهام وهبط الفرسان والرجالة على الضفة .

وقد خصص البلاذرى للمواجهة النهائية بين محمد بن القاسم وداهر سطوراً موجزة قليلة ولكن الشاشنامة وصفتها بمصطلحات درامية . كان الجيش السندى مكوناً من خمسة آلاف محارب محنك (أو عشرين ألفاً من الجنود المشاة) وستين فيلاً. وكان داهر يركب فيلاً أبيض مسلحاً بقوس مشدود جيداً ، ومعه جاريتان فى الهودج ، إحداهما تناوله ورق التنبول لى يمضغه ، والثانية تمده بالسهم باستمرار . وألقيت خطب على الجانبين ووردت أسماء محاربين عرب كثيرين، وهى علامة أكيدة على أن هذا الجزء من الشاشنامة على الأقل قام على أساس أصل عربى. كما نعرف أيضاً كيف أن العرب الذين كانوا قد انضموا من قبل إلى قوات داهر، ولأسباب غير مفهومة، جاءوا آنذاك إلى محمد بن القاسم ليقدموا له معلومات حيوية عن تحركات خصمه . وفى القتال العنيف الذى أعقب ذلك ، استخدم المسلمون سهماً ملتهبة لإشعال النار فى الهودج الذى كان داهر يحارب من داخله وقذف الفيل نفسه فى الماء. وقبض على داهر وقُطعت رأسه، وقد تعرفت على جثته الجاريتان اللتان كانتا معه فى الهودج . ويحتفظ المؤرخ المدائنى قصيدة عن النصر قيل إن العربى الذى قتله أنشدها :

الخيل تشهد يوم داهـ والقنا
ومحمد بن القاسم بن محمد
أنى فرجت الجمع غير معـرد
حتى علوت عظيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج مجدلاً
متعفر الخدين غير مؤسد (٢٠)(*)

كانت هزيمة داهـ وموته تعنى نهاية المقاومة المنظمة . وانتحرت نسوة كثيرات من حريم داهـ ، وأحرقن أنفسهن ، وخدمهن وكافة ما يملكن ، بدلاً من الوقوع فى الأسر . وتضع الشاشنامة خطبة قصيرة على لسان أخت الملك الصريح : «لقد ذهب مجدنا كما أن مشوار حياتنا قد انتهى، وطالما أنه لا أمل فى السلامة والحرية، فلنجمع الحطب والقطن والزيت . إن أفضل شيء لنا ، فيما أظن، أن نحرق أنفسنا لنصير رماداً ونقابل أزواجنا بسرعة فى العالم الآخر»^(٢١) . ويدخل جميعاً فى أحد البيوت ، وأشعلن النار به ليحترقن وهن أحياء . وعلى الرغم من هذه التضحية بالنفس، تقول الشاشنامة إن كثيراً من نساء الطبقة العليا ذوات الجمال الرائع قد أرسلن إلى الحجاج بن يوسف الثقفى فى بغداد . وقد أرسلهن بدوره إلى بلاط الخليفة، حيث تم بيعهن أو منحهن للأقارب المفضلين والأتباع المقربين . أما بقايا قوات داهـ فقد استمرت مطاردتهم حتى برهمنا باز ، بالقرب من المكان الذى بنيت فيه مدينة المنصورة الإسلامية فيما بعد ، وهناك تمت هزيمتهم للمرة الثانية، وتحفظ الشاشنامة رواية عن تعاملات محمد بن القاسم مع سكان برهمنا باز وهو ما قد يعكس الكثير من المسائل التى أثارها الفتح الإسلامى . إذ كانت استجابته المباشرة متمثلة فى الحفاظ على جميع الصنائع والحرفيين وعامة الناس وإعدام الطبقات العسكرية^(٢٢) . ولم يلبث أن أدرك الحاجة إلى تجنيد موظفين محليين فى الإدارة . وكانت حركته الأولى أن يقود إحصاء عاماً للتجار والصنائع الذين اعتنقوا الإسلام أو أجبروا على دفع الجزية . وبعد ذلك عين رؤساء للقرى لجباية الضرائب . وفى الوقت نفسه سعى البرهمانيون إلى تأمين مكانتهم فى ظل النظام الجديد . فجاءوا إلى محمد بن القاسم وقد حلقوا رؤوسهم ولحاهم ، علامة على

(*) البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٤٢٢ .

الخصوع ، وتوسلوا إليه. وفي البداية ضمنوا الأمان لكل من بقى من عائلة داهر، بما فيهم زوجته لادى التى أخرجت من حجرتها الداخلية . وقيل إن محمد بن القاسم اشتراها وصارت زوجته^(٢٣). ومن المثير أن نقارن هذا بالزواج المعاصر لابن موسى بن نصير ، فاتح الأندلس ، بابنة رودريجو Rodrigo (لذريق) ملك الفيزيقوط. ففى كل من الحالتين كان الفاتحون العرب يسعون إلى التحالف مع البيوت الحاكمة القديمة، ربما على أمل أن نسلهم سوف يصيرون حكاماً وراثيين. وفى كل من الحالتين، على أية حال، كان يعوقهم التصرف العنيف من جانب الحكومة فى دمشق.

ثم شرح البرهمانيون كيف أنهم كانوا يحظون بتشريف واحترام كبير فى المملكة القديمة . وقال محمد بن القاسم إنه ينبغي السماح لهم بالمزايا نفسها والمكانة نفسها التى كانوا يتمتعون بها تحت حكم الملك شاش أبى داهر . ويجب أن تورث هذه المكانة إلى أبنائهم . وبعد ذلك انشتر البراهمانيون ليكونوا جباة العوائد . وتم السماح لهم بالاحتفاظ بحقوقهم المعتادة من التجار والصناع .

ورُفعت شكاوى كثيرة من جانب القائمين على المعابد البوذية^(٢٤). وكانوا قبل ذلك يعيشون على الهبات الخيرية ولكن هذه كانت قد توقفت لأن الناس كانوا خائفين من الجنود المسلمين . وقد قالوا فى حزن «الآن معابدنا مهجورة خاوية على عروشها وليست لدينا فرصة لعبادة آلهتنا . ونحن نلتمس من حاكمنا العادل أن يسمح لنا بأن نصلح معابدنا البوذية ونبنينا ونمارس عبادتنا مثلما كان يحدث من قبل» وكتب محمد بن القاسم إلى الحجاج الذى أجاب بأنهم ما داموا يدفعون ما عليهم من الجزية ، فليست للمسلمين عليهم أى حقوق أخرى، ولذلك يجب السماح لهم بالحفاظ على معابدهم كما كان الحال من قبل. وفى اجتماع عقد خارج المدينة تماما، جمع محمد بن القاسم جميع رؤسائهم، وأعيانهم والبراهمة وسمح لهم ببناء معابدهم والتجارة مع المسلمين. كما أنه أخبرهم لكى يظهر عطفه على البراهمة أن يحتفلوا بأعيادهم مثلما كان آبائهم وأجدادهم يفعلون من قبل، وربما كان الأهم من هذا كله ، أن يتم دفع ثلاثة بالمائة من الأموال التى تمت جبايتها إلى البراهمة وإرسال الباقي إلى بيت المال . كذلك استقر

الأمر على أن يتم السماح للبراهمة (يفترض أنهم كانوا أولئك الذين لم يفيدوا من عوائد الضرائب) أن يتجولوا للتسول من باب إلى باب ومعهم الأواني النحاسية ، بحيث يجمعون الذرة ويستخدمونها حسبما شاؤوا .

كانت هناك مشكلة أخرى تتعلق بمكانة الجات^(٢٥) . فقد وصف مستشارو محمد بن القاسم حالتهم المدنية وكيف كانت تمارس التفرقة والتمييز ضدهم فى عهد الملك شاش : إذ كان عليهم أن يرتدوا الثياب الخشنة ؛ فإذا ركبوا الخيول لم يكن من حقهم استخدام السروج أو الأعنة وإنما يستخدمون اللبود فحسب ؛ وكان عليهم أن يأخذوا الكلاب معهم بحيث يمكن تمييزهم؛ وكانوا ملزمين بأن يساعدوا بالعمل مرشدين وأدلاء للمسافرين ليلاً ونهاراً ؛ فإذا ما ارتكب أحدهم جريمة السرقة ، كان لابد من إلقاء أولاده وبقيّة عائلته فى النار وإحراقهم . وياختصار «فإنهم جميعاً لهم الطبيعة الوحشية للبهائم . وكانوا دائماً مشاغبين وغير مطيعين للحكام كما أنهم يرتكبون باستمرار جرائم قطع الطريق على المسافرين » واقتنع محمد بن القاسم فى سهولة أنهم «جماعة من الناس يتسمون بالخسة والحقارة» وأنهم يجب أن يعاملوا بناء على هذا .

وهذه المناقشات مثيرة للغاية ، ليس لأنها بالضرورة تسجيل دقيق لما حدث ولكن لما تخبرنا به عن الاستيطان الإسلامى وكيف كان فى رأى الناس . وعند المستوى الأكثر وضوحاً ، توضح كيف كان المسلمون يتخذون الهيئة الإدارية الموجودة ويتركون البناءات الاجتماعية السائدة على حالها بدرجة كبيرة . وتخدم هذه الروايات غرضين مزدوجين ، فهى تستخدم لتشرح لجمهور المسلمين كيف استمر البراهمة على هذه الدرجة من النفوذ فى ظل الحكم الإسلامى الزاهد ، ولماذا ينبغى التسامح إزاء المعابد . كما أنها كانت تُبين كيف كان ينبغى التسامح إزاء البوذيين والسماح لهم بممارسة ديانتهم . فبالنسبة لجميع غير المسلمين ، أظهرت كيفية قبول مكانتهم من جانب الأب المؤسس للوجود الإسلامى فى السند ، أى محمد بن القاسم ، وناصحه العظيم الحجاج نفسه . أما بالنسبة للجات^(*) التعاء ، فإنها أظهرت ببساطة أن مجئ الإسلام لم يجلب لهم أى نفع على الإطلاق .

(*) الجات ، أو الزُط : طائفة منبوذة فى الهند .

وفى ذلك الحين صار زحف محمد بن القاسم نوعاً من التقدم الظاهر ، وفى نقطة ما كان المسلمون يلقون التحية من الأهالى الذين كانوا يرقصون على أنغام الزامير ودقات الطبول . وعندما سأل محمد بن القاسم عن هذا قيل له إنهم دائماً يحيون حكامهم الجدد بهذه الطريقة^(٢٦). كان الهدف الرئيسى التالى هو الرور، التى وصفت بأنها أكبر مدينة فى السند. وكان ابن داهر المسمى «فوفى» قد حصّن نفسه فى المدينة وعزم على المقاومة . ووفقاً لما جاء فى الشاشنامه^(٢٧) كان فوفى وأهل الرور يعتقدون أن داهر كان لا يزال على قيد الحياة وأنه سرعان ما سيحضر لإنقاذهم . وحتى عندما أظهر محمد بن القاسم أرملته لادى وأكدت لهم أنه مات ، اتهم المدافعون المرأة بأنها تتآمر مع «أكلة البقر» وأكدوا من جديد إيمانهم بأنه سوف يأتى بجيش قوى لإنقاذهم . ووفقاً لهذه الرواية الخيالية ، لم يقتنعوا سوى بشهادة مشعوذة محلية . فعندما استشاروها، انسحبت إلى سكنها ثم ظهرت بعد ساعات قليلة قائلة إنها سافرت فى أرجاء العالم تبحث عن داهر ، وأبرزت إحدى ثمار جوز الطيب من سيلان دليلاً على رحلاتها ، ولكنها لم تعثر له على أثر . هذا الذكاء أقنع كثيراً من السكان بأنهم يجب أن يبدؤوا المفاوضات مع محمد، الذى كان شهرته بالفضيلة والعدل ذائعة فى كل مكان. وفى تلك الليلة تسلل فوفى وحاشيته تحت جناح الليل هاربين، وعندما بدأ العرب يهاجمون المدينة فى اليوم التالى، بدأ التجار والصناع المفاوضات ، قائلين إنهم تخلوا عن ولائهم للبراهمة وأنهم مقتنعون أن قوات الإسلام سوف تنتصر . وتقبل محمد بن القاسم اقتراحاتهم ، بعد أن تلقى تأكيدات بأنهم سوف يمتنعون عن القيام بأى عمليات عسكرية . وتجمع السكان عند ضريح يسمى النوبهار (وهو الاسم نفسه الذى يطلق على المزار البوذى الكبير فى بلخ) وانبطحوا سجداً أمام التمثال المصنوع من الرخام والألبستر. وسأل محمد بن القاسم القيم على المعبد لمن يكون ذلك التمثال . كما أنه أخذ أحد السوارات التى تغطى ذراعى التمثال . ثم ، أظهره وهو يضحك ووضعه ثانية على ذراع التمثال .

وبعد الاستسلام أمر محمد بن القاسم بإعدام عدد من المحاربين، ولكن لادى تدخلت قائلة، «إن الناس فى المدينة كانوا من البنائين العظام والتجار الكبار،

زرعوا أرضهم جيداً كما حافظوا على الخزانة عامرة باستمرار»، ولذلك أبقي محمد على حياتهم . ومرة أخرى تشير الرواية إلى المواءمات والعلاقات التي تم بناؤها مع حركة الفتوح : إذ لم يُمسَّ المعبد بسوء كما أن معيشة السكان بقيت على حالها . وتم الاحتفال بالفتح العربى، ليس بسبب حماسته فى فرض المثل والقيم الإسلامية بأسلوب جامد، وإنما بسبب تسامحه وروحه السمحة . وهذا يتناقض أيضا بشكل واضح مع تدمير المعابد والأشخاص الدينيين فى أثناء الفتح العربى لبلاد ما وراء النهر فى الوقت نفسه . ومن الصعب أن نعرف ما إذا كان هذا نتيجة المسلك السلمى للبوذيين أم أنه كان ببساطة لأن المسلمين كان عددهم قليلاً بالقدر الذى لم يكن يسمح لهم بتحدى العادات الموجودة . وعندما خضعت المدينة تماماً ، ترك محمد بن القاسم، اثنين من أتباعه العرب لتولى المسئولية ، وحثهم على أن يتعاملوا برفق مع الناس وينظروا فى مصالحهم.

وسقطت المدينة الكبيرة الأخرى، الملتان ، بعد ذلك بسرعة . وكان الفتح الذى أسماه العرب الظافرون «فرج بيت الذهب» ، أقصى نقطة وصل إليها تقدم المسلمين فى هذه المرحلة. كانت المدينة غنية وكان المعبد (البُدْ) بها مزاراً رئيسياً من مزارات الحج البوذى . وقد أبدى السكان مقاومة عنيدة ونفدت إمدادات المحاصرين المسلمين إلى درجة كبيرة، حتى اضطروا إلى أكل حميرهم . ثم جاءت النهاية عندما أطلعهم البعض على الكيفية التى كانت مياه الشرب تدخل بها إلى المدينة وتمكنوا من قطعها . واستسلم الناس دونما شروط. وتم قتل جميع الرجال فى سن القتال والكهنة وسُبيت النساء والأطفال. وحصل المسلمون على كميات هائلة من الذهب^(٢٨). ومن الغريب والمثير أن هناك حكاية قديمة ماثورة عن أن خالد بن الوليد، المعروف فى التاريخ بأنه فاتح الشام، مدفون فى الملتان ومقبرته المفترضة أقدم مبنى إسلامى بالمدينة.

وقد ضعت الفتوح فى الهند نوعاً جديداً من المشكلات أمام المنتصرين. ففى معظم البلاد التى فتحها المسلمون الأوائل، كانت غالبية السكان يمكن اعتبارهم من «أهل الكتاب»، وهو ما كان يعنى أنه يمكنهم الحفاظ على حياتهم وممتلكاتهم وممارساتهم الدينية طالما كانوا يتقبلون الحكم الإسلامى ومكانتهم باعتبارهم «من أهل الكتاب» أيضاً.

وكانت المشكلة فى السند أن معظم السكان كانوا إما من البوذيين أو الهندوس ، ولهم صورهم وتمثيلهم الكثيرة، ولم يكونوا أكثر من عبدة أصنام بوضوح وبساطة ، وكان يمكنهم القضاء عليهم إذا لم يعتقدوا الإسلام. وسرعان ما أضفى الفاتحون العرب فى السند على حماساتهم الدينية قدراً من (البرجماتية) النفعية . وقيل إن محمد بن القاسم بعد أن استولى على الرور، قال بعقلانية إن البُد مثل كنائس النصارى، ومعابد اليهود وبيوت النار المجوسية، ويجب احترامها بالطريقة نفسها. ومن الناحية العملية كان معنى هذا أنه ينبغي قبول الهندس والبوذيين باعتبارهم من أهل الذمة . وفى كثير من الحالات استمر الرهبان البوذيون والبراهمة يديرون الإدارة المحلية لسادتهم المسلمين الجدد.

لقد وصلت الفتوح الأولية إلى منتهاها بصورة مفاجئة بسبب الأحداث التى جرت فى قلب العالم الإسلامى. ففى سنة ٧١٥ م ، عندما كان محمد بن القاسم قد أمضى فى السند ثلاث سنوات ونصف ، حدث تغير كبير فى الحكم . ذلك أن الحجاج بن يوسف الثقفى، قريبه وحاميه، كان قد مات سنة ٧١٤م وتبعه الخليفة الوليد بن عبد الملك فى السنة التالية. وصحب ارتقاء سليمان بن عبد الملك عرش الخلافة الأموية رد فعل عنيفاً تجاه الحجاج وموظفيه وصدرت الأوامر لـ محمد بن القاسم بالعودة إلى العراق حيث سجنه والى الجديد وعذبه، ولم يلبث أن مات فى سجنه. وكان يستحق ما هو أفضل. وهو مثل معاصريه قتيبة بن مسلم فى خراسان، وموسى بن نصير فى إسبانيا، اكتشف أن إنجازاته فى خدمة الإسلام لم تكن لتحميه من المنافسات.

كان خلع محمد بن القاسم من منصبه علامة النهاية الفعلية للحملات النشطة. ففى الفترة القصيرة التى أمضاها فى الحكم ، كان قد أرسى أسس التوغل الإسلامى فى شبه القارة الهندية. فقد كان قد وضع الإطار الشرعى والسوابق التى أتاحت للمسلمين فيما بعد أن يعيشوا فى سلام مع البوذيين والهندوس. وإذا ما قورن بالغزاة الذين جاءوا من بعده لغزو شبه القارة الهندية مثل محمود الغزنوى فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى/ الخامس الهجرى، فإنه ترك وراءه سيرة تتصف بالاعتدال والإنسانية والتسامح، وبكى الأهالى بسبب ما لحقه من الإهانة^(٢٩). كما أنه جمع مبلغاً

طائلاً من المال . ويُحكى أن الحجاج عمل موازنة بسيطة لتكاليف الحملة كلها . وحسب أنه أنفق ٦٠ مليون درهم لتجهيز القوات ودفع مرتبات جنود محمد بن القاسم ، ولكن نصيبه من الفيئ بلغ ١٢٠ مليون درهم ، وهو مكسب ضخم بأى مقياس^(٣٠) . وربما كانت هناك مبالغة فى الأرقام كالعادة ، بيد أن هذا هو السجل الوحيد لدينا عن أحد يحاول القيام بعملية حسابية كهذه فى تاريخ الفتوح الإسلامية كله . ويوضح المبلغ أن مثل هذه الحملات كان يمكن أن تدر عوائد كثيرة .

فى ذلك الحين كان العرب قد امتلكوا معظم وادى الهندوس الأدنى . وقُيِّض للمنطقة من المُلتان جنوباً حتى مصب النهر أن تكون حدود الاستقرار الإسلامى فى شبه القارة الهندية . وكانت تفصلها عن بقية الهند الصحراء التى تفصل الآن بين الهند وباكستان شرق نهر الهندوس . وإلى شمال المُلتان ، كانت البنجاب خارج السيطرة الإسلامية حتى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، حين قام الغزنويون من شرق أفغانستان بتوسيع نطاق الحكم الإسلامى صوب الشمال والشرق .

وثمة حاشية مثيرة على الفتح العربى للمسند فكما رأينا ، كان بعض الزُط قد استقروا فعلاً فى العراق قبل قدوم الإسلام . ويبدو أن المزيد منهم وصلوا نتيجة دخول المسلمين فى وطنهم بوادى نهر الهندوس . وسرعان ما نقل الخليفة الأموى بعضهم إلى السهول الحارة حول أنطاكية فى شمال بلاد الشام ، ومعهم جواميسهم . وتم أسر بعض هؤلاء الذين كانوا شمال الشام فى غارة بيزنطية على عين زربة وأخذوا بعيداً ومعهم نساؤهم وأطفالهم وجواميسهم الغالية . والغجر فى إسمهم اليونانى آتسينجانوى Atsinganoi يظهرون فى جوار القسطنطينية فى القرن الحادى عشر . وقد بقى زط العراق عنصراً قلقاً من عناصر السكان المحليين ، ولكنهم اختفوا من التاريخ فى سنة ١٠٠٠م . وفى سنة ١٩٠٣م ، نشر المستشرق الألمانى العظيم دى جويجى موضوعاً اقترح فيه أن هؤلاء الزط كانوا على الأقل أصل بعض الغجر فى أوربا الحديثة^(٣١) . ومن الواضح أن لغة الغجر ترجع فى أصلها إلى شمال غرب الهند ، وربما كانوا قد هاجروا من بلاد الشام عبر الإمبراطورية البيزنطية إلى البلقان ، حيث يظهرون للمرة الأولى فى القرن الخامس عشر . وعلى أية حال ، ليس هناك دليل مباشر على هذا ، وتبقى النظرية مجرد تأملات استفهامية لا أكثر .

إسبانيا والبرتغال

كان فتح إسبانيا والبرتغال ، المعروفة فى النصوص العربية باسم الأندلس ، وهى كلمة تبقى أصولها غير واضحة تماماً ، سريعاً للغاية . ففى البداية عبرت قوات إسلامية كبيرة مضيق جبل طارق فى سنة ٧١١ م ، ويحطول سنة ٧١٦ م كان معظم شبه جزيرة أيبيريا تحت الحكم الإسلامى بشكل أو بآخر . ولاتكاد المؤرخات الكبرى التى تشكل الأساس لفهم تكوين الدولة الإسلامية فى الشرق الأوسط تذكر شيئاً عن الأحداث التى جرت فى شبه الجزيرة الأيبيرية. وكان التراث التاريخى العربى الأندلسى بطيئاً فى انطلاقه . وهناك بعض المادة المبعثرة ، ولاسيما كتاب المؤرخ المصرى عبد الرحمن بن عبد الحكم، من القرن التاسع الميلادى/الثالث الهجرى، ولكن لم يحدث حتى القرن العاشر الميلادى/الرابع الهجرى، أى بعد مائتى سنة من الغزو الأصبلى، أن بُذلت محاولة، من جانب مهاجر فارسى اسمه الرازى، لجمع الماثورات، والمذكرات والأساطير المتعلقة بالفتح ثم يرتبها على شكل مؤرخة . وليس من المدهش أن الروايات تخلو من التفاصيل المحددة وتغص بالأساطير والارتباك . ويمكن مقارنة المصادر العربية بما يسمى مؤرخة ٧٥٤م ، وضبطها عليها ، وهى تحمل اسم السنة التى حدث فى أثنائها موضوعها الأخير. ويقدم هذا الكتاب اللاتينى القصير سرداً للخطوط العريضة . وربما تم تأليفها فى قرطبة ، ويحتمل أن مؤلفها كان مسيحياً يعمل موظفاً فى الإدارة الإسلامية المحلية. ورواية الفتح الإسلام عبارة عن سرد واقعى بشكل غريب ويهتم اهتماماً يكاد يكون تاماً بالأمور العلمانية . ولا يذكر فى أية مرحلة أن الغزاة كانوا مسلمين أو أنهم كانوا أصحاب ديانة مختلفة عن ديانة أهل إسبانيا .

وفى السنة نفسها التى كان محمد بن القاسم يستولى على الديبل ويشق طريقه صاعداً فى وادى الهندوس ، كان قائد البربر فى موقع طنجة الإسلامى، طارق بن زياد، يضع الخطط لكى يقود رجاله عبر مضيق جبل طارق إلى جنوب إسبانيا . ولاغربة فى أنه كان ينظر فى هذا الاتجاه - صخرة جبل طارق^(٣٧) والتلال وراء جزيرة

طريقة يمكن رؤيتها بوضوح من الشاطئ الأفريقي. ولابد أن مشهد الغزو والغنائم كان مغرياً تماماً ، وكان هناك كثير من البربر الذين اعتنقوا الإسلام منذ وقت قريب وكانوا يأملون فى الإفادة من مكانتهم الجديدة باعتبارهم غزاة فاتحين لا مقهورين.

وربما كان طارق مدركاً أنه كانت هناك منذ وقت قريب هبة سياسية رئيسية فى مملكة الفيزيقوط فى إسبانيا . وكان الفيزيقوط قد فتحوا شبه جزيرة أيبيريا فى القرن الخامس الميلادى . ومن عاصمتهم فى طليطلة كانوا قد حكموا واحدة من أكثر الممالك الجرمانية ، التى كانت قد استولت على الأراضى من الإمبراطورية الرومانية الغربية نجاحاً . وعلى الرغم من أن المملكة كانت موجودة على مدى ما يقرب من ثلاثة قرون، لا يوجد هناك مؤشر على أنها كانت ضعيفة أو متدهورة. حقاً كانت المدن صغيرة وغير متطورة نسبياً وأن الكثير من مناطق الريف كانت نادرة السكان فيما يبدو، ولكن الملكية كانت قوية وناجحة ولم يكن ثمة تقاليد للتمرد الداخلى أو الحركات الانفصالية . وكانت الكنيسة راسخة تماماً وعقدت سلسلة طويلة من المجمع الكنسية فى طليطلة لتشهد على حيوية تنظيمها وأنشطتها .

وعلى السطح، كانت فكرة أن مجموعة صغيرة من البربر ومعهم عدد قليل من الضباط العرب، تمكنوا من مهاجمة هذه الدولة القوية وتدميرها غير مفهومة بالمرّة . كانت المملكة تمر بأزمة قصيرة المدى، على أية حال. ففى سنة ٧١٠م كان الملك فيتيزا غيطشة قد مات . وكان قد ترك أبناء بالغين، ولكن لأسباب لانفهمها تماماً استولى رودريجو على العرش، وهو نبيل ربما كان من أقارب البيت الملكى وربما لم يكن قريباً له. وكان أبناء Wilitza (غيطشة) وأصدقائهم وحلفائهم أقوياء ومستائين . ولم يكن لدى رودريجو وقت لتوطيد سلطته قبل أن يقوم المسلمون بغزوهم . وكان لطارق بن زياد أيضاً أسباب أكثر مباشرة تدعوه إلى التخطيط للغزو وكان الرجال الذين تولى قيادتهم فى أغلبهم من البربر الذين كانوا قد انضموا إلى الجيش الإسلامى فى السنوات القليلة السابقة . ومن غير المحتمل تماماً أنه كان هناك أى نظام منتظم للدفع لمكافأتهم على

ولأنهم للديانة الجديدة(*) . وكان عليه لكى يحتفظ بولأنهم أن يجد بسرعة مصدراً للدخل . وكانت إسبانيا المنطقة الواضحة التي يمكن أن يفعل فيها هذا .

وفى تاريخ ابن عبد الحكم^(٣٣)، أول المؤلفات العربية التي وصفت الفتح، يتم إبراز قصة جوليان بشكل كبير . ويقال إن هذا الشخص الغامض كان سيد سبته ، وهى ميناء شرق طنجة تماماً ، وربما كانت لا تزال تحت السيادة البيزنطية . ووفقاً لرواية ابن عبد الحكم «راسل طارق يُلِيان ولاطفه حتى تهاديا . وكان يُلِيان قد بعث بابنته إلى لُذريق (رودريجو) صاحب الأندلس، ليؤدبها ويعلمها فأحبها ، فبلغ ذلك يُلِيان ؛ فقال : لا أرى له عقوبة ولا مكافأة إلا أن أدخل عليه العرب...»^(*) ثم يستمر بعد ذلك ليصف كيف نقل يُلِيان بعض رجاله ذات مساء وأرسل سفنه مرة أخرى إلى الساحل الأفريقى لتحضر المزيد منهم فى المرة التالية. ولم يلق الناس على الجانب الإسبانى بالأل لأن السفن كانت تشبه تماماً سفن التجارة التي كانت غالباً ما تذرع المضيق ذهاباً وإياباً . وجاء طارق فى السفينة الأخيرة وبقي الأسطول بالجزيرة الخضراء على حين زحف الجيش الإسلامى شمالاً ، تحسباً لأى طارئ قد يستدعى إنقاذهم . ومن المستحيل أن نعرف مدى الحقيقة فى القصة أو ما إذا كان هناك فعلاً من يسمى «يُلِيان (جوليان) . وعلى أية على أية حال، فإنها لاتخرج عن الرصيد المعتاد لسرديات الفتح العربية، وربما تعكس حقيقة السخط المنتشر تجاه حكم رودريجو (لذريق).

وربما حدث فى أبريل أو مايو سنة ٧١١م أن وضع طارق القوة الصغيرة التى يقودها على متن السفن ليعبر بهم المضيق . وليس من المحتمل أن تكون القوة مؤلفة من أكثر من سبعة آلاف رجل، كانت بينهم أقلية صغيرة من العرب. وربما كان الهدف

(*) من حين لآخر يجنح المؤلف إلى هذه التفسيرات الأحادية التى تختزل السببية التاريخية فى الرغبة الجامحة للحصول على الأسلاب والغنائم ؛ وهو أمر يدعو للدهشة خاصة وأن المؤلف أستاذ عارف ، وباحث متمكن من مادته . ومن ناحية أخرى يتجاهل المؤلف الدوافع الأخرى التى كانت تتراوح بين المثالية الدينية والمطامع الدنيوية، وما بين الأسباب العامة والأسباب الشخصية لدى آلاف البشر الذين ضمتهم هذه الجيوش . وليس من المعقول أو المقبول علمياً أن نتصور أن هذه الجموع كانت تتحرك بدافع واحد فقط، ولكن يبدو أن المؤلف يريد أن يترك انطباعاً واحداً وحيداً لدى قرائه. (المترجم)

ببساطة شن غارة للنهب على نطاق واسع. وما إن عبر المسلمون حتى تمكنوا من أخذ «الجزيرة الخضراء»، حيث يقع ميناء Algeciras اليوم. وكان لهذه الميناء أن تصير قاعدة لهم لكى تتيح لهم أيضا فرصة التراجع إلى الساحل الأفرىقى إذا ما ساءت الأمور.

كان رودريجو فى حملة عسكرية ضد عصيان الباسك فى أقصى شمال مملكته . وعندما سمع عن الإغارة الإسلامية ، أسرع عائداً إلى الجنوب ، وتوقف فى مقر إقامته بقرطبة ليجمع المزيد من الرجال . ومثل هارولد ملك ملك إنجلترا والأنجلو سكسون فى معركة هاستنجز فى سنة ١٠٦٦م، لابد أن جيشه كان مرهقاً بسبب طول المسير لمواجهة الغزاة . وتابع طارق سياسة حذرة. فبدلاً من الاندفاع لمهاجمة إشبيلية أو وادى النهر الكبير Guadalquivir، استمر قريباً من قاعدته وطلب التعزيزات من إفريقية، ووصل خمسة آلاف من البربر ، مما رفع العدد الكلى إلى حوالى اثنى عشر ألف رجل على ما يبدو. وقيل إنه انضم إليه بعض أنصار أبناء قثيتيزا (غيطشة) ، المعارضين للملك الجديد. ويدور الجدل حول الدور الذى لعبته (المعارضة) الفيزيقوطية. وترى وجهة نظر إسبانية حديثة أنهم لو كانوا قد ساعدوا المسلمين حقاً ، لكانوا خونة . وهناك رأى آخر يقول إنهم ربما كانوا مثل الكثير من معاصريهم الذين لم يروا فى الغزو الإسلامى سوى غارة قد تستمر طوال الصيف على الأكثر ، ولم يكن بوسعهم أن يعرفوا أن المسلمين سيحكمون أجزاء من شبه جزيرة أيبيريا على مدى السنوات الثمانمئة القادمة.

وربما كان المسلمون قد تلقوا بعض الدعم من الجماعات اليهودية فى شبه جزيرة أيبيريا . وهذه أيضا مسألة خلافية تماماً لها رنين واضح فى الوقت المعاصر . والحقيقة أننا لانملك دليلاً على هذا بالمرّة. ونعرف أن ملوك البقرزيقوط قد أصدروا بأطراد قوانين قاسية معادية لليهود، انتهت بمرسوم يقضى باعتناقهم المسيحية . وكان من الطبيعى أن يرحب اليهود بالمسلمين أملاً فى أن يحرروهم . ولا يوجد ما يشير إلى أن هذا المرسوم قد طبق على الإطلاق ، كما لا يوجد بالمرّة أى دليل على أن اليهود ساندوا المسلمين بشكل فعال فى أى وقت .

وجرت المعركة الحاسمة بالقرب من مدينة سيدونيا الصغيرة، Medina Sidonia وليس معروفاً موقع المعركة بالضبط ولكن هناك اعتقاد شائع أنها وقعت على النهر الصغير Guadalete^(٣٤). والروايات عن هذه المعركة نادرة تماماً. وتلاحظ مؤرخة ٧٥٤م فى بساطة أن «رورديك» (رودريجو) توجه صوب جبال Transductine [وهو موقع غير معلوم] لمحاربة الرجال، وفى المعركة هرب جيش القوط بأجمعه ، وهو الجيش الذى كان قد جاءه بالخدا ع وفى التنافس بسبب الطموح إلى العرش الملكى، ولقى هو مصرعه . وهكذا فقد رورديك ليس حكمه فقط وإنما فقد وطنه أيضاً، كما قتل منافسوه أيضاً»^(٣٥). وتقول المصادر العربية إن المعركة جرت فى ١٩ يوليو ٧١١م، وتقترح مثل مؤرخة ٧٥٤م أن الانقسامات بين صفوف جيش الفيزيقوط أتاحت للمسلمين أن ينتصروا عندما هرب أنصار أخيلاب بن غيطشه^(٣٦).

وإن تكون التفاصيل مؤكدة أبداً ولكن النقطة الأساسية واضحة: أنزل طارق ورجاله هزيمة فادحة بجيش الفيزيقوط ، وقتل الملك وتفرق باقى الجيش فى فوضى.

ثم قاد طارق رجاله إلى الشرق على طول وادى النهر الكبير، قاصداً قرطبة Ecija حيث يعبر الطريق الرومانى نهر Genii ، ليواجه أول مقاومة واستولى على المدينة بالقوة . وبدافع السرعة قسم قواته.

وتم إرسال سبعمائة رجل، كلهم من الفرسان، إلى قرطبة تحت قيادة المولى مغيث. وسقوط قرطبة، التى سرعان ما صارت عاصمة الأندلس، مسجل مع بعض التفاصيل الطرفية ، وربما الخيالية ، فى المصادر العربية^(٣٧). وعندما كان مغيث يقترب من المدينة على امتداد الضفة الجنوبية للنهر الكبير، قبض رجاله على راعى كان يرعى غنمه . وأحضروه إلى المعسكر وبدءوا فى استجوابه . وقال إن المدينة قد هجرها كل الأعيان من سكانها ولا يوجد سوى البطريق (الحاكم) ومعه أربعمائة من الحرس وبعض الضعفاء . وعندما سأله عن الدفاعات قال إنها فى حال جيدة باستثناء ثلثة فوق البوابة التى تؤدى إلى الجسر الرومانى عبر النهر . وفى تلك الليلة قاد مغيث رجاله عبر النهر وحاول تسلق السور بالخطاطيف ، ولكن ثبت استحالة ذلك. ورجعوا إلى الراعى الذى أرشدهم إلى الثمة . وتسلق أحد المسلمين السور وخلع مغيث عمامته واستخدمها

ليسحب بها الآخرين إلى أعلى السور. وسرعان ما كان هناك عدد كبير من المسلمين فوق السور . ثم جاء مغيث إلى بوابة الجسر، التي كانت حطاماً آنذاك ، وأمر رجاله بالإحاطة بالحراس على الأسوار. ثم كسروا الأقفال ولم يلبث مغيث ورجاله أن دخلوا المدينة.

وعندما سمع الحاكم (الذى تسميه هذه الرواية الملك) أنهم قد دخلوا المدينة هرب معه أربعمائة من رجاله شرقاً إلى كنيسة تحصنوا فيها. وفرض مغيث الحصار عليها. واستمرت المقاومة ثلاثة شهور حتى جاء فى أحد الأيام خبر إلى مغيث بأن الحاكم هرب وحده ، قاصداً أن يؤسس معقلاً فى الجبال الواقعة وراء المدينة. وانطلق مغيث يطارده حتى أمسك به بعد أن وقع من على فرسه الذى تعثر فى حفرة . ووجده مغيث جالساً فوق درعه ، ينتظر أسره . ويقول ابن عذارى إنه كان الوحيد الذى تم أسره من بين ملوك الأندلس . أما الآخرون جميعاً فقد عقدوا الصلح أو هربوا إلى الأماكن النائية مثل جليقية . ثم عاد مغيث إلى الكنيسة. وتم إعدام جميع المدافعين ولكن تم الإبقاء على حياة الحاكم حتى يتم إرساله إلى الخليفة فى دمشق.

وتوجه طارق نفسه إلى العاصمة طليطلة . ويبدو أن هذا المدينة كان قد هجرها عدد كبير من سكانها : ووفقاً لمؤرخة ٧٥٤م فإن كبير الأساقفة سيندريد Sindered «فقد أعصابه ومثل المناجور لا الراعى، وعلى العكس من مبادئ الأقدمين، تخلى عن شعب المسيح وتوجه إلى وطنه الرومانى»^(٢٨) ويتمثل إسهام ابن عبد الحكم الوحيد فى تاريخ الاستيلاء على عاصمة الفيزيقيوط فى قصة الحجرة التى عليها الأقفال ، وهى مثل قصة يليان ، وصلتنا فى التاريخ وفى الأسطورة . ووفقاً لهذه القصة كانت هناك حجرة (يفترض أنها طليطلة) «... بيت عليه أقفال، لا يلى ملك منهم إلا زاد عليه قفلاً من عنده، حتى كان الملك الذى دخل عليه المسلمون، فإنهم أرادوا أن يجعل عليه قفلاً كما كانت تصنع الملوك قبله، فأبى، وقال: ما كانت لأضع عليه شيئاً حتى أعرف ما فيه. فأمر بفتحه، فإذا فيه صور العرب، وفيه كتاب، إذا فُتح هذا الباب دخل هؤلاء القوم هذا البلد»^{(٢٩)(٥)}.

(*) عبد الرحمن بن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب، ص/٢٧٨ . (الترجم)

وربما كان طارق قد اندفع على طول الطريق الذى يؤدى إلى وادى الإبرو ، وربما أخذ Guadalajara قبل العودة فى الشتاء إلى طليطلة . وفى الوقت نفسه كان موسى بن نصير والى إفريقيه وقائده ، قد قرر الانضمام إلى ما بدا أنه مشروع مربح للغاية. وفى الربيع التالى ، سنة ٧١٢م جمع جيشاً قوامه ثمانية عشر ألف رجل على الساحل المواجه لجبل طارق . وكانت هذه قوة تختلف تماماً عن القوة التى كان طارق قد تولى قيادتها قبل سنة . فقد كان معظم أفرادها من العرب . وقد ضمت بعض «التابعين» (أى الجيل الذى جاء بعد جيل صحابة النبى) وزعماء القبائل العربية الرئيسية . وفى يونيو سنة ٧١٢م عبر الجيش الجزيرة الخضراء Algeciras . وبدلاً من أن يسرع لى يتقابل مع طارق بن زياد فى طليطلة ، يبدو أن موسى قرر أن يقوى منطقة الحكم الإسلامى فى الجنوب. وبدأ ببعض المدن الصغيرة، مدينة سدونيا وكرمونه، قبل أن يحول انتباهه إلى إشبيلية ، وهى واحدة من أكبر المدن فى شبه جزيرة أيبيريا. ولا يبدو أن المقاومة قد طالَت كثيراً وأُخِلت الحامية الفيزيقوطية المدينة وانسحبت إلى الغرب.

ثم ذهب موسى شمالاً على طول الطريق إلى مدينة ماردة Merida . وميريدا الآن مدينة إقليمية متوسطة الحجم ، كانت إحدى العواصم الرئيسية فى إسبانيا الرومانية ولا تزال الأطلال الكلاسيكية الباهرة تشهد على ثروتها ومكانتها. وفى العصور المسيحية الأولى كانت قد صارت مركزاً لتبجيل سانت إيولاليا St. Eulalia وعبادتها المزدهرة وهنا واجه المسلمون مقاومة أكثر جدية مما واجهوه فى أشبيلية أو طليطلة . ويبدو أن موسى كان مضطراً إلى فرض الحصار على المدينة فى أثناء الشتاء سنة ٧١٢-٧١٣م وأن المدينة لم تستسلم نهائياً سوى فى ٢٠ يونيو سنة ٧١٣م . ثم انطلق موسى لى يقابل طارق بن زياد، ولكنه قبل هذا أرسل ابنه عبد العزيز إلى أشبيلية ، حيث كانت المقاومة قد انكسرت . وتقدم موسى شرقاً على طول نهر التاج. Tagus إلى عاصمة القوط التى كانت آنذاك تحت سيطرة طارق بن زياد . وهناك أُجبر طارق على تسليم الكنز والثروات التى كان قد صادرها من الكنائس . وتهتم المصادر العربية ، مثلما يحدث غالباً، بالغنائم وكيفية توزيعها . وفى هذه الحالة ، تحكى عن المنافسة بين طارق بن زياد وموسى بن نصير . ومحور الصراع كان «مائدة سليمان» ، التى كانت

محفوظة فى قلعة خارج طليطلة . وهى ذات قيمة هائلة من الذهب والجواهر . وكان طارق قد أخذها ولكن موسى أصرَ على أن يأخذها . ووافق طارق بعد تردد على تسليمها ولكنه أخذ إحدى الأرجل وثبت مكانها أخرى مزيفة وأقام موسى بن نصير نفسه سيداً حقيقياً على المدينة القديمة على حين كان طارق بن زياد قد عاد إلى قرطبة فى حال من الحق الشديد . وكما هو الحال فى قصة يُلِيان ربما تشير هذه المادة الأسطورية الواضحة إلى توترات سياسية أوسع فى مداها بين طارق بن زياد وأتباعه من البربر وموسى وجيشه من العرب .

وفى الربيع التالى (سنة ٧١٤م) انطلق موسى مرة أخرى، قاصداً وادى نهر الإبرو . وفى وقت ما أثناء تلك السنة استولى على سرقوسة ، حيث وضع حامية عسكرية وبنى مسجداً . وفى غضون ذلك الصيف، استولى أيضا على ليريدا Lerida وتوجه صاعدا الطريق الرومانى الذى يؤدى إلى برشلونة وناربونة .

وغالباً ما كان الخلفاء فى دمشق مُرتابين تساورهم الشكوك حول الفاتحين الناجحين خوفاً، وربما عن حق، من أنهم قد يهربون من سيطرة الحكم . وكان موت الوليد بن عبد الملك سنة ٧١٥ م يعنى أن موسى بن نصير، مثل محمد بن القاسم فى السند، قد عُزل من منصبه وأعيد إلى دمشق . وقد حاول القائدان ، قبل رحيلهما أن يخضعا المناطق المحيطة بالجبال الشمالية . واستولى طارق بن زياد على ليون واشترجه Astorga ثم واصل تحركه حتى جبال كانتابريا Cantabria إلى أوفييدو Oviedo وجيخون Gijon . وهجر كثير من السكان المدن وفروا إلى جبال Pico de Europa .

وعندها فحسب قرر الفاتحان إطاعة أوامر الخليفة . وعين موسى بن نصير ابنه عبد العزيز والياً على الأندلس ، واثنين من أولاده على السوس والقيروان . ولو أن الظروف كانت مختلفة، فى أواخر الحكم الميروفنجى بفرنسا مثلاً ، فربما كان المغرب الإسلامى قد تطور ليصير دولة مستقلة تحت حكم عائلة موسى بن نصير . وفى الدولة الإسلامية المبكرة، كانت الروابط التى تربط أبعد الولايات بالعاصمة قوية للغاية . فقد تقبل كل من محمد بن القاسم فى السند وموسى بن نصير فى الأندلس مصيرهما،

وأطاعا الأوامر الصادرة لهما وعادا إلى الأراضى الإسلامية المركزية . وفى كل من
الحالين لحقت الإهانة ببطلى الفتوح ، وتم تجريدهما من مكاسبهما وألقيا فى السجن .
ومات موسى بن نصير سنة ٧١٦-٧١٧م ، وربما كان لا يزال فى الحبس . ولا نعرف
شيئاً على الإطلاق عن مصير طارق بن زياد، ولكن لابد أنه قد مات فى الشرق الأوسط
فى ظروف غامضة تماماً .

وقد استكمل عبد العزيز بن موسى بن نصير عملية تقوية فتح الأندلس ومن
المحتمل أنه فى أثناء ولايته (٧١٤-٧١٦م) تم إخضاع معظم البرتغال الحديثة
وقطالونيا للحكم الإسلامى، ولكن المعلومات عن طبيعة هذا الاحتلال والظروف المحيطة
به نادرة للغاية .

ولدينا معلومات أفضل عن فتح المناطق المحيطة بمُرسيه فى جنوب شرق إسبانيا .
وكان يحكم هذه المنطقة نبيلٌ من الفيزيقوط اسمه ثيودمير (تُدْمِير) . وتفاوض مع عبد
العزيز على الصلح وعقد معاهدة يرجع تاريخ نصها إلى أبريل سنة ٧١٢م وهى مسجلة
فى عدد من المصادر العربية^(٤١) .

«بسم الله الرحمن الرحيم. كتب هذا عبد العزيز بن موسى بن نصير لتُدْمِير بن
غبدوشن (النص من ابن عذارى)

والمعاهدة نموذج كلاسيكى لهذا النوع من الاتفاقات المحلية التى كانت تمثل
حقيقة «الفتح» العربى فى أية منطقة من مناطق الخلافة . ومن الواضح أنه بدلاً من
الشروع فى حملة عسكرية صعبة ومكلفة ، كان المسلمون يفضلون الاتفاق الذى
يمنحهم الأمن من الأنشطة المعادية وبعض الفدية. وهى نموذج يمكن أن نلاحظه فى
كثير من مناطق إيران وبلاد ما وراء النهر . ومن المثير أن نلاحظ أن الكثير من هذه
الجزية كان يؤخذ عيناً (القمح والشعير والخل والزيت ، ولكن طبعا ليس هناك خمر) .
وفى مقابل هذا، كان كان يسمح للسكان المحليين بالاستقلال الذاتى الكامل تقريباً .
ومن الواضح أنه كان من المتوقع أن يستمر ثيودمير فى حكم مدنه السبع والمناطق الريفية
المرتبطة بها . وليس هناك ما يشير إلى أنه كانت هناك حامية عسكرية تمت إقامتها ،

أو إلى بناء مسجد . وربما كان تيودمير وكثير من أتباعه قد تخيلوا أن الغزو الإسلامي لن يدوم طويلاً وأن الأمر يستحق أن يدفعوا الجزية للحفاظ على أملاكهم حتى يحين وقت إعادة بناء مملكة الفيزيقيوط^(*). والحقيقة أن خمسة قرون مرت قبل أن تستطيع القوى المسيحية استعادة السيطرة على هذه المنطقة. ولا نعرف كم من الوقت استمرت الاتفاقية فعالة: إذ مات تيودور نفسه سنة ٧٤٤م عن عمر مديد حافل بالتميز . وربما لم يتم إلغاؤها بصورة رسمية أبداً ولكن زياد هجرة المسلمين وزيادة معدل انتشار الإسلام بين السكان أواخر القرن الثامن وفي القرن التاسع جعل شروطها غير ذات موضوع .

وانتهت ولاية عبد العزيز نهاية مفاجئة وغير سعيدة. وحسب رواية ابن عبد الحكم^(٤٢)، كان قد تزوج ابنة لذرير (رودريجو) ، آخر ملوك الفيزيقيوط ، التي جلبت له ثروة طائلة وفكرة مثيرة لبناء الهيبة الملكية. فقد ساءت حالته التواضع التي حافظ عليها والبساطة التي كان أتباعه العرب يعاملونه بها ، ولا يسجدون أمامه. وحسب القصة ، أقتنعه أن يضع باباً منخفضاً في قاعة مقابلاته بحيث يضطرون إلى الانحناء أمامه عندما يدخلون . وقد غضب العرب من هذا بقوة ، بل إن بعضهم زعموا أنها قد جعلته يعتنق المسيحية. وحيكت مؤامرة لاغتياله ومات الحاكم بالسيف . ومن الواضح أن القصة تنتمي للنوع الذي يناقض الطبيعة البسيطة ، بل الديموقراطية ، للحكم العربي ضد التراتبية والأبهة التي كانت تميز الإمبراطوريات والممالك التي حلّ العرب محلها . وربما تعكس أيضاً التوتر بين أولئك العرب الذين كان قد تزوجوا وريثات موسرات من الأماهي وعامة الجيش الغازي^(*).

(*) يسرف المؤلف كثيراً في استخدام تعبيرات لاتناسب البحث العلمي؛ مثل «ربما» ومن المحتمل ، وما في معنهما، للتعبير عن رأيه الشخصي البعيد عن الاستنباط والاستنتاج القائم على القرائن والأدلة ؛ ومن الملاحظ أنه يستخدم هذا الأسلوب للتعبير عن رفضه -بإثر رجعي- للأحداث التاريخية التي كانت لصالح المسلمين ؛ فهو يحاول تفسير قبول بعض الفيزيقيوط لدفع الجزية ، ويرفض القصة التي تحكى مصرع عبد العزيز بن موسى بن نصير على الرغم من اتساقها مع الحقائق التاريخية المعروفة عن البساطة الأولى التي ميزت الحكم الإسلامي قبل أن تتحول بلاطات الحكام المسلمين إلى ما يشبه ما كانت عليه بلاطات الحكام الآخرين. (المترجم)

وقد بدأ حكام إسبانيا الجدد يتركون بصماتهم على الإدارة في الحال تقريبا . ويمكن أن نرى هذا على أوضح ما يكون في حالة العملة . فقد كان وصول موسى بن نصير مقروناً بسك عملة ذهبية جديدة ، ليست قائمة على عملة قوطية وإنما على أساس من النماذج الموجودة في شمال أفريقيا . وكانت أول هذه العملات تحمل العبارة اللاتينية :

”In Nomine Domini non Deus nisi Deus Solus“ وهي ترجمة مباشرة لصيغة « لا إله إلا الله » الإسلامية، وهو مزج غير معتاد بين التقاليد الإسلامية والتقاليد اللاتينية . وربما تم سك هذه العملة في دار سك نقود متحركة كانت تصحب الجيش لإعادة تدوير الغنائم ، ربما الأشياء الثمينة المأخوذة من الكنائس ، وتحويلها إلى نقود لكي يمكن تقسيمها بسهولة أكبر بين العسكريين لإنفاقها .

ولم يستقر غزاة إسبانيا المسلمون في مدن عسكرية : إذ لم يكن هناك معادل إيبيري للفسطاط أو القيروان . ويبدو أنه بدلاً من ذلك كان هناك نموذج للتوطن أكثر انتشاراً، يبدو في بعض النواحي أكثر شبهاً بالطرق التي استوطن بها الغزاة الجرمان الذين غزوا الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي بلاد الغال وإسبانيا . ويبدو كما لو أن العرب، الذين جاء معظمهم بالضرورة من مناطق حضرية مثل الفسطاط أو القيروان ، قد اختاروا الاستقرار في المدن والقرى في وادي النهر الكبير ووادي نهر الإبرو ، حول قرطبة وإشبيلية وسرقوسة ، على حين توطن البربر، الذين جاءوا من خلفيات رعوية ، في السهول المرتفعة بمسيتا Meseta وسط وجنوب الجبال .

كان الفتح ناجحاً بصورة مدهشة . ففي غضون خمس سنوات من الفتح الأولى تم إخضاع شبه جزيرة إيبيريا كلها تقريباً لسيطرة الجيوش الإسلامية . وعلى أية حال، كان هناك استثناء مهم، تحول إلى استثناء قاتل فيما بعد ، لهذه القاعدة . ففي شمال إسبانيا، كما هو الحال في بعض مناطق الشرق الأوسط، كان خط النسبة على الخريطة (الخط الكونتوري ١٠٠٠ متر) يمثل حدود الأراضي التي يسيطر عليها المسلمون . وكان معنى هذا أنه في الوديان الجنوبية العالية لجبال البرينيس (البرانس) وجبال بيكودي أوربا الواقعة غرباً في أشتورياس ، أن تجمعت مجموعات صغيرة من اللاجئين

والسكان المحليين لحماية استقلالهم عن الحكم العربى. وفى جبال بيكوس دى أوربا ، قيل إن الحركة كانت تحت قيادة شخص يُسمى بيلايو Pelayo، ربما كان نبيلاً من الفيزيقيوط وعضواً فى بلاط لذريق. ولانعرف شيئاً عن هذا التمرد من المصادر العربية ، ولكن بالنسبة للمسيحيين فى مملكة أشتورياس ، كانت قصة التمرد الأساس الذى قامت عليه أسطورة تأسيس مملكتهم. وحسبما تحكى فى مؤرخة ألفونسو^(٤٣)، التى يحتمل أن تكون قد تم تأليفها بعد سنة ٩٠٠ ميلادية ، كاد بيلايو أن يقع فى أيدي العرب ولكن صديقاً حذره وفرّ إلى بيكوس دى أوربا. والأرض فى البيكوس جرداء بها ممرات منحدرّة وتنتوءات صخرية . وتسقط عليها الأمطار كثيراً بحيث جعلتها خضراء بشكل مدهش، بها الحقول التى تروى جيداً والغابات والأنهار سريعة الجريان. وكانت أرضاً تختلف تماماً عن السهول المفتوحة فى مسيتا جنوباً كما كانت تشكل عالماً بعيداً عن صحراوات شمال أفريقيا ومصر. ولم تكن أبداً فى الحقيقة جزءاً من إسبانيا الرومانية، ولم يتم بناء مدن كبيرة هناك ، وليست هناك طرق رومانية تمرّ من خلالها .

وتقول المؤرخة إن بيلايو استطاع الهرب عندما جاء إلى ضفة نهر سريع الجريان وعبره سباحة فوق ظهر جواده ؛ ولم يتمكن أعداؤه من ملاحقته . وهرب إلى الجبال وأسس مقر قيادة فى كهف صار مركز المقاومة واستخدمه الناس فى جميع أنحاء أشتورياس . وغضب الحاكم العربى غضباً شديداً وأرسل جيشاً من مائة وسبعة وثمانين ألف رجل ، وهو رقم خيالى تماماً ، لإخماد التمرد . وكان يقودهم عربى تسميه مؤرخة ألفونسو الثالث القاما Alqama ، وأسقف غامض اسمه أوبا Oppa ، تقدمه القصة فى صورة المتعاون مع العدو . وواجه المسلمون بيلايو فى مكان يُسمى كوفادونجا Covadonga ، عالياً فى الجبال . وخاطب الأسقف بيلايو وسأله كيف يظن أن بوسعه الصمود فى وجه العرب (الإسماعيليين) مع أنهم هزموا الجيش القوطى كله قبل وقت قصير . ورد بيلايو بعظة دينية صغيرة قائلاً إن «المسيح أملنا ومن خلال هذا الجبل الصغير الذى تراه ، سوف تتم استعادة رفاة إسبانيا وإعادة بناء جيش الشعب القوطى».

وبعد انهيار المفاوضات ، شن الجيش الإسلامى هجومه . وتم ذبح أعداد غفيرة منهم، وهرب الباقون . وقد اكتسبت معركة كوفادونجا ، التى توضع عادة فى تاريخ سنة ٧١٧م ، مكانة أسطورية باعتبارها بداية المقاومة المسيحية . وقد أدى فشل القوات الإسلامية فى إخماد التمرد فى الحال إلى فقدان السيطرة على أماكن الاستيطان الشمالية مثل يخون وتأسيس مملكة مسيحية صغيرة مستقلة . وكانت هذه المملكة ، وكيانات صغيرة مشابهة فى وديان البرينيس وبلاد الباسك ، هى الأساس الذى قامت عليه حركة الاسترداد المسيحية فيما بعد .

وكانت هناك مناطق أخرى فى العالم الإسلامى عاشت فيها إمارات مستقلة جنباً إلى جنب مع السلطات الإسلامية ، فى اعتدال وسلام فى جبال شمال إيران ، مثلاً . وكانت الإمارات المسيحية فى جبال أرمينيا فى وضع لا يختلف تماماً عن وضع الإمارات المسيحية فى شمال إسبانيا، بيد أنه لم تكن أى من هذه الإمارات تهدد الحكم الإسلامى فى مناطق الجنوب بشكل خطير . وعندما قام سكان الجبال الديلم فى شمال إيران بغزو الكثير من مناطق إيران والعراق فى القرن العاشر الميلادى/الرابع الهجرى ، كانوا يفعلون هذا بوصفهم مسلمين ، وسرعان ما فقدوا هويتهم وذابوا فى السكان المسلمين . وحافظ الأرمن على استقلالهم ولكنهم لم يسعوا أبداً إلى القيام بغزوات وراء أوطانهم التقليدية . وما كان يميز إمارات شمال إسبانيا أنها حافظت على ثقافتها المسيحية اللاتينية . وفى الوقت نفسه ، حافظت على إحياء مملكة الفيزيقوط وفكرة أن شبه الجزيرة كلها كانت ذات مرة ملكاً للمسيحيين وينبغى أن تعود إليهم ثانية . كذلك كانت لهم روابط بالعالم المسيحى الأوسع فى الشمال وكانوا يستطيعون الوصول إليه . وكانت هذه العوامل تعنى أنه، على خلاف الإمارات فى شمال إيران أو الإمارات الأرمنية، تحول المسيحيون فى إسبانيا على المدى الطويل إلى خطر يُهدد السيطرة الإسلامية ، حتى طردوا المسلمين فى النهاية ، بعد ثمانمائة مائة سنة.

ولم تنته طموحات العرب عند جبال البيرينيس . فسرعان ما أخذت القوات الإسلامية تشن غاراتها على وادى الرون وعبر أراضي أقطانيا الخصيبة . ومن سوء الحظ أننا لا نملك سوى روايات موجزة تماماً عن هذه الحملات المغامرة . وغالباً ما

يكون مسار الغارات غير واضح بالمرّة . وكثيرا ما تكون المصادر العربية روايات ذات خط واحد ولدينا ملاحظات مختصرة فى بعض المؤرخات الديرية اللاتينية . هذه المواجهة الأولى بين شعوب شمال غرب أوروبا والمسلمين يحجبها ضباب الغموض . ويقال إن الغارات الأولى كانت موجهة من جانب طارق بن زياد وأنها وصلت أفينيون Avignon وليون Lyon قبل أن تلقى الهزيمة على يد شارل مارتل Charles Martel^(٤٤) وكانت الجماعات الغازية من المسلمين تذهب حول الطرف الشرقى لجبال البرينيس: برشلونة ، وجيرونة وناربونة كلها وقعت تحت سيطرتهم ، على الرغم من أن الحكم الإسلامى فى ناربونة كان قصير العمر وزال بسرعة . وتزعم المصادر العربية اللاحقة أن موسى بن نصير كان قد فكر فى خطة ضخمة وجسورة لزحف جيوشه عبر أوروبا كلها والإمبراطورية البيزنطية عائداً إلى بلاد الشام^(٤٥) . ولا بد أنهم شعروا فى بعض الأحيان أنه لا يمكن وقفهم .

ولم يكن النجاح حليفهم على الدوام . ففي صيف سنة ٧٢١م قام والى الأندلس، السمع بن مالك الخولانى بغارة داخل أقطانيا ولكن الدوق إديس Eudes ، حصن نفسه فى تولوز . وفى معركة حامية فى ٩ يونيو ، تم دفع العرب وحدهم وقتل والى نفسه . وفى سنة ٧٢٥م شن العرب أكثر الغارات طموحاً حتى ذلك الحين . وبدءوا بالحصن الرومانى القوطى فى Carcassone ، واستولوا عليه بالقوة . ثم تحركوا شرقاً عبر Midi . وقد استسلمت نيميس Nimes سلماً ، وقدمت الرهائن الذين تم إرسالهم إلى برشلونة . ثم قاد والى عنبسة بن سليم الكلبى رجاله فى غارة خاطفة صاعداً وادى الرون، ولم يواجه سوى القليل من المقاومة الجديدة . ووصل الجيش إلى أعماق إقليم بورجندي، واستولى على أوتون Autun التى نهبوها تماماً قبل عودتهم إلى الجنوب .

وجاءت ذروة الغزوات العربية لفرنسا مع المعركة المعروفة عموماً باسم معركة بواتيه (بلاط الشهداء) . ومنذ أواخر القرن الثامن الميلادى/الثانى الهجرى كانت هذه المعركة قد حققت شهرة رمزية ، لأنها علامة على النقطة التى انتهى عندها التقدم

العربى فى أوروبا الغربية على يد سيد الحرب الكارولنجى شارل مارتل . وفى غضون سنتين كان بيديه Bede(*)، فى نورثمبريا Northumberia البعيدة قد سمع عنها وأحس أنه قادر على أن يقول بثقة إن «السراكنة المسلمين الذين كانوا قد خربوا بلاد الغال قد لقوا عقابهم جزاء غدرهم» . أما جييون فقد سمح لنفسه فى واحدة من أكثر شطحاته الخيالية فصاحة أن يتأمل فى ما كان سيحدث لو كانت نتائج المعركة مختلفة(٤٧):

«كان خط الزحف المظفر قد امتد على ما يزيد عن ألف ميل من صخرة جبل طارق حتى ضفاف نهر اللوار؛ وكان تكرار مسافة مماثلة سيصل بالمسلمين (السراكنة) إلى حدود بولندا ومرتفعات اسكتلنده : ونهر الراين لا يستعصى على الملاحه أكثر من نهر النيل أو نهر الفرات وربما كان الأسطول العربى قد أبحر دون أن يشتبك فى معركة بحرية فى مصب نهر التيمس. وربما كان تفسير القرآن يدرس الآن فى مدارس أوكسفورد ، وربما يوضحون لشعب مختون قداسة الوحي الذى نزل على محمد وحقيقته»(**).

ويواصل كلامه ليشرح كيف تم إنقاذ العالم المسيحى من «مثل هذه المصائب» بفضل عبقرية رجل واحد وحظه ، هو شارل مارتل .

وفى سنة ١٩١٥ ضمن إدوارد كريسى Edwaed Greasy معركة بواتييه، فى كتاب مؤثر من كتابات التاريخ الشعبى، باعتبارها واحدة من «خمس عشرة معركة حاسمة فى العالم» حسبما يعتقد. وفى الحقيقة أنها علامة على شىء من الأهمية الفاصلة .

(*) بيديه Bede، ويعرف أحيانا باسم بيديه المبجل ، كان من العلماء الإنجليز فى القرن الثامن ، وكتب تاريخا بعنوان «التاريخ الكنسى». وقد عاش راهباً فى دير جارى بشمال إنجلترا حتى مات سنة ٧٣٥م دون أن يغادر موطنه أبداً. وكان مدرساً ورئيساً للمدرسة الديرية فى جارى الذى تعلم فيه هو نفسه. (المترجم)

(**) تعكس هذه السطور الموقف العاطفى، أكثر من القدرة العلمية ، لدى إدوارد جييون الذى ثبت أن آراءه التاريخية قد خطأها الزمن ، وفندتها بحوث الباحثين الغربيين. (المترجم)

فحتى ذلك الوقت كان المسلمون يشنون الغارات على فرنسا طولاً وعرضاً ، حتى ولو لم يحاولوا القيام بغزوات دائمة . ومثلما كان الناس في آسيا الوسطى في الوقت نفسه يظنون ، لم يكن الأوروبيون يعتقدون أن الغارات العربية يمكن أن تكون فاتحة لغزو أكثر دواما . وبعد هذا الوقت ، كان النشاط العسكري محدوداً إلى درجة كبيرة في المنطقة المحيطة بناربوتة ، وبدأت الأندلس التحول من دولة جهادية إلى حكومة أكثر استقراراً .

وبالنسبة للمؤرخين العسكريين الغربيين كانت معركة بواتييه قد اكتسبت أهمية أكثر من ذلك . وقد كان هناك رأى يجادل بأن شارل مارتل كان ناجحاً ، للمرة الأولى ، لأنه استخدم المحاربين الراكبين ذوي التسليح الثقيل ، أى الفرسان ، فى هجمة منسقة دمرت العدو . ووفقاً لهذه النظرية ، كان هذا علامة على بداية التحكم فى ميدان المعركة بواسطة الفرسان ثقيلى التسليح المدرعين ، وهو ما صار من خصائص أوروبا الغربية فى العصور الوسطى . ومع ظهور الفارس المدرع ظهر الإقطاع باعتباره الشكل المميز للسيطرة الاجتماعية والمالية .

وإنه لأمر يدعو إلى الإحباط تماماً أن معلوماتنا عما حدث حقاً قصيرة ومرتكبة ، بل إن تاريخ المعركة غير مؤكد ، على الرغم من أن التاريخ التقليدى هو السبت ١٥ أكتوبر سنة ٧٣٢ م فإنه يمكن أن يكون مثل أى تاريخ آخر^(٤٨) . ويرد أقدم تقرير فى مؤرخة ٧٥٤م المسيحية . ويبدو أن المؤرخ الذى كان يكتب بعد ما لا يزيد على عشرين سنة بعد الأحداث ، كان عارفاً وعلى إطلاع جيد بالأحداث ، وربما حصل عليها من المسلمين الذين نجوا من الحملة وعادوا إلى قرطبة . وهو يصف كيف أن الوالى ، عبد الرحمن الغافقى ، قد هزم فى البداية متمرداً مسلماً ، هو Munnuza فى جبال شرق البرانس . وكان مونوزا قد سعى للحصول على مساندة الدوق إيوديس دوق أقطانيا وذهب عبد الرحمن حينذاك لمطاردة . واشتبك مع الدوق وهزمه على ضفاف نهر الجارون .

وحينئذ صمم عبد الرحمن على أن يمضى قُدماً فى المطاردة . ونهب بورديو وأحرق كنيسة سان هيلارى الشهيرة فى بواتييه . ثم قرر أن يواصل السير على طول الطريق

الرومانى لينهب كنيسة سان مارتن الكبيرة على نهر اللوار فى تور . وبينما كان على الطريق من بواتيه إلى تور واجهه شارل مارتل «وهو رجل أثبت أنه محارب منذ شبابه وخبير فى الأمور العسكرية، وكان الدوق إيوديس قد طلب مساعدته». وربما يكون الجيشان قد تقابلا عند بلدة صغيرة ما تزال معروفة باسم Moussais la Bataille .

«بعد أن كان كل جانب قد عذب الجانب الآخر على مدى سبعة أيام تقريباً بالإغارات جهزوا أخيراً خطوط قتالهم وقاتلوا بقسوة ووحشية ، وبقي الشماليون راسخين مثل حائط متماسكين مثل الجليد فى المناطق الباردة ، وفى غمضة عين، استأصلوا العرب بسيوفهم. أما أهل أوستراسيا Austrasia (أى أتباع شارل مارتل) ، الذين كانوا أكثر عدداً ومسلحين جيداً، فإنهم قتلوا الملك عبد الرحمن ، عندما وجده ، وضربوه على صدره. ولكن فجأة مع مشهد خيام العرب التى لا تُحصى، وضع الفرنجة سيوفهم بطريقة خسيصة ، وادخلوا أنفسهم لكى يقاتلوا اليوم التالى لأن الليل هبط فى أثناء المعركة . ولما نهض الأوربيون من معسكرهم عند الفجر شاهدوا خيام العرب كلها مرتبة حسب مظلاتهم ، تماماً مثلما كان المعسكر قائماً من قبل. ولم يعرفوا أنها جميعاً خاوية وظنوا أن بداخلها كتائب من المسلمين (السراكنة) مستعدين للمعركة ، فأرسلوا كشافة للاستطلاع واكتشفوا أن جميع قوات الإسماعيليين قد رحلت . فقد كانوا جميعاً قد هربوا فى صمت تحت ستار الليل فى تشكيل مترابط، وعادوا إلى بلادهم . ولكن الأوربيين الذين أقلقهم أن يكون المسلمون يخادعونهم ويحاولون أن يكمنوا لهم فى الممرات الخفية أبطأوا فى رد الفعل وبحثوا بلا طائل فى جميع الأماكن المحيطة . وإذا لم تكن لديهم النية فى مطاردة المسلمين أخذوا الأسلاب والغنائم ، وقسموها فيما بينهم بالعدل، وعادوا إلى بلادهم وقد غمرهم الفرح والسرور».

أما المصدر الفرنجى الرئيسى، وهو صلة تاريخ فردجار Fredegar، فهو مختصر تماماً. فهو يحكى : «نظم الأمير شارل بشجاعة خط قتاله ضدهم (العرب) . وبمساعدة المسيح قلب خيامهم، وأسرع ليطحنهم بالذبح. ولما قتل الملك أبديراما Abdirama (عبد الرحمن) دمرهم ودفع الجيش الذى حاربه وانتصر»^(٤٩).

ولا تحمل المصادر من التفاصيل ما يروى غليلنا، بيد أن هناك أموراً بعينها تظهر في وضوح. وأولها أن هذه لم تكن معركة فرسان. إذ إن مؤلف مؤرخة ٧٥٤م، بصورته التي رسمها عن الجليد المتجمد ، يوحى بقوة أن الفرنجة حاربوا على الأقدام في تشكيل نوع من الكتائب. كما أنه يوضح أنهم كانوا منظمين جداً . وفشلهم في مواصلة النصر والأخطار التي قد تنشأ عن مطاردة العدو في الظلام في بلاد غير معروفة . وربما يكون معظم العرب قد نجوا بأنفسهم، ولكن من المؤكد أنهم تخلوا عن خيامهم والكثير من معداتهم العسكرية .

وقد أنهت هزيمة المسلمين عند بواتيه بالفعل الغارات التي كانوا يشنونها على نطاق واسع في فرنسا. وصار واضحاً أنهم لن يستطيعوا فتح البلاد، أوحى الاستمرار في شن الإغارات بأى قدر من النجاح . وكانت بسالة الفرنجة العسكرية ، «مثل الجليد الشمالى» مجرد سبب من الأسباب التي أدت إلى نهاية التوسع . وربما كان المسلمون يعانون من نقص في القوة البشرية . فقد أمكن القيام بفتح شمال أفريقيا لأن أعداداً كبيرة من البربر كانت قد انضمت إلى الجيوش الإسلامية ، وهؤلاء البربر أنفسهم كانوا يشكلون فرقة رئيسية في الجيوش التي قامت بغزو الأندلس . وليست هناك روايات يعتد بها عن أن الفرنجة أو غيرهم من سكان فرنسا انضموا إلى الجيوش الغازية. وربما كانوا غرباء بالقدر الذى لا يسمح بالتعاون السهل، ويحتمل أن وجودهم كان عابراً على الدوام بالقدر الذى لا يؤدي إلى الثقة ، ولكن أيا كان السبب ، فإن نقص التأييد المحلى ترك الجيوش الإسلامية معزولة جداً ومكشوفة تماماً .

كذلك كان الوجود الإسلامى في الأندلس أخذاً في التغير. وبحلول سنة ٧٣٢م كان كثير من الفاتحين الأصليين قد طعنوا في السن أو ماتوا، أما البنى الإدارية فكانت قد وضعت لجمع الضرائب ، و«عاش العرب مثل الملوك»، حسبما يقول أحد المصادر العربية على الأقل، أقلية صغيرة في بلاد غنية، ولم يعودوا بحاجة إلى الغنائم والأسلاب من الغارات للحفاظ على أسلوب حياتهم وربما لم يكونوا راغبين حتى في الاندفاع ليقتلوا الذين كانت الإغارة تولده بالضرورة.

ولكن ربما كان السبب الأكثر أهمية من أسباب التغيير هو التمرد الكبير الذي حدث في شمال أفريقيا سنة ٧٤١م . إذ إن وحشية تجارة الرقيق كانت قد تسببت في غضب عارم بجميع أنحاء المغرب وكاد البربر أن ينجحوا في طرد العرب تماما . ولم تتم استعادة السيطرة الإسلامية في المنطقة سوى بإرسال جيش ضخم من بلاد الشام . وكان هذا الصراع الكبير يعنى أنه لا العرب ولا البربر كانوا قادرين على توفير القوة البشرية اللازمة لمد الفتوح ، وتوسيعها في الحقول والغابات الباردة المعادية في الشمال .

الهوامش

(١) أفضل تقرير حديث عن أحداث الفتح العربي للسند هو :

F. Gabrieli, 'Muhammad ibn Qasim ath-Thaqafi and the Arab conquest of Sind', East and West 15 (1964-5); 281-95; a broader view is provided by A. Wink, Al-Hind: The Making of the Iudo-Islamic World, vol. is Early medieval India and the expansion of Islam, 7th-11th centuries (Leiden, 1990).

Baladhuri, Futuh, pp. 431-41. (٢)

Ali b. Hamid al-Kufi, Chachnumah: An Ancient History of Sind, trans. M. K. (٢) Fredunbeg (Lahore, 1995).

(٤) عن هذا الكتاب انظر :

Wink, Al-Hind, pp.194-6.

Al-Kufi, Chachnamab, p. 115. (٥)

Wink, Al-Hind, p. 51. (٦)

Muqadda-si, Ahsan al-Taqa-sim, p. 474. (٧)

Ibn Hawqal, Kitab Surat al-Ard, ed.j. H. Kramers (Leiden, 1939), p. 328. (٨)

Wink, Al-Hind, p. 153. (٩)

Ibid-, p. 182. (١٠)

M. J. De Goeje, Mémoire des migrations des Tsiganes a travers l'Asie (Leiden, (١١) 1903), pp. 1-2.

Baladhuri, Futuh, p. 436. (١٢)

Gabriali, 'Muhammad ibn Qasim', pp. 281-2. (١٣)

Baludhuri, Futuh, pp. 426-7. (١٤)

وردت القصة نفسها مع إضافات خيالية في :

Chachnamh, pp. 81-4.

Sumaniyayn, on which see Baladhuri, Futuh, glossary s.v. smn. (١٥)

Baladhuri, Futuh, pp. 437-8. Al-Kuti, Chachnamah, pp. 91-3, 103-4, also (١٦) stresses the role of the Samani.

Al-Kufi, Chachnamah, pp. 93-5. (١٧)

For the battle see the account in Wink, Al-Hind, pp. 204-5, based on details in (١٨) Baladhuri, Futuh, pp. 438-9, and Al-Kufi, Chachnamah, pp. 135-9.

Al-Kufi, Chachnamah, pp. 125-6. (١٩)

Baladhuri, Futuh, p. 438. (٢٠)

Al-Kufi, Chachnamah, pp. 153-4. (٢١)

Al-Kufi, Chachnamah, p. 104. (٢٢)

Al-Kufi, Chachnamah, p. 176. (٢٣)

(٢٤) تخلط الشاشنامة بين الهندوس والبوذيين في عدة مناسبات ، ويرجع هذا جزئيا إلى أن الكلمة الفارسية بُدْخَانَة مشتقة من «بيت بوذا» ولكنها صارت تستخدم لكى تدل على جميع المعابد التى بها أُنْصَانَم . وربما كان المحتجون من الهندوس أيضا ، وهو ما يشى به ارتباطهم الواضح بالبراهمة.

Al-Kufi, Chachnamah, p. 170. (٢٥)

Al-Kufi, Chachnamah, pp. 194-5. (٢٦)

Al-Kufi, Chachnamah, pp. 178-80. (٢٧)

Baladhuri, Futuh, pp. 439-40. (٢٨)

Gabrieli, Muhammad ibn Qasim', p. 293. (٢٩)

Baladhuri, Futuh, p. 440; Al-Kufi, Chachnamah, p. 191, has a parallel text in (٣٠) which the figures are 60,000 and 120,000 respectively.

De Goeje, Mémoire. For a general survey of the history of the Gypsies, see A. (٣١) Fraser, The Gypsies (2nd edn, Oxford, 1992), 'see also A. S. Ba.sme'e' Ansari, 'Djat', and C. E. Bosworth, 'Zutt', in Encyclopaedia of Islam, 2nd edn.

The name Gibraltar is derived from Jabal Tariq or 'Tariq's Mountain'. (٣٢)

Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p. 205, translated in O. R. Constable, Medieval Iberia: (٣٣) Readings in Christian, Muslim and Jewish Sources (Philadelphia, PA, 1997), pp. 32-4.

E. Levi-Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, vol. i: La Conquête et (٣٤) l'émirat hispano-umayyade (710-912) (Paris, 1950), pp. 19-21, prefers the River Barbate.

Anon., The Chronicle of 754, in Conquerors and Chroniclers of Early Medieval (٣٥) Spain, trans. K. B. Wolf (Liverpool, 1990), pp. 28-45, III -58 at p. 131.

The main Arabic account is Ibn Idhari, Bayan, II, pp. 4-9, based largely on the (٢٦) work of Razi.

Ibn Idhari, Bayan, 11, pp. 9-10. (٢٧)

Chronicle of 754, cap. 52, p. 131. (٢٨)

Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p. 206, in Constable, Medieval Iberia, p.34. (٢٩)

Ibn Abd al-Hakam, Futuh, p. 208, in Constable, Medieval Iberia, pp. 34-5. (٣٠)

Constable, Medieval Iberia, pp. 37-8. (٣١)

Ibn Abd al-Hakam, Futuh, pp. 211-1. (٣٢)

Anon-, Conquerors and Chroniclers, pp.164-8. (٣٣)

Levi-Provencal, Histoire, I, p. 55, based on Ibn Hayyan. (٣٤)

Ibid., p. 56, based on Makkari. (٣٥)

٤٦- عن مناقشة حديثة للمعركة والحملات التي شنت عليها ، انظر :

I. Wood, The Merovingian Kingdoms 450-751 (London, 1994), pp. 281-4;

P. Fouracre, The Age of Charles Martel (London, 2000), pp. 84-8; E. Manzano,

conquistadores, Emires y Califes: /o-" Omeyasy la formacion de al-Andalus

(Barcelona, 2006), pp. 81-4, The military aspects of the battle are discussed in

B. Bachrach, Early Carolingian Warfare: Prelude to empire (Philadelphia, PA,

2001), esp.pp. 170-77.

Gibbon, Dedine and Fall, III, p. 336. (٤٧)

Bachrach, Early Carulingian Warfare, pp. 170 and 352, n. 45.. (٤٨)

For this translation, and a critique of the older but very influential translation by J. (٤٩)

M. Wallace-Hadrill, see Fouracre, The Age of Charles Martel, pp. 148-9.

الحرب فى البحر

فى صيف سنة ٦٢٦م، كان العالم القديم يمور بالاضطراب الشديد. فقد بدا أن الإمبراطورية البيزنطية تلفظ أنفاسها الأخيرة. وكان الآفار البدويحاصرون القسطنطينية من الغرب على حين كان الفرس ينظرون إلى المدينة الكبيرة بعيون طامعة من خلقدونية، غير مضيق البسفور . وفى داخل أسوار القسطنطينية كان الإمبراطور هرقل يواجه الدفاع، الذى أنقذ المدينة، وربما كان قد خطط بالفعل للحملة الكبيرة سنة ٦٢٤-٦٢٨م التى أخذته هو وجيوشه بعيداً وراء الخطوط الفارسية ليضرب فى قلب الإمبراطورية الساسانية . وفى الوقت نفسه ، فى شبه الجزيرة العربية البعيدة ، كان النبى محمد يناضل دفاعاً عن قاعدته فى المدينة ضد قوات مكة، ومن غير المحتمل أنه كان هناك أحد فى العسكريين البيزنطيين أو الفرس قد عرف شيئاً عن حركته الجديدة أو كونه نبياً ورسولاً من الله(*) .

وفى الصيف نفسه كانت سفينة تجارية صغيرة تشق طريقها على الساحل الغربى لآسيا الصغرى. وبينما كانت تعبر خلال القناة الضيقة التى تضربها العواصف فى أغلب الأحيان والتى تفصل فى أيامنا هذه جزيرتى كوس Kos وكاليمنوس Kalymnos اليونانيتين عن الأراضى التركية الرئيسية، اصطدمت بحيد تحت الماء عند النتوء الصغير

(*) النص الاصلى كما كتبه المؤلف "or his claims to be the Prophet of God" لايقبله القارئ المسلم، ولهذا وضعت صياغته بهذا الشكل. (المترجم)

المعروف باسم ياسى أدى (الجزيرة المسطحة)^(١) وسواء لأن طاقمها لم يكن يعلم بوجود الحديد البحرى (سلسلة الصخور تحت الماء)، أو لأن السفينة الصغيرة كانت تحاول الاحتماء من الرياح العاتية (Meltmi) ، فقد غاصت السفينة فى ثلاثين متراً من الماء . ولابد أنها غاصت بسرعة لأن الوقت لم يسعفهم لنقل العملات الذهبية والنحاسية التى كانوا قد وضعوها فى خزانة لضمان حفظها أو لإخراج أدوات المطبخ من السفينة . وإذا لم يكونوا سباحين مهرة يمكنهم قطع مسافة خمسين متراً إلى الشاطئ ، فربما هلكوا مع سفينهم .

والسفينة الغارقة «ياسى أدى» ذات أهمية بالغة فى فهمنا للملاحة فى البحر المتوسط عند نهاية العصور القديمة. ومنذ سنة ١٩٦١م إلى سنة ١٩٦٤م كانت موضوعاً لكشف كبيرة تحت الماء كشفت عن كمية ضخمة من المعلومات عن السفينة وحمولتها . ولم تكن سفينة كبيرة؛ فقد كانت أقل من ٢١ متراً فى الطول وحمولتها حوالى ٦٠ طناً . وكانت سفينة بضائع ، وكانت محملة بحوالى تسعمائة أمفورا (قارورة، رفيدة العنق للزيت أو الخمر استخدمها الإغريق والرومان) ربما كانت مليئة بالخمر. وكان قصد البحارة أن يسافروا بقدر من الراحة ، لأنه كان هناك مطبخ متقن تجاه مؤخرة السفينة، مجهز تماماً بأواني الطهى وأدوات المائدة الفاخرة.

وطرأت فكرة بأن السفينة المنحوسة كانت ملكاً لإحدى الكنائس وكانت تستخدم فى نقل المؤن إلى الجيش البيزنطى، ولكن الحقيقة أننا لا نعرف من الذى كان يبحر على متنها ولماذا . ويرجع تاريخ السفينة إلى السنوات التى تسبق مباشرة بداية الفتوح الإسلامية، وتخبرنا بالكثير عن التجارة الساحلية فى شرق المتوسط فى السنوات الأخيرة من العصور القديمة . وكانت المياه التى أبحرت بها عاصفة وخطيرة، ولكنها كانت خالية إلى حد كبير من القرصنة والهجمات المعادية، كما كان حالها على مدى القرون الطويلة عندما كانت مياه البحر المتوسط «بحرنا Mare Nostrum» بالنسبة للبيزنطيين. وفى غضون عقدين من الزمان كان مقدراً لهذا كله أن يتغير وتصير مياه شرق المتوسط المسالمة مسرحاً لمواجهة بحرية وحشية ومدمرة^(٢).

كانت هناك تقاليد وتراث لصناعة البحر عند العرب. ففي عصور ما قبل الإسلام ، كان العرب يركبون البحر بالفعل كما أن القرآن الكريم يقول ﴿ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾^(*). هذه الإشارات وغيرها توضح أن بعض العرب على الأقل كانوا معتادين على القيام برحلات بحرية للتجارة^(٣). كذلك كان هناك تراث من عدم الثقة في البحر بين المسلمين الأوائل . وقيل إن الخليفة عمر بن الخطاب على وجه الخصوص كانت تراوده شكوك عميقة حول البحر، باعتباره خطراً على المسلمين . بيد أن هذا الحذر لم يعمر طويلاً . ويتمثل أحد أكثر الجوانب إثارة للدهشة في الفتوح الإسلامية المبكرة في السرعة التي استطاعت بها الأساطيل الإسلامية ، أو بدقة أكثر الأساطيل التي تحت قيادة المسلمين، أن تتحدى القوة البحرية الراسخة للإمبراطورية البيزنطية . وجزئياً كان ذلك مفروضاً عليهم بفعل الحاجة إلى الدفاع عن سواحل الشام ومصر ضد الإغارات التي كان يشنها الأسطول البيزنطي، الذي حافظ على قدراته لشن هجمات بحرية على المدن الساحلية طوال القرون الإسلامية الثلاثة الأولى. ولو أنهم تركوا البيزنطيين يتحكمون في البحر يوماً ، لما كان بوسع أحد على امتداد سواحل الشام أو فلسطين أو مصر أن يشعر بالأمان.

وسرعان ما بدأ المسلمون يرون إمكانية استخدام السفن في الأغراض الهجومية كذلك. وكانت جزيرة قبرص ، التي تقع على بعد مائة كيلو متر فقط من ساحل الشام، هدفاً واضحاً^(٤). وفي سنة ٦٤٩م أرسل والي الشام معاوية بن أبي سفيان ، الذي صار أول خليفة أموي فيما بعد ، حملة بحرية ضد الجزيرة . ومن المثير أن تاريخ الغزو يؤكد نقش يوناني يخلد ذكرى إعادة بناء بازيليك في سولي Soli ، كان قد تم تدميره في الغارة ، على يد الأسقف يوحنا سنة ٦٥٥م^(٥). وتكاد هذه أن تكون إشارة معاصرة فريدة إلى تدمير وإعادة بناء في زمن الفتوح الإسلامية المبكرة.

(*) سورة الإسراء: آية ٦٦ . ومن الملاحظ أن هناك ارتباكاً في النص الإنجليزي الذي يشير إلى الآية رقم ٤٦ في سورة الروم ولعلاقة لها بالموضوع ، ثم يشير إلى الآية التي أثبتناها في النص. (المترجم)

ووفقا للتراث الذى حفظته المصادر الإسلامية^(١)، كان عمر بن الخطاب قد رفض السماح لمعاوية أن يغامر فى البحر، ولكن خليفته، عثمان بن عفان، أعطى الإذن بشرط غريب هو أنه يجب على معاوية أن يأخذ زوجته معه، ويفترض أن ذلك كان لتشجيعه على عدم القيام بأية مخاطرة غير ضرورية . وذهب هو ، ومعه عدد من أعيان المسلمين ومعهم زوجاتهم بناء على ذلك. وبعد هذه الغارة الناجحة الأولى، اضطر أهل قبرص إلى دفع جزية سنوية إلى المسلمين . وكانوا بالفعل يدفعون جزية إلى البيزنطيين من قبل ، وهكذا خضعت الجزيرة لنوع من الحكم المشترك ، وكان كل من الجانبين يتلقى بعض المال ولكن أيا منهما لم يحتفظ بحامية عسكرية دائمة وفى سنة ٦٥٤م شن معاوية حملة ثانية لأن القبارصة، حسبما زعم المسلمون، كانوا قد قدموا سفناً لمساعدة البيزنطيين ضدهم ، وبذلك خرقوا شروط المعاهدة. وقيل إن الأسطول الإسلامى كان يتألف من خمسمائة سفينة وكان يحمل قوة مؤلفة من اثنى عشر ألف رجل من الجنود النظاميين (أى من الرجال المسجلة أسماؤهم فى الديوان) . ويحكى أن معاوية فى ذلك الوقت قد بنى مسجداً وبنى مدينة جديدة على الجزيرة وطُن فيها رجالاً من بعلبك حامية وأعطاهم الرواتب . وقد استمر هذا الموقع الإسلامى المتقدم حتى سحب يزيد بن معاوية الرجال وهدم المدينة، ويفترض أن السبب فى ذلك أنه لم يكن يعتبر أنها تستحق نفقات الحامية العسكرية .

وفى أواخر القرن السابع، وطوال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين (١-٣هـ) ، كانت قبرص تتمتع بوضع فريد بين العالم الإسلامى والعالم المسيحى. ولم يكن الأمر سهلاً على الدوام فلم يكن القضاة المسلمون سعداء بمعاهدة يبدو أنها لا تتسق مع الشريعة الإسلامية فى كثير من الجوانب. ومن وجهة النظر العسكرية ، أيضا ، كان هناك دائماً شك فى أن القبارصة يساعدون البيزنطيين . وقام الخليفة الأموى الوليد الثانى بترحيل كثير من القبارصة إلى الشام لأنه شك فى أنهم يساعدون البيزنطيين، ولكن سُمح لهم بالعودة فى عهد خليفته يزيد الثالث. واستمرت المشكلات تحت الحكم العباسى، وفى سنة ٨٠٦م أثناء حكم هارون الرشيد، قيل إن أهل الجزيرة قد تسببوا فى الاضطرابات وتم إرسال حملة لإخضاعهم ؛ وقيل إنه تم ترحيل ستة عشر ألف

رجل إلى الرقة، قاعدة هارون الرشيد في شمال بلاد الشام، حيث تم دفع الفدية لبعضهم وبيع البعض الآخر في أسواق النخاسة - وقد جلب أسقف قبرصى ألف دينار^(٧). وعلى الرغم من هذه الانتكاسات بقيت الثقافة المسيحية اليونانية حية في قبرص عندما كانت قد اختفت بالفعل من أراضي الداخل القريبة . ففي مجمع نيقية الكنسى الثانى (فى الإمبراطورية البيزنطية) والذى عقد سنة ٧٨٧م ، لم يستطع أساقفة الكنائس فى البلاد الخاضعة لحكم المسلمين الحضور ، ولكن حضر ما لا يقل عن خمسة أساقفة من قبرص ، مما يكشف عن أن العلاقات مع العالم البيزنطى كانت لا تزال قوية.

وقد أعقب الغارة الأولى على قبرص هجمات أخرى على جزر البحر المتوسط رودس وكوس تعرضتا للنهب، ربما سنة ٦٥٤م^(٨). وحتى هذا الوقت لم يكن المسلمون قد اشتبكوا مع الأسطول البيزنطى مباشرة ، فقد كان لا يزال سيد البحر فى شرق المتوسط. وكان أول اشتباك بحرى حقيقى بين المسلمين والبيزنطيين معركة ذات الصواري، أو معركة قينيقيا قبالة ساحل ليكيا فى سنة ٦٥٥م^(٩). وتعنى الأوصاف التى وردت فى كتاب ابن عبد الحكم، والمؤرخ البيزنطى ثيوفانس، وتاريخ ابن الأثير اللاحق زمنياً^(١٠)، أن لدينا المزيد من المعلومات عن هذه المواجهة أكثر مما لدينا عن أية معركة أخرى فى تلك الفترة . ووفقاً لما جاء فى المصادر العربية بدأت الحملة عندما جمع الإمبراطور قنسطانز الثانى (٦٤١-٦٦٨م) بجمع حملة بحرية لمواجهة الفتح الإسلامى لشمال أفريقيا. وانطلق بأسطول من خمسمائة أو ستمائة سفينة ورجال أكثر مما جمعهم الروم من قبل منذ مجئ الإسلام ، وأرسل معاوية سعد بن أبى السرح الذى كان مسئولاً عن البحر أيضاً «على البحر» لقطع الطريق عليهم . وتقابل الأسطولان قبالة الشاطئ عند ليكيا. وكانت الريح ضد المسلمين عندما رأوا البيزنطيين للمرة الأولى، ولكنها سكنت ورمى الأسطولان مراسيهما . ووافق الجانبان على هدنة أثناء الليل ؛ ويات المسلمون فى قراءة القرآن الكريم والصلاة على حين كان البيزنطيون يدقون نواقيسهم. وفى الصباح التالى اقترب الأسطولان من بعضهما واشتبك المسلمون بالخطاطيف مع البيزنطيين . وكان القتال بالسيوف والخناجر وقتل كثير من الرجال على الجانبين . وفى النهاية نصر الله المسلمين، وجرح الإمبراطور وهرب من المكان

ونجا عدد قليل فقط من الروم بحياتهم . وبقى ابن أبى سرح فى الموقع عدة أيام قليلة ثم عاد إلى بلاد الشام .

وأطول رواية لدينا عن المعركة هى تلك التى قدمها لنا ابن عبد الحكم ، الذى استخدم مصادر من مصر ، يفترض أنها جُمعت هناك لأن كثيرين من الرجال فى الأسطول العربى كانوا من مصر وعادوا إليها . والرواية إلى حد كبير تمت صياغتها من روايات عديدة ، على أية حال ، ومن المخبى للأمال أن هناك مساحة كبيرة فى الرواية قد خصصت للحديث عن من تزوج ابنة من بعد الحادثة وأمور أخرى قليلة الفائدة بالنسبة للمؤرخ المهتم بالشئون البحرية . ووفقا لما يمكن استخلاصه من الرواية ، كانت المعركة جزءاً من عملية مشتركة وكان نصف طواقم السفن (الشحنة) على البر فى وقت المعركة . وكانت لدى البيزنطيين ألف سفينة مقارنة بمائتى سفينة لدى المسلمين وعقد القائد عبدالله بن سعد بن أبى السرح مجلس حرب قال فيه رجل من أهل المدينة كان متطوعاً : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (*) وإذ ارتفعت معنويات المسلمين على هذا النحو اقترب الأسطولان من أحدهما الآخر وبدأ القتال «بالنبل والنُشاب» . وأرسل الإمبراطور^(١١) رسائل ليعرف كيف كان يجرى القتال . وعندما سمع أنهم يقاتلون بالنبل والنُشاب قال إن البيزنطيين سوف ينتصرون ؛ وعندما سمع بعد ذلك أنهم يقذفون الأحجار ، قال مرة أخرى إن البيزنطيين سيكسبون ، ولكنه عندما سمع بأن السفن قد رُبِطت معاً وأن الرجال يقاتلون بالسيوف تنبأ بأن العرب سيكونون هم الظافرين .

أما رواية ثيوفانس اليونانية فتقدم خلفية تختلف إلى حد ما . ووفقا له ، كان معاوية يُجهز أسطولاً للهجوم على القسطنطينية . وبينما كان يتم تجهيز الأسطول فى طرابلس (لبنان) «قام اثنان من محبى المسيح هما ولدا بوكيناتور Bucinator (نافخ البوق) باقتحام سجن طرابلس وأطلقا سراح عدد كبير من الأسرى البيزنطيين

(*) سورة البقرة : آية ٢٤٩ .

منه. ثم نهبوا المدينة وقتلوا الوالى قبل أن يهربوا إلى الأراضى البيزنطية . وعلى أية حال، لم يكن معاوية ليرتدع ، وانطلق الأسطول في موعده تحت قيادة Phoenix في ليكيا وكانت استعداداته هزيلة بشكل كارثى. وسرعان ما امتلأ البحر بدماء البيزنطيين ورمى الإمبراطور ثوبه الإمبراطورى حتى لا يعرف أحد بهروبه . ولم ينقذه سوى واحد من ولدى بوكيناتور الذى أنقذه من الماء وقُتل بدلاً منه .

وتتفق جميع الروايات على أن المعركة (ذات الصواري) كانت نصراً كبيراً للمسلمين وكانت علامة على نهاية التفوق البحرى البيزنطى الساحق فى شرق المتوسط. ومن سوء الحظ أننا لا نملك صورة أكثر وضوحاً عما حدث . وأحدث مؤرخ كتب عن المعركة له رأى يحط من قدر كل من الجانبين :

«لقد تم تجاهل أكثر القواعد بدائية فى فن القتال البحرى على كلا الجانبين ، وكان السبب فى ذلك يرجع جزئياً إلى أن البيزنطيين استهانوا بعدوهم . وقد واجه الأسطولان كل منهما الآخر طوال الليل قبل أن يشتبكا دونما خطة . ولم يكن هناك أى قذائف قذفت فيما بينهما سواء بالسهم أو بالحجارة التى تطلق من آلات خاصة . ولم تستخدم أى سفينة من الجانبين مقدمتها . ولأن ركوب البحر كان يتطلب مهارة عالية وجد العرب حلاً أكثر سهولة ؛ فقد عمدوا إلى ربط سفنهم بسفن العدو وبذلك حولوا القتال البحرى إلى قتال برى ... ولم يحسب أى من الطرفين حساب الريح»^(١٢).

والمصادر شحيحة حقاً بالقدر الذى يحول دون معرفتنا ما إذا كان هناك ما يبرر هذا اللوم العنيف . وعلى أية حال ، فإنه يبدو واضحاً أن الأسطول الرسلامى بقى إلى حد كبير أقل من القوات البيزنطية. وقد تجلى هذا واضحاً بشكل خاص فى أثناء الهجوم على القسطنطينية ، الذى بدأ فى سنة ٦٧٤م^(١٣). وقد فهم المسلمون منذ البداية أنه من المستحيل أخذ المدينة بدون السيطرة على مياه البحار من حولها أولاً . وقد دخل أسطول عربى كبير، تحت إمرة ابن الخليفة معاوية بن أبى سفيان، وخليفته فيما بعد ، يزيد ، إلى بحر مرمرة . وعلى مدى أربع سنوات حاصر المدينة طوال الصيف، ثم يتراجع فى الصيف إلى كوزيكوس Cyzicus على الجانب الجنوبى من بحر مرمرة .

وقد ساعد البيزنطيون استخدام «النار الإغريقية» الشهيرة ، ومن الواضح أنها كانت المرة الأولى لاستخدامها، وكان قد اخترعها رجل من بعلبك فى بلاد الشام قرّ لاجئاً إلى بيزنطة من الأراضى التى فتحها العرب . وكانت النار الإغريقية مزيجاً من الزيت الخام ومواد أخرى تجعله يلتصق بالخشب . وكان يُشعل ويُدفع من إناء (سيفون) على سفن العدو. وإذا ما وضعنا فى اعتبارنا أن البيزنطيين أخذوا التركيبة من البعلبكي ، فمن المؤكد أن ثمة احتمالاً بأن هذه التكنولوجيا جاءت من الشرق الأوسط فى الأصل. وهناك فى الحقيقة بعض الأدلة (انظر القصيدة التالية) على أن النار الإغريقية كانت بحوزة المسلمين أثناء حصار المدينة لأول مرة .

وتغنت بالنصر قصيدة كتبها باليونانية رجل اسمه Theodosius Gramaticus ثيودسيوس جراماتيكيوس ، ومعظمها حمد ومديح تقليدى للرب الذى منح المسيحيين هذا النصر . ولكن هناك بضعة أبيات يبدو أنها تلقى الضوء على حقيقة معاصرة .

« لقد أنقذت ، يارب الجميع ، مدينتك من الموجات الساحقة من العرب أشر الناس وأقذرهم ، لقد سرقت منهم والخوف والرعدة وظلالهم المرتدة....

أيها الملعونون، أين الآن صفوفكم البراقة اللامعة من الشباب؟

أين الآن صوت الأنغام المنبعثة من أوتار نبالكم ؟ أين بريق سيوفكم وحرابكم ولعان صفائح صدوركم والخوذات فوق رؤوسكم ، وبريق سيوفكم المعقوفة وتروسكم الداكنة ؟

أين السفن ثنائية السطح قاذفة اللهب ، وسفن السطح الوحيدة السريعة أيضاً فى القتال؟ ماذا تقولون يا بنى اسماعيل ، أيها الشرهون البائسون ؟ لقد كان المسيح قوياً فى عمل الخلاص يحكم بوصفه الرب والسيد . منح القوة وأعطى السند فى المعركة . شتت نبالكم ونشابكم وسحق القوة البشرية... ولهذا، مجد الرب وامتدحه أيها المحيط وقد كشفت عن القتل وقد تمزقوا شرّ ممزق ! وأنت أيتها الأرض اصدحي بكورس من الترانيم لمن يليق به الشرف والمجد والقوة بلا توقف دهوراً ودهوراً وعلى مدى السنوات الطوال^(١٤).

وأخيراً لقي الأسطول الإسلامي الهزيمة وتشنت في سنة ٦٧٨م واضطر الجيش البري إلى الانسحاب . وفي طريق العودة إلى بلاد الشام، تم تدمير الكثير من سفن الأسطول العربي في عاصفة هبت قبالة ساحل بامفيليا Pamphylia . وفي المحصلة الأخيرة كان نجاح الأسطول البيزنطي هو الذي أنقذ القسطنطينية.

وحدثت الحملة البحرية الكبرى الثانية ضد القسطنطينية في السنوات ٧١٦-٧١٨م. ومرة أخرى يكون المؤرخ اليوناني ثيوفانس شاهدنا الرئيسى لأن المصادر العربية مختصرة جداً. ووفقا لهذا الراهب اليوناني ، بدأت المعركة عندما نشب صراع على موارد الخشب الذي كان حيويًا للغاية في بناء السفن . فقد صار البيزنطيون على وعى بأن العرب في مصر زاهبون في حملة إلى لبنان لإحضار الأخشاب . وقرر الإمبراطور أرتميسيوس Artemios أن يعترض الحملة وجميع السفن الشراعية السريعة لهذا . وتجمع الأسطول البيزنطي في رودس تحت قيادة شماس من كنيسة أياصوفيا الكبيرة اسمه يوحنا، وكان أيضا وزير المالية . وكانت الأوامر الصادرة إليهم أن يغيروا على لبنان ويحرقوا الأخشاب . ولم تسر الحملة حسب الخطة . وكما يحدث غالباً في الإمبراطورية البيزنطية في تلك الفترة، حدث تمرد، وتم اغتيال القائد الإمبراطوري وانطلقت القوات صوب العاصمة للإطاحة بأرتميسيوس ، وتركوا العرب يتفرغون لبناء سفنهم.

وفي سنة ٧١٦م انطلق جيش برى ضخم يقوده مسلمة بن عبد الملك صوب القسطنطينية وفي الوقت نفسه ، تم تجميع أسطول بحري . ويبدو أن وظيفته الأساسية كانت مساندة الجيش البري الذي كان مسلمة يهاجم به المدينة وإمداده بالمؤن. وكان شتاء ٧١٦-٧١٧م قد انقضى على الساحل القليقي . وفي الربيع أبحرت السفن غرباً ، ثم شمالاً. وأرسى في أبيدوس Abydos على ساحل الدردنيل قبل الدخول في بحر مرمرة. وفي ١٥ أغسطس بدأ مسلمة يفرض الحصار على المدينة وفي أول سبتمبر جاء أسطول ضخم قيل إن عدد سفنه وصل إلى ألف وثمانمائة سفينة ليرمى مرساه أسفل أسوار المدينة؛ وكانت بعض سفنه قرب الضواحي على الشاطئ الآسيوي للسفوف والبعض الآخر على الساحل الأوربي شمال القرن الذهبي . ويقول ثيوفانس إن السفن العربية كانت بلا فائدة لأنها كانت تتوء بحمولاتها الثقيلة . وكان الطقس يديعاً واندفعوا

داخل البسفور . وكانت هذه غلطة كبيرة . وقد أرسل الإمبراطور ليو الثالث ، الذى كان يراقب العمليات ويوجهها من الأكروبوليس (قلعة القسطنطينية) ، سفن النار الإغريقية فيما بين السفن العربية، فحولتها إلى حطام ملتهب : «وكانت بعضها ما تزال تحترق وهى تصطدم بالسور البحرى، على حين غاصت أخريات فى الأعماق . أما الرجال وغيرهم ، وقد استشاطوا غضباً ، فقد ابتعدوا حتى جزيرتى Oxeia أوخيا ويلاتيا Plateia (وهى جزر الأمراء الحديثة فى بحر مرمرة)». وابتهج سكان المدينة ابتهاجاً عظيماً بهذا، على حين ارتعدت فرائص المهاجمين من الرعب «لأنهم عرفوا مدى قوة النار الإغريقية» ونجت بعض السفن العربية من الحريق الهائل وحاول الإمبراطور أن يستدرجهم داخل مياه القرن الذهبى بأن خفض السلاسل التى تمتد ما بين المدينة وغلطة Galata . وخاف القادة العرب من أنهم لو دخلوا فيه سترفع السلاسل ويقعون فى مصيدة محكمة . وبدلاً من ذلك أبحروا فى البسفور، حيث أمضوا الشتاء فى خليج على الساحل الأوروبى حيث تقع قلعة روملى حصار العثمانية العظيمة الآن.

كان الشتاء قاسياً للغاية. وظل الجليد على الأرض مائة يوم، وعانت قوات المسلمين على الأرض معاناة رهيبة من الجوع والبرد. وفى الربيع التالى وصلت الإمدادات ، أربعمئة سفينة تجارية تحمل الطعام من مصر يقودها سفيان ، ثلثها مائتان وستون سفينة من شمال أفريقيا ومعها السلاح والمؤن على السواء. وكان كل من القائدين قد سمع آنذاك عن النار الإغريقية ، وبدلاً من الاقتراب من أسوار المدينة ، جعلوا سفنهم مستترة جيداً بعيداً عن الضرر على الشاطئ الآسيوى لبحر مرمرة .

وكان كثير من البحارة فى الأسطولين من القبط النصارى من مصر وقرر بعضهم على الأقل أن ولاءهم مع رفاقهم المسيحيين فى الإمبراطورية البيزنطية. وفى ليلة من الليالى أخذوا قارباً خفيفاً من السفن التجارية وذهبوا إلى المدينة ، وأظهروا ولاءهم للإمبراطور. وأخبروا الإمبراطور عن الأسطولين المختبئين على امتداد الشواطئ الجنوبية للبحر وجهز سفناً قاذفة للنار الإغريقية ، وسفناً ذات طابقين . ويكتب المؤرخ المتدين (ثيوفانس) «بفضل مساعدة الرب ومن خلال تدخل أمه العذراء المقدسة، تم إغراق العدو فى مكانه، وتم الاستيلاء على البضائع والمؤن من الأساطيل العربية».

وجاءت النهاية فى ١٥ أغسطس سنة ٧١٨م عندما وصلت رسالة من الخليفة التقي عمر بن العزيز ، الذى كان حذراً على الدوام من الحملات العسكرية الطموح، وأمر مسلمة بأن يعود. وكان هذا تدخلاً إليها آخر لنجدة البيزنطيين .

«وعندما كانت حملتهم فى طريق العودة إلى ديارهم ، انقضت عليهم عاصفة هوجاء : جاءت من الرب بتدخل من أمه . فقد أغرق الرب بعضهم قرب Prokonessos جزيرة فى بحر مرمرة اشتهرت فى العصور القديمة بمحاجر الرخام وغرق آخرون عند Apostrophoi وغيرها من التتواءات الصخرية . وأولئك الذين ذهبوا يساراً كانوا قد وصلوا بحر إيجة حيث انصب عليهم غضب الرب العنيف ؛ فقد نزل عليهم مطر نارى جعل مياه البحر تزد وتغلى (ربما كان هذا مرتبطاً بالزلزال الذى حدث فى بلاد الشام فى ذلك الوقت) . وما إن سقط القطران الذى يلحم السفينة ، حتى غاصت السفن إلى القاع ، بمن عليها وما عليها من الرجال والمتاع . ولم ينج سوى عشرة لكى يحكوا لنا وللعرب عن العظمة التى تعامل بها الرب معهم»^(١٦).

كان إخفاق القوة البحرية الإسلامية أمام أسوار القسطنطينية وأساطيلها علامة على تغير رئيسى فى توازن القوى بين العرب والبيزنطيين . فقد كانت تلك آخر مرة تصل فيها السفن الإسلامية بحر مرمرة قبل أواخر القرن الحادى عشر . لقد أنقذت القوة البحرية القسطنطينية ومنعت المسلمين من تحقيق نصرهم النهائى .

وكانت المنطقة الأخرى التى شهدت النشاط البحرى فى أثناء الفتوح الإسلامية الباكورة ساحل شمال أفريقيا وصقلية . وكانت أول حملة بحرية إسلامية على صقلية فى سنة ٦٥٢م ، قبل أن يتم فتح شمال أفريقيا فعلياً بوقت طويل . فقد قامت قوة إسلامية من مائتى سفينة بنهب سواحل الجزيرة على مدى شهر، وأخذت غنائم من الكنائس والأديرة قبل عودتها إلى بلاد الشام^(١٧).

ومع تأسيس مدينة تونس ، بدأت العرب يطورون قاعدة بحرية فى شمال أفريقيا . وكان تأسيس المدينة قد بدأ على الأرجح على يد حسّان الوالى حوالى سنة ٧٠٠م فى أعقاب سقوط قرطاجة . والسبب فى اختيار موقع المدينة الجديدة بدلاً من استخدام

ميناء قرطاجة البيزنطى، ليس واضحاً . وربما يكون السبب أن الميناء القديم كان قد امتلأ بالرمال أو صار غير قابل للاستخدام لأى أسباب أخرى، ولكن الأرجح أن جاذبية تونس كانت تتمثل فى أنها لم تكن على البحر المفتوح، بحيث تكون عرضة للهجمات البحرية البيزنطية، ولكنها كانت على بحيرة ضحلة (جون) تربطها بالبحر قناة قصيرة فى ذلك الحين. وهو ما سهل تحصينها بدرجة كبيرة . وازدهرت المدينة لتصير القاعدة البحرية الرئيسية فى أفريقيا، على الرغم من أن مركز الحكم ظل فى القيروان بالداخل .

وحدث بعد ذلك بوقت قصير أن قام المسلمون بأولى فتوحهم فى جزر البحر المتوسط عندما استولوا على بانتيليريا فى سنة ٧٠٠م على ما يبدو. وبعد ذلك بسنوات قليلة ، وربما فى سنة ٧٠٣م وصل أسطول مصرى كبير تحت قيادة عطاء بن رافع إلى شمال أفريقيا^(١٨). وكان الخريف قد حل بالفعل ومن المتوقع هبوب العواصف . وحذر الوالى موسى بن نصير من القيام بحملة فى تلك السنة ولكن عطاء بن رافع كان يضع نصب عينيه ما يمكن الحصول عليه من الغنائم من الجزيرة ولم يكن على استعداد للانتظار . وقرروا شن غارة على سردينيا . وسارت الأمور سيراً حسناً حتى رحلة العودة . وعندما كانوا على وشك الوصول إلى ميناء تونس، هبت عاصفة مفاجئة وغرق معظم الأسطول . وعلى الشاطئ القريب جمع عبد العزيز بن موسى بن نصير جثث الغرقى وبقايا حطام سفنهم وحمولاتهم . واحتمت السفن الناجية وطواقمها بتونس حيث قام موسى بن نصير برعايتهم . وربما كانت نتيجة ذلك الإحسان الذى أظهره تجاههم أن شكل هؤلاء الرجال أساس القوة البحرية التى غزا بها موسى بن نصير إسبانيا بعد ذلك بتسع سنوات .

وقد تركت هذه الكارثة البحرية صدى مثيراً فى أوراق البردى المصرى. فمن بين عدد من الخطابات من الوالى العربى إلى الباجارخ (مالك أرض وموظف محلى) فى أفروديتو بمصر العليا يوجد خطاب يستفسر فيه الوالى عما حدث للبحارة ، وربما كانوا جميعاً من القبط، من أبناء المدينة والذين كانوا قد انضموا إلى الأسطول .

وباستجواب بيروقراطى ثقيل الوطأة تماماً، يريد أن يعرف كم عدد الذين عادوا منهم إلى ديارهم وكم بقوا فى المغرب^(١٩). وهو أيضاً يريد المزيد من التفاصيل عن أولئك الذين لم يعودوا، وعمّن مات منهم ، ولماذا بقى بعضهم فى إفريقية . وليس لدينا سوى خطاب الوالى، ولكن الرد عليه ليس بحوزتنا ، ولكن خطاب البردى تكشف عن نقطتين بمنتهى الوضوح : مدى الإشراف الوثيق على الأسطول من جانب الوالى ، وكيف أنه حتى أفروديتو كوم أشقوه، التى تبعد حوالى خمسمائة كيلو متر عن البحر، كانت ملزمة بأن ترسل رجالاً للعمل فى الأسطول .

وبعد تأسيس دار صناعة السفن فى تونس، صار أسطول شمال أفريقيا مستقلاً بصفة جوهرية عن الأساطيل الإسلامية فى شرق المتوسط تحت قيادة الوالى المحلى. وكان فى جوهره عصبية من البحارة المستقلين الذين يعملون فى الواقع مثل القراصنة ، يغيرون على الجزد وعلى الخطوط الساحلية المكشوفة فى المنطقة الوسطى من حوض البحر المتوسط من أجل الحصول على المغانم والرقيق. وكما رأينا، كان بوسع الأسطول فى شمال أفريقيا أن يقدم ثلاثمائة وستين سفينة مسلحة . وفى بعض الأحيان كان البحارة يواجهون مقاومة بحرية ففى سنة ٧٣٣م لحق بهم أسطول بيزنطى قبالة صقلية استخدم النار الإغريقية ليحرق الكثير من السفن العربية^(٢٠). وفى العام التالى واجهت مجموعة أخرى سفناً بيزنطية وخسرت حمولتها من الأسرى . وفى سنة ٧٤٠م تم القيام بحملة على نطاق واسع . وفى هذه المرة كان الهدف سيراكيوز عاصمة صقلية البيزنطية ، وجلب العرب خيولهم معهم فى الحملة . ويحتمل أن هذه كانت علامة على البداية الحقيقية لفتح صقلية ، لولا أنه حدث فى السنة التالية، أى سنة ٧٤١م، أن نشبت ثورة ضخمة من جانب البربر فى شمال أفريقيا ضد جباة الضرائب العرب وتجار الرقيق . وتم طرد العرب مؤقتاً من معظم أنحاء المغرب الإسلامى ، ومن المؤكد أنهم لم يكونوا فى وضع يسمح لهم بالقيام بأية غارات هجومية.

التنظيم البحري

الحفاظ على الأساطيل أمر صعب ، كما أنها مكلفة وتتطلب مصادر مكرسة لها لصيانة السفن والحفاظ عليها ، حتى عندما لا تُدر أى أموال . ففي رقعة من الأرض يمكن جمع جيش برى بتكاليف قليلة تماماً . إذ كان الرجال سيخدمون انتظاراً للغنائم وقد يقومون بتوفير معداتهم ودفع ثمن طعامهم . حقاً أنه كان يتم دفع الرواتب للجنود النظاميين في القرن الثامن ولكن عندما كان الأمر يتعلق بالجهاد ضد الكفار كان المتطوعون يؤلفون شطراً كبيراً من القوات .

أما الحرب البحرية فكانت تختلف تماماً . إذ كان لا بد من بناء السفن قبل الحملة بوقت كاف . وحتى لو كانت هناك بعض السفن موجودة بالفعل ، فإنها كانت تحتاج إلى التأهيل وإعادة التثيث . وربما كان الرجال المقاتلون يخدمون متطوعين على أمل الحصول على غنائم ولكن البحارة المهرة والمجذفين كان لا بد من إجبارهم أو الدفع لهم للدخول في الخدمة . ويعنى هذا أن التنظيم ترك أثراً ، حتى في السجلات الإدارية المختلطة جدا التي بحوزتنا من العصور الإسلامية الباكرة .

كان التنظيم البحري مرتكزاً على نور صناعة السفن . والكلمة الإنجليزية Arsenal ، المأخوذة عن الإيطالية ، مشتقة في الأصل من الكلمة العربية «دار الصناعة» . وهو مصطلح كان مستخدماً بالفعل في القرن التاسع الميلادي/الثالث الهجري ، إن لم يكن قبل ذلك ، لوصف القواعد البحرية التي تستخدمها الأساطيل الإسلامية . وكانت أولى القواعد البحرية في مصر والشام . ويبدو أن أقدم قاعدة في بلاد الشام كانت في عكا ، ولكنها نُقلت إلى صور على يد الخليفة هشام بن عبد الملك لأن مالك الأرض المحلي في عكا رفض بيعها إلى الخليفة : ولا محل هنا للشراء الجبرى . وفي صور بنى فندقاً لإيواء العمال على ما يفترض كما بنى مخزناً للفلال (مُسْتَفَل)^(٢١) . وفي ذلك الوقت تقريباً زار سان ويليالد St. Willibald الأنجلو - سكسونى صور مرتين في سياق حجه إلى الأرض المقدسة سنة ٧٢٤ - ٧٢٦ م ، ومن صور استقل سفينة في طريقه للعودة إلى وطنه . وقد سجل بمرح كيف كان قادراً على أن يأخذ البلسم المقدس من خلال

الجمارك العربية بأن أخفاه فى قنينة زيت معدنى. ولاحظ أيضاً أن الميناء فى منطقة أمنة ومن يزورها دون إذن يتم القبض عليه^(٢٣). ولدينا أوصاف عدة عن صور من الجغرافيين العرب فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين/الثالث والرابع الهجريين ، وأحد الجغرافيين يصفها بأنها رأس مدن الساحل وتضم دار الصناعة . ومن هناك تبحر سفن الحكومة فى حملات ضد اليونانيين (الروم). وهى جميلة جيدة التحصين^(٢٤). ويكتب آخر أن صور مدينة حصينة على البحر ولا يدخل المرء سوى من بوابة واحدة فقط، فوق جسر، ويحيط بها البحر من كل جانب ، وبقيتها تحيط بها ثلاثة أسوار ترتفع خارجة من البحر مباشرة . وهناك عمال لكل منهم تخصصه^(٢٥).

وفى سنة ٨٦١م نقل الخليفة المتوكل القاعدة البحرية إلى عكا مرة أخرى، وفيما بعد، ربما فى سبعينيات القرن التاسع الميلادى، قام الحاكم شبه المستقل أحمد بن طولون والى مصر بتحسين رئيسى فى الميناء والدفاعات . ولدينا وصف عن العمل قدمه الجغرافى العربى المقدسى وهو أكمل رواية لدينا عن بناء الميناء الإسلامى الباكر^(٢٦). فيحكى بقدر كبير من الفخر عن إسهام جده فى العمل فيقول إن عكا مدينة حصينة على الساحل ، وتمت تقوية دفاعاتها كثيراً بعد أن زارها ابن طولون . وكان قد شاهد من قبل تحصينات صور حيث كان الميناء محمياً بسور محيط وأراد تحصين عكا بالطريقة نفسها. وتم إحضار الصنّاع من جميع نواحي البلاد ولكن عندما وصفوا الخطة لهم ردوا جميعاً بأن أحداً لا يمكنه أن يضع الأساسات تحت الماء . ثم ذكر أحدهم جد الجغرافى المقدسى أبا بكر البناء وقال إنه إذا كان يمكن عمل شيء كهذا ، فإنه الرجل الوحيد الذى يمكنه القيام بذلك . وهكذا أمر ابن طولون والى القدس أن يرسل إليه أبا بكر . وعندما وصل سأله رأيه فأجاب بأنه ليست هناك مشكلة وطلب إحضار ألواح طويلة قوية من خشب الجميز . وعومها فوق سطح الماء على هيئة بناء قلعة على البر وربطها سوياً . وترك بوابة كبيرة على الجانب الغربى (ناحية البحر) ثم شد بناء بالحجارة والملاط عليها وقواها بأن أدخل عواميد عظيمة على مسافة خمسة أذرع بين كل منها والآخر. وبدأت ألواح الخشب تغوص تحت الثقل. وبمجرد أن استقرت على القاع الرملى للميناء ، أوقف العمل لمدة سنة حتى يثبت البناء . وأخيراً أوصل هذه

الدفاعات بأسوار المدينة القديمة وبنى جسرا عبر المدخل إلى الميناء . وحينما تكون هناك سفن فى الميناء ، كانت تمتد سلسلة عبر المدخل مثلما كان الحال فى صور . وقبل أن يتم عمل هذا ، كان العدو (البيزنطيون) معتاداً على الإضرار بالسفن المتجمعة هناك . وقيل إن جد الجغرافى المقدسى قد أخذ ألف دينار ذهباً علاوة على خِلة تشريف ، وخيول وهدايا أخرى مكافأة له ونُقش اسمه على العمل .

ولم يتبق شيء من العمل فوق الماء الآن ولكننا يمكن أن نتخيله بوضوح تام . إذ إن بقايا الأعمدة الكلاسيكية ، التى وضعت بشكل أفقى فى البناء لتقويته ، كانت نمط الهندسة الصليبية على ساحل شرق المتوسط ومن المثير أن نرى ذلك مستخدماً فى ذلك التاريخ الباكر .

وفى سنة ٧٨٠م تقريباً تم تأسيس قاعدة بحرية أخرى فى طرسوس بقلقية . وكانت طرسوس مدينة بيزنطية مهمة وهى موطن بولس . ويبدو أنها قد دمرت وهجرها سكانها فى أعقاب الفتح الإسلامى مباشرة لوقوعها فى المنطقة غير الخاضعة لأحد فيما بين الأراضى الإسلامية وأرض بيزنطة . وأمر الخليفة هارون الرشيد بتحسينها وصارت مركزاً للمتطوعين القادمين من شتى أرجاء العالم الإسلامى للجهاد ضد البيزنطيين . وربما كانت السفن ترسو فى مصب النهر الذى يربط طرسوس بالبحر ، ولم يرد ذكر لآى ميناء . وفى سنة ٩٠٠م أمر الخليفة(*) بإحراق السفن كلها ، ومن الواضح أن سبب ذلك خبر جاءه يشكك فى ولاء السكان . «... وكان فى المراكب نحو من خمسين مركباً قديماً قد أنفق عليها أموال جلييلة لا يُعمل مثلاً فى هذا الوقت فأحرقت فأضر ذلك بالمسلمين ، وكسر ذلك فى عضدهم ، وأمنوا أن يُغزوا فى البحر»(*) (٢٦) . وعلى الرغم من هذا التقييم المتشائم ، فإن طرسوس سرعان ما استعادت دورها لأنه حدث سنة ٩٠٤م أن أغارت السفن الإسلامية على امتداد ساحل الأناضول المطل على البحر المتوسط حتى أنطاليا . وقد تم الاستيلاء على المدينة بالقوة ، وتم أسر حوالى خمسة آلاف أسير وأطلق سراح أربعة آلاف أسير حرب مسلم كانوا هناك . واستولى

(*) الطبرى، ج ١٠ ، ص ٨٠ ، والخليفة المعتضد بالله العباسى سنة ٢٨٧هـ . (المترجم)

المسلمون على ستين سفينة بيزنطية وحملت بالغنائم، بما فيها الذهب، والفضة والبضائع والعبيد . وتلقى كل مسلم شارك فى هذه الغارة حوالى ألف دينار . وابتهج المسلمون بالآخبار^(٢٧). وفى وقت كانت فعالية الجيش البيزنطى تتزايد ضد إغارات المسلمين البرية ، كان هذا النوع من الغنائم قد جعل الحرب البحرية تبدو جذابة جداً .

وتم تأسيس القواعد البحرية فى مصر بسرعة شديدة عقب الفتح الإسلامى، كما رأينا بالفعل ، وكان البحارة الأقباط يعملون فى بحر مرمرية وفى شمال أفريقيا عند بداية القرن الثامن الميلادى/الثانى الهجرى . وكما كان الحال على الساحل الشامى ، تم تطوير القواعد البحرية فى الموانئ التى كان يستخدمها البيزنطيون . وبطبيعة الحال كانت الإسكندرية أشهر هذه القواعد . ومن المؤكد أن هذه بقيت ميناء فى السنوات التى تلت الفتح الإسلامى. وقد وصل الحاج المسيحى أركولف Arcolf هناك بعد رحلة استمرت أربعين يوماً من يافا بفلسطين. ووجد الإسكندرية مدينة كبيرة لدرجة أن عبورها سيراً استغرق يوماً كاملاً ، تحيط بها الأسوار والأبراج . وهو يصف الفناء القديم «الفاروس» وكان لا يزال يعمل^(٢٨). ومن سوء الحظ أن المصادر العربية لاتكاد تخبرنا بشئ عن المدينة ومينائها . ونحن نعرف أن حامية عسكرية عربية كانت تقيم هناك بيد أنه لا يوجد ذكر للقوات البحرية^(٢٩). والقاعدة المهمة الأخرى على ساحل المتوسط كانت الفرما . ولكن مرة أخرى لاتذكر المصادر عنها سوى القليل. وكانت هناك أيضاً قواعد فى رشيد ودمياط. وثمة خطاب مكتوب على البردى يرجع تاريخه إلى سنة ٧١٠م يحتوى على أوامر بإرسال إمدادات إلى دمياط «من أجل الأسطول الغازى» ، بيد أن أكمل معلوماتنا عن المدينة تأتى من رواية عن غارة بيزنطية فى أوائل صيف سنة ٨٥٣م. كان وقت عيد الفطر وكان والى مصر قد أمر فى غفلة بذهاب الحامية العسكرية إلى العاصمة الفسطاط للمشاركة فى الاحتفال بالعيد . وفى أثناء غيابهم قام أسطول بيزنطى مكون من مائة سفينة (شلمدية) ، تحمل كل منها ما بين خمسين ومائة رجل ، بالهجوم وأحرقوا المسجد الجامع والكنائس، وأخذوا الأثاث ، والقند والكتان الذى كان من المنتظر نقله إلى العراق . ووجدوا أيضاً معدات عسكرية وبحرية ، حوالى ألف حربة فى طريقها إلى القوات العربية المقاتلة فى كريت ، وأحرقوا المخازن التى تحتوى على

أشركة السفن. وتم سبى حوالى ستمائة امرأة من المسلمات والقبطيات كما تم إغراق عدد أكبر من النساء والأطفال عندما حاولوا الهروب عبر البحيرة الضحلة . ثم تحرك المغيرون تجاه جزيرة تنيس ولكنهم وجدوا البحيرة ضحلة جدا بحيث لا يمكن لسفنهم أن تعبرها بحمولاتها الثقيلة . فقتلوا بالهجوم على بلدة أوشتوم الصغيرة ونهبها ، وكان قد تم تحصينها منذ وقت قريب بسور وبوابات حديدية بناء على أوامر الخليفة . وهناك وجدوا دار صناعة آلات الحصار من المنجنيقات والعرادات أحرقوها . ثم عادوا أدراجهم إلى بلادهم دون أن تعترضها قوة إسلامية فى البحر أو على الأرض. ونحن نسمع عن بلدات محصنة وعن معدات عسكرية وبحرية ولكن لا يبدو أنه كانت هناك أية سفن إسلامية فى المنطقة لتدافع عنها.

كانت جزيرة الروضة فى النيل قرب القسطنطينية مركزاً رئيسياً من مراكز صناعة السفن وفى المصادر العربية البائدة تسمى الجزيرة ببساطة «جزيرة الصناعة» . ويبدو أن هذه قد شيدت بعد غارة بيزنطية على بلدة البرلس الساحلية سنة ٦٧٣م، بسبب موقعها فى النهر تماماً بعيداً عن الساحل وهو الأمر الذى يسمح ببناء السفن وإصلاحها بأمان بعيداً عن أى مغير . وثمة وثيقة بردية تاريخها يرجع إلى سنة ٧٠٩م تبين الوالى وهو يطلب إرسال التجارين وغيرهم من الحرفيين إلى المشرف على دار الصناعة فى القسطنطينية للمساعدة فى بناء السفن^(٢٠).

وهناك مؤشرات أخرى على ما جرى فى دار صناعة السفن الإسلامية البائدة يمكن أن نجده فى شكل خطاب تعيين من الخليفة (لم يرد إسمه) إلى الوالى (الذى لم يرد إسمه أيضاً) على منطقة حدودية، مسجل فى مصدر يرجع إلى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى^(٢١) ومثل معظم الوثائق المشابهة ، يمكن استنتاج الكثير منها بالسياق العام والاستنباط السليم. فهى تبدأ بسلسلة كاملة من الأوامر الدينية بوجوب طاعة ولى الأمر وطاعة الله ، وتفضيل الأخيار من الناس على الأشرار ، وهكذا ، ولكنها تعطى بالفعل أوامر مباشرة تتصل بالموانئ والسفن. إذ تحت الوثيقة الوالى على إرسال المال لصيانة السفن ومعدات وإبقائها فى حالة جيدة وأن يخرج السفن من المياه فى الشتاء . وعليه أن يرسل الجواسيس ويبقى على علم بالأخبار . ولا يجب عليه

أن يسمح لأى من النفاطين (خبراء قاذفات اللهب)، والبحارة والقذافين ، أو غيرهم من الحرفيين العاملين على السفن بالعمل ما لم يكونوا مؤهلين بطريقة صحيحة وقادرين على العمل بطريقة حسنة. ويجب أن يستخدم أفضل القوات فقط. وعليه أن يتفقد ساحة بناء السفن ويتأكد من أن هناك من المؤن ما يكفى من الحديد والأخشاب ، والكتان ، والزفت وغيرها من الأشياء حتى يتم بناء السفن على نحو صحيح ويتم تجهيزها جيداً وتزويدها بالمجاذيف والقلوع. ويجب اختيار البحارة المجربين الذين يمكن الاعتماد عليهم. وينبغى مراقبة التجار لئلا يكونوا جواسيس . وعليه أيضاً أن ينتبه إلى الموانئ ليضمن ألا تدخلها سفينة أو تخرج منها دون معرفته . وكل شيء فى حوض بناء السفن لابد أن يكون نظيفاً ويتم صيانتها ليكون جاهزاً للعمل . ويجب أن يتأكد من أن هناك ما يكفى من إمدادات النفط، والبلسم والحبال، فى حال جيدة.

وليس هناك شيء فى هذا يمكن أن يختلف حوله بحار. ولا شك فى أن دور صناعة السفن، مثل المؤسسات العسكرية فى كل مكان، غالباً ما لا تصل إلى أعلى المستويات، ولكن من الواضح أن الإدارة كانت لديها فكرة جيدة عما هو مطلوب وكانت مستعدة ، على الأقل من حيث المبدأ ، لإنفاق المال عليه .

السفن الحربية^(٣٢)

كان كل من العرب والبيزنطيين يعولون على تراث مشترك فى تصميم السفن. فقد كانت السفن ثلاثية المجاديف وخماسية المجاديف التى عرفتها الفترة الهيلينية والفترة الرومانية قد اختفت منذ وقت طويل من مياه البحر المتوسط وحلت محلها سفن أصغر حجماً وأخف وزناً. ولم يتم التعرف على حطام سفن غارقة من تلك الفترة ولذلك فإننا نعتمد على إشارات متناثرة من المصادر المكتوبة وعدد صغير من الرسوم غير الكافية والمخططات لإعادة بناء ما كان عليه شكل السفن الحربية فى تلك الفترة . ويبقى قدر كبير من عدم اليقين . وتعنى طبيعة مادة المصادر، سواء المكتوبة أو المرئية ، أننا نعرف عن السفن البيزنطية فى العصور الوسطى الباكرا أكثر قليلاً مما نعرفه عن

السفن العربية، ولكن هناك أدلة قليلة على أن السفن الحربية التي استخدمها كل جانب اختلفت كثيراً عن سفن الجانب الآخر .

كانت سفينة الحرب البيزنطية النمطية في تلك الفترة تسمى الدرومون *dromon* أو خلانديون *Chelandion* وقد استخدم العرب الطرازات نفسها، وأطلقوا عليها اسم الشيني أو الشلندي . وكانت السفن التجارية في تلك الفترة تعتمد تماماً على الريح ولكن سفن الحرب كانت تسير بالمجاديف ، ولاتستخدم القلوع سوى عندما تكون مبحرة في طقس مناسب أو باعتبارها قوة احتياط . وكانت المجاديف أساسية لتوفير السرعة والقدرة على المناورة أثناء الاشتباك . ويقدر الباحثون أن الدرومون في المتوسط كانت ثلاثين متراً في طولها ، وإذا ما وضعنا في اعتبارنا نسبة الدعامة الأفقية إلى الطول (١ : ٨) ، فإن عرضها كان يتراوح ما بين ثلاثة أمتار وأربعة أمتار. ومن المحتمل أن السفن الإسلامية كانت مشابهة . وأكبر طاقم للدرومون عرفناه من المصادر البيزنطية كان مائتي وثلاثين مجدفاً وسبعين بحاراً على سفينة واحدة، ولكن معظمها فيما يبدو كانت تحمل ما بين مائة ومائتي رجل.

وقد شهدت العصور الوسطى الباكرة عدداً من التغيرات المهمة في طريقة تصميم السفن وبنائها^(٣٣). وكان أول تغيير حدث في بناء بدن السفينة . ففي العالم القديم، كان بدن السفينة يبني باستخدام الألواح بوضع الحافة على الحافة وتربط معاً باستخدام وُصَلات مُعَشَقَة بالأسافين . وحسبما تمت إعادة بناء سفينة ياسا أدى *Yassa Adi* التي ترجع إلى سنة ٦٢٦م من الأخشاب المحفوظة في الوقت الحاضر ، باستخدام إطار من الأضلاع تم تركيب الألواح عليها : فإنها كانت طرازاً من السفن أخف وزناً وأكثر اقتصادية ولكنها كانت أقل تحملاً للخدمة الشاقة. ولانعرف ما إذا كانت الأساطيل قد اغتنمت مزايا الأساليب الفنية الجديدة في بناء بدن السفينة التي نجدها في «ياسا أدى» ، ولكن الأرجح أن ذلك حدث، لأن هذه كانت أرخص ثمنًا وأخف وزناً . وكان التغير الثاني هو التحول من مقدم السفينة الذي يكون تحت الماء إلى المهاميز الظاهرة فوق الماء عند مقدم السفينة . وكانت السفن الكلاسيكية تستخدم الكبح المركب في مقدم السفينة تحت الماء باعتبارها سلاحاً مهماً في الحروب البحرية ،

ولكن هذه كانت قد فقدت أهميتها فى نهاية العصور القديمة وصار بناء بدن السفينة الأخف وزناً يشد بالرصّ والتثبيت المباشر^(٣٤). وكان التجديد الثالث هو التغير الذى طرأ على شكل القلوع وترتيبها . وكانت السفن الرومانية اللاتينية قد استخدمت القلوع المربعة المركبة عبر العارضة الأفقية للسفينة ، ولكن حدث فى وقت غير معلوم فى العصور الوسطى الباكورة أن حُلّت محلها قلوع مثلثة الشكل جعلت توجيه السفن حسب الريح مسألة أسهل من ذى قبل . ويبدو أن السفن العربية كانت تستخدم القلوع المثلثة منذ البداية. وثمة تطور مميز آخر فى تلك الفترة تمثل فى استخدام «القلع» الخشبية فوق سطح السفينة لى توفر ميزة الارتفاع للبحارة عندما يقاتلون عن قرب . وفى أواخر العصور القديمة كان يتم توجيه السفن بمجدافين كبيرين فى مؤخرة السفينة، ويبدو أن هذا قد استمر حتى القرن العاشر أو القرن الحادى عشر، عندما حُلّت محل مجدافى التوجيه الدفة الوحيدة فى مؤخرة السفينة.

كانت العمليات الحربية البحرية أشبه بحرب برية تدور فوق ظهور السفن، وتوحى المقالات البيزنطية عن الحرب البحرية فعلاً بأن ترتيب الأسطول كان يأخذ شكل الهلال. والقائد فى المركز ومعه أقوى السفن. وتوحى إحدى المقالات أيضاً بأنه إذا دارت المعركة قبالة ساحل العدو، فمن الأفضل أن تكون قرب الشاطئ حتى يمكن إغراء بحارة العدو بالتخلي عن السفن والسباحة تجاهه . ويبدو أنه وراء هذه كان هناك عدد قليل من المرشدين لنشر السفن تكتيكياً. وعادة ما كانت المعركة تبدأ برمى المقذوفات ، والنشاب ، والحجارة والمواد القابلة للاشتعال . وبالإضافة إلى قاذفات النار الإغريقية ، التى كانت تركب عادة فى مقدمة السفينة ، كان لابد للسفن من أن تحمل المنجنىقات لقذف الأحجار وقوارير النار الإغريقية . وتمثلت إحدى الأفكار المثيرة للدهشة فى قذف حاويات للعقارب أو الأفاعى السامة على أسطح السفن المعادية ، وهى فكرة قد تبدو أشد جاذبية نظرياً مما كانت عليه فى الظروف العملية للقتال من سفينة إلى سفينة^(٣٥). كانت الأقواس والأقواس المتطورة الأسلحة الرئيسية وفى نهاية المعارك البحرية ، مثل معركة ذات الصواري ، كان يتم الحسم بالقتال اليدوى المتلاحم بين الجنود ، متلماً كان يحدث فى معارك البر.

وكانت طواقم السفن تتكون من عنصرين ، المدفين والبحارة من ناحية ، والجنود أو رجال البحرية من ناحية أخرى. وتوحى الأدلة المتاحة بأن السفن البيزنطية لم يكن فيها فصل كامل بين العنصرين وأن البحارة كان يمكن أن يتحولوا إلى مقاتلين إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك ، أما فى الأساطيل الإسلامية الأولى، فعلى النقيض ، يبدو أنه كان هناك تمييز صارم تماماً بين الجنود الذين كانوا من المسلمين العرب ورجال البحر، الذين كانوا من المسيحيين الشوام أو الأقباط. مثل هذه التمييزات ربما صارت غير ذات موضوع بحلول القرنين التاسع والعاشر الميلاديين / الثالث والرابع الهجريين ، لاسيما فى سفن القرصنة.

أدلة البردى المصرى

تقدم لنا أوراق البردى الإدارية المصرية التى ترجع إلى القرنين السابع والثامن نظرة ثاقبة فى تجنيد البحارة وتموين الأسطول. وأهم هذه البرديات سلسلة الخطابات التى كانت موجهة من قرة بن شريك ، والى مصر العربى من ٧٠٩ إلى ٧١٤م إلى الموظف الإدارى فى مدينة أفروديتو الصغيرة فى مصر العليا ، وهى الآن كوم إشقاو ، وكنا قد اقتبسنا واجدة من هذه البرديات بالفعل فى مناقشة غارة سنة ٧٠٣م على سردينيا . والوثائق مكتوبة باليونانية والقبطية والعربية ، ولكن أهمها من وجهة نظرنا هى الوثائق اليونانية لأن اللغة اليونانية كانت لا تزال لغة الإدارة الرئيسية فى أقاليم مصر ، على الرغم من أن الحكومة المركزية فى القسطنطينية كانت تعمل بالعربية.

وتبعد أفروديتو عن البحر مسافة طويلة ، وبينما كان الأهالى على دراية بالقوارب النهرية فى نهر النيل، فمن الصعب ، أن نتصور أنه كانت لكثير منهم أية خبرة مباشرة بالملاحة فى أعالي البحار. وعلى الرغم من هذا ، فقد كان من المتوقع أن يشاركوا فى الأسطول المصرى . وكان مطلوباً من كل منطقة أن تقدم عدداً معيناً من البحارة . ونعرف أن هؤلاء ربما يكونوا قد تم تجنيدهم من الحمامين، والجزارين والرعاة أى الرجال العاملين فى مهن يدوية متواضعة ، وكان المفروض أن يكون فى كل قرية سجل بالرجال

اللائقين لهذا العمل . وكان ملاك الأراضي المحليون ملزمين بتقديم هؤلاء الرجال وتقديم ضمانات بأنهم إذا لم يظهروا ، يمكن للحكومة استئجار بدلاء لهم . وفي أحد الخطابات من ملاك الأراضي المحليين إلى الوالى يضمنون أنهم سيفعلون هذا :

«نحن نعلن بأننا على استعداد، وأتينا نضمن، أننا مسئولون ونؤكد ويمكن الاعتماد علينا، بأن أشخاص هؤلاء البحارة وهم العاملون فى حقولنا ، والذين نورد أسماءهم لك فى آخر إعلان الضمان هذا . ونحن نرسلهم شمالاً باعتبارهم بحارة فى السنة السابعة من الوحدة الزمنية الثامنة^(*) . وبهذه الطريقة سوف يقومون بواجبهم باعتبارهم بحارة فى إحصاء سكان مصر دون ما انحراف . ولكن إذا حدث انحراف ، فإننا على استعداد لدفع أى غرامة قد يفرضها سيدنا والوالى المشهور علينا»^(٣٦) .

وتنتهى الوثيقة بأسماء ثلاثة بحارة وعناوينهم مع توقيعات الضامنين .

وفى خطاب آخر ، تصدر الأوامر إلى الأهالى المحليين لإرسال مصروفات اثنين ونصف (!) من البحارة للانضمام إلى الأسطول الذى كان ينظمه عبدالله بن موسى بن نصير فى إفريقية . وكان سيتم دفع واحد وسدس صولدى ومصروفات سفر قدرها ١١ وسدس صولدى من «بيت المال» ويفترض أنها الأموال التى كانت الناحية مدينة بها من أموال الخراج .

ولم يكن ممكناً أبداً أن يكون التجديف فى السفن ، لاسيما السفن الحربية التى تنتمى إلى طبقة حاكمة غريبة ، اختياراً محبوباً لمجال العمل، ولكن الخطابات توحى بأنه، على الرغم من أن الخدمة كانت إجبارية من الناحية النظرية إذا ما كان اسم الشخص مدرجاً فى القائمة ، فإنه على الأقل سيتلقى أجراً لقاء ذلك . ولم يكن هؤلاء من عبيد السفن كما كان معتاداً فى روما القديمة . وعلاوة على ذلك ، من الواضح أنه فى بعض الأحيان ، ولكنه لم يكن دائماً بئى حال، كان من الممكن جعل البديل النقدي عوضاً عن القيام بالخدمة شخصياً . بل إن إحدى البرديات تحتوى على طلب وسائد ،

(*) أى استخدام وحدات زمنية كل منها تمتد خمس عشرة سنة indiction حسب التأريخ الرومانى القديم .

وافترض البعض أنها كانت مطلوبة لمقاعد المجذفين^(٣٧)، وربما كان ذلك نوعاً من الإفراط في التفاؤل . وقد لاحظنا بالفعل كيف كتب قرّة بن شريك مستفسراً عن مصير أولئك الرجال من أفروديتو الذين كانوا قد انضموا إلى أسطول عطاء بن رافع في غارته الفاشلة . فقد كان البعض قد ماتوا، وعاد البعض الآخر إلى ديارهم على حين بقى آخرون في إفريقية، وأراد الوالى أن يعرف السبب. فهل كان من الممكن أن توفر الخدمة في الأسطول لبعض الرجال على الأقل فرصة الهرب من قيود الحياة القروية ويبدأون بداية جديدة ؟

وإذا كان الأسطول بحاجة إلى الرجال، فإنه كان يحتاج أيضاً إلى المواد لبناء السفن. ومرة أخرى كان مطلوباً من ملاك الأراضي في أفروديتو تقديم المساعدة . ومن الواضح أن الأخشاب كانت أهم هذه المواد . وكانت بعض الأخشاب تُجلب من الغابات القديمة على الجبال اللبنانية ولكن مصر نفسها كانت تنتج بعض الأخشاب الجيدة . كانت هناك شجرة اللبغ التي قيل عنها إنه لو تم توصيل قطعتين منها ببعضهما بثبات وتركنا في الماء لمدة عام صارتا مثل قطعة واحدة ، وشجرة السنط ، التي يقال إن خشبها في صلابة الحديد . وثمة خطاب من قرّة بن شريك يطلب من الموظف الإداري في أفروديتو أن يرسل ألواحاً من جنوع النخيل وخشب الجميز لبناء السفن على جزيرة بابلليون (الفسطاط) على أن يتم تسليمها في تلك السنة لبناء السفن اللازمة للقيام بالإغارة في السنة التالية .

وكان الحديد مطلوباً مثل الأخشاب تماماً لعمل المسامير، ومرة أخرى كان مطلوباً من أهالي أفروديتو أن يأخذوا الخردة أو الحديد الخام من مخازن الحكومة ، ويحولوها إلى مسامير ويرسلوها إلى رئيس عمليات بناء السفن في الفسطاط . ولم تكن مصر تنتج ولذلك فإن هذا الحديد لا بد أنه كان مستورداً ربما من إسبانيا أو ربما كان حديداً أعيد استخدامه أخذ من المباني البيزنطية . وأخيراً كانت الحبال ، ومن المثير أن نلاحظ أن كلمة Cable الإنجليزية تعود في أصلها إلى كلمة «حبل» العربية. وكان بمصر تموين جيد من القنب لهذا الغرض .

وإلى جانب هذا النشاط البحري الحكومي الرسمي . كانت هناك عمليات حربية عربية غير نظامية ، ولا يُدفع مقابلها على أمل الحصول على الغنائم(*) . وكانت مثل هذه العمليات لا أساطيل الخليفة، هي المسئولة عن فتح كريت سنة ٨٢٤م ، وتأسيس أوكار قرصنة فى جنوب إيطاليا على نهر جريجيليانو Garigliano وفى جنوب فرنسا عند فراكسينتوم Fraxinetum (فريجو Fréjus) فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر .
بيد أن هذا خارج عن مجال هذا الكتاب .

(*) من اللافت للنظر أن هذه العبارة كررها المؤلف بنصها فى جميع فصول الكتاب مهما اختلف السياق ، وأيا كانت المناسبة. (المترجم)

الهوامش

(١) G. F. Bass and F. H. Van Doornick, Yassi Ada, vol. I: A Seventh-century Byzantine Shipwreck (College Station, TX, 1982).

(٢) عن رؤية عامة للحروب البحرية في البحر المتوسط من منتصف القرن السادس حتى منتصف القرن الثامن للميلاد، انظر:

J. H. Pryor and E. M. Jeffreys, The Age of the Dromon: The Byzantine Navy ca 500-1204 (Leiden, 2006), pp. 19-34.

وعن رواية مفصلة للفترة الإسلامية المبكرة انظر:

E. Eickhoff, Sreikrieg und Seepolitik zwischen Islam und Abendland: das Mittelmeer unter byzantinischer und arabischer Hegemonies (650-1040) (Berlin, 1966).

Sec P. Crone, 'How did the quranic pagans make a living?', Bulletin of the School of Oriental and African Studies 63 (2005); 387-99 at P.395.

(٤) عن قبرص في ذلك الوقت انظر:

A. Cameron, 'Cyprus at the time of the Arab conquests', Cyprus Historical Review 1 (1992): 27-49, reprinted in eadem, Changing Cultures in Early Byzantium (Aldershot, 1996), VI. For the Arab attacks, see A. Beihammer, 'Zypern und die Byzantinisch-Arabishe Seepolitik vom 8. bis zum Beginn des 10-Jahrhunderts', in Aspects of Arab Seafaring, ed. Y.Y. al-Hijji and V Christides (Aldershot, 2002), pp. 41-61.

Cameron, 'Cyprus', pp. 31-2. (٥)

Baladhuri, Futuh, pp. 152-3. (٦)

Baladhuri, Futuh. p. 154; Tabari, Ta'rikh, III, p. 709. (٧)

(٨) عن مشكلات المصادر وصعوبات تحديد الهجمات وتواريخها انظر:

L. I. Conrad, 'The Conquest of Arwad; A source-critical Study in the historiography of the early medieval Near East', in The Byzantine and Early Islamic Near East, vol. I. Problems in the literary source material (Papers of the First Workshop on Late Antiquity and Early Islam), ed. A. Cameron and L. I. Conrad (Princeton, NJ, 1991), pp. 317-401.

See A. N. Stratos, 'The Naval engagement at Phoenix', in Charanis Study : (٩)
Essays in honor of Peter Charanis, ed. A. E. Laiou-Thomadakis (New Brunswick,
1080), pp. 219-47.

Ibn Abd al-Hakam, Futuh, pp. 189-9; Ibn al Athir, Kamil, p. 119-20. (١٠)

Ibn Abd al-Hakam. ويسميه فرقلوس بالخطا (١١)

V. Christides, 'Arab-Byzantine struggle in the sea naval tactics (AD 7th-11th (١٢)
centuries); theory and practice', in Aspects of Arab Seafaring, ed. Y.Y. al-Hijji
and V. Christides (Athens, 2002), pp. 87-101 at p. 90.

(١٣) عن استخدام النار الإفريقية انظر:

Theophanes, ed. de Boor, I, pp. 351-4; Eickhoff, Seekrieg, pp. 11-3; J. Haldon,
Byzantium in the Seventh Century (Cambridge, 1990), pp. 63-5 - Also J. Haldon
and M. Byrne, 'A possible solution to the problem of Greek fire', Ryzanfinische
Zeitschrift 70 (1977):91-9.

Abridged translation of the text in D. Olster, 'Theodosius Gramniaricus and the (١٤)
Arab Siege of 674-78', Byzntoslavica 56 (1995) PP. 23-8; C. Makrypoulas,
'Muslim ships through Byzantine eyes', in al-Hijji and Clirisides, Aspects,
p. 179-90.

Theophanes, Chronographia, pp. 396-8. (١٥)

Theophanes, Chronographia, p. 399. (١٦)

Baladhuri, Futuh, p. 235; Eickhoff, Seekrieg, pp. 16-17. (١٧)

Eickhoff, Seekrieg, pp. 18-9. (١٨)

A. M. Fahmy, Muslim Naval Organisation in the Eastern Mediterranean from the (١٩)
Seventh to the Tenth Century A.D. (2nd edn, Cairo, 1966), p- 66.

Eickhoff, Seekrieg, p. 37. (٢٠)

Baladhuri, Futuh, pp. 117-8- See the Glossary for this usage of Mitslagkhal. (٢١)

J. Wilkinson, Jerusalem Pilgrims before the Crusades (rev. edn, Warminster, (٢٢)
2002), pp. 145, 247.

'Ya'qubi, Buldan, p. 327. (٢٣)

Muqaddasi, Ahsan al- Taqasim, pp. 163-4. (٢٤)

Muqaddasi, Ahsan al--Taqasim, pp. 162-3. (٢٥)

Tabari, Ta'rikh, III, p. 2200. (٢٦)

Tabari, Ta'rikh, III, p. 2250. (٢٧)

Wilkinson, Jerusalem Pilgrims, pp.196-8 (٢٨)

Ibn Abd al-Hakam, Futuh, pp. 191-2 (٢٩)

Fahmy, Muslim Naval Organisation, pp. 36-7 (٣٠)

Qudama b. J a'far, Al-Kharaj wa Sina'at al-Kitaha, ed. Muhammad Husayn (٢١)
al-Zubaydi (Baghdad, 1981), pp. 47-50.

(٢٢) عن تصميم السفن الحربية في تلك الفترة انظر :

Pryor and Jeffreys, The Age of the Dromon, pp. 123-61, and F. M. Hocker, 'Late Roman, Byzantine and Islamic fleets', in The Age of the Galley: Mediterranean Oared Vessels! since Pre-classical Times, ed. R. Gardiner (London, 1995), pp. 86-100. See also Makrypoulias, 'Muslim ships through Byzantine eyes'.

(٢٣) عن هذه الابتكارات الفنية، انظر :

Plyor and Jeffreys. The Age of the Dromon, pp. 123-61.

Hocker, 'Late Roman, Byzantine and Islamic fleets', pp. 99-100. (٢٤)

Ibid., p. 99. (٢٥)

Fahmy, Muslim Naval Organisation, pp. 102-3. (٢٦)

Ibid., p. 84. (٢٧)

أصوات المغلوبين

لا ينطبق مبدأ «الظافرين الغنائم» على مجرد الحقيقة المادية للنصر العسكرى فحسب، وإنما غالباً ما يصدق على تدوين تاريخ الأحداث أيضاً. وغالباً ما تضع أصوات المهزومين فى غمرة رنين النصر الذى يهيمن على التواريخ التى يكتبها الفاتحون . وفى حالة الفتوح الإسلامية، لدينا عدد من المؤلفات، والتواريخ، والنبوءات، والقصائد ، تلقى نظرة ثاقبة توضح كيف رأى الناس فى أعقاب الفتوح سادتهم الجدد وما الذى اعتبروه خسارة ، وفى بعض الأحيان مكسباً، جلبته عليهم الفتوح.

وفى هذا الفصل، اخترت سلسلة من ردود الأفعال بهدف بيان سلسلة من الاستجابات المختلفة من مصادرها الأولية تجاه الفتوح الإسلامية^(١). ومن الناحية الجغرافية ، امتدت من إسبانيا فى الغرب إلى رواية أسير حرب صينى فى الكوفة. وتتنوع من حيث النغمة ما بين إدانة صفرونيوس Sophronius للمسلمين بأنهم برابرة تماماً وقناعة مار جابرييل بأنهم أفضل كثيراً من رفاقه فى الدين ، البيزنطيين. وأصوات المسيحيين واليهود والزرداشتيين جميعاً تطرق أسماعنا فى تنويع من اللغات التى نطقوا بها تجمع ما بين اليونانية واللاتينية والسوريانية والصينية.

أما أقدم رد فعل لمحجى العرب وأشدّها عداوة فيمكن أن نجده فى الخطابات اليونانية ومواعظ صفرونيوس بطريرك بيت المقدس، الذى تحدثنا عنه باختصار فى الفصل الرابع^(٢). كان صفرونيوس من أهالى دمشق، التى كانت أيام صباه فى أواخر القرن السادس الميلادى لا تزال قادرة على أن تقدم تعليمًا ممتازًا فى الفلسفة اليونانية والبلاغة .

ومنذ سنة ٥٧٨م تقريباً حتى سنة ٥٨٣م درس فى الإسكندرية إبان الازدهار الأخير للتعليم الكلاسيكى فى المدينة. وعندما اكتملت دراسته عاد إلى فلسطين لكى يصبح راهباً فى دير سان ثيودوسيوس بالقرب من بيت المقدس. وفى سنة ٦١٤م تعكر صفوه بشكل قاس بسبب الغزو الفارسى الذى عانت فى أثثائه الكنائس خارج أسوار بيت المقدس وحولها بصفة خاصة معاناة سيئة . وفى غضبه وحزنه ألف مرثية ينعى بها مصير المدينة:

بالخديعة جاء الميديون

من فارس المرعبة

ينهبون المدن والقرى ويشنون الحرب ضد حاكم إيدوم (روما)

يتقدمون فى الأرض المقدسة

لقد جاء الشرير الحاقداً .

لكى يدمر مدينة الرب ، القدس

فلتصرخوا فى حزن أنتم يا قبائل المسيحيين المباركين

فقد خربت القدس المقدسة

إذ ظهر شيطان بحنق مخيف

ويحسد مرعب من محارب

لينهب المدن والبلدات التى باركها الرب

بخناجره القاتلة الغادرة

ومن المؤكد أنه كانت لصفرونيوس تجربة مع البرابرة قبل زمن طويل من الفتوح الإسلامية. فقد أجبر على الفرار إلى روما سنة ٦١٥م. وقد أمضى بعض الوقت أيضاً فى شمال أفريقيا، حيث قابل رجل كنيسة عظيماً آخر من سنه ، وهو مكسيموس

المعترف Maximus confessor وتوطدت بينهما صداقة راسخة ، كما أنه زار القسطنطينية فى مناسبة واحدة على الأقل. وعاد إلى القدس بعد أن أعاد هرقل فتحها، وفى سنة ٦٣٢م رضى تحت الضغط الشعبى أن يقبل منصب البطريرك .

واجه صفرونيوس المسلمين بوصفه بطريرك القدس والزعيم السياسى الفعلى لها . وتأتى إشارته الأولى فى خطاب رعى، وربما كان قد كتبه سنة ٦٢٤م فى المراحل الباكرة من فتح العرب لبلاد الشام، وفيه يأمل أن تكون لدى الإمبراطور هرقل القوة «لكسر غرور كل البرابرة وخاصة السراكنة (المسلمين) الذين، بسبب خطايانا، قد ظهروا الآن ضدنا بشكل غير متوقع وخرّبوا كل شىء بخطة قاسية وحشية، وفى وقاحة لادين لها ولا تعرف الرب» وفى عيد الميلاد من تلك السنة لم يستطع رجال الكنيسة فى القدس أن يذهبوا بموكبهم إلى بيت لحم، حسبما جرت عادتهم ، خوفاً من المسلمين . «ومثلما حدث ذات مرة من جيش الفلسطينيين، فإن جيش المسلمين الذين لا يعرفون الرب قد استولى على بيت لحم المقدسة ومنع مرورنا إلى هناك، وهددونا بالذبح والدمار إذا ما غادرنا هذه المدينة المقدسة وجرونا على الاقتراب من بيت لحم محبوبتنا المقدسة». وفى النهاية بقى متفائلا : «إذا تبنا عن خطايانا وكفّرنا عن ذنوبنا فإننا سوف نضحك على زوال أعدائنا المسلمين وفى زمن قصير سوف نشهد دمارهم وخرابهم التام. لأن سيوفهم الدموية سوف تنغرس فى قلوبهم هم، وقسيهم سوف تنكسر ، وسهامهم سوف تترك لاصقة بهم وسوف يفتحون الطريق إلى بيت لحم أمامنا».

ومن عدة وجوه كان صفرونيوس واحداً من أواخر رجال الكنيسة فى العصور القديمة، فقد نشأ وترعرع فى عالم كان ينزلق فى غياهب النسيان حتى وهو يتكلم . فقد تمكن من السفر فى أنحاء شرق المتوسط بحثاً عن التعليم، والصداقة ، والديانة الحقيقية : فبيت المقدس، الإسكندرية، والقسطنطينية وقرطاجة وروما كانت كلها مألوفة بالنسبة له . وفى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع ، كان هذا نموذجاً عادياً تماماً . وعندما مات صفرونيوس سنة ٦٣٩م كان مثل هذا الترحال الواسع المدى قد انقضى زمنه وكان العالم الذى تربى فيه قد انكسر على نحو لا يمكن إصلاحه . وكتب

باللغة اليونانية الطنانة التي كانت تميز بلاغة أواخر العصور القديمة، فقد كان رجلاً ذا تعليم راق يخاطب جمهوراً عالى التعليم. وقد اتخذ صفرونيوس نظرة معتمدة للغاية تجاه العرب. فقد كانوا فى رأيه لا يعرفون لهم رباً أو كارهين للرب. ولا يعطى أى مؤشر على أنهم يبشرون بدين جديد فى كتاباته أو خطبه . فقد كانت وظيفتهم بمثابة أدوات سحق الرب ضد المسيحيين بسبب خوضهم فى الهرطقة ، وطريقة ضربهم لم تكن تجيش الجيوش أو تزويد أسوار المدن بالرجال المحاربين ، ولكن بأن يرجعوا جميعاً إلى الإيمان الصحيح الحقيقى.

وكثير من الاستجابات الباكورة تجاه الفتح الإسلامى التى توجد فى التراث المسيحى الشرقى أخذت شكل النبوءات، أى التنبؤ بالأيام الأخيرة ونهاية العالم^(٢). وفى نبوءات نهاية العالم هذه، ينظر إلى قنوم العرب أحياناً باعتباره إحدى الإشارات الدالة على النهاية. وهى نادراً ما تنطوى على معلومات تاريخية صلبة وراسخة ، ولكن حسبما لاحظ باحث كبير حديثاً «نبوءات نهاية العالم فعالة للغاية ومؤشرات حساسة جداً على آمال الناس ومخاوفهم واحباطاتهم»^(٤). وأحد أكثر هذه النصوص إفصاحاً وتقدماً هى نبوءة ميثوديوس المزيف Psseudo-Methodius^(٥)، والذى اتخذ هذا الاسم لأنه يُنسب خطأ إلى ميثوديوس أسقف أوليمبوس ، الذى مات سنة ٣١٢م، أى قبل أكثر من ثلاثة قرون من تأليف النص فعلاً . والحقيقة أنه يحتمل أن يكون تاريخه راجعاً إلى الجيلين الأولين بعد الفتح الإسلامى. كانت الحرب الأهلية العربية الثانية (٦٨٢-٦٩٢م) فترة عنف واضطراب ، وارتبطت بالوباء والمجاعة فى سنة ٦٨٦-٦٨٧م، وعلى هذه الخلفية كتبت نبوءة نهاية العالم. ولأن النبوءة كتبت أصلاً باللغة السريانية ، ثم تُرجمت إلى كل من اللغة اليونانية واللغة اللاتينية، مما يكشف عن انتشارها الواسع بين مختلف الجماعات المسيحية. ويقدم المؤلف لقرائه، الذين يُفترض أنهم الجماعة المسيحية فى جنوب بلاد الشام، تحقيقاً متقناً لأمنيتهم ، حافلاً بالإشارات إلى الكتاب المقدس. وتبدأ الأيام الأخيرة بقنوم الإسماعيليين (أى العرب) الذى سيهزمون مملكة الروم فى جابيتا (إشارة إلى معركة اليرموك) . ثم يلى ذلك تقرير عن آثار الغزوات الإسلامية

حسبما رأها المسيحيون أواخر القرن السابع الميلادي ، على الرغم من أن أحداثها تدور في المستقبل ، لأنها نبوءة :

«لم ينزل هذا العقاب بالبشر وحدهم وإنما وقع أيضا على كل ما يوجد فوق وجه الأرض - الرجال، والنساء، والأطفال، والحيوان ، والماشية ، والطيور . وسوف يُعذب الناس بهذا العقاب، الأزواج وزوجاتهم وأطفالهم، النبات والامتلاكات؛ العجوز والضعيف، والمريض والقوى ، والفقير والغنى. لأن الرب سَمَّى اسماعيل جدهم الأعلى «جحش البرية الوحشي». وسوف تعاني الحيوانات البرية والأليفة وتموت ، وسوف يحرق الدمار بأجمال نباتات الجبال، وتخرب المدن المزدهرة . وتبقى الأقاليم خاوية لا يمر بها أحد : وسوف تلوث الدماء الأرض وتحرم من نتائجها .

«لأن هؤلاء الطغاة ليسوا رجالاً، وإنما هم أبناء الخراب. إنه يولون وجوههم صوب الخراب فهم مدمرون ... إنهم هم الدمار وسوف ينطلقون لتدمير كل شيء . فهم ملوثون يحبون التلوث. وعند انطلاقهم من البرية سيخطفون الأطفال من أحضان أمهاتهم ليضربوهم في الأحجار، كما لو كانوا حيوانات قذرة.

«وسوف يضحون بمن يخدمون في الساحة المقدسة ، بل إنهم سوف ينامون مع نساءهم ومع السبايا داخل الساحة المقدسة ، ويجهزون الأودية المقدسة لأنفسهم ولأبنائهم . وسوف يربطون مواشيهم إلى توابيت الشهداء وقبور الرجال المقدسين . إنهم سفاحون متغطرسون ، ومدمرون سفاحون للدماء : إنهم أتون اختبار لجميع المسيحيين».

ثم يتحدث الكاتب عن المصاعب التي سيسببها الوباء والضرائب «سينام الشخص في المساء ثم ينهض في الصباح ليجد عند بابه رجلين أو ثلاثة يستخدمون القوة وهم يطلبون الجزية والمال. وجميع الحسابات عما يعطى ويؤخذ سوف تختفى من على وجه الأرض. وفي ذلك الوقت سوف يبيع الناس نحاسهم، وحديدهم وأكفانهم» .

ثم عندما يبلغ السوء مداه ، سيأتي الفرج بصورة إعجازية ؛ إذ إن ملك الروم سوف يهاجمهم : «سوف ينهض ضدهم ، مثل رجل تخلص من المر الذي شربه» .

ثم يجي دور العرب فى المعاناة : «فهم وزوجاتهم، وأطفالهم ، وجميع مضارب خيامهم، وكافة أرض البرية التى تنتمى لأسلافهم سوف يقعون فى يدى ملك الروم: وسوف يتسلمهم السيف والخراب، والسبى والذبح. ونير عبوديتهم سيكون أشد وطأة سبعة أضعاف نيرهم» ويواصل ليصف المصاعب والشدائد التى ستحل بهم. وعندها سوف يحل السلام العالمى «سوف تتجدد الكنائس ، ويعاد بناء المدن، وسوف يُعفى القساوسة من الضرائب. وسوف يستريح القساوسة والشعب فى ذلك الوقت من الشقاء، والتعب ، والاضطهاد».

بيد أن الأمر لم ينته بعد . فإن «أهالى الشمال»، سوف يقومون بغزوهم مسببين الكثير من الخراب والمذابح ، ولكن الرب سوف يرسل واحداً من ملائكته، سوف يدمرهم فى لحظة واحدة . ثم يتوجه ملك الروم لكى يعيش فى القدس قبل أن يقف على الجلجثة واضعاً تاجه على الصليب المقدس رمزاً إلى أنه قد استعفى من الحكم ، وسوف يؤخذ الصليب والتاج إلى السماء. وهناك حينئذ رواية عن ظهور المسيح الدجال فى فلسطين «ابن الهلاك» والمزيد من الأذى قبل قدوم المسيح لينهى أخيراً وجوده ثم تتلاشى الرؤيا .

والنبوءة عبثية واهية كما أنها تتحرك على نحو مريب. وفيها يمكن أن نسمع صوت السكان الخاضعين^(*). فهو قس وحيد منعزل ، ربما كان يكتب فى دير بشمال

(*) هذا الخيال المرعب الذى جعل «رجل الكنيسة» قادراً على كتابة ما كتبه يشى بأن هناك رغبة ما لدى هذا القسيس فى التلذذ بوصف التفاصيل البشعة لما أنتجه خياله . وهو أمر يدفع المرء إلى طرح السؤال عن نوعية «رجل الدين» الذى يطيب له بث الرعب والخوف فى نفوس سامعيه وقرائه . وهى شريحة لا تزال موجودة فى رجال الدين حتى الآن ولا تقتصر على أتباع دين بعينه، وإنما هى منتشرة فى كل زمان ومكان على أية حال . والحقيقة أننا لا نستطيع أن نوافق المؤلف على رأيه بأن هذا كان تعبيراً عن رأى الناس ، فإن التعايش مع المسلمين ، الذين زادت أعدادهم تدريجياً على مر السنين بتحول من السكان إلى الدين الجديد، يكذب نبذة الحقد والعداء المرير التى ميزت كتابات الأسقف الذى خسر مكانته بسبب قدوم المسلمين من ناحية، وتناقص عدد رعاياه من ناحية ثانية، وخوفه من أن يدفع الضرائب من ناحية ثالثة. وعلى أية حال ، فإن الشروط التى وضعها عمر بن الخطاب للنصارى فى بيت المقدس قد كذبت نبوءته بشكل واضح، كما أن الأحداث التاريخية الفعلية كشفت عن عبثية ما كتبه. (المترجم)

بلاد الشام، يحلم باليوم الذى يحدث فيه التدخل الإعجازى الذى سيضع العرب المكروهين فى مكانهم. والعرب متهمون بالقتل والإيذاء ، وتدمير المدن والبيئة الريفية، وعدم احترام الكنائس ، والفسق الجنسى فضلاً عن الضرائب الباهظة . إنها تهمة بلاغية، وقد جاءت على هذا النحو لأن تاريخها يرجع إلى الفترة التى كان الحكم الإسلامى فيها يترسخ. وعلى أية حال، فإنه لم يتصور فى أية لحظة أن المسيحيين يأخذون زمام الأمور فى أيديهم ويحاربون ضد قاهريهم. فبالنسبة له كان العرب وجوداً للشر والضعف. وهو مثل صفرونيوس، لم يذكر أبداً أنهم جاءوا بدين جديد، فإنهم ببساطة لا إله لهم ولكنهم، فى الوقت نفسه الأداة التى يعاقب بها الرب شعبه بسبب شرورهم . ولا بد أن كثيراً من الناس الذين قهرهم العرب فى القرن السابع كانوا يشاركون فى هذه النظرة السلبية للغاية.

ولكن لم يكن جميع المسيحيين يشتركون فى مثل هذه الآراء السوداء. ذلك أن كلاً من صفرونيوس ، وكاتب نبوءة ميثوديوس المزيف كانا رجلين رأيا فى إعادة الحكم البيزنطى أملاً بالنسبة لهما. فالنسطورى حنا البنكايسى، الذى كتب فى تسعينيات القرن السابع الميلادى، وافق على أن العرب كانوا أداة الرب، أرسلهم لمعاقبة المسيحيين بسبب الفساد الأخلاقى، والهرطقة ، قبل أى شىء آخر؛ ولكن بالنسبة له كان كل من الكنيسة الخلقونية التى تساندها السلطات البيزنطية والمونوفيزيتيين هم الأعداء حقاً . فقد كتب:

«ينبغى ألا نفكر فى قدوم العرب باعتباره شيئاً عادياً ، وإنما هو عمل من الأعمال السماوية. فقبل أن يناديهم الرب، كان قد أعدهم سلفاً لإبقاء المسيحيين مكرمين . والآن عندما جاء هؤلاء الناس بأمر الرب ، واستولوا على كل من المملكتين [الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية]، ليس بالحرب أو بأية معركة ، وإنما بأسلوب عبودى ، تماماً مثل جمره قد استخرجت من النار ؛ لا يستخدمون أسلحة الحرب أو الوسائل البشرية، وضع الرب النصر بين أيديهم».

لقد كان الرب يعاقب الكنيسة لأنها كانت تغازل الهرطقة وكان العرب أدوات العقاب. ولكن العرب، أيضا، كانوا خاضعين للغضب الرباني بسبب الخطايا التي ارتكبوها فى أثناء الغزو، وانقسمت إمبراطوريتهم إلى قوتين متعاديتين، فى إشارة إلى الحرب الأهلية بين على ومعاوية التى أعقبت اغتيال الخليفة عثمان بن عفان سنة ٦٥٦م. ولم يكن لدى يوحنا شىء سوى مديح الخليفة الأموى معاوية (٦٦١-٦٨٠م) الذى يقول عن عهده «... انتشر السلام فى ربوع الدنيا بحيث أننا لم نسمع أبدا، سواء من أبائنا أو من أجدادنا، أو نرى أنه كان هناك سلام مثل هذا على الإطلاق». ومن نافلة القول إن هذه الحال السعيدة للأمور لم تدم. وفى جو السلام والازدهار هذا، تحولت الكنيسة مرة أخرى إلى الانحلال الأخلاقى والهرطقة. ومرة أخرى استخدم الرب العرب لمعاقبة المسيحيين على هذا السلوك، مسببا الحرب الأهلية المدمرة التى اندلعت فى سنة ٦٨٣م بعد وفاة يزيد بن معاوية (وهى الحرب الأهلية نفسها التى تشكل الخلفية التى قامت عليها نبوءة ميثوديوس الزائف)، التى ينتهى بها تاريخه. فقد انتشرت المجاعة والوباء فى كل مكان، وهى مزيد من العلامات على سخط الرب. وبالنسبة ليوحنا كان العرب أدوات الرب؛ وحكمهم ربما يكون جيدا وربما يكون سيئا بحسب سلوك المسيحيين.

ولم يذكر يوحنا أى اتصال شخصى مع العرب ولكن مسيحيين آخرين فى المنطقة كانوا عازمين على إقامة علاقات طيبة معهم. فقد كان مار جبريل (ت ٦٦٧م) مقدم دير فى قرطمين^(٦). وتقع قرطمين فى الجبال التى تسمى طور أبدين جنوب شرق تركيا، بالقرب من سهول الجزيرة. وفى زمن جبريل كان الدير بالفعل مؤسسة قديمة، ومما يلفت النظر أن هذا الدير لا يزال باقيا بوصفه واحداً من أكثر المراكز تبجيلا فى الديرية المسيحية الشرقية حتى اليوم. وكانت قرطمين معقل أولئك الذين رفضوا المسيحية الأرثوذكسية البيزنطية، وقد اعتبر جبريل أن قدوم الحكم الإسلامى فرصة وليس مصيبة.

ويحكى كاتب سيرته القصة :

«فضل مار جبريل قدوم العرب على اضطهادات البيزنطيين ، ولهذا قدم لهم العون وساعدهم. وذهب فيما بعد إلى الجزيرة للقاء أميرهم الذي استقبله بكثير من الفرح وكرّمه كثيرا بسبب ما فعله لصالحهم ؛ وقد أعطاه مرسوما وقعه بخط يده بأوامر لكل النقاط التي طلبها ؛ وفي هذا المرسوم منح كافة الأرثوذكس السريان حرية ممارسة عبادتهم وطقوسهم في كنائسهم - السمانترا [أي اللوح الخشبي الذي يُدق عليه في الكنائس الشرقية لجمع الناس إلى الصلاة] ، واحتفالات المهرجان ، ومواكب الجنازات وبناء الكنائس والأديرة ؛ وأعطى من الجزية القساوسة والشمامسة والرهبان . وبينما ثبت قيمة الجزية بالنسبة للناس الآخرين عند أربعة دراهم [وهو مبلغ متواضع] . كما أنه أصدر تعليماته إلى العرب الوثنيين بأن يهتموا كثيراً بالحفاظ على أرواح الأرثوذكس السريان»^(٧).

وتكاد سيرة مار جبريل أن تكون المؤشر الوحيد على أن المسيحيين الأرثوذكس السريان قد ساعدوا الفتح الإسلامي فعلاً على عكس من وصفهم بأنهم مراقبون لا حول لهم ولا قوة وغير مرتبطين بأي جانب ، ولكننا لا نملك الوسيلة لمعرفة مدى شيوع هذا الموقف.

أما المصادر القبطية فتحمل آراء قوية عن قدوم المسلمين. ومن بين هذه المصادر ، سيرة البطريوك بنيامين (٦٢٢-٦٦١م) الذي توافقت فترة توليه المنصب مع الفتح الإسلامي. وقد وصلتنا في ترجمة عربية كتبها ساويرس بن المقفع ، أسقف الأشمونين في مصر الوسطى أواخر القرن العاشر الميلادي / الرابع الهجري. وحسبما يوضح في مقدمته ، على أية حال، فإنه يجمع تراجمه من مصادر يونانية وقبطية وربما كانت سيرة بنيامين والآراء التي تضمنتها أقدم زمناً وربما كانت ترجع فعلاً إلى القرن السابع الميلادي.

وقد صار بنيامين البطريوك في أثناء الاحتلال الفارسي لمصر ، ولكن المؤلف ليس لديه سوى القليل ليقوله فيما عدا أن هرقل قتل كسرى، الملك غير المؤمن. وعندما صار

هرقل إمبراطوراً عين كيروس والياً . وإذ توجه بنيامين بتعيين هذا الشخص الخلقودنى الصارم ، حذره ملاك من الرب بأن يهرب . ورتب أمور الكنيسة، وكتب إلى جميع الأساقفة يأمرهم بالاختباء واختفى هو نفسه فى أحد الأديرة المجهولة فى صعيد مصر معرض للجو والعاصفة ، ولاشك فى أنه لقى العون من نبوءة الملاك بأن حكم قيروس سوف يدوم عشر سنوات فقط.

ويظهر كيروس باعتباره الشرير الحقيقى فى القصة ؛ ذلك أن عدة أساقفة ممن لم يعملوا بنصيحة البطريرك بالاختباء «أمسكوا مثل السمك فى الشبكة» واستشهد آخر بنيامين نفسه لأنه رفض قبول مراسيم مجمع خلقدونية. والذين عينهم هرقل تصرفوا مثل الذئاب المفترسة ، يلتهمون المؤمنين فى مصر. وعلى النقيض من هذا الذم، يقدم مؤلفنا تقريراً مكتوباً عن دعوة محمد الذى أعاد من يعبدون الأصنام إلى معرفة «الله وحده» وقال إن محمداً رسول الله. وكانت أمته تمارس الختان وتصلى باتجاه الجنوب صوب المكان الذى يسمونه الكعبة^(٨).

ثم تخلى الرب عن جيش الرومان بسبب فسادهم واعتناقهم لمراسيم مجمع خلقدونية . ويصف الغزو العربى بلغة مختصرة واقعية. ويصف المؤلف المعاهدة بين المسلمين والمصريين، وهى نوع المعاهدة التى كان محمد، رئيس العرب، قد أوصاهم بعقدها، والتى تقضى بأن أى مدينة توافق على دفع الجزية سوف لا يتم المساس بها ولكن المدن التى لا توافق سوف يتم نهبها وأسر رجالها «لهذا السبب»، ويستمر الكاتب فى قوله إن المسلمين كفوا أيديهم عن البلاد وسكانها، ولكنهم دمروا أمة الرومان^(٩).

وعندما وصل المسلمون الإسكندرية دمروا الأسوار وأحرقوا كنائس كثيرة بالنيران، بما فى ذلك كنيسة القديس مرقس . وولفت النظر أن المؤلف يتحدث بهدوء عن هذا الدمار ، ربما لأن معظم الكنائس بالمدينة كانت بأيدي الخلقدونيين . والأهم كثيراً من وجهة نظره هى عودة بنيامين الظافرة . وقد تم التفاوض على هذا من جانب دوقس قبطى اسمه سانوتيوس، أخبر عمرو بن العاص عنه. وحينئذ أصدر عمرو خطاباً

أمن فيه بنيامين وعاد إلى المدينة، وقوبل بفرح عظيم ، ثم قدمه سانوتايوس إلى عمرو، الذى أعجب به ، قائلاً إنه فى جميع البلاد التى فتحها لم ير رجلاً للرب مثل هذا الرجل. وفى الوقت نفسه، كان كيروس قد انتحر ، وتجرع السم من خاتمه . وصدر الأمر لبنيامين بأن يستأنف ولاية أمور كنيسته ورعيت . ثم طلب منه عمرو بن العاص أن يصلى من أجل أن يحقق النصر السريع والعودة السريعة من الحملة التى كان يخطط للقيام بها ضد القرى الخمس (بنتابوليس) فى إقليم برقة . وأخيراً ، ألقى البطريك عظة أثرت على الجميع، وأعطى عمرو بن العاص نصيحة سرية، تحققت كلها، قبل أن يغادر «معزراً مكرماً» . وقد فرحت أرض مصر كلها به . ثم رحل عمرو فى موعده وصحبه سانوتايوس وسفينته. وقد تمكن سانوتايوس أيضاً أن يعطى البطريك المال ليعيد بناء كنيسة القديس مرقس. وحتى بعد أن كان عمرو بن العاص قد غادر الإقليم وحل محله ابن أبى السرح ، «المحب للمال» الذى وضع الإدارة فى القسطنطينية، يحجم المؤلف عن الانتقاد الصريح للإدارة الإسلامية.

وبالنسبة لكاتب سيرة حياة بنيامين ، كان قدوم العرب فجراً جديداً لبطله . وهو فى الحقيقة لا يقول أبداً فى عبارات واضحة إنه كان أمراً جيداً ، ولكن من الواضح أنه كان راحة عظيمة بعد حكم كيروس . والتأكيد على العلاقات الطيبة بين عمرو بن العاص وبنيامين ودور الدوقس سانوتايوس أمور تشير كلها إلى الروابط الوثيقة بين النخبة المسلمة والنخبة القبطية.

ويأخذ مصدرنا القبطى الرئيسى الآخر، مؤرخة يوحنا النقيوسى، رؤية أقل وردية للفتاحين العرب . وكما هو الحال مع كاتب سيرة بنيامين ، يلعب كيروس دور الشرير الرئيسى فى هذه الرواية ومعه الرومان الخلقديونيون، وهو يقول بصراحة إن المسلمين ساعدتهم الاضطهادات التى جرت فى عهد الإمبراطور هرقل من حيث أنها جعلت الأماهى المحليين معادين للرومان^(١٠). وكانت خطايا الخلقديونيين السبب فى أن الرب سمح للعرب أن يفتحوا مصر، «لأن لم تكن لديه رحمة بأولئك الذين كانوا قد تعاملوا بخيانة ضده ولكنه سلمهم إلى أيدي الإسماعيليين»^(١١).

وتم تصوير العرب فى صورة البرابرة المتوحشين. ففى غاراتهم الأولى على الفيوم قتلوا الناس دونما تمييز ؛ وفى إحدى المدن أعملوا السيف فى جميع الذين استسلموا ولم يبقوا على أحد، من الشيوخ المسنين أو الأطفال أو النساء»^(١٢). وفى نقيوس «مضوا ليضعوا السيف فى كل من وجدوهم فى الشوارع والكنائس ، من الرجال والنساء والأطفال دون أن تأخذهم الرحمة بأحد»^(١٤) وقبض عمرو بن العاص على كبار الموظفين الروم ووضع أيديهم وأقدامهم فى قيود الحديد والألواح الخشبية على حين أخذ ممتلكاتهم . والأمور ليست أفضل كثيرا بالنسبة للفلاحين لأن الضرائب تضاعفت وكان عليهم أن يحملوا العلف لخيول المسلمين». وبعد الفتح النهائى للإسكندرية ، ألزم عمرو بن العاص نفسه بأن يأخذ الضرائب التى كان قد تم الاتفاق عليها ولكنه لم يستول على أملاك الكنائس وحافظ عليها طوال أيامه . ويبدو على أية حال، أن الضرائب كانت باهظة بالنسبة للآخرين ، فقد كان الناس يهربون بعيداً لعجزهم عن تدبير الأموال لدفعها .

وقد استخدم كلمات قاسية فى الحديث عن العرب وعن الذين تعاونوا معهم من السكان المحليين. إذ كان المصريون مجبرين على حمل العلف ، وتقديم اللبن والعسل والفاكهة . وقد أرغموا على حفر القناة من بابلين إلى البحر الأحمر «... وكان النير الذى وضعه العرب على المصريين أثقل من ذلك الذى كان فرعون قد فرضه على إسرائيل ، وكان حكم ربهم عليه عادلاً بحيث أغرقه فى البحر الأحمر مع جيشه كله بعد كثير من الأوبئة التى ضربت الرجال والماشية على السواء. وعندما استطع حكم الرب على هؤلاء الإسماعيليين ، فربما يوقعه عليهم كما أوقعه على فرعون». ثم يستمر يوحنا ليقول إن هذا عقاب على خطايا الناس ولكنه يثق فى أن الرب سوف يدمر أعداء الصليب حسب وعد الكتاب المقدس^(١٥).

وعلى الرغم من هذه الوحشية كان هناك تيار تحتى من التعاون . ومنذ وقت مبكر نسمع عن «المصريين الذين كانوا قد ارتدوا عن الديانة المسيحية واعتنقوا ديانة الوحش»^(١٦)

وعن الموظفين المحليين الذين كانوا ، بإرادتهم أو رغماً عنهم ، يعملون لدى المسلمين^(١٧) (*) .

ويمكن أن نرى استجابة مسيحية مختلفة ولكنها مختلطة بالقدر نفسه في المؤرخة التي كتبها مؤلف مجهول باللاتينية سنة ٧٥٤م^(١٨) . وربما كان المؤلف قد عاش في قرطبة وربما كان قد بلغ من العمر ما يجعل لديه ذكريات شخصية عن سقوط مملكة الفيزيقوط . ذلك أن ألفته مع تاريخ الأندلس وشئونه السياسية توحى بأنه ربما كان موظفاً لدى المسلمين في الإدارة . فقد انطلق ليكتب مؤرخة عالمية ، قبل ثمانين سنة من الوقت الذي كتب فيه . ولا يذكر شيئاً في أى مكان من كتابه عن حقيقة أن المسلمين كانوا أتباع دين جديد . فهو يقول ببساطة إن المسلمين (السراكنة) ثاروا وغزوا بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية وبلاد النهرين «بفضل الخداع لابقوة زعيمهم محمد ، ونهبوا الأقاليم المجاورة ومضوا لا بواسطة الهجمات الصريحة بقدر ما توغلوا من خلال الغزوات السرية» . وعلى الرغم من احتقاره للقدرة القتالية لدى العرب ، يقدم الكاتب تقريراً واقعياً عن الخلفاء الأوائل منسوج بتاريخ الإمبراطورية البيزنطية . فبعض الخلفاء رجال صالحون : يزيد بن معاوية (٦٨٠-٦٨٣م) ، الذي كان يوحنا بار بنكاى John bar Pekaue قد استبعده على أساس أنه «مفرم بالألعاب الصبيانية والمسرات الفارغة» ويحكم باستبداد «لاعقل له»^(١٩) ، ينال المديح من كاتب المؤرخة سنة ٧٥٤م باعتباره «أكثر أبناء معاوية مدعاة للسرور» وكان «محبوباً للغاية من كل شعوب الأراضى التي كانت خاضعة لحكمه» . فإنه لم يسع أبداً ، مثلما هي عادة الرجال ، إلى أى مجد لأنه كان ملكاً ، ولكنه عاش عيشة مواطن عادى مع الآخرين^(٢٠) .

(*) لا بد من الإشارة إلى حقيقة أن نص يوحنا النقيوسى لم يصلنا فى لغته الأصلية وإنما جاء فى ترجمة حبشية متأخرة عن الأحداث بعدة قرون؛ ومن ثم فإنه ليس مؤكداً أن تكون العبارات القاسية عن الإسلام والمسلمين من عبارات يوحنا النقيوسى نفسه وربما يكون إضافات من المترجم الحبشى الذى أباح لنفسه التعبير عن مشاعره الدينية الغالبة بين ثنائى النص المترجم عما كتبه يوحنا ... خاصة أن أسلوب النص الحبشى يختلف فى الجزء السابق على الفتح الإسلامى عنه فى الجزء الذى تناول أحداث الفتح ، انظر: عمر صابر عبد الجليل ، تاريخ مصر ليوحنا النقيوس ، ص ٣٦- ٣٧ . (المترجم)

هذا الموقف الذى بلغ حد اللطف يتغير بحدة عندما يصل المؤرخ إلى مناقشة الفتح الإسلامى لإسبانيا ، فهو يدين موسى بن نصير باعتباره بربرياً عنيفاً :

«لقد دمر المدن الجميلة، وأحرقها بالنيران؛ حكم على السادة والرجال ذوى المكانة بأن يصلبوا وذبح الشباب والأطفال بالسيف. وبينما أشاع الرعب فى نفوس الجميع بهذه الطريقة، فإن بعض المدن التى بقيت تتوسل من أجل السلام تحت التهديد وبعد مطاردتها والسخرية منهم بأساليب خداع معينة، منح السراكنة لهم ما طلبوه دونما تأجيل. وعندما رفض المواطنون فيما بعد ما كانوا قد قبلوه بدافع الخوف والإرهاب، حاولوا الهرب إلى الجبال حيث خاطروا بمواجهة الجوع وأنواع مختلفة من الموت».

وبعد هذه الإدانة البلاغية العنيفة ، ترجع المؤرخة إلى لهجتها الواقعية السابقة. فهناك حكام مسلمون صالحون، وحكام طالحون مثلاً يوجد حكام مسيحيون صالحون وطالحون . ورواية معركة بواتيه (٧٣٢م) حيث ألحقت القوات المسيحية (بقيادة شارل مارتل) هزيمة حاسمة بالمسلمين ، تقدم تفصيلات مفيدة جداً ولكن دونما أى شعور بالانتصار المسيحى^(٢١). وأسوأ الأشرار فى المؤرخة هم أولئك العرب الشاميون الذين عبروا إلى داخل شبه الجزيرة بعد هزيمتهم أمام المتمردين البربر فى سنة ٧٤٢م وبدأوا يتنازعون السيطرة مع أحفاد الفاتحين الأصليين من العرب والبربر^(٢٢). وحتى نهاية المؤرخة ، نجد المؤلف عارفاً تماماً بأحداث المشرق الإسلامى كما هو عارف بالأحداث فى إسبانيا. وعلى النقيض من هذا ، فإن فرنسا وإيطاليا ، وكتاهما تكتب باللاتينية ، ومناطق مسيحية، تكادان تكونان مجهولتين تماماً بالنسبة له. وقد عاش المؤرخ كاتب مؤرخة سنة ٧٥٤م وعمل فى عالم كانت التفاعلات بين المسلمين والمسيحيين يومية وتدور حول الأعمال ، وعلى نحو ما ، كان من الواضح أنه مرتبط بدوائر الحكم الإسلامى فى قرطبة على حين كان يحافظ بوضوح على هويته المسيحية. وكان هناك رجال فى موقعه فى الإدارة العربية بالشرق ؛ وليست لدينا شهادة مباشرة عن مواقفهم ولكن لابد أنها كانت مماثلة.

ومثل النصارى ، طور يهود الشرق الأوسط أدباً تنبؤياً بنهاية العالم، على الرغم من أنه فى حالتهم كان الهدف التنبؤ بزمان قدوم الماشيح (المخلص) لا التنبؤ بنهاية

العالم. فبالنسبة لليهود كانت السنوات الأخيرة من الحكم البيزنطى فى بلاد الشام فترة من الضغوط والاضطهاد . وكان الغزو الفارسى قد أدى إلى بعض الراحة ولكن إعادة فرض الحكم البيزنطى منذ سنة ٦٢٨م فصاعداً أدى إلى تجدد الاضطهادات . وبالنسبة لليهود، كان قدوم العرب، على الرغم مما صحبه من الكثير من العنف والقسوة، واعداءً ببعض التحسن فى حالهم. ونجد أوضح عرض للأراء اليهودية فى كتاب «النستروط» أو الأسرار المنسوبة إلى أحد الربيين اليهود فى القرن الثانى، وهو سيمون بن يوهائى، ولكن من الواضح أنه كتب، أو أعيدت كتابته، بعد قدوم المسلمين^(٢٣).

فى إحدى الفقرات ، يقال إن سيمون قد هرب من الإمبراطور البيزنطى (الذى يُشار إليه على أنه ملك إدوم فى النص كله) فى كهف . ويعد أن صام وصلى سأل ربه أن ينير له السبيل : «منذ رأى سيمون مملكة إسماعيل (العرب) آتية بدأ يقول «ألم يكن كافياً ما فعله ملك إدوم الشرير لنا ، ولكننا نستحق مملكة إسماعيل أيضاً ؟» وفى الحال أجابه متاترون ، كبير الملائكة ، بقوله : «لا تخف ، يا ابن الإنسان ، لأن الرب العظيم يجلب مملكة إسماعيل فقط لكى يخلصكم من هذه المملكة الشريرة (بيزنطة) . وقد رفع فوق الإسماعيليين نبياً بحسب مشيئته وسوف يغزو الأرض من أجلهم وسوف يجيئون ويعيدونها إلى العظمة وسوف يجىء رعب عظيم بينهم وبين أبناء عيساو (أى البيزنطيين) .

وثمة فقرة تالية تقدم حكماً محبباً على الخليفة الثانى، عمر بن الخطاب (٦٣٤-٦٤٤م) «الملك الثانى الذى يظهر من شعب إسماعيل سيكون محبباً لإسرائيل. سيعيد لهم عهودهم وعهود المعبد، ويشق جبل موريا ، ويجعله مستوياً ويبنى مسجداً هناك على صخرة المعبد». ولم تكن كلها أخباراً طيبة، على أية حال ، ويشكو المؤلف ، مثل كثير من المصادر المسيحية فى تلك الفترة ، من أن المسلمين يقومون بمسح الأرض بقصد فرض الضرائب عليها . «إنهم سوف يقيسون الأرض بالحبال كما يقال، وسوف يقسم الأرض بثمان»^(٢٤) وكان المؤلف أيضاً مصدوماً من جراء ممارسات الدفن عند المسلمين وتعاملهم مع المقابر: «كما أنهم سوف يجعلون المقابر فى مكان معشب ترعى فيه الأغنام ؛ وعندما يموت أحدهم، سيدفنونه فى أى مكان يجدونه ثم يحرقون الأرض فيما بعد

ويضعون البذور فيها» وهى ملاحظة تنطبق على ما نعرفه عن الموقف المعتاد للمسلمين الأوائىل تجاه دفن موتاهم .

وربما يكون اليهود قد تطلعوا إلى قدوم المسلمين بترحاب أكثر من أية جماعة أخرى بين الشعوب المقهورة ، ولكن من الواضح أنهم عانوا أيضاً من الآثار الكئيبة للحرب والاضطراب(*) .

أما آراء الإيرانيين فى الفتوح الإسلامية فقد ضاعت لأن الزرادشتية قد اختفت بشكل أكبر مما جرى للمسيحية ولم تكن هناك أديرة لتحفظ المؤلفات القديمة. ولدينا قصيدة واحدة باللغة الفهلوية، وربما يرجع تاريخها إلى القرن التاسع الميلادى / الثالث الهجرى، وفيها نستطيع أن نرى شيئاً من مواقف مؤيدى الديانة القديمة فى وقت كان فيه اعتناق الإسلام يسير سيراً حثيثاً وكانت بيوت النار تغلق . ومثل ميثوديوس الزائف ، فإن هذه القصيدة تتنبأ بنهاية العالم، وتتنبأ بأن الخلاص سوف يأتى عندما يظهر واحد من سلالة ملوك القدماء قادماً من الهند .

«عندما سيأتى رسول من الهند ليقول إن شاه قهرام من عائلة كيس (السلالة القديمة الأسطورية فى حكم إيران) قد جاء ، ومعه ألف فيل ، ولكل فيل منها سانس فمّن الذى سيحمل الراية؟ وبطريقة كسرى س يحملون الراية أمام الجيش . وستكون هناك حاجة لإرسال رسول إلى القادة حقاً، ومترجم ماهر، وعندما يأتى سيحكى فى الهند ما رأينا على أيدي عصابات الطاجيك [العرب] فى جمع واحد . فقد دمرت الديانة الزرادشتية (دين) وتم ذبح ملك الملوك (الشاهنشاه) مثل الكلب. وأكلوا الخبز . ونزعوا السيادة من كسرى. ليس بالمهارة والقوة ولكن بالخديعة والاحتقار أخذوها. وبالقوة أخذوا من الرجال زوجاتهم وممتلكاتهم الحلوة، المنتزهات والحدائق . وفرضوا

(*) يبدو أن الحديث عن اليهود ، حتى فى غير محله ، ومحاولة وضعهم فى الصورة التاريخية بأى شكل لضمان حضورهم «التاريخى»، قد صار بمثابة «الإثارة» التى يجب على الباحثين الغربيين دفعها : وهو ما يظهر فى المثال . فلم يكن اليهود آنذاك شعباً له دولة فتحها المسلمون ، مثل المسيحيين والزرادشت وغيرهم وإنما كانوا أقليات ضئيلة ، وأفرادا فى بعض الأحيان. (المترجم)

الضرائب ، ووزعوها على الرؤوس. وطلبوا مرة أخرى من المسئول ضربية باهظة . تأمل كم الشر الذي جلبه هؤلاء الأشرار على العالم، والذي لا يفوقه شيء سواً . إن العالم يفلت منا . ونحن سوف نحضر شاه قهران هذا صانع الأعمال العظيمة ليصب انتقامه على العرب ... وسوف نهدم مساجدهم وسوف نشعل النيران، وسوف نحفر معابد أصنامهم ونظهر العالم منها حتى تختفى جرثومة الشرير من هذا العالم. وينتهي الأمر فى سلام وفرح»^(٢٥).

ويمكن أن نرى رأياً آخر عن الفتوح العربية فى شاهنامه الفردوسى . وقد جاء الفردوسى (توفى حوالى ١٠٢٠م)^(٢٦) من طوس فى خراسان. وهو ابن لعائلة من الدهاقين، أى كبار ملاك الأراضى . وفى هذه الأوساط ظلّ الإخلاص لتقاليد إيران القديمة حياً ، كما كان يتم الاحتفال بإنجازات ملوك إيران قبل الإسلام. وكان الفردوس مخلصاً لإيران ، ولغتها وثقافتها . وعلى النقيض من كاتب القصيدة الفهلوية المجهول، الذى كان من الواضح أنه يأمل فى إحياء الزرادشتية ، كان الفردوسى بالتأكيد مسلماً ، ولكنه نادراً ما يترك ديانتته تظهر فى كتابته . ويبدو أنه لم تكن أمامه صعوبة فى التسامح مع ديانة أبطاله الزرادشتية واستمرارية إلههم لأنه كان يؤمن بالله ..

وقد ذكرنا بالفعل الخطاب الشعري الذى زعموا أن القائد الفارسى رستم قد كتبه إلى أخيه عشية معركة القادسية الفاصلة ، عندما تم تدمير الحكم الفارسى فى العراق وقتل هو نفسه. ويتضح من الدليل الداخلى أن الخطاب ليس وثيقة أصلية قد أدخلت فى النص ولكنه تم نظمه عندما كان الشاعر يكتب هذا الجزء من عمله الكبير ، ربما فى العقد الأول من القرن الحادى عشر الميلادى/الخامس الهجرى. وجزء من الخطاب^(٢٧) فى أساسه نبوءة تعبر عن رؤية رستم لعواقب الفتح الإسلامى، وهو مثير للغاية من حيث أنه يبين كيف رأى أحد أبناء الارستقراطية الفارسية فى تلك الفترة مجئ المسلمين. وهو لا يدين صراحة الإسلام أو العرب ، ولكنه يرسم مشهداً يبعث على الأسف عن نتائج الفتح الإسلامى وما جرته على الثقافة والقيم الإيرانية التقليدية . ذلك أن انهيار النظام الاجتماعى القديم الناجم عن مجئ الإسلام يؤدى إلى انهيار المعنويات العامة والشخصية .

وهو يبدأ القسم بمرثية عامة:

ولكن عندما يتساوى المنبر مع العرش

ويشتهر اسم أبى بكر واسم عمر

فإن كفاحنا الطويل سيغدو مثل العدم

وسيجبو الخجد الذى عرفناه ويسقط

ثم يعلق على خشونة الحكام المسلمين عامة مقارنة بالفخامة التى كان عليها بلاط الشاهنشاه القديم. ومن المثير أن نرى كيف أن تعليقاته على بساطة ملابس المسلمين تعكس الصورة التى أوردتها تلك الروايات العربية عن الفتوح التى تمجد فقر الفضيلة التى تحلوا بها فى تناقض مع الرفاهية الفارسية.

إنهم جميعاً يلبسون السواد(*) وستكون أغطية رؤوسهم مصنوعة

من قطع طويلة ملفوفة من الحرير أو القماش الأسود المطرز

ولن تكون هناك أحذية ذهبية أو رايات حينئذ

ولن تُرى تيجاننا وعروشنا مرة أخرى

وسيكون عهداً من الظلم والاضطهاد وانھیار النظام الاجتماعى القديم:

سيفرح البعض على حين يعيش الآخرون فى خوف

وستختفى العدالة والإحسان

وسيحكمنا الغرباء عندها بقوتهم

وسوف ينهبونا ويحولون أيامنا إلى ليال

ولن يهتموا بالرجال العادلين أو الصالحين

(*) كان اللون الاسود هو شعار الخلفاء العباسيين منذ سنة ٧٥٠م فصاعداً .

وساعتها سوف يزدهر الخداع والاحتيال
وسيمضى المحاربون على أقدامهم ، على حين يركب المنتفخون غروراً
وسوف يسلم المتباهون الفارغون أنفسهم ويركبون ؛
وسيعانى الفلاحون من الإهمال
ولن ينال الأصل والمهارة أى احترام
وسيصير الرجال لصوصاً يسرقون بعضهم بعضاً بلا خجل
وما خفى سيكون أسوأ مما ظهر
وسيستولى على العرش ملوك قلوبهم من صخر
ولن يثق رجل فى ابنه وبالمثل
لن يثق ابن فى أمانة أبيه
وسوف يحل محل الطبقة الحاكمة الفارسية التقليدية رجال من طبقات اجتماعية
دنيا ومن جنسيات مختلفة.
وسوف يخفى الرجال ثرواتهم ، ولكنهم حين يموتون
سينهب الأعداء كل ما يخبئون
وسوف يتظاهر الناس بأنهم مقدسون وبأنهم حكماء
لكى يتعيشوا من قول الأكاذيب
والأسف والكرب ، والمرارة والألم
ستكون مثلما كانت السعادة فى عهد
بهرام جور^(*) - قدر البشرية المعتاد

(*) شاه ساسانى حكم من سنة ٤٢٠ إلى سنة ٤٣٨م وكان يُعتبر مثال المحارب المهذب، وكان صياداً عظيماً وراعياً للموسيقين.

ولن تكون هناك أعياد ، ولا مهرجانات للدولة
ولامباهج ، ولا موسيقيون ، لاشيء من هذا :
ولكن ستكون هناك أكاذيب ، وفخاخ وخيانات .
وسيكون اللبن الحامض طعامنا ، والثياب الخشنة ملابسنا
وسوف ينجب الطمع إلى المال المرارة
بين الأجيال : وسوف يغش الرجال
بعضهم بعضاً بينما يتظاهرون في هدوء
بأنهم مؤمنون في الدين . والشتاء والربيع
سيمران على البشر دون أثر^(*) ، ولن يحضر أحد
النبيل ليحتفل بمثل هذه اللحظات ؛
وبدلاً من ذلك سوف يريقون دماء رفاقهم

إنها لصورة قوية عن التدهور السياسى والأخلاقى وخسارة القيم الأرستقراطية
القديمة . وكسر التمييز الطبقي واختلاط الأعراق المختلفة كلها جزء من هذا الدمار
الذى حل بالقيم التقليدية . وعلى النقيض من آراء المسيحيين ، لانجد مؤشراً على أن
مصائب الغزوات الإسلامية كانت جزءاً من عقاب الرب على الخطايا . وإنما هى مصيبة
من مصائب القدر وهى موضوعة ، بطبيعة الحال ، على لسان القائد الذى يعرف أنه
سوف يلقي الهزيمة ويقتل وأن النظام الذى يسانده سوف يختفى ، ولكن من الصعب
أن نتخيل أن هذا الرأى الأجوف عن تأثير قدوم الحكم الإسلامى لايعكس آراء الكثير
من أبناء الأرستقراطية الإيرانية فى القرون التى أعقبت الفتوح .

(**) إشارة إلى عيد النوروز ، أو النيروز، الإيرانى التقليدى العظيم ، أى رأس السنة ، الذى يتم الاحتفال به
فى مارس عندما تبدأ المحاصيل فى إظهار البراعم .

ويطبيعة الحال، لم يفتح العرب الصين ولم يقوموا بغزوها قط ، ولكنهم أسروا بالفعل عدداً من الصينيين فى الحملة التى أدت إلى معركة تراز أو تلاس بين الجيش المسلم والجيش الصينى سنة ٧٥١م . ومن بين هؤلاء الأسرى كان «توهوان» الذى أخذ إلى العراق وبقي هناك أسيراً حتى سُمح له بالعودة إلى وطنه سنة ٧٦٢م . وروايته عن المسلمين قصيرة ولكنها مثيرة للغاية، فهى تبين كيف كان العالم الإسلامى عند نهاية فترة الفتوح الكبرى يبدو فى عيني واحد ينتمى إلى ثقافة مغايرة تماماً^(٢٨).

«العاصمة إسمها الكوفة [Ya - chü - lo] واسم الملك العربى مومين [أى أمير المؤمنين]. وجميع الرجال والنساء يتسمون بالوسامة وطول القامة، كما أن ملابسهام لامعة نظيفة ، وسلوكهم مهذب . وعندما تخرج امرأة إلى العلن عليها أن تغطى وجهها بغض النظر عن مكانتها الاجتماعية سواء كانت راقية أو متواضعة . ويؤدون الصلاة خمس مرات يومياً . وياكلون اللحم . ويصومون ، ويعتبرون ذبح الحيوانات أمراً سليماً . وهم يلبسون أحزمة من الفضة حول أوساطهم ويعلقون بها خناجر من الفضة . ويحرمون شرب الخمر ويمنعون الموسيقى. وعندما يتشاجر الناس فيما بينهم لا يتبادلون الضربات. كما أن هناك قاعة احتفالات [المسجد] تسع عشرات الآلاف من الناس. وكل سبعة أيام يخرج الملك للصلاة (صلاة الجمعة)، ويرتقى منبراً عالياً ليلقى خطبة على الجمع المحتشد عن الشريعة. فيقول : «الحياة الإنسانية صعبة للغاية. وطريق الاستقامة ليس سهلاً، والزنا خطأ . وليس هناك ذنب أكبر من السرقة أو النهب، أو أتفه أشكال غش الناس بالكلمات، وأن يؤمن المرء نفسه بجلب الخطر على غيره، وخداع الفقير، وقهر المسكين . وجميع الذين قتلوا فى المعارك ضد الإسلام سيدخلون الجنة . اقتل العدو وسوف تنال السعادة التى تفوق الوصف» .

« لقد تحولت الأرض بأسرها؛ ويتبع الناس عقيدة الإسلام مثل ما يتبع نهر مجراه، ويطبق القانون بأسلوب لين فقط، ويدفن الموتى بشكل بسيط دونما إسراف . وسواء كان الناس داخل أسوار مدينة كبيرة أو فى داخل بوابة قرية، فإنهم لا يحتاجون إلى شىء مما تنتجه الأرض. إذ إن بلادهم محور العالم حيث البضائع الوافرة كثيرة ورخيصة، حيث أقمشة القصب المطرزة الفاخرة ، واللاكى والنقود تملأ الحوانيت على حين تملأ

الجمال والخيول والحمير والبغال الشوارع والأزقة . وهم يقطعون أقصاب السكر لبناء الأكواخ التى تشبه الحملات الصينية وحينما تكون هناك عطلة يحضر الأعيان بأوانى من زجاج وأوانى من النحاس تفوق الحصر . ولايختلف الأرز الأبيض والدقيق الأبيض عنه فى الصين . ومن ضمن فواكههم الخوخ والتمر التى زرع نخيلها من ألف سنة. واللفت عندهم كبير الحجم ومستدير وطعمه شهى جداً، ولكن خضرواتهم الأخرى تشبه الخضروات فى البلاد الأخرى . وحبات العنب عندهم كبيرة مثل بيض الدجاج . وأكثر الزيوت قيمة لديهم نوعان ، أحدهما يسمى الياسمين والثانى اسمه المر. وقد عمل الصناع الصينيون الأنوال الأولى لنسج خيوط الحرير وكانوا أول من عمل فى صياغة الذهب والفضة وكانوا أول الرسامين».

وتكشف الرواية عن مجتمع مسلم ناضج ، وهو ما يتوافق مع الصورة التى نعرفها من المصادر الأخرى. وترجع هذه الصورة إلى السنوات الباكرة من الخلافة العباسية قبل تأسيس بغداد مباشرة ، والذى بدأ سنة ٧٦٢م، أى السنة التى سُمح فيها للصينى «توهوان» بالرجوع إلى بلاده . ونعرف من المصادر العربية أن الخليفة المنصور كان مشهوراً بخطبه البليغة فى المساجد ، ومن المثير أن نرى تأكيد مراقبنا الصينى على إدانة القهر والظلم من ناحية وعلى الجهاد ومكافحة الجنة من ناحية أخرى. وتظهر أمامنا صورة مجتمع تطهرى حيث حجاب النساء ومنع الخمر والموسيقى ، فى العلن على الأقل ، من الأمور الواضحة . كما أنه مجتمع رفاهية ، وهو مجتمع تنعم بازدهاره جميع الطبقات الاجتماعية سواء فى المدينة أو فى القرية. ومن المفهوم أن كثيرا من الناس الذين فتح العرب بلادهم كانوا يوبون لو أنهم صاروا جزءاً من هذا المجتمع المزدهر الثرى. وكانت الكوفة ، بطبيعة الحال، مدينة إسلامية جديدة ومكاناً يتوقع المرء أن يجد فيه التزاماً شديداً بالنظام الأخلاقى الإسلامى. وفى الوقت نفسه يلفت النظر أنه ليس هناك ذكر لغير المسلمين، الذين كان لا بد أن يشكلوا الأغلبية حتى ذلك الحين ، حتى فى العراق، التى كان التحول إلى الإسلام فيها سريعاً .

إن أصوات المغلوبين مبعثرة ، وفى كثير من الأحوال يكون تأثير المسلمين فى المرتبة الثانوية بالنسبة للمؤلف. وليست هناك مناقشة للدين الإسلامى الجديد وعقائده .

وثمة اتفاق عام على الطبيعة المدمرة للغزو الفعلى ولكن الآراء تختلف حول جدارة الحكومة المسلمة. وعبء الضرائب التى فرضها المسلمون موضوع يتردد كثيراً . وبالنسبة لمسيحيى منطقة الهلال الخصيب، كان قدوم العرب ونصرهم الذى لا يمكن تفسيره ، نتيجة حتمية لغضب الرب وكانت الهرطقة، قبل غيرها، سبب غضب الرب. وعلى العموم، رأى الكتاب فى الطوائف النصرانية المنافسة، وفى اليهود، بطبيعة الحال، العدو الحقيقى الذى يجب تحديه وهزيمته . وعلى النقيض ، كان يمكن التسامح مع العرب، بل واستخدامهم لخدمة أغراض طائفية . ولم يقترب أحد حتى من اقتراح مقاومة مسيحية أو القيام بمجهودات متوافقة لإعادة الحكم المسيحى(*) . وكانت هذه المواقف عاملاً مهماً فى تفسير الكيفية التى حقق بها المسلمون سيطرتهم وحافظوا عليها. وتظهر الآراء الفارسية رد فعل مختلف تمام الاختلاف ، رثاء خسارة العظمة القديمة والنظام الاجتماعى القديم، والأسف فى الحقيقة ، من جانب الطبقة الحاكمة التى خلعت من الحكم . وعلى العموم ، فإن السمة اللافتة أكثر من غيرها فى هذه الأصوات هى اختلاف الاستجابات لقدوم الحكم الإسلامى . وربما لم يرض كثير من الناس بهذا الحكم ، ولكن القلائل هم الذين حاولوا عدم رضاهم إلى مقاومة نشطة . وكانت الطبيعة المتشردمة للمغلوبين سبباً مهماً فى نجاح المسلمين ، سواء فى الفتوح الأولية أو فى تقوية حكمهم.

(*) يتحدث المؤلف هنا «من خارج التاريخ» ؛ أى أنه يتجاهل ما هو معروف بالضرورة من أن الحكم البيزنطى لم يكن بالنسبة للمسيحيين فى منطقة الهلال الخصيب «حكماً مسيحياً» بقدر ما كان حكم دولة أجنبية مكروهة وظالمة وخارجة عن الإيمان القويم» ومن ناحية أخرى، كان معظم سكان هذه المنطقة من القبائل العربية التى نزحت قديماً من شبه الجزيرة العربية، وعاشوا فى الريف والمدن وعلى الساحل ، كما عاشوا فى الصحراء . ومن المعلوم تماماً أن الروابط التى تجمعهم بأقاربهم القادمين من شبه الجزيرة العربية كانت أفضل كثيراً من علاقتهم بالروم . ومن ناحية أخرى، كان مبدأ «عش ودع الآخرين يعيشون» الذى اتبعه المسلمون - وأشار إليه المؤلف نفسه- من أهم أسباب عدم المقاومة. (المترجم)

الهوامش

(١) المصدر الذي لا غنى عنه عن آراء غير المسلمين عن الإسلام في عصوره الباكرة هو :

Hoyland, *Seeing Islam as Others Saw It*.

(٢) عن صفرونيوس وكتابتة انظر :

Wilken, *The Land Called Holy*, pp. 226-39; Hoyland, *Seeing Islam*, pp. 67-73.

For a general introduction, see P. J. Alexander, 'The Byzantine Apocalyptic (٣) Tradition (Berkeley, CA. 1985).

Hoyland, *Seeing Islam*, p. 258, (٤)

For a translation of the text described here, see *The Seventh Century in (٥) Western-Syrian Chronicles*, trans.. A. Palmer (Liverpool, 1993), pp. 222-42, and the discussions in G. J. Reinink, 'Ps.-Methodius : A concept of history in response to the rise of Islam', in *The Byzantine and Early Islamic Near East, I. Problems in the literary source material*, ed. A. Cameron and L. I. Conrad (Papers of the First Workshop on Late Antiquity and Early Islam) (Princeton, NJ, 1992). pp. 149-87; Hoyland, *Seeing Islam*, pp. 263-7.

(٦) عن جبريل وتاريخ قرطمين عامة انظر:

A. Palmer, *Monk and Mason on the Tigris Frontier* (Cambridge, 1990), esp. pp. 153-9.

Quoted in S. Brock, 'North Mesopotamia in the late seventh century: Book XV of (٧) John Bar Penkaye's *Ris Melle*', *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* p (1987); 51-75, p.57 note b.

Sawirus, 'Life of Benjamin', p.492. (٨)

Sawirus, 'Life of Benjamin', p. 494. (٩)

John of Nikiu, *Chronicle*, pp. 184,200. (١٠)

John of Nikiu, *Chronicle*. 186. (١١)

John of Nikiu, *Chfronicle*, p. 179. (١٢)

- John of Nikiu, Chronicle, p. 188. (١٣)
- John of Nikiu, Chronicle, p. 182. (١٤)
- John of Nikiu, Chronicle, p. 195. (١٥)
- John of Nikiu, Chronicle, p. 182. (١٦)
- John of Nikiu, Chronicle, p. 181. (١٧)
- The Chronicle of 754 in Conquerors and Chroniclers of Early Medieval Spain, (١٨)
trans. K. B. Wolf (Liverpool, 1900), pp. 28-45, III-58.
- Brock, 'North Mesopotamia', p. 63. (١٩)
- Chronicle of 754, cap. 31, p. 123. (٢٠)
- Chronicle of 754, cap. 80, pp. 143-4. (٢١)
- Chronicle of 754, cap 85-6, pp 148-50. (٢٢)
- Hoyland, Seeing Islam, pp.308-12, 526-7. (٢٣)
- Daniel 11:39. (٢٤)
- Text and translation in H. W. Bailey, Zoroastrian Problems in the Ninth- Century (٢٥)
Books (Oxford, 1945), pp. 195-6; see also the comments in. Hoyland, Seeing
Islam, pp, 531-2.
- (٢٦) عن حياة الفردوسي وبيبلوجرافيا شاملة انظر:
- D. Khaleghi-Motlagh, 'Ferdowsi', in. Encyclopaedia Iranica, ed. E. Yarshater
(London, 1985-) vol. ix, pp. 514-23.
- See Firdawsi, Shahnamah, trans. D. Davis, vol. iii: Sunset of Empire (٢٧)
(Washington, DC, 1998-2004), pp.494-5.
- (٢٨) عن النص وسياقه انظر: Hoyland, Seeing Islam, pp. 246-8.

خاتمة

تحديد الحدود

بحلول سنة ٧٥٠م كانت الدولة الإسلامية قد وصلت الحدود التي كان لها أن تبقى ثابتة على مدى السنوات الثلاثمائة التالية بشكل أو بآخر . والفتوح المهمة الوحيدة التي تمت في هذه الفترة اللاحقة في عالم البحر المتوسط ، كانت فتح صقلية وكريت . ومن حيث الحجم والسكان كانت الدولة الإسلامية مشابهة للإمبراطورية الرومانية في عزها في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي ؛ ولم يكن هناك ما يجاريها سوى الصين تحت حكم أسرة تانج. وكانت حوالي نصف الأراضي التي يحكمها الخلفاء من دمشق (الدولة الأموية) قد خضعت من قبل لحكم روما في القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد. وقد تضمنت هذه الأراضي بلاد الشام وفلسطين ومصر، وشمال أفريقيا وإسبانيا . وكان الرومان، بطبيعة الحال، قد حكموا أيضا فرنسا، وبريطانيا ، وإيطاليا والبلقان وتركيا . وعلى الرغم من أن فرنسا وإيطاليا وتركيا (الدولة البيزنطية قديما) عانت جميعاً من الإغارات الإسلامية ، وبعض الاحتلال المؤقت ، فإنها لم تخضع أبداً للحكم العربي. ومن ناحية أخرى ، كانت دولة الخلافة تضم العراق وإيران وبلاد ما وراء النهر والسند، وهي مناطق كانت دائماً خارج حدود الإمبراطورية الرومانية .

وكانت تخوم الامبراطورية الرومانية محددة بالحدود الثابتة limes . وفي بعض الأحيان ، كما هو الحال في أسوار هادريان شمال بريطانيا ، كان هناك حقا خط مستمر من الأسوار الحجرية به حصون وضعت على مسافات منتظمة . وعلى كثير من الحدود الأخرى، في بادية الشام وصحراء الأردن ، مثلاً ، لم يكن هناك خط مُحصَّن

وإنما شبكة من القلاع الصغيرة والتحصينات لإيواء الحاميات العسكرية ولحراسة حواف الصحراء . ولم تطور الدولة الإسلامية الباكرة حدوداً limes بالطريقة نفسها . وفى كثير من المناطق كانت الحدود عبارة عن تحديد غائم جداً ، وفى مناطق أخرى كانت الحدود تنوّه فى الصحراء . وفى جهات قليلة فقط ، على امتداد حدود الأناضول مع الإمبراطورية البيزنطية ، مثلاً ، أو الأماكن التى كانت المعازل الإسلامية والمسيحية تواجه بعضها بعضاً فى أعالي وادى نهر الإبرو فى إسبانيا ، كانت توجد حدود حصينة تفصل ما بين المسلمين وغير المسلمين .

وقد فصل البحر المتوسط ما بين المسلمين وكثير من الأعداء المحتملين فى الشمال والغرب . وفى القرنين التاليين لحركة الفتوح الأولى كانت سواحل العالم الإسلامى على البحر المتوسط تكاد تكون محصنة ضد الهجوم . ولم يكن يحدث سوى من حين لآخر ، أن تقوم الأساطيل البيزنطية بالإغارة على الموانئ فى شرق المتوسط وفى مصر ، وبينما كان يمكن أن تنهب وتحرق فإنها لم تكن قادرة أبداً على تأسيس وجود مستمر لها .

وتقع الحدود الشمالية للأندلس ، إسبانيا المسلمة ، على امتداد سفوح البرينيس فى الشرق وجبال كانتابريا فى الغرب ، على امتداد الخط الكنتورى ١٠٠٠ - متر بالضبط تقريبا . وكانت تحمى المسلمين سلسلة من المدن الحصينة - هويسكا سرقوسة ، طليطلة Calatayud ومدرید ، وتالافيرا Talavera ، والتى غالباً ما تحميها الأسوار الرومانية . أما فى البرتغال وغرب إسبانيا فيبدو أنه كان هناك حزام عريض من الأرض المحايدة بين المعازل الشمالية للمسلمين والمملكة المسيحية الصغيرة التى تحتمى بجبال كانتابريا Cantabrian mountains ، ويحميها فى الشرق وادى نهر الإبرو . وكانت المعازل الإسلامية والمسيحية منفصلة عن بعضها البعض بعدة كيلو مترات قليلة فقط .

أما فى شمال أفريقيا من مراكش فى المغرب الأقصى حتى مصر فى الشرق ، فكانت حدود العالم الإسلامى تقع على امتداد الحواف الشمالية للصحراء الكبرى .

وفى مصر أيضاً كانت الصحراء هى الحدود . وفى وادى النيل كان الحكم الإسلامى ينتهى عند أسوان . فهناك كانت الدبلوماسية مع النوبيين قد أمنت الحدود الضيقة التى يسهل الدفاع عنها . وحول شبه الجزيرة العربية ، وعلى امتداد «الخليج والمحيط الهندى» وعلى الرغم من اندلاع أعمال القرصنة من حين لآخر ، لم يكن العالم المسلم يواجه تهديداً من هذا الاتجاه على الإطلاق.

وفى السند كان الموقف أشد تعقيداً . فقد اختفى الحكم الإسلامى شمال الملتان ولكن يبدو أن الحدود كانت سلمية نسبياً ؛ ومن المؤكد أنه لا يوجد ما يشير إلى وجود تحصينات رئيسية أو تأسيس حاميات عسكرية للدفاع عن الأراضى الإسلامية وكان موقع أفغانستان الحديثة، كما هو الحال دائماً، أشد تعقيداً بكثير . فقد كان المسلمون يسيطرون على عدد من المواقع فى الأراضى المنخفضة ، إلى الشمال والجنوب من الهندوكوش. فقد كانت بُشت ، وهرات، وبلخ كلها مدن حدود بشكل أو بآخر ، ولكن أهالى الجبال الذين لم تفتح أراضيهم كانوا مصدر إزعاج من آن لآخر، لكنهم لم يشكلوا تحدياً خطيراً للحكم الإسلامى.

وفى بلاد ما وراء النهر لم تكن الحدود محددة بالحدود على الخريطة وإنما بنقاط السيطرة ، فقد كان المسلمون يمتلكون المدن ومناطق الاستقرار ، وإلى جانبهم الأتراك يجوبون الصحراء وفى كثير من المناطق أسس المسلمون الأربطة أو الرُبط (جمع رباط)، وهى قلاع يسكنها ويدافع عنها الغزاة أى المحاربون الذين كرسوا أنفسهم لخدمة الإسلام.

وفى القوقاز كان خط الخريطة الكنتورى مرة أخرى هو الذى حدد حدود السيطرة الإسلامية . فقد سيطروا على السهول ووديان الأنهار حتى تبليسى فى قلب الجبال، ولكن القمم التى تغطيها الثلوج فى سلسلة الجبال العالية منعتهم من المضى أبعد من ذلك كما أن سهول جنوب روسيا حالياً بقيت خارجة عن سلطانهم . وعند الطرف الشرقى للقوقاز فقط، حيث تنزل الجبال إلى بحر قزوين ، كانت هناك حدود حصينة . وكانت القلعة الحجرية الكبيرة التى تعرف الآن باسم الدربند تسمى «باب الأبواب»

عند العرب، وكان الساسانيون قد أسسوها لحراسة الحدود، ثم أخذها المسلمون، وتم وضع حامية عسكرية عربية هناك فى تاريخ مبكر جداً . وفيما وراء الباب كانت أراضى الإستبس فى جنوب روسيا ، يسيطر عليها شعب تركى، هم الخزر ، الذين كانوا يشنون غارات داخل الأراضى الإسلامية فى الجنوب من فترة لأخرى.

وكانت الحدود مع الإمبراطورية البيزنطية جنوب شرق الأناضول هى أكثر الحدود تحصيناً فى العالم الإسلامى وكانت تشغل مكانا فريداً فى الوعى العربى^(١). وبحلول سنة ٧٠٠م كادت الحدود أن تكون ساكنة . ومرة أخرى سيطر المسلمون على الأراضى المنخفضة على حين كانت الجبال فوق ارتفاع ألف متر فى أيدي البيزنطيين . وقد بقى البيزنطيون، على الرغم من هزيمتهم زمن الفتوح الأولى، هم العدو الأول، القوة الوحيدة التى كان المسلمون يشعرون إزاءها أنهم يتنافسون على أساس من الندية . وكان البيزنطيون وحدهم من بين الشعوب التى عاشت على امتداد حدودهم الذين يمتلكون جهاز دولة متطوراً بدرجة عالية، وجيشاً نظامياً ، وديانة دولة والإمبراطور الذى كان يوسعه أن يرأس الخليفة على قدم المساواة . وقد عرف المسلمون أنهم أصحاب الدين الحقيقى الوحيد، ولكن بعضهم على الأقل عرفوا أن هناك الكثير الذى يمكنهم أن يتعلموه من ثقافة الروم، وفلسفتهم وعلومهم.

وفى السنوات التى أعقبت فتح الشام والجزيرة مباشرة ، وهى الولايات التى تشترك حدودها مع الإمبراطورية البيزنطية، كانت الحدود مائعة وتميزها الأراضى التى لا يملكها أحد لا الخطوط الثابتة . أما منطقة قليقية المنخفضة التى تتوفر بها إمكانيات الثراء ، عند الركن الشمالى - الشرقى للبحر المتوسط ، فكانت مهجورة بالفعل . وبالتدريج ، فى أثناء القرن الثامن الميلادى، أسس المسلمون قلعة حدودية ، وكان يتولى الدفاع عنها رجال يتقاضون رواتبهم من بيت المال. ولم يكن هناك سور وإنما سلسلة من المدن الحصينة من طرسوس فى الغرب حتى ملطية فى الشرق ، وكانت بها حاميات عسكرية مسلمة . وكانت هذه المعاقل الإسلامية دائماً فى السهول أو فى وديان الأنهار: أما جبال طوروس وطوروس المضادة فكانت بأيدي البيزنطيين . وكان من هذه الحصون أن شن المسلمون هجماتهم الصيفية ، والشتوية فى بعض الأحيان ،

داخل الأراضي البيزنطية. وغالباً ما كانت هذه الغارات أقرب إلى عمليات سرقة الماشية ، ولكن فى بعض الأحيان كانت حملات كبيرة. وكانت تلك الحروب الوحيدة التى شارك فيها الخلفاء وورثتهم بنشاط ، وكادت كثير من الحملات أن تكون ذات طبيعة طقسية ، فقد كان الخليفة يقود المسلمين ضد أعدائهم الموروثين .

وعلى العموم ، لم تعان الدولة الإسلامية من الضغوط الخارجية التى هددت الامبراطورية الرومانية على نهر الراين، ونهر الدانوب ونهر الفرات التى كانت تشكل الحدود . إذ إن المسيحيين من شمال إسبانيا ، والخزر من سهول جنوب روسيا والأتراك فى بلا ما وراء النهر ربما كانوا يقومون بإغارات داخل الأراضي الإسلامية ، ولكن تأثيرهم كان محدوداً وكان يمكن أن يستخف بهم سكان بغداد أو القاهرة . إن الدولة التى أسستها الفتوح العربية الكبرى كانت تحقق الاكتفاء الذاتى على المستوى الاقتصادى وتجلب الثقة بالنفس على المستوى العسكرى . وفى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين الثالث والرابع الهجريين، نجا هذا المجتمع المسلم من انهيار الحكومة المركزية بطريقة لم تتمكن من عملها الإمبراطورية الرومانية فى القرن الخامس الميلادى عندما كان الغزاة البرابرة يهددون.

نجاح الفتوح العربية

والآن حان وقت العودة إلى السؤال الذى طرحه يوحنا بار بنكايسى والذى بدأ به هذا الكتاب : لماذا كانت الفتوح العربية سريعة على هذا النحو وممتدة بهذه الطريقة ولماذا تحولت إلى البقاء والاستمرار هكذا؟

ولنبداً بالنظر إلى الأراضي التى فتحوها لنرى كيف وبأى الطرق ربما كانت مكشوفة . كانت هناك عوامل طويلة المدى تعمل عملها ، من الصعب أن نحددها بدقة أو نحددها بصورة كمية ، ولكن من المؤكد أنها مهمة. وربما كان التدهور السكانى ذا مغزى هنا. وبطبيعة الحال، فإن لدينا عدداً قليلاً من الأرقام المفيدة عن السكان فى تلك الفترة ، ولكن الانطباع الذى تتركه عدة مصادر متنوعة أن كثيراً من المناطق فى القرن

الذي أعقب ظهور أول طاعون وبائي فى عالم البحر المتوسط سنة ٥٤٠م، وأن هذه الخسارة فى السكان كانت قاسية للغاية فى المدن والقرى . ويبدو أن الجيوش العربية قد تحركت فى بعض الأحيان عبر فضاء خالى . فالفتح السريع لمناطق شاسعة فى إيران وشبه جزيرة أيبيريا، مع أقل قدر من المقاومة من جانب الأهالى يوحى بهذا . وحقيقة أن قدرًا كبيراً جداً من الغنائم التى تم الاستيلاء عليها فى الحرب كانت على شكل أسرى وسبائا يشى مرة أخرى بأن البشر كانوا مرغوبين تماماً . فعندما فتح الفرس أنطاكية سنة ٥٤٠م أو أقاميا سنة ٥٧٣م ، رحلوا أعداداً كبيرة من المواطنين ليستقروا فى مدن جديدة أو لتوسعة مدن فى الإمبراطورية الساسانية ، وهى سياسة تبدو معقولة فقط إذا ما كان هناك نقص فى عدد السكان . ويوضح العدد الكبير من العبيد الذين تم أخذهم فى شمال أفريقيا وجلبهم إلى الشرق الأوسط كيف كان الناس مورداً قيماً وربما نادراً . والواضح أن المدن العريقة والشهيرة قد سقطت دون أية مقاومة جدية، ويوضح مصير ثلاث من أهم المدن فى أواخر العصر الرومانى هذا بوضوح . فقد استسلمت أنطاكية بأقل قدر من المقاومة ، ربما فى سنة ٦٣٦م ؛ ويبدو أن قرطاج كانت مهجورة إلى حد كبير عندما احتلها المسلمون فى سنة ٦٩٨م، وقد فشلت طليطلة ، على الرغم من أنها كانت عاصمة الفيزيقيوط وتحصيناتها الطبيعية الممتازة ، فى تأخير الجيوش المسلمة أية فترة أطول سنة ٧١٢م . والأدلة على التدهور السكانى متناثرة وغير مباشرة ونادرة ، ولكنها تبدو مقنعة فعلاً فى نهاية الأمر . ولم يتسبب هذا التدهور بطبيعة الحال، فى الفتوح العربية ، ولكنه ربما كان يعنى أن المقاومة كانت أقل شراسة، وأن طريق الجيوش العربية لم تكن تعترضها مدن كثيرة السكان، يعتلى سكانها الأسوار عازمين على المقاومة . وربما لم يحدث سوى فى بلاد ما وراء النهر أن وجدنا هذا النوع من المقاومة الشديدة التى أبداها سكان محليون تحركهم دوافع سامية .

وإلى جانب هذه العوامل بعيدة المدى، كانت هناك التأثيرات قصيرة المدى للحرب وما سببته من تشوش واضطراب . فقد كانت هناك صراعات كثيرة بين الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية منذ هزم البارثيون كراسوس وقواته سنة ٥٣ ق.م ،

ولكن الحرب التي اندلعت بعد اغتيال الإمبراطور موريس في سنة ٦٠٢م كان الأبعد في مداها والأكثر تدميراً . وقد أثرت عواقب الاكتساح الفارسي لأراضي الإمبراطورية البيزنطية في المجتمع على عدة مستويات . فقد دمرت السيطرة الإمبراطورية البيزنطية على أراضي الشرق الأدنى ، كما قطعت العلاقات والروابط مع القسطنطينية؛ إذ توقف تعيين الولاة ، وتجريد الجيوش، كما توقف دفع الضرائب . وفقدت الكنيسة الأرثوذكسية الخلقونية حمايتها الإمبراطورية وصارت مجرد طائفة بين طوائف أخرى كثيرة. وهرب كثير من رجال الكنيسة وغيرهم من أبناء النخبة طالبيين الأمان النسبي في شمال أفريقيا وإيطاليا . وقد أوحى العمل الأثري ، في الأناضول على الأقل، بأن تقدم الجيوش الفارسية ألحق ضرراً بالغاً بالحياة الحضرية وأن الناس هجروا المدن الخالية في السهول لاجئين إلى القلاع فوق القمم الجبلية . وقد استعادت السيطرة الامبراطورية البيزنطية سطوتها قبل سنة أو سنتين فقط قبل مسير الجيوش العربية من المدينة المنورة ، وربما لم تكن هناك هياكل سياسية أو عسكرية على الإطلاق في كثير من المناطق .

وثمة صفة مميزة اتسمت بها هذه «الحرب العظمى الأخيرة في العالم القديم» هي أنها خربت كلاً من الإمبراطوريتين بقدر متساوٍ من الوحشية . فقد كان غزو هرقل لفارس الإمبراطورية مدمراً بقدر ما كانت الغزوات الفارسية للإمبراطورية البيزنطية مُخرِبَةً؛ إذ إن معبد النار الكبير في شيز، حيث كان يتم تتويج ملوك فارس، كان قد ناله التدمير كما نُهب القصر الملكي في دستجرد . والأكثر وحشية أن الملك كسرى الثاني (٥٩١-٦٢٨م) قتل على أيدي قادة جيشه. وكانت الإمبراطورية الساسانية بخلاف الإمبراطورية البيزنطية ، دولة تحكمها سلالة وراثية؛ وقد أطاح هجوم هرقل بالهيبة التي كانت للسلالة الحاكمة وبالثقة في النخبة الفارسية الحاكمة . وقد تسبب الاقتتال فيما بين الأسرة الحاكمة في فترة اضطراب كبير. وفي الوقت الذي تم قبول يزديجرد الثالث (٦٣٢-٦٥١م) شاه على إيران على نطاق واسع، كانت الجيوش العربية تهاجم الحدود العراقية بالفعل.

وقد ساعد على نجاح الفتح أيضاً سلسلة المنازعات التى شلّت الدولة البيزنطية بعد موت هرقل فى فبراير سنة ٦٤١م . ذلك أنه يبدو أن صراع القوة فى البلاط البيزنطى كان السبب المباشر للفشل فى شن عملية هجومية للدفاع عن مصر . فلو أن هرقل كان قد خلفه على العرش إمبراطور جديد قوى وحيوى ، فربما كان البيزنطيون قد استطاعوا أن يشنوا هجوماً مضاداً فى بلاد الشام أو على امتداد سواحل البحر المتوسط، لاسيما فى أثناء الفترة المضطربة تماماً التى أعقبت قتل الخليفة عثمان بن عفان فى سنة ٦٥٦م^(*). فقد قضى المسلمون فترة جيل لكى يشددوا سيطرتهم وسلطتهم على الأراضى التى كسبوها من البيزنطيين.

كانت هناك عوامل قوة مشتركة لدى كل من الإمبراطوريتين العظميين ، وكانت أيضاً ويا للتناقض، من عوامل الضعف عندما ساءت الأمور . وفى الدولة البيزنطية والدولة الساسانية، كان يتم تركيز القوة العسكرية تركيزاً شديداً ، وكانت كل منهما تعتمد على جيش محترف يتم الإنفاق عليه من خلال النظام الضريبى فى الدولة . وقد كان هذا التطور جديداً نسبياً . ففى الإمبراطورية البيزنطية وجدت قوات الثغور limitanei، التى وضعت على امتداد الحدود وأعطيت الأرض والرواتب للدفاع عن حدود الإمبراطورية . وفى أثناء النصف الأول من القرن السادس تم حل هذه القوات وحلت محلها قبائل البدو الغساسنة حلفاء للبيزنطيين. وبعد سنة ٥٨٢م تم الاستغناء عن هؤلاء أيضاً واعتمدت الإمبراطورية على جيش ميدان دائم للدفاع عنها . ويبدو أن البيزنطيين لم يكونوا مستعدين بالمرة لمواجهة هجوم من الصحراء . ويقدم كتاب الاستراتيجية Strategikon، وهو كتاب عمليات عسكرية كتب سنة ٦٠٠م تقريباً، تعليمات عن كيفية قتال الفرس، والترك والآفار ، ولكنه لا يذكر العرب على الإطلاق ؛ ومن الواضح أنهم لم يكونوا يعتبرون مصدر تهديد مهم. ويغض النظر عن الحلفاء العرب،

(*) يعود المؤلف هنا لكى يستخدم «لو» ، على الرغم من أن التاريخ لا يبحث فى الاحتمالات والإمكانات، وإنما يحاول تفسير «ما حدث بالفعل» فى الماضى . ويبدو أن المؤلف يصرّ على إعلان تمنياته بأثر رجعى.
(المترجم)

يبدو كما لو أن قلة من الجنود البيزنطيين الذين حاولوا الدفاع عن الإمبراطورية ضد الغزاة المسلمين كانوا من أهل المنطقة. فقد كانوا إما من الناطقين باليونانية من أجزاء الإمبراطورية الأخرى أو من الأرمن. وقد حدث تطور مشابه في الإمبراطورية الساسانية. ففي النصف الأول من القرن السادس كان قد تم تركيز الإدارة على يد كسرى الأول (٥٢١ - ٥٧٩م) الذي كان قد أسس جيشاً إمبراطورياً يتم دفع رواتبه من إيرادات الضرائب. ومثل البيزنطيين في الفترة نفسها، كان الساسانيون قد قرروا الاستغناء عن خدمات الملوك اللخمينيين الذين كانوا يتولون الدفاع عن الحدود الصحراوية. وفي ذلك الحين كان جيش الشاه وحده يدافع عن الدولة.

ومن عدة وجوه يمكن أن نرى في هذه التطورات علامة على تزايد سلطة الحكومة وتعقدتها، ولكنها على النقيض نتج عنها هذه الدول القوية ظاهرياً والمكشوفة بشكل غير متوقع أمام الأعداء. ولو أن الحكومة الإمبراطورية كانت تعاني من التفكك ولو أن الجيش الإمبراطوري لقي الهزيمة في معركة كبيرة، لما وُجدت قوات للمقاومة المحلية تتحمل عبء الدفاع. ولم تكن هناك جيوش بالمدن من المواطنين المحليين، ولا ميليشيا من الفلاحين يمكن الاعتماد عليها. ومن الأمور ذات الدلالة أن المناطق التي واجه فيها العرب أقوى مقاومة كانت مناطق مثل بلاد ما وراء النهر، وأرمينيا وجبال البورز وجبال كانتابريا في شمال إسبانيا، وهي أماكن كانت على الدوام خارج الحكم المباشر للإمبراطوريات والملوك في مناطق الأرض المنخفضة. فهناك دافع الأهالي بحمية عن أوطانهم ضد الغزاة.

وهناك مؤشرات من مناطق كثيرة فتحتها المسلمون على أن الغزاة أفادوا من التوترات الداخلية في الإمبراطوريات القديمة، وهو ما كان يعنى أنه، في بعض الحالات، كان ينظر إليهم على أنهم المحررون، أو على الأقل بديل يمكن احتماله. وفي بعض الأحيان كانت هذه التوترات دينية: ذلك أن المسيحيين المونوفيزيتيين في مصر وشمال الشام كان لديهم بالتأكيد ما لا يجعلهم يحبون السلطات البيزنطية، على الرغم من أن هناك قدراً قليلاً من الأدلة على أنهم ساعدوا الغزاة بالفعل.

وربما كان الفلاحون فى أرض السواد بالعراق قد أحسوا كذلك بالراحة لتدمير الطبقة الحاكمة الفارسية ؛ كما أن التجار وأرباب الحرف والصنائع فى السند قيل إنهم تعاونوا بإرادتهم مع المسلمين ضد الطبقة الحاكمة العسكرية البرهمانية. وفى شمال أفريقيا ، حارب البربر معاركهم ضد الغزاة ، وعقدوا تحالفات وخدموا معهم تاركين البيزنطيين ليواجهوا مصيرهم.

ولم تطور المجتمعات الخاضعة ثقافة مقاومة بعد الفتوح الأولى. وشكوا من الولاة القساة الظالمين ، ولكن بقدر علمنا ، لم يظهر دعاة أو كتاب يشجعون على المعارضة النشطة ضد نظام الحكم الجديد . وتلجأ الدعاية المضادة للمسلمين فى المصادر المسيحية إلى الأدب المتعلق بنهاية العالم الذى سيجىء فيه إمبراطور عظيم أوشخص بطولى من الخارج لكى يخلص الشعب المسيحى. وفى الوقت نفسه ، كان كل ما فى وسعهم أن يصلوا ويتمسكوا بديانتهم . أما عداوتهم تجاه المسيحيين الآخرين من الطوائف المختلفة ، وتجاه اليهود قبل غيرهم ، فكانت أقسى وأشد وقعا من عداوتهم تجاه العرب. ولم يكن هناك صوت بين أصوات المغلوبين يحرص على القيام بعمل للإطاحة بنظام الحكم الجديد.

هذه الأحداث الداخلية فى الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية كانت أساسية فى نجاح الفتوح العربية . ولو أن النبى محمد كان قد وُلد قبل جيل وحاول هو وخلفاؤه أن يرسلوا الجيوش ضد الإمبراطوريتين العظيمين فى سنة ٦٠٠م ، مثلا ، فمن الصعب أن نتصور أنهم كانوا سيحققون أى تقدم على الإطلاق^(٥).

لم يكن ضعف البنى السياسية القائمة، بحد ذاته، هو الذى ضمن نجاح الجيوش العربية . إذ كانت هناك قوى كامنة تعمل جعلت القوات الإسلامية أكثر قوة وفعالية من أية قوة كانت من قبل أو جاءت من بعد .

(٥) هذه ليست كتابية «تاريخية» تقوم على محاولة استرداد الحدث من «الماضى» ومحاولة الإجابة عن الأسئلة التى تبدأ بكلمة «لماذا» ، ومحاولة تفسير «ما حدث» . أما الإسراف فى استخدام "if" (لو) فى مثل هذه النقاط بالذات، فهو أمر يثير العجب خصوصا وأن المؤلف باحث ممتاز، وعارف بموضوعه، ومصادره التاريخية؛ (المترجم)

وقد قيل ما يكفى بالفعل عن الدافع الدينى لدى الغزاة، وعن قوة فكرة الاستشهاد والجنة باعتبارها من عوامل الحفز فى المعركة . وقد امتزج هذا بالمثل العليا التقليدية قبل الإسلام عن الإخلاص والولاء للقبيلة ووشائج القرى، والإعجاب بالمحارب الوحيد البطل. وقد كان مزيج القيم الثقافية للمجتمع البدوى مع أيديولوجية الدين الجديد قوياً وراسخاً .

ويجب أن نتذكر أن جيوش الفتوح الإسلامية الباكرة كانت كذلك بالضبط - جيوشاً، فلم يكونوا هجرة جماعية من رجال القبائل البدوية. فقد تركوا نساءهم وأهلهم، وأطفالهم وعجائزهم فى بلادهم، فى خيمة أو فى منزل . وكانوا منظمين فى جماعات وكان قادتهم يعينون ، عادة بعد المشورة ، من قبل الخلفاء أو الولاة . ولم تكن عائلات المحاربين تنضم إليهم سوى بعد تحقيق النصر.

وكما رأينا ، لم تتوصل الجيوش العربية إلى تكنولوجيا جديدة لم يكن أعداؤهم يملكونها ، كما أنهم لم يهيمنوا بفضل الأعداد الكبيرة ، وإنما كانت لديهم بعض الميزات العسكرية الخالصة . وكانت الحركية أهم هذه الميزات . فالمسافات التى غطتها الجيوش الإسلامية فى الفتوح مدهشة حقاً . وتمتد المسافة أكثر من سبعة آلاف كيلو متر من أبعد نقطة فى المغرب الأقصى غرباً حتى الحدود الشرقية للعالم المسلم فى آسيا الوسطى. وعلى النقيض من ذلك ، فإن الإمبراطورية الرومانية من حائط هادريان إلى حدود الفرات كانت أقل من خمسة آلاف كيلو متر . وقد عبرت كل هذه المناطق وأخضعتها جيوش إسلامية سريعة الحركة . وكانت معظم أراضي البلاد التى عملوا فيها جرداء غير مضيافة ، ولا يمكن أن يعبرها سوى قوم يتسمون بالصلابة وسعة الحيلة. وكانت جيوشهم تتحرك بدون قافلة إمدادات. ويبدو أن المحاربين حملوا طعامهم معهم واشتروا أو سرقوا أو أخذوا المؤن عندما أعوزتهم الحاجة . وكان هؤلاء الناس وحيواناتهم على السواء معتادين على أن يقتاتوا بأقل القليل ، الغذاء الزهيد الذى يقيم به البدوى أوده، وكانت لديهم الخبرة فى النوم الخشن. وكان السفر ليلاً عندما يبرد الهواء وتسطع نجوم السماء بما يكفى لإرشادهم ، جزءاً مهماً من حياة الصحراء،

وهناك عدد من المعارك سجلتها حوليات الفتوح أظهرت فيها الجيوش العربية أنها يمكن أن تتقهقر داخل الصحراء، وأن تتخذها ملجأ، أو تعيد تجميع نفسها بعد الهزيمة أو تأخذ العدو على غرة.

ومن الواضح أن نوعية القيادة فى الجيوش المسلمة كانت راقية للغاية . إذ إن النخبة من سكان مدن الحجاز ، ومعظمهم من قريش والقبائل المرتبطة بها التى قدمت معظم القيادات العليا، أنجبت بعض الرجال المقتدرين للغاية . فقد كان خالد بن الوليد فى الشام، وعمر بن العاص فى مصر، وسعد بن أبى وقاص فى العراق ، جميعا قادة عسكريين متميزين. وفى الجيل الثانى يمكننا أن نشير إلى عقبة بن نافع فى شمال أفريقيا ، وطارق بن زياد وموسى بن نصير فى إسبانيا ، وقتيبة بن مسلم فى بلاد ما وراء النهر، ومحمد بن القاسم فى السند باعتبارهم قادة عظماء . وتتحدث المصادر العربية أيضا كثيرا عن مجالس الحرب وعن القادة الذين يأخذون المشورة قبل أن يقرروا مجرى العمل. وهذا جزئيا خيال أدبى ، صمم لكى يوضح الخطوط العريضة للنشاط العسكرى الممكن ويؤكد على الطبيعة «الديموقراطية» للمجتمع المسلم الباكر ، ولكنه قد يكون انعكاسا حقيقيا للممارسة ، حيث كان يتم اتخاذ القرارات بعد عملية المشاورة والنقاش.

وربما كانت كفاءة القيادة فى جزء منها ناتجا للتقاليد السياسية فى المجتمع العربى. فقد كانت القيادة تنتقل من جيل إلى جيل يليه فى عائلات بعينها وعشائر محددة ، ولكن فى داخل هذه المجموعات كان على أى قائد بازغ أن يثبت نفسه، ويبين لاتباعه أنه شجاع وذكى ودبلوماسى. فإذا أخفق ، يبحثون عن غيره . وكان عليه أيضا أن يحسب حساب آراء أولئك الذين يأمل فى قيادتهم ووجهات نظرهم . وكونه ابن شخص ما، لم يكن مؤهلا يكفى على الإطلاق . ودهشة الملكة الأم الإيرانية من أن أبناء قتيبة بن مسلم العظيم لم يرثوا مكانه مؤشر على الفرق فى الثقافة بين الإيرانيين والعرب فى هذا الصدد . ولم يكن من الممكن أن يبقى القادة المستبدون وغير الأكفاء طويلا . ذلك أن عبيدالله بن أبى بكر فى أفغانستان والجنيد بن عبدالرحمن فى بلاد ما

وراء النهر من بين الأمثلة القليلة على الفشل فى القيادة ؛ ولم يستمر سوى فترة قصيرة وهما الشعراء بقسوة وحشية ، كما انتقدتهما المعلقون السياسيون فى زمانهم بعنف .

وكانت هناك ملامح أخرى فى بناء القيادة الإسلامية أدت إلى النجاح . فالمصادر تؤكد باستمرار على دور الخلفاء والولاة ، لاسيما الخليفة عمر بن الخطاب (٦٣٤-٦٤٤م) فى تنظيم الفتوح وتوجيهها . ومن المستحيل تماماً أن يكون عمر قد استطاع كتابة كل الرسائل المتعلقة بالتفاصيل الدقيقة للعمليات التى تنسبها المصادر إليه ، ولكن هذه السرديات قد تعكس حقيقة أنه كانت هناك درجة قوية من التنظيم والسيطرة من المدينة المنورة ثم من دمشق فيما بعد . وهناك أمثلة قليلة عن القادة الذين يعصون الأوامر ، وكذلك أمثلة قليلة عن التمرد ضد العاصمة من جانب القادة فى الأقاليم البعيدة وميادين المعارك النائية . وهذا كله أمر مذهل لأنه يتناقض مع الأحداث فى الإمبراطورية البيزنطية المعاصرة ، حيث كانت الكفاءة العسكرية للدولة تتدهور باستمرار بسبب تمرد القادة العسكريين الذين يأملون فى الاستيلاء على العرش الإمبراطورى . والطريقة التى تقبل بها قادة ناجحون من أمثال خالد بن الوليد ، وعمر بن العاص ، وموسى بن نصير ومحمد بن إسحق طردهم من مناصبهم وعودتهم فى هدوء إلى العاصمة ، ليوأجوها العقاب والإهانة فى الغالب ، مذهلة تماماً .

وثمة عنصر أساسى فى نجاح الفتوح تمثل فى الشروط السهلة نسبياً التى فُرضت على المغلوبين . وعادة ما كان القادة العرب يقنعون بعقد اتفاقيات تحفظ أرواح المغلوبين وممتلكاتهم ، بما فيها الحقوق المرتبطة بأماكن عبادتهم ، مقابل دفع الجزية والوعد بأنهم لن يساعدوا أعداء المسلمين . أما المدافعون المهزومون فى المدن التى تم فتحها عنوة فكان يتم إعدامهم فى بعض الأحيان ، ولكن كانت هناك أمثلة قليلة على المذابح الجماعية للسكان كلهم . ونادراً ما كانت هناك طلبات بمساكن ليستقر بها المسلمون ، مثلما حدث فى حمص ، أو أية مطالبات أخرى بالممتلكات . كما أنه نادراً ما حدث دمار متعمد أو تخريب مقصود للمدن والقرى القائمة . وهنا نجد تناقضاً رئيسياً مع المغول فى القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى مثلاً ، بشهرتهم

التي يستحقونها تماماً في الذبح والتدمير . وعلى الرغم من أننا لا يمكن أن نكون واضحين بشأن هذا ، فربما كان العرب في البداية على الأقل ، أقل طلباً للموارد والخدمات من الناس العاديين من أسلافهم البيزنطيين والساسانيين ، وربما كانت الضرائب التي فرضوها فعلاً أقل . ولم يحدث حتى نهاية القرن السابع أن وجدنا شكاوى من القهر في جباية الضرائب . ولابد أيضاً أن المغلوبين ظنوا أن العرب في غارة موسمية ، يمكن إلقاء شرها بالمال هذه السنة ولن تحدث ثانية : ومن الأفضل دفع المال وتوقيع الوثائق الضرورية بدلاً من المخاطرة باجتياح المدينة ، وقتل الرجال وسبى النساء والأطفال لكي يباعوا في أسواق النخاسة .

وبدأت القوات العربية الإسلامية تستقر في المناطق المفتوحة حديثاً بسرعة بعد الفتح وعندما استوطنوا ، كانوا على الدوام تقريباً منفصلين عن السكان المحليين . ففي العراق كانوا متمركزين في ثلاث مدن إسلامية جديدة : الكوفة والبصرة والموصل . وفي البداية كان الاستقرار العربي في مصر محصوراً في نطاق الفسطاط ، التي بنى الكثير منها على أرض مفتوحة ؛ وفي إفريقية اتخذ الاستقرار الإسلامي الباكر مكانه الرئيسي في مدينة القيروان الجديدة ، على حين كان في خراسان أكبر استقرار عربي في مرو ، حيث تم بناء حي جديد كامل خارج أسوار المدينة الساسانية القديمة . وفي بلاد الشام ، كان العرب يميلون إلى الاستقرار في الضواحي الخارجية للمدن الموجودة مثل حماة وحلب ، بدلاً من التملك في العاصمة أو المركز . وإلى حد كبير خال هذا الوضع دون الاحتكاك الحتمي الذي كان سينشأ بين الجيش الفاتح والسكان المحليين إذا ما تقاسموا سوايا الشوارع والساحات الضيقة .

ومن الناحية الجغرافية أيضاً كان الفتح العربي منتشرأ . فقد سار العرب على الطرق الرئيسية ، واجتاحوا المدن الكبرى أو تقبلوا استسلامها . ولكن بعيداً عن الطرق السريعة كانت هناك بالضرورة ، في الجبال والوديان البعيدة ، جماعات كثيرة لم ترَ العرب أبداً ، ولم يسمعوها سوى بعد أسابيع ، أو شهور ، وربما سنوات ، أنهم لم يعودوا من رعايا الشاه أو الإمبراطور . وربما كانت جبال أنرييجان ، وجبال جنوب بحر قزوين ،

وتلال كردستان ، وجبال الأطلس الأعلى جنوب المغرب ، وجبال سيرا دى جريدوس فى إسبانيا ، كلها أماكن لم يظهر فيها العرب المسلمون إلا نادراً . ولم يحدث سوى فى القرنين أو القرون الثلاثة التالية للفتوح الأولى أن وجدت أقليات مسلمة ، من التجار والمغامرين ، قد دخلت هذه الأراضى وبدأت تنتشر الدين الجديد وأخبار السلطات السياسية الجديدة. ولم يكن هناك دافع لدى أهل هذه المناطق لمقاومة الغزاة، لأن الغزاة ببساطة تجنبوهم ومروا من جوارهم .

وكما رأينا مراراً وتكراراً ، مارس الفاتحون المسلمون قليلاً من الضغوط ، أو لم يمارسوا أى ضغط ، على السكان الذين أخضعوهم ، لاعتناق الإسلام . وربما كانت أية محاولة لإجبارهم على اعتناق الإسلام ستكون سبباً فى إثارة الغضب والعداوة الصريحة على نطاق واسع . ولكن الواقع أن السلطات الإسلامية أقامت علاقات ناجحة مع رؤساء الكنائس وغيرها من المؤسسات الدينية التى صارت تحت سلطانهم آنذاك . لقد كان اعتناق الإسلام راجعاً بصورة جزئية إلى الضغوط المالية، والرغبة فى الهروب من ضريبة الرأس الكريهة ، ولكن اعتناق الإسلام كان يتيح أيضاً الفرصة للهروب من القيود الاجتماعية الراهنة والانضمام إلى الطبقة الحاكمة الجديدة . إذ كان لا بد لمن يريد الدخول فى زمرة العسكريين أن يكون مسلماً . وبحلول القرن العاشر، الميلادى / الرابع الهجرى وقبله فى بعض المناطق ، كان قد بات من الصعب تماماً أن يضمن أحد وظيفة ناجحة فى الإدارة المدنية دون أن يكون مسلماً . كان الجذب ، وليس القهر ، هو مفتاح جاذبية الدين الجديد .

وفى أثناء القرن الأول، كانت الدولة الإسلامية مجتمعاً مفتوحاً بحق . كانت النخبة فى الدولة الجديدة هم المسلمين والإسلام دين لكل البشر. ولم يكن ممكناً حرمان أى فرد يعتنق الإسلام عضويته فى هذه النخبة الجديدة. وعلى النقيض ، كانت المواطنة الرومانية أو عضوية العائلات الأرستقراطية الفارسية حصرية ، ووضع ممتاز يدافع عنه من يتمتعون به. وباعتناق الدين الإسلامى، يتحول المغلوبون ليصبحوا من الفاتحين،

أى أعضاء من الطبقة الحاكمة الجديدة ، ومن الناحية النظرية على الأقل، يصيرون مساوين لغيرهم من المسلمين . وبطبيعة الحال، سرعان ما ثارت المشكلات وكانت هناك صدامات طويلة وعنيفة بين المسلمين والمسلمين الجدد من العرب ومن غير العرب ، بيد أن هذا لم يستطع أن يقوّض حقيقة أن الإسلام كان مفتوحاً أمام الجميع .

هذا هو الجانب الآخر من انهيار النظام الاجتماعى القديم والحدودالطبقية التى رثتها المصادر الفارسية من تلك الفترة . وكانت هناك بعض الأمثلة الباهرة على هذا الحراك . فقد كان نصير أسير حرب ، وربما كان من أصل آرامى متواضع ، وتم أسره فى إحدى الحملات الباكرة التى شنّها العرب على العراق . واعتنق الإسلام ، وصار ابنه موسى والياً على شمال أفريقيا والقائد الأعلى للقوات الإسلامية فى فتح إسبانيا . وعند مستوى أكثر تواضعاً ، كان الفلاحون الذين رفضوا إطاعة أوامر ملاك الأراضي الفرس فى العراق، والأقباط الذين اختاروا أن يبقوا فى شمال أفريقيا بدلاً من إجبارهم على العودة إلى موطنهم مصر، أو الأهالى الذين خدموا مع الجيوش العربية فى بلاد ما وراء النهر، جميعاً قد رأوا فى قدوم المسلمين فرصة لتحسين أحوالهم، وانتهزوا ميزة الحرية والفرص التى يتيحها لهم النظام الجديد .

وقد جلب المسلمون الأوائل معهم قدراً كبيراً من الثقة بالنفس ثقافياً . فقد تكلم الله إليهم من خلال النبى (عليه الصلاة والسلام) ، بلسان عربى مبين ، وكانوا هم حملة الدين الصحيح واللغة التى نزل بها الوحي^(*). ومن المثير أن نقارن هذا بالغزاة الجرمان فى غرب أوروبا القرن الخامس الميلادى، فعندما احتلوا أراضى الإمبراطورية

(*) ترجمت هذه العبارة بتصريف، فقد كتب "God's own language" . ولاتتريب على المؤلف: فهو ابن ثقافة أخرى، ويؤمن بدين آخر، ولكن المعنى الحرفى للعبارة «لغة الله نفسه» لا يستقيم مع حقائق الدين الإسلامى؛ فالله سبحانه وتعالى ليس كمثل شىء وهو ما يعنى أن ليست له لغة خاصة مثل البشر، ولكن الوحي نزل بالعربية ؛ ومن ثم كتب بها القرآن الكريم مما أعطاهما المكانة السامية فى قلوب جميع المسلمين. (المترجم)

الرومانية ، تخلوا عن آلهتهم القديمة واعتنقوا المسيحية ، ديانة الإمبراطورية التي كانوا قد غزوا لتوهم ، وفي حدود علمنا ، لم يزعم أحد أن الرب كان يتحدث الجرمانية . وكانت هذه الثقة بالنفس الثقافية تعنى أن اللغة العربية صارت لغة الإدارة ولغة الثقافة الرفيعة الجديدة. وكل من كان يريد أن يشارك في الحكومة أو في الحياة الفكرية مشاركة كاملة كان لا بد أن يكتب بالعربية ويفضل أن يكون مسلماً . ومرة أخرى يتجلى التناقض مع الغرب الجرمانى . فهناك في الغرب بقيت اللغة اللاتينية لغة الإدارة والثقافة الرفيعة حتى القرن الثانى عشر الميلادى على الأقل، واتخذت الطبقة الحاكمة ألقاباً لاتينية مثل الدوق (dux) والكونت (Comes) ، وبقيت اللغات الجرمانية بمثابة لغات دارجة فحسب . أما الألقاب الإسلامية : خليفة ، وأمير ، ووالى فكانت جميعاً عربية الأصل.

ومع هذا ، كان الفتح فاتحة اعتناق الإسلام . فقد أسس الإطار السياسى والاجتماعى الذى فى داخله أمكن حدوث عملية التحول إلى الإسلام الأشد بطناً . وبحلول سنة ١٠٠٠م، ربما كانت أغلبية السكان فى جميع المناطق المختلفة التى تم فتحها سنة ٧٥٠م من المسلمين^(٣). ولم يتسبب الفتح فى التحول إلى الإسلام ولكنه كان تمهيداً أساسياً له: فبدون الفتح لم يكن الإسلام ليصبح الدين السائد فى هذه المناطق.

كان نجاح الفتوح الإسلامية نتاجاً لمجموعة فريدة من الظروف والدعوة إلى ديانة توحيدية جديدة وبسيطة . كانت هناك ملامح كثيرة فى الإسلام جعلته قابلاً للتعامل بالنسبة للمسيحيين واليهود . فقد كان له نبي، وكتاب مقدس ، وأشكال راسخة فى الصلاة والطعام وقوانين الأسرة. وكان ابراهيم وعيسى من الأنبياء الذين يحظون بمكانة عظيمة فى تراث الإسلام. ومنذ بداية البداية رسخ الإسلام باعتباره ديناً جديداً، وجاء ليكمل الديانات التوحيدية الأخرى لا ليدمرها . وليس به أية أمور غريبة مثل تلك الموجودة فى البوذية ، مثلاً. هذه التشابهات، وهذا التراث المشترك، لا بد أنهما ساعدا وشجعا على اعتناق الإسلام .

ومن عدة جوانب كان قبول الحكم الإسلامى نتيجة للسياسة التى اتبعتها المسلمون تجاه العدو، فقد كان من الأفضل دائماً الاستسلام للغزاة وعقد الصلح ودفع الجزية بدلاً من المقاومة حتى النهاية . ولم تكن الأسلمة والتعريب الذى أعقب الفتوح ليحدث على مدى القرنين أو القرون الثلاثة التالية لو لم يكن الفتح السياسى قد نجح بالفعل . ولكن الأسلمة والتعريب لم يكونا من النتائج المباشرة والحتمية للفتح . وبدلاً من ذلك كانت عملية التحول تدريجية وتكاد تكون سلمية تماماً بسبب الحقيقة القائلة أن المزيد والمزيد من الناس أرادوا أن يتماهوا مع الثقافة السائدة فى عصرهم ويشاركوا فيها .

وفى التحليل الأخير ، كان نجاح الفتح الإسلامى نتيجة الطبيعة المضطربة الفقيرة لعالم ما بعد الرومان الذى وقعت فيه الفتوح، وصلابة المحاربين البو واعتمادهم على أنفسهم، والإلهام والخاصية المفتوحة للدين الإسلامى.

الهوامش

(١) عن هذه الحدود انظر :

J. F. Haldon and H. Kennedy, 'The Arab-Byzantine frontier in the eighth and ninth centuries; military organisation and society in the borderlands', Zbornik radove Vizantolnskog instituta 19 (1980): 79-116, reprinted in H. Kennedy, The Byzantine and Early Islamic Near East (Aldershot, 2006), VIII.

C. Foss, 'The Persians in Asia Minor and the end of antiquity', English Historical (٢) Review 90 (1975): 721-47, reprinted in idem, History and Archaeology of Byzantine Asia Minor (Aldershot, 1990), I.

For the classic discussion of conversion to Islam, see R. Bulliet, Conversion to Islam (٣) in the Medieval Period, An Essay in Quantitative History' (Cambridge, MA, 1979). See also idem, Islam: The View from the Edge (New York, 1994), pp. 37-66, for the processes of conversion.

ملحق الصور



١ - الإمبراطور جستنيان الأول: فسيفساء حوالى ٥٤٧م



٢ - صحن يصور الملك يزديجرد الثالث (٦٣٢ - ٦٥١م) فى رحلة صيد: المدرسة الفنية الساسانية ، القرن السابع الميلادى .



٣ - كنيسة المشبك ، سوريا .



٤ - بيت نار زرادشتی فی کونور میاه - فارس .



٥ - تقى - كسرى ، العراق : إيوان القصر العظيم فى طيسفون [إيوان كسرى بالمداين] .



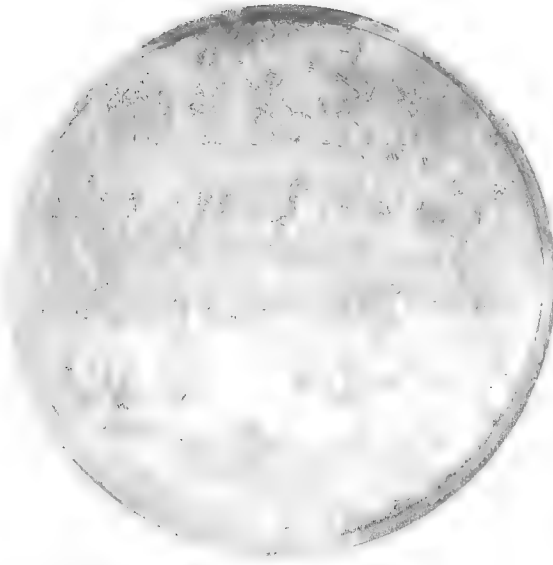
٦ - أطلال سد مأرب ، اليمن .



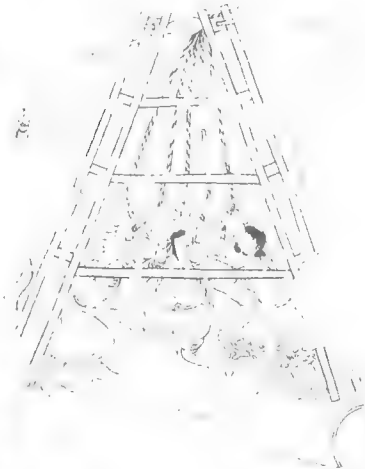
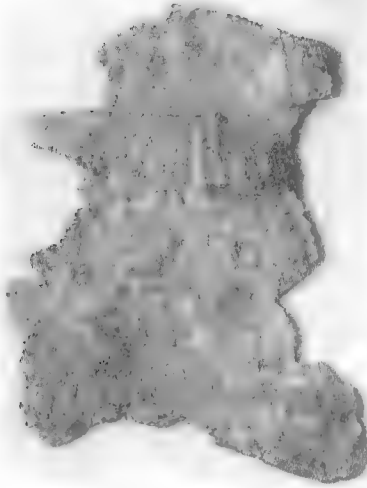
٧ - خوذة ساسانية من القرن السابع .



٨ - سيف ساسانى من القرن السابع .



٩ - أسلحة ودروع القوات
البيزنطية حسبما رسمت على
«صحن داود» .

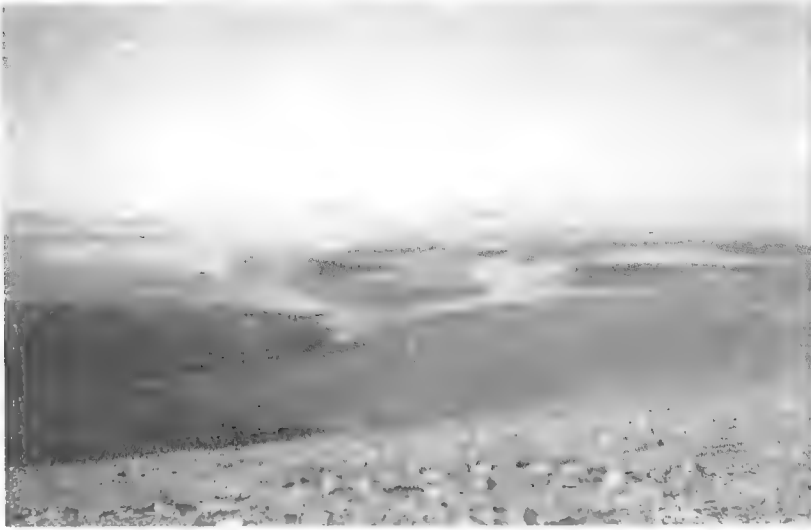


١٠ - آلة حصار متحركة أثناء العمل ، من رسم على الحائط
يرجع إلى بواكير القرن الثامن الميلادي .
قطعة من القرميد ورسم تخطيطي حديث .

المناظر الطبيعية ومدن الفتوحات



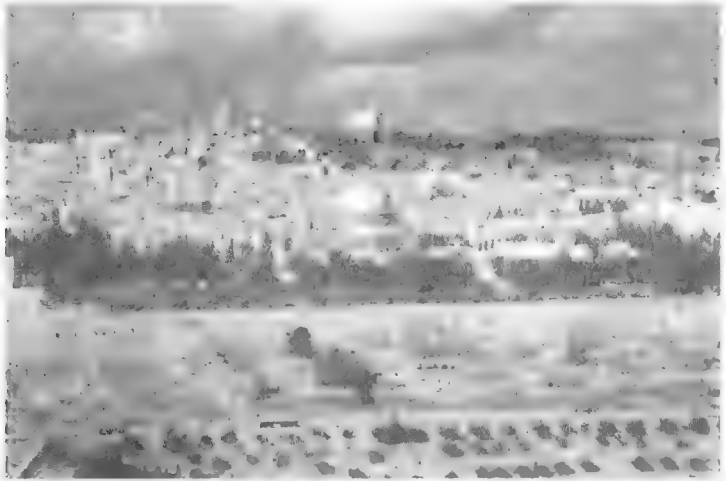
١١ - وادي دعان .



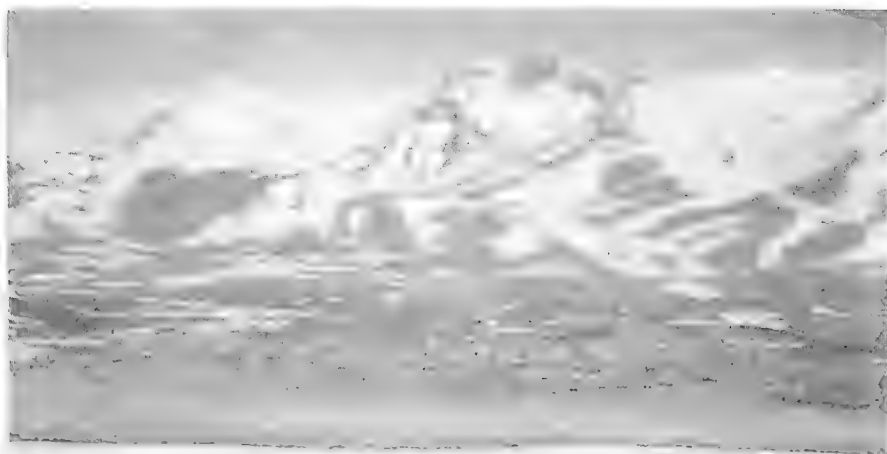
١٢ - صحراء بلاد الشام .



١٣ - أسوار دمشق الرومانية القديمة .



١٤ - القدس كما تشاهد من جبل الزيتون .



۱۵ - جبال زاجروس .



۱۶ - أسوار بیشاور .



١٧ - منظر طبيعي في وسط الهند .



١٨ - الأرض الوسطى في إيران حيث الجبال مقسمة بسهلين
وتسمح بالحركة السريعة للقوات عبر المسافات الطويلة .



١٩ - تحصينات سمرقند القديمة .



٢٠ - بخارى القديمة كما تشاهد من أسوار القلعة .



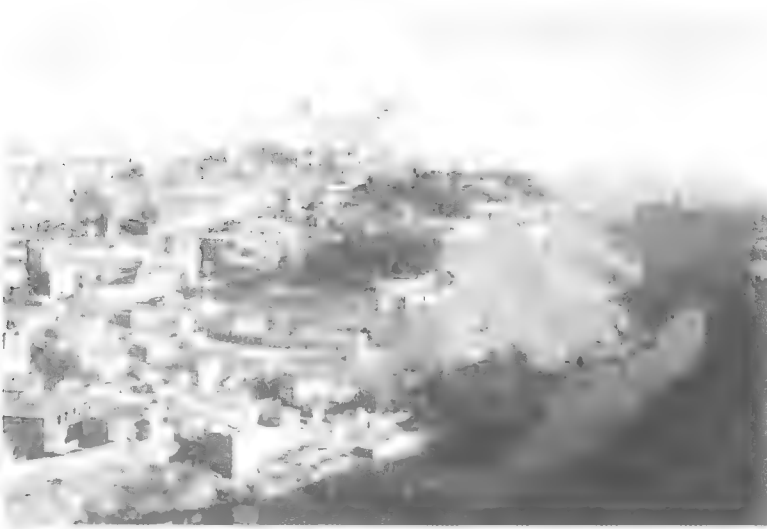
٢١ - ممر طشتكراشا فى الجبال جنوب سمرقند .



٢٢ المشهد من أسوار بلخ القديمة المطل على الهندوكوش .



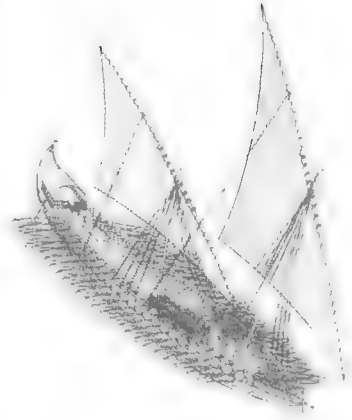
٢٣ - قرطبة ، إسبانيا .



٢٤ - طليطلة ، إسبانيا .



٢٥ - رباط سوسة، تونس .



٢٦ - إعادة بناء حديثة لمركب
شراعى بيزنطى (الدرومون) .



٢٧ - صور - لبنان .

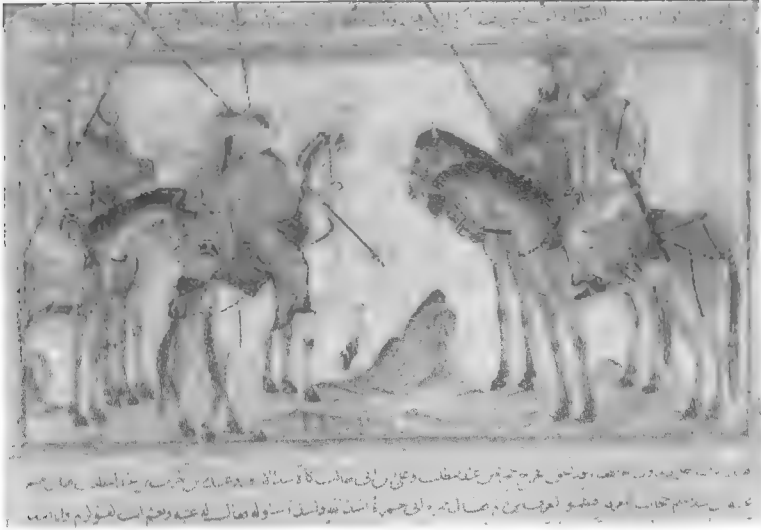


٢٨ - موضع البصرة الإسلامية الباكرة ، العراق .



٢٩ - مركز الكوفة القديمة ، العراق .

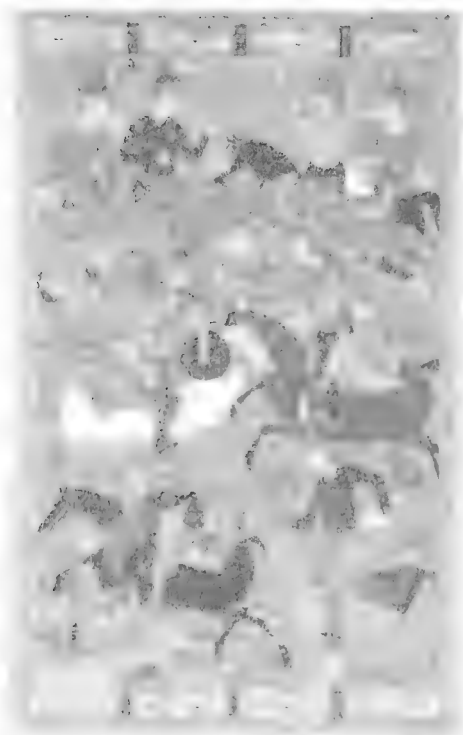
الفتوح التي بقيت ذكرها



- ٣٠ - استعدادات النبي محمد (ص) لمركته الأولى ضد قريش بمكة في غزوة بدر سنة ٦٣٤م.
مخطوط فارسي يرجع إلى أوائل القرن الرابع عشر .



- ٣١ - اغتيال خسرو الثاني سنة ٦٢٨م ،
مخطوط فارسي من القرن الخامس عشر.

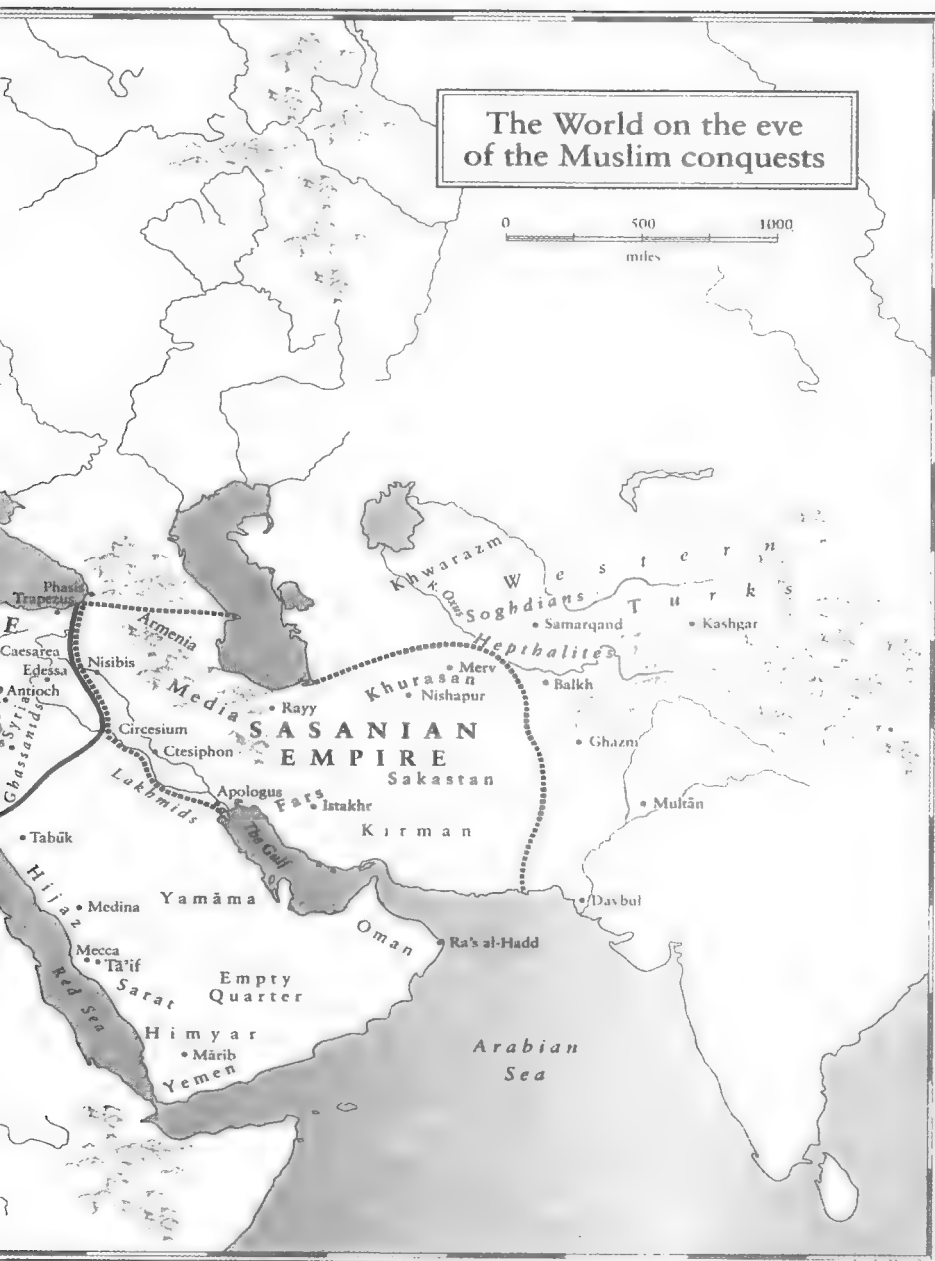


٣٢ - معركة القادسية -
كتاب تصوير فارسي من القرن
الخامس عشر .

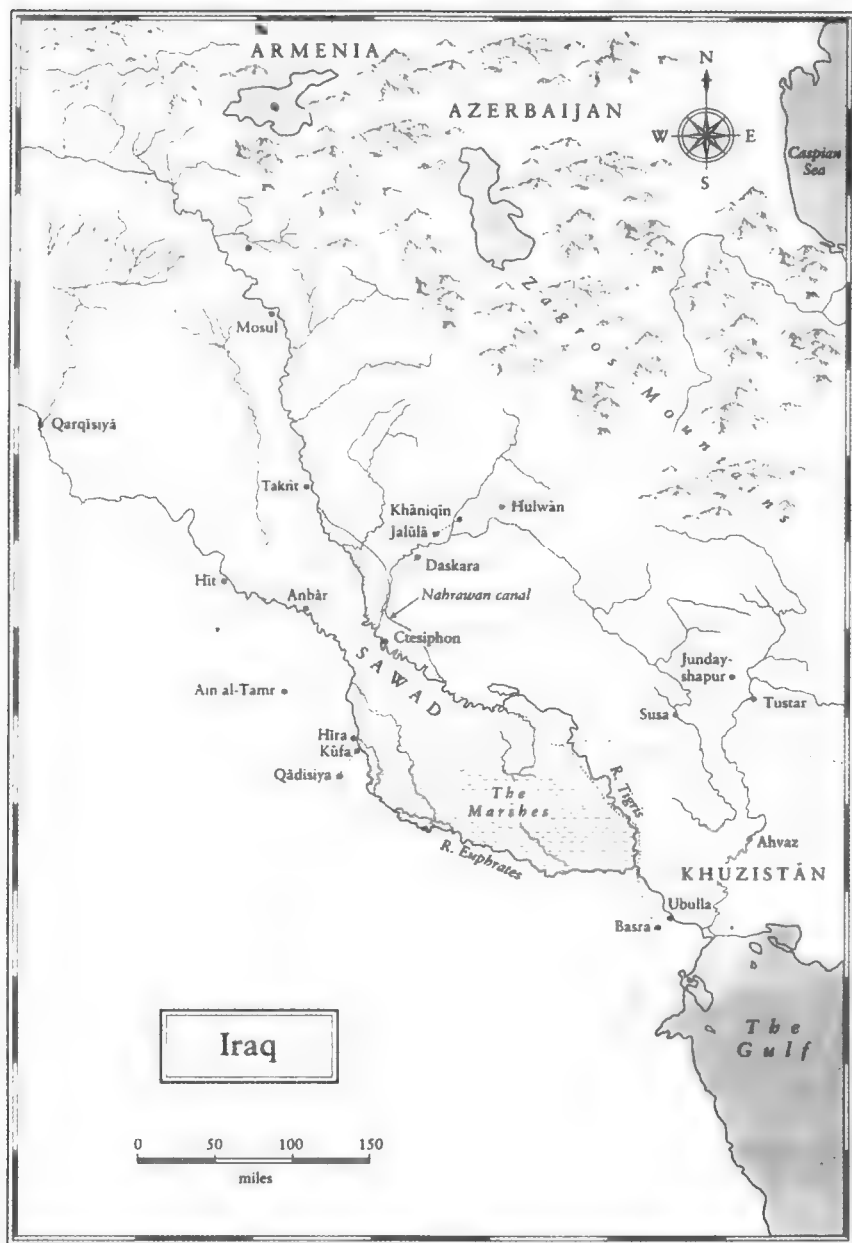


٣٣ - أسطورة الصليب الحقيقي، رسمها بييرو ديللا فرانسيسكا (١٤١٥-١٤٩٢م) تقريباً .

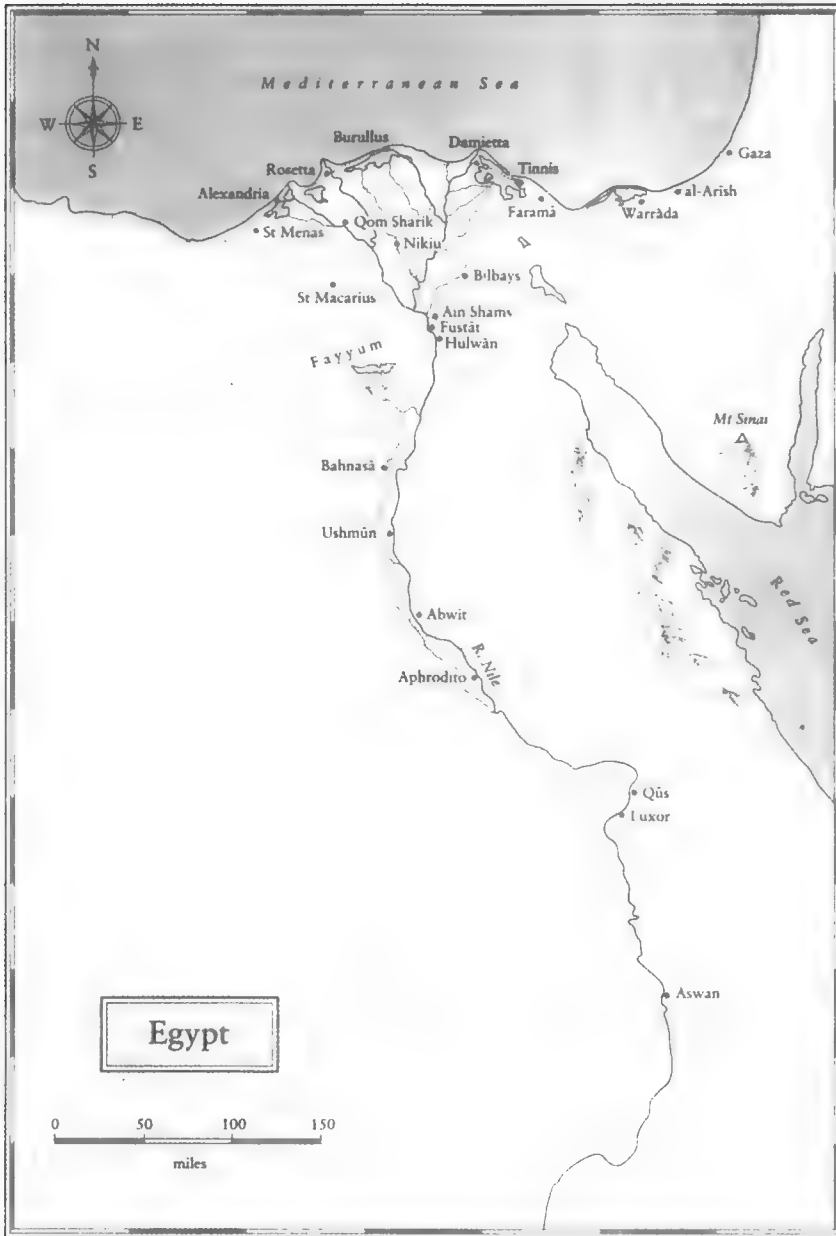
ملحق الخرائط





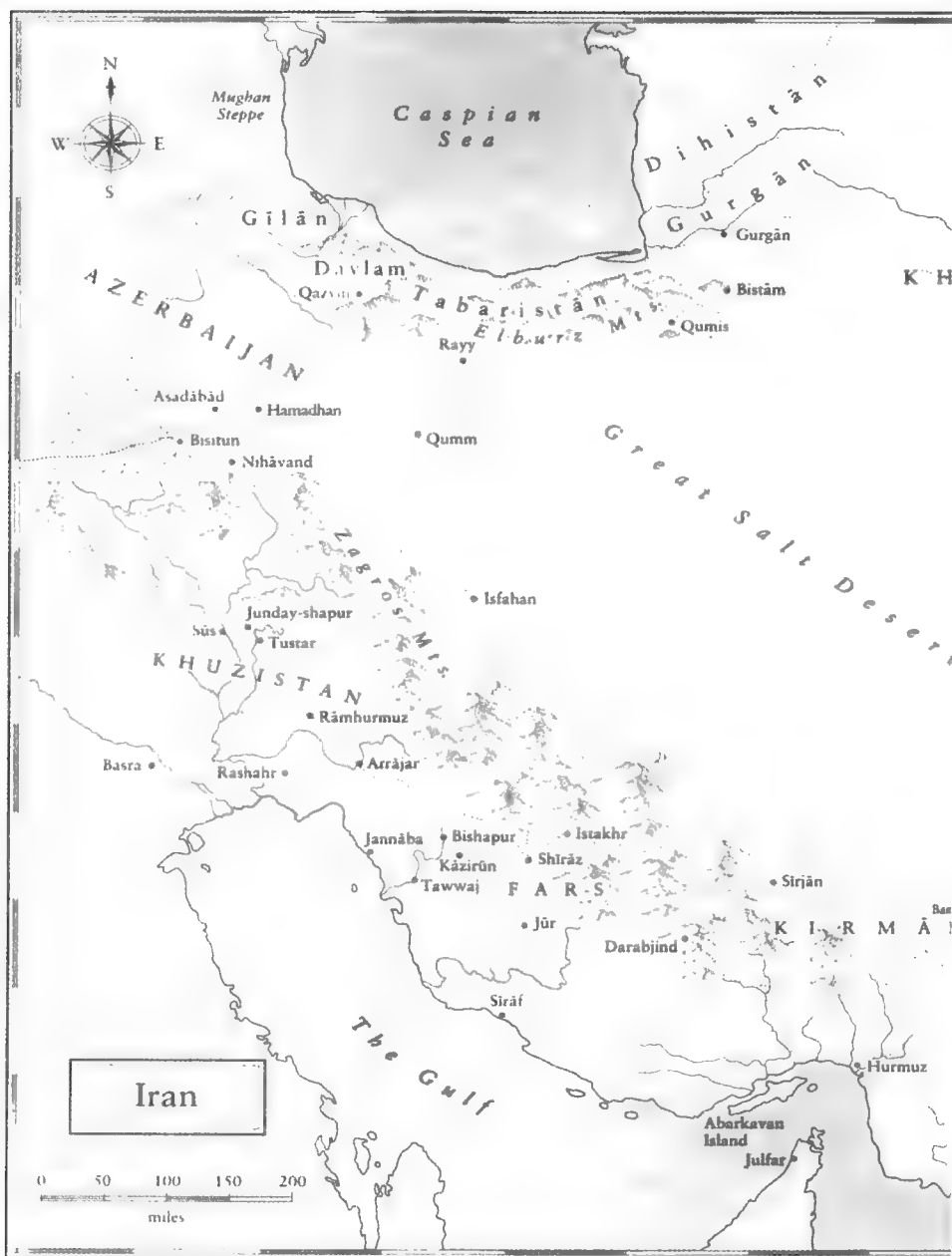


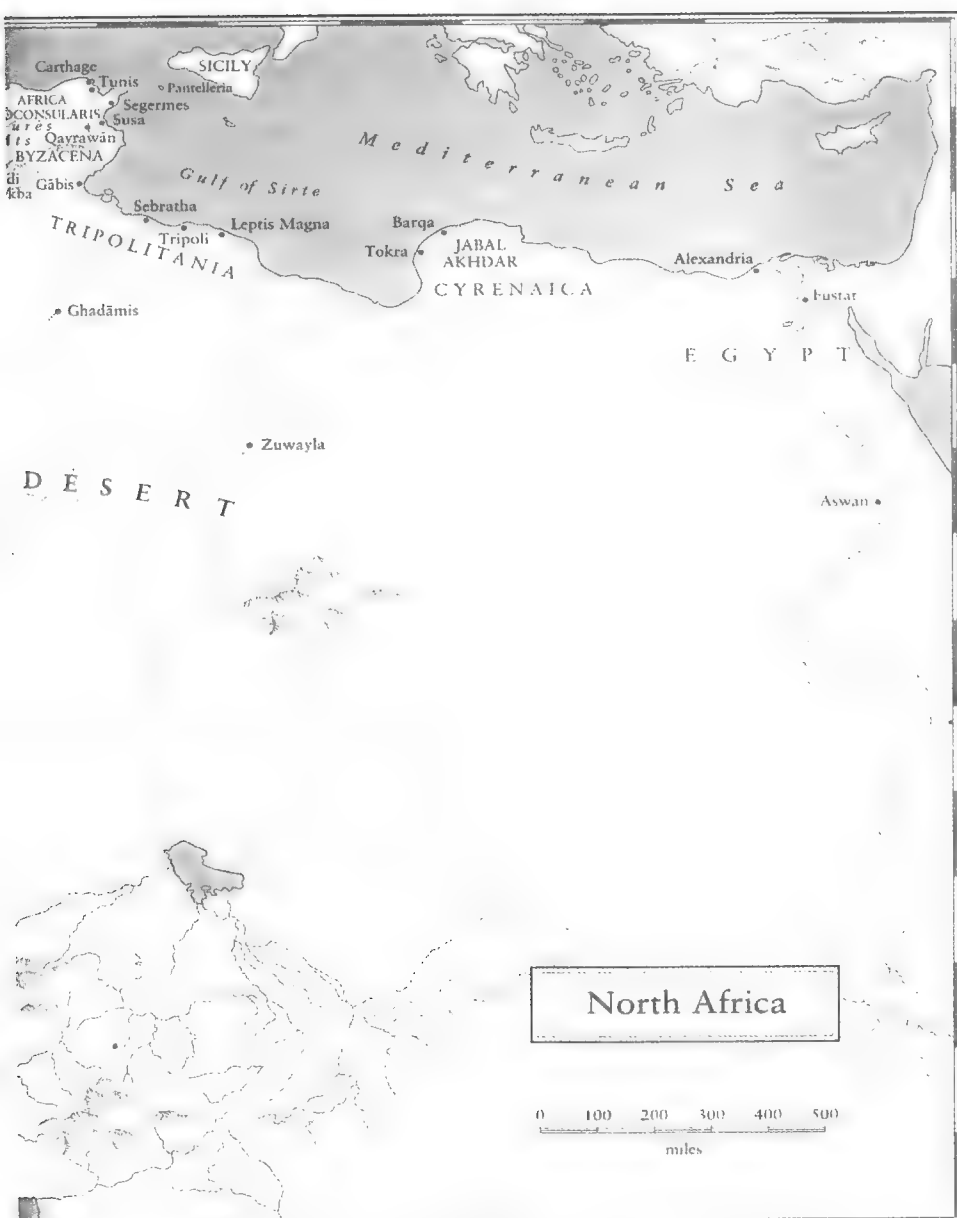
العراق



مصر



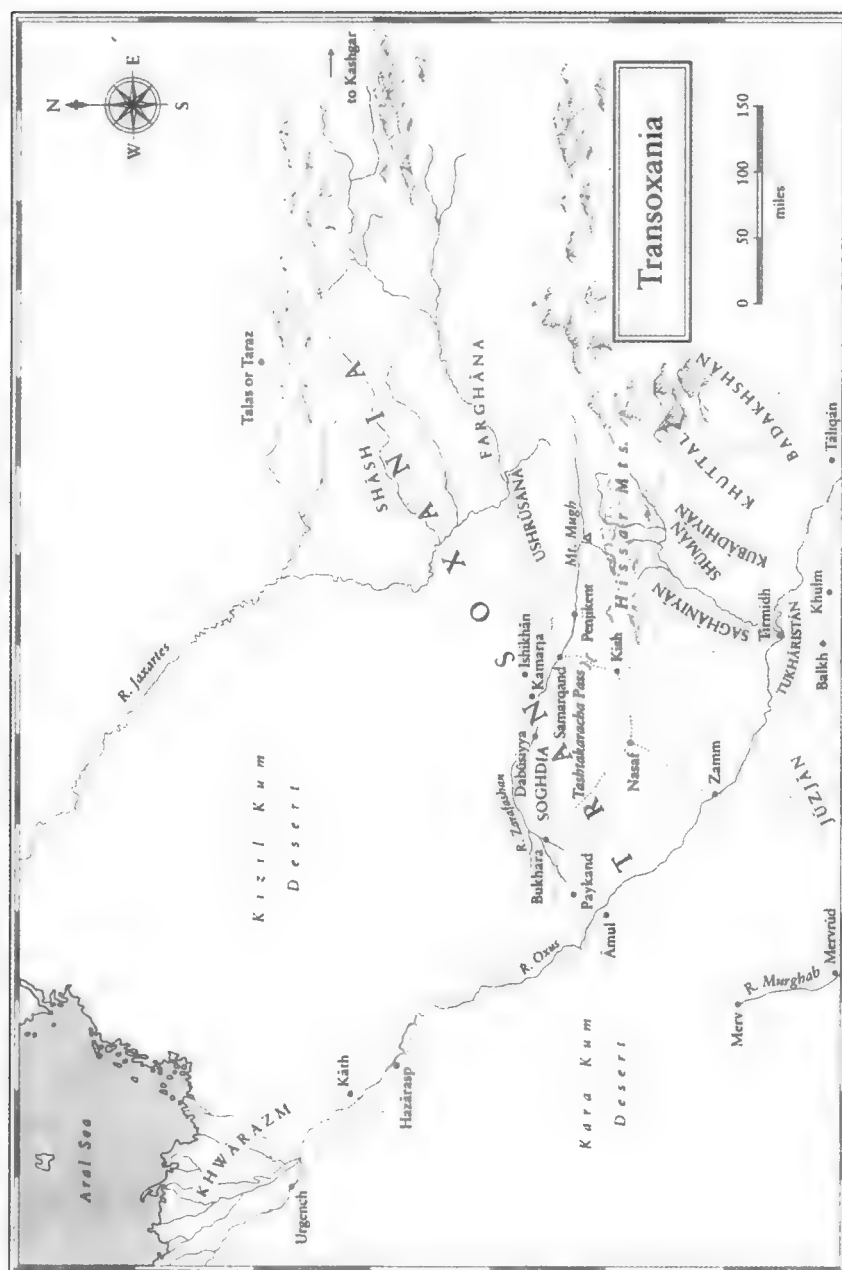


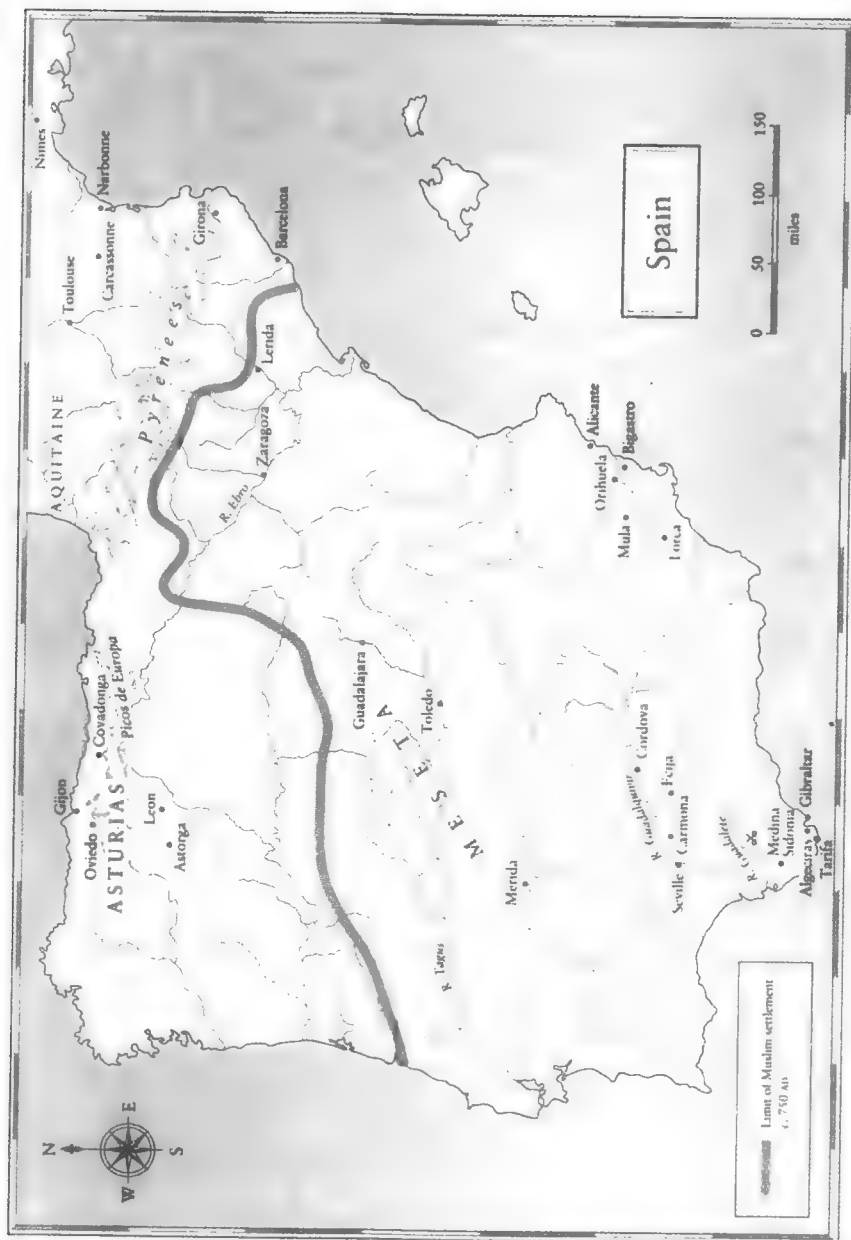


شمال أفريقيا

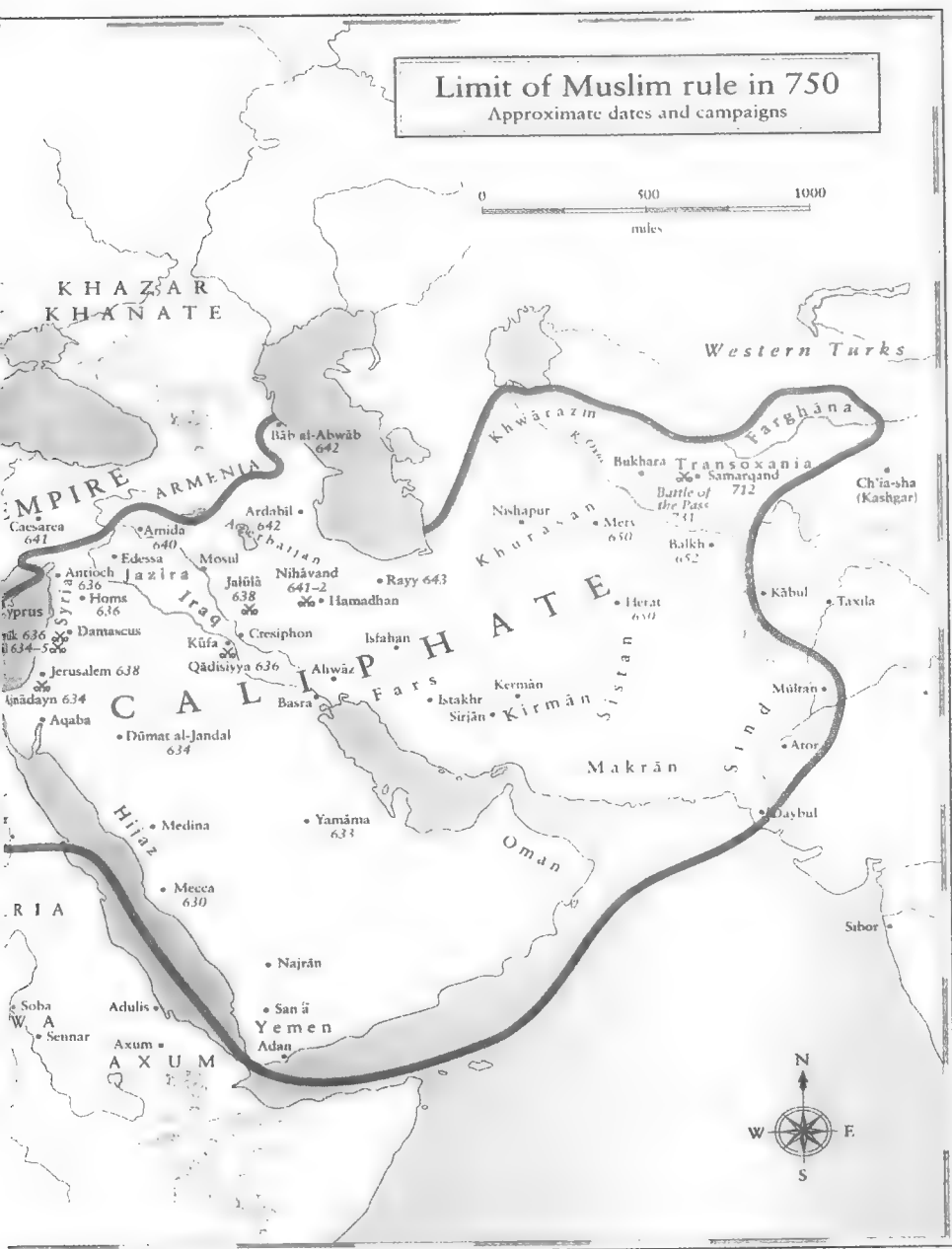


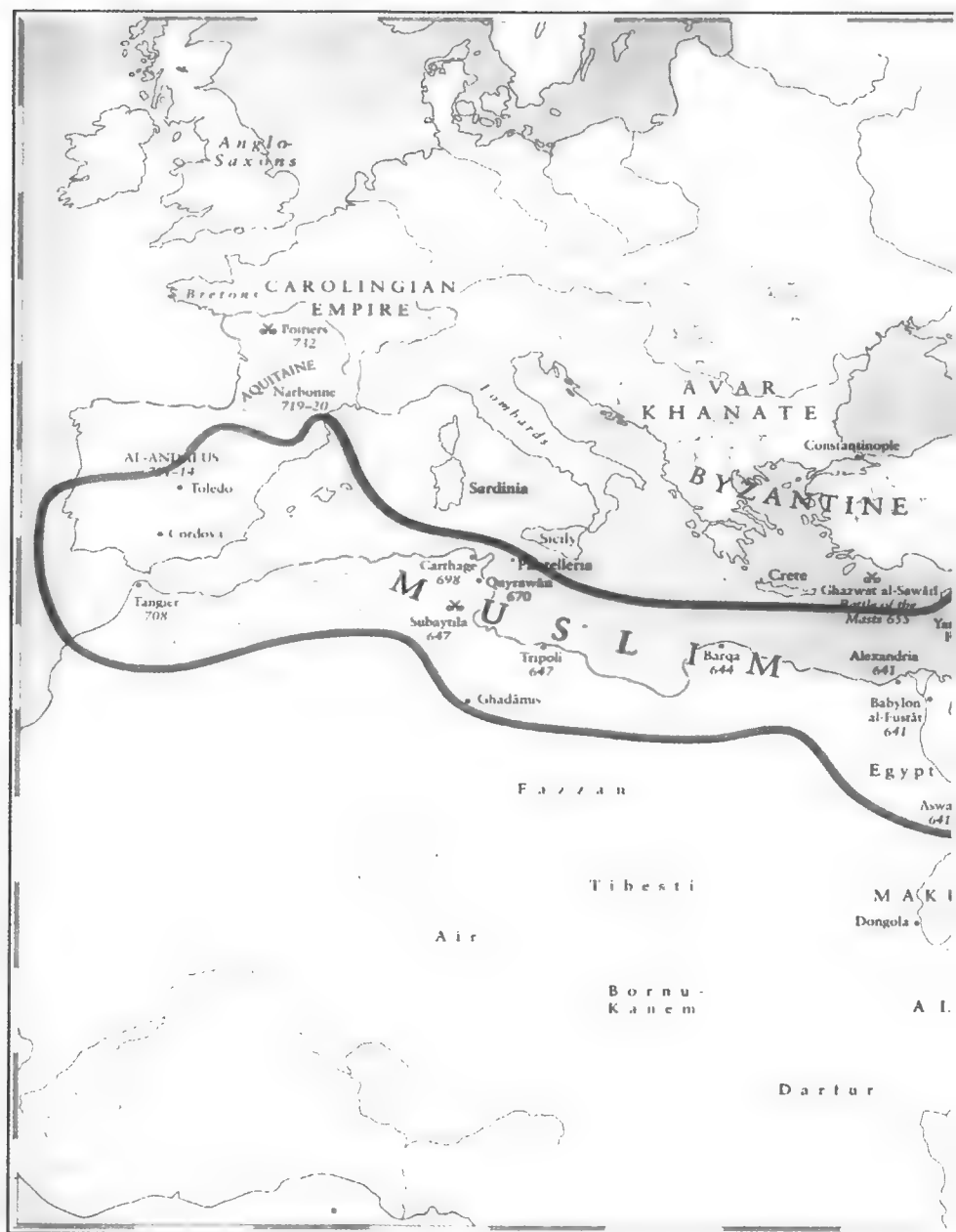
ما وراء النهر





إسبانيا





المراجع

HISTORICAL AND GEOGRAPHICAL SOURCES IN ENGLISH TRANSLATION

Muslim Sources

- Alī b. Hāmid al-Kūfī, *Chāchnamah: An Ancient History of Sind*, trans. M. K. Fredunbeg (Lahore, 1995).
- Al-Bakrī, *Description de l'Afrique septentrionale*, trans. Baron William Mac Guckin de Slane (Paris, 1859).
- Al-Balādhurī, *The Origins of the Islamic State*, trans. P. Hitti and F. Murgotten, 2 vols. (New York, 1916-24).
- Ibn Fadlan's *Journey to Russia: A tenth-century traveler from Baghdad to the Volga River*, trans. R. Frye (Princeton, NJ, 2005).
- Firdawsi, *Shahnamah*, trans. D. Davis, vol. i: *The Lion and the Throne*; vol. ii: *Fathers and Sons*; vol. iii: *Sunset of Empire* (Washington, DC, 1998-2004).
- Ibn Ishāq, *The Life of Muhammad*, trans. A. Guillaume (Karachi, 1955, repr. 1967).
- Al-Muqaddasī, *Aṣṣan al-Taqāsim: The Best Divisions for Knowledge of the Regions*, trans. B. Collins (Reading, 2001).
- Narshakhī, Muhammad b. Ja'far, *History of Bukhara*, trans. R. Frye (Cambridge, MA, 1954).
- Al-Tabarī, *Ta'rikh: The History of al-Tabarī*, ed. Y. Yarshater, 39 vols. (Albany, NJ, 1985-98).

Christian Sources

- Anon., *The Chronicle of 754 in Conquerors and Chroniclers of Early Medieval Spain*, trans. K. B. Wolf (Liverpool, 1990).
- Anon., *The Chronicle of Zuqnin Parts III and IV A.D. 488-775*, trans. A. Harrak (Toronto, 1999).
- Fredegar, *The Fourth Book of the Chronicle of Fredegar with its Continuations*, trans. J. M. Wallace-Hadrill (London, 1960).
- John of Nikiu, *The Chronicle of John (c. 690 AD) Coptic Bishop of Nikiu*, trans. R. H. Charles (London, 1916).
- Maurice's *Strategikon: Handbook of Byzantine military strategy*, trans. G. T. Dennis (Philadelphia, PA, 1984).

- Movses of Dasxuranci, *The History of the Caucasian Albanians*, trans. C. J. F. Dowsett (Oxford, 1961).
- Nikephorus, Patriarch of Constantinople, *Short History*, trans. C. Mango (Washington, DC, 1990).
- Sawīrus b. al-Muqaffa, 'Life of Benjamin I the thirty-eighth Patriarch AD 622-61', in *History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria*, trans. B. Evetts (*Patrologia Orientalis* I.4, 1905), pp. 487-518.
- Sebeos, *The Armenian History*, trans. R. W. Thomson, with notes by J. Howard-Johnston and T. Greenwood, 2 vols. (Liverpool, 1999).
- Theophanes, *The Chronicle of Theophanes the Confessor: Byzantine and Near Eastern History AD 284-813*, trans. C. Mango and R. Scott (Oxford, 1997).
- Various, *The Seventh Century in Western-Syrian Chronicles*, trans. A. Palmer (Liverpool, 1993).

OTHER PRIMARY SOURCES

- Ibn Abd al-Hakam, Abū'l-Qāsim 'Abd al-Rahmān b. 'Abd Allāh, *Futūh Miṣr*, ed. C. C. Torrey (New Haven, CT, 1921).
- Anon., 'Doctrina Jacobi Nuper Baptizati', ed. with French trans. V. Déroche in *Travaux et Mémoires* (Collège de France, Centre de recherche d'histoire et civilisation de Byzance) 11 (1991): 47-273.
- Ibn Aṯṯam al-Kūfī, *Kitāb al-Futūh*, ed. S. A Bukhari, 7 vols. (Hyderabad, 1974).
- Ibn al-Aṯṯir, 'Izz al-Dīn, *Al-Kāmil fī'l-Ta'rīkh*, ed. C. J. Tornberg, 13 vols. (Leiden, 1867, repr. Beirut, 1982).
- Al-Bakrī, *Description de l'Afrique septentrionale*, ed. Baron de Slane (Algiers, 1857).
- Al-Balādhurī, Ahmad b. Yahyā, *Futūh al-Buldān*, ed. M. J. de Goeje (Leiden, 1866, repr. Leiden, 1968).
- Al-Balādhurī, Ahmad b. Yahyā, *Ansāb al-Ashraf*, vol. XI, ed. W. Ahlwardt (Greifswald, 1883).
- Al-Dīnawarī, Abū Hanīfa Ahmad b. Dāwūd, *Al-Akbbār al-Tiwal*, ed. V. Guirgass and I. I. Krachkovskii (Leiden, 1912).
- Ibn Hawqal, Abū'l-Qāsim, *Kitāb Sūrat al-Ard*, ed. J. H. Kramers (Leiden, 1939).
- Isfahānī, Abū Nu'aym, *Geschichte Isfahans*, ed. S. Dederling (Leiden, 1931).
- Al-Istakhṛī, Abū Ishāq Ibrāhīm b. Muhammad, *Kitāb Masālik wa'l-Mamālik*, ed. M. J. de Goeje (Leiden, 1927).

- Ibn Khayyāḥ Khalīfā, *Ta'rikh*, ed. Akram Diyā' al-'Umarī (Beirut, 1977).
- Al-Kindī, Muhammad b. Yūsuf, *Kitāb al-Wulāt*, ed. R. Guest (London, 1912).
- Al-Kindī, Ya'qūb b. Ishāq, *Al-Suyaf wa Ajnāsiba*, ed. Abd al-Rahman Zaki, *Bulletin of the Faculty of Arts*, Cairo, vol. 14 (1952), Arabic section, pp. 1-36.
- Al-Mas'ūdī, 'Alī b. al-Husayn, *Murtāj al-Dhahab*, ed. C. Pellat, 7 vols. (Beirut, 1966-79).
- Michael the Syrian, *Chronicle*, ed. with French trans. J.-B. Chabot, 4 vols. (Paris, 1899-1924).
- Al-Nadīm, Muhammad b. Ishāq, *Fihrist*, ed. G. Flügel (Leipzig, 1871-2).
Note that in this book, page references are to *The Fihrist of al-Nadīm*, trans. B. Dodge, 2 vols. (New York, 1970).
- Narshakhī, Muhammad b. Ja'far, *Ta'rikhi Bukhārā*, ed. Muhammad b. Zafar b. Umar (Tehran, 1972).
- Qudāma b. Ja'far, *Al-Kharāj wa Simā'at al-Kitāba*, ed. Muhammad Husayn al-Zubaydī (Baghdad, 1981).
- Sa'īd ibn Batriq, *Das Annalenwerk des Eutychios von Alexandrien*, ed. M. Breydy, in *Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium*, vol. 471: *Scriptores Arabici*, t. 44 (Leuven, 1985).
- Al-Tabarī, Muhammad b. Jarīr, *Ta'rikh al-Rusul wa'l-Mulak*, ed. M. J. de Goeje et al., 3 vols. (Leiden, 1879-1901).
- Al-Ya'qūbī, Ahmad b. Abī Ya'qūb, *Kitāb al-Buldān*, ed. M. J. de Goeje (Leiden, 1892).
- Al-Ya'qūbī, Ahmad b. Abī Ya'qūb, *Ta'rikh*, ed. M. Houtsma, 2 vols. (Leiden, 1883).
- Yāqūt, Ya'qūb b. 'Abd Allāh, *Mu'jam al-Buldān*, ed. F. Wüstenfeld (Leipzig, 1886).

SECONDARY READING

- Adams, R. McC., *The Land behind Baghdad: A history of settlement on the Diyala Plain* (Chicago, IL, 1965).
- Alexander, P. J., *The Byzantine Apocalyptic Tradition* (Berkeley, CA, 1985).
- Bachrach, B., *Early Carolingian Warfare: Prelude to empire* (Philadelphia, PA, 2001).
- Bagnall, R., *Egypt in Late Antiquity* (Princeton, NJ, 1993).
- Bailey, H. W., *Zoroastrian Problems in the Ninth-century Books* (Oxford, 1943).
- Barthold, V., *Turkestan Down to the Mongol Invasions*, trans. H. Gibb (London, 1928, rev. edn, Gibb Memorial Series, n.s. V, London, 1968).

- Bashear, S., 'The mission of Dihyā al-Kalbī', *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* 14 (1991): 64–91, reprinted in *idem*, *Studies in Early Islamic Tradition* (Jerusalem, 2004), VIII.
- Bass, G. F. and F. H. Van Doorninck, *Yassi Ada*, vol. 1: *A Seventh-century Byzantine Shipwreck* (College Station, TX, 1982).
- Behbehani, H., 'Arab–Chinese military encounters: two case studies 715–751 AD', *Aram* 1 (1989): 65–112.
- Behrens-Abouseif, D., 'Topographie d'Alexandrie médiévale', in *Alexandrie médiévale* 2, ed. C. Décobert (Cairo, 2002), pp. 113–26.
- Beihammer, A., 'Zypern und die Byzantinisch-Arabische Seepolitik vom 8. bis zum Beginn des 10. Jahrhunderts', in *Aspects of Arab Seafaring*, ed. Y.Y. al-Hijji and V. Christides (Athens, 2002), pp. 41–61.
- Bloom, J., *Paper before Print: The History and Impact of Paper in the Islamic World* (New Haven, CT, 2001).
- Borrut, A., 'Architecture des espaces portuaires et réseaux défensifs du littoral syro-palestinien dans les sources arabes (7–11 siècle)', *Archéologie Islamique* 11 (2001): 21–46.
- Bosworth, C. E., *Sistan under the Arabs from the Islamic Conquest to the Rise of the Saffarids (30–250/651–864)* (Rome, 1968).
- 'Ubaidallah b. Abi Bakra and the "Army of Destruction" in Zabulistan (79/698)', *Der Islam* 1 (1973): 268–83.
- 'The city of Tarsus and the Arab–Byzantine frontiers in early and middle Abbasid Times', *Oriens* 33 (1992): 268–86.
- *The New Islamic Dynasties* (Edinburgh, 1996).
- Bowersock, G. W., P. Brown and O. Grabar (eds.), *Interpreting Late Antiquity: Essays on the Postclassical World* (Cambridge, MA, 2001).
- Brett, M. and E. Fentress, *The Berbers* (Oxford, 1996).
- Brock, S., 'Syriac views of emergent Islam', in *Studies on the First Century of Islamic Society*, ed. G. H. A. Juynboll (Carbondale, 1982), pp. 9–21, 199–203, reprinted in *idem*, *Syriac Perspectives on Late Antiquity* (London, 1984).
- 'North Mesopotamia in the late seventh century: Book XV of John Bar Penkaye's *Ris Melle*', *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* 9 (1987): 51–75.
- Brunschvig, R., 'Ibn 'Abdal-hakam et la conquête de l'Afrique du Nord par les Arabes: étude critique', *Annales de l'Institut des Etudes Orientales* 6 (1942–47): 108–55.
- Bulliet, R., *The Camel and the Wheel* (Cambridge, MA, 1975).
- *Conversion to Islam in the Medieval Period. An Essay in Quantitative History* (Cambridge, MA, 1979).

- *Islam: The View from the Edge* (New York, 1994).
- Busse, H., 'Omar b. al-Khattāb in Jerusalem', *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* 5 (1984): 73–119.
- 'Omar's image as the conqueror of Jerusalem', *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* 8 (1986): 149–68.
- Butler, A. J., *The Arab Conquest of Egypt*, 2nd edn, ed. P. M. Fraser (Oxford, 1978).
- Caetani, L., *Annali dell'Islam*, 10 vols. (Milan, 1905–26).
- Cambridge History of Early Inner Asia*, ed. D. Sinor (Cambridge, 1990).
- Cambridge History of Egypt*, vol. i: *Islamic Egypt, 640–1571*, ed. C. Petry (Cambridge, 1998).
- Cambridge History of Iran*, vol. iii: *The Seleucid, Parthian and Sasanian Periods*, ed. E. Yarshater (Cambridge, 1983), vol. iv: *The Period from the Arab invasion to the Saljuqs*, ed. R. Frye (Cambridge, 1975).
- Cameron, A., 'Byzantine Africa – the literary evidence', in *Excavations at Carthage 1975–1978*, vol. vii, ed. J. H. Humphrey (Ann Arbor, MI, 1977–78), pp. 29–62, reprinted in *eadem*, *Changing Cultures in Early Byzantium* (Aldershot, 1996), VII.
- 'Cyprus at the time of the Arab conquests', *Cyprus Historical Review* 1 (1992): 27–49, reprinted in *eadem*, *Changing Cultures in Early Byzantium* (Aldershot, 1996), VI.
- Chevedden, P. E., 'The hybrid trebuchet: the halfway step to the counterweight trebuchet', in *On the Social Origins of Medieval Institutions. Essays in Honor of Joseph F. O'Callaghan*, ed. D. Kagay and T. Vann (Leiden, 1998), pp. 179–222.
- Christensen, A., *L'Iran sous les Sassanides* (rev. 2nd edn, Copenhagen, 1944).
- Christides, V., *Byzantine Libya and the March of the Arabs towards the West of North Africa*, British Archaeological Reports, International Series 851 (Oxford, 2000).
- 'Arab–Byzantine struggle in the sea: naval tactics (7th–11th C AD): theory and practice', in *Aspects of Arab Seafaring*, ed. Y.Y. al-Hijji and V. Christides (Athens, 2002), pp. 87–101.
- Cole, D. P., *Nomads of the Nomads: the Āl Murrah Bedouin of the Empty Quarter* (Arlington Heights, 1975).
- Collins, R., *The Arab Conquest of Spain: 710–797* (Oxford, 1989).
- *Visigothic Spain, 409–711* (Oxford, 2004).
- Cook, M., *Muhammad* (Oxford, 1983).
- Conrad, L. I., 'The conquest of Arwād: a source-critical study in the historiography of the early medieval Near East', in *The Byzantine and Early*

- Islamic Near East, I: Problems in the literary source material*, ed. A. Cameron and L. I. Conrad (Papers of the First Workshop on Late Antiquity and Early Islam) (Princeton, NJ, 1992), pp. 317–401.
- ‘The Arabs’, in *Cambridge Ancient History*, vol. xiv: *Late Antiquity: Empire and Successors, AD 425–600*, ed. A. Cameron, B. Ward-Perkins and M. Whitby (Cambridge, 2000), pp. 678–700.
- Constable, O. R., *Medieval Iberia: Readings in Christian, Muslim and Jewish Sources* (Philadelphia, PA, 1997).
- Crone, P., *Slaves on Horses. The Evolution of the Islamic Polity* (Cambridge, 1980).
- *Meccan Trade and the Rise of Islam* (Oxford, 1987).
- ‘How did the quranic pagans make a living?’, *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 63 (2005): 387–99.
- Crone, P. and M. A. Cook, *Hagarism: The Making of the Islamic World* (Cambridge, 1977).
- Crone, P. and G. M. Hinds, *God’s Caliph: Religious Authority in the First Centuries of Islam* (Cambridge, 1986).
- De Goeje, M. J., *Mémoire des migrations des Tsiganes à travers l’Asie* (Leiden, 1903).
- De la Vaissière, E., *Sogdian Traders: A History* (Leiden, 2005).
- Dennett, D., *Conversion and Poll-tax in Early Islam* (Cambridge, MA, 1950).
- Djait, H., *Al-Kāfa: naissance de la ville islamique* (Paris, 1986).
- Donner, F. M., *The Early Islamic Conquests* (Princeton, NJ, 1981).
- *Narratives of Islamic Origins: The Beginnings of Islamic Historical Writing* (Princeton, NJ, 1998).
- Donner, H., *The Mosaic Map of Madaba: An introductory guide* (Kampen, 1992).
- Dunlop, D. M., ‘A new source of information on the Battle of Talas or Adakh’, *Ural-Altaische Jahrbücher* 36 (1964): 326–30.
- Eickhoff, E., *Seekrieg und Seepolitik zwischen Islam und Abendland: das Mittelmeer unter byzantinischer und arabischer Hegemonies (650–1040)* (Berlin, 1966).
- El Cheikh, N. M., *Byzantium Viewed by the Arabs* (Cambridge, MA, 2004).
- Esin, E., ‘Tabarī’s report on the warfare with the Türgis and the testimony of eighth-century Central Asian Art’, *Central Asiatic Journal* 17 (1973): 130–49.
- Fahmy, A. M., *Muslim Naval Organisation in the Eastern Mediterranean from the Seventh to the Tenth Century AD* (2nd edn, Cairo, 1966).
- Fentress, J. and C. J. Wickham, *Social Memory* (Oxford, 1992).
- Fiey, J. M., ‘The last Byzantine campaign into Persia and its influence on the attitude of the local populations towards the Muslim conquerors 7–16

- H/628–36 AD', in *Proceedings of the second symposium on the history of Bilad al-Sham during the early Islamic period up to 40 AH/640 AD*, ed. A. Bakhit (Amman, 1987), pp. 96–103.
- Firestone, R., *Jihād: The Origin of Holy War in Islam* (Oxford, 1999).
- Foss, C. 'The Persians in Asia Minor and the End of Antiquity', *English Historical Review* 90 (1975): 721–47, reprinted in *idem*, *History and Archaeology of Byzantine Asia Minor* (Aldershot, 1990), I.
- 'The Near Eastern countryside in Late Antiquity: a review article', in *The Roman and Byzantine Near East: Some recent archaeological research*, vol I: *Journal of Roman Archaeology, Supplementary Series* 14 (1995): 213–34.
- 'Syria in transition, AD 550–750: an archaeological approach', *Dumbarton Oaks Papers* 51 (1997): 189–270.
- Fouracre, P., *The Age of Charles Martel* (London, 2000).
- Fowden, E. K., *The Barbarian Plain: Saint Sergius between Rome and Iran* (Berkeley, CA, 1999).
- Fowden, G., *Empire to Commonwealth: Consequences of Monotheism in Late Antiquity* (Princeton, NJ, 1993).
- Fraser, A., *The Gypsies* (2nd edn, Oxford, 1992).
- Fraser, J., *The Golden Bough* (New York, 1922).
- Gabrieli, F., 'Muhammad ibn Qāsim ath-Thaqafi and the Arab conquest of Sind', *East and West* 15 (1964–65): 281–95.
- Gayraud, R.-P., 'Fostat: évolution d'une capitale arabe du VII au XII siècle d'après les fouilles d'Istabl 'Antar', in *Colloque international d'archéologie islamique*, ed. R.-P. Gayraud (Cairo, 1998), pp. 436–60.
- Gerö, S., 'Only a change of masters? The Christians of Iran and the Muslim conquest', in *Transition Periods in Iranian History. Actes du Symposium de Fribourg-en-Brisgau (22–24 mai 1985)*, *Cahiers de Studia Iranica* 5 (1987): 43–8.
- Gibb, H. A. R., *The Arab Conquests in Central Asia* (London, 1923).
- Gibbon, E., *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*, ed. D. Womersley, 3 vols. (Harmondsworth, 1994).
- Goldziher, I., *Muslim Studies*, ed. and trans. C. R. Barber and S. M. Stern, 2 vols., (London, 1967, 1971).
- Grenet, F. and C. Rapin, 'De la Samarkand antique à la Samarkand islamique: continuités et ruptures', in *Colloque international d'archéologie islamique*, ed. R.-P. Gayraud (Cairo, 1998), pp. 436–60.
- Grenet, F. and E. de la Vaissière, 'The last days of Penjikent', *Silk Road Art and Archaeology* 8 (2002): 155–96.
- Haldon, J., *Byzantium in the Seventh Century* (Cambridge, 1990).

- Haldon, J. and M. Byrne, 'A possible solution to the problem of Greek fire', *Byzantinische Zeitschrift* 70 (1977): 91–9.
- Haldon, J. F. and H. Kennedy, 'The Arab–Byzantine frontier in the eighth and ninth centuries: military organisation and society in the borderlands,' *Zbornik radove Vizantoloskog instituta* 19 (1980): 79–116, reprinted in H. Kennedy, *The Byzantine and Early Islamic Near East* (Aldershot, 2006), VIII.
- Heck, G. W., 'Gold mining in Arabia and the rise of the Islamic state', *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 42 (1999): 364–95.
- Helms, S. W., 'Kandahar of the Arab conquest', *World Archaeology* 14 (1982–83): 342–51.
- Hill, D. R., *The Termination of Hostilities in the Early Arab Conquests AD 634–656* (London, 1971).
- Hinds, G. M., 'The banners and battle cries of the Arabs at Siffin (657 AD)', *Al-Abhath* 24 (1971): 3–42.
- 'The first Arab conquests in Fars', *Iran* 22 (1984): 39–53, reprinted in *idem*, *Studies in Early Islamic History*, ed. J. L. Bacharach, L. I. Conrad and P. Crone (Princeton, NJ, 1996).
- Hocker, F. M., 'Late Roman, Byzantine and Islamic fleets', in *The Age of the Galley: Mediterranean Oared Vessels since Pre-classical Times*, ed. R. Gardiner (London, 1995), pp. 86–100.
- Hönigsmann, E., *Die Ostgrenze des byzantinischen Reiches: von 363 bis 1071 nach griechischen, arabischen, syrischen und armenischen Quellen* (Brussels, 1935).
- Hoyland, R., *Seeing Islam as Others Saw It: A Survey and Evaluation of Christian, Jewish and Zoroastrian Writings on Early Islam* (Princeton, NJ, 1997).
- *Arabia and the Arabs: from the Bronze Age to the Coming of Islam* (London, 2001).
- Hoyland, R. and B. Gilmour, *Medieval Islamic Swords and Swordmaking: Kindi's treatise 'On swords and their kinds'* (London, 2006).
- Johns, J., 'Archaeology and the history of early Islam: the first seventy years', *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 46 (2003): 411–36.
- Jones, A., *Early Arabic Poetry*, 2 vols. (Oxford, 1992).
- Kaegi, W. E., 'Initial Byzantine reactions to the Arab conquest', *Church History* 38 (1969): 139–49.
- *Byzantium and the Early Islamic Conquests* (Cambridge, 1992).
- 'Egypt on the eve of the Muslim conquest', in *Cambridge History of Egypt*, vol. i: *Islamic Egypt, 640–1517*, ed. C. Petry (Cambridge, 1998), pp. 34–61.
- *Heraclius, Emperor of Byzantium* (Cambridge, 2003).
- Keenan, J. G., 'Egypt', in *Cambridge Ancient History*, vol. xiv: *Late Antiquity: Empire and Successors, AD 425–600*, ed. A. Cameron, B. Ward-Perkins and

- M. Whitby (Cambridge, 2000), pp. 612–37.
- Kennedy, H., 'From Polis to Medina: urban change in late antique and early Islamic Syria', *Past and Present* 106 (1985): 3–27, reprinted in *idem*, *The Byzantine and Early Islamic Near East* (Aldershot, 2006), I.
- *Muslim Spain and Portugal: a Political history of al-Andalus* (London, 1996).
- 'Syria, Palestine and Mesopotamia', in *Cambridge Ancient History*, vol. xiv: *Late Antiquity: Empire and Successors, AD 425–600*, ed. A. Cameron, B. Ward-Perkins and M. Whitby (Cambridge, 2000), pp. 588–611.
- *The Armies of the Caliphs* (London, 2001).
- ed., *An Historical Atlas of Islam* (2nd rev. edn, Leiden, 2002).
- *The Prophet and the Age of the Caliphates* (2nd rev. edn, London, 2004).
- 'Military pay and the economy of the early Islamic state', *Historical Research* 75 (2002): 155–69, reprinted in *idem*, *The Byzantine and Early Islamic Near East* (Aldershot, 2006), XI.
- 'The military revolution and the early Islamic state', in *Noble Ideals and Bloody Realities: Warfare in the Middle Ages*, ed. N. Christie and M. Yazigi (Leiden, 2006), pp. 197–208.
- Khalidi, T., *Arabic Historical Thought in the Classical Period* (Cambridge, 1994).
- Knobloch, E., *The Archaeology and Architecture of Afghanistan* (Stroud, 2002).
- Kraemer, C. J., Jr, *Excavations at Nessana*, vol. 3: *Non-Literary Papyri* (Princeton, NJ, 1958).
- Krasnowalska, A., 'Rostam Farroxxād's prophecy in Sāh-Nāme and the Zoroastrian apocalyptic tests', *Folia Orientalia* 19 (1978): 173–84.
- Kubiak, W., 'The Byzantine attack on Damietta in 853 and the Egyptian navy in the 9th century', *Byzantion* 40 (1971): 45–66.
- *Al-Fustāt, Its Foundation and Early Urban Development* (Cairo, 1987).
- Kulikowski, M., *Late Roman Spain and Its Cities* (Baltimore, MD, 2004).
- Lancaster, W., *The Rwala Bedouin Today* (Cambridge, 1981).
- Landau-Tasseron, E., 'Sayf ibn Umar in medieval and modern scholarship', *Der Islam* 67 (1990): 1–26.
- Le Strange, G., *Palestine under the Moslems: A description of Syria and the Holy Land from AD 650 to 1500* (London, 1890).
- *Lands of the Eastern Caliphate* (Cambridge, 1905).
- Lecker, M., 'The estates of 'Amr b. al-ʿĀs in Palestine', *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 52 (1989): 24–37.
- Leone, A. and D. Mattingly, 'Landscapes of change in North Africa', in *Landscapes of change: Rural evolutions in late antiquity and the early Middle Ages*, ed. N. Christie (Aldershot, 2004), pp. 135–62.
- Levi-Provençal, E., *Histoire de l'Espagne Musulmane*, vol. I: *La conquête et*

- l'émirat hispano-umayyade (710-912)* (Paris, 1950).
- 'Un récit de la conquête de l'Afrique du Nord', *Arabica* 1 (1954): 17-43.
- Lings, M., *Muhammad: His life based on the earliest sources* (rev. edn, London, 1991).
- Little, L. (ed.), *Plague and the End of Antiquity: The Pandemic of 541-750* (Cambridge, 2006).
- Lyall, C., *The Dīwāns of ʿAbid ibn al-Abras, of Asad and ʿĀmir ibn at-Tufayl, of ʿĀmir ibn Sa'sa'ab* (London, 1913).
- Makrypoulas, C., 'Muslim ships through Byzantine eyes', in *Aspects of Arab Seafaring*, ed. Y. Y. al-Hijji and V. Christides (Athens, 2002), pp. 179-90.
- Manzano, E., *Conquistadores, Emires y Califas: los Omeyas y la formación de al-Andalus* (Barcelona, 2006).
- Matheson, S., *Persia: An Archaeological Guide* (2nd rev. edn, London, 1976).
- Mattingly, D., 'The Laguatan: a Libyan tribal confederation in the late Roman Empire', *Libyan Studies* 14 (1983): 96-108.
- Mayerson, P., 'The first Muslim attacks on southern Palestine (AD 633-640)', *Transactions of the American Philosophical Association* 95 (1964): 155-99.
- Morony, M., *Iraq after the Muslim Conquest* (Princeton, NJ, 1984).
- Mottahedeh, R. P. and R. al-Sayyid, 'The idea of the *Jihād* in Islam before the Crusades', in *The Crusades from the Perspective of Byzantium and the Muslim World*, ed. A. E. Laiou and R. P. Mottahedeh (Washington, DC, 2001), pp. 23-29.
- Mourad, S., 'On early Islamic historiography: Abū Ismāʿīl al-Azdī and his *Futūḥ al-Shām*', *Journal of the American Oriental Society* 120 (2000): 577-93.
- Nicolle, D., *Armies of the Muslim Conquests* (London, 1993).
- 'War and society in the eastern Mediterranean', in *War and Society in the Eastern Mediterranean 7th to 15th centuries*, ed. Y. Lev (Leiden, 1997), pp. 9-100.
- Noth, A., 'Isfahanī-Nihāwand. Eine quellenkritische Studie zur frühislamischen Historiographie', *Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft* 118 (1968): 274-96.
- Noth, A. with L. I. Conrad, *The Early Arabic Historical Tradition: A source-critical study*, trans. M. Bonner (Princeton, NJ, 1994).
- Olster, D., 'Theodosius Grammaticus and the Arab siege of 674-78', *Byzantinoslavica* 56 (1995): 23-8.
- Palmer, A., *Monk and Mason on the Tigris Frontier* (Cambridge, 1990).
- Pourshariati, P., 'Local histories of Khurasan and the pattern of Arab settlement', *Studia Iranica* 27 (1998): 41-81.
- Pringle, D., *The Defence of Byzantine Africa from Justinian to the Arab Conquest*, British Archaeological Reports, International Series 99 (Oxford,

- 1981).
- Pryor, J. H., 'From Dromon to Galea: Mediterranean bireme galleys AD 500–1300', in *The Age of the Galley: Mediterranean Oared Vessels since Pre-classical Times*, ed. R. Gardiner (London, 1995), pp. 101–16.
- Pryor, J. H. and E. M. Jeffreys, *The Age of the Dromon: The Byzantine navy ca. 500–1204* (Leiden, 2006).
- Reinink, G. J., 'Ps.-Methodius: a concept of history in response to the rise of Islam', in *The Byzantine and Early Islamic Near East, I. Problems in the Literary Source Material*, ed. A. Cameron and L. I. Conrad (Papers of the First Workshop on Late Antiquity and Early Islam) (Princeton, NJ, 1992), pp. 149–87.
- Retsö, J., *The Arabs in Antiquity: Their History from the Assyrians to the Umayyads* (London, 2003).
- Ritner, R. E., 'Egypt under Roman rule: the legacy of ancient Egypt', in *Cambridge History of Egypt*, vol. i: *Islamic Egypt, 640–1517*, ed. C. Petry (Cambridge, 1998), pp. 1–33.
- Robinson, C. F., *Empire and Elites after the Muslim Conquest: The Transformation of Northern Mesopotamia* (Cambridge, 2000).
- *Islamic Historiography* (Cambridge, 2003).
- 'The conquest of Khuzistan: a historiographical reassessment', *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 67 (2004): 14–39.
- Rodziewicz, M., 'Transformation of ancient Alexandria into a medieval city', in *Colloque international d'archéologie islamique*, ed. R.-P. Gayraud (Cairo, 1998), pp. 368–86.
- Rubin, U., *The Eye of the Beholder: The Life of Muhammad as viewed by early Muslims: a textual analysis* (Princeton, NJ, 1995).
- Rubin, Z., 'The Sasanian monarchy', in *Cambridge Ancient History*, vol. xiv: *Late Antiquity: Empire and Successors, AD 425–600*, ed. A. Cameron, B. Ward-Perkins and M. Whitby (Cambridge, 2000), pp. 638–61.
- Schick, R., *The Christian Communities of Palestine from Byzantine to Islamic Rule: A historical and archaeological study* (Princeton, NJ, 1995).
- Shaked, S., *From Zoroastrian Iran to Islam: Studies in religious history and inter-cultural contacts* (Aldershot, 1995).
- Shoufani, E., *Al-Riddah and the Muslim Conquest of Arabia* (Toronto, 1973).
- Sjöström, I., *Tripolitania in Transition: Late Roman to Islamic Settlement: With a catalogue of sites* (Aldershot, 1993).
- Stratos, A. N., 'The naval engagement at Phoenix', in *Charanis studies: essays in honor of Peter Charanis*, ed. A. E. Laiou-Thomadakis (New Brunswick, 1980), pp. 229–47.

- Taha, A. D., *The Muslim Conquest and Settlement of North Africa and Spain* (London, 1989).
- Talbot Rice, D., 'The Oxford excavations at Hira, 1931', *Antiquity* 6.23 (1932): 276-91.
- 'The Oxford excavations at Hira', *Ars Islamica* 1 (1934): 51-74.
- Von Grunebaum, G. E., 'The nature of Arab unity before Islam', *Arabica* 10 (1963): 5-23.
- Walmsley, A., 'Production, exchange and regional trade in the Islamic east Mediterranean: old structures, new system?', in *The Long Eighth Century. Production, Distribution and Demand*, ed. I. L. Hansen and C. J. Wickham (Leiden, 2000), pp. 265-343.
- Watt, W. M., *Muhammad at Mecca* (Oxford, 1953).
- *Muhammad at Medina* (Oxford, 1956).
- *Muhammad, Prophet and Statesman* (Oxford, 1961).
- Wellhausen, J., *The Arab Kingdom and Its Fall*, trans. M. G. Weir (Calcutta, 1927).
- Wickham, C. J., *Framing the Early Middle Ages: Europe and the Mediterranean, c. 400-c. 800* (Oxford, 2005).
- Wilken, R. L., *The Land Called Holy: Palestine in Christian History and Thought* (New Haven, CT, 1992).
- Wilkinson, J., *Jerusalem Pilgrims before the Crusades* (rev. edn, Warminster, 2002).
- Wink, A., *Al-Hind: The Making of the Indo-Islamic World*, vol. 1: *Early Medieval India and the Expansion of Islam, 7th-11th Centuries* (Leiden, 1990).
- Wood, I., *The Merovingian Kingdoms 450-751* (London, 1994).
- Yakubovich, I., 'Mugh I revisited', *Studia Iranica* 31 (2002): 213-53.
- Zakeri, M., *Sāsānid Soldiers in Early Muslim Society. The origins of 'Ayyārān and Futurwa* (Wiesbaden, 1995).

In addition the reader should refer to the two editions of the *Encyclopaedia of Islam*. The first edition, 4 vols. (Leiden, 1913-42), is still useful but many of the articles are now outdated. The second edition, 12 vols. (Leiden, 1954-2004), is now complete. It is also accessible on CD-ROM. A third edition is planned. Many of the articles are of great scholarly value and the *Encyclopaedia* should always be used to supplement other reading. Another important reference tool is the *Encyclopaedia Iranica*, ed. E. Yarshater (London, 1985-), which contains descriptive articles and is still incomplete. For further bibliography, readers should use *Index Islamicus: A bibliography of books, articles and reviews of Islam and the Muslim World from 1906* (published 1958 onwards and available on CD-ROM).

المؤلف فى سطور :

هيو كينيدى

- درس اللغة العربية فى مركز الشرق الأوسط للدراسات العربية ، قبل العمل مدرساً للعربية ، والفارسية والتاريخ فى كمبردج .
- منذ سنة ١٩٧٢م يقوم بالتدريس فى قسم تاريخ العصور الوسطى بجامعة سانت أندروز .
- تم انتخابه زميلاً للجمعية الملكية فى إدينبرج سنة ٢٠٠٠م .

المترجم فى سطور :

قاسم عبده قاسم

- أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الزقازيق .
- له عدة مؤلفات فى تاريخ الممالك ، وتاريخ الحروب الصليبية .
- قام بترجمة عدد من الكتب فى تاريخ العصور الوسطى بفروعها المختلفة .
- حصل على جائزة الدولة التشجيعية ووسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى سنة ١٩٨٣ م ، وحصل على جائزة الدولة للتفوق سنة ٢٠٠٠ م .
- عضو فى عدد من الجمعيات والاتحادات العلمية المتخصصة فى التاريخ .

المصحح اللغوى : خالد منصور

الإشراف الفنى : حسن كامل